



30.3.2016

ليون تولستوي
الأعمال الأدبية الكاملة

٥

الحرب والسلام

٢

ترجمة: د. سامي الدروبي

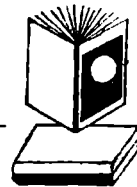
ليون تولستوي
الأعمال الأدبية الكاملة
٥

الحرب والسلام
٢ -

ترجمة
د. سامي الدروبي

منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي

دمشق - ١٩٨٠



اعمال تولستوي الادبية الكاملة _____

الجزء الاول

الفصل الأول

في مطلع سنة ١٨٠٦ ، عاد نيقولا روستوف في اجازة • وكان دينيسوف ذاهبا كذلك الى اهله في فورنيجي ^(١) ، فأقنعه روستوف بأن يصحبه الى موسكو وان ينزل ضيفا على اهله • وقبل الوصول الى موسكو بمحطتين ، التقى دينيسون برفيق له ، فشرب معه ثلاث زجاجات ففط في نوم عيق طول الطريق متهاككا داخل الزلاجة لا يوقظه شيء ، رغم الاخاديد التي تملأ الطريق •

وكان ينفذ صبر روستوف مزيذا من النفاد كلما تقدمت العربة مزيذا من التقدم فاقتربت من هدفها مزيذا من الاقتراب • « أنصل بعد قليل ، أوه ! شوارع أخرى ! دكاكين أخرى ! مخازن أخرى ! مصاييح ! عربات ! شيء لا يطاق ! » كذلك كان يقول لنفسه حين دخلوا موسكو بعد ان حصلوا على تأشيرة السماح بالدخول عند الحاجز المقام لهذا الغرض •

صرخ روستوف مناديا دينيسوف وهو يدفع كل جسمه بغريزته الى الامام كأنه يأمل ان يعجل سرعة الزلاجة :

(١) مدينة واقليم على نهر الدون الاعلى جنوب موسكو .

— دينيسوف ، وصلنا !

ولكن دينيسوف لم يحرك ساكنا .

وصاح روستوف :

— هذا مفرق الطرق الذي يربط فيه زاخار وزلاجه عادة ... آ ...
ها هو ذا زاخار نفسه ، وها هو ذا حصانه نفسه لم يتغير ... وها هي
ذي الدكان التي تشتري منها فطائر ... هلا اسرعنا مزيدا من السرعة!
مزيدا من السرعة ! ...

سأله الحوذي :

— عند أي منزل يجب ان أقف لك ؟

— المنزل الكبير ، في اخر الشارع ... هل ترى ؟ هذا منزلنا ...

وصاح ينادي دينيسوف :

— دينيسوف ، دينيسوف ! وصلنا !

فرفع دينيسوف رأسه ، وتنحج ، ولكنه لم يقل كلمة واحدة .

قال روستوف خادمه الجالس على دريزين الزلاجة :

— دمتري ، هذا النور الذي نراه ، اليس في منزلنا ؟

— هو في منزلنا يا سيدي ، حتى انه في مكتب أيبك .

— اذن لم يناموا بعد . ماذا ظن ؟ ...

وأردف يأمره وهو يملس شازيهه النابتين :

— لاتنسى خاصة ان تفض سترتي المجرية فورا .

وصاح يهيب بالحوذي قائلا :

— مزيدا من السرعة ! مزيدا من السرعة !

وقال ينادي دينيسوف الذي عاد يهزهز رأسه :

— هلم يا فاسيا ! هلا صحوت اخيرا !

والتفت الى الحوذي يصيح مستحثا اياه على مزيد من الاسراع مع انه لاتفصله الان عن منزله الى ثلاثة منازل :

— مزيدا من الاسراع ، مزيدا من الاسراع ! لسوف أعطيك ثلاث روبلات بقشيشا اذا انت اسرعت مزيدا من الاسراع • يارب !

كان يخيل اليه ان الخيل لاتتقدم •

وانحرفت الزلاجة اخيرا الى اليمين ، فصارت عند مدخل المنزل • تعرف روستوف تخوم الرصيف ، ودرجات المدخل ، والافريز وجبسه المتكسر قرونه • ووئب من الزلاجة وهي ماتزال تسير ، وركض الى الدهليز فوجده خاليا • كان المنزل بسكونه وجموده وفضاظته لا يبدو مكترثا بوصول القادم • قال روستوف محدثا نفسه وهو يتوقف منقبض الصدر : « آه ... رباه ! ... اتكون مصيبة قد حلت » • ولكنه سرعان ما استأنف ركضه في الدهليز ، واخذ يصعد درجات السلم اربعا اربعا ، وهي درجات معوجة مألوفة له • ان باب الدخول ماتزال له تلك القبضة نفسها التي طالما اثارت وساختها حنق الكوتتيسة والتي ماتزال تتحرك سهلة لينة • وان شمعة تشتعل في حجرة المدخل • وان ميخائيل العجوز نائم على صندوق • وان يروكوي الخادم التابع ، وهو عملاق ضخّم يستطيع ان يرفع عربة من مؤخرتها ، يضفر حاشية لحذاءين من نسيج •

فلما سمع الباب يفتح التفت ، فاذا هيئته التي تكون في العادة ساكنة نعسانة ، تعبر الان عن شدة فرح ؛ واذا هو يصيح وقد تعرف مولاه الشاب :

— يا اولياء الجنة ! هو الكونت الشاب ! أهذا ممكن ؟ آه ...
ياعزيزي !

وهذا بروكوف يرتعش انفعالا واهتياجا ، ويهرع الى باب الصالون يريد ان يذيع النبأ ولاشك ، ولكنه عدل عن رأيه ، وعاد ادراجه ، واسند راسه الى كتف مولاه الشاب .

سأله روستوف وهو يخلص ذراعه :

— هل الجميع بخير ؟

— الحمد لله . كل شيء بخير ! لقد قاموا عن العشاء منذ قليل . دعني أنظر اليك يا صاحب السعادة .

— هل صحيح أن كل شيء بخير ؟

— الحمد لله . الحمد لله !

نسي روستوف صاحبه دينيسوف نسيانا تاما من فرط استعجاله رؤية أهله ، فغضا عنه فروته ، ودخل الى الصالة المعتمة الكبيرة سائرا على رءوس الاصابع . ان كل شيء في هذه الصالة مايزال على حاله :

طاولات القمار نفسها، الثريا نفسها في غطاءها نفسه. ولكنهم كانوا قد لمحوه ، فهذا احد يسقط عليه سقوط الصاعقة من باب جانبي ، قبل ان يصل الى الصالون الصغير ، فيطوق عنقه بذراعيه ويفرقه بالقبل . وهذا ثان فثالث ينبعان من أبواب أخرى ، فتجدد القبل وتتجدد الصيحات ،

وتجدد دموع الفرح • فكان روستوف لا يستطيع ان يميز من هو بابا ،
ومن هي ناتاشا ، ومن هو بيتيا • كانوا جميعا يصرخون ويتكلمون
ويعاقبونه ويقبلونه في آن واحد • ولكنه ادرك غياب امه •

— ما كنت اتوقع وصولك ، ولا خطر لي على بال •• نيقولا ، صديقي !
— هوذا طفلنا ! ••• هوذا عزيزنا الصغير ! لشد ما تبدل ! ••• هاتوا
شموعا ! هاتوا شايًا ! اسرعوا !

— ولكن هلا قبلتني !

— وانا يا قلبي ، انا ايضا •

كانت صونيا ، وناتاشا ، وبيتيا ، وانا ميخائيلوفنا ^(١) ، وفيرا ،
والكونت الشيخ ، يشدونهم الى أحضانهم بأذرعهم • وكان الخدم
والخادومات يحدقون بالغرفة من جميع الجهات ويهتفون • وكانت ناتاشا
تتشبث بتلايب رداءه « الدولمان » ، وتلتهمه بقبلاتها التهاما ، ثم
تركه فجأة وتأخذ تشب منقلبه بجسمها انقلابا تاما ، وتطلق صيحات
حادة •

كانت النظرات كلها تفيض حنانا ، وكانت الاعين كلها مبتلة بالدموع
وكانت الشفاه كلها شرهة الى القبل •

وكانت صوفيا التي احمر لونها حتى صار كالارجوان ، وفاض
محياها سعادة واشرق فرحا ، تشبث هي ايضا بذراعه تلتمس نظرة •
انها الان قد بلغت السادسة عشرة من عمرها ، وانها جميلة جدا ، ولاسيما
في هذه اللحظة من الانتعاش السعيد والحماسة الحارة • كانت تتأمل

(١) هي الاميرة دروبتسكوي تقيم عند ال روستوف •

حاسبة انقاسها ، مبتسمة تبسما فائضا . فأولاهما نظرة فيها انفعال ، ولكنه كان ينتظر احدا ويبحث عن احد . ان الكوتيسية لما تظهر بعد . وسمعت اخيرا خطوات بقرب الباب ، وكانت هذه الخطوات تبلغ من السرعة انها لا يعقل ان تكون خطوات امه .

ومع ذلك كانت هي امه في زينة جديدة لم يعهدا فيها . تنحى الجميع ، وهرع روستوف الى لقاء امه . فهوت الكوتيسية على صدر ابنها ، واخذت تنتحب . وكانت كأنها لاتستطيع ان ترفع راسها فهي تسنده الى ازرار « دولمانه » الباردة .

وكان دينيسوف قد دخل دون أن ينتبه اليه أحد فهو مستمر في مكانه ، يتأمل هذا المشهد مدلكا عينيه .

فلما وقع عليه بصر الكونت سائلا مستفسرا ، قال يعرف بنفسه أخيرا :

— فاسلى دينيسوف ، صديق ابنكم .

فقال الكونت وهو يفتح ذراعيه لدينيسوف ويعانقه مقبلا :

— آآآ تماما . حدثنا عنك نيقولا كثيرا في رسائله . . . أهلا وسهلا . ناتاشا ، فيرا ، هذا هو ، هذا دينيسوف .

فالتفتت تلك الوجوه التي تفيض سعادة وحماسة ، التفتت هي نفسها الى دينيسوف المشعث الهدام ، وتحلقت حوله ، واحدقت به .

ولم تستطع ناتاشا ان تسيطر على نفسها وان تتحكم بسلوكها ، فاذا هي تثب اليه وترتمي على عنقه ، وتصرخ قائلة له :

— دينيسوف العزيز ، دينيسوف العزيز !

فشعر الجميع بحرج • واحمر دينيسوف هو أيضا ، ثم ابتسم
وتناول يد الفتاة يقبلها •

وقادوه الى الغرفة التي خُص بها ، ثم اجتمعت الأسرة كلها في
الصااون الصغير محيطة بنيقولا •

لم ترخ الكوتيسه يد ابنها ، وظلت تغمرها بالقبل ، وجلست الى
جانبه • فكان الآخرون المحشدون حولهما ، يرصدون كل حركة من
حركات نيقولا ، وكل نظرة من نظراته ، وكل كلمة من كلماته ،
وكانت أبصارهم التي تزخر بالنشوة والوجد ثابتة عليه لا تريم عنه
لحظة • وكان أخوه وأخواته يتنازعون الأمكنة التي تكون أقرب اليه ،
ويسارعون الى اعطائه الشاي أو اعطائه منديلا ، أو اعطائه غليونه
متسابقين متشاجرين •

ان روستوف سعيدا جدا بهذا الحب الذي يغمرونه به ، ولكن
الدقيقة الاولى من اجتماعهم كانت قد بلغت من الروعة والفتنة أن
السعادة التي يذوقها الآن تبدو له فقيرة ، فكان في كل لحظة من اللحظات
ينتظر شيئا زيادة •

وفي صباح الغد استراح المسافرين من عنا السفر ، اذ ناما حتى
الساعة العاشرة •

وفي الغرفة التي تسبق غرفتهما ، كانت تتكدس أسياف وجعب
أسياف ، وحقائب مفتوحة ، وجزمات ملطخة بالالواح • وكانت جزماتا،
ملمعتان بالشمع ، وليس لهما مهمازان ، قد أسندتا الى الجدار • وكان
خدم يحملون الى الشاين طشوتا وماء ساخنا لحلق الذقن ، ويجيئونهما

بملابسهم بعد أن نظفت بانثرشاة • وكانت الغرفة تفوح برائحة
الرجل والتبغ •

صاح صوت فاسيلي دينيسوف الأجنس الأبح ، صاح ينادي :

— هيه ! جريشكا ! أعطني غليونني •

وأضاف يخاطب روستوف :

— روستوف ! روستوف ! انهض ! قم !

ففرق روستوف جفنيه الملتصقين من النوم ، وانتزع رأسه الذي
انثر عليه الهشيم ، انتزعه من المخدة الساخنة انتزاعا ، وقال يسأل :

أنهض ؟ أقوم ؟ هل تأخرنا ؟

فأجابه صوت ناتاشا :

— طبعاً ! أزلت الساعة العاشرة •

وسمع في الغرفة المجاورة حفيف فساتين مصمغة ، وسُمعت
همسات ، وضحكات كرنين النخمة ، بينما كان باب الغرفة مشقوقا يلمح
المرء من شقه شيئاً أزرق وأشرطة وشعرا أسود ووجوها جذلة فرحة •
ان ناتاشا قد جاءت مع صوفيا وبيتيا لترى هل قام أخوها •

عادت ناتاشا تقول بقرب الباب :

— قم يا نيقولا ! قم ! انهض !

— حالاً !

وفي أثناء ذلك كان بيتيا ، اذ بصر بالسيوف ، قد أمسك أحدها ،
فكان يشعر تلك الحماسة الساذجة التي تسيطر على الصبية الصغار حين

يرون عُدَّةَ الحرب التي يستعملها الكبار • وبدون أن يراعي المواصفات الاجتماعية التي لا تبيح لأخواته أبداً أن يرين رجلاً غير مرتدين ثيابهن، فتح الباب على مصراعيه ، وصرخ يسأل :

— أهذا سيفك ؟

فوثبت البنات الى وراء ، وشد دينيسوف ، وأسرع يخفي ساقيه الشعراوين تحت الغطاء وهو يلقي على رفيقه نظرة مكمودة مكروبة • وما ان دخل بيتيا الغرفة حتى أغلق الباب ، وأخذت تسمع من ورائه انطلاق قهقهات •

قال صوت ناتاشا :

— نيقولا ! تعال بثوب المنزل !

وعاد بيتيا يسأل دينيسوف ، الذي كان شارباه الاسودان الضخمان يفرضان على بيتيا الاحترام والتهيب :

— أهذا سيفك ؟

أسرع روستوف ينتعل ، ويلبس ثوب المنزل ، ويخرج من الغرفة • فكانت ناتاشا أثناء ذلك قد احتذت إحدى جزمته وهي الآن بسبيل احتذاء الأخرى ، وهما جزمتان لهما مهمازان • وكانت صوفيا تدور على نفسها ، وتتهى لان توسع ثوبها وتجلس • كاتتا كلتاهما تلبسان فستانين زاهيين جديدين كل الجدة متشابهين كل التشابه • وكاتتا كلتاهما متوردتين ضاحكتين • فلما خرج روستوف من الغرفة ولت صوفيا هاربة • أما ناتاشا فقد جرت أخاها الى الصالون الصغير ، حيث أخذت يثرثران • لم يكن وقتها قد اتسع قبل الآن لتطرح آلاف الاسئلة

الصغيرة التي لا تهم أحدا غيرها ، ولا يمكن أن يكون لها شأن الا عندهما . وكانت ناتاشا تنطق ضاحكة لكل كلمة يقولها ، أو لكل كلمة تقولها ، لا لأن ما يقولانه يشتمل على شيء يثير الضحك ، بل لأنها كانت فرحة وكانت لا تستطيع أن تكظم فرحها هذا الذي كان يعبر عن نفسه بالضحك .

وكانت تقول في كل لحظة :

— آه ... ما أحسن هذا ! ما اروع !

وكان رستوف يحس دفق هذا الحب الحار والحنان الرقيق لأول مرة منذ ثمانية عشر شهراً، فكانت تفتح في قلبه وفي وجهه تلك الابتسامة الطفولية التي هجرته منذ أن غادر هذا المنزل .

قالت ناتاشا :

— ها أنت ذا أصبحت رجلاً ! ما أسعدني بأن تكون أخي !

ومست شاربييه ، وتابعت تقول :

— لشد ما أحب أن أن أعرفكم ، معشر الرجال ! أأنتم مثلنا ؟ لا ؟

قال روستوف يسأل أخته ناتاشا :

— لماذا فرت صونيا ؟

— آ ... تلك حكاية طويلة ! قل لي بالمناسبة : أنتوي أن تظل

تخاطبها بصيغة المفرد أم تريد أن تكلمها بصيغة الجمع ؟

— سأترك لساني ينطلق على سجيته .

— خاطبها بصيغة الجمع ، أرجوك . وسأشرح لك السبب من

بعد • بل سأشرحه لك فوراً • أنت تعلم أن صونيا صديقتي ، وانني مستعدة لان أحرق ذراعي من أجلها • انظر •

قالت ذلك وشمزت كمها المصنوع من قماش شفاف ، وأرته في ذراعها الطويلة المشوقة علامة حمراء يقرب الكتف أعلى من الكوع كثيرا (في موضع تغطيه زينة حفلات الرقص) ، وأردفت تقول :

— أنا التي حرقت هذا الموضع من ذراعي لأبرهن لها على صداقتي •
حيث على النار مسطرة من معدن ، وجعلت طرف المسطرة على ذراعي •

كان روستوف ، أثناء جلوسه في هذا الصالون الصغير الذي كان له في الماضي قاعة تدريس ، على كنبه تزيينها وسائد صغيرة ، وأثناء شعوره بالنظرة الملتبها حماسة تلقيها عليه ناتاشا ، كان يفرق من جديد في هذا العالم المألوف ، الطفولي ، الذي ليس له معنى الا عنده ، ولكنه كان قد هيا له أقوى مسراته وأعظم مباهجه • ولم يحس أن حرق أخته ذراعها بالمسطرة برهاناً على الصداقة أمر سخيف تافه ، بل هو فهم هذه المغامرة وأدرك قيمتها ، وسأل أخته يقول :

— ماذا ؟ لاشيء إلا هذا ؟

— آه ... ليتك تعلم مدى ما بيننا من صداقة • صحيح أن حكاية المسطرة هذه ليس لها شأن يستحق الذكر • ولكننا صديقتان الى الابد •• هي حين تحب أحدا فانما تحبه الى الابد • أنا من جهتي لا أفهم هذا ••• أنا من جهتي أنسى فوراً •

— ماذا أيضا ؟

— هي تحبنا أنا وأنت هذا النوع من الحب •

واحمرت ناتاشا فجأة ، وأردفت تقول :

— هل تذكر ؟ قبل سفرك ؟... انها تسألك الآن أن تنسى كل شيء... قالت لي : « لسوف أحبه الى الابد • أما هو فليبق حرا ! »
شيء رائع ! شيء نبيل ! أليس هذا نبلا عظيما ؟ ألا ترى هذا الرأي ؟
كذلك سألت ناتاشا أخاها ملحة ، وكانت تترتها الزاخرة بالجد والانفعال تدل على أن ما قالته قد سبق أن قالته بإكية •

فمكر روستوف لحظة ثم قال :

— انني لا أنكث عن وعدي • ثم ان صوفيا هذه فتنة تبلغ من الروعة أن المرء لابد أن يكون غيبا غباء شديدا اذا هو رفض السعادة بها!
هتفت ناتاشا تقول :

— لا ، لا • لقد سبق أن تحدثنا في هذا الامر • كنا نعلم أنك لن تقول غير هذا الكلام • ولكن لا يجب ذلك ، لانك تعد نفسك كالمربط بكلامك المتقيد بوعدك ، فكأنها قالت ما قالت عامدة ، وكأنك تتزوجها قايما بالواجب ، وليس هو المطلوب •

أحس روستوف بصحة هذا التفكير وسلامة هذا الاستدلال •
كان جمال صوفيا قد أدهشه في مساء الامس ، حتى أنها ظهرت له في هذا الصباح أجمل وأروع ، رغم أنه لم يرها الا لحما سريعا • لاشك أن هذه البنية تهواه هوى شديدا ، ولاشك أنها مولهبة بحبه تولها (انه لا يخامر في هذا أي ريب لحظة واحدة) ، فلماذا لا يحبها هو أيضا ؟ بل لماذا لا يتزوجها ؟ ولكن ما أكثر المسرات وما أكثر المشاغل التي تنتظره ! « نعم ، انها على حق • فالخير أن أبقى حرا غير مقيد • »

بذلك حدث روستوف نفسه : ثم قال لأخته :

— طيب • كما تشائين • سنتحدث في هذا الامر من بعد • آه •
ما أسعدني بأن أراك ثانية ! •• ولكن قل لي : ألم تخوني عهدك
لبوريس على الاقل ؟

فصاحت ناتاشا تقول ضاحكة :

— ما هذه السخافات ؟ أنني لا أفكر لا فيه ولا في أحد غيره •

— غير معقول • ففي أي شيء تفكرين اذن ؟

قالت ناتاشا مشرقة المحيا :

— أنا ؟ هل رأيت دوبور ؟^(١)

— لا •

— دوبور الشهير ، الراقص ، ألم تره في يوم من الايام ؟ اذن لم

تفهم • انظر •

قالت ناتاشا ذلك ، ودوكرت ذراعيها ، وأمسكت تنورتها كما تمسك
الراقصات تنوراتهن ، وابتعدت راكضة ، ثم التفت ، ووثبت وثبة
تتصالب فيها الساقان في رقص الباليه ، وقرعت الارض بقدميها ، وسارت
بضع خطوات منتصبه على رؤوس الاصابع ، وقالت تسأل أخاها :

هل ترى كيف أحسن الانتصاب ؟

والحق أنها ألفت هذا السؤال وقد أصبحت لا تقدر على الانتصاب

زمننا أطول •

(١) خطأ في تحديد الزمن يرتكبه المؤلف ، فان الراقص الفرنسي دوبور ،
منافس فستريس ، لم يصل الى روسيا الا سنة ١٨٠٨ ، فنال
فيها خلال عدة سنين نجاحا كبيرا وحقق انتصارات عظيمة .

واردفت تقول :

— ذلك ما سأفعله • لن أتزوج أبدا • سأكون راقصة • ولكن لا
تحدث بهذا أحدا •

فانفجر روستوف يضحك ضحكا فيه من الصراحة أن دينيسون
الذي سمعه وهو في غرفته ، قد شعر من ذلك بغيرة وحسد ، وأن ناتاشا
لم تملك الا أن تجاريه في هذا الضحك •

وكانت لا تفتأ تكرر سؤالها :

— حسن ، أليس كذلك ؟

نعم ، حسن ، ولكنك في هذه الحالة لن تستطيعي أن تتزوجي
بوريس •

فاحمر وجه ناتاشا ، وقالت :

— أكرر لك أنني لا أريد أن أتزوج ! وسوف أقول له هذا القول
نفسه حين ألقاه •

قال روستوف :

— اسمعوا هذا الكلام !

قالت ناتاشا :

— ذلك كله سخافات على كل حال • قل لي : أهو لطيف ،
صاحبك دينيسوف ؟
— لطيف جدا •

— طيب • الى اللقاء • هلم فارتد ثيابك • أليس رهيبا جدا ،
دينيسوف ؟

- رهيب ؟ فاسكا رهيب ؟ بل هو فتى أخاذ رائع !
 — تلقبه فاسكا ؟ ... شيء مضحك ... اذن هو لطيف جدا .
 — اطفأ لا لطف بعده !
 — هيئا أسرع . سنشرب الشاي معا .

واجتازت ناتاشا الغرفة على رءوس أصابع القدمين كما تفعل الراقصات ، ولكن ابتسامتها كانت من الابتسامات التي لا تجيدها الا الصبايا الصغيرات في الخامسة عشرة من عمرهن حين تغمر قلوبهن السعادة .

وحين دخل روستوف فرأى صونيا احمر وجهه واحتار كيف يجب أن يكون سلوكه . انها بالامس ، عند أول دفقات العواطف التي تجرّها عودة الغائب قد تعانقا وقبل كل منهما الآخر . أما الان فانهما يدركان كلاهما انها أصبحت لا يستطيعان أن يفعلوا ذلك . وأحسن نيقولا بنظرات أمه وأخواته متجهة اليه ثابتة عليه : لقد كانوا جميعا يتساءلون كيف عسى أن يكون سلوكه في معاملة صونيا . وهذا هو يقبل يد صونيا ويخاطبها بصيغة الجمع . ولكن أعينهما حين تلاقت كانت تتخاطب بصيغة المفرد ، وتتبادل قبلات مفعمة بالعاطفة . وكانت نظرة صونيا تستغفره عن أنها تجرأت بواسطة ناتاشا فذكرته بوعده ، وتشكر له أنه ما يزال يحبها في الوقت نفسه . أما نظرة نيقولا فكانت تشكر لها أنها ردت اليه حريته ، وتتمهما أنه سيظل يحبها في صورة أوفي أخرى ، لانها من أولئك الفتيات اللواتي لا يملك المرء الا أن يحبهن .

قالت فيرا مختارة لحظة صمت فيها الجميع :

— ما أغرب هذا الامر ! ان صونيا ونيقولا يتخاطبان الان بصيغة الجمع ، فكأنهما غريان •

لقد كانت ملاحظتها سليمة على عاداتها في ابداء الملاحظات • ولكنها على عاداتها أيضا قد جعلت الجميع في حرج من أمرهم ، لا صونيا ونيقولا وفاتاشا وحدهم ، بل الكونتيسة أيضا التي كانت تخشى من هذا الحب العابر أن يفوت على ابنها زواجا مرموقا باهرا • واحمرت هي أيضا كما تحمر فتاة •

وقد دهش روستوف حين رأى دينيسون يدخل مرتديا بزة رسمية جديدة متدهنا متعطرا أنيقا كأناقته في المعركة • وازداد دهشة حين رآه يسرع الى السيدات ملاطفا متوددا •

الفضل الثاني

استقبل أهل نيقولا روستوف ابنهم كما يستقبل ابن عزيز ، وكما يستقبل بطل من الابطال ، واستقبله أقرباؤه الآخرون كما يستقبل شاب لطيف مهذب ؛ واستقبله أصدقاء الأسرة — أي موسكو كلها — كما يستقبل ضابط جميل من سلاح الفرسان ، وراقص مبدع ممتاز ، وشاب من أحسن شباب العاصمة زوجا .

وكان الكونت لا يعوزه المال حينذاك ، وذلك بفضل تجديده رهن أملاكه . لهذا استطاع نيقولا أن يقتني فرسا جوادا ، وأن يشتري سروالين من سراويل الفرسان على أحدث طراز ، سروالين لما يلبس أحد بموسكو مثلهما بعد ، وأن يشتري كذلك جزميتين هما آخر صيحة من صيحات الموضة ، طرفاهما مديان جدا ، ولهما مهمازان صغيران من فضة ، فكان يعيش حياة فيها كثير من المتعة والفرح والمرح . كان روستوف بعد تلك الغيبة الطويلة يريد أن يتلاءم من جديد مع الظروف السابقة التي كانت تجري فيها حياته . وكان يحس أنه أكثر ذكورة ، وأكثر ايغالا في سن الرشد . وكانت مغامراته الغابرة كحزنه من رسوبه في امتحان التعليم الديني ، واقتراضه مالا من الحوذي جافريل ، وقبلاته المختلصة لصونيا — كان هذا كله يعود الى ذاكرته في صورة أعمال

صبيانية هو الان بعيد عنها ، جدا . انه الان ليوتنان في سلاح الفرسان ، وهو الان يحمل وسام القديس جورج على « دولمانه » المزدان بشرائط من فضة ، ويسير بحصانه الى سباق الخيل في صحبة هواة مشهورين هم رجال كبار السن ثقال الوزن ولقد تعرف الى سيدة من السيدات كانت تقيم في الشارع الكبير ، وكان يزورها في الغسق . وأصبح يقود رقصة المازوركا في حفلات الرقص التي تقام عند آل آرخاروف ، ويتحدث في شئون الحرب مع المارشال كامنسكي ، ويختلف الى « النادي الانجليزي »^(١) ، ويخاطب بصيغة المفرد كولونيا في نحو الاربعين من عمره عرفه به دينيسوف .

ولم يبق اعجابه بالامبراطور ، الذي أصبح لا يتاح له أن يراه ، ذلك الاعجاب الشديد كله . ومع ذلك كان اذا تكلم عنه (وهذا كان يتفق له كثيرا) يحرص على أن يفهم السامع أنه لا يقول كل شيء ، وأن في عواطفه جانبا من سر لا يستطيع أن يدركه العاديون من البشر . ومن قرارة قلبه كان يشارك في الوله العام الذي كانت تحمله موسكو كلها للاكندر الاول حينذاك ، فكان الناس يخلعون عليه لقب « الملاك المجسّد » .

ان هذه الاقامة القصيرة بموسكو قد أبعدت نيقولا عن صونيا أكثر مما قربتها منه . صحيح ان صونيا فتاة جميلة جدا ، لطيفة جدا ، وجميع آل نيقولا يرى رؤية واضحة كل الوضوح ما يحمله قلبها له من حب ، ولكنه كان في تلك السن التي يظن فيها المرء أن هناك أشياء

(١) ناد للطبقة النبيلة العليا بموسكو ، انشئ سنة ١٧٧٠

كثيرة يجب عليه أن يعملها ، فليس يتسع وقته للاهتمام بأمر الزواج وما اليه ، وكان في تلك السن الذي يتهيب فيها الشاب أن يرتبط ويتقيد ، ويحب الحرية فوق كل شيء آخر . كان اذا فكر في صونيا قال لنفسه : « ايه ... ما هي بالفتاة الوحيدة في هذا العالم ، وسوف تعرفني الظروف بفتيات أخريات كثيرات . واذا اعترتني نزوة الزواج في يوم من الايام ، ففي الوقت دائما متسع للاهتمام بالحب . أما الآن ، ففي رأسي مشاغل أخرى ، وفي نفسي هموم أخرى . »

وكان عدا ذلك منذ أن أحس بأنه رجل ، يرى أن الدوران حول النساء شيء لا يتفق وعلو همتة وعظمة شأنه . ومع ذلك كان يرتاد حفلات الرقص ويشارك في السهرات ، غير انه يتظاهر أنه لا يرتاد تلك ولا يشارك في هذه الا على مضض . أما سباق الخيل ، و « النادي الانجليزي » والمحبون مع دينيسوف ، وغدواته « هناك » ، فذلك كله شأن آخر : انه في طبيعة كل رجل من سلاح الفرسان .

في بداية شهر اذار (مارس) انصرف الكونت الشيخ روستوف انصرافا تاما الى الاعداد للوليمة التي يقيمها « النادي الانجليزي » تكريما للامير باجراتيون ، وشغل بهذا العمل شغلا أنساه كل ما عداه . انه عضو في النادي وفي اللجنة الادارية منذ انشاء النادي ؛ وانما عهد اليه بهذه المهمة التي لا يعهد بها الا لمن كان أهلا لها ، بسبب ما أوتى من مواهب في الاعداد للامآدب لا يضارعه فيها أحد ، وبسبب كرمه المعهود فيه المشهود له به ، فما أقل أولئك الذين يدفعون من جيوبهم اذا مست الحاجة ، ويفعلون ذلك راضين مغتبطين مثله . كان الكونت يذهب

ويجيء في الصلاة الكبرى من منزله بثوب المنزل ، يصدر الى أمين صندوق النادي والى تيوكيتست الشهير ، رئيس الطهارة ، وأوامره عن لحم العجل ، والسماك ، والهليون ، والخيار والفراولة • فكان أمين الصندوق ورئيس الطهارة يصغيان اليه مسرورين أعظم السرور ، لعلهما بأنهما يستطيعان معه أكثر مما يستطيعان مع أي شخص آخر أن يجنيا أرباحا كثيرة من المشتريات اللازمة لهذه الحفلة التي ستبلغ تكاليفها عدة آلاف من الروبلات •

— اتبه ! حذار أن تنسى اعراف الديك في حساء السلحفاة ، هه ؟

— والتبيلات ثلاث ، أليس كذلك ؟

ففكر الكونت لحظة ثم ردّ جازما :

— نعم ، لا يمكننا أن تفعل أقل من هذا • مثلا : مايونيز ، ••

فقاطعه المحاسب قائلا :

— وأسماك الحفش نأخذ كبارها قطعاً •

— نعم خذ كبارها • لا بد لنا من هذا ، ولسنا نعبأ بالسعر • آ ••

عزيري ••• كدت أنسى • نحن في حاجة أيضا الى طبق آخر لبداية الوجبة •••

ثم تابع كلامه وهو يمسك رأسه يديه :

— آه ••• رباه ••• والازهار ؟ ••• من ذا الذي سيأتيني

بالازهار ؟ •

وهتف ينادي الوكيل ؟ :

— ميتنكا ، يا ميتنكا !

فهرع اليه الوكيل مليا نداءه ، فقال له الكونت روستوف :

— اذهب ركضا الى منزلي بالحقول ، وقل لمكسيم ، الحداثقي ،
أن ينفذ الاوامر التالية : يحزم في صرر من لبّاد كل نباتات الاحواض
المغطاة بالزجاج ، ويأتيني منها بمائتي أسيص يوم الجمعة .

حتى اذا فرغ الكونت من اصدار هذا الامر وأوامر أخرى كثيرة ،
مضى يستريح عند كوتيسته العزيزة ، ولكنه فيما كان في طريقه الى
غرفة الكوتيسية ، تذكر أمرا من الامور التفاصيل ، فرجع أدراجه يذكر
به أمين الصندوق ورئيس الطهارة ، واستأنف حديثه معها ومحاورته
لهما . وسع في أثناء ذلك وقع اقدام خفيفة مع قرقة مهمازين ، ثم
اذا بالكونت الفتى يظهر نضر الهيئة متورد اللون يظلل شفتيه شاربان
ما كاد يبتان . ان الحياة الناعمة الرخوة بموسكو قد بلغت من تدليل
هذا النتى الجيل أن كل أثر من آثار التعب قد اختفى من محياه .

قال الشيخ وهو يتسم ابتسامة غامضة بعض الغموض :

— آ . . . صديقي . . . لقد أخذ رأسي يدور . دوار . . . تعال
أنجديني . انا في حاجة الى مغنين . وعندي اوركسترا ، ولكن ألا تعتقد
ان الاتيان بفجر سيكون أمرا مستحسنا مستحبا يرحب به المدعوون ؟
انكم معشر العسكريين تحبون هذا .

فأجاب الفتى وهو يتسم أيضا :

— اني لأعتقد حقا يا بابا أنك ترهق نفسك الآن بهوم أكثر من
هوم باجراتيون قبل معركة شو نجرابن .

قال الكونت وهو يصطنع :

— ضع نفسك في مكاني فترى هل الامر سهل !

والتفت الى رئيس الطهارة الذي كان يرقبهما كليهما وفي هيئة احترام ، ولكن في نظره مكر :

— أرايت الى الشبان يا تيوكتيست ؟ هذا يسخر منا ويتهمك علينا نحن الشيوخ المساكين .

— لا حيلة لنا يا صاحب السعادة . الشبان لا يطلبون الا أن يكون طبقهم شهيا مليئا بأطيب الطعام . أما كيف مليء الطبق بهذا الطعام الشهوي ، فأمر لا يهمهم كثيرا .

يفصلج الكونت الشيخ يقول :

— صحيح كل الصحة ! صحيح كل الصحة !

وأردف يقول لابنه وقد أمسكه بيديه بحركة فرحة :

— مادمت قد قبضت عليك ، فلن اتركك دون أن اطلب منك معونة تسرني . ثب° الى الزلاجة ذات الحصانين ، وامض عدوا سريعا الى بيزوخوف ، فقل له ان الكونت ايليا آندرئتش يرسلك اليه طالبا من أحواضك المغطاة بالزجاج بعض ثمار الفراولة والانااس . يستحيل علينا أن نجد هاتين الفاكهتين عند غيره . فاذا لم يكن هناك ، فاتجه بطلي هذا الى الاميرات . وقل للحوذي بعد فراغك من هذه المهمة عند بيزوخوف ، ان يجري بك الى رازجولياي — ان هيات الحوذي ، يعرف الطريق — واقبض على العجري ايليوشا ؟ مهما كلف الامر . هل تعرف

العجري ايلوشا ؟ انه ذلك الذي رقص بستره فارس عند الكونت
أورلوف • اقبض عليه ، وائتني به الى هنا •

سأله نيقولا ضاحكا :

— وهل يجب أن احضر مغنياته أيضا ؟

— هلاء سكت ! ...

وفي تلك اللحظة دخلت الى الصالة آنا ميخائيلوفنا بخطى صامته
وقد لاح في وجهها انشغال البال ، والههم ، مع ماعهد فيه دائما من ترصن
مسيحي • ما مرّ قبل ذلك يوم لم تقاجىء فيه الكونت لابسا ثوب المنزل ،
ولكن هذا كان لا يمنع الكونت من اظهار الخجل والتعير عن اعتذاره •
قالت وهي تخفض عينيها في حياء وخفر :

— لا قية لهذا يا صديقي الطيب • فأما الجري الى بيزوخوف فأنا
أتولاه وأقوم به • ان بطرس قد وصل منذ قليل ، ولا شك في أنه
سيضع جميع أحواض النباتات المغطاة بالزجاج تحت تصرفنا نفعل بها
ما نريد ونأخذ منها ما نشاء • وانما اعرض عليك أن أتولى هذا الامر
لاني كنت سأمضي اليه من تلقاء نفسي لحاجتي الى رؤيته • لقد بعث
الي رسالة وصلت من بوريس الذي ألحق بهيئة الاركان والحمد لله !
سر الكونت سرورا عظيما بما عرضته عليه آنا ميخائيلوفنا •
فسرعان ما أمر بأن تهيأ لها العربة الصغيرة •

— وقولي لبيزخوف اننا ننتظره • سوف أسجل اسمه في قائمة
المدعوين ... هل تصحبه زوجته ؟

فاذا بحزن عميق يرسم على قسما ت وجه آنا ميخائيلوفا ، ثم اذا
هي ترفع عينيها الى السماء •
قالت :

— آه يا صديقي ... انه شقي جدا ! اذا صدق ما يقال ، فالامر
رهيب • ما كان أغبانا حين كنا نظنه سعيدا ، فنغبت ب سعادته ! من
ذا الذي كان يمكن أن يصدق هذا ؟ انها لنفس جميلة طيبة ، نفس هذا
الفتى ييزوخوف ! انني ارثي لحاله ، واشفق عليه بكل قلبي ، وسوف
أحاول أن أحمل اليه كل ما أقدر عليه من عزاء وسلوى •

فسأل الاب والابن بصوت واحد :

— ما الذي حدث ؟

فأجابت آنا ميخائيلوفنا بلهجة السر :

— يقال ان دولوخوف ، ابن ماري ايفانوفنا ، قد لطخ شرفها تلطيخا
كاملا إن بطرس قد أخرج هذا الفتى من ضيق وانقذه من مأزق، ودعاه الى
منزله ببطرسبرج ، فانظر كيف كانت المكافأة ... وما ان وصلت الى
هنا حتى هرع هذا الفتى المغامر في اثرها •

كانت آنا ميخائيلوفنا تريد أن ترثي لحال بطرس ، ولكن كانت
نبرات صوتها ، وما ارتسم على شفيتها من ابتسامة هي نصف ابتسامة،
كان هذا كله كان يدل على أنها تعطف على دولوخوف الذي وصفته
بأنه مغامر • وختمت كلامها بقولها :

— ويثشاع أن بطرس يموت حزناً وأسى ••

— قولي له مع ذلك أن يأتي الى النادي ، فذلك سيسليه ويسري عنه . سوف تكون حفلتنا حفلة عملاقة لا شبيهه لها ...

وفي اليوم الثالث من شهر آذار (مارس) ، في نحو الساعة الثانية بعد الظهر ، كان أعضاء النادي المائتان والخمسون ، وخمسون مدعوا ، ينتظرون وصول ضيف الشرف ، الامير باجراتيون ، بطل حملة النساء ان نأ الهزيمة في اوسترلتس قد أذهل الناس في أول الامر وشدهم شدها شديدا . كان الروس قد بلغوا من اعتياد الانتصار انهم حين علموا بنأ الكارثة رفض بعضهم أن يصدق النأ ، وأخذ بعضهم يتساءل عن السبب الخارق الذي يمكن أن يعزى حدث غريب لا عهد بمثله من قبل . وكان كل عضو من أعضاء النادي حين وصلت الاخبار الاولى في شهر كانون الاول (ديسمبر) (والنادي هو ملتقى أرفع الناس مقاما واكثرهم اطلاعا) كان كمن آلى على نفسه أن لا يتكلم لا عن الحرب ولا عن المعركة الاخيرة . وكان الناس الذين يسيطرون على المحادثات التي تجري في النادي ويوجهونها وينظمونها ، مثل الكونت روستويتشي^(١) ، والامير يوري فلاديمير وفتش دولجوركي^(٢) ، وفاليف ، والكونت ماركوف ، والامير فيازمسكي^(٣) ، كانوا قد هجروا النادي الى حلقات أضيق تضم

(١) فيرور فاسيلي روستويتشين (١٧٦٣ - ١٨٢٦) ، منحه بولس الاول لقب كونت ، كان حاكما عاما لموسكو سنة ١٨١٢ ، وكان يباهي بأنه نظم حريق موسكو . وابنته صوفيا ، التي تزوجت الكونت دو سيجور هي مؤلفة كتب الاطفال المعروفة جدا .

(٢) ولد سنة ١٧٤٠ ، جنرال ، حامل وسام القديس أندره الاكبر ، أجيل على التقاعد سنة ١٨٠٥ ، ومات بموسكو سنة ١٨٣٠ .

(٣) أندره ايفانوفتش فيازمسكي (١٧٥٠ - ١٨٠٧) رجل دولة ، وأبو الشاعر بطرس فيازمسكي .

أصدقاء حميمين • لذلك أصبح أولئك الذين لا يعبرون عن أهل موسكو
 الا عن آراء سمعوها من غيرهم، مثل ايليا آندرئتش روستوف، أصبحوا
 محرومين من مرشديهم ومو جّهميهم، فبقوا ردحا من الزمن لا يقطعون بأي
 رأي في مجرى الامور • ولكن الشخصيات الكبيرة عادت تظهر في النادي
 بعد مدة ، ظهور المحلفين ساعة خروجهم من قاعة المناقشات : لقد
 ظهر النور ، وانحلت عقدة الألسن • لقد وجدوا الأسباب هذا الحدث
 الذي لا عهد بمثله من قبل ، هذا الحدث الذي لا يصدق العقل : هزيمة
 الروس • ان هذه الاسباب التي أخذ الناس يتنافسون في بيانها وشرحها
 في جميع أركان موسكو هي الأسباب التالية :

غدر النمساويين ومكرهم ، وسوء تموين الجيوش ، وخيانة
 برزيسرفسكي البولندي ، ولانجرون الفرنسي^(١) ، وعجز كوتوزوف •
 وكان المتكلمون يضيفون الى تلك الأسباب بصوت خافت مهموس
 همسا أن الامبراطور شاب غر ليس بذي خبرة ، محض ثقته رجالا
 مناحيس لا قيمة لهم • أما القطعات نفسها ، القطعات الروسية ، فقد
 قامت بأعمال هي مثار الاعجاب فيما يشهد به الجميع ولا يجحده أحد •
 لقد حققت خوراق لها في الحروب شأنها وقيمتها • لقد تصرف الروس
 جميعا تصرف ابطال ، جنودا كانوا أو ضباطا أو جنرالات • وكان

(١) الكسندر لانجرون (١٧٦٢ - ١٨٣١) ، خدم في الجيش الفرنسي ، وقاتل امريكا
 سنة ١٧٨٣ ، وهاجر عند قيام الثورة الى روسيا ، ودخل في خدمة روسيا سنة
 ١٧٩٠ ، جنرال منذ عام ١٨٠٣ . تميز في الحروب ضد تركيا وفرنسا . في ٢٠ اذار
 (مارس) من سنة ١٨١٢ قاد جيشا في موناكو ودخل اويس . حاكم عام لروسيا
 الجديدة (في اوروبا) من ١٨١٦ الى ١٨٢٨ ، مؤلف كتاب « مذكرات شائمة » .

باجراتيون بطل الابلال غير منازع ، فصار اسمه خالدا الى الابد ، سواء بما أبلاه من بلاء حسن في معركة شونجراين أو بما أظهره من سعة الحيلة الذي عرف كيف يعود برتلته في نظام ، وأن يقاوم طوال النهار عدوا يفوقه مرتين عددا . ثم ان ما حصن الناس خاصة بسوسكو ، على أن يعدوا باجراتيون بطل الساعة ، أنه لم تكن له أية علاقة من العلاقات في مدينتهم الطيبة ، وانه كان مجهولا فيها كل الجهل . فكانوا يمجدون فيه العسكري الروسي الشجاع الذي ليس له صلة بالمراكز الحكومية ولم يصل الى ما وصل اليه بالوساطات والشفاعات . أضف الى ذلك أن ذكريات حملة ايطاليا كانت تقرن اسمه باسم سوفوروف ، كما أن هذه الامجاد التي تخلع عليه كانت أحسن طريقة لاطهار اللوم وتوجيه التقرير وابداء التجهم لكوتوزف . حتى لقد قال شنشين صاحب اللسان السليط محاكيا الكلمة المشهورة التي قالها فولتير :

— لو لم يكن باجراتيون موجودا لوجب اختراعه اختراعا .^(١)
وكان الناس لا يقولون عن كوتوزف كلمة واحدة . فاذا اتفق أن نطق بعضهم باسمه ، فذلك ليصفه عنه سراً وخفيةً بأنه شيخ عاجز أو رجل متقلب الرأي امّعة .

وكانت موسكو كلها تردد الكلمة المأثورة عن دولجورف « كثرة الالصاق تورث الاندباق » ، وهي كلمة كانت تعزي عن الكارثة الراهنة بذكرى الانتصارات السابقة . وكانت موسكو كلها تتردد أقوال

(١) محاكاة بجملة فولتير الشهيرة : اذا لم يكن اله فيجب اختراعه .

روستويتشين » ان الجندي الفرنسي يجب أن يقاد الى المعركة بكلمات
فخمة . أما الجندي الالمانى فانه لاينقاد الا لاوامر المنطق : فيجب
أن تشرح له أن القرار أشد خطرا على حياته من الهجوم . وأما الجندي
الروسي فهو على خلاف ذلك يحتاج الى أن تصدّه وتناه وتحمّله على
الهدوء » . وكانوا يسجلون لجنودنا وضباطنا في كل يوم مآثر جديدة ،
ففلان أنقذ راية، وفلان قتل خمسة فرنسيين، وفلان خدم وحده خمسة
مدافع وكان أناس ممن لا يعرفون يبرج يؤكد أنه حين جرحت يده اليمنى،
سار الى الطعان حاملا سيفه بيده اليسرى . ولم يقولوا شيئا عن
بولكونسكي . وكان اصداقاه الحميمون وحدهم يأسفون لموته قبل
الأوان ، ويرثون لحال زوجته التي ستضطر أن تلد في منزل حميها
الخرف .

الفصل الثالث

في اليوم الثالث من شهر اذار (مارس) كان هريز من المحادثات يسأ جميع صالات النادي الانجليزي . وكان أعضاء النادي الذين يرتدي بعضهم بزات عسكرية ، ويرتدي بعضهم أردية فراك ، بل يرتدي بعضهم أيضا قنّاطين وقد رششوا شعرهم بالذرور ، يذهبون ويحيئون ، ويبقون جالسين أو قائمين ، ويتجمعون ويتفرجون ، فإذا رأيتهم قلت انهم سرب من النحل في الربيع . وكان الخدم مسرّين عند كل باب بالثياب الرسمية وباروكات الشعر وجوارب الحرير والاحذية الخفيفة ، يرصدون أيسر الاشارات التي قد تصدر عن حضور الحفلة ليخفّثوا الى خدمتهم . وكان أكثر حضور الحفلة رجالا كبار السن ثقال الوزن عراض الوجه لهم هيئة تعبر عن الثقة وأصابع ضخمة ، وأصوات جازمة واشارات حاسمة ، يتربعون في أماكنهم الاثيرة أو يتجمعون في حلقاتهم المعتادة . وكان الضيوف العابرون ، وجميعهم تقريبا شباب ، ومن بينهم دينيسوف وروستوف ودرامخوف الذي رُدّت اليه رتبته العسكرية وعاد ضابطا في فوج سيمينوفسكي ، كانوا فئة ضئيلة بالقياس الى باقي الحضور . وكان يلهم بوجود هؤلاء الشبان ، وفي وجوه العسكريين منهم خاصة ، ذلك التعبير الطفيف عن الاحترام الساخر الذي يبدو

كأنه يقول للشيخ : « لسنا نمنع عنكم لا الاحترام ولا المراعاة والمدارة ، ولكن لاتنسوا أن المستقبل لنا نحن » .

وكان نرقتسكي أيضا هناك، وهو عضو من أعضاء النادي يستهويه التردد اليه . وكان بطرس قد ضحى بنظاريته امتثالا لاوامر زوجته ، ولكنه في مقابل ذلك أقال شعره ولبس ثيابا على الموضة ، وكان يتجول في الصالونات كابي الهيئة عابس الأسارير حزين الملامح . كان شأنه في ذلك المكان كشأنه في كل مكان يحس بأن جوا من العبودية يحيط به ، ويخيم عليه . لقد اعتاد أن يسيطر على هؤلاء الذي يتملقونه ويتزلفون اليه بفضل ثروته ، فكان لايعبأ بهم كثيرا ، ولا يوليهم الا انتباها ضئلا فيه ذهول وازدراء . لئن كانت سنة تضعه في عداد الشبان فان ثراءه الطائل وعلاقاته العالية تضعه في حلقة الرجال المسنين المحترمين . فكان ينتقل بين هؤلاء وهؤلاء . وتشكلت حول أهم الشخصيات منزلة وأعلامهم مقاما جماعات كان ينضم اليها بكثير من الاحترام حتى اشخاص مجهولون نهسون الى التقاط ما يتفوه به رجال عظام كهؤلاء الرجال من أقوال ، وما يدور بينهم من احاديث . وكان الزحام يشتد خاصة حول الكونت روستوبتشين و فالويف وناريشكين^(١) .

كان روستوبتشين يؤكد أن الروس، وقد أخذ النمسيون يهربون من المعركة فيدوسونهم دوسا ، اضطروا أن يشقوا لانفسهم طريقا بين هؤلاء الفارين باستعمال الحراب . وكان فالويف يقول من باب المسارعة

(١) الكسندر لفوفتش ناريشكين (١٧٦٠ - ١٨٢٦) ، رجل من كبار السادة عين مديرا للمسارح الامبراطورية منذ سنة ١٧٩٩ .

أن أوفاروف أُرسل من بطرسبرج الى موسكو ليعرف رأي أهل موسكو في معركة أوسترلتس • وكان ناريشكين يوقظ ذكرى اجتماع مجلس الحرب الذي رد فيه سوفوروف على الاقتراحات الخرقاء الحمقاء التي قدمها الجنرالات النسويون بصيحة ديك • فاراد شنشين ، الذي كان حاضرا كذلك ، أن يشارك في الحديث فيدس كلمة فقال : ان كوتوزوف لم يتعلم من سوفوروف حتى أن يصيح كما يصيح ديك ، مع ان هذا فن ليس بالصعب العسير • ولكن الرجال المسنين المحترمين أفهسوا المازح بنظرة قاسية صبوها عليه لا المكان ولا اليوم يسبحان بالدعابة والفكاهة •

وكان الكونت إيليا آندرئتش روستوف يجرح حذائه الرخوين من قاعة الطعام الى صالون الاستقبال ، ومن صالون الاستقبال الى قاعة الطعام معبرا بهيئته عن الانشغال والانهماك موجها تحية سريعة واحدة الى الشخصيات المرموقة والى الشخصيات الاخرى التي تقل عنها خطورة شأن وعلو منزلة ، لانه يعرف هؤلاء وأولئك على السواء • وكانت عيناه الباحثتان المنقبستان تلتبث من حين الى حين على ابنه الجميل الشجاع ، فيطرف له بعينه طرفة تعبر عن المحبة والمودة والصدقة • وكان الفتى روستوف واقفا عند كوة يتحدث مع دولوخوف الذي عرفه منذ فترة قصيرة ، وكان يبدو مشغوقا به شغفا عظيما •

وأقبل عليهما الكونت الشيخ وصافح دولوخوف قائلا له :
— أسعدني بزيارة منك في يوم من الايام • فأنت صديق ابني الشجاع ، وأنت بطل مثله •••

ومر في تلك اللحظة رجل من الشيوخ ، فهتف الكونت روستوف
يقول له :

— آه ... فاسيلي إجناتش • يومك سعيد يا عزيزي •

ولكن تحياته ضاعت في جلبة عامة تصاعدت في كل مكان ؛ ذلك
أن أحد الخدم كان قد هرع راكضا ليعلم مشدوها عن وصول الامير
باجرايتون ، قائلا : « وصل ! » •

فاذا بأصوات اجراس صغيرة تدوي ، واذا بأعضاء اللجنة يتصبون
تصبب حبات قمح من مجرفة ؛ واذا بالمدعويين الذين كانوا مبعثرين حتى
ذلك الحين في شتى الردهات يحتشدون في الصالون ويتكلمون على
باب الصالة الكبرى •

وظهر باجرايتون في حجرة المدخل ، بعد أن ترك للبواب السويسري
قبعته وسيفه عملا بتقاليد النادي • هو الآن لايعتمر بكسكيتة الجلد
التي رآها روستوف على رأسه عشية معركة اوسترلتس ، لا ولا يحمل
سوطا في نجاد كما كان في ذلك اليوم ، وانما هو يرتدي اليوم بزة
جديدة كل الجودة تلتصق بجسمه التصاقا ، وتزدان بأوسمة روسية
وأجنبية ، وتحمل رصيعة وسام سان جورج في جبتها اليسرى • وقد
قص شعره والعارضين ، فكان هذا التغير في سحنه لا يحسن اليها بل
يسيء • وكان ما يصطنعه من مظهر الاحتفال الساذج يناقض قسماته
التي تتصف بالفحولة والقسوة مناقضة أدعى الى الاضحاك • وقد

(١) الكسنر أنفريتش بلكيشوف (١٧٤٣ - ١٨٠٨) ، رجل دولة ، حاكم عام لروسيا
الصفوى منذ ١٧٩٨ ، نائب عام سنة ١٨٠٢ وحاكم عام لموسكو سنة ١٨٠٤ ، عرف
بالصدق والاستقامة التامة في خلقه وطبعه •

وصل بكليشوف^(١) وفيدور بتروفتش أوفاروف وقت وصوله هو ، فتوقفا عند الباب ليتقدمهما بطل الحفلة ، فحجل باجرايتون من هذه الملاحظة ، وأراد أن يعترض عليها ، فحدث توقف دام لحظة لم يلبث باجرايتون بعدها أن امتثل لارادتهما . وسار على أرض صالة الاستقبال بخطوات خجول خرقاء ، وهو يحس بوجود ذراعيه ولايديه ماذا يفعل بهما : انه لم يعتد السير في مثل هذه الصالة اعتياده السير في أراض محروثة تحت وابل من الرصاص ، كما حدث له ذلك في شونجران حين سار في مقدمة فوج كورسك .

عبر له اعضاء اللجنة الذين كانوا ينتظرونه عند الباب الاول ، عبّروا له ببضع كلمات عن فرحهم باستقبال ضيف عزيز غال مثله ، وبدون ان ينتظروا جوابه استولوا عليه استيلاء ان صح التعبير ، وقادوه الى الصالون . وكان النفوذ الى الصالون يشبه أن يكون مستحيلا من فرط تراحم الناس على الابواب هارسين بعضهم بعضا ، مصوبين أبصارهم الى باجرايتون من فوق الاكتاف ، كما لو كان باجرايتون حيوانا عجيبا غريبا . واستطاع الكونت إيليا آندرئتش ، الذي كان ضحكه أعلى من ضحك سائر الناس، وكان لايفنك يصيح « مكان ، يا عزيزي ، مكان! » ، استطاع أن يشق الحشد وأن يدخل الضيوف الى الصالون ، وان يجلسهم على كنبه الوسط . وأحرق أصحاب النفوذ من أعضاء النادي بالقادمين الجدد يحاصرونهم محاصرة ، وخرج إيليا آندرئتش روستوف من الصالون وهو يدفع الحشد من جديد ، ثم سرعان ما رجع اليه يصحبه عضو آخر من أعضاء اللجنة . وكان يحمل في هذه المرة صينية من فضة

عليها قصيدة من الشعر نُظمت وطُبعت تكريماً لبطل اليوم ؛ فتقدم بالصينية الى باجراتيون ، فألقى باجراتيون على من حوله نظرة استغاثة كأنه يسألهم الحماية • ولكن جميع الاعين طلبت منه أن يدعن ، فأحس أنه خاضع لمشيئة هؤلاء الناس ، فأمسك الصينية بيديه بحركة مباغته تصحبها نظرة غضب على الكونت الذي يكرمه بها • وتلطف أحدهم فتناول من يديه هذا الشيء المربك - الذي كان يبدو عليه أنه لا ينوي التخلص منه ولو للقيام الى المائدة - ولفت انتباهه الى قصيدة للشعر • فبدأ على باجراتيون أنه يقول : « طيب ! سوف أقرأ هذه الورقة ! » وحدّق الى الورقة متفرساً فيها بعينه المكدودتين ، وتهياً للاطلاع على ماتتخسنه • وكن ناظم القصيدة انتزعها منه ، وأخذ يقرؤها بصوت عال ، فكان باجرتيون يصغي اليه منحنى الرأس :

كن الى الابد مجد عصر الاسكندر ،
احرس لنا تيتوس على عرشه
كن القائد الرهيب والانسان الخير في آن واحد •
ريفيه^(١) في وطنك ، وقصر في المعارك •
حتى اذا عرف نابوليون السعيد ما باجراتيون
آلسيد الشمال بعد الآن ••

ولم يكن الناظم قد انتهى من انشاء هذه الايات حين دوى صوت
رئيس الخدم دوى الرعد قائلاً :

(١) ان هذا النظام الذي يصطنع الاسلوب الكلاسيكي اصطناعاً ، يعرف المؤلفين الذين يستشهد بأنهم من المعرفة : ان ريفيه هو الياف إنبيا ، يظهر في الانياذة لحظية (الانياذة ، الجزء الثاني ، ٣٣٩ ، ٣٩٤ ، ٤٢٦) .

— مائدة صاحب السمو جاهزة •

فاذا يباب قاعة الطعام يفتح على أنغام البولونيز :

دوِّي يا صواعق النصر

افرحوا أيها الروس البواسل^(١)

ونظر الكونت إيليا آندرئتش روستوف نظرة مروعة الى الشاعر
المزعج الذي كان يتابع إنشاد أبياته ، وانحنى أمام باجراتيون ، فنهض
جميع الناس مؤثرين !لطعام على الشعر ودخلوا قاعة الطعام وراء
باجراتيون •

أُجلس الجنرال في مكان الشرف بين اسكندرين هما بكليشوف
وناريشكين ، إشارة خفية الى اسم الامبراطور • وجلس المدعوون
الثلاثمائة في أماكنهم وفقا لرتبهم وعلو منزلتهم • فكان أرفعهم مقاما
أقربهم الى بطل الحنلة مكانا : أليس ينتشر الماء انتشارا أعمق في المواضع
المنخفضة من الارض ؟

وقبل بدء الوجبة بلحظة قصيرة قدم إيليا آرنديتش ابنه الى
باجراتيون فتعرفه باجراتيون ، وقال له بضع كلمات مفككة غير مترابطة،
كسائر ما قاله في ذلك اليوم على كل حال • ومع ذلك كان الكونت
يُجبل على شهود هذا الحديث نظرة تفيض جدلا وفرحا وزهوا •

وجلس نيقولا روستوف ، ودينيسوف ، وصديقهم الجديد

(١) كاتشاني دو درجافين : نشيد للاستيلاء على اسماعيل (١٧٩١) . وقد راج هذا
النشيد بفضل بولونيز وضعها له جوزيف كوزلوفسكي ، وبقيت زمنا طويلا بمثابة
نشيد وطني روسي .

دولوخوف ، جلسوا الى المائدة عند وسطها ، وكان يجلس قبالتهم بطرس والامير نرقتسكي . وجلس الكونت إيليا آندرئتش هو وزملاؤه أعضاء اللجنة في مواجهة الامير باجراتيون ، وكان الكونت إيليا آندرئتش يبلغ من إجادة القيام بدور المضيف أنه يمكن ان يُعدَّ تجسدا لكرم الضيافة التي اشتهر بها أهل موسكو .

ومع أنه عناء لم يذهب سدى ، وأن قائمتي الطعام — قائمة الاطباق الخفيفة وقائمة الاطباق الدسمة — كانتا كلتاهما فحمتين ، فقد ظل قلقا طوال الحفلة . وكان يصدر أوامره الى خازن الخمر بغمزات ويصدر أوامر أخرى الى خدم المائدة بهمسات ، ويتنظر وصول كل صحيفة من الصحف التي كان قد رتبها ، مضطربا اضطرابا ما ينفك يتجدد . وجاء كل شيء سليما لاييب فيه ولا مأخذ عليه . ومنذ أن جيء بالصحفة الاولى ، حين ظهرت سمكة حفش ضخمة عملاقة واحمر الكونت إيليا آندرئتش عند دخولها سرورا وارتباكاً ، نزع الخدم سدادات القناني مفرقة وسكبوا الشمبانيا . وبعد السمك الذي نال الرضى والاستحسان ، وكان لتقديمه أثر كبير في النفوس ، تبادل الكونت وزملاؤه أعضاء اللجنة نظرة ، وقال لهم الكونت بصوت خافت « سيكون هناك أنخاب كثيرة ، وقد آن أوان البدء بها » ، ثم قام حاملا كأسه بيده ، فصمت الجميع منتبهين الى ما سيقوله .

هتف الكونت إيليا آندرئتش روستوف يقول وقد تخضلت عيناه بدموع الحماسة :
— صحة صاحب الجلالة الامبراطور !

فدوت أصوات الاوركسترا مرة أخرى في تلك اللحظة نفسها ،
وتعالت الاصوات تنشد : « دوِّي يا صواعق النصر » • فهبَّ الجميع
واقفين ، وصاحوا يهتفون « هورررا » • وجاراهم باجراتيون في
الهتاف، بذلك الصوت نفسه الذي صدر عنه في ساحة معركة شويجرابن •
وكان صوت بلغ غاية الحماسة يُسمع واضحا متميزا بين هذه الاصوات
الثلاثائة ، هو صوت الكونت الشاب روستوف الذي لم يكذ يستطيع
أن يجبس دموعه ، فكان يزأر زعيرا بقوله : « صحة صاحب الجلالة
الامبراطور ، هورررا ! » • وأفزع كأسه العالية في جوفه دفعة واحدة
ورماها على الارض • وانطلقت الهتافات أشد عنفا وقوة • حتى اذا
استرد الناس سكونهم ورجع الصمت ، طفق الخدم يجمعون أقذاح
الكريستال المهشمة من على ارض القاعة ، وعاد الضيوف يجلسون على
كراسيهم وقد أشرق الابتسام في وجوههم كلهم ابتهاجا بحماستهم ،
واستأنفوا أحاديثهم المتصلة التي لاتنقطع • ولكن الكونت إيليا
آندرئتش روستوف لم يلبث أن نهض مرة أخرى ، فألقى نظرة على
ورقة موضوعة بجانب صحنه رافعا كأسه ، وهتف يقول : « نخب بطل
حملتنا الاخيرة ، بطرس إيفانوفتش باجراتيون » ، وقد عادت عيناه
الزرقاوان تخضلان بالدموع مرة ثانية • وصاح الضيوف الثلاثمائة من
جديد هاتمين : « هورررا ! » • ولكن لم تبادر الاوركسترا في هذه
المرة الى العزف ، وانما حل محلها مغنون ارتفعت أصواتهم صادحة
بأغنية من وضع باغل إيفانوفتش كوتوزوف :

الروس بالعقبات لا يعبأون
فشجاعتهم كفيلا بتحطيمها

يكفي أن يكون عندنا أمثال باجراتيون
فنرى الاعداء تدوسهم أقدامنا

وما ان انتهى المغنون من غنائهم حتى أخذت الأنخاب تتتالي واحدا
بعد آخر . فكانت الاقداح التي ترمى على أرض القاعة وتتهشم تزداد
عددا ، وكانت رئات الصائحين تزداد تعباً ، وكان احتياج الكونت إيليا
آندرئتش يزداد اشتدادا . شرب نخب بكليشوف ، وناريشكين ،
وأفاروف ، ودولجوروكوف ، وآبراكسين ، وفالوييف ، وشرب نخب
أعضاء اللجنة ، ونخب أعضاء النادي ، ونخب ضيوفهم ؛ وشرب أخيرا
نخب منظم الحفلة الكونت إيليا آندرئتش روستوف . وكان من شأن
هذا النخب الاخير أن مضى بانفعال الكونت الى ذروته ، فاضطر ان
يخفي دموعه بمنديله .

الفصل الرابع

كان بطرس جالسا أمام دولوخوف ونيقولا روستوف يلتهم طعامه التهاماً على عادته ، ويفرغ في جوفه كأساً بعد كأس . ولكن الذين يعرفونه حق معرفته لا حظوا أن تغيراً كبيراً طرأ عليه . لقد ظل صامتا طوال مدة الوجبة ، عابس الاسارير ، يجيل على ما حوله نظرات عينيه الحسرتين ، أو يحك باصبعه رأس أنفه جامد العين شارد الذهن . كانت هيئته تعبر عن حزن وكآبة . وكان طبيعيا وهو غارق في فكرة مسيطرة عليه ، وشكوك تقلقه وتملاً نفسه كربا ، أن لا يصير ما يجري ولا يسمع ما يقال من حوله .

ان الشبهات الرهيبة التي أيقظتها في نفسه، منذ وصوله الى موسكو، تلميحة خبيثة ماكرة أطلقتها احدى الاميرات ، والتي تحاصره الآن محاصرة قد عززت في هذا الصباح رسالة ينبه فيها كاتبها، بلهجة التهكم والسخر المألوفة ، الى انه لا يرى الاشياء رؤية واضحة رغم نظارتيه ، وان العلاقة القائمة بين زوجته وبين دولوخوف سرذائع شائع . فكان بطرس ، على احتقاره هذه الاماعات والتعريضات ، يشعر بضيق شديد وخرج قوي من النظر الى دولوخوف الجالس قبالة . فكلما وقع بصره على عيني هذا الضابط ، الجميلتين الوقحتين ، أحس بالبلبة

الرهيبة تشب في نفسه ، فأسرع يشيخ عنه . ان كل ماضي هيلين وكل أسلوبها في معاملة دولوخوف يحضه على ان يقدر ان المزاعم التي تبلغ اليه من أشخاص لا يذكرون أسماءهم كان يمكن ان تكون صحيحة لولا أن المرأة التي تتناولها هذه المزاعم هي « زوجته » هو . كان يتذكر عودة دولوخوف الى بطرسبرج وقد رُدت اليه حقوقه جميعها بعد الحملة ؛ ويراها وقد جاء اليه رأسا قبل أن يذهب الى أي مكان آخر ، فيأخذ يذكره بما اشتركا فيه من الوان التهتك والعريضة ، ويطلب منه أن ينزل في بيته ضيفا عليه ، فيلبي هو هذا الطلب بكرم وسخاء ، حتى ليمضي الى حد اقراضه مالا ؛ وما يزال يسمع صوت هيلين وهي تعاتبه مبتسمة على ادخاله هذا الضيف الثقيل الى منزلها ، ويسمع دولوخوف يفيض في الثناء على جمال امرأته بغير تحرج ولا حياء ؛ ويتذكر أنه منذ ذلك الحين الى أن وصلا موسكو لم يتركها لحظة واحدة .

قال بطرس محدثا نفسه : « لاشك في أنه فتى جميل جدا . ثم انني أعرفه . وقد قمت بمساع في سبيله . واستضفته . ومددت له يد المعونة . وتلك كلها اسباب تجعله يجد لذة خاصة في تلطيخ اسمي بالعار ؛ وتحمله على أن تبدو له ضيافته أحده لذة ... لو صدق الزعم وصحت الشائعة . ولكن الزعم كاذب ، والشائعة باطلة . انني لاأصدق هذا الكذب ؛ ليس من حقي أن أصدق . » . ولكن بطرس ما يزال يتذكر ملامح وجه دولوخوف التي كانت تعبر عن وحشية كاسرة حين كانت تعتريه نوبات قسوة . انه يتذكر مثلا ذلك اليوم الذي ربط فيه دولوخوف رجل الشرطة بدب قبل أن يلقيه في الماء ؛ ويتذكر ذلك اليوم

الآخر الذي استنزف فيه رجلا ودعاه الى المبارزة بدون أي سبب؛ ويتذكر ذلك اليوم الثالث الذي أطلق فيه الرصاص على حصان حوذي فأرداه قتيلا . وها هو ذا بطرس يتذكر فجأة أن دولوخوف نظر اليه مرارا وقد عبرت قسما وجهه عن تلك الوحشية الكاسرة المفترسة . قال بطرس لنفسه : « نعم ، انه انسان يجب القتال . ليس لقتل انسان في نظره أي شأن . أنه في حاجة الى أن يتخيل أن الناس جميعا يخافونه ويرهبونه فاذا وثق بذلك وأيقن منه فاضت نفسه لذة خبيثة شريرة . أغلب الظن أنه يعتقد بأنني أنا أيضا أخافه وأرهبه . وما هو في هذا بمخطيء على كل حال . »

وشبّت في نفس بطرس زوبعة عنيفة جديدة مرة أخرى .

وفي أثناء ذلك كان دولوخوف ودينيسوف وروستوف الجالسون أمامه يبدو عليهم أنهم جذلون مبتهجون كثيرا . كان روستوف يمازح صديقه مرحا فرحا ، معتزاً بأن أحدهما فارس مغوار ، وبأن الثاني رجل يهوى القتال والطعان وان يكن مبطنا بانسان حقير . وكان يلقي ، من حين الى حين ، نظرة ليس فيها كثير من اللطف ، على بطرس الذي كانت ضخامة صدره العريض وعبوس هيئته المغلقة يلفتان النظر . وليست هذه العداوة التي يحسها الفارس الشاب عسيرة التفسير والتعليل : كان هذا العسكري لا يرى في بطرس الا « مدنيا » واسع الثراء ، وزوجاً لامرأة مرموقة الجمال ، أي رجلاً يشبه أن يكون أثني . هذا الى ان بطرس الذي كان غارقا كل الغرق في مشاغل فكره وهموم نفسه لم يظهر عليه أنه تعرفه ، هو نيقولا روستوف ، ولا ردّ تحية بمثلها .

وحين شرب الناس نخب الامبراطور كان بطرس غارقا في خواطره
وتأملاته ، فلم يقم عن كرسيه ، ولا أمسك كأسه بيده .
وقد صرخ روستوف عندئذ يقول له وهو يلقي عليه نظرة صاعقة
مثقلة بغضب شديد وتعصب قوي :

— ما بالك ؟ ألم تسمع أننا نشرب نخب الامبراطور ؟

فتنهّد بطرس ، وقام عن مكانه طائعا منصاعا ، وشرب كأسه ؛
وفيما كان ينتظر أن يفرغ الآخرون من ابتهاجهم ليعود الى الجلوس
نظر الى روستوف وهو يتسم له ابتسامته الطيبة . وقال له :

— ما كان أغباني ! تصوّر أنني لم أتعرفك !

ولكن روستوف المسترسل في هتافاته « هورررا » ، لم يول هذا
الكلام اي اكراث ، ولم يلتفت اليه أي التفات .
فسأله دينيسوف :

— لماذا لما تجدد معرفتك به .

فأجاب روستوف :

— لا يهمني هذا الابله كثيرا ولا قليلا !

فرد عليه دينيسوف قائلاً :

— بل يجب على المرء دائما ان يلاطف أزواج النساء الجميلات .

وأدرك بطرس أن الحديث بينهما يدور عليه ، رغم أنه لم يسمع
ما يقولانه من كلام . فاحمر وجهه وأشاح رأسه .
وقال دولوخوف يقترح نخباً جديداً :

— والآن فلنشرب نخب النساء الجميلات •

ورفع كأسه ، وأضاف متجها بكلامه الى بطرس معبرا بهيئته عن أكبر الجد : ولكن مع ابتسامة في طرف الشفتين :

— بتروشا ! نخب النساء الجميلات وعشاقهن !

فأفرغ بطرس كأسه خافضا عينيه ، دون أن يجيب دولوخوف ، وحتى دون أن يلقي عليه نظرة •

وكان خادم من الخدم يوزع على المدعوين المرموقين نسخا من أغنية كوتوزوف ، فأعطى بطرس نسخة من هذه النسخ • وفيما كان بطرس يتهيأ لتناول النسخة • ، اذا بدولوخوف يميل فوق المائدة ، ويختطف النسخة من يدي بطرس ، ويأخذ يقرأها • فنظر اليه بطرس في هذه المرة ، وانخفضت حدقتاه ، وهبت العاصفة التي ظلت تعتمل في نفسه طوال مدة الوجبة ، فانحنى بكل جسمه الثقيل من فوق المائدة ، وصرخ يقول :

— اترك هذه الورقة !

فارتاع تترفتسكي وجار بطرس بيزوخوف الجالس الى يمينه ، ارتاعا من غضبته هذه ، وأرادا أن يتوسطا في الامر ، فقالا له بصوت خافت جدا :

— اهدأ ! ماذا اعتراك ؟

وحدق دولوخوف الى بطرس بعينه الزرقاوين الفرختين القاسيتين ، وابتسم ابتسامة كأنها تقول : « ها ... هذا ما يعجبني ! » وأجاب يقول بطرس بصوت قاطع جازم :

— لا ، لن أتركها !

فاتزع منه بطرس الورقة انتزاعا ، وقد امتقع وجهه واختلجت شفتاه غضبا . وقال له :

— أنت ... انسان ... حقير ! هبىء نفسك للمبارزة .

ودفع كرسيه ، وغادر المائدة .

وفي تلك اللحظة نفسها التي قام فيها بطرس بتلك الحركة ، ونطق بتلك الأقوال ، أحس أن مسألة ادانة بمرأته والحكم بأنها آثمة ، هذه المسألة التي ظلت تطرح نفسها عليه طرحا فاجعا منذ أربع وعشرين ساعة ، قد حثت الآن ، وبثت فيها بتنا قاطعا لا ريب فيه ولا تراجع عنه ، فهي آثمة ولا شك . وامتلات نفسه بالكراهية والبغض لامرأته ، وأحس أنه قد انفصل عنها الى الابد .

ورغم توبيخات دينيسوف ، رضي روستوف أن يكون لدولوخوف شاهدا في المبارزة ، وبعد القيام عن المائدة اتفق مع نرقتسكي ، الذي كلفه بطرس بيزوخوف بشئونه ، على شروط اللقاء . رجع بطرس الى منزله . أما روستوف فقد مدَّ سهرته في النادي مع دولوخوف ودينيسوف ، يصفون الى غناء الفجر وانشاد المنشدين العسكريين .

وقال دولوخوف لروستوف وهو يودعه على درج مدخل النادي :

— الى الغد ، في غابة « مربتي الصقور » .

فسأله روستوف :

— وهل أنت هاديء ؟

فتوقف دولوخوف ، وقال نه :

— اسمع يا عزيزي ، سأكشف لك بكلمتين عن سرّ المباراة كله :
إذا أنت في عشية المباراة كتبت وصيتك ، وكتبت رسائل عاطفية
لأهلك ، وفكرت في احتمال أن تقتل ، كنت أحرق وكتبت تسعى الى
حتفك . أما إذا مضيت الى المباراة عازما عازما قاطعا على أن تقتل
خصمك بأقصى سرعة قتلا مؤكدا كل التأكيد ، فإن الامور تجري على
خير ما تحب . وفقا للتعبير الذي يستعمله صاحبنا صياد الدببة
الكوسترومي . كم من مرة قال لي : « حين تضفي الى صيد الدب
فان الفزع يعتريك طبعاً . ولكن متى ظهر الدب ، زال الفزع وأصبحت
لا تطلب الا شيئا واحدا ، هو أن لا يفلت منك » . وذلك بعينه هو
ما سأفعله . الى الغد يا عزيزي .

وفي الساعة الثامنة من صباح الغد ، وصل بطرس ونزفتسكي
الى غابة « مربّي الصقور » ، حيث كان ينتظرهما دولوخوف ودينيسوف
وروستوف .

كان يبدو على بطرس أن هموما لا علاقة لها بالمسألة الراهنة
بل هي غريبة عنها كل الغرابة ، كانت تشغل باله وتملأ نفسه . ان المرء
يدرك من استئطالة وجهه واصفرار لونه وزيف نظراته ومن عينيه اللتين
تطرفان كأن ضوء شمس باهرة تسقط عليهما ، أنه لم يغمض له جنين
في تلك الليلة . كان أمران لا ثالث لهما يشغلان باله : أن امرأته آئمة ،

وتلك نتيجة انتهت به إليها ساعات أرقه وبرهنت له عليها ؛ وبراءة
دولوخوف الذي ليس هناك أي سبب يدعو الى مراعاة شرف رجل
ليس في نظره شيئا ذا بال . كان بطرس يقول لنفسه : « لو كنت في
مكانه ، فلعلني كنت أفعل ما فعل . نعم ، كنت أفعل ما فعل حتما .
فلماذا هذه المبارزة ، لماذا هذا القتل ؟ اما أنني سأقتله ، واما أنه هو
الذي سيصيني في رأسي أو كوعبي أو ركبتي . ماذا لو هربت من هذه
المبارزة ، ماذا لو مضيت أختفي في مكان من الامكنة ؟ » . ولكنه في
تلك اللحظة نفسها التي كانت هذه الخواطر تراوده فيها ، قال يسأل
بلهجة باردة متجردة مترفعة فرضت مهابته على من حوله « نحن
مستعدون ؟ أم أتم تؤثرون التأخير قليلا ؟ » .

وألقت المسدسات في أثناء ذلك ، وأخذ الشهود يفرسون
أسيفا في الثلج لتعين الحد الذي لا ينبغي تجاوزه ، حتى اذا انتهت
هذه الاستعدادات كلها اقترب نرفتسكي من بطرس وقال له بصوت
متعلم :

— أعتقد أنني أخل بواجبي ، يا كونت ، وأكون غير جدير
بالشرف الذي أوليتني اياه حين اخترتني لك شاهدا ، اذا أنا ، في هذه
الدقيقة الخطيرة ، هذه الدقيقة الخطيرة جدا ، اذا أنا لم أقل لك
الحقيقة كلها . انني لا أرى لهذه المبارزة أسبابا ذات قيمة ، والامر
لا يستحق أن يسفح من أجله دم ... انك على خطأ ، أو قل في أقل
تقدير انك لست على صواب تماما ... لقد اندفعت اندفاعا شديدا ...

فأجابه بطرس موافقا على رأيه :

— نعم ، هذا كله غباء !

— فاذا كان هذا هو رأيك ، فدعني أنقل الى خصومنا اعتذارك ،

وأظن أنهم سيقبلونه •

كذلك قال نرقتسكي • انه كسائر الناس وكجميع الاشخاص الذين يثقون في شئون كهذه الشئون ، كان لا يستطيع أن يصدق أن الامور ستسير الى النهاية •

وأردف يقول معززا رأيه :

— انك لا تجهل هذه الحقيقة يا كونت : لأن يعترف المرء بأخطائه خير من أن يتمادى فيها فيصل الى حيث يستحيل تدارك ما وقع واصلاح ما فسد • اسمح لي أن أفاوض ...

فقال بطرس جازما :

— لا • لماذا ؟ ما الفائدة الآن ؟ ... هيه ... هل نحن

مستعدون ؟

وأضاف وهو يتنسم ابتسامة يجبر نفسه عليها بعض الاجبار :

— ولكن قل لي : ما هو الحد الذي يجب أن أتقدم اليه وأقف

عنده ، وفي أي اتجاه ينبغي أن أطلق الرصاص ؟

وتناول المسدس ، وسأل كيف يضغط الزناد ، دون أن يعترف مع ذلك أنه لم يمسك بيده سلاحا في يوم من الايام •

— آ ... نعم ... عرفت • كنت قد نسيت •

وقال دولوخوف هو أيضا لصاحبه دينيسوف الذي كان يحاول أن يقنعه بترك هذا الامر :

— لا ، لا اعتذار ! أرفض الاعتذار رفضا باتا قاطعا •

وتقدم هو أيضا الى الموضوع المحدد له •

كان المكان الذي وقع عليه الاختيار فُرجة صغيرة من غابة الصنوبر تبعد ثمانين خطوة عن الطريق الذي تركوا فيه الزلاجات • وكان الذوبان قد بدأ منذ بضعة أيام ، فهو يصهر الثلوج المتراكمة على الارض •

وقف الخصمان على بعد أربعين خطوة ، أحدهما من الآخر ، عند طرفي الفُرجة •

وكانت خطوات الشهود حين قاسوا المسافة قد تركت آثارا على الثلج الرخو تنتهي أمام سيفي نزفتسكي ودينيسوف ، اللذين غرسا وتدين يحدان الساحة على مسافة عشر خطوات • وكان الضباب ما يزال منتشرًا ، والثلج ما يزال يذوب ، فلا يرى المرء شيئًا على مسافة أربعين خطوة • ولقد هُيئ كل شيء منذ ثلاث دقائق ، ولمَّا يخطر ببال أحد أن يبدأ إطلاق النار • وكانوا صامتين جميعا لا ينطق أحد منهم بكلمة واحدة •

الفصل الخامس

قال دينيسوف :

— هيا بنا !

فأجابه بطرس وهو لا يزال يتسم :

— هيا بنا !

كان واضحا أن وقف هذه القضية التي حضَّ عليها الطيش أصبح مستحيلاً . شيء رهيب . انها ستجري في طريقها بدون نكوص ، مستقلة عن كل ارادة انسانية .

تقدم دينيسوف أول المتقدمين الى الحد المعين وصاح يقول :

— أما وقد رفض الخصمان أن يتصالحا ، فاني أدعوها أن يتناول كل منهما مسدسه ، وأن يسير متى وصلت بالعدِّ الى « ثلاثة ! » ...

ثم صرخ بصوت حائق :

— واحد ! ... اثنان ! ... ثلاثة ! ...

وتنحى .

فسار الخصمان أحدهما الى الآخر ، متبَّعين ذلك النوع من الممر الذي شقته خطوات شاهديهما في الثلج ، وكان من حق كل منهما

أن يطلق الرصاص قبل أن يصل الى الحد المرسوم ، فكانا كلما تقدما
يريان أحدهما الآخر من خلال الضباب بمزيد من الوضوح . كان
دولوخوف يتقدم بخطى بطيئة ، منكسا مسدسه ، محدقا الى بطرس
بعينه الزرقاوين الفاتحتين الساطعتين . وكانت بسة غامضة تتموج
في شفتيه على عادته .

قال بطرس :

— أستطيع اذن أن أطلق الرصاص حين أريد ؟

فلما سمع صيحة دينيسوف « ثلاثة » ، انطلق الى الامام بسرعة
جعلته ينحرف عن الدرب ويفوص في الثلج . ومن خوفه في أغلب
الظن أن يُصاب بجرح من مسدسه هو نفسه ، كان يحمل المسدس
مادا ذراعه اليمنى ، وكان يحاول أن يجعل ذراعه اليسرى خلفه اذ كان
يغريه أن يستعين بها في سند يمينه ، رغم أنه كان لا يجهل أن ذلك
محظور . فبعد أن سار خمس خطوات أو ست خطوات تائها في الثلج
نظر الى قدميه ، وألقى نظرة سريعة على دولوخوف ، وضغط زناد
المسدس كما عُلِّم كيف يضغطه . فكان من شأن الانفجار العنيف
الذي لم يكن يتوقعه أن جعله يرتعش . ولكنه سرعان ما ابتسم
ساخرا من سذاجته وتوقف . كان الضباب والدخان يحجبان عنه
خصمه تحت ستار كثيف . وبدلا من أن يسمع الطلقة الثانية التي كان
يتوقعها ، لم يسمع الا خطى تسرع . واستشف قامة دولوخوف من
خلال الضباب أخيرا ، ورأى امتقاع لونه ، ورآه ضاغطا جنبه الايسر
باحدى يديه ، قابضا على مسدسه المنكّس باليد الاخرى ، ورأى
روستيوف يهرع اليه ويقول له بضع كلمات .

ردء دولوخوف على كلمات روستوف بدمدمة متقطعة من بين
أسنانه المكزوزة :

— لا ... لا ... لم ... ينته .. الامر !

وسار بضع خطوات أخرى مترنحة ، ثم هوى على الثلج من
جهة السيف . وبعد أن مسح يسه المدمئة بجلبابه ، حاول القيام
متكئا عليها ، وكان وجهه الشاحب المظلم يرتجف ويرتعش .
وقال ناطقا أحرفه بكثير من العناء :

— إسه ... اسم ...

واستطاع أخيرا أن يتم كلمته بجهد كبير فقال :

— اسمح ...

فأوشك بطرس أن انفجر باكيا ناشجا منتحبا ، وهرع اليه غير
عابيء بأنه يتجاوز الساحة المحظور تجاوزها ، فاذا بدولوخوف يصرخ
فجأة :

— التزم الحد ... لا تتجاوزه !

فأدرك بطرس ماذا يريد ، فعاد يقف بقرب السيف الذي ينبغي
أن لا يتجاوز .

وأصبحت المسافة التي تفصل بينهما عشر خطوات لا أكثر .

أغطس دولوخوف رأسه في الثلج ، وملأ فمه به في نهم شديد ،
ثم نصب جذعه ، محافظا على توازنه بكثير من الجهد والعناء ، فاستطاع
أن يكون جالسا . وكان لا يزال يمض الثلج الذي عبثه وملأ به فمه .
وكانت شفاته تختلجان ، ولكن عينيه اللتين ما تزالان مبتسمتين ، كاتتا

تشعان بيريق الكراهية التي أججها هذا الجهد الشديد نفسه وزادها حدة وأواراً • وأخيراً رفع مسدسه وأخذ يصوب •

قال نرفتسكي ينصح بطرس :

— قف مواردنا ، وغط نفسك بالمسدس •

ولم يملك دينيسوف أن يصرخ قائلاً رغم أنه شاهد الخصم :

— هلا غطيت نفسك •

ولكن بطرس ظل واقفاً على وضعه ، مباعداً ذراعيه وساقيه بغير حماية ، عارضا صدره العريض لدلولوخوف ، ناظراً إليه وهو يتسم له ابتسامة شاحبة عليها طابع الشفقة والندم • وأغمض دينيسوف وروستوف ونرفتسكي أعينهم • فلما سمعوا صوت إطلاق الرصاصة سمعوا في الوقت نفسه صرخة غضب حائق •

لقد زأر دولوخوف يقول :

— لم أصبه !

وسقط على الأرض خائر القوى ، مرغاً وجهه بالثلج •

فأمسك بطرس رأسه بيديه ، ونكص على عقبيه هارباً في الغابة • وكان أثناء خطوه خطوات واسعة على الثلج لا ينفك يقول بصوت تائه زائغ كلمات مفككة غير مترابطة :

— غباء ! • حماقة ! • الموت ! • باطل ! • كذب هذا

كلبه ! • • •

وأدركه نرفتسكي ورجع به إلى بيته •

وقام روستوف ودينيسوف بنقل الجريح • فكان دولوخوف ،

وهو راقد" في قاع الزلاجة مغضّ العينين ، لا يجيب عن الاسئلة التي تلقى عليه . حتى اذا دخلوا موسكو ، صحا من إغمائه ، وأمسك يد روستوف الجالس الى جانبه . ان وجهه يعبرّ الآن عن حنان قوي وعاطفة رقيقة ، حتى لكأنه بدّل إنسانا آخر . فسأله روستوف وهو لا يصدق ما تراه عيناه :

— هيه ! كيف حالك الآن ؟

فأجابه دولوخوف بصوت متقطع :

— سيئة ! ولكن ليس هذا هو الامر يا عزيزي . أين نحن ؟ في موسكو ، أليس كذلك ؟... إن ما قد يحدث لي لا يهني البتة ... ولكن هي ... لقد قتلتها قتلا ... قتلتها ... لن تحتمل هذا ... لا ... لن تقدر على احتساله في يوم من الايام ...

فسأله روستوف :

— من هي ؟

— أمي ، أمي ، ملاكي ، ملاكي المعبود ...

قال دولوخوف ذلك وسالت الدموع غزيرة من عينيه ، وقبض على يد روستوف بيدٍ متشنجة . حتى اذا هدا قليلا ، ذكر لروستوف أنه يقيم مع أمه ، وأنها اذا رآته على هذه الحال فلن تصمد للمحنة ، وطلب منه أن يصل اليها قبله عسى أن يهيئها للأمر تهيئةً تخفف وطأة المفاجأة .

قبل روستوف أن يلبي طلب دولوخوف ، فما كان أشد دهشته
حين كشفت له هذه المهمة التي كلف بها عن أن هذا الشاب التافه
المشغوف بالاعتقال كان يعيش في موسكو مع أمه العجوز ، وأخته
الجدباء ، وأنه كان أكثر الإبناء حبا لأمه وأكثر الأخوة حنانا على
أخته .

الفضل السّادس

قلّ أن خلا بطرس وامرأته في الآونة الأخيرة أحدهما الى الآخر ،
فلقد كان منزلهما يفص بالناس دائما ، في موسكو وفي بطرسبرج على
السواء . وفي الليلة التي تلت المباراة لم يذهب بطرس الى غرفة النوم ،
وانما بقي في حجرة أبيه الواسعة ، كما كان يحدث له هذا كثيرا ، وهي
تلك الحجرة نفسها التي توفي فيها الكونت .

اضطجع بطرس على ديوان آملا أن ينسى بالنوم ما حدث ،
ولكنه لم يجد الى النوم سبيلا . ان عاصفة هائلة من الخواطر
والعواطف والذكريات قد هبّت في نفسه ، فلا هو استطاع أن ينام ،
ولا هو استطاع أن يبقى في مكانه ، فكان يثب عن الديوان ، ويأخذ
يذرع الغرفة ذاهبا آيبا بخطى سريعة . كانت تتراءى له هيلين في
اللحظات الاولى من زواجهما ، وتراءى له كنفها العاريتان ونظراتها
الناعسة ، ثم سرعان ما ينبثق في خياله الى جانب هذه الصورة وجه
دولوخوف ، الجميل المستهتر السافر ، على نحو ما كان في المأدبة ، ثم
يتراءى له هذا الوجه نفسه شاحبا متقلصا متشنجا متألما متعذبا على
نحو ما ظهر له حين هوى المسكين على الثلج .

كان يدور في نفسه هذا الحوار : « ماذا حدث ؟ » - قتلت
« عشيق » زوجتي •

- ولماذا قتلته ؟ كيف وصلت الامور الى هذا الحد ؟ فيجيبه
صوت من أعماقه : - لانك تزوجتها ؟ - ما ذنبي اذا تزوجتها ؟
- ذنبك أنك تزوجتها بدون حب ، ذنبك أنك خدعتها اذ خدعت
نفسك • »

وسرعان ما انبجست في خياله ذكرى الدقيقة الحاسمة المشؤمة
التي قال لها فيها بعد العشاء عند الامير فاسيلي : « أحبك ! » • « نعم
هذا مصدر كل شيء ، هذه علة كل ما حدث • لقد كنت أحس في تلك
اللحظة أنني لا يحق لي أن أقول لها هذه الكلمة ، وانني ارتكب خطأ
جسيماً • ولم يخدعني احساسي وكان احساساً صادقاً • » •

واحمر بطرس فجأة حين تذكر شهر العسل • ان هناك حادثاً
طارئاً وقع في ذلك الشهر السعيد يُشعره بخجل شديد : في ذات
صباح ، بعد الساعة الحادية عشرة ، بينما كان ينتقل من غرفتها الى
مكتبه ، وجد في المكتب وكيل أعماله • فلما رأى الوكيل وجه بطرس
المشرق ، ورأى ثوب المنزل الذي يلبسه وهو من حرير ناعم الملمس
زاهي اللون ، حيّاه باحترام ، وأباح لنفسه أن يتسم ابتسامة خفيفة
إظهاراً منه لمشاركة مولاه في سعادته •

« ما كان أغباني ! كانت محلّ اعتزازي وافتخاري ! كنت أعظم
في نظر نفسي حين أراها جميلةً هذا الجمال كله ، مهية تلك المهابة
كلها ، حصينة منيعة لا سبيل لأحد إليها • وكنت أعجب أعظم الاعجاب

بحسن آدابها حين كانت تستقبل في منزلي بطرسبرج كلها ! كان في ذلك حقا ما يدعو الى الازدهاء ! وكنت أظن أنني لا أفهمها . كم من مرة أخذت على نفسي وأنا أدرس طبعها أنني أجهل هذا الهدوء المستمر، وهذه الهيئة الراضية دائما ، وتنزهها عن كل رغبة وكل هوى ! وكان مفتاح السر كله هو في هذه الكلمة : أنها امرأة فاجرة !

« كان أنا تول يأتي اليها ليقترض مالا ، ويقبّل كتفيها العاريتين . فكانت تمنع عنه المال ، ولكنها ترضى بالقبلات . وكان أبوها اذا مازحها فاستثار غيرها تجيبه بابتسامة هادئة : « لست من الغباء بحيث أكون غيورا . في وسعه أن يفعل ما يحلو له » . كذلك كانت تقول عني . وحين سألتها في ذات يوم ألا تشعر بأعراض حمل قالت لي وهي تضحك ضحكة احتقار « انها ليست من الحماسة بحيث تتمنى أن يكون لها أولاد ، وانها لن يكون لها أولاد مني على كل حال . » .

وتذكر بعد ذلك ما كان في افكارها من خطة واضحة ، وما كان في تعابيرها من ابتذال مفضوح لا يتفق كثيرا وتربيتها الارستقراطية : « اظنني معتوهة ؟ ... حاول ان استطعت ... اذهب فتنزه ! » . وحين كان يرى الناس يدللونها شبانا وشيوخا ، كان لا يفلح في ان يفهم : لماذا ينفرد من دون سائر الناس بأنه لا يحبها ؟ « لا ، انني لم احبها في يوم من الايام قطعا . كنت اعلم انها امرأة فاجرة فاسقة ، ولكنني كنت لا اجرؤ ان اعترف لنفسي بهذا ... والان ، هذا دولوخوف يخبر ساقطا على الثلج ، ويحاول ان ييتسم ، ولعله يتنازع ايضا ، ولا يجب على اندفاعه ندايتي الا بتبجح يتظاهر به تظاهرا ! » .

ان بطرس واحد من اولئك الناس الذين لا ييوحون لاحد بما
يعتمل في نفوسهم ، رغم ما يزعم من انه ضعيف الارادة ، وانما يظنون
يجترونها أحزانهم في داخلهم .

كان يخاور نفسه قائلا : « انها هي المذنبه ، هي المذنبه . ولكن
ما حيلتي؟ لماذا ارتبطت بها؟ لماذا قلت لها تلك الكلمة المشنومة « أحبك »
وهي كلمة كذب ، بل كلمة فيها ما هو شر من الكذب ؟ ... فأنا المذنب
اذن ، ويجب علي ان أتحمل ... ان أتحمل ماذا على وجه الدقة ؟
تلتطخ شرفي بالعار ؟ تجللي بالخزي ؟ ولكن لا ... ما هذا الكلام الذي
تقوله ؟ الخزي والعار وتلتطخ الشرف وكل ما الى ذلك نسبي لا شأن له
بشخصيتي ، وليس يمسنني انا » .

« لقد اعدموا لويس السادس عشر لانهم « هم » عدوه مجرما
لاشرف له ، وكانوا من وجهة نظرهم على حق . ولكن ألم يكن على
حق ايضا اولئك الذين استشهدوا في سبيله ، وجعلوه في عداد القديسين
ثم اعدم روبسيير ، لانه كان طاغية ... فمن كان على حق ، ومن كان
على ضلال ؟ لا احد . انتفع بالحياة مادمت حيا ، وغدا تموت كما كان
يمكنني ان اموت منذ ساعة . هل يستحق الامر ان تعذب نفسك هذا
التعذيب مع ان ما بقي لك من عمر على هذه الارض ليس الا دقيقة
قصيرة بالقياس الى الابدية ؟ »

ولكنه في تلك اللحظة التي ظن فيها ان هذا التفكير قد هدأه ، تذكر
فجأة تلك الدقائق من التظاهر بالاسترسال على السجية ، والابتعاد عن
التصنع ، التي اظهرت له فيها حبها الكاذب الزائف . فسرعان ما أحس

بالدم يزدهم في قلبه ، فاذا هو يقوم من جديد ، ويسير ، يأخذ يشم كل مايقع تحت يده . وكان يتساءل بغير انقطاع : « شيطان يأخذني ! لماذا قلت لها : أحبك ؟ » وفيما كان يلقي على نفسه هذا السؤال للمرة العاشرة ، اذا هو تحضره كلمة مولير : « ولكن ماعساه صانعا في سجن الاشغال الشاقة هذا الذي زج فيه ؟ » ، فأخذ يضحك منا نزل به هو نفسه من مصيبة ، وما ناله من حظ عاثر .

وفي الليل دق الجرس مناديا خادمه ، وامره بأن يهيء له حقائبه . ان قيام حديث بينه وبين امرأته بعد يبدو له امرا لايمكن تصوره ، فقرّر ان يسافر منذ الغد وان يعبر لها عن نية تركه اياها الى الابد في رسالة يعثها اليها .

وحين جاءه خادمه في الصباح بقهوته وجده نائما على الاركة العثمانية وفي يده كتاب مفتوح . فلما دخل عليه الخادم انتفض وظل مدة طويلة يجيل على ما حوله نظرة ذاهلة زائغة ، ثم عرف اخيرا اين هو . قال الخادم يسأله :

— مولاتي تسأل هل يمكنها ان ترى سيدي صاحب السعادة ؟ وقبل ان يقرر بطرس الاجابة عن هذا السؤال كانت الكوتيسة تدخل الحجرة رصينة المحيا مهيبة الطلعة ، لابسة فستانا للبيت من نسيج الساتان المقصَّب بالفضة ، تتوج رأسها الرائع ضفirtان كبيرتان على صورة إكليل . ولكن ثنية غضب كانت تعكر هدوء جبينها المرمرى المقب قليلا . لقد علمت نبأ المباراة ، فهي تنشد من زوجها ايضاحات . ومع ذلك اتاح لها هدوءها الذي لا يستطيع شيء ان يهزه ، اتاح لها ان تسيطر

على نفسها مدة بقاء الخادم الذي كان يرتب عدة القهوة • وجازف بطرس فألقى عليها نظرة وجلة ، ثم عاد يغوص في قراءته ، مثله في ذلك كمثله .
ارنب احدثت به الكلاب فأرخی اذنيه لاطيا امام اعدائه كالمختبيء •
ولكنه لم يلبث ان احس بأن هذا الوضع الذي يتخذه وضع سخيف ، فعاد يتجسس عليها بعين فرعة • كانت ماتزال واقفة تنفرس فيه وهي تبسم ابتسامة احتقار •

حتى اذا خرج الخادم قالت تسأله بلهجة قاسية :

— ما هذا الذي فعلته ايضا ؟ شيء جميل ! مامعنى هذه الافعال ؟

فقال بطرس سائلا :

— انا ؟ ماذا فعلت ؟

— اراك اصبحت صاعقة من صواعق الحرب ! مامعنى تلك المبارزة ؟ على أي شيء اردت ان تبرهن بما فعلته ؟ هلا اجبت وانا اسألك ؟
فاستدار بطرس على اريكته ثقيلًا ، وفتح فمه ، ولكنه لم يستطع ان ينطق بكلمة •

فواصلت هيلين كلامها تقول

— مادمت لاتجيب فسوف اتكلم انا • انك تصدق كل مايقال لك ، ولقد قيل لك ... ان دولوخوف « عشيقتي » •
وانفجرت ضاحكة مقهقهة •

وكانت تتكلم بالفرنسية ، ولم تتخرج أي تخرج من النطق بتلك الكلمة الفجة ، على المعهود في لغتها من استهتار •

واردفت تقول مكسلة كلامها :

— وصدقت أنت تلك الشائعة • ولكن ما الذي برهنت عليه بتلك
المبارزة ؟ برهنت على انك أحق • والناس جميعا يعرفون فيك الحمافة
على كل حال ! ... والآن ستجعلني اضحوكة موسكو • سيقول كل
فرد انك كنت ثملا لامتلك من امر نفسك شيئا ، ولم تستطع ان تكبح
جباحك فطلبت الى المبارزة رجلا كنت تغار منه بغير حق وبدون
سبب ...

واضافت تقول، وهي تزيد قوة لهجتها :

— رجلا يفضلك من جميع النواحي ...
فزمجر بطرس طارفا بعينه دون ان ينظر اليها ودون ان يقوم
بحركة :

— هم ... هم ...

وواصلت هيلين كلامها فقالت تسأله :

— ماالذي جعلك تظن انه عشيقى ؟ ... ألأن صحبتته تسرني
اكثر من صحبتك ؟ لو كنت أنت ابهج والطف لآثرت صحبتك حتما •
دمدم بطرس يقول بصوت ابج :

— دعيني وشأني ... ارجوك ... اتوسل اليك ...

— لماذا ؟ ان من حقى ان اتكلم ! ... وارييد ان اقول لك
بصرحة : أين المرأة التي يكون زوجها مثلك ثم هي لا تتخذ لنفسها
« عشاقا » ؟ ولكنني لم افعل انا شيئا من هذا •

أراد بطرس ان يقول كلمة ، ولكنه اقتصر على ان يشخص اليها
بنظرة لم تفهم ماتعب عنه من شيء غريب • وعاد يرتمي على الديوان
وقد استبد به قلق شديد وغم رهيب : كان يحس باختناق في صدره ،
وكان يلهث لهاثا قويا • ولقد كان يعرف الوسيلة التي يضع بها حدا
لهذا العذاب ، ولكن نكص عن هذا التطرف •

واخيرا قال بصوت متقطع :

— الافضل ان نفصل !

— نفصل ؟ حبذا • ولكن بشرط أن تعطيني ما أعيش به ! ...

أما ماعدا ذلك فلا يهمني •

فوثب بطرس عن ديوانه ، وسار اليها بخطو مترنج • وزأر يقول
لها وهو يتناول لوح المرمز من على احدى المناضد ، ويشهره عليها :

— سوف اقتلك !

فتقبض وجه هيلين رعبا ، واطلت صرخة حادة ، واندفعت
مراجعة الى وراء ان الدم الابوي يتكلم في بطرس : انتشى سكر
بغضبه ، ورمى لوح المرمز على الارض فتكسر اللوح ، وهجم عليها
مهيدا يقبضتي يديه ، وزمجر يقول بصوت بلغ من الهول ان المنزل كله
اهتز جزعا ورعبا :

— انصربي !

الله يعلم ما الذي كان يمكن ان يفعله بطرس لولا ان هيلين ولت
هاربة •

بعد ثمانية أيام ، سافر بطرس وحيدا الى أراضيه في « روسيا
الكبرى » ، وهي اراض تساوي اكثر من نصف ما يملكه من أطيان •

الفصل السابع

انقضى شهران على وصول ابناء معركة اوسترلتس واختفاء الامير آندره ، الى لسيا جوري . لم يكن العثور على جثمانه رغم جسيع الرسائل التي بعثت الى السفارة ورغم جسيع التحريات التي تم القيام بها ، ولا ورد اسمه في أي قائمة من قوائم أساء الأسرى . ولكن ذلك لم يقض على الأمل في ان يكون بعض السكان قد حملوه من ساحة القتال ، فكان هذا الاحتمال أسوأ الاحتمالات في نظر أسرته وادعائها الى القلق والكدر ، اذ يكون الابن في هذه الحالة موجودا في مكان ما ، ينقه او يموت ، وحيدا ، بين غرباء ، عاجز عن ارسال شيء من انبائه .

ان الامير العجوز قد عرف خبر الهزيمة من الصحف اولا ، اذ نشرت الصحف ، على عادتها ، بجمل قصيرة غامضة ان الروس بعد ان خاضوا معارك رائعة اضطروا الى الانسحاب ، وان هذا الانسحاب قد تم بنظام كامل لم يتطرق اليه شيء من فوضى . فحين قرأ الامير الشيخ هذا الكلام ، ادرك اننا هزمننا . وبعد ثمانية ايام وصلت رسالته رسالة من كوتوزف تخبره بمصير ابنه ، فقد كتب اليه كوتوزوف يقول : « رأيت ابنك بعيني يسقط في ارض المعركة حاملا الراية بيده في طليعة فوج من المقاتلين ، بطلا جديرا بأبيه ووطنه . ومما يؤسفني ويؤسف الجيش كله اننا لما نعرف بعد اهو ميت ام هو حي . ولكننا نستطيع ان نأمل ان

يكون حيا ، والا لورد اسمه في قائمة اسماء الضباط الذين وجدوا في
ميدان القتال ، وهي قائمة نقلها الي مفاوضون » •

لقد جيء الامير الشيخ بهذه الرسالة في ساعة متأخرة من المساء
بينما كان ساهرا في حجرته وحده •

حتى اذا كان الصباح قام بنزهته التي اعتاد ان يقوم بها في
الصباح ، كأن شيئا لم يحدث ، ولكنه كان شديد الصمت مع وكيله
والحدائي والمهندس المعماري ؛ ولم يوجه الى احد لوما رغم ان هيئته
كانت تعبر عن غضب شديد •

فلما جاءت الاميرة ماريا في الساعة المعتادة ، كان جالسا الى منضدة
عمله ، ولم يدر رأسه ، ثم اذا هو يهتف فجأة بصوت اشوه :

— ها ... ماريا !

ورمى منقره ، وظلت العجلة تدور بقوة السرعة المكتسبة • ان
صرير العجلة الذي كان يخفت شيئا فشيئا والذي استمر مدة غير قصيرة،
قد بقي مقترنا في ذهن ماريا اقترانا وثيقا ومختلطا اختلاطا قويا بذكريات
ذلك الصباح •

دنت ماريا من أبيها ، فلما قرأت في وجهه ما كان يعبر عنه ، زأغ
بصرها واضطربت نفسها اشد الاضطراب ان هذا الوجه الذي لم يكن
حزينا ، ولم يكن منهوكا مهدودا ، وانما كان فيه شر ، وكان يدل على
ان صاحبه يعاني صراعاً فوق الطبيعة ، قد اخبر الاميرة ماريا بأن نازلة
رهيبة ، نازلة كانت تهوم فوقها من قبل وتهم ان تسحقها سحقا ، قد

نزلت الان ، وهي افطع مصيبة مرت بها حتى ذلك الحين ، مصيبة لا خلاص منها بعد وقوعها ، ولا سبيل الى تصديرها قبل حدوثها : موت انسان تحبه حبا متقدما مشبوبا •

قالت الاميرة الخرقاء التي لاتحسن التصرف :

— أبي ! أندره !

ولكنها حين هتفت بهاتين الكلمتين قد بلغت من نسيان نفسها ، وبلغ ألمها من الشدة والحدة ان أباه لم يستطع ان يثبت نظره عليها ، فأشاح عنها وقد انفجر باكيا منتحبا •

ثم خرج يقول بصوت غاضب كأنه يريد أن يطرد ابنته :

— وصلتني اخبار • ليس بين الاسرى ولا بين القتلى • معنى ذلك انه ميت •

لم تقع الاميرة مغشيا عليها ، ولا اصابها دوار • وكانت قبل ان تسمع كلام أبيها ممتعة اللون ، ولكنها حين سمعت النبأ ، تبدل وجهها ، وبرق في عينيها الجيلتين المشعتين وميض • فاذا رآها الرائي أحس ان غبطة قصوى ، ان نشوة لا علاقة لها لا بافراح هذا العالم ولا بأحزانه تسيطر على المها العميق سيطرة واضحة •

ونسيت الاميرة ماريا خوفها من ايها ، فجرؤت على ان تدنو منه ، وتناولت يده ، واحاطت بذراعيها رقبة الشيخ ، اليابسة العجاء ، وقالت له :

— أبي • لاتشع عني • لنبكه معا •

فهتف الامير الشيخ يقول وهو يخلص نفسه من ابنته :

— الاوغاد ! الاوباش ! يضيعون الجيش ، يجعلون الرجال يموتون ! لماذا ؟ هيا اذهبي ، فأخبري ليزا •

تهالكت الاميرة على مقعد ، ولم تستطع ان تحبس دموعها • انها الان ترى اخاها وهو يودعها هي وليزا معبرا بوجهه عن الحب والتعالي في آن واحد ، وتراه وهو يسخر سخرا يمازجه حنان وحب حين علقت بعنقه الايقونة الصغيرة • « هل مات مؤمنا ؟ هل تاب عن جحوده ؟ أهو الآن في الآخرة يعيش حياة الراحة الابدية والسعادة الخالدة ؟ » •

وقالت تسأل اباهما من خلال الدموع :

— قل لي ياأبي : كيف حدث الامر ؟

— اذهبي اذهبي • قتل في معركة هلك فيها خيار الروس كنا هلك فيها مجدنا • اذهبي يااميرة ماريا اخبري ليزا • سألحق بك •

حين رجعت الاميرة ماريا من عند ابيها ، كانت الاميرة الصغيرة جالسة الى نولها تطرز ، فنظرت الى الاميرة ماريا تلك النظرة التي تفيض رضى وهدوءا ، اعني نظرة النساء الحوامل • كانت عيناها لا تريان اخت زوجها ، وانما هما تغوصان في اعماقها تتأملان الحدث السعيد الذي يتم فيها محضوفا بكل معاني السر •

قالت وهي تترك نولها وتنقلب الى وراء :

— ماري ، هاتي يدك •

وأمسكت ليزا يد ماريا فوضعتها على بطنها • كانت عيناها بتسيمان

ابتسامة الانتظار ، وارتفعت شفتها المظلمة بالزغب وبقيت على هذه الحال من الارتجاع ، مضغية على وجهها هيئة طفل سعيد .

جثت ماريا على ركبتها ، ودفت وجهها في ثنيات فستان زوجة أخيها .

وقالت ليزا وهي تنظر الى ماريا بعينها المشرقتين :

— هنا ، هنا ، هل تحسین ؟ ما أعظم ما سأحبه ماريا !

لم تستطع ماريا أن ترفع رأسها . وكانت تبكي .

قالت لها ليزا :

— ما بك يا ماريا ؟

— لاشيء . ولكنني أحس بحزن شديد . . حين افكر في آندره .

ومسحت ماريا دموعها بفستان زوجة أخيها .

وحاولت أثناء تلك الصبيحة . مرارا أن تهیء ليزا لتلقي النبأ ، فكانت الدموع في كل مرة تحول بينها وبين ما تحاوله . ولكن هذه الدموع التي كانت ليزا لا تفهم سببها قد أفلقتها رغم ما تفتقده من حدة الذهن ونفاذ البصيرة . فكانت لا تقول شيئا ، ولكنها تجيل بصرها في الغرفة قلقة مهسومة . ورأت الامير الشيخ يدخل عليها قبل الغداء . ان الامير الشيخ كان يخفيها دائما . ولكن وجهه في هذه المرة كان يعبر عن عجرفة خاصة وشر رهيب . وقد خرج دون أن يقول لها كلمة واحدة . فحدقت الى ماري لحظة ، ثم أخذت تفكر وقد لاح في وجهها ذلك الالتباء المعهود في النساء الحوامل ، وهو ابتواء متجه الى داخلهن ثم اذا هي تنفجر باكية على حين فجأذ . وقالت تسأل :

— هل وصلتكم أنباء عن آندرة ؟

— لا • لم يحن حين وصولها بعد • ولكن ابي قلق ، وهذا يعذبني
قالت ليزا :

— اذن لم يعرف شيء ؟

فأجابتها ماري مؤكدة وهي تنظر اليها بعينيها الوضاءتين :

— لا • لم يُعرف شيء •

كانت قد قررت أن لا تذكر لها شيئاً ، وأقنعت أباها بأن يلتزم الصمت هو أيضاً الى ان تنتهي الولادة • وأخذ الاب والبت يخفيان حزنهما ويتغلبان عليه كل بالاسلوب الذي يجيده • وكان الامير الشيخ يرفض ان يكون هناك اي امل ، رغم انه عهد الى رجل يثق به أن يقوم بتحريرات في النساء • وكان يعلن مقتل ابنه لجميع الناس ، حتى لقد طلب من موسكو نصبا نوى أن يشيده له في حديقته تخليدا لذكراه • ورغم انه حاول ان لا يغير شيئاً من طراز حياته ، فقد اصبحت قواه تنهار : فقصرت نزهاته ، وقلت شهيته ، ولازمه الارق ، أي كان يضعف ويهن يوماً بعد يوم • وفي مقابل ذلك لم تفقد الاميرة ماري أملها ، فكانت تصلي لاختها صلاتها لحي ، وتنتظر في كل لحظة ان تسمع نبأ عودته •

الفصل الثامن

في اليوم التاسع عشر من شهر آذار (مارس) ، قالت الاميرة الصغيرة فجأة بعد افطار الصباح :

— أخشى يا صديقتي ان يكون « الفرو شتيك »^(١) ، كما يقول طبائخا فوكا ، قد اضر بي هذا الصباح .

قالت الاميرة الصغيرة ذلك وتقوست شفتها المظلمة مبتسمة من تلقاء نفسها بغير ارادة منها . ولكن لما كان كل شيء في هذا المنزل اصبح منذ وصول النبأ المشؤوم يحمل طابع الحداد ، سواء في ذلك ابتسامات الشفاه ونبرات الاصوات وحتى خطوات الارجل ، ولما كانت ليزا قد انتقدت لهذا التيار العام دون ان تفهم من الامر شيئا ، فان بسمتها لم يمكن في هذه المرة الا ان تزيد شدة الحزن الذي لم يكن يخلو منه قلب احد في هذا المنزل .

هتفت ماري تسألها وهي تهرع اليها بخطاها الثقيلة الرخوة :

— ما الذي تحسّين به يا عزيزتي ؟ رباه ! ما أشد شحوب وجهك واصفرار لونك !

وقالت احدي الخادومات :

(١) تحريف للكلمة الالمانية « فروشتوك » ومعناها افطار الصباح

ب صاحب السعادة ، ليتنا نستدعي ماريا بوجدانوفنا •
ان ماريا بوجدانوفنا هذه هي قابلة من المدينة الصغيرة المجاورة ،
تقيم في ليسيا جوري منذ زهاء خمس عشرة سنة •

قالت ماري مؤيدة كلام الخادمة :

— فعلا • ربما كان هذا لازما • انا ذاهبة اليها • تشجعي ياملاكي!
وقبل ان تخرج قبّلت ليزا •

كان وجه ليزا ممتقعا متقبضا من شدة الالم ، وكان يعبر عن
ذلك الخوف الطفولي من العذاب الذي لا مناص منه • وهاهي ذي
تهتف متوسلة ، معترضة :

— لا ، لا ، لا ، هي المدة ... قولي انها المدة يا ماري ، قولي ••
واعترتها نوبة بكاء ، وأخذت تلوي ذراعيها كطفل ذي نزوات يجب
ان يتظاهر بعض التظاهر •

خرجت ماري راكضة ، تشيعها من زوجة اخيها صيحات « أوه »
و « آه » ، وهتافات « يا الهي ! » و « يا رباه ! » •

وفيما كانت ماريا في طريقها الى القابلة اصطدمت بها مقبلة على
المنزل وهي تفرك يديها البيضاءوين السميتين ، مصطنعة هيئة الجسد
والوقار والهدوء •

قالت ماريا وهي تنظر الى القابلة نظرات بعينين محملقتين رعبا •
— ماريا بوجدانوفنا ، يبدو لي انه المخاض قد بدأ • فأجابت
ماريا بوجدانوفنا دون ان تستحث خطاها :

— الحمد لله يا أميرة ! ولكن هذه أشياء لا بد ان تجهلها الفتيات •

— ولكن لماذا لم يجيء الطبيب من موسكو ؟

كان قد طلب من طبيب بسوسكو ، تنفيذاً لرغبة ليزا وآندره ، أن يجيء في الموعد وكان أهل المنزل ينتظرونه نافدي الصبر •

فردت القابلة تقول :

— لا تقلقي يا أميرة • ما من حاجة الى طبيب • ستجري الامور

أحسن مجرى •

مضت ماريا الى غرفتها ، فما هي الا خمس دقائق حتى سمعت ضجة نقل شيء ثقيل • فشقت الباب ، فرأت الخدم يحملون الى غرفة النوم الديوان المنجّد بالجلد ، وهو الديوان الذي كان يزدان به مكتب أخيها وكانت هيئة الحمالين تعبر عن التفكير والاهتمام •

ولم تتحرك ماريا بعد ذلك من غرفتها ، ولكنها مصيخة بسمعها الى الضجات التي كانت تقوم في المنزل ، وتفتح بابها من حين الى حين لتلاحظ الذهاب والاياب في الدهليز • فكانت نباء كثيرات تمر ثم ترجع هادئة الخطى ، ولكنها تشيح وجهها عن الاميرة بعد ان تلقي عليها نظرة • وكانت الاميرة ماريا لا تجرؤ أن تسألن عن شيء ، فلا تلبث أن تغلق باب غرفتها من جديد ، وتعود تجلس في مقعدها أو تفتح الكتاب المقدس أو تركع أمام الأيقونات • فما كان آلم دهشتها حين لاحظت أن الصلاة لم تهديء روعها ولم تخفف قلقها •

وفيسا هي كذلك اذ فتح الباب فجأة برفق وهدوء ، وظهرت في عتبه مرضعتها العجوز براسكوفيا سافيشنا ، مغطية رأسها بمنديل •

وكانت هذه المرضعة لا تكاد تدخل غرفة الأميرة ماريا أبدا ، وذلك عملا بأوامر الأمير الشيخ •

قالت المرضعة :

— جئت لأصاحبك يا عزيزتي ماريا •

ثم أضافت تقول وهي تتنهد :

— ... وهذه شموع زواج أبيك وأمك ، سأشعلها أمام صورة القديس الصالح :

— آد ... ما أعظم ما تسرينني يا مرضعتي •

— الرب رحيم يا حمامتي •

وأشعلت المرضعة أمام خزانة الأيقونات شموعا ملفوفة بورق مذهب ، ثم جلست بقرب الباب مع حياكتها • وتناولت ماريا كتابا ، وجعلت تقرأ • كانت المرأتان لا تنظر احدهما الى الاخرى الا حين تسمعان وقع أقدام أو لفظ أصوات • فأما نظرة ماري فكانت قلقة ، وأما نظرة المرضعة فكانت مطمئنة •

ان ذلك الشعور بالخوف والقلق ، الذي اعترى ماري واحتجزها في غرفتها ، قد استولى هو نفسه على جميع سكان المنزل • وكان بين الاعتقادات القديمة الشائعة أن المرأة التي تلد تكون آلامها أخف اذا كان عدد الذين يعرفون حالتها أقل • لذلك كان كل فرد من الافراد يتظاهر بالجهل ولا يتكلم في الامر •

(١) تشير الخادمة الى ساق نيقولا ، ولي الشيخ المعجوز وشليحه •

غير أن ما عهد في جميع سكان منزل الامير من رصانة وأدب ، كان يترقق فيه الآن نوع من الهم الحنون يضاف الى اقتناع واضح كل الوضوح بأن حدثا كبيرا مغلفا بالسر هو الآن بسبيل الحدوث .

ما من ضحكة تطلق من قاعة الخادومات ؛ والخدم في حجرة الخدمة صامتون لا ينطقون بكلمة ، ولكنهم متأهبون لكل شيء . وفي جميع الغرف تشتعل شموع ولا ينام أحد .

وكان الامير الشيخ يذرع الغرفة ذاهبا آيا ، فعزم أمره أخيرا على أن يرسل تيخون الى ماريا بوجدانوفنا تزوده بالاخبار قال لتيخون :
— ليس عليك الا ان تقول لها ان الامير يسأل كيف الحال ، ثم تعود فتخبرني بجوابها .

قالت ماريا بوجدانوفنا وهي تلقي عليه نظرة مثقلة بالمعاني :
— أبلغ الأمير أن الولادة بدأت .

فرجع تيخون يبلغ الرسالة . فقال له الامير وهو يغلّق الباب وراءه من جديد :
— طيب .

ثم لم يسمع تيخون بعد ذلك أية ضجة صادرة عن حجرة الامير . وعاد الى حجرة الامير بعد قليل بحجة انه يريد ان يقص رؤوس الشموع ، فلما رأى الامير مستلقيا على ديوانه ، تأمل وجهه التالف المخرب لحظة ، ثم دنا منه برفق فقبّل كتفه وخرج دون ان يقص رؤوس الشموع ودون ان يقول لماذا دخل .

وكان السر الأجل في هذه الحياة ما يزال بسبيل الحدوث، وانقضى المساء وجاء الليل . فكان الانتظار الزاخر بالعواطف ، المترع بمشاعر الحنان ، تجاه الحدث الذي لا يتصوره العقل ، كان هذا الانتظار لا يضعف توتره بل تزداد حدته وقوته . ولم ينم احد .

كانت ليلة من ليالي شهر آذار (مارس) التي يقفل فيها الشتاء راجعا ، فيطلق أواخر رياحه الشديدة ، وأواخر عواصفه الثلجية حانقا مسعورا . وكان رجال يركبون خيلا ويحملون مصاييح مرابطين عند مدخل طريق القرية ينتظرون الطبيب الالماني القادم من موسكو ليقودوه خلال اخاديد الارض وغدران المياه ، ويتوقعون وصوله بين لحظة ولحظة بعد ان خفَّت اليه خيول تستقبله على الطريق الكبيرة .

ولقد تركت ماريا كتابها منذ مدة طويلة ، فهي الان لا تزيد على أن تتأمل بعينيها المضيتين وجه مرضعتها المغضن دون ان تقول كلمة واحدة ، وهو وجه قد ألفت أميز تفاصيله : خصلات الشعر الشائبة التي تهرب من تحت عصابة الرأس ، جيب اللحم النابت تحت الذقن الخ وكانت المرضعة سافشنا ، وهي تحمل بيدها الجورب الذي تحيكه تقص بصوت خافت ، دون ان تسمع ودون ان تفهم هي نفسها ماذا تقول ، كانت تقص حكاية صغيرة سبق أن حكتها مائة مرة ، وهي أن المرحومة الاميرة قد ولدت ماريا في كيشينيف بدون مساعدة أحد الا امرأة مورافية طاعنة في السن .

— الرب رحيم ! ما حاجتنا الى « الدكاتير » ؟ وهبت على احدى النوافذ بغتة ريح قوية وكان ترس النافذة الخارجية قد نزع تنفيذا لرغبة

الامير الشيخ الذي يصدر امره بنزع التروس الخارجية منذ ان تصل
طيور السنونو . فهزمت الريح النافذة التي لم يكن قد أحكم اغلاقها
فاتتمتحت النافذة وانزاحت ستائر الحرير وانطلقت الشمعة ، فارتعشت
ماريا من هبة الريح هذه التي تحمل برد الصقيع ، وتركت المروضة
حياتها فقامت الى النافذة تميل بجذعها الى خارجها محاولة ان تقبض
على الاطار الذي انفتح ، فكانت الزوبعة تطير أطراف عصابة رأسها
وترقص خصلات شعرها كالمجنونة .

صاحت المروضة تقول بعد أن قبضت على اطار النافذة دون أن
تغلقها :

— أميرة ، هذا أحد يصل من الشارع الكبير . وهناك مصاييح
أيضا . لاشك أنه « الدكتور » .

فهتفت ماريا قائلة :

— الحمد لله ! يجب أن أهبّ الى استقباله . انه لا يعرف اللغة
الروسية .

قالت ذلك وألقت على كتفها شالا ، وركضت تستقبل القادمين .
وفيما هي تجتاز حجرة المدخل ، لمحت من النافذة عربة تصل الى درج
الباب فتقف أمامه في حراسة رجلين من حملة القوائيس . وأخذت ماريا
تهبط السلم . كانت شمعة دحرجتها تشتعل على عمود الدرايزين . وكان
أحد الخدم ، واسمه فيليب ، يقف في الاسفل على فسحة السلم الاولى
مرتاع الهيئة حاملا بيده شمعة . وفي موضع أدنى من ذلك ، عند أول

عطفة من السلم كانت تسمع ضجة وقع أقدام تحتذى احذية ذات لباد •
لقد كان أحد يصعد السلم • وعلا صوت لم يبد لماريا أنها تجهله • كان
الصوت يقول :

الحمد لله ! وابي ؟

فأجابه رئيس الخدم داميان الذي هرع الى تحت :

— رقد •

ونطق الصوت بكلمات اخرى كان داميان يجيب عنها ، بينما
كان وقع خطى اللباد على السلم يصعد العطفة الاولى المحجوبة عن بصر
ماريا •

تساءلت ماريا :

— أهو آندره ؟ مستحيل لو كان هو آندره لكان الامر خارقا
يفوق ما يستطيع الخيال أن يتصوره !

ولكن ماريا ، في تلك اللحظة نفسها التي وافتها فيها هذه الفكرة ،
رأت على فسحة السلم التي يقف عندها الخادم حامل الشمعة ، رأت
وجه الامير آندره ، ثم رأت جذعه وقد رُشَّت ياقة فروته بالثلج رشاً
نعم ، انه هو ، ولكنه شاحب اللون ، هزيل الجسم ، ولا يكاد يعرف لان
رقة غريبة مقلقة قد حلت محل القسوة القديمة التي كانت تبدو في
قسمات وجهه من قبل • فلما بلغ آخر السلم احتضن اخته بذراعيه ، وقال
يسألها :

— هل وصلتكم رسالتي ؟

ودون أن ينتظر الجواب الذي ما كان له أن يجيء على كل حال ،
لان ماري كانت عاجزة عن الكلام ، رجع ادراجها هابطا السلم ليأتي
بالطبيب !المولد الذي كان قد التقى به في اخر محطة ، وعاد يصعد
السلم من جديد مسرعا ، وعاق اخته وقبلها مرة اخرى ، وقال :

— مصادفة عجيبة يا ماري ، هه !

ونضا عنه فروته ، وخلع جزمته ، ومضى الى شقة زوجته الشابة .

الفصل التاسع

كانت الاميرة الصغيرة مستلقية على وسائدها وقد هادتها آلامها بعض المهادة . وكانت خصلات سوداء من شعرها قد افلتت من تحت قبعتها البيضاء وتهدأت على خديها المحمرتين من الحمى المندائين بالعرق وكان فيها الاخاذ الوردى ذو الشفة المظلمة مفترا يتسم ابتسامة فرحة

فلما وقف آندره عند الديوان الذي مستلقية عليه ، شخصت اليه بعينيها الملتصعتين اللتين كاتتا تنظران نظرة مرتاعة كارتياح نظرة طفعل ولكنها ما تزالان تعبران عن المعاني نفسها التي كاتتا تعبران عنها . كانت عيناها تقولان : « انني أحبكم جميعا ، ولم أسىء الى أحد منكم ، فلما ألقى اذن هذا العذاب ؟ رحماكم ! خففوا عني هذا العذاب ! » وقد تعرفت زوجها ، ولكنها لم تفهم كيف ظهر هذا الظهور المباغت .

ودار آندره حول الديوان وقبّل جبينها ، وقال لها :

— روجي الغالية ، الرب رحيم ..

وكانت تلك اولى مرة يناديها فيها هذا النداء : روجي الغالية .

وكانت نظرتها تقول : « كنت اتوقع منك ان تخفف عني . ولكن

لا . انك كالاخرين ! » لم تكن مدهوشة من رؤيته هنا ، ولكنها لاتدرك

لماذا جاء • ولم يكن لوصول زوجها أية صلة بالامها وتخفيف آلامها •
فعاودتها الالوجاع ، فاتجهت ماريا بوجدانوفنا الى الامير تتوسل اليه
ان يخرج •

ودخل الطبيب الموكد • والتقى آندره باخته مرة اخرى ، فجرى
بينهما حديث خافت الصوت تقطعه فترات صمت • كانا كلاهما ينتظران
بصبر نافد ، وآذان متنتصة •

قالت ماريا لاختها :

— امض اليها يا صديقي •

فعاد آندره الى جناح ليزا ، وأقام في الغرفة التي تعاقب غرفة
النوم • ولم تلبث ان خرجت من غرفة النوم امرأة مذعورة الهيئة
اضطربت اشد الاضطراب حين رأت الامير ، فجعلت رأسها بين يديها
ولبثت على هذه الحال بضع دقائق • وتسلفت من خلال الباب أنات
شاكية كشكاة حيوان يعوي ألماً • فاقترب آندره من الباب ، وأراد أن
يفتحه ، ولكن كان أحد يدفع الباب من الداخل حتى لا يمكن فتحه •

وصاح صوت مذعور يقول :

— مستحيل ! مستحيل !

أخذ آندره يذرع الغرفة ذاهبا آيبا ، مهتاج الاعصاب • وانقطعت
أنات الشكوى • ولكن ما ان انقضت ثوان قليلة حتى دوى صراخ
رهيب صراخ لا يمكن ان يكون صادرا عن ليزا ، فلو أرادت ليزا ان
تطلق هذا الصراخ لما استطاعت ، لانها لا تملك ماتحتاج اليه من قوة •

وفيما كان آندره يهرع الى باب غرفة النوم من جديد ، انقطع الصراخ فجأة ، وانطلقت صرخة طفل ولد .

تساءل آندره في اللحظة الاولى : « لماذا جيء الى هنا بطفل ؟
طفل ؟ اي طفل هنا ؟ ما مجيء طفل الى هنا ؟ أ يكون طفل قد ولد ؟ » .

وأدرك فجأة ان هذه الصرخة تبشره بفرحة كبيرة ، فاختنق بدموعه ، وتهالك على مسند النافذة ، وأخذ يبكي ناشجا كطفل . وظهر الطبيب مخلوع الرदनجات ، مشمور الكمين ، تهز وجهه الشاحب ارتعاشة عصبية . لم يجب عن أسئلة الامير الا بنظرة تائهة زائفة ، ومرء أمامه لا يلوي على شيء . وهرعت امرأة تخرج من غرفة النوم ، فلما أن رأت آندره حتى جمدت في مكانها لا تتحرك .

وقرر آندره أن يدخل : كان جثمان ليزا الميتة راقدا على ذلك الوصع نفسه الذي رآها عليه من قبل . ورغم أن نظرتها جامدة، وخديها صفراوين ، فما يزال وجهها اللطيف الصغير ذو الشفة المظلمة بزغب أسود خفيف يعبر في جموده وهموده عن ذلك المعنى نفسه الذي كان يعبر عنه قبل أن تموت : « انني احبكم جميعا ، ولم اسيء الى أحد منكم فماذا صنعتم أتم بي ؟ » .

كذلك كان يقول هذا الوجه الاخاذ المحزن ، وجه المرأة الشابة الميتة .

وفي ركن من الغرفة كان شيء صغير أحمر ينخر ويصىء بين يدي ماريا بوجدافوفنا البيضاوين المرتجفتين .

وبعد ساعتين دخل الامير آندره حجرة أبيه بخطى لا وقع لها على الارض . كان الشيخ قد علم بكل شيء . وكان واقفا بقرب الباب . فما ان فتح الباب حتى ضم عنق ابنه يديه الخشتين العجوزتين كأنه يطوقه بكماشتين ، وطلق ييكي منتحبا .

وفي غداة غد أقيمت صلاة الجنازة للاميرة الصغيرة ، ومن اجل أن يودّع آندره زوجته صعد على منصة النعش . وكان وجه الميتة رغم أن عينيها مغمضتان ما يزال يعبر عن ذلك المعنى نفسه ، وكأنه ما يزال يقول : « آه ... ماذا صنعتم بي ؟ » . وأحسن آندره بأن شيئا كان يتمزق فيه تمزقا ، وشعر بأنه ارتكب اثما لا سبيل الى التكفير عنه . ولم يستطع أن ييكي . وجاء الشيخ العجوز أيضا يقبّل اليد الصغيرة التي تشبه أن تكون الان من شمع والتي كانت ممدودة فوق اليد الاخرى هامدة . وبدا للشيخ أيضا أن وجه الميتة كان يقول : « آه ... ماذا صنعتم بي ؟ ولماذا ؟ » . فلم يملك الامير الشيخ ازاء هذا السؤال الاخرس الا ان يشيح رأسه غاضب الهيئة .

وانقضت خمسة أيام أخرى ، فقاموا بتعميد الامير الصغير نيقولا أندريفتش . كانت الموضع تسند أقمطة الذقن ، بينما كان الكاهن يمر بريشة أوزة على الراحتين الصغيرتين وباطني القدمين الصغيرتين الحراوين المجعدين فيدهنها بالزيت المقدس .

وكان الجد ، وهو اشبين الطفل ، يرتعش خوفا من أن يسقط

الطفل من بين يديه ، فدار به حول جرن المعمودية ، وهو طشت من حديد أبيض محدب ، وسلّمه الى الاشبنية ، الاميرة ماري . وكان آندره ينتظر نهاية الاحتفال في الغرفة المجاورة ، وهو يكاد يموت جزعا من أن يفرق ابنه . حتى اذا جاءته به الممرض أخذ يتأمله فرحا ، وهز رأسه معبرا عن الرضى حين قيل له ان قطعة الشمع التي ألقيت في الطشت حاملة شعرات من رأس الطفل الوليد لم تغطس الى القاع بل عامت على سطح الماء ! (١)

(١) من الاعتقادات الشعبية الراجحة ان هذا علامة على ان الطفل سيعيش .

الفصل العاشر

بذل الكونت الشيخ روستوف جهودا كبير من اجل ان لا يحاسب ابنه على اشتراكه في مبارزة دولوخوف وميزوخوف ، وأن تفضى السلطات من هذا الامر ، فكان له ما أراد ، فلم يجرّد روستوف من رتبته العسكرية ، كما كان يتوقع ذلك ، حتى لقد عُيّن ضابطا مرافقا لحاكم موسكو العام . واجبرته هذه الوظيفة على أن يبقى في مقر الحاكم ، فلم يستطع أن يصحب أسرته الى الريف ، وقضى الصيف كله بالمدينة . وفي أثناء ذلك شقي دولوخوف من جرحه بفضل عناية أمه التي كانت تحبه حبا مشبوبا ، وتوثقت عرى الصداقة بينه وبين روستوف أثناء نقاهته مزيدا من التوثق . وتأثرت ماري ايفانوفنا العجوز ، أم دولوخوف . بهذه الصداقة ، فأجبت روستوف كثيرا ، وكانت تجري بينها وبينه أحاديث عن ابنها العزيز فيريا فتقول له :

— نعم ، يا كونت ، ان نفسه أعظم نبلا وأنقى طهارة من أن ينتمي الى هذا العصر الفاسد . لا أحد يحب الفضيلة . ان الفضيلة تسوء الناس جميعا . انظر يا كونت ، هل كان مافعله ييزوخوف شيئا عادلا ، شريفا ؟ لقد كان فيريا ، لما له من قلب كبير ، يحبه حبا صادقا ، وهو حتى هذه الساعة لا يقول عنه كلمة سوء واحدة في لحظة من اللحظات . ألم يكونا شريكين في المهازل التي قاما بها في بطرسبرج ، وفي قصة رمي

الشرطي في النهر مربوطا بدب ، وفيما لا ادري من أمور ؟ ومع ذلك استطاع بيزوخوف أن يخلص نفسه وألقيت التبعة كلها على ظهر ابني فيديا . والله يعلم كم تحمل وكم قاسى ! صحيح أنهم ردوا اليه رتبته العسكرية ، ولكن هل كان يمكن حقا أن لا يردوها اليه ؟ أظن الجيش لا يضم عددا كبيرا من شباب يضارعونه جسارة ووطنية ! ... وتلك المباراة ؟ ... انني لأسألك ياكونت ، هل لهؤلاء الناس قلب ؟ هل لهم شرف ؟ انهم يعلمون أنه ابن وحيد ، فكيف يدعونه الى المباراة ، ويطلقون عليه النار دون أن يقولوا له انتبه ! من حسن الحظ أن الرب قد رحمتنا . وماذا كان سبب هذه المباراة ؟ أي شاب في زماننا هذا لم يقيم بمغامرة غرامية ؟ فاذا كان الزوج غيورا تلك الغيرة كلها ، فلماذا لم ينبهه من قبل ، بدلا من أن يتحمل ملازمته للأسرة سنة كاملة ؟ ولئن دعاه الى المباراة ، فلانه كان يظن أن فيديا لن يقاتله لكونه مدينا له . خسة ! دناءة ! أنا أعلم ياكونت أنك قد فهمت ابني الغالي فيديا ، لذلك أحبك بكل قلبي . ما أقل الذين يفهمونه . الا ان نفسه لتبلغ غاية السمو والرفعة ، انها نفس سماوية !

وكان دولوخوف يقول لروستوف أمورا ما كان للمرء أن يتوقعها

منه :

— أنا أعلم أن الناس يعدونني رجلا شريرا . ولكن هذا لا يهمني . انني لا أريد أن أعرف الا الذين أحبهم . واذا أحببت أحدا أحبته جبا يملأ نفسي ويجعلني قادرا على أن أحب له حياتي . أما الآخرون فسوف أسحقهم جميعا اذا هم خطر ببالهم أن يقفوا في طريقي . ان لي أما

أعبدتها عبادة ، أما لا يمكن أن أوفيها حقها من التقدير مهما أُجزل
 الثناء عليها والحمد لها ؛ ولي صديقان أو ثلاثة أصدقاء أنت أحدهم .
 أما الآخرون فلا يعنيني أمرهم الا بمقدار ما يمكن أن يجلبوا لي تقعا
 أو يلحقوا بي ضررا . وكلهم تقريبا يضر ولا ينفع . ولا سيما النساء .
 نعم يا عزيزي ، لئن رأيت في حياتي رجلا لهم قلب طيب وعواطف
 نبيلة ، فأنني لم أر بين النساء الا مخلوقات تباع وتشترى ، يصدق هذا
 عليهن جميعا ، من الكوتتيسات الى الخادومات . لم أقع بعد على تلك
 الطهارة الالهية ، وذلك الاخلاص الصادق الذي أنشده في المرأة . أما
 هاته ال . . . !

قال ذلك وهو يحرك يده بإشارة احتقار . وتابع كلامه :

— . . . وصدقني اذا قلت لك انني اذا كنت لا أزال أحرص على
 الحياة ، فلسبب واحد لا ثاني له ، هو أن أعثر في ذات يوم على الطائر
 النادر ، على الانسان السماوي الذي يعثني بعثا جديدا ، ويطهرني ،
 ويسمو بي . ولكنك لا تفهم ما أقول . . .

— بلى ! انني أفهم فهما واضحا جدا .

بذلك أجاب روستوف وقد افتتننا كاملا بصديقه الجديد .
 جاء الخريف ، فعاد آل روستوف الى موسكو . وفي أول الشتاء
 رجع اليها دينيسوف أيضا ، ونزل ضيفا عليهم . ان هذا الشتاء من عام
 ١٨٠٦ ، وهو أول شتاء يقضيه نيقولا روستوف بموسكو ، كان ، بين
 فصول الشتاء التي عاشتها هذه الاسرة ، من أزخرها بالفرح والسعادة .
 وجود نيقولا اجتذب عددا كبيرا من الشبان . فيرا فتاة جميلة في

العشرين من العمر • صونيا فتاة في السادسة عشرة يتفتح حسننها أجمل ما يكون الحسن ، وأرق ما تكون الرشاقة • ناتاشا ماهي بالبنية الصغيرة ولا هي بالأنسة ، تجمع بين السذاجة المضحكة في الطفلة وبين الاغراء الأخاذ في الفتاة •

فكان منزل آل روستوف في ذلك الوقت مشبعاً بذلك الجو الغرامي الذي يملأ جوانب كل منزل يكثر فيه وجود صبايا جميلات جدا • وكان جميع الشبان الذين يدخلون هذا المنزل ويرون هذه الوجوه الفتية ، المتأهبة لتلقي كل تأثير ، المبسمة فرحاً بسعادتها في أغلب الظن ، ويرون هذا الذهاب والاياب ، وهذه الحركة النشطة، ويسمعون الاغاني والموسيقى وثرثرة الصبايا ، وهي ثرثرة مفككة خالية من روح الانسجام المنطقي ، ولكنها مفعمة بالعاطفة ، ملأى بالأمل ، مترعة بسلامة النية وحسن الارادة ، أقول كان هؤلاء الشبان يشاركون في هذا الانتظار ، انتظار الحب والسعادة ، الذي كانت تحيا به شبيبة منزل آل روستوف •

وقد استطاع دولوخوف الذي أدخله نيقولا الى هذا المنزل اول من أدخل من شبان أن يغزو قلوب الجميع ، الا ناتاشا التي كادت في هذه المناسبة تغاضب أخاها • كانت ناتاشا تذهب الى ان هذا الرجل الشرير كان وحده المذنب في مبارزته مع بطرس ، فهو الذي ارتكب جميع الاخطاء ، وعليه ان تقع جميع التبعات ، وأنه عدا ذلك مزعج متصنع • وكانت تصرخ قائلة في عناد واصرار :

— لا يهمني أن أفهمه • انظر مثلاً الى صاحبك دينيسوف : تستطيع

أن تقول عنه انه ما جن عرييد ، وتستطيع أن تقول عنه ماشئت ، ولكن هذا لا يسعني من أن أحبه فأفهمه • لا أدري كيف السبيل الى جعلك تحس بهذا ... ان كل شيء عند دولوخوف محسوب سلفا ؛ وذلك ما لا يعجبني • على حين أن دنييسوف ...

قال نيقولا يقاطعها بلهجة يثفهم منها أن دنييسوف نفسه ليس بذى قيمة اذا قيس بدولوخوف :

— دنييسوف شيء آخر ... ان عليك أن تعرفي ما يملكه هذا الفتى من نفس كبيرة وقلب كبير ، أن تعرفي كيف يعامل أمه ...

— هذا أجهله • ولكنني أحس بضيق حين يحضر ... هل تعرف أنه موله بحب صونيا ؟

— يا للسخافة !

— أنا مؤمنة ! سوف ترى •

ولقد كان ظن ناتاشا في محله • كان ظنها صادقا • ان دولوخوف الذي كان لا يحب صحبة السيدات ، قد أصبح ضيفا على هذا المنزل لا يكاد يبارحه • وأدرك الجميع أنه انما يجيء من أجل صونيا ، دون أن يقول أحد كلمة واحدة في هذا الامر • وكانت صونيا تعرف هذه الحقيقة حق معرفتها ، رغم انها ما كان لها ان تجسر على ذكرها يوما ، وكانت تحمر احمرارا شديدا كلما ظهر دولوخوف في الصالون •

وكان دولوخوف يتعشى في كثير من الاحيان عند آل روستوف، ولا يفوّت على نفسه أن يذهب الى أي مسرح يذهبون اليه ، حتى لقد

كان يتردد على حفلات رقص « المراهقين » التي كان يقيمها معلم الرقص بوجيل ، والتي كان هؤلاء الفتيات لا يتخلفن عن حضور حفلة واحدة منها . وكان دولوخوف في هذه الحفلات يبدو شديد الانتباه الى صونيا ، وكان يحتضنها بنظرة خاصة لا يقع عليها بصر الفتاة الا وتحمر ، حتى ان الكونتيسة وناتاشا تشعران بالحمرة تصبغ وجهيهما . كان واضحا أن هذا الرجل الذي يتصف بالقوة ولكنه غريب الاطوار ، كانت قد سيطرت عليه هذه السمراء الصغيرة المأخوذة بحب رجل آخر ، سيطرة لاسبيل له الى مقاومتها .

وأدرك نيقولا أن هناك شيئا ما بين دولوخوف وصونيا ، دون ان يفهم الامر على وجه الدقة . فكان يقول لنفسه وهو يفكر في أخته وفي قريبته : « ها ! لابد لهاته الصبيات أن يكن مغرمات بأحد في أي وقت ! » . وفي أثناء ذلك اصبح مكثه في المنزل يقل يوما بعد يوم ، لانه أصبح لا يجد نفسه مرتاحا في صحبة دولوخوف وصونيا . ومنذ خريف عام ١٨٠٦ عاد الناس يتحدثون عن محاربة نابوليون، بل صاروا يتحدثون عن هذه الحرب بحرارة لاتضارعها حرارة حديثهم عنها في السنة الماضية . وصدر قرار بتجنيد عشرة من ألف للجيش العامل ، وتسعة من ألف للميليشيا . وراحت اللعنات تنصب على بونايرت من كل جهة . وأصبحت موسكو لاتتكلم الا عن وشك استئناف القتال . وكان يمكن أن لايهتم آل روستوف بهذه الاستعدادات كلها الا اهتماما يسيرا لولا ابنهم ! الغالي نيقولا . ان الفتى يرفض رفضا مطلقا أن يبقى بموسكو ، ولا ينتظر الا أن تنتهي اجازة دنييسوف ليلتحق معه بفوجه . بعد عيد الميلاد . على أن هذا السفر القريب كان لايمنعه من أن يعيش حياة مرحلة فرحة . حتى أن السفر كان يحضه على الاستزادة من هذه الحياة الفرحة المرحلة . وشغلته حفلات العشاء والسهرات وحفلات الرقص حتى صار لا يثرى في البيت الا لماما .

الفضل الحادى عشر

في اليوم الثالث من أعياد الميلاد تعشى نيقولا في منزل أهله
استثناء • وكان ذلك عشاء وداع ، لان السفر سيكون بعد عيد الغطاس
فورا • وكان المدعوون عشرة • وكان دولوخوف ودينيسوف بين
المدعوين •

لم يكن الهواء في منزل آل روستوف متشعبا بالحب كتشعبه به
في ذلك اليوم أبدا • كان الجو في منزل آل روستوف كأنه يقول لكل
قادم : « اختلس هذه اللحظات من السعادة • أحبّ وانحبّ ! فالحب
هو الشيء الوحيد الذي له قيمة ، وهو الشيء الوحيد الذي يهمننا ، لان
كل ماعداه ليس الا هذرا » •

وقد وصل روستوف الى المنزل في اللحظة التي كانوا يقومون فيها
الى المائدة ، على عادته دائما ، وذلك بعد أن أنهك عربتين دون أن
يستطيع القيام بجميع الزيارات الواجبة ، ولا أن يستجيب لجميع
الدعوات الموجهة اليه • فما ان وصل حتى لاحظ توتر جو الحب ،
ولاحظ ضيق عدد من الضيوف • وكان أوضح الحضور انفعالا
واضطرابا صونيا ودولوخوف والكوتيسة وناتاشا نفسها • فقدّر ان
شيئا لا بد أن يكون قد حدث قبل العشاء بين صونيا ودولوخوف •
واستطاع بما أوتي من رهافة الشعور أن يحتفظ في معاملتهما لهما

كليهما برصانة مفعمة عاطفة ومجبة • وكان ذلك المساء موعدا لحفلة
من حفلات الرقص التي يقيمها يوجيل لتلامذته من الجنسين •

قالت ناتاشا تسأله :

— نيقولا ، عزيزي ، ستصحبنا الى حفلة يوجيل ، أليس كذلك ؟
انه يعّول على مجيئك • وقد وعد فاسيلي دمترتش (وهو دينيسوف)
بأن يجيء •

فهتف دينيسوف يقول الذي كان يمثل على سبيل المزاح دور
الفارس الخادم لناتاشا :

— أي مكان لا أذهب اليه اذا صدر اليّ الامر من مولاتي بأن
أذهب ؟ انني مستعد في سبيل مسرعتها أن أرقص رقصة « خطوة
الشال » •

أجاب نيقولا :

— سأجيء أنا أيضا اذا وجدت في وقتي دقيقة خالية • لقد وعدت
آل آرخاروف بأن أشارك في سهرتهم •

وأضاف يقول ملتفتا نحو دولوخوف :

— وأنت ؟

ولكنه سرعان ما لاحظ أنه كان من الافضل أن لا يلقي على
دولوخوف هذا السؤال •

أجاب دولوخوف يقول بغتة بعنف :

— نعم ، ممكن •

وبعد أن ألقى على صونيا نظرة سريعة ، التفت الى نيقولا ، فاذا

بعينه قد اكتسب ذلك التعبير نفسه الذي كان فيهما حين تفرس في وجه بطرس أثناء تلك الولية التي اقيمت في النادي الانجليزي تكريما للامير باجراتيون •

قال نيقولا لنفسه : « لابد أن شيئا قد حدث حتما » ، وتعزرت شبهاته مزيدا من التعزز حين رأى دولوخوف ينصرف بعد القيام عن المائدة فورا •

فنادى ناتاشا وسألها عما حدث •

قالت له ناتاشا وهي تهرع اليه :

— كنت أنا ابحت عنك ... •

وأضافت تقول بلهجة المنتصر :

— أخبرتك ولم تصدقني • لقد طلب من صونيا أن تقبله زوجا •

فحين علم روستوف بهذا النبأ شعر بانقباض في صدره ، رغم ان صونيا أصبحت منذ مدة طويلة لا تشغل باله كثيرا ولا تهمه كثيرا •

والحق أن دولوخوف يجب أن يُعبد زوجا مناسبا جدا لفتاة يتيمة كصونيا ، بل يجب أن يعد زوجا ممتازا من بعض النواحي • لذلك كانت الكونتيسة وكان الجميع يرون أن رفضه أمر غير معقول • ولذلك أيضا همّ نيقولا أن يقول منقادا لغضب اعتراه في الوهلة الاولى : « ليكن ! لتنسى ارتباطات الطفولة ولتقبله زوجا ! » • ولكن الوقت لم يتسع له ، إذ استأنفت ناتاشا كلامها فقالت :

— تصور أنها رفضته ، رفضته رفضا قاطعا • وأضافت ناتاشا تقول بعد وهلة صمت :

— حتى لقد قالت له انها تحب رجلا آخر •

فقال نيقولا لنفسه : « ماكنت اتوقع من صونيا أقل من هذا » •
وأردفت ناتاشا :

— وما أكثر ما توسلت اليها ماما أن تقبل فأصرت على الرفض
اصرارا لم تتزحزح عنه • وأنا أعلم أنها لن تنكل عما قالت بهال من
الاحوال •

سألها نيقولا مغتاظا :

— ماما توسلت اليها ان تقبل ؟

— نعم ••• اسمع يا نيقولا • لا تزعل مني • أنا أعلم لن تتزوجها •
لا • لن تتزوجها • أنا واثقة بهذا ثقة تامة لا ادري لماذا • ولكنني
واثقة •

فاعترض نيقولا قائلا :

— هذا ما لاتستطيعين أن تعلميه • ولكن يجب أن أكلّمها •••

ثم أضاف يقول مبتسما :

— انها فتانة رائعة ، صونيا هذه •

— أعتقد أنها فتانة رائعة ! سأرسلها اليك •

قالت ناتاشا ذلك ووثبت الى عنق أخيها وأسرعت تركض ركضا •
فما هي الا ثوان قليلة حتى دخلت صونيا مضطربة خجلى مرتاعة تعبر
هيئتها عن معنى ارتكاب ذنب •

فاقترب منها نيقولا وقبل يدها • وكانت تلك أول مرة يخلو فيها أحدهما الى الآخر منذ عودته ، ويتحدثان فيها بصراحة •

بدأ روستوف يتكلم بلهجة كانت خائفة في أول الامر ثم ما انفكت تقوى وتقوى حتى أصبحت في النهاية جراءة وجسارة فقال :

— صوني ! هل يُعقل أن ترفضى هذا الشاب اللامع زوجا لك ؟ ... انه فتى ممتاز ذو قلب نبيل ... وهو فوق ذلك صديقي •
فأسرعت صونيا تقاطعه فتقول :

— رفضت وانتهى الامر •

— اذا كنتِ رفضته من أجلي أنا ، فأنني أخشى من جهتي ...
فقاطعت صونيا مرة أخرى ، قائلة له وهي تتوسل اليه بنظرتها توسلا :

— نيقولا ! لاتقل لي هذا الكلام ...

— بل يجب علي أن أقوله • قد يكون هذا مني صلفا ، ولكن يجب أن أتكلم • ذلك أفضل • اذا كنت ترفضينه من أجلي • فينبغي أن أقول لك الحقيقة • صحيح أنني أحبك ، ولعلني أحبك أكثر مما أحب أي انسان في العالم ...

قالت صونيا وقد احمر وجهها :

— وهذا يكفيني •

— نعم ، ولكنني أغرمت أكثر من مرة ، وسوف يقع لي هذا مرارا أخرى ، رغم أنه ما من امرأة أوحث اليّ بالثقة التي توحين بها

أنت الي ، ولا أيقظت في نفسي من العاطفة والمحبة ما توقظين • ثم ان
ماما لا ترغب في هذا الزواج • الخلاصة أنني لا ارتبط بشيء، ولا ألترم
بشيء لذلك ارجوك ان تفكري في طلب دولوخوف •

بهذا ختم روستوف كلامه وهو ينطق اسم صديقه بجهد ومشقة •

قالت صونيا :

— لماذا تقول لي هذا الكلام ؟ انني لا أطلب شيئاً ، ولا أرغب في
شيء • انني أحبك أخا ، وسأظل أحبك دائماً • ما حاجتي الى اكثر
من هذا ؟

— أنت ملاك • ولست جديرا بك • كل ما أخشاه هو أن أخيب
أملك ، فلا أحقق ما تنتظرين •
وقبل يدها مرة أخرى •

الفصل الثاني عشر

كانت حفلات الرقص التي يقيمها يوجيل من أحلى حفلات الرقص التي تقام بموسكو . ذلك ما كانت تقوله الامهات حين تنظر الى « مراهقاتهن » وهن يحاولن رقص الخطوات التي تعلمنها منذ برهة ؛ وذلك ما كانت تقوله المراهقات أنفسهن ؛ وذلك ما كان يقوله المراهقون الذين يتقبلون على تلك الحفلات فرحين ، وذلك ما كان يقوله الشبان الذين يدعون اليها تفضلا وتنازلا ، ويجدون فيها من المسرة والبهجة ما لا يجدونه في أي مكان آخر . وفي تلك السنة نفسها كان قد تم في هذه الحفلات زواجان اثنان : فبلغ صيت هذه الحفلات ذروة الذيوع اذ رقصت فيهما الاميرتان الجيئتان جورتشاكوف على زوجين لهما . وكانت تستاز هذه الحفلات بأن المرء لا يرى فيها ربة منزل او رب منزل : لقد كان يوجيل الطيب ، يرفرف كريشة طائر ، موزعا تحيات الاحترام على أحسن صورة يجيدها من قواعد فنه ، ويتقبل الاوامر من كل مدعويه . أضف الى ذلك أن حفلاته كانت لا يختلف اليها الا أفراد شرمون الى بهجة الرقص ، كشراهة الصبايا الصغيرات اليه حين تكون أعمارهن بين الثالثة عشرة والرابعة عشرة ، وحين يرتدين فستانا طويلا لأول مرة . وكن كلهن جسيلا . أو كن كلهن يظهرن جسيلا ، من شدة الحماسة في ابتسامهن واتقاد البريق في اعينهن ، باستثناء قلة

قليلة لا تذكر . وكان המתازون من التلاميذ يجازفون أحيانا فيرقصون رقصة خطوة الشمال ، فما كان أحد منهم يبدو في هذه الرقصة رشيقا كرشاقة ناتاشا . ولكن الحفلة في هذه المرة ستقتصر على الرقصة الايقوسية والرقصة الانجليزية ورقصة المازوركا . وكان يوجيل قد استعار لاقامة هذه الحفلة صالونا بمنزل بيزوخوف ، فعُدَّ هذا له نجاحا كاملا وانتصارا عظيما .

كانت الفتاة الجميلات في هذه الحفلة كثيرات ، وكانت الآنستان روستوف ، اللتان تتألقان كلتاهما سعادة ، تُعدَّان من اجمل هؤلاء الفتيات . وكانت صونيا من فرط اعتزازها بأن دولوخوف طلبها زوجة له فرفضته رفضا قاطعا ، ومن شدة فرحها بالمكاشفة التي تمت بينها وبين نيقولا ، تستدير حول نفسها ، وتدور حول قدم واحدة ، وتتهزز وتترجرج منذ أن كانت في منزلها ، حتى أن ذلك أغضب الخادمة التي كانت تصفف لها شعرها وملأ نفسها كمدا وكربا . ان فرحا مسعورا قد أحالها انسانا آخر . وكانت ناتاشا لا تقل اعتزازا بارتدائها فستانا طويلا لأول مرة في حفلة رقص حقيقية ، حتى لقد كان في اندفاعها وحماستها مزيد من الهذيان . وكانت الفتاتان كلتاهما ترتديان فستانين من موسلين أبيض تزيينه أشرطة وردية .

ما ان دخلت ناتاشا الصالة حتى انقادت لميلها الى الحب ، فأخذت بجميع الشبان على السواء : ما ان يقع بصرها على واحد حتى تغرم به . . . الى ان تنتقل نظراتها الى واحد آخر . وكانت كلما وجدت نفسها قريبة من صونيا تقول لها :

— آه ... ما أحلى هذا !

وكان نيقولا و دينيسوف يذهبان ويجيئان ، متفضلين على
الراقصين بنظرات مودة تحمل معنى الحماية •

قال دينيسوف :

— انها أخذة فتاة • لتكونن آية من آيات الجمال !

— من هي ؟

— الكوتيسة ناتاليا !

وأضاف يقول بعد لحظة :

— ما أبدع رقصها ! ما أرشق حركتها !

سأله روستوف :

— عن تتكلم ؟ من التي تعنيها ؟

فأجابه دينيسوف متذمرا :

— عن أختك طبعا !

فابتسم دينيسوف •

وجاء يوجيل الضئيل الى نيقولا ، فقال له :

— عزيزي الكونت ، انك من خير تلامذتي ، فيجب أن ترقص ،

أنظر ما أكثر الأنسات الجميلات !

وتوجه بهذا الرجاء نفسه الى دينيسوف الذي كان هو أيضا

أحد تلامذته •

فأجابه دينيسوف :

— لا يا عزيزي ، أنا ألتصق بالجدار دون حراك ، فاني لم أحسن الاستفادة من دروسك . ألا تتذكر ؟

فأسرع يوجيل يقول بلهجة المواسي :

— لا ، ليس الامر كذلك . صحيح أنك كنت ذاهلاً بعض الدهول ، ولكنك كنت تملك استعدادات طيبة ؛ نعم ، نعم ، كنت تملك استعدادات طيبة .

وبدا العازفون يعزفون لحن رقصة المازوركا التي كانت آنذاك في بداية رواجها . وأول معرفة الناس بها .

واستجاب نيقولا لالاحاح يوجيل ، فقام يراقص صونيا . ومضى دينيسوف يجلس بقرب سيدات عجائز ، ويقرّع بقدمه الأرض على إيقاع اللحن متكئاً بكوعه على سيفه ، ويُجرى بينه وبين هؤلاء العجائز أحاديث فيها هزل ومزاج ، مع استمراره في النظر الى الشبيبة وهي ترقص . وكان يوجيل أول من راقص ناتاشا ، تلميذته التي هي محل اعتزازه وافتخاره ، والتي هي خير تلامذته طراً . انزلق انزلاقاً ليلاً على حذاءيه الخفيفين ، واندفع يطوف الصالة بمراقصته التي كانت وجلة ولكنها كانت تبرز خطواتها بكثير من الاجتهاد والدقة . فكان دينيسوف لا يحوّل بصره عنها ، وكانت طريقتة في قرع الأرض بقدمه على إيقاع الوزن تعني انه اذا كان قد امتنع عن الرقص ، فليس مردّ ذلك الى أنه لا يستطيع ، بل الى أنه لا يريد . وفيما كان يوجيل في

منتصف احدى صور رقصته ، مرّ روستوف بدينيسوف ، فناده
دينيسوف وقال له :

— ليست هذه هي الرقصة ... ليست هذه هي المازوركا
البولندية • ولكنها تجيد الرقص اجادة مدهشة •

وكان يقولان يعرف أن دينيسوف يُعدّ من أكثر الناس اتقاناً
لرقصة المازوركا حتى في بولنده نفسها ، فأسرع الى ناتاشا وقال لها :
— اذهبي الى دينيسوف فراقصيه ، فانه في رقصة المازوركا
فنان ماهر •

فلما جاء دور ناتاشا لترقص مرة أخرى ، نهضت من مكانها ،
وانزلت على حذاءها الصغيرتين اللذين تزينهما الشراريب ، واحمر
وجهها حياءً من النظرات التي انصبت عليها من كل جهة ، وبلغت
الركن الذي كان يجلس فيه دينيسوف • وقد رآهما يقولان يتناقشان
مبتسمين : فكان يبدو أن دينيسوف يتمنع بلطف ورقة ، فسرعان ما
هبّ الى النجدة •

كانت ناتاشا تقول لدينيسوف :

— أرجوك يا فاسيلي دمرتش • تعال • أرجواؤ •
فيجبها دينيسوف :

— اغفني يا كوتيسة !
فتدخل يقولان قائلاً :

— ما لك يا فاسيا ؟ لماذا لا تمتثل ؟
فأجاب دينيسوف مازحاً :

— كأنهما يلاطفان قطهما ؛

قالت ناتاشا تعدده :

— لأغنين لك طوال السهرة •

فقال دينيسوف وهو يفك سيفه :

— يا للمخادعة ! انها تفعل بي ما تشاء !

وخرج من صف الكراسي ، وأمسك يد مراقسته إمساكاً قويا ،
ونصب رأسه عاليا ، ومد ساقه ينتظر الايقاع • ان ضالة قامة
دينيسوف تغيب عن الاقطار في مناسبتين لا ثالثة لهما : حين يكون
على صهوة جواده ، وحين يرقص المازوركا • ففي هاتين المناسبتين
وحدهما لا يلح المرء أن قامته ليست بالقامة الفارعة الجميلة •

تغير دينيسوف تغيرا تاما فاذا هو ذلك الفتى الخشن الجميل
الذي كان يود دائما لو يكونه •

حتى اذا جاء دوره في الرقص ألقى على مراقسته نظرة فيها
ملاطفة وفيها معنى الانتصار في آن واحد ، ثم قرع الارض بقدمه قرعة
النداء ، ثم اذا هو ينط نطة كرة من المطاط جارا ناتاشا الى الرقص ،
وراح يشب على قدم واحدة فقطع نصف الصالة دون أن يحدث بوثوبه
أي ضجة ، ودون أن يبدو عليه أنه يرى الكراسي التي تعترض طريقه ،
فكان الناظرون اليه يعتقدون انه سيصطدم بها لا محالة ، فاذا هو
يباعد ساقيه ويثرن مهازيه فجأة ، ويتوقف على كعبيه لحظة ، مكثرا

(١) ان فاسيا هو تصغير اسم فاسيلي (واسم دينيسوف هو فاسيلي) ، ولكن اسم
فاسيا هو الاسم المألوف الذي تسمى به القطة ايضا .

من قرعات النداء ، ثم يدور دورة سريعة ، ويلتحق بسلسلة الراقصين ، ضاربا قدمه اليمنى بقدمه اليسرى بغير انقطاع . وكانت ناتاشا تحزر كل نية من نياته فتستجيب لها ، وتنفاد لها بغير شعور . وكان هو يجعلها تدور على نفسها بيده اليمنى تارة ، وييدها تارة أخرى ، وربما جثا على ركبتيه فجعلها ترسم حوله دائرة ، ثم اذا هو ينتصب فجأة ، ويستأنف جريه المسعور كأنه يريد أن يطوف الصالات كلها باندفاع واحدة . وقد يتوقف أحيانا على حين بغتة دون أن يتوقع أحد ذلك ، فاذا هو يجري حركات صورة جديدة من صور رقصة المازوركا .

وبعد انكفاء عظيمة رائعة ، جمّد مراقصته أمام المكان الذي كانت فيه قبل أن تجيء اليه ، وانحنى لها وهو يُرنثُ مهمازيه آخر مرة ، حتى ان ناتاشا لم تملك من حضور البديهة ما يجعلها تحييه منحية حانية ساقها ، وانما حدثت اليه بعينيها المتسمتين المدهوشتين ، وكأنها لا تعرفه .

ودمدت تقول :

— ما هذا ؟

وزعم يوجيل مصرا على أن هذا لم يكن رقصة المازوركا الحقيقية ، ولكن زعمه لم يمنع المشاهدين من الافتتان جميعا بمهارة دينيسوف وحذقه . وأخذت البنات تتهافت على مراقصته متنافسات ، بينما كان الشيوخ يستحضرون ذكرياتهم عن بولنده ويستعيدون صور العهد الماضي الجميل مبتسمين .

وجلس دينيسوف أخيرا بقرب ناتاشا وقد اصطبغ وجهه بحمرة شديدة وأخذ يجفف عرقه ، ثم لم يفارقها طوال السهرة .

الفصل الثالث عشر

لا في غدٍ ولا في غداة غدٍ جاء دولوخوف الى منزل آل روستوف . ولا كان يقولوا يذهب اليه أيضا . ولكنه تلقى منه بعد ثلاثة أيام رسالة قصيرة هذا نصها :

« لما كنت لا أنوي بعد الآن أن أجيء اليكم ، للأسباب التي تعرفها ، ولما كنت من جهة أخرى ، عائدا الى الجيش ، فاني أولم هذه الليلة عشاءً لوداع الاصدقاء . فتعال الى فندق انجلترا » .

فلما أن خرج روستوف من المسرح بعد أن صحب اليه أسرته ودينيسوف ، ذهب الى فندق انجلترا في نحو الساعة العاشرة من المساء . فرعان ما قادوه الى أحسن حجرة في هذا الفندق ، وهي الحجرة التي استأجرها دولوخوف ليشغلها هو وصحبه طول الليل . كان زهاء عشرين مدعوا متجمعين حول مائدة تكدست عليها نقود ذهبية وأوراق مالية . وكان دولوخوف متصدراً المائدة بين شمتين يوزع الورق .

إن يقولوا الذي لم يلق دولوخوف منذ رفض صونيا ، كان يوجس شرا من هذا اللقاء الاول . فما ان دخل باب الحجرة حتى وقع بصره على نظرة دولوخوف باردة مشعة فكأن دولوخوف ينتظره منذ مدة طويلة .

قال له دولوخوف :

— لم نلتق منذ مدة طويلة • شكرا لمجيئك • متى أنهيت توزيع ورق هذه الدورة وصل إليوشا مع المغنين •
فأجابه روستوف وقد احمر وجهه :
— ذهبت اليك مرتين أو ثلاث مرات •

فقال له دولوخوف دون أن يولي كلامه أي اهتمام :
— في إمكانك أن تشاركنا في اللعب فتخط مبلغا •

فما ان سمع روستوف هذه الدعوة الى المشاركة في المقامرة حتى تذكر ، على حين فجأة ، حديثا غريبا جرى بينه وبين دولوخوف ذات يوم • لقد قال له دولوخوف في ذلك اليوم : « الحمقى وحدهم يقامرون عرضا » •

واستأنف دولوخوف كلامه فقال مبتسما وكأنه يقرأ ما خطر ببال روستوف :

— أترأك خائفا من المقامرة معي ؟

رأى روستوف من خلال ابتسامة صديقه تلك الحالة النفسية التي تعتريه كلما سئم حياة رتيبة — كما حدث في الأدبة التي أقيمت للامير باجراتيون — ف شعر بالحاجة الى الخروج من هذه الحياة الرتيبة بالقيام بعمل غريب شاذ ، قاسٍ في أكثر الاحيان •

تضايق نيقولا وأخذ يسأل نفسه عن مزاحمة يرد بها على دولوخوف ، فاذا بدولوخوف يحدّق الى بياض عينيه فجأة ، ويقول له

موقعا كلماته توقيعا يجعل الحضور جميعهم قادرين على أن يسمعوها :

— تذكرُ أننا قلنا ذات يوم - الحمقى وحدهم يقامرون عرضا .

فالى النهاية انما ينبغي للمرء أن يقامر ، واني لأريد أن أحاول ...

تساءل روستوف : « أجرب حظي ، أم أقامر الى النهاية ؟ » .

وواصل دولوخوف كلامه فقال وهو يخلط الأوراق :

— ... وربما كنت تحسن صنعا كذلك اذا أنت لم تقامر .

وأضاف يخاطب اللاعبين :

— بنك يا سادة !

وبسط على المائدة ماله ، وأخذ يوزع الورق . وجلس

روستوف الى جانبه ، منتعنا في البداية أن يستجيب لتحديه . فرشقه

دولوخوف بنظرة شزراء . وقال له :

— ألا تريد اذن أن تقامر ؟

فشعر روستوف شعورا غريبا بأنه مجبر على أن يأخذ ورقة وأن

يحط مبلغا صغيرا تافها . وقال :

— لست أحمل مالا .

— أقرضك .

فحطَّ روستوف خمسة روبلات على ورقة فخر . فحطَّ

حطَّة ثانية فخر أيضا . و « كسر » له دولوخوف عشر ورقات واحدة

تلو أخرى .

وقال بعد أن استلم البنك مدة من الوقت :

— يا سادة ، يجب أن أرجوكم أن تضعوا مبالغكم على الاوراق ،
والا كان يمكن أن أخطيء في الحسابات •

فقال أحد المقامرين معترضا :

— أظن انني أهل للثقة !

فانبرى دولوخوف يقول :

— طبعاً ، ولكنني أخشى أن أخطيء • فأرجوكم أن تضعوا
مبالغكم على الاوراق •

وأضاف مخاطبا نيقولا :

— أما أنت فلا تزعج نفسك ، فسوف نسوّي الامور بيننا دائما •

واستمر اللعب • وكان الساقى لا ينفك يسكب شمبانيا •

« كسرت » أوراق روستوف كلها تقريبا ، ولم يلبث أن بلغ
حسابه ثمانمائة روبل • وهمّ أن يسجل هذا الرقم على هذه الورقة ،
ولكنه عدل عن هذا بينما كانت تُصبّ له الشمبانيا ، ولم يسجّل الا
العشرين روبلا التي كانت هي حطته العادية •

قال له دولوخوف متظاهرا بأنه لا يراه :

— سجّل كل المبلغ ، فتتدارك الخسارة بسرعة أكبر • انني أدفع
لجميع الاوراق ، و « أكر » أوراقك أنت كلها • أترك خائفا مني ؟
خضع روستوف • فتناول من الارض ورقة كبتا مكسورة —
سوف يحتفظ بذكرها زمتا طويلا ، وسجل عليها العدد « ٨٠٠ » ،
بخطوط مستقيمة ، متقنة ، وشرب كأس الشمبانيا جرعة واحدة ، وكان

كأس الشسبانيا الذي سكب له في هذه المرة ساخنا ، وابتسم لما قاله دولوخوف ، وأخذ قلبه يدق وهو لا ينظر الى يدي صاحب البنك ، وقد امتلأ قلبه أملا في أن يراه يقلب « سبعة » . ان للربح أو الخسارة عنده في هذه المرة شأننا كبيرا وخطورة عظيمة . ففي يوم الاحد الماضي كان إيليا آندرئتش ، وما بالشحيح أو الضعيف في العادة ، بل هو سخي كريم ، قد أنبأه وهو يعطيه ألفي روبل بأنه لن يستطيع أن يعطيه مبلغا آخر قبل شهر أيار (مايو) ، فعلية في هذه المرة أن يعتمد الى شيء من الاقتصاد . بذلك أوصاه أبوه . وقد أجاب نيقولا أباه حينذاك بأن هذا المبلغ سيكفيه كفاية تامة حتى حلول الربيع ، وحلف أيمانا مغاظة أنه الى أن يحل الربيع لن يطلب من أبيه شيئا البتة . وقد أصبح لا يملك الآن الا ألفا ومائتين روبلا . فهذه الورقة ، ورقة السبعة الكبّا ، لا يتوقف عليها اذن إمكان خسارة ألف وستمائة روبل ، وانما يتوقف عليها أيضا خطر اخلافه الوعد الذي قطعه على نفسه . لذلك كان يرقب يدي دولوخوف قلقا أشد القلق : مهسوما أكبر الهم .

وكان يقول لنفسه : « أعطني هذه الورقة التي أنشدتها ، فأمضي أنعشى مع دينيسوف وناتاشا وصونيا ، وأحلف لا ألمس ورقة لعب في حياتي بعد اليوم أبدا ! » . وفي أثناء ذلك كانت الحوادث الصغيرة التي يعيشها في حياته بين أحضان أسرته ، من فكاهاته مع بيتيا ، الى محادثاته مع صونيا ، الى غنائها مع ناتاشا ، الى لعبه بالورق مع أبيه ، وحتى تكاسله على سرير الرخو ، كان هذا كله يخطر في ذاكرته قويا واضحا فاتنا . كسعادة انقضت منذ زمان طويل . وضاعت ، ولم يعرف كيف يقدرها حق قدرها . كان لا يستطيع أن يسلّم بأن تأتي مصادفة

بلهاء ، فتجعل « سبعة كبتا » على اليمين لا على الشمال ، فاذا هي تحرمه من تلك الهناء التي استردها كاملة ملأى ، وتفرقه في هوة من شرور وآلام لا يعرفها ولا عهد له بها . لا . ليس هذا ممكنا . . . ومع ذلك كان يرصد كل حركة من حركات يدي دولوخوف ، قلقا مغسوما مهموما . فاذا بهاتين اليدين المعروقتين ، البارزة عظامهما ، الأحمر لونهما ، اللتين يثرى شعرهما تحت الكمّين ، تضعان كدسة أوراق اللعب فجأة ، وتمسكان الغليون ، وتتناولان كأس الشمبانيا ، ويقول دولوخوف سائلا روستوف :

— ما أنت بالخائف اذن من المقامرة معي ؟

وكأنما أراد أن يروي قصة فرحة من القصص ، ارتد بجذعه الى مسند كرسيه ، وقال ببطء وهو يتنسم :

— نعم يا سادة ، لقد أفلت مني قولي انني كنت أعده في موسكو غشاشا . فأنصحكم اذن بأن تحذروني !
قال روستوف :

— وزّع !

فعقّب دولوخوف متراخيا متوانيا وهو يتناول أوراق اللعب وما يزال يضحك :

— آه من ثرائرات موسكو العجائز !

وصاح روستوف وهو يرفع يديه الى رأسه ، ويشد بهما شعره :
— آه !

ذلك أن السبعة التي كان يرجوها كانت الورقة الاولى من أوراق اللعب في التوزيع ، فها هو ذا اذن يخسر أكثر مما يستطيع أن يدفع .
قال له دولوخوف وهو ينظر اليه بطرف عينه :

— لا تفقد رصاتك !

وعاد يوزع الورق .

الفصل الرابع عشر

بعد ساعة ونصف ساعة أصبح أكثر اللاعبين لا يلعبون الا من باب التقيد بالشكل . وانصب الاهتمام باللعب كله على روستوف . وأصبح الدين المسجل عليه لا ألفا وستمائة روبل ، بل عمودا من الاعداد كان قد جمعها فرأى أنها بلغت آلاف الروبلات، وقدّر أن تكون الآن قد صارت زهاء خمسة عشر ألفا ، مع أنها تجاوزت في الواقع عشرين ألفا . أصبح دولو خوف لا ينتبه الى ما يقال ، ولا يقصّ حكايات . انه يرصد كل حركة من حركات روستوف ، ويلقي عليه نظرات خاطفة . كان قد قرر أن يستمر في اللعب الى أن يبلغ المجموع ثلاثة وأربعين ألف روبل ، لان عدد « ٤٣ » يساوي مجموع عمره وعمر صونيا . وكان روستوف واضعا رأسه في يديه ، متكئا بكوعه على المائدة الملاى بالتسجيلات ، مبتلا بالخمرة ، مرتبكا بأوراق اللعب . وكان يعذبه احساس غالب مسيطر : هو أن هاتين اليدين المعروقتين ، البارزة عظامهما ، الاحمر لونهما ، اللتين يحبهما ويكرههما في آن واحد ، يقبضان عليه قبضا ، ويتحكمان فيه تحكما ، فلا يستطيع أن يفلت منهما بحال من الاحوال .

« ستمائة روبل ، آص ، ضعّف ، تسعة ... لم يبق سبيل الى

استرداد الخسارة !... آه ... ما كان أعظم تسليتي وبهجتي ومرحي
لو كنت معكم !... ولكن ماذا ؟ ما هذا الذي يفعله ؟ لماذا يعاملني
هذه المعاملة ؟ » .

إذا أراد أن يجازف بمبلغ ضخّم ، تهرب دولوخوف من الموافقة
على المبلغ الضخم ، وتولّى بنفسه تحديد مقدار الحطة . فكان يقول
يستسلم لمشيئته ، ويدعو الله أن ينجده ويغيثه كما في ساحة معركة
أمستتن . وكان تارة يتخيل أن هذه الورقة من أوراق اللعب ، وهي
الاولى في كدسة الاوراق المثنية التي تبعثر تحت المائدة ، قادرة على
انقاذه ؛ وتارة يأخذ يعد الاضرار التي تزين سترته (الدولمان) ، محاولا
باختيار الورقة التي تقابل مجموع عدد الاضرار ، أن يسترد خسارته
دفعة واحدة ؛ وتارة يتضرع الى اللاعبين الآخرين بنظرات عينيه ؛ وتارة
يتفرس في وجه دولوخوف الذي اصبح كالجليد محاولا أن يدرك نياته ،
وأن يحزر ما عقد العزم عليه .

« عجيب ! انه يعرف حق المعرفة مال هذه الخسارة من شأن خطير
عندي . هل يمكن ان يرغب في دماري وخرابي ؟ لقد كان صديقي .
وكنت احبه . ولكن ماهذا الذي اقله ؟ هل الذنب ذنبه اذا هو واتاه
الحظ ؟ انني لم ارتكب أي عمل سيء . ولم اقتل أحدا ، ولا آذيت احدا ،
بل ماتت ان يلحق بأي انسان من الناس ضرر . فما هذا الحظ الرهيب
الذي يدمرني ؟ ومتى بدأ هذا الحظ الرهيب ؟ منذ بضع لحظات كنت
ادنو من هذه المائدة آملا ان اربح مائة روبل اشتري بها علبة الحلبي التي
كنت اود ان اهديها الى ماما في عيدها ، ثم اقبل راجعا على الفور » .

كنت عندئذ سعيدا سعادة عظيمة ، كنت حرا حرية كبيرة ، كنت مبتهجا ابتهاجا كثيرا ! وكنت لا ادرك سعادتي ! ... متى حل محل تلك السعادة هذا الوضع الرهيب الذي اجدني فيه الان ؟ ما العلاقة التي تجلي بها هذا التغير ؟ انني لم اغادر هذا المكان ، ولم اكف عن تناول أوراق اللعب ، ولم انقطع عن المقامرة بها، ولم اتوقف عن النظر الى هاتين اليدين الحاذقتين البارزة عظامهما . فمتى تم هذا ، وما هذا على وجه الدقة ؟ ان صحتي حسنة ، واني قوي الجسم ، ومازلت انا انا ، ومازلت في مكاني نفسه ... فلا بد ان هذا كله ليس الا حلما سيئا » .

وكان احمر الوجه غارقا في عرقه ، رغم ان جو الغرفة لم يكن حارا وكانت هيئته تثير في نفس من يراها خوفا وشفقة في آن واحد، ولا سيما بسبب ما كان يبذله من جهود شاقة في سبيل ان يظهر هاديء النفس رابط الجأش .

ووصل الحساب الى الرقم المشنوم : ثلاثة واربعين الف روبل . وكان روستوف يتأهب لمضاعفة الحطة التي ربحها وهي ثلاثة الاف روبل فاذا بروستوف يرمي الورق على المائدة محدثا ضجة ، ويأخذ يحصي مجموع ما على روستوف ، ولما كان يضغط الطبشورة ضغطا قويا للرسم ارقام كبيرة تسهل رؤيتها ، انكسرت الطبشورة بين اصابعه . فقال :

— آن اوان العشاء ياسادة . وهاهم البوهيميون قد وصلوا !

وكان عدد من رجال ونساء سمر الوجوه يدخلون الغرفة فعلا ، حاملين اليها من الخارج بردا ، ويمازح بعضهم بعضا بلهجة اهل بوهيميا . فأدرك نيقولا ان كل شيء قد انتهى . ولكن ذلك لم يمنعه ان يقول

بلهجة المتظاهر بقلّة الاكتراث ، كأنما لا يخصه على هذا السؤال الا
تلذذه بالمقامرة لا اكثر :

— ماذا ؟ اتكف عن التوزيع ؟ ولكنني هيات ورقة ...

وقال محدثا نفسه : « انتهى كل شيء • هلكت • لم يبق علي الا
ان اطلق رصاصة في راسي » • ولكن هذا لم يمنعه كذلك من ان يستأنف
كلامه قائلا في مرح :

— نعم ، هيات ورقة ... هل لنا بتوزيعه اخرى ؟

كان دولوخوف قد نظر في حاصل الجمع فرأى ان صافي الحساب
يزيد واحدا وعشرين روبلا على الرقم المدور الذي كان يريد (ثلاثة
واربعون الف روبل) فأجاب يقول مطاوعا وهو يبسط زاوية ورقته
المتنية ويسجل عليها الرقم ٢١ ، مشيرا الى هذا الرقم على عمود الجمع :

— لك ماتشاء • واحد وعشرون روبلا •

فقال روستوف :

— لا يهمني مقدار الحطة ، وانما يهمني ان ارى اتعطيني عشرة ام
« تكسر » لي ورقتي •

واخذ دولوخوف يوزع بالتباه شديد • اوه ! لشد ما كان
روستوف في تلك اللحظة يكره هاتين اليدين الاحمر لونهما ، القصيرة
اصابعهما ، اللتين يرى المرء شعرهما تحت الكمين ، الكمين تقبضان
عليه قبضا ، فلا سبيل له الى الافلات منهما •

قال دولوخوف وهو ينهض عن المائدة متمطيا :

— انك مدين لي بثلاثة واربعين روبلا ياكونت ! ياه ! ان المرء
ليتعب تعباً شديداً من بقاءه جالسا هذه المدة الطويلة كلها !
فعقب روستوف بقوله :

— انا ايضا تعبت !

ولاشك ان دولوخوف كان يحرص على ان يلمح الى انه لا يجب
ان يضيع وقته في المزاح ، فقال مخاطبا روستوف :

— متى تستطيع ان ترد الي هذا الدين ياكونت ؟

فأمسك روستوف ذراعه ، وسار به الى الغرفة المجاورة وقد احمر
وجهه احمراراً شديداً ، واعترف له هناك قائلاً :

— لن استطيع ان ادفع لك المبلغ كله . سأحرر لك سنداً .

فأجابه روستوف وهو ينظر في عينيه ويتسم ابتسامة باردة :

— اسمع ياروستوف . انك تعرف المثل : « من كان سعيداً في
الحب ، كان شقياً في القمار ! » . وقريبتك مجنونة حبا بك . فأنا اعرف
هذا .

حدث روستوف نفسه بقوله : « أوه ! يالهول العذاب الذي
يعانيه المرء حين يحس بسلطان هذا الرجل عليه ! » . وكان يعرف الضربة
القاسية التي سيحملها الى اهله اعترافه بالخسارة التي خسرها . ما عظم
الفرح الذي يمكن ان يشعر به لو تخلص من هذا الحلم الفظيع ، من
هذا الجاثوم الرهيب ، من هذا الكابوس المخزي ! وكان دولوخوف
يستطيع ان ينقذه . انه لايجعل ان دولوخوف يستطيع ان ينقذه ، ولكن
دولوخوف يجد لذة كبيرة في ان يعذب به عبثاً قطرة بقطرة !

قال دولوخوف ملحا ۱

— ان قريبتك ...

ولكن روستوف اسرع يقاطعه وقد اعترته نوبة حنق شديد ، فقال
صارخا :

— لا شأن لقريبتى بهذا الامر !

لندع قريبتى وشأنها !

— متى تنوي اذن ان تدفع لى دينى عليك ؟

فقال روستوف وهو يولي هاربا :

— غدا !

الفصل الخامس عشر

انه لامر سهل ان يقول المرء بلهجة سليمة : « غدا » . اما ان يرجع الى منزله وحيدا ، ويرى اخواته واخاه واباه وامه ، ويعترف بخسارته ويطلب مالا رغم العهد الذي قطعه على نفسه ، فذلك شيء فظيع .

لم يكن احد في المنزل قد نام . فبعد العودة من المسرح تحلقت الشبية حول البيانو . وما ان وطئت قدما نيقولا ارض الصالة حتى أحس بجو الحب والشعر الذي ساد المنزل طوال الشتاء والذي تركز في الايام الاخيرة على صونيا وناتاشا بعد تصريح دولوخوف وحفلة الرقص التي أقامها يوجيل ، اقول ما ان وطئت قدماء ارض الصالة حتى أحس بهذا الجو يغمره كالهواء الثقيل الذي يسبق العاصفة . كانت الفتيات ، بثيابهن الزرقاء التي لبسناها للمسرح ، سعيدات ، باسمات ، عارفات بأنهن جسيلاات جدا ، وكن واقفات بقرب البيانو . وكانت فيرا تلعب بالشطرنج مع شنشين في الصالون . وكانت الكوتتيسة تلعب بالورق لعبة « الصبر » مع سيدة عجوز نبيلة تقيم عندهم ، وذلك تزجيه للوقت بانتظار ابنها وزوجها . وكان دينيسوف جالسا الى البيانو ، ملتمع النظرة ، منفوش الشعر ، رادا احدى ساقيه الى وراء ، ينقر مفاتيح البيانو بأصابعه القصيرة، فيوقع انغاما، ويجيل عينين واسعتين وهو يغني

بصوته الذي كان صوتا أجش أبج لكنه سليم صحيح ، يعني قصيدة
من نظمه عنوانها « الساحرة » ، ويبحث عن يصاحبه في غنائها :

أواه ياساحرة !

أية قوة تدفعني الى ايقاظ هذه الاوتار الناعمة

ماهذه النار التي تلهين بها قلبي !

وما هذا الفرح الذي يجعل اصابعي تنبض !

وفيما كان دينيسوف يهدل هذه الرومانسة ، كانت عيناه اللتان
تشبهان العقيق ، ترسلان بروقا الى ناتاشا ، فكانت ناتاشا مفتونة
مسحورة ، ولكنها كانت في الوقت نفسه خائفة خوفا غامضا .

هتفت تقول دون ان تلاحظ اخاها :

— رائع ! غننا مقطعا اخر !

قال نيقولا لنفسه وهو يلقي نظرة على الصالون فيرى فيرا وأمه
والسيدة العجوز : « كل شيء هنا يجري مجراه » .

وصاحت ناتاشا تقول هارعة اليه :

— آ ... هذا نيقولا !

سألها نيقولا :

— هل بابا هنا ؟

فقالت ناتاشا دون ان تجيبه عن سؤاله :

— ما اعظم سروري بمجيئك • اننا تتسلى ونبتهج كثيرا • هل

تعلم ان فاسيلي دمترتش سيبقى يوما اخر من اجلي انا !
وقالت صونيا تجيب عن سؤاله الذي القاه على ناتاشا :
— لا ، لما يرجع بابا بعد .

وهتفت الكوتتيسة من الصالون تقول :

— ها انت ذا اخيرا ، ياكوكو . هلا جئت الي يا صديقي !

فأطاع نيقولا نداء امه : مضى اليها ، وقبل يدها ، وجلس بجانبها
صامتا لا ينطق بكلمة ، واسترسل في تأمل اصابع الكوتتيسة التي كانت
تصف اوراق اللعب .

قال دينيسوف :

— لا ، لا ، لا اعذار . انك مدينة لي باغنية « باركارولا » ،
فغنيها لي ، ارجوك ، اتوسل اليك ...

قالت الكوتتيسة تسأل بالنظرة ابنها الصامت الذي لا ينطق بكلمة:
— ما بك ؟

فأجاب كالمضايق من هذا السؤال الابدئي :

— لاشيء ! هل يعود بابا بعد قليل ؟

— اغلب الظن .

قال نيقولا لنفسه : « كل شيء يجري في مجراه هنا . الى اين
يمكن ان الجأ ؟ » .

ورجع الى الصالة الكبيرة .

كانت صونيا قد بدأت تعزف مقدمة « البكارولا » التي يحبها

دينيسوف • وكان دينيسوف يلتهم بعينه ناتاشا التي تتأهب للغناء •
وأخذ يقولوا يذرع الصالة ذاهبا آيبا •

« ما اسخفها من فكرة ان تدعى ناتاشا الى الغناء ! لكأنها تحسن
الغناء ! »

بذلك حدث يقولوا نفسه بينما كانت صونيا توقع انعام المقدمة •
وتابع حديثه الى نفسه يقول : « يارب ! يارب ! لقد هلكت ، لقد تلطخ
شرفي • رصاصة في رأسي • هذا نصيبي ! ••• هم يغنون فعلا ! •••
أأنصرف ؟ ولكن الى اين ؟ ••• فليغنوا على كل حال ، اذا كان هذا يحلو
لهم ! ••• » •

وتابع طوافه في الصالة مكفهر الهيئة ، وهو يلقي على البنات
ودينيسوف نظرات خاطفة ، ويتحاشى ان تلتقي نظراته بنظراتهم •

وكانت عينا صونيا ، الثابتتان عليه ، كأنهما تسألانه : « يقولوا ،
ماذا بك ؟ » لقد ادركت فورا ان شيئا قد وقع له • وتهرب يقولوا من
الاجابة عن هذا السؤال الاخرس •

وكانت ناتاشا ، هذه النحلة الرقيقة ، قد لاحظت هي ايضا ، منذ
اول وهلة ، حالة اخيها النفسية • ولكنها كانت قد بلغت من الفرح ومن
البعد عن كل فكرة محزنة ، انها تعمدت رفض الاهتمام بهذا الاحساس
الكئيب الذي ساورها ، وقالت لنفسها ! « علام افسد على نفسي فرصتها
وانشراحها بالمشاركة في هموم غيري ؟ ثم انني لا بد ان اكون على خطأ

فلا شك انه لا يقل فرحا عني ! » • كذلك يفكر الشبان في كثير من الاحيان •

وقالت تسأل صونيا وهي تسير الى وسط القاعة بخطى قوية موقعة ، رافعة راسها ، متمائلة تمايل الراقصات :
— أنت مستعدة يا صونيا ؟

وانما سارت الى وسط القاعة لان الصوت في رأيها يترجع هناك ترجعا أحسن • حتى اذا وصلت الى حيث كانت تريد ان تصل توقفت فجأة ، وكأنها تقول مجيبة على النظرة الزاخرة بالحماسة ، التي كان دينيسوف يرمقها بها : « انظر كيف أنا ! » •

تساءل نيقولا قائلا : « ما اللذة التي تجنيها من هذا التصنع ؟ هلا كفّت عن هذا الرياء ؟ شيء مخز ! » •

وأطلقت ناتاشا نغمتها الاولى ، واتسع حلقها ، ونهد صدرها ، واكتست نظرتها هيئة الجد • كانت في تلك اللحظة لا تفكر في أي شيء خاص ، وعن شفيتها اللتين قوَّستهما ابتسامة كانت تخرج أصوات يستطيع أي انسان أن يصدرها على ذلك الوزن نفسه ، أصوات تسمعا ألف مرة فلا تهزك ، ولكنها في المرة الاولى بعد الالف تجعلك ترتعش وتختلج وتذرف الدموع •

ان ناتاشا قد عكفت على الغناء جادة كل الجد طوال هذا الشتاء ، يحفزها الى ذلك ويحضها عليه ما كان يكيه لها دينيسوف من ثناء مفعم بالحماسة ، فتحرر صوتها من طابع الاجتهاد الطفولي المضحك الذي

كان يفسده من قبل ، ولكنه لما يصل بعد الى الكمال • فكان العارفون يصفون صوتها بقولهم : « هو صوت جميل ، ولكنه لما يستقم كل الاستقامة بعد ، فلا بد من تثقيفه مزيداً من التثقيف » • وكانوا من جهة أخرى لا يصدرون هذا الحكم الا بعد انقضاء مدة طويلة على انتهاء ناتاشا من الغناء • أما أثناء الغناء ، حين يصدح صوتها هذا الذي لما يُصقل بعد ، والذي يتقطع بتنفسها تقطعا رديئا ، والذي لا يستطيع أن يغير طبقته الا بجهد شاق ، فقد كان هؤلاء الحكام القساة يكتفون بمتعة الاصغاء الى هذا الصوت ، ولا يرغبون الا في المزيد من سماعه • لقد كان في صوتها نضارة عذراء ، وانطلاق على السجية لا يفسده شعور بما يملك من قوى ؛ كان مخملاً لما يشدّب بعد ، وكان هذا كله يبلغ من كمال الانسجام والاتساق مع نقائص التكنيك أنه يبدو للمرء أن أي تبديل فيه لا بد أن يسيء اليه •

تساءل نيقولا وقد حملت عيناه : « ما هذا ؟ ماذا حدث لها ؟ ما أجمل غناها اليوم ! » • ولم يلبث أن غرق جسما وروحا في انتظار النعمة التالية ، في انتظار الجملة التالية ذات الازمان الثلاثة :
Omiocyudele Affetto ... «واحد، اثنان ثلاثة...» واحد، اثنان ثلاثة
Omiocyudele Affetto ... «واحد، اثنان، ثلاثة، واحد...» أوه! وقال نيقولا محدثاً نفسه : « ما اسخف حياتنا ! ذلك كله ، الحظ العاثر ، والمال ، ودولوخوف ، والغضب ، والمجد ، نعم ذلك كله ما هو الا ترهات ... هذه هي الحقيقة • تشجعي ناتاشا ، تشجعي صديقتي ناتاشا ! أتراها تستطيع أن ترتقي الى هذه ال « سي » • مرحى ! لقد بلغتها ! » • وبدون أن يحس انه أخذ يغني ليقوّي هذه ال « سي » ،

نقل النعمة العليا الى الفاصلة الثلاثية ، ثم اذا هو يقول لنفسه : « ما كان أحلاها ! أنا أطلقت هذه النعمة حقا ؟ ما كان أعظم توفيقى في ذلك ! » •

آه ما كان أجمل رنين تلك النعمة على الفاصلة الثلاثية ، وما كان أقوى الانفعال الذي هزَّ أجمل ما في نفس روستوف ! انه يخلق الآن عاليا عاليا ، فلا يمكن أن يهتم بشيء ولا أن يحفل بشيء في هذا العالم !

قال يحدث نفسه : « لا تهمني خسارات القمار ولا يهمني أمثال دولو خوف ، ولا يهمني وعد بذلته أو عهد قطعته!... ذلك كله لغو!... • لقد يسرق المرء أو يقتل ، ثم هو يذوق السعادة كاملة ... » •

الفضل السادس عشر

منذ زمن طويل لم يكن روستوف قد وجد في سماع الموسيقى متعة كهذه المتعة ، وبهجة كهذه البهجة . ولكن ما ان أنهت ناتاشا أغنياتها حتى عاوده الشعور بالواقع . فخرج دون أن ينطق بكلمة واحدة ، ونزل الى غرفته . وبعد ربع ساعة رجع الكونت الشيخ من النادي منشرح المزاج رائق النفس . وسمع نيقولا وقع خطاه عائدا ، فسرعان ما مضى اليه .

قال ايليا أندروئتش روستوف يسأل ابنه مبتسما له معتزا به
اعتزازا متزعا بالفرح :

— هيه بني الشجاع ، لا بد أنك أحسنت الاستمتاع بوقتك ،
أليس كذلك ؟

فأراد نيقولا ان يجيبه بنعم ، ولكنه لم يقوَ على ذلك : لقد كانت شهقات تخنقه خنقا . وكان الكونت منصرفا الى اشغال غليونيه ، فلم يلاحظ ما كان عليه ابنه من حال .

قال نيقولا لنفسه وقد عزم على أن يخطو الخطوة وثبا : « هيا !
يجب أن انتهي من هذا الامر . » وقال يخاطب أباه فجأة بلهجة طليقة

أخجلته من نفسه ، وهي اللهجة التي كان يمكن أن يستعملها في طلب
عربة ثقله الى المدينة :

— بالمناسبة يا بابا ، لقد كدت أنسى أن أحدثك في الامر : انني
في حاجة الى مال •

وكان الكونت الشيخ منشرح المزاج جدا في ذلك المساء ، فأجاب
ابنه بقوله :

— ألم أتنبأ لك بأنك ستنفق كل ما معك ؟ أنت في حاجة الى
مبلغ كبير ؟

فأجابه نيقولا وقد احمر وجهه وارتسمت على شفتيه ابتسامة بلهاء
مستهترة ظل زمنا طويلا يشعر بالخجل منها والندم عليها :

— نعم ، الى مبلغ كبير • لقد خسرت في القمار قليلا... أعني...
خسرت مبلغ غير ضئيل ... بل خسرت مبلغا ضخما : ثلاثة وأربعين
ألف روبل ...

— كيف ؟ مع من ؟ أنت تمزح ؟

كذلك هتف الشيخ يسأل ابنه وقد غشيت عنقه وقذاله ، على
حين فجأة ، تلك الحمرة المباغته المعهودة في الشيوخ •
وأضاف نيقولا قوله :

— وقد وعدت بأن أردّ الدين غدا !

فقال الكونت الشيخ وهو يتهالك على الديوان محركا بإشارة تدل
على الكرب واليأس :

— يا رب !

وتابع نيقولا كلامه قائلا بلهجة طليقة :

— ما العمل ؟ هذا أمر يحدث لجميع الناس ...

ولكنه كان في قرارة نفسه يعد نفسه وغدا حقيرا لثيما ، وانه ارتكب جريمة كبرى لا يكفّر عنها حتى بالانتحار . انه في الوقت الذي كان يود لو يقبّل يدي أبيه وأن يستغفره راعا جاثيا على ركبتيه ، قد قال له بخفة تقارب الواقعة ان هذا يحدث لجميع الناس !

خفض ايليا آندريتش روستوف عينيه حين سمع هذا الجواب وجمجم يقول متلعثما باحثا عن كلماته :

— نعم ... صحيح ... ولكن لن يكون جمع هذا المبلغ أمرا سهلا . انني اخشى أن لا يكون جمعه أمرا سهلا . صحيح . طبعاً . حدث هذا لآخرين ، حدث هذا لآخرين ...

وألقى على ابنه نظرة مختلصة ، واتجه نحو الباب .

كان نيقولا يتوقع شيئا من المقاومة ، ففوجيء بهذا الموقف من أبيه ، فصاح يقول من خلال بكائه ناشجا :

— بابا ! بابا ! اغفر لي ! سامحني !

وأمسك يد أبيه ، أطبق عليها بشفتيه ، وأخذت دموعه تنسكب من عينيه غزيرة أشد الغزارة .

.....

وفيما كان الابن وأبوه يتكاشفان هذا التكاشف ، كان حديث

آخِر لا يقل عن هذا الحديث شأنًا وخطرا يدور بين الام وابنتها • كانت
ناتاشا قد جاءت الى الكويتية راكضة مهتاجة أشد الاهتياج ،
وقالت لها :

— ماما ، ماما !!!!! صارح

— ماذا تعنين ؟

— صارحني صارحني بحبه !

لم تصدّق الكويتية أذنيها • ودينيسوف صارح بحبه • ومن
صارح ؟ صارح بحبه هذه الصبية الصغيرة ناتاشا ، التي كانت منذ
عهد قريب كل القرب تلعب بعروسة وتتلقى دورسا ؟

أجابت الام وهي ما تزال تأمل أن يكون كلام ابنتها مزاحا :

— ما هذا الذي تقولينه يا ناتاشا ؟ دعيك من المزاح السخيف ؟

فقالت الفتاة ملسوعة من كلام أمها :

— مزاح ؟ أنا لا أمزح • أنا أتكلم جادة كل الجد ، وقد جئت

أسألك رأيك ، فكيف تصفين هذا بأنه مزاح سخيف ؟

فزفعت الكويتية كنفيها وقالت :

— اذا كان مسيو دينيسوف قد صارحك بحبه مع ذلك ، فأجيبه

بأنه أحق ، فينتهي كل شيء •

فاغتاضت ناتاشا وقالت بلهجة جادة :

— ولكن لا ، ما هو بأحق

فقالت الكويتية وهي تكره نفسها على الضحك اكراها :

— فماذا تريدین اذن ؟ أن لكل واحد منكن فی هذا الزمان غراما طارئا ... فاذا كان هذا الفتی يحظى منك بهذا الاعجاب كله ، فتزوجه وليبارك الله هذا الزواج .

— لا يا ماما ، ما أنا مغرمة بدینیسوف ؛ أو أنا على الاقل لا أعتقد أنني مغرمة به .

— فما عليك اذن الا أن تعلمی له هذا .

— أنت غاضبة يا ماما ؟ لا تزعلي ، أرجوك ... هل الذنب ذنبی ؟

قالت الكونتيسة مبتسمة :

— لا ... لست زعلانة . هل تريدین أن أذهب الیه أنا فأكلمه ؟

— لا ، سأكلمه بنفسی . ولكن قولی لی : کیف يجب أن أتصرف فأحسن التصرف ...

وأضافت تقول ردا على ابتسامة أمها :

— كل شيء سهل عليك أكبر السهولة . آه ... لیتك رأیت کیف صارحني بحبه . واني لأعلم على كل حال أنه ما كان يريد أن يقول ما قاله ، ولكن الكلام أفلت منه افلاتا .

— هذا لا ينبغي أن عليك أن ترفضیه .

— لا . ان امره يحزنني كثيرا . انه لطيف غاية اللطف ، مهذب أعظم التهذيب .

— فما عليك اذن الا أن تقبلیه !

بذلك أجابتها أمها ساخرة متهمكة •

قالت الفتاة :

— آه يا ماما ! ان أمره ليؤلمني كثيرا ! لست أدري بماذا أجيبه •

قالت الكوتتيسة حانقة من أن تعامل صبية صغيرة معاملة فتاة كبيرة :

— ليس عليك أنت أن تكلميه • أنا أتولى هذا الامر !

— أوه ! لا ! سأكلمه بنفسي ، وتنصتين أنت وراء الباب •

وعادت ناتاشا الى صالة الموسيقى •

كان دينيسوف ما يزال جالسا هناك بقرب البيانو ، جاعلا رأسه بين يديه ، فلما سمع وقع أقدامها راكضة اليه انتفض وهرع نحوها قائلا لها :

— ناتاليا ! قرري مصيري ! انه بين يديك •

— فاسيلي دمرتش ، ان حالك تحزنني كثيرا ! أنت امرؤ لطيف

مهذب جدا • ولكن ما تطلبه لا يمكن أن يتم • حقا لا يمكن أن يتم !
غير انني سأحبك دائما •

مال دينيسوف على يدها ، وسمعته ناتاشا يصدر أصواتا غريبة لا تفهم • فطبعت قبلة على شعره الجعد المتشابك • وسمع في تلك اللحظة نفسها حفيف فستان دلّ على أن الكوتتيسة قد أقبلت •

قالت الكوتتيسة بصوت متأثر بدا لدينيسوف مع ذلك قاسيا ،

— فاسيلي دمرتش ، شكرا على ما أوليتنا من شرف • ولكن

ابنتي ما تزال صغيرة جدا • وما كنت لاتصور ، وأنت صديق ابني ، أن تكلمها هي في هذا الامر اذا بدا لك أن تتكلم فيه ، وانما ترجع الى أولاء • ولو رجعت الىّ لما اضطررتني الى أن أجيبك برفض •

تمت دينيسوف يقول خافضا عينيه معبرا بهيئة عن أنه آثم مذنب :
— كوتيسة ...

وأراد أن يضيف شيئاً آخر، ولكنه صمت ولم ينطق بكلمة واحدة .
فلما رآته نائاشا مضطرباً هذا الاضطراب الشديد كله ، فقدت
هدوءها وانفجرت تبكي بكاء صاخبا .

واستطاع دينيسوف أخيرا ان يتكلم فقال بصوت متقطع :

— كوتيسة! أنا مذنّب في حقك. ولكن اعلمي أنني أعبد ابتك...
وأعبد أسرتكم كلها... عبادة تبلغ من الحرارة والصدق أنني مستعد
لأن أموت في سبيلها...

وكان يريد أن يستمر في كلامه هذا لولا أن رأى الكوتيسة
ما تزال متجهمة الوجه قاسية النظرة ، فسكت ... ثم قال بغتة وهو
يقبل بد الكوتيسة :

— وداعاً كوتتيسة...

وبدون ان ينظر الى ناتاشا خرج بخطى سريعة حازمة •

◆ ◆ ◆ ◆ ◆

وفي الغد ودع نيقولا صديقه دينيسوف الذي لم يشأ أن يبقى بموسكو يوما آخر • واحتفل جميع أصدقاء دينيسوف بسفره عند

البلهيميين ، ولم يستطع دينيسوف في يوم من الايام بعد ذلك أن يتذكر كيف دُسَّ في زلاجته ، ولا كيف قطع المحطات الثلاث الاولى .
وبانتظار أن يجمع الكونت الشيخ ما طلبه ابنه من مال لسداد الدين الذي ترتب على خسارته في القمار مع دولوخوف ، اضطر نيقولا أن يقضي بموسكو خمسة عشر يوما أخرى ، حابسا نفسه في المنزل ، وفي غرفة البنات اكثر الاحيان ، عاكما على ملء البوماتهن أشعارا وموسيقى .

وكانت صونيا أثناء ذلك اعظم رقة وحنانا واخلاصا منها في أي وقت مضى . حتى لقد تظاهرت بأنها تعد خسارته في القمار مأثرة تجعله في نظرها محببا الى القلب اكثر مما كان . ولكن نيقولا يعد نفسه الآن غير جدير بها .

ولما استطاع نيقولا أن يرسل الى دولوخوف ثلاثة وأربعين ألف روبل وأن يتلقى منه ايصالا بتسلم المبلغ ، سافر في نهاية شهر تشرين الثاني (نوفمبر) دون أن يودع أحدا من أصدقائه ، ومضى يلحق بفوجه الذي كانت معسكراته قد رابطت في بولنده .

الجزء الثاني

الفصل الأول

لم يلبث بطرس أن سافر الى مدينة بطرسبرج بعد المشاجرة التي قامت بينه وبين امرأته • وقد زعم له القيّم على محطة الخيل في مرتبط تورجوك انه ليس عنده أفراس • فاضطر بطرس الى الانتظار • واستلقى على ديوان من الجلد أمام طاولة مستديرة دون أن يخلع من ثيابه شيئا، ومدّ على الطاولة ساقيه الطويلتين اللتين تنتعلان جزمتين مبطنتين ، واسترسل في تأملاته •

سأله خادمه :

— هل يجب الاتيان بالحقائب ، واعداد سرير ؟ وتهيئة شيء من الشاي ؟

لم يجب بطرس : فقد كان لا يسمع شيئا ولا يبصر شيئا • وكانت تأملاته منذ آخر محطة تدور على موضوع يبلغ من الخطورة أنه كان لا يولي ما يحدث من حوله اي انتباه • كان لا يهमे كثيرا ان يصل الى بطرسبرج متقدما ساعة أو متأخرا ساعة • كان لا يهमे أن يجد في هذه المحطة سريرا أو أن لا يجد سريرا ، بل كان لا يهमे كثيرا ، بالقياس الى الأفكار التي تدور في رأسه ، أن يقضي في هذا المكان بضع ساعات لا أكثر ، أو أن يبقى فيه حياته كلها •

وقد جاءه القيّم على المحطة ، وامرأته والخادم ، وبائعة جلود^(١) يعرضون عليه خدماتهم واحدا تلو آخر . فكان بطرس يتأمل هؤلاء وأولئك من خلال نظارتيه رافعا ساقيه في الهواء ، دون أن يغير وضعه ودون أن يسأل ماذا يريدون ولا كيف استطاعوا أن يعيشوا من غير أن يحلوا المسائل التي تلح عليه . وهي تلك المسائل عينها التي ألقاها على نفسه منذ عودته من مبارزة « غابة الصقور » أثناء ليلته الاولى القاسية التي قضاهم مؤرقا مسهدا . هي تلك المسائل عينها لم تتغير ولم تتبدل، ولكن عزلة السفر جعلتها أشد الجاحا ولجاجة . كانت تلك المسائل تحاصره وتسد عليه المسالك مهما يحاول ان يهرب منها ، ثم هو لا يستطيع أن يجد لها حلا ، حتى لكأن البرغي الرئيسي الذي يضم حياته بعضها الى بعض قد التوى في رأسه وانقض ، فلا هو ينفذ مزيدا من النفاذ ، ولا هو يخرج ، وانما هو يدور ثم يدور في مكانه لا يبرحه ، دون أن يمسك شيئا ، ودون أن يمكن وقفه عن الدوران .

جاء القيّم على المحطة يرجو صاحب السعادة ، بكثير من المذلة ، أن يتكرم بالانتظار ساعتين اثنتين لا اكثر ، ويعده بأن يهيء له خيلا من خيول البريد متحملا تبعات ذلك ومخاطره . وكان هذا الكلام كله كذبا واضحا ، فما كان الرجل يفكر في غير أن يبتز من المسافر اكبر قدر ممكن من المال .

تساءل بطرس : « أهو يفعل خيرا أم هو يفعل شرا ؟ بالنسبة اليّ أنا لا شر فيما يفعله ، ولكن فعله هذا يكون شرا اذا وصل مسافر آخر .

(١) ان مدايح تورجوك ذائعة الصيت . وهناك انما يضع الجزء الأكبر من « جلد روسيا » الشهر .

وهو لا يستطيع ان يسلك غير هذا السلوك ، لانه لا يسلك ما يقيم به
أوده . واذا صدق ما يقوله فانه قد رفض أن يقدم لاحد الضباط خيلا،
فاذا بالضابط يضربه . ذلك أن الضابط كان في حاجة الى أن يصل
بسرعة . وقد اطلقت أنا النار على دولوخوف لاعتقادي بأنه أهانني .
ولويس السادس عشر ، ألم يعدموه لانهم عدوه مجرما ؟ وبعد أعدم
بالمقصلة اولئك الذين أعدموه . لعل الطرفين كليهما على حق ، لعل لكل
من الطرفين أسبابا تسوغ عمله . ما الذي يجب أن يعد شرا ، وما الذي
يجب أن يُعدَّ خيرا ؟ ماذا يجب ان نحب وماذا يجب أن نبغض ؟ لماذا
ينبغي للسراء أن يحيا وما هي الذات ؟ ما الحياة وما الموت ؟ وما القوة
التي توجه كل شيء ؟ .

لم يجد بطرس لهذه الاسئلة كلها الا جوابا واحدا ليس بجواب .
« لسوف تموت في ذات يوم ، فينتهي كل شيء . سوف تموت فتعلم
كل شيء ، أو تكف عن القاء اسئلة على نفسك » . ولكن الموت أيضا
شيء رهيب .

كانت بائعة المصنوعات الجلدية تعرض عليه بضاعتها بصوتها
الصارخ ، وكانت تعرض عليه خفَّين من جلد الماعز خاصة . فقال بطرس
محدثا نفسه : « انني أملك مئات من الروبلات لست في حاجة اليها ،
وهذه المرأة التي ترتدي فروة قصيرة ممزقة تضرع الي وتبتهل . ولكن
أهي في حاجة حقا الى مال ؟ وهل يستطيع المال أن يهيء لها شيئا من
السعادة ومن راحة النفس وهدوء البال والطمأنينة؟ لا . لا شيء في العالم
يمكن أن يجعلها او يجعلني أقل خضوعا للشر وللموت ، ذلك الموت
الذي سينهي كل شيء ، والذي سيوافي اليوم أو غدا - سيَّان - فلا

تكون الحياة الا لحظة بالقياس الى الابدية ؟ . كذلك اصطدم بطرس مرة اخرى بالبرغي الذي يدور دورانا فارغا ، ويستمر في دورانه العقيم هذا بغير توقف .

وقدّم اليه خادمه كتابا فصل من صحائفه نصفها . انه رواية من تأليف مدام دو سوزا كتبت على طريقة كتابة الروايات رسائل . فأخذ بطرس يقرأ قصة ما عاتته أميلي دو مانسفيلد^(١) من آلام ، وما خاضته من صراع في سبيل الفضيلة . فقال بطرس يسأل نفسه : « ولماذا تصارع الرجل الذي يغويها مادامت تحبه ؟ ان الله لا يمكن ان يكون قداودع نفسها رغبات تخالف ارادته . زوجتي أنا ، أقصد المرأة التي كانت زوجتي ، لم تصارع . ولعلها لم تكن على خطأ ... لا شيء أمكن اكتشافه ، لا شيء امكن ابتداعه . كل مانستطيع أن نعرفه هو أننا لانعرف شيئا . تلك هي أعلى درجة من درجات الحكمة الانسانية . » .

كان كل شيء في نفس بطرس وفيما حوله يبدو له سديماً باطلاً منغرا . ولكنه كان يجد في هذا النفور نفسه نوعا من متعة واثارة واهتياج .

قال القيم على المحطة وهو يدخل مسافرا اخر يجبره نقص الخيل على أن يتلبث في المحطة هو أيضا :

— هل يتفضل صاحب السعادة ، اذا كان لا يضايقه ذلك ، ان يفسح مكانا صغيرا لهذا السيد ؟

(١) خطأ من تولستوي ، فان رواية أميلي دو مانسفيلد (١٨.٢) رواية من تأليف مدام کوتان وليست من تأليف مدام سوزا .

ان هذا المسافر شيخ ضئيل نائيء العظام ، أصفر اللون ، متغضن الوجه ، يبرز حاجباه الابيضان فوق عينيه المتفتحتين اللتين لا تعرف لهما لونا ولكنهما مرمدانان •

رفع بطرس ساقيه عن الطاولة ، ومضى يضطجع على السرير الذي أعد له ، وأخذ يلقي من حين الى حين نظرات على القادم الجديد الذي كان مكفهر الوجه مكدود الهيئة ، وقد جعل ينضو عنه فروته في غناء يساعده خادمه ، ان لباسه تحت الفروة لا يزيد على جلد من جلود الخراف ، رث مغطى بقماش سبيك من قطن • وكانت ساقاه التحيلتان الناتئة عظامهما تتعلان جزمتين من لباد • وقد استقر على الديوان بهذا الجلد وهاتين الجزمتين ، وردة رأسه الضخم العريض الصدغين المجزوز الشعر ، رده الى وراء يسنده على ظهر الديوان • وبعد ان استقر على هذا الوضع انما القى على جاره نظرة أدهشت بطرس بيزو خوف بما فيها من قسوة وفذاء وأحب بطرس أن يقوم بينه وبين هذا المسافر حديث ، وهم أن يسأله عن حالة الطريق ، ولكن الشيخ ، بعد أن صالب يديه المتغضنتين التي تزين احدهما حلقة كبيرة من معدن مسبوك تمثل رأس ميت^(١) ، كان قد اغمض عينيه وغرق في تفكير هادىء عميق ، فيما بدا لبطرس • وقام خادم الشيخ — وهو عجوز ضئيل خفيف الحركة أمرد الوجه لا يقل لونه صفرة عن لون مولاه ولا يقل جلده تجعدا عن جلده ، ولا شك في انه لم يخلق شعر رأسه يوما ، ولا كان له لحية أو شاربان في وقت من الاوقات — قام الى الخرج فأخرج منه عدة الشاي ، وجاء بسماور يغلي مأؤه • حتى اذا اصبح كل

(١) تمثيل رمزي لجمجمة آدم •

شيء مهياً ، فتح سيده عينيه ، واقترب من المائدة ، فصب لنفسه كأساً
من الشاي وقدم للعجوز الامرد كأساً .

أحس بطرس بقلق غامض ، وشعر انه أصبح يجب عليه أن يكلم
هذا المسافر .

ولم يلبث الخادم ان ردَّ كأسه فارغة مقلوبة على صاحبها^(١)، ومعها
قطعة السكر التي كان قد عض بعضها^(٢) ، وسأل مولاه أهو في حاجة
الى شيء .

فأجابه مولاه بقوله :

— لا ، لست في حاجة الى شيء . اعطني كتابي .

فناوله الخادم كتاباً بدا لبطرس أنه كتاب ديني . وغرق الشيخ
في القراءة . وقد اصبح لا يحول عنه الان بصره ، فاذا هو يراه يطوي
الكتاب فجأة ويضعه ، ثم يجمد على وضعه السابق مغمضاً عينيه مسنداً
رأسه الى ظهر الديوان . وهمَّ بطرس أن يشيح عنه وجهه ، ولكن وقته
لم يتسع لذلك ، فان الشيخ فتح عينيه ثانية وأخذ يتفرس فيه وقد
لاحت في وجهه القسوة والصرامة .

شعر بطرس بضيق وحرَج : انه يود لو يستطيع الافلات من هاتين
العينين الساطعتين اللتين لا يستطيع المرء ان يقاوم ما فيهما من قوة الجذب

(١) إشارة الى انه لا يرغب في كأس اخرى .

(٢) ما يزال كثير من الروس يشربون الشاي ويقضمون السكر على حدة .

الفصل الثاني

إذا لم يخطيء ظني فإن الكونت بيزوخوف هو الذي اتشرف
بمخاطبته الآن .

فنظر اليه بطرس من خلال نظارتيه نظرة تحمل معنى السؤال
دون أن يقول كلمة واحدة . واستأنف المسافر كلامه فقال :

— لقد سمعت عنك ياسيدي ، وعن المصيبة التي ألمت بك ، لذلك
تراني حزينا لك اعمق الحزن .

وكانت لهجته تقول : « نعم ، أيا كان الاسم الذي تسمي به هذا
الامر ، فهو مصيبة . أنا اعلم ما حدث لك بنوسكو مصيبة . » .

فاحمر وجه بطرس ، واسرع يضع قدميه على الارض ومال على
العجوز يتسم ابتسامة خجلي يكره نفسه عليها اكرها .
وعاد المسافر الشيخ يتكلم فقال :

— انني لم أكلّمك في هذا الامر يا سيدي بدافع حب الانشلاع
السخيف ، وانما كلمتك فيه لاسباب أخطر شأنًا .

وصمت دون أن يحول بصره عن بطرس ، وتحرك على الديوان

داعيا بطرس ، بهذه الحركة ، الى ان يجلس بجانبه • فأحس بأنه مضطر الى اطاعته رغم أنه لم يرغب في ذلك كثيرا •

وأردف المسافر يقول :

— انك شقي ياسيدي • وانت شاب وأنا شيخ ، فاحب أن اساعدك في حدود قدرتي على مساعدتك •

قال بطرس وهو يبتسم ابتسامة خجلى يكره عليها نفسها اكرها:

— نعم ، نعم ، اشكر لك هذا اكبر الشكر • من اين انت ؟

كانت هيئة المسافر كالحة ، بل باردة وقاسية • ومع ذلك كان وجهه وحديثه يجذبان بطرس جذبا لاسبيل الى مقاومته •

قال المسافر :

— اذا كان حديثي يضايقك لسبب او لآخر ، فصارحني بذلك يا سيدي العزيز •

وابتسم ابتسامة ابوية على حين فجأة ، ابتسامة ما كانت لتتوقع منه أجابه بطرس وهو يتفرس في خاتم صديقه الجديد عن كذب ، وهو خاتم يحمل رأس ميت ، وهذا شعار الماسونيين الاحرار :

— لا ، ابدا ، بالعكس ، أنا سعيد بمعرفتك • اسمح لي بسؤال : أنت تنتمي الى الماسونيين الاحرار ؟

قال المسافر وهو يغرس نظراته في نظرة بطرس غرسا أعمق :

— نعم ، أتنتمي الى الماسونيين الاحرار • فباسمي وباسمي أمدك اليك يد الاخوة •

أجابه بيزدخوف مبتسما ، وهو موزَّع بين الثقة التي يوحى بها
اليه الشيخ وبين ميله الى السخرية من العقائد الماسونية :

— أخشى كثيرا ان لا أستطيع ... كيف أعبرُ لك عن فكرتي ؟
أخشى كثيرا ان يكون تصوري للوجود بعيدا عن تصورك أنت لا
سبيل معه الى تفاهم بيننا •
قال الماسوني :

أنا أعرف آراءك • وما هي بالآراء الشخصية كما تظن ، وانما هي
ثمرة الزهو والجهل وكسل الفكر • ان اكثر الناس يدينون بهذه الآراء •
معذرة ياسيدي العزيز ، لولا انني اعرف تفكيرك لما أجريت هذا الحديث
بينني وبينك • ان آراءك ضلال محزن مؤسف •

فاعترض بطرس وهو يتنسم ابتسامة ضعيفة وقال :

— يمكنني أن أقول هذا الكلام نفسه عن آرائك أنت •

قال الماسوني بلهجة قاطعة واضحة كانت تدهش بيزوخوف مزيدا
من الادهاش :

— لن اجرؤ في يوم من الايام ان ادعي انني عارف بالحقيقة قابض
عليها ، لا أحد يستطيع ان يبلغ الحقيقة بانواره الخاصة •
وأضاف يقول مغمضا عينيه :

— حجرا فوق حجر ، بمساهمة جميع الناس ، بفضل جميع الأجيال ،
منذ جاءنا آدم الى أيامنا هذه : اننا يبنى المعبد الذي سيكون المقر
الجدير بالرب العظيم •

قال بطرس ، منقادا ، على شيء من المضض ، لحاجته الى أن يخفى شيئا :

— يجب أن أعترف لك بأنني .. لا أؤمن ... بالرب .

فتأمله الماسوني مبتسما تلك الابتسامة التي يتسمها رجل واسع الثراء يملك الملايين لرجل مسكين فقير يتشكى من أنه لا يستطيع أن يجد الروبلات الخمسة التي يمكن ان تحقق سعادته ، وقال له :

— هذا صحيح ياسيدي : أنت لا تعرف الرب ، ولا تستطيع أن تعرفه . ولأنك لا تعرفه فأنت شقي .

— أنا شقي حقا . ولكن ما حيلتي ؟

قال الماسوني بصوت قاس لكنه مختلج متهدج :

— انك لا تعرفه ياسيدي ، وهذا هو السبب في انك شقي جدا . أنت لا تعرفه وهو هنا . هو في نفسي . هو في أقوالي . هو فيك أنت وحتى في أقوال الزندقة التي نطقت بها .

وصمت وتنهد . وكان واضحا انه يريد ان يسترد هدوءه . واستأنف كلامه فقال بلهجة أرفق وأرق :

— لو أن الرب غير موجود لما كان موضوع حديثنا الان . عم وعمن تتكلم ؟ ... من الذي تكفر به ؟

كذلك صاح يسأل فجأة وقد عاد الى لهجته الفخمة المتسلطة ، وتابع أسئلته فقال :

— من ابتدعه ان لم يكن موجودا ؟ من أين أتت فكرة وجود

كائن لا سبيل الى فهمه ولا سبيل الى تصوره ؟ من أين استمد الكون كله واستمدت أنت فكرة موجود قادر على كل شيء ، أبدي أزلي ، لا نهاية له في جميع صفاته ؟ ...

وتوقف عن الكلام وصمت برهة طويلة . فلم يستطع بطرس ولا أراد أن يقطع هذا الصمت .

وعاد الماسوني يتكلم فقال وهو يحدق ببصره لا الى بطرس ولكن الى نقطة في الفضاء أمامه ، بينما كانت يدها العجراوان تقلبان صفحات كتابه تقلبها عصبيا من شدة غليان نفسه :

— هو موجود ، ولكن فهمه ليس سهلا . لو كان كفرك كفرا بوجود انسان موجود ، لجئت بك بهذا الانسان فرأيت به عينيك وأنا ممسك يده . ولكن أين لي أنا الكائن أن أجعل رجلا اعمى او رجلا يغمض عينيه حتى لا يرى الرب ولا يفهمه ، وحتى لا يرى ولا يفهم ما بلغه هو من خسة ودناءة وفساد وانحلال ، أين لي أن أجعل مثل هذا الرجل يرى الرب العلي القدير ، ويرى ابديته ، ويرى رحمته التي لا نهاية لها ؟

واستأنف يقول بعد برهة صمت أخرى ، وهو يتسم تبسما ساخرا :

— من أنت ؟ نعم ، ما انت ؟ انك تظن تفهمك حكيما ، وتظن انك قلدر على أن تنطق بأقوال الزندقة والكفر هذه . ولكنك في الواقع أشد حماقة وابلغ طيشا من ذلك الطفل الصغير الذي تسلى فترة بالآلات ساعة صنعها صانع حاذق ، ثم اذا هو ، لانه لم يفهم هدف هذه الساعة ، يتجاسر فيكفر بوجود الصانع الذي صنع الساعة . نعم ، ان معرفة الرب

صعبة • انا منذ قرون ، منذ جدنا آدم الى أيامنا هذه ، قد جهدنا في هذه المعرفة ، ومازلنا بعيدين بعدا كبيرا عن بلوغ هدفنا • ولكن هذا العجز لا يدل الا على جهلنا نحن وعظمته هو •

كان بطرس يحدِّق الى الماسوني بعينين ملتصقتين ، وقد أوشك قلبه أن ينهار • كان يصغي اليه، لا يقاطعه ولا يسأله • كان يصدق أقوال هذا الانسان المجهول بكل نفسه • أكان يخضع لقوة الحجة ومنطق التفكير ؟ أكان ينقاد كالطفل للنبرات الحارة في كلام الخطيب وللانفعال الذي يهدِّج صوت الخطيب وقد يكسِّره ؟ أكان يستسلم لسحر النظرة التي يسطع فيها لهيب ايمان صادق ؟ أكان يهزه هذا الصفاء وكانت تهزه هذه الثقة التي يتصف بها الرسل ، لا سيما وأنها نقيض ما كان يحسه هو في قرارة نفسه من خراب ، وما يعانيه من شعور بالدمار النفسي ؟ مهما يكن من أمر ، فقد كان يريد بكل نفسه أن يؤمن ، وكان يؤمن ، وكان يحس بشيء من التخفف والتجدد والعودة الى الحياة • وختم الماسوني كلامه بقوله :

— لا يستطيع العقل أن يتصور الرب ، والحياة وحدها تهدي اليه •
شعر بطرس بنوع من الشك يقوم في نفسه ، وصاحب هذا الشعور شيء من القلق والخوف • انه يخشى ان يمنعه غموض الحجج التي يسوقها محدثه ، وأن يمنعه ضعف هذه الحجج من أن يصدق أقواله ويؤمن بمزاعمه •

قال معترضا :

— لست أفهم ان يعجز الفكر الانساني عن الوصول الى هذه

فابتسم الشيخ ابتسامته الابوية الطيبة ، وقال :

— ان الحكمة ، ان الحقيقة العليا اشبه بشراب رائع جدا نريد ان نجرعه . فهل يسكنني ان احكم على نقاء هذا الشراب اذا أنا سكبته في اناء متسخ ؟ اتني لا أستطيع أن أردّ هذا الشراب الثمين الى بعض نقائه الا بعد أن اطهّر نفسي .

هتف بطرس يقول متعزياً :

— نعم ، نعم ، هذه هي المسألة .

— ان الحكمة العليا لا تقوم على العقل ولا على العلوم الدنيوية كالفيزياء والكيمياء والتاريخ وسائر فروع المعرفة الانسانية . الحكمة الانسانية « واحدة » . الحكمة العليا ليس لها الا علم واحد هو علم « الكل » ، العلم الذي يفسر « الخليقة » كلها والمكان الذي يشغله الانسان في هذه الخليقة . فمن أجل أن يجعل المرء في نفسه مكانا لهذا العلم ، يجب عليه أن يطهّر وأن يجدد كيانه الروحي ، وقبل أن يعرف ، عليه إذن ان يرقى بنفسه الى الكمال . ولكي نستطيع ان نبلغ هذه الاهداف انما اودع في نفوسنا هذا الضياء الالهي الذي يسمى الشعور .

قال بطرس مؤيدا :

— نعم ، نعم !

— تأمل كيائك الداخلي بعيني روحك ، وأسأل نفسك أنت راض عن نفسك حقا ؟ الى اين وصلت بمعونة العقل الانساني وحده ؟ ... انك شاب ، وغني ، وذكي ، ومثقف . فما الذي حققته بكل هذه الخبرات التي قسمت لك ؟ أنت راض عن نفسك وعن طراز حياتك ؟

أجاب بطرس قائلا :

— لا . انني اكره حياتي .

— فاذا كنت تكرهها فبدّلها . طهّر نفسك . وعلى قدر تطهيرك نفسك ستعرف الحكمة . ألق نظرة على حياتك يا سيدي . ماذا صنعت منها ؟ سلسلة من العربدات والدعارات . لقد أخذت من المجتمع كل شيء ، دون أن تردّ اليه اي شيء . هبطت عليك الثروة . فكيف استعملت هذه الثروة ؟ ماذا صنعت لاختيك الانسان ؟ هل فكّرت في عشرات الالوف من أقتناك ؟ هل حملت اليهم شيئا من العون المادي والروحي ؟ لا . وانما انت استفدت من عملهم وكدّهم ، لتعيش حياة فاسدة . ذلك ما فعلته . هل التمسث عملا من الاعمال يتيح لك أن تكون نافعا لاختيك الانسان ؟ لا . وانما أنت قضيت حياتك في البطالة والفراغ ثم تزوجت ياسيدي . فاصبحت تقع على عاتقك مسؤولية كبيرة : هي التوجيه الروحي لامرأة شابة . فماذا صنعت ؟ انك بدلا من أن ترشدها على طريق الحقيقة ، أغرقتها في هوة الكذب والحظ العاثر . وقد أهانك رجل ، فقتلته . وتقول الآن انك لاتعرف الرب وانك تكره حياتك . لاعجب في هذا ياسيدي العزيز .

ولا شك أن الماسوني قد اتعبه أن يقول هذا الكلام كله ، فعاد يريح ظهره على مسند الديوان ، واغمض عينيه . فكان بطرس يتأمل هذا الوجه القاسي ، الجامد ، الذي يكاد يكون وجه جثة هامدة . وحرّك شفّتيه متأهبا ان يقول : « نعم ، عشت حياة كريهة مقيتة ، ليس فيها الا الدعارة والفراغ » . ولكنه لم يجرؤ أن يقطع الصمت .

وسئل الماسوني سعالا مبجوحا ضعيفا ضعف الشيخوخة ، ثم نادى خادمه ، وقال يسأله :

— هيه ، والخيـل ؟

— أعدوا لك خيلا ، ولكن الا تريد ان تنال شيئا من راحة ؟

— لا ، اقرن الخيـل •

قال، بطرس لنفسه : « أينصرف قبل أن يقول كل ما كان يريد أن يقوله ، ودون وعد بأن يساعدني ؟ » • سأل بطرس نفسه هذا السؤال وكان قد نهض وأخذ يذرع الغرفة ، ويختلس النظر الى الماسوني من برهة الى برهة • وتابع حديثه لنفسه يقول :

« نعم ، انني لم أفكر في هذا يوما • لقد عشت حياة فاسدة جديرة بالاحتقار ، على غير ما أحب في واقع الامر ، فلقد كنت أكره تلك الحياة حقا ... ان هذا الرجل يعرف الحقيقة ، وفي وسعه أن يكشف لي عنها اذا شاء » •

وكان بطرس يود لو يعترف للمسافر بهذا ، ولكن أعوزته الشجاعة وفي أثناء ذلك رتّب الشيخ خرجه بيديه اللتين كانتا ضعيفتين ولكنهما كانتا ماهرتين ، ثم أخذ يعقد ازرار فروته ، حتى اذا فرغ من ذلك التفت الى بيزوخوف وقال له بلمجة التأدب المألوف المتبدل :

— الى اين تنوي ان تسافر ياسيدي ؟

فأجابه بطرس بصوت متجلجل كصوت طفل :

— أذا ؟ ... الى بطرسبرج • واني لشاكر لك اكبر الشكر ، ممتن

منك أعظم الأمتان • اني موافق على آرائك كل الموافقة • ولكن لاتظن انني بلغت من الفساد مبلغا كبيرا • فأنا أتوق بكل نفسي الى أن أكون الرجل الذي تحب لي أن أكونه • ولكن لم يساعدني أحد ••• وهذا لا يخفف بشاعة سلوكي على كل حال • • ساعدني، علمني، فعسى أن •• وخنق الاثغال صوته ، فلم يستطع أن يزيد شيئا وأشاح وجهه • فبدأ على الماسوني أنه يفكر ؛ ثم قال بعد برهة طويلة :

— المساعدة لا تأتي الا من الرب • ولكن جمعيتنا ستعاونك في حدود ماتملك من وسائل المعاونة • مادمت ذاهبا الى بطرسبرج ، فسلم هذه الى الكونت فيلارسكي من فضلك •

واستل من محفظة أوراقه ورقة كبيرة ، فطواها أربع طيات، وكتب عليها بضع كلمات •

وأردف يقول :

— اسمح لي أن أسدي اليك بنصيحة • متى وصلت الى العاصمة ففك الايام الاولى على العزلة متأملا في نفسك محاسبا ضميرك ، ولا تستأنب طراز حياتك السابق •

ثم قال يختم كلامه وقد رأى خادمه داخلا :

— والان ياسيدي ، أتمنى لك سفرا ميمونا ••• وحظا حسنا •••

كان هذا المسافر هو أوسيب الكسيفتش بازدايف ، كما علم بطرس ذلك من مراجعة سجل القيّم على المحطة • ولقد كان بازدايف،

منذ زمان نوفيكوف^(١) ، واحدا من أشهر أتباع المارتينية والماسونية .

سافر بازدايف فظل بطرس يزرع صالة المحطة زمنا طويلا ، لا يخطر بباله أن يضطجع على السرير ، ولا أن يطلب خيلا . كان يستعرض بخياله الحياة الفاسدة التي عاشها حتى ذلك الحين ، ويتخيل بحماسة المنتصر الجديد المستقبل الجميل الذي ينتظره ، وهو مستقبل كله فضيلة وسعادة ، ويقدر أن هذا المستقبل سهل تحقيقه ، لان فساد الماضي لم يكن الا ثرة مصادفة سيئة : فكل ما حدث له هو أنه فقد رؤية جمال الفضيلة . تبددت شكوكه تبدا تاما : نعم ، ان في وسع رجال أن يتحدوا ليتعاونوا في البحث عن الحقيقة ، ولاشك أن هذا هو شأن الماسونيين الاحرار .

(١) نيقولا ايفانوفتش نوفيكوف (١٧٤٤ - ١٨١٨) ، كاتب خصب ، اصدر عدة مجلات ، وكان في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، واحدا من اشد الكتاب حماسة في الدعوة الى الماسونية التي كانت عقائدها الصوفية والاخلاقية في ذلك الحين تعارض وتعارض الحاد الفلاسفة الفرنسيين .

الفصل الثالث

حين رجع بطرس الى بطرسبرج لم ينبىء أحدا بعودته ، وحبس نفسه في بيته • فكان يقضي أيامه في قراءة كتاب « الاقتداء » الذي حملته اليه يد" لم يعرفها • فكان يجد في هذه القراءة متعة متجددة لا عهد له بمثلها من قبل : هي متعة الايمان بإمكان الوصول الى الكمال، وإمكان إقامة ذلك الحب الاخوي الفعّال على هذه الارض ، أعني الحب الذي كشف له عنه أوسيب ألكسيفتش •

وفي ذات مساء ، بعد انقضاء ثمانية أيام على وصوله دخل عليه في مكتبه الكونت البولندي الشاب فيلارسكي الذي كان بطرس قد لقيه في المجتمع البطرسبرجي الراقي من قبل ، دخل عليه مصطنعا تلك الهيئة الرضية الرسمية التي اصطنعها شاهد دولوخوف يوم جاء يقدم نفسه اليه • فبعد أن أغلق فيلارسكي الباب وراءه ، وتأكد من أنهما وحيدان ليس معهما ثالث ، قال بطرس ، حتى دون أن يجلس :

— انني مكلف بمهمة لديك يا كونت • ان شخصا عالي المقام في جمعيتنا قد توسّط لقبولك عضوا في الجمعية قبل انقضاء المهلة المعتادة، وطلب مني أن أكون المسؤول عنك • واني أعد تنفيذ ارادته واجبا مقدسا • فهل تريد أن تنتسب الى جمعية الماسونيين الاحرار بكفالتني ؟

لم يسع بطرس الا أن يستغرب هذه اللهجة الباردة القاسية التي يتكلم بها هذا الرجل الذي كان يلمحه بطرس في حفلات الرقص مبتسما لطيفا ساعيا الى الحسنات المتألفات مترددا اليهن ، حائما حولهن •

أجابه بطرس :

— نعم ، أريد •

فحبّذ فيلارسكي جوابه بحركة من رأسه • وأضاف يقول له :

— سؤال آخر يا كونت أرجو أن تجيبني عنه لا جوابَ رجل

سيصبح ما سونيا، بل جواب رجل مهذب، فتقول لي صادقا كل الصدق:

هل جحدت آراءك السابقة ؟ هل أنت تؤمن بالله ؟

ففكر بطرس لحظة ثم قال :

— نعم •• نعم •••• أوّمن بالله •

فأراد فيلارسكي أن يتكلم فقال :

— اذا كان الامر كذلك •••••

ولكن بطرس قاطعه مكررا ما سبق أن قاله :

— نعم ، أوّمن بالله •

فأتم فيلارسكي كلامه فقال :

— اذا كان الامر كذلك ، فيمكننا أن نذهب • ان عربتي في

خدمتك •

لزم فيلارسكي الصمت طول الطريق • فاذا سأله بطرس عمّا

يجب عليه أن يفعله وأن يقوله ، لم يزد على أن يجيب بأن اخوة أجدر

منه سوف يمتحنونه ، ولن يكون عليه الا ان يقول الحقيقة •

حتى اذا نزلا من العربة تحت صيوان المنزل الذي كان مقر المحفل الماسوني ، صعدا سلما مظلما ، ودخلا حجرة صغيرة مضاءة خلعا فيها معطفيهما بمساعدة خدم . فاذا دخلا الى الغرفة التالية ظهر على بابها الآخر رجل يرتدي زيا غريبا مضحكا ، فأقبل عليه فيلارسكي وقال له بالفرنسية بضع كلمات بصوت خافت ، ثم اقترب من خزانة صغيرة لمح فيها بطرس ثيابا لم ير مثلها في حياته . وتناول فيلارسكي من الخزانة منديلا عصب به عيني بطرس ، وعقد طرفيه خلف رأسه شابكا بالعقدة خصلة من شعره خطأ ، ثم جذبه اليه ، وعانقه مقبلا ، وأمسك يده : وسار به . فكانت خصلة الشعر المشتبكة بالعقدة تؤلم بطرس ، وكان بطرس يصعّر وجهه من الألم ، ويتسم كالخجلان من نفسه . كان هذا الشاب الجبار ، ذو الذراعين المترجحتين والوجه المتصعّر المبتم ، يشي وراء فيلارسكي مشية وجله خجلة ، مترددة حائرة .

فلما سارا زهاء عشر خطوات توقف فيلارسكي . وقال لبطرس :
— مهما يحدث لك من أمر فيجب عليك أن تتحمل كل شيء بشجاعة ، اذا كنت قد عزمت على أن تدخل في جمعيتنا .

فأجاب بطرس بحركة من رأسه موافقا .
وأضاف فيلارسكي قوله :

— اذا سمعت الباب يقرع ، فانزع العصبة عن عينيك . أتمنى لك شجاعة طيبة وحظا حسنا .
ثم صافحه وانصرف .

أصبح بطرس وحيدا في الغرفة ، وظل يتسم . ورفع منكبيه مرة أو مرتين ، وحمل يده الى العصبه كأنه يريد أن ينزعها ويتحرر منها ،

ولكنه لم يلبث أن أنزل يده • ان عينيه له ثعبان الا منذ خمس دقائق ، ولكن هذه الدقائق الخمس بدت له ساعة كاملة • وكانت يده متخدرتين ، وكانت ساقيه تصطكان ، وكان شعور بالتعب يرهقه ارهاقا • وهزّت نفسه عواطف متنوعة أشد التنوع ، معقدة اكبر التعقيد • كان خائفا مما سيقع له ، وكان يخشى اكثر من ذلك أن لا يستطيع اخفاء هذا الخوف • وكان تواقا الى معرفة ما سيصنعونه به ، وما سيكشفونه له • وكان يبهجه خاصة ان يتصور اقتراب اللحظة التي سيدخل فيها الطريق المؤدية الى تجديد نفسه ، والى شروعه في العمل من اجل الفضيلة ، هذا العمل الذي أصبح يحلم به منذ أن لقي اوسيب ألكسييفتش •

وأخذ الباب يثقرع قرعا شديدا • فنزع بطرس العصبة عن عينيه ، وأجال بصره في ما حوله • فرأى من خلال الظلام العميق سراجا مشتعلا في شيء أبيض • فلما اقترب رأى السراج موضوعا على طاولة سوداء أمام كتاب مفتوح ، ورأى أن الكتاب انجيل ، وان الشيء الابيض جمجمة ميت • وقرأ هذه الكلمات : « في البدء كانت الكلمة ، والكلمة كانت في الرب • » • ورأى وراء الطاولة صندوقا مستطيلا مغطى كان يبدو أنه متلى • وسرعان ما أدرك أن الصندوق تابوت متلى عظاما • لم يدهشه هذا كله • فانه من شدة رغبته في بدء حياة جديدة مختلفة كل الاختلاف عن حياته القديمة كان يتوقع أمورا خارقة ، بل كان يتوقع أمورا خارقة أكثر من كل ما رآه واعتقد جازما أنه كان يتوقع أن يرى الجسمة والتابوت والانجيل ، وأشياء اخرى كثيرة • ومن اجل أن يستثير نفسه باثا فيها حرارة الحماسة والتقوى ، جعل يردّد في دخيلته هذه الكلمات : « الرب ، الموت ، الحب ، الاخوة » فما يلبث أن تراءى

له رؤى غامضة لكنها تشد الأزر وتقوي العزيمه . وفُتح الباب ،
ودخل أحد .

وكانت عينا بطرس قد ألفت العتمه فرأى رجلا قصير القامة ، رآه
يتردد لحظة وهو يدخل من النور الى الظلمه ، ثم يسير الى الطاولة
بخطى محاذرة ، الى أن يضع عليها يديه الصغيرتين المغمودتين في قفازين
من جلد . وكان صدار من جلد أيضا يعطي صدره وجزءا من ساقه .
وكان يطوق عنقه نوع " من قلادة يتفرع عنها شريط أبيض يحف بوجهه
المستطيل المضاء من أسفل .

قال هذا الرجل سائلا ، وهو يلتفت الى الجهة التي يدلّه فيها شيء ،
من خفيف على وجود بطرس :

— لماذا جئت الى هنا ؟ أنت يا من لا تؤمن بالنور الحق ، ولا
ترى هذا النور ، لماذا جئت الى هنا ؟ ماذا تريد منا ؟ هل تريد الحكمة ،
والفضيلة ، والعلم ؟

منذ اللحظة التي فُتح فيها الباب فدخل هذا الرجل المجهول
استولى على بطرس شعور " بالاحترام يمازجه قلق وخوف ، شبيه
بالشعور الذي كان يسيطر عليه عند الاعتراف في طفولته : انه أمام
رجل لم يكن في حياته الجارية شيئا ، ولكن الاخوة الانسانية تجعله
قريبا منه قريبا كبيرا . تقدم من « الخطيب » (هكذا يسمي ، في الماسونية ،
الاخ المكلف بتعليم المريد الجديد) تقدم خافق القلب متقطع الانفاس ،
رجل من معارفه القدامى يسمي سموليانينوف . ولكنه طرد هذه
الذكرى من نفسه طرد ذكرى مزعجة : فهذا الرجل يجب أن لا يكون

في نظره الا أخا ومعلما صالحا فاضلا . ولبت مدة طويلة لا يهتدي الى الكلمات التي يجيب بها الخطيب ، حتى لقد اضطر الخطيب أن يكرر عليه السؤال . فتمتم بطرس أخيرا بقوله :

— نعم ... انني ... أشد ... تجديد نفسي ...

فسرعان ما استأنف سموليانينوف كلامه ، فقال بلهجة قاطعة وسريعة :

— حسن . هل في ذهنك فكرة عن الوسائل التي تملكها جمعيتنا المقدسة لتمكنك من بلوغ هدفك ؟

فأجاب بطرس بصوت يهدّجه الانفعال :

— أتوقع ... ارشادي ... واغاثتي ...

لم يكن بطرس قد اعتاد أن يعبرّ باللغة الروسية عن المعاني المجردة، فكان لا يقع على الكلمات المناسبة .

— ما الفكرة القائمة في ذهنك عن الماسونية ؟

فأجاب بطرس وهو يشعر بخجل من استعماله كلمات لا تتناسب وجلال هذه اللحظة :

— أرى في الماسونية جمعية أخوة ومساواة تعمل لتحقيق أهداف فاضلة . أرى فيها ...

أسرع الخطيب يقول وقد بدا عليه أن هذه الاجابة أرضته ارضاء تاما :

— حسن . هل حاولت أن تجد في الدين وسائل تحقيق هذه الاهداف ؟

فقال بطرس بصوت بلغ من الخفوت أن الخطيب اضطر أن ينبّهه الى انه لا يسمعه • :

— لا ، وانما عددت الدين دجلا وتضليلا ، ولم أتقيد بتعاليمه •
ثم أضاف يقول شارحاً :
— كنت ملحدا •

واستأنف الخطيب كلامه بعد برهة صمت فقال :

— أنت تنشُد الحقيقة من اجل أن تُخضع حياتك لتقوانينها ،
فأنت اذن تسعى الى الحكمة والفضيلة ، أليس هذا حقاً ؟
فقال بطرس مؤكداً :
— نعم •

فصالب الخطيب على صدره يديه المغمودتين في قفازين ، ثم نطق بالكلام التالي بعد أن تنحنح :

— يجب عليّ الآن أن اكشف لك عن الغاية التي تسعى اليها جمعيتنا • فاذا كانت هذه الغاية متفقة وغايتك كان ينفعك ان تدخل في جمعيتنا • ان الهدف الاول الذي تنشده جمعيتنا ، والاساس الذي عليه تقوم ، والذي لا تستطيع اية قوة انسانية أن ترعزعه هو ان تحفظ وتنقل الى الالعقاب سرا هاما جدا ... وصل الينا منذ قرون موعلة في البعد ، بل منذ وجد أول انسان ، سرا ربما كان مصير الانسانية كله مرهونا به متوقفا عليه • ولكن لما كان من طبيعة هذا السر أن أحدا لا يستطيع أن يعرفه وان ينتفع به اذا هو لم يتهياً له عاكفا على تطهير نفسه مدة طويلة ، فيجب أن لا تتوقع الا لافراد قلائل ان يعلموا هذا

السر بسرعة • لذلك كانت مهمتنا الثانية هي أن نهىء اخوتنا لاصلاح قلوبهم ما أمكن اصلاحها ، والى تنقية وتنوير عقولهم بوسائل أورثنا اياها الرجال الذين جهدوا باحثين عن هذا السر ، فبذلك نجعلهم أهلا لان يتعلموه • حتى اذا أتممنا تطهير أتباعنا واصلاحهم كانت مهمتنا الثالثة أن نحاول اصلاح النوع الانساني كله بجعلهم قدوة في التقى والفضيلة يقتدي بها الناس كافة • على هذا النحو انما نبذل طاقتنا كلها في سبيل مكافحة الشر الذي يسود هذا العالم ...

وختم الخطيب كلامه وهو ينصرف :

— فكّر في هذا ، وسأعود اليك بعد قليل •

وسرعان ما تصور بطرس أن عمله في المستقبل سيكون هذا العمل ، فقال مرددا عبارة الخطيب : « مكافحة الشر الذي يسود هذا العالم » ؛ وتخيّل نفسه منذ الآن يلقي أناسا تشبه حالتهم الحالة التي كان هو عليها قبل خمسة عشر يوما ، وتخيّل نفسه واعظا يخطب فيهم فيقنعهم ويردهم الى الصواب ؛ وتخيّل نفسه يساعد الفاسقين والمنحليين والاشقياء بأقواله وأفعاله ، وينقذ الضحايا من الاشرار الذين يضطهدونهم •

ومن بين الاهداف الثلاثة التي ذكرها الخطيب ، كان بطرس يقرر الهدف الاخير خاصة : اصلاح النوع الانساني • وكان السر الخطير الذي كلمه عنه هذا الرجل لا يبدو له أمرا اساسيا رغم انه أثار فيه حب الاطلاع • وأما الهدف الثاني — وهو تطهير النفس — فلم يهتم كثيرا لانه كان يحس ، وقد امتلأ قلبه فرحا ، انه بريء من عيوبه الماضية برءا تاما ، وانه الآن محمول على الخير وحده •

وعاد الخطيب بعد نصف ساعة لينقل الى النصير الجديد ، الفضائل السبعة التي تقابل الدرجات السبع في هيكل سليمان ، والتي يجب على كل ماسوني أن يُمَيِّها في نفسه . فكانت هي الفضائل التالية :

- ١ - الكتمان الذي يصون أسرار الجمعية ؛ ٢ - الطاعة لاصحاب الرتب العالية في الجمعية ؛ ٣ - العادات الحسنة ؛ ٤ - حب الانسانية ؛ ٥ - الشجاعة ؛ ٦ - الكرم ؛ ٧ - حب الموت .

وقد قال له الخطيب في شرح الفضيلة الاخيرة :

- **سابعة (١) :** حاول بتأملات كثيرة في امر الموت ان تصل الى الاقتناع بأنه ليس عدوا قاسيا ، بل صديقا يخلص النفس من شقاء الحياة هذه التي ترهق النفس بأعباء الكفاح الفاضل ، ويدخلها في عالم الجزاء الحسن والراحة .

قال بطرس يحدث نفسه بعد أن خرج الخطيب مرة أخرى ، تاركا بطرس لتأملاته في العزلة : « نعم ، هكذا يجب ان يكون الامر . هكذا يجب أن يكون الامر . ولكنني ما أزال من الضعف بحيث أحب هذه الحياة التي بدأت باستشفاف معناها بدءا » . أما الفضائل الخمس الاخرى التي لخصها بطرس وهو يحصيها على أصابعه ، فقد أحس أنها قائمة في نفسه حقا : الشجاعة ، الكرم ، العادات الحسنة ، حب الانسانية ، ولا سيما الطاعة ، حتى لقد كانت الطاعة لا تبدو له فضيلة بل تبدو له سعادة ، فالى هذا الحد كان بطرس سعيدا بالتخلص من حرية

(١) باللاتينية .

ارادته ، والخضوع للرجل أو الرجال الذين يعرفون الحقيقة التي
لا سبيل الى جحودها . وأما الفضيلة السابعة فقد نسيها بطرس ولم
يفلح في تذكرها .

وبعد غياب أقصر من الغياب السابق عاد الخطيب وسأل بطرس
أما يزال ثابتا على قراره ، عازما عزمه أكيدا على الخضوع لكل ما يطلب
منه .

فقال بطرس :

— مستعد لكل شيء .

فقال الخطيب مستأنفا حديثه :

يجب أن أنبهك أيضا الى ان جمعيتنا لاتعلّم عقيدتها بالاقوال
وحدها ، بل بوسائل أخرى أيضا ، ربما كانت تؤثر ، فيمن ينشد الحكمة
والفضيلة حقا ، تأثيرا يفوق تأثير التعلم بالكلام . ولا بد أن تكون
الاشياء التي تزين هذه الصالة قد أثرت في قلبك منذ الان ، اذا كان
قلبك صادقا ، أكثر من تأثير كل كلام سمعته . وسوف ترى ، كلما
توغلت في تعلم عقيدتنا مزيدا من التوغل ، وسائل أخرى من وسائل
التعليم تشابه هذه الوسيلة . ان جمعيتنا تسير في هذا على غرار الجمعيات
القديمة التي كانت تكشف النقاب عن عقيدتها بواسطة الطلاس .

وأضاف يقول شارحا :

— والطلسم هو الرمز الى شيء لا يقع تحت الحواس ، ويملك
صفات الشيء الذي يمثله .

كان بطرس يعرف ماهو الطلسم ، ولكنه لم يجرؤ أن يقول انه يعرفه . فكان يصغي صامتا ، ويوجس أن الامتحانات ستبدأ .

وعاد الخطيب يتكلم فقال وهو يقترب :

— اذا كنت ماتزان عازما عزما ثابتا ، فيجب علي أن أبدأ تعليمك

سلّمني ، من باب الكرم ، كل ما معك من شيء ثمين .

فقال بطرس معترضا ، لانه تخيل أن المطلوب منه هو أن يسلّمه

كل ما يملك :

— ولكنني لم أنقل معي شيئا .

— سلّمني ما معك : الساعة ، المال ، الخواتم ...

فأسرع بطرس يستل كيسه ، ويخرج ساعته ، وقضى وقتا طويلا

في انتزاع خاتم الزواج من اصبعه الثخينة ، وقدّم الى الخطيب هذه

الاشياء كلها .

قال له الماسوني :

— من باب الطاعة ، اخلع ثيابك ...

فخلع بطرس رداءه ، وصدرته ، وخلع بأمر الخطيب جزمته

اليسرى . وتولى الخطيب ازاحة قميصه في الجهة اليسرى من صدره ؛

ومال الى تحت فئسر الساق اليسرى من بنطلونه الى ما فوق الركبة .

وأراد بطرس أن يخلع الجزمة اليمنى ليوفر على هذا الرجل عناء القيام

بهذا العمل ، ولكن الماسوني قال له ان ذلك ليس لازما ، وناوله خفا

يجدى به قدمه اليسرى . فاذا بابتسامة طفولية نصفها خجل ونصفها

سخرية ترسم جامدة على وجه بطرس ؛ وظل بطرس واقفا على ذلك

الوضع : يداه تتأرجحان ، وساقاه متباعدتان ، ينتظر أوامر جديدة من
« الاخ الخطيب » الواقف أمامه •

فقال له الاخ الخطيب :

— وأخيرا ، من باب الصدق ، اعترف لي بأكبر ضعف فيك •

— ما كان أكثر أنواع ضعفي !

بذلك أجاب بطرس ، فقال له الخطيب :

— اذكر لي ، من انواع ضعفك ، الضعف الذي جعلك تنعثر على

طريق الفضيلة أكثر من كل ماعداه من ضعف •

فأخذ بطرس يفكر ، ويزن في ذهنه كل عيب من عيوبه : « الخمرة؟

الطعام الشهوي ؟ الفراغ ؟ الكسل ؟ الغضب ؟ الخبث ؟ النساء ؟ » كان

لا يعرف أي هذه العيوب يجب أن يعده أكبر عيوبه ؟ ثم اذا هو يعترف

قائلا بصوت لا يكاد يُسمع :

— النساء !

فلما حصل الماسونى على هذا الاعتراف ، لبث مدة طويلة لا يتكلم

ولا يتحرك • وتقدم أخيرا من بطرس ، فتناول المنديل من على الطاولة ،

وعصب عينيه من جديد •

— أقول لك آخر مرة : ادخل الى نفسك ، كبّل حواسك ، انشد

السعادة في قلبك لا في أهوائك • فليس ينبوع الغبطة في خارجنا بل

هو فينا ...

وكان بطرس منذ ذلك الوقت يحس ينبوع الغبطة هذا يتفجر في

قلبه ويفرقه بمشاعر الفرح والمحبة والحنان •

الفضل الرابع

بعد مدة قصيرة جاء أحد يطلب بطرس . ان الذي جاء في هذه المرة ليس هو الخطيب ، بل هو عرابه فيلارسكي ، وقد عرفه بطرس من صوته . سأله فيلارسكي ألا يزال ثابتا على قراره ؟ ، فأجابه بطرس بقوله : « نعم ، نعم ، موافق » . ثم تبعه مبتسما ابتسامة مشرقة كابتسامة طفل ، سائرا سيرا أخرق خجلا ، وقد تعرى صدره السمين ، واحتذت إحدى قدميه جزمة وخلعت جزمة القدم الاخرى ، وكان فيلارسكي يحمل سيفا موجّه الحدّ الى صدر المريد الجديد ، وساروا بالمريد الجديد في دهاليز وممرات ، وداروا به دورات ، واقتادوه أخيرا الى باب المحفل . وسعل فيلارسكي ، فأجيب من الداخل بقرعات مطرقة ، وفتح الباب . وتكلم صوت جهير فقال يسأل بطرس ، وما تزال عيناه معصوبتين : من هو ؟ وأين وُلد ؟ ومتى ولد ؟ الى آخر ما هنالك من أسئلة من هذا القبيل . ثم عادوا يسرون به ، متحدثين اليه بالمجاز والاستعارة عن مشاق رحلته ، وعن الصداقة المقدسة ، وعن المهندس الابدئي الذي خلق الكون ، وعن الشجاعة التي يجب عليه أن يجابه بها المتاعب والمخاطر . ولاحظ بطرس أنهم يصفونه تارة بأنه « الانسان الذي يبحث » ، وتارة بأنه « الانسان الذي يتألم » ، وتارة بأنه « الانسان الذي يسأل » ، وانهم يقرعون بالسيوف والمطارق

في كل مرة قرعات مختلفة باختلاف الاسم الذي يسمونه به ؛ وفيما كانوا يقتادونه هذا الاقتياد نحو شيء من الأشياء ، فوجيء بتردد يسود مرشديه : اذ سمعهم يتناقشون بصوت خافت ، وسمع أحدهم يصر على أن يملأوا به فوق سجادة • ثم أمسك أحد يده اليمنى ، فوضعها على شيء من الأشياء ، ووضع في يسراه بركار ، وطلب منه أن يضغط بالبركار ثديه اليسر، وجعل يردد يمين الوفاء لأنظمة الجمعية وقواعدها جملة بعد جملة أو كلمة بعد كلمة • ثم أطفأوا الشموع ، وأشعلوا خمرة مقطرة عرفها بطرس من رائحتها ، وقالوا له انه سيبصر الآن الضياء الاصفر • فلما نزعوا العصبة عن عينيه رأى كما يرى النائم في الحلم ، في ضوء شعلة الخمرة المقطرة ، رأى عدة أشخاص يلبس كل منهم صدارا كالصدار الذي كان يلبسه الخطيب ، ويحمل كل منهم سيفاً موجها الى صدره ، وكان أحدهم يرتدي قميصاً مدمى ، فلما بصر بطرس بهذا المشهد هجم على السيوف راغباً في أن تخترقه • ولكن السيوف تنحّت ، وأسرعوا يعصبون عينيه من جديد ، وارتفع صوت يقول له :

— رأيت الضياء الاصفر •

ثم أعادوا اشعال الشموع ، ونبهوه الى أنه سيرى الان الضياء الاكبر ، ونزعوا العصبة عن عينيه من جديد ، فاذا بأصوات يبلغ عددها زهاء اثني عشر صوتاً، تقول على حين فجأة (Sic transit gloria mnudi)

فلما أفاق بطرس من ذهوله واسترد صحوه شيئاً فشيئاً ، أخذ يتفحص الغرفة ومن فيها من ناس ، فرأى اثني عشر رجلاً ، جالسين حول طاولة طويلة يغطيها قماش أسود ، مرتدين اللباس نفسه الذي رآه من

قبل • فتعرف من هؤلاء الرجال عددا قليلا ، ولكنه لم يتعرف رئيسهم وهو شاب كانت عنقه تزدان بوسام خاص ؛ وعلى يمين الرئيس كان يجلس ذلك القس الايطالي الذي رآه بطرس في السنة الماضية عند آنا بافلوفنا • وكان بين الجالسين أيضا موظف من كبار موظفي الدولة ، ومعلم سويسري هو من قدامى أصدقاء آل كوراجين • وكانوا جميعهم يلتزمون صمتا جليلا وقورا ، وكانوا ينتبهون انتباها يقظا الى أقوال الرئيس الذي يحمل بيده مطرقة • وكانت نجمة تتوهج على السور • وكان يمتد على طرف من الطاولة بساط تزيينه شعارات رمزية ، وكان يصاقب الطرف الاخر من الطاولة نوع من هيكل مع انجيل وجمجمة • وكانت شمعدانات سبعة كبيرة كالتي تثرى في الكنائس ، تحيط بهذا كله • وتقدم اثنان من الاخوة فقادوا بطرس الى الهيكل ، وأركعاه حتى صارت كل من ساقيه زاوية قائمة ، وأمرأه بأن يستلقي على الارض قائلين له انه يسجد على أبواب الهيكل •

قال أحدهما بصوت خافت :

— يجب أن يتلقى المسيعة^(١) قبل ذلك •

فأجابه الاخر :

— لا ، لا داعي الى ذلك •

لم يطع بطرس الامر ، وكان يجيل على ما حوله عينيه الحسرتين الزائفتين • وراودته على حين فجأة شكوك ، فأخذ يتساءل : « أين أنا ؟ ماذا أصنع ؟ ألا يستهزئون بي ؟ ألا أشعر بالخزي والعار في المستقبل

(١) آلة مملسة يدلك بها الطين •

حين أتذكر هذ كله ؟ » • ولكن هذا التردد لم يدم الا لحظة • فقد تأمل بطرس الوجوه الجادة التي كانت تحيط به ، وتذكر ما فعله حتى الان ، فأدرك أنه لا يستطيع أن يتوقف في منتصف الطريق ، وبذ شكوكه فزعاً ، وتذكر حماسه الاولى ، فاستلقى على الارض ساجدا أمام أبواب الهيكل ، وعاودته حماسه فعلا ، بل عاودته أقوى وأشد حرارة مما كانت قبل ذلك ؛ وبعد أن لبث مستلقيا على الارض بعض الوقت ، طلب اليه ان ينهض ، فألبس ذلك الصادر نفسه من الجلد الابيض الذي يلبسه الآخرون وأعطى مِسِيعة وثلاثة أزواج من الققازات ، ثم انبرى المعلم الكبير يخاطبه ، فحضته على أن لا يكدر بياض هذا الصادر بأي شيء من الاشياء ، فهذا الصادر هو رمز الثبات والبراءة • وأما المسيعة اللغز فقال له عنها انها تنفعه في تطهير قلبه من النقائص والردائل ، وتمهيد قلوب أقرانه البشر بغير شدة ولا قسوة • وأما الققازان الاولان فلا يمكن الكشف له عن دلالتها ، ولكن يجب أن يحتفظ بهما ، وان يلبس الققازين الثانيين في الاجتماعات • وكان الققازان الثالثان فكانا من ققازات النساء لا من ققازات الرجال، وعنهما قال له المعلم الكبير : « أيها الاخ العزيز ، ان هذين الققازين النسويين هما لك أيضا ، تهديهما الى المرأة التي ستحترمها أكثر من سائر النساء ، فبهذه الهدية تبرهن على صفاء قلبك لتلك التي يقع عليها اختيارك بعدها أهلا لان تكون ماسونية • » • وأضاف المعلم الكبير يقول بعد لحظة صمت : « ولكن حذار ، أيها الاخ العزيز ، أن تزدان بهذين الققازين يدان غير طاهرتين ! » • وفيما كان المعلم الكبير يخاطب بطرس بهذه الكلمات أحس بطرس بأن الرئيس ليس مرتاحا كل الارتياح ،

فاضطرب هو اضطرابا اشد من اضطراب الرئيس ، واحمر وجهه حتى
بالغ الاحمرار بياض عينيه كالاطفال ، وأخذ يلقي على ماحوله نظرات
قلقة .

وتبع ذلك صمت مرتبك لم يلبث أن قطعه أحد الاخوة ، اذ اقتاد
بطرس الى البساط ، وأخذ يقرأ له ، من دفتر بيده ، معنى جميع الرموز
التي كانت مثلة على البساط : الشمس ، القمر ، المطرقة ، سلك
الرصاص ، المسبحة ، الحجر المكعب ، العمود ، النوافذ الثلاث ،
الخ . ثم عيّنت لبطرس منزلته ، وذكرته له علامات المحفل ، وقيلت له
كلمة السر : وسُمح له أخيرا بأن يجلس . فلما جلس أخذ المعلم الكبير
يقرأ له نص النظام ، وهو نص طويل جدا أصغى اليه بطرس إصغاء ذاهلا
وقد سيطر عليه الفرح والانفعال والخرج ، ولم يستطع أن يعي منه الا
الفقرات الاخيرة :

« نحن في معابدنا لانعرف من الدرجات الا تلك التي تفصل بين
الفضيلة والرذيلة . فحذار أن تقيم فروقا يمكن أن تفسد المساواة .
هَبْ الى نجدة اخيك أيا كان ؛ إهدِ من يضل ، أنهض من يقع ، لاتحمل
لاخيك أي كره أو عداوة ، أشعل لهب الفضيلة في جميع القلوب ،
أشرك جارك في سعادتك ، ولا يعكّرْ عليك هذه المتعة أي حسد .
إغفر لعدوك ، لاتنتقم منه الا بالاحسان اليه . فاذا حققت القانون
الاسمى على هذا النحو استعدت آثار عظمتك القديمة الضائعة . »

فلما أنهى المعلم الكبير قراءة هذا النص نهض فعانق بطرس وقبله .
وعجز بطرس عن الرد على التهنئات تنهال عليه ، وعلى عواطف الصداقة
تغمره من كل صوب ، فكان لايزيد على أن يجيل على ما حوله عينين

مخضلتين بالدموع؛ لقد نسي أولئك الذين كان يعرفهم ، وأصبح لا يرى في جميع هؤلاء الافراد الا اخوة يحترق شوقا الى الشروع في العمل متعاونًا معهم .

وطرق المعلم الكبير بمطرقة طرقة ، فرجع الجميع الى أماكنهم ، وأخذ أحد الاخوة يعرض ضرورة التواضع قارئًا أحد التعاليم .

وأمر المعلم الكبير بالقيام بالواجب الاخير ، فقام الموظف الكبير ، الذي يتولى القيام بأعمال الاخ المستعطي ، وأخذ يطوف على الحفل ، فود بطرس لو يكتب على سجل الصدقات بكل ما كان معه من مال ، ولكنه خشي أن يكون ذلك دليلا على كبر وزهو ، فسجل مبلغا هو المبلغ الذي سجله غيره .

هكذا اختتمت الجلسة . وحين كان بطرس عائدا الى منزله ، كان يحس أنه عائد من رحلة طويلة دامت عشرات السنين ، وتبدل أثناءها تبدا كاملا ، وقطع في خلالها صلته بعاداته القديمة .

الفصل الخامس

كان بطرس ، غداة قبوله في جمعية الماسونيين الاحرار ، جالسا في منزله يقرأ ، محاولا أن ينفذ الى معنى المربع الذي يمثل أحد أضلاعه الرب ، ويمثل ضلعه الثاني العالم الروحي ، ويمثل ضلعه الثالث العالم المادي ، ويمثل ضلعه الرابع هذين العالمين مختلطين . وكان في بعض الفترات يترك الكتاب والمربع ، ويطلق العنان لخياله ، فيأخذ يضع نظاما جديدا لحياته . وكانوا قد نبهوه في المحفل بالامس الى ان الامبراطور علم بأمر مبارزته ، فمن الحكمة أن يغادر بطرس برج ، فكان ينوي اذن أن يسافر الى اراضيه في الجنوب ، ، وان يهتم فيها بفلاحيه ، وكان يحلو له الاسترسال في أحلامه .

وفيما كان على هذه الحال من الاسترسال في الاحلام اذ رأى الامير فاسيلي يدخل غرفته على حين فجأة .

سأله الامير فاسيلي قبل كل شيء :

— ما هذا الذي فعلته بموسكو يا صديقي؟ لماذا تشاجرت مع ليوليا يا عزيزي ؟ انك على ضلال تام . أنا أعرف كل شيء ، وأستطيع أن أوكد لك أن ليوليا ليست مذنبه في حقك أكثر مما كان المسيح مذنبا في حق اليهود .

فهم بطرس أن يجيبه ، ولكن الامير لم يترك له فسحة من الوقت ،
وتابع كلامه يقول :

— ولماذا لم تجي، الي رأسا تسألني نصيحة صديق ؟ أنا أعرف كل
شيء • لقد تصرفت أنت تصرف رجل عزيز عليه شرفه ، وربما كان في
تصرفك شيء من تعجل وتسرع ، ولكن دعنا من هذا الان • وانما انا
اريد منك ان تفكر في الوضع الذي صيررتنا اليه ، أنا وهي ، تجاه
المجتمع ...

وأضاف يقول خافضا صوته :

— وحتى تجاه البلاط • هي في موسكو ، وهأت ذا في بطرسبرج •

وأردف قائلا وهو يمسك يد بطرس ويخفضها نحو الارض :

— ماهذا كله الا سوء تفاهم ياعزيزي • وأظن أنك تدرك ذلك
بنفسك • فلنكتب اليها رسالة ، فتهرع الينا فورا ، وتتضح الامور ،
ويقوم التفاهم • والا فان هذه القضية يمكن ان تكون عواقبها عليك
وخيمة جدا • انني حريص على أن أنبهك الى هذا •

وختم كلامه قائلا. وهو ينظر الى بطرس نظرة ذات دلالة :

— نعم ، انني اعلم من مصدر يوثق به أن الامبراطورة الوالدة
مهمته بالامر اهتماما شديدا ، وأنت تعرف العواطف الطيبة التي تحملها
لابنتي هيلين •

اوشك بطرس أن يقاطع الامير فاسيلي مرارا ، ولكنه ، عدا ان
الامير كان مسترسلا في كلامه ، كان يخشى أن يبلغ حماه ، بلهجة
مسرعة في القسوة ، الرفض القاطع الذي كان ينوي مع ذلك أن يبلغه

اياه • وقا. تذكر من جهة اخرى ان فقرة من فقرات القواعد لماسونية تأمرة بأن يكون « لطينا محبا » ، فكان يقطب حاجبيه ، وكان يحمر وجهه ، وكان يقوم ثم يقعد ، مصارعا نفسه في أصعب ظرف واجهه حتى الان ، كيف يصدم انسانا بكلمات مزعجة ، كيف يقول لهذا الانسان ، أيا كان ، أقوالا تختلف كل الاختلاف عن الاقوال التي يتوقعها ويستظر أن يسعها • وقد اعتاد بطرس أن يخفض جناح الاذعان لما يتخذه الامير فاسيلي من هيئة الابهة التي تعبر عن قلة اكترائه وتعبر عن ثقته بنفسه ، فكان حتى في هذه الساعة لا يشعر بالشجاعة اللازمة لمجابهة هذه المظاهر التي يصطنعها الامير فاسيلي • ولكنه كان يدرك ان الاقوال التي سينطق بها ستحكم مستقبله كله : فهل يعود الى ضلالتة القديمة أم هو يسير في هذا الطريق الجديد الذي أشاد الماسونيون الاحرار بمفاته ايماء اشادة • والذي لا شك أنه سيقوده الى تجديد نفسه تجديدا طالما تمناه ؟

استأنف الامير فاسيلي كلامه فقال بلهجة ملاطفة :

— هيا يا عزيزي • قل لي نعم ، فأتولى أنا الكتابة اليها • ولن يكون علينا بعد ذلك الا ان نذبح العجل السمين •

فما كاد الامير فاسيلي ينهي جملته حتى قال له بطرس بصوت خافت ، وقد تقبض وجهه من الغضب تقبضا ذكر فجأة بتقبض وجه أبيه :

— لا أظن انني استدعيتك الى منزلي يا أمير • فانصرف عني ، أرجوك ... انصرف عني !

وأسرع الى الباب ففتحه ، وأخذ يكرر :

— هلاء انصرفت ! هلاء انصرفت !

وكان يقول ذلك وهو لا يصدق أن هذه الكلمات تصدر عنه ،
وكان يسعده أن يرى قسما وجه الامير تفضح ما أحس به فجأة من
اضطراب وخوف •

— ماذا أصابك ؟ أنت مريض ؟

فصرخ بطرس يقول بصوت مرتعش :
— أقول لك انصرف عني !

فاضطر الامير فاسيلي أن ينسحب دون ان يحصل على أي
ايضاح آخر •

وبعد ثمانية أيام ، كان بطرس قد ودع أصدقاءه الجدد ، وسلمهم
تبرعا ضخما ، وسافر الى اراضيه • وأعطاه الاخوة رسائل الى الماسونيين
في مدينة كييف ومدينة أوديسا ، ووعدوه بأن يكتبوا اليه ، وان يرشدوه
ويوجهوه في نشاطه الجديد •

الفصل السادس

رغم أن الامبراطور كان في ذلك الزمان يقسو في حق المبارزات قسوةً شديدة ، فإن المبارزة التي قامت بين بطرس ودولوخوف لم يكن لها أي عاقبة وخيمة لا على المبارزين ولا على الشهود . ولكن شائعات كثيرة جرت عن تلك المبارزة ، لم تلبث أن أيدتها القطيعة التي تمت بين بطرس وهيلين ، فأطلقت ألسن المجتمع الراقي . ان بطرس الذي كان يعامل معاملة تحمل معنى التنازل والتفضل بالاشفاق عليه والحماية له ، ثم صار يغمر بالثناء ويحاط بأنواع التدليل حين غدا خير مرشح للزواج في الامبراطورية كلها ، ان بطرس هذا كانت قد هبطت قيمته كثيرا في نظر المجتمع الراقي بعد الزواج ، اذ أصبحت لا تهتم به لا أمهات البنات المرشحات للزواج ، ولا البنات أنفسهن ، وكان من جهة أخرى لا يتقن فن الخطوة بمودة الناس له ورضاهم عنه في الصالونات واقبالهم عليه في الصالونات ؛ لذلك عُددَ مسئولا وحده عن كل ما حدث ، وأصبح يوصف بأنه امرؤ غيور غيرةً سخيفة لا محل لها ، وبأنه تغتر به نوبات حنق مسعور شديد كالمرحوم أبيه .

وحين عادت هيلين الى الظهور في مجتمع بطرسبرج بعد سفره ، أحسن جميع معارفها استقبالها بسبب ما ألمَّ بها من شقاء ، وعاملوها معاملة فيها مودة يسازجها احترام . فاذا حدث أن دار الحديث مرةً على

زوجها ، اصطنعت هيلين هيئة وقورا يوحى بها اليها ما فطرت عليه من حسن التصرف دون أن تدرك معناها على وجه الدقة ، فكانت هذه الهيئة تقول انها قررت أن تتحمل شقاءها بغير شكوى ، وانها تعد زوجها صليبا أرسلته اليها السماء . وكان الامير فاسيلي يقول في حق صهره كلاما فيه جزم أشد ، فيعلن وهو يضع اصبعه على صدغه :
— شاب طائش ؛ لظالما قلت هذا .

وكانت آنا بافلوفنا تؤكد من جهتها :

— قلت دائما ، وقلت منذ البداية ، قبل جميع الناس (وكانت تلح على هذا البعد) ان الافكار الفاسدة السائدة في هذا القرن ، ذهبت بعقل هذا الشاب . لقد عاد من الخارج فرفعه الناس الى السُحُب ، أما أنا فحكمت عليه فورا حين رأيته ذات مساء في منزلي يصطنع هيئة رجل مثل مارا ، ألا تذكرون ؟ وكيف انتهى الامر ؟ لقد أصبحت تلك اللحظة لا أريد هذا الزواج ، وكنت أتنبأ بما سيؤول اليه ، وبما سينجم عنه .

وكانت آنا بافلوفنا ما تزال تقيم في أيام الفراغ سهرات لا يحسن غيرها اقامة مثلها . وكانت تجمع في هذه السهرات ، على حدّ تعبيرها ، زبدة المجتمع الراقي حقا ، وزهرة الصفوة المثقمة في مجتمع «بلرسبرج» . وكانت سهرات آنا بافلوفنا تمتاز ، عدا هذا الاختيار الرفيع الرائع للمدعوين ، بأمرين كلاهما جذاب ، أولهما أنها في كل سهرة من سهراتها تولم لضيوفها شخصية جديدة شائقة ، والثانية أن المرء لا يستطيع في أي مكان آخر أن يرى الدرجة التي يشير اليها الترمومتر السياسي ، في الاوساط المناصرة للسلالة الملكية الشرعية في البلاط والمدينة ،

رؤية تستحق الثقة بها والركون اليها مثلما يراها في سهرات آنا بافلوفنا •

وقد تم اجتماع من هذا النوع بسنزلها في نهاية عام ١٨٠٦ ؛ وكان الناس في ذلك الحين قد علموا بجميع التفاصيل المحزنة للالتصار الساحق الذي فاز به نابوليون في فيينا وأوستدت ، وعلموا باستسلام جميع القلاع والحصون البروسية تقريبا ، وكانت جيوشنا قد دخلت بروسيا ، وكانت حربنا الثانية على نابوليون قد اندلعت نيرانها •

ان زبدة المجتمع الراقي حقا كانت تضم في ذلك المساء : هياين الفتاة التعيسة التي هجرها زوجها ؛ ومورتسار ؛ والامير اللطيف هيووليت • الذي وصل من فيينا منذ قليل ؛ ودبلوماسيين اثنين ؛ و « عستي » وشابا « عظيم الجدارة » لا أكثر ؛ وأنسة شرف مئحت هذا اللقب منذ برهة قصيرة ، وأمّ هذه الفتاة ؛ وعددا من الاشخاص أقل شأنا • أما الشرة الباكورة التي أولمتها آنا بافلوفنا لضيوفها فلم تكن الا بوريس دروبتسكوي الذي وصل من بروسيا رسولا منذ مدة قصيرة • وأما الترمومتر السياسي فكان يشير الى درجة الحرارة التالية : « للملوك والجنرالات أن يعقدوا الاتفاقات مع بوناپرت ما حلا لهم ذلك ، دفعا للازعاجات والمضايقات التي قد يحدثها « لي » أو « لنا » • ولكن رأينا في الامر لن يتغير ولن يتبدل • ولن نكف » عن الافصاح عن رأينا بصراحة ، ولن نستطيع الا أن نقول لملك بروسيا وللآخرين : « هذا ما جنته أيديكم • أنت أردتها يا جورج داندن • »

حين دخل بوريس ، الذي سيولم للضيوف ، الى الصالون كان الشغل كله تقريبا قد اجتمع ، وكان الحديث ، الذي توجه دفته آنا

بافلوفنا ، يتناول علاقاتنا الدبلوماسية مع النمسا ، والامل المعقود على تحالف مع هذه الدولة .

كان بوريس يرتدي بزة رسمية أنيقة من بزات الضباط المرافقين ، وكان نضر الحيا متورد الوجه ، وقد دخل الصالون طلق الهيئة ، فناولته أنا بافلوفنا يدها الجافة يقبلها ، وقادته وفقا للطقس المقرر الى « عمتي » ينحني لها ، حتى اذا أدخلته في الحلقة الكبيرة قدمته لعدد من الاشخاص لا يعرفهم ، واصفة له كل منهم بصوت خافت :

— الامير هيبوليت كوراجين ، شاب لطيف . — السيد كروج ، القائم بالاعمال في كوبنهاجن ، رجل عميق الفكر . — السيد شيتوف ، فتي عظيم الجدارة .

كان بوريس قد بلغ مركزا مرموقا جدا بفضل مساعي آنا سيحائيوفنا ، وبفضل ما لها من مزايا خاصة ، وبفضل ما يتصف به طبعها من تحفظ . انه الآن ضابط مرافق لشخصية عالية المقام جدا ، وقد عاد من القيام بمهمة خطيرة الشأن في بروسيا . وكان قد تبنى ذلك النظام غير المكتوب الذي سرّه اكتشافه في أولموتس أعظم السرور ، وهو النظام الذي يتيح للملازم بسيط أن يحتل منزلة أعلى كثيرا من منزلة جنرال ، النظام الذي لا يمنح الترقية على أساس العمل والجهد والشجاعة والدأب ، بل يمنحها لمن ومُهب القدرة على أن يجعل مانحي هذه الترقية ينظرون اليه نظرة حسنة . ولقد كان هو أول من أدهشه ما حققه من نجاح بعد نجاح ، وكان يتساءل لماذا لا يفعل الناس مثل الذي يفعل . وكان ذلك الاكتشاف قد بدل حياته تبديلا تاما ، وغيّر علاقاته بمعارفه القدامى ، وغيّر جميع الخطط التي وضعها للمستقبل .

فكان على فقره ينفق آخر قرش يملكه في سبيل أن يكون ملبسه خيرا من ملبس الآخرين ؛ كان يؤثر أن يحرم نفسه من ملذات كثيرة على أن يطوف في شوارع بطرسبرج مرتديا بزة عتيقة أو راكبا عربة رديئة . وكان لا يعقد صلات الا بأناس أعلى منه منزلة ، فيمكن أن ينفعوه . وكان يحب بطرسبرج ويكره موسكو . وأصبحت تزعجه ذكرى آل روستوف وغرامياته الطفولية مع ناتاشا ، فلم يطأ أرض منزلهم منذ أن سافر الى الجيش . وكان يعد حضوره سهرة آنا بافلوفنا خطوة هامة على طريق التقدم والصعود في حياته التي اختارها لنفسه . وسرعان ما أدرك الدور الذي يجب عليه أن يمثله في هذه السهرة، فترك لربة الدار أن تستفيد من اهتمام الناس به ، وأخذ يلاحظ هؤلاء وأولئك باتتباه يقط ، ويزن المنافع التي يجنيها من عقد صلات بينه وبين كل واحد منهم ، ويزن امكان عقد هذه الصلات . وقد جلس بجانب هيلين ، في المكان الذي عُيِّن له ، وراح يصيح بسمعه الى الحديث الذي يجري بين الحفل .

قال القائم بالاعمال في الدانمارك :

— ان فيينا ترى أن أسس المعاهدة المقترحة أبعد منا لا من أن يمكن الوصول اليها ولو بسلسلة متصلة من النجاحات الباهرة ، وهي تشك في جميع الوسائل التي يمكنها أن تهيء لنا هذه النجاحات . هذه الكلمة التي قالها رئيس مجلس الوزراء في فيينا بنصّها .

فقال الرجل العميق الفكر وهو يتسم ابتسامة ناعمة :

— الشك هو السبيل الى المباهاة بالنفس .

وقال مورتمار :

— يجب أن نميز بين مجلس الوزراء في فيينا ، وبين امبراطور النمسا • ان امبراطور النمسا لا يمكن أن يكون قد فكّر في شيء كهذا ؛ ومجلس الوزراء وحده هو الذي يقوله •

فتدخلت أنا بافلوفنا تقول متجهة بكلامها الى فرنسي ، معتقدة أن في امكانها ، حين تخاطب فرنسيا ، أن تلجأ الى هذا التألق في النطق ، الذي لا يدري الا الله ممن اقتبسته :

— عزيزي الفيكونت ! ان « أوروبا » لن تكون حليفنا الصادق في يوم من الأيام أبدا •

ومن أجل أن تهيم لبوريس فرصة الدخول في الحديث والظهور على المسرح ، حرفت الحديث عن مجراه ، وطفقت تشيد بما يتصف به ملك بروسيا من شجاعة وثبات وصلابة • وكان بوريس على انتظاره أن يجيء دوره في الكلام ، وعلى انتباهه الشديد الى ما يقوله كل متحدث من المتحدثين ، لا يهمل أن يلقي نظرات خاطفة على جارته الجميلة التي التقى بصرها مبتسمة عدة مرات يبصر الضابط الشاب الجميل •

وعلى نحو طبيعي لا أثر فيه للتكلف ، اتجهت أنا بافلوفنا الى بوريس بمناسبة الكلام عن الوضع في بروسيا ، فرجته أن يروي لهم رحلته الى جلوجاو ، وأن يصف لهم الحالة التي وجد عليها الجيش البروسي • فأخذ بوريس يتكلم بلغة فرنسية صافية سليمة ، فذكر تفصيلات كثيرة شائعة عن قطعات الجيش وبلاط الملك ، ولكنه حرص بكثير من العناية على أن يتخاشى اعلان رأيه في الوقائع التي يذكرها • واحتكر انتباه الجميع مدة من الوقت ، واستطاعت أنا بافلوفنا أن

ترى أن جميع ضيوفها قد استطابوا واستساغوا هذه الفاكهة الباكورة التي أولتها لهم . وبدأ على هيلين أنها أكثر الحضور اهتماما بما كان يقوله بوريس ، حتى انها ألقت عليه عدة أسئلة عن تفاصيل تتعلق برحلته ، وظهر عليها أن حالة الجيش البروسي تهبط وتقلقها كثيرا . فلما انتهى بوريس من حديثه ، التفتت اليه بابتسامتها المألوفة وقالت له :

— يجب أن تزورني حتما . يوم الثلاثاء بين الساعة الثامنة والساعة التاسعة . سيسرني مجيئك كثيرا .

وقد قالت له هيلين هذا الكلام بلهجة أوهنته أن مجيئه اليها أمر لا بد منه ولا غنى لأسباب يجهلها هو .

فوعدها بوريس بتلبية رغبتها ، وهمَّ أن يجري معها حديثا على انفراد ، لولا أن آنا بافلوفنا أسرع تناديه بحجة أن « عمتي » تحترق شوقا الى ساعه هي أيضا . وقالت له وهي تمض عينها وتشير الى هيلين بحركة تدل على الشفقة والحزن :

— أظن أنك تعرف زوجها ؟ يا لها من امرأة فتانة شقية ! لا تجيء على ذكره أمامها ، أرجوك ، فذلك يؤلمها إيلا ما شديدا .

الفصل السّابعُ

حين رجع بوريس وأنا بافلوفنا الى الحلقة الكبيرة كان الامير هيبوليت يتدخل في الحديث فيقول مائلا بجذعه الى أمام :
— ملك بروسيا !

ثم ينفجر ضاحكا ، فيلتنف الى جميع الحضور ، فيكرر قوله ،
ولكن بنهجة السؤال في هذه المرة :
— ملك بروسيا ؟

وينفجر ضاحكا مرة أخرى ، ثم يعود يغوص في مقعده رصينا
وقورا •

انتظرت أنا بافلوفنا بضع لحظات • حتى اذا رأت أن هيبوليت لا يريد أن يضيف الى ما قاله ، أخذت تحكي كيف أن هذا الزنديق بونابرت قد سرق سيف فريدريك الكبير في بوتسدام • وبينما هي تقول : — ان سيف فريدريك الكبير هو الذي أ ... ، اذ قاطعها هيبوليت وعاد يكرر قوله :
— ملك بروسيا ...

ولكنه لم يلبث ان اعتذر ولاذ بالصمت من جديد حين رأى الجميع ينظرون اليه نظرة الاستفهام والسؤال •

وظهر الاستياء في وجه آنا بافلوفنا • وتدخل مورتمار ، صديق هيبوليت ، ليحمله على أن يشرح ما بنفسه ، فقال له :
— ما بالك ؟ ما الذي يغيظك في ملك بروسيا ؟

فضحك هيبوليت مرة أخرى ، ولكن ضحكه في هذه المرة كان يشتمل على ضيق وبرم • ثم قال :

— لا ، لا شيء ، وانما أردت أن أقول ... أردت أن أقول اننا نخطئ خطأ كبيرا اذا نحن حاربنا في سبيل ملك بروسيا •

وتلك مزاحاة كان قد سمعها في فيينا ، وكان يرتقب منذ بداية السهرة أن تتاح له فرصة قولها ثم لا يظفر بذلك •

قالت آنا بافلوفنا وهي تلوّح له بابهامها الصغير المتفضّن مهدّدة :

— نكتتك هذه خبيثة جدا ، فكهة جدا ، ولكنها ظالمة • نحن لا نحارب في سبيل ملك بروسيا ، وانما نحارب في سبيل المبادئ الصالحة • آه من هذا الامير هيبوليت ما أخبثه !

لم ينضب معين الحديث طوال السهرة ، وكان يتناول الشؤون السياسية في جميع الاحيان تقريبا ، وقد اشتدت حرارته مزيدا من الاشتداد حين دار الكلام على المكافآت التي منحها الامبراطور •

قال الرجل العميق الفكر :

— لقد تلقى « ن • ن » في السنة الماضية علبة تبغ عليها صورة الامبراطور • فلماذا لا يحصل « س • س • س » على علبة مماثلة ؟

فردّ عليه أحد الدبلوماسيين قائلا :

— اسمح لي • ان علبة تبغٍ عليها صورة الامبراطور هي مكافأة ،
وليت وساما • قل انها هدية •

— حدثت سوابق • اضرب لك على ذلك مثالا بشفارتسنبرج •
فاعترض الآخر قائلاً :
— مستحيل •

— هل تراهن ؟... الوسام الاكبر شأنه شأن آخر ...

ولما حان وقت الانصراف ، قطعت هيلين صمتها بعد أن لاذت
بالصمت طول الوقت تقريبا ، كررت لبوريس دعوتها اللطيفة بلهجة
الامر • قالت له وهي تنظر الى آنا بافلوفنا طالبةً نجدتها :

— أنا في حاجة الى أن أراك حتما •

فعززت آنا بافلوفنا طلب هيلين وهي تبسم تلك الابتسامة
الأسبانية نفسها ، التي تصاحب كلامها حين تتكلم عن حاميتها
العالية المقام •

لكأن بعض الاشياء التي رواها بوريس هذا المساء عن الجيش
البروسي قد كشفت لهيلين فجأة أن عليها أن تلقاه حتما لأسباب ملحة ؛
وكان دعوتها إياه الى زيارتها يوم الثلاثاء وعد" منها بأن تكشف له
عن هذه الأسباب • ولكن حين جاء بوريس في الموعد المضروب ، فدخل
صالون الكوتيسة المترف الباذخ ، انتظر أن تقول له شيئا دون أن
يظفر بطائل • كان في الصالون ناس • ولم تخاطبه هيلين الا بوضع

كلمات • وأخيرا ، حين كان يودّعها مقبّلا يدها همست تقول له
بصوت خافت ، وبدون ابتسام ، وهذا شيء مستغرب :

— تعال الى الغداء غدا • يجب أن تجيء • تعال ...

وأصبح بوريث أثناء اقامته بيطرسبرج الصديق الحميم للكويتية.

• بيزو خوف •

الفصل الثامن

اشتعلت نيران الحرب ثانية ، واقتربت من الحدود الروسية ، فلا يسمع المرء في كل مكان الا اللعنات تنصب على بونا برت ، عدو النوع الانساني . والافراد يجندون في جميع القرى للجيش والمليشيا . وأنباء العمليات الحربية تتوارد متناقضة . وهي أنباء زائفة ، كما تكون دائما ، فيفسرها الناس تفسيرات شتى لا أول لها ولا آخر .

وكانت تبدلات كبرى قد طرأت على حياة الامير الشيخ بولكونسكي وأولاده منذ سنة ١٨٠٥ ؛ كانت المليشيا على امتداد الامبراطورية الروسية كلها قد تجعنت في ثمانية جيوش ، وكان الامير الشيخ قد تلقى أمرا بأن يكون قائدا لأحد هذه الجيوش الثانية ، فرأى أنه ليس بإمكانه أن يتخلص من نداء شخصي وجهه اليه الامبراطور ، رغم ما نالته به الشيخوخة من ضروب الضعف التي تفاقت تقاوما خاصا في الفترة التي ظن فيها أن ابنه قد مات . ذلك عدا أن هذا النشاط الجديد الذي تشهده البلاد قد عاد يث فيه قوة وشجاعة . فكان لا يبرح يفتش الاقاليم الثلاثة التابعة لقيادته ، ويستعمل أقصى الشدة تجاه مرءوسيه ، ويقوم بالواجبات الملقاة على عاتقه هو بكثير من العناية والجد ، ويهتم بأيسر التفاصيل .

انقطعت دروس الرياضيات . وفي الصباح فحسب ، حين يكون الشيخ في البيت ، انما كانت تدخل عليه ابنته ماريا في صحبة المربية والامير الصغير يقولان (هذا هو الاسم الذي سمى به الجد حفيده) . وكان الامير الصغير يشغل من المنزل مع مربية والخدمة العجوز سافشنا ، الشقة التي كانت تشغلها جدته قبل وفاتها ؛ وكانت ماريا تقضي بقربه كل نهار من أيامها تقريبا ، وتبذل قصارى جهدها لتتوب عن أمه في الاهتمام بأمره ؛ وكان يبدو على مدموازيل بورين أنها تعبد الطفل عبادة ، هي أيضاً . وكثيرا ما كانت ماري تحرم نفسها من لذة تدليله ، متنازلة عن هذه اللذة لمدموازيل بورين التي تأخذ تدلّج « ملاكها الصغير » — على حدّ تعبيرها — وتلعب معه .

وقد شيد في صدر كنيسة ليسيا جوري مصلى على قبر الاميرة الصغيرة الراحلة ، ووضع في داخل المصلى نصب من مرمر أوصى بصنعه في ايطاليا . وكان النصب يمثل ملاكا باسطا جناحيه يهيم أن يطير . وكانت الشقة العليا من فم الملاك مشمورة قليلا كأنه يريد أن يتسم . وقد أجمع رأي ماريا وآندره ، حين خرجا من المصلى ذات يوم ، على أن وجه الملاك يذكرّهما بوجه الاميرة الصغيرة الراحلة تذكيرا غريبا . وهناك شيء أشد غرابة أيضا ، شيء لم يحدث آندره أخته به ، وهو أنه كان يقرأ في التعبير الذي أضفاه الفنان عرضا ومصادفة على وجه الملاك نفس أقوال العتاب الرقيق الذي كان ينطق به وجه امرأته الميته : « لماذا صنعتم بي هذا ؟ » .

وكان الامير الشيخ قد استبق التوريث ، فوهب لابنه آندره ، بعد عودته بسدة قصيرة ، ألبان بوجوتشاروفو الواسعة ، التي تبعد

مسافة أربعين فرسخا عن لسيا جوري . فلأن لسيا جوري كانت تقترن في نفس آندره بذكريات أليمة ؛ ولأنه من جهة أخرى كان لا يشعر بأنه قادر على تحمل طبع أبيه ، الصعب المراس ؛ ولأنه من جهة ثالثة كان في حاجة الى العزلة ، فقد حلت له بوجاتشوروفو ، وشرع في تشييد مبان فيها ، وقضى بها أكثر وقته .

وكان الامير آندره قد قرر جازما بعد حملة أوسترتس على أن لا يعود الى العمل في الجيش . فلما استعرت نيران الحرب الثانية ، وأصبح يجب على كل فرد أن يقوم بواجبه ، قبل وظيفة تحت امرة أبيه في تجنيد فرق الميليشيا ، بغية اعفائه من الخدمة العاملة . وكان الاب والابن قد تبادلوا موقعيهما الماضيين منذ حملة ١٨٠٥ ، فالامير الشيخ الذي أنعشه نشاطه كان يعقد آمالا كبارا على الحملة الراهنة ، والامير آندره الذي لا يشارك في الحرب ، ويأسف لهذا من أعماق قلبه ، كان — على خلاف أبيه — لا ينتظر منها الا شرا .

وسافر الامير الشيخ في جولة تفتيشية بالدائرة التي تتبع قيادته يوم ٢٦ شباط (فبراير) من سنة ١٨٠٧ ؛ وبقي الامير آندره في لسيا جوري ، كما كان يفعل ذلك في أغلب الاحيان حين يغيب أبوه . وكان الامير الصغير نيقولا مريضا . منذ ثلاثة أيام . وعاد الحوذيون الذين ألقوا الامير الشيخ ، عادوا يحملون الى الامير آندره أوراقا ورسائل .

أخذ الخادم الرسائل ومضى الى الامير آندره في مكتبه ، فلما لم يجده ذهب الى الاميرة ماريا . ولكنه لم يجدها في غرفتها أيضا . وقيل له أن الامير في غرفة الطفل .

قالت احدى الخادمت اللامير آندره الذي كان جالسا على كرسي صغير من كراسي الاطفال ، مرتعش اليدين ، مقطب الحاجبين ، يسكب من قارورة دواء في كأس مملوء نصفها ماء :

— تعال من فضلك يا صاحب السعادة ! ان بتروشكا يحمل اليك

اوراقا .

فسألها الامير آندره حائفاً :

— ماذا هنالك ؟

وتحركت يده حركة خرقاء ، فانسكبت في الكأس بضع قطرات من الدواء زائدة ، فدلقت دواء الكأس على الارض وطلب ماء اخر ، فجاءته الخادمة بماء .

كان اثاث الغرفة سريرا صغيرا من سرر الاطفال ، وصندوقين ، ومقعدين ، وطاولة ، وطاولة اخرى صغيرة ، وكرسيا صغيرا من كراسي الاطفال هو ذلك الذي كان الامير جالسا عليه . وكانت الستائر مسدلة وكانت شمعة تحترق على الطاولة يحجبها دفتر موسيقى لحماية السرير الصغير من الضوء .

قالت الاميرة ماريا التي كانت واقفة بقرب سرير الطفل المريض :

— الافضل ان ننتظر يا صديقي ... فأجابها الامير آندره قائلا بدمدمة غاضبة ، وكان واضحا انه يريد ان يخز اخته .

— آه ... أرجوك ... انك لا تبرحين تقولين سخافات ... وها

قد انتظرت طويلا ، فاظفري ماذا كانت النتيجة !

فقالت الاميرة ملحة بصوت ضارع :

— صديقي ... الافضل حقا ان لا نوقظه ؛ لقد نام .
فقام الامير آندره والكأس بيده ، واقترب من السرير الصغير
سائرا على رءوس الاصابع . وقال مترددا حائرا :
— ربما كان الافضل حقا ان لا نوقظه ؟
قالت الاميرة ماريا خجلة من انتصار راياها خجلا واضحا :
— افعل ماتراه مناسبا ... انا اعتقد حقا ان الافضل ان ... ولكن
افعل ماتراه مناسبا .

واشارت لاختها الى الخادمة التي كانت تناديه بصوت خافت .
هذه هي الليلة الثانية يقضيها كلاهما بغير نوم قرب سرير الصبي
الصغير الذي يحترق بالحصى احترقا . ولقطة ثقتهما بطبيب العائلة ،
وبانتظار الطبيب الذي ارسل استدعيانه من المدينة ، كانا يعمدان تارة
الى دواء وتارة الى دواء اخر . وكانا من شدة ما اضناهما الارق والقلق
يلقي كل منهما على الاخر ما يعانيه من حزن ، ويتبادلان اللوم والتقريع ،
ويختصمان ويشتجران .

دمدمت الخادمة تقول :

— جاء بتروشكا يحمل اوراقا مرسله من بابا . فخرج الامير
آندره . وقال غاضبا :

— جاءت في حينها !

وبعد ان احاط علما بما ارسله اليه ابوه من تعليمات شفوية ، وبعد
ان اخذ الرسائل ، رجع الى غرفة الطفل . وقال يسأل :

— هيه ؟

فدمدمت الاميرة ماريا تقول متنهدة :

— لم يتغير شيء • انتظر ارجوك • ان كارل اينافتش يصف النوم دائما بأنه خير من كل شيء •

فاقترب الامير آندره من الطفل ولمسه ، فرأى انه يحترق بالحمى احتراقا ، فقال :

— اذهبي أنت وكارل اينافتش • ثم تناول كأس الدواء ، وعاد به الى الطفل •

فقلت الاميرة ماريا :

— آندره ... لا يجب ان تفعل •

ولكن آندره قطب حاجبيه غاضبا معذبا في ان واحد ، ومال بالكأس على الطفل وهو يقول :

— انا مصر على رايتي • خذي ، ارجوك ... جريه الدواء •

فرفعت الاميرة ماريا كتفيها ، ولكنها اطاعت اخاها فتناولت الكأس ونادت المرضعة ، وحاولت ان تجرع الصغير الدواء • فأخذ الطفل يصرخ ويحشرج • فاكفهر وجه آندره ، وامسك راسه بيديه ، ومضى يجلس على ديوان في الغرفة المجاورة •

كان قابضا على الرسائل بيده ، ففضها على غير شعور وبغير ارادة واخذ يقرأها • كان الامير الشيخ قد كتب الى ابنه على ورق ازرق ، بخطه الكبير المستطيل الذي تزينه احرف كبرى مزخرفة هنا وهناك ، مايلي :

« جاءني رسول منذ قليل نبأ سعيد جدا ، اللهم الا ان يكون
النبأ كاذبا . يقول الرسول ان ينجس قد انتصر في ايلاد انتصارا كاملا
على بونابرت ، فالناس جميعا في بطرسبرج يهللون ، وأصبحت الهدايا
ترسل الى الجيش وتهمر عليه انهمارا . انني اهنته وان يكن المانيا .
لا ادري ماذا يفعل هذا الرجل الذي اسمه خاندريكوف والذي يقود
الجيش في خورتشيفو : انه لم يرسل حتى الان لا تعزيزات ولا مؤنا .
فارفض اليه فورا ، وقل له انني ساخلع رقبتة خلعا اذا لم يصل كل شيء
في غضون ثمانية ايام . وعن معركة « برويشيش — ايلاو » وصلتني
كذلك رسالة من بيتنكا . لقد شارك هو في هذه المعركة : فكل ما قيل
عن هذه المعركة صادق . حين يكف اولئك الذين لا يخصهم الامر عن
حشر أنفسهم فيه فانه ليستطيع أن يغلب بونابرت حتى رجل الماني .
يقال أن بونابرت يفر في فوضى تامة . فلا يفوتك اذن أن تسعى الى
كورتشيفد حالا ، وان تفعل ما اقله لك » .

تنهد الامير اندره ، وفض الرسالة الثانية ، فرأى انها رسالة من
بيليين تتألف من ورقتين ملئت كتابا مرصوصة ، فطواها دون ان يقرأها ،
وعاد يقرأ رسالة ابيه التي تختتمها هذه الجملة « اسع الى كورتشيفو
وافعل ما اقله لك » . فقال محدثا نفسه : « لا ، اسمح لي ، لن اذهب
ما ظل الصبي مريضا لم يبرأ » . ثم مضى الى الباب وألقى نظرة على
الغرفة الاخرى . كانت الاميرة ماريا ماتزال بقرب السرير تهدد الطفل
في رفق .

تساءل الامير آندره وهو يستعيد ذكرياته : « وياله من خبر مزعج

هذا الذي ينبئني به ! نعم ... حققنا نصرا على بونابرت وانا بعيد عن
الجيش • ان القدر يسخر مني • طيب • هنيئا له • « • واخذ يقرأ رسالة
يليين المكتوبة بالفرنسية • كان يقرأ الرسالة دون ان يفهم نصف ما يقرأ
كان يقرأ لا لشيء الا ان يهرب لحظة من الخواطر الاليمة التي تحاصره
وتحتكر تفكيره منذ مدة طويلة •

الفضل التاسع

ان بيلييين هو الان ملحق بالقيادة العامة ممثلا دبلوماسيا • ومع انه كتب رسالته باللغة الفرنسية وضمنها امازيح فرنسية وصيغا فرنسية، فقد وصف الحملة كلها في هذه الرسالة بشجاعة ينفرد بها الروس وهي الشجاعة التي تجعلهم لا يحجبون عن نقد انفسهم والتهكم على انفسهم بغير رحمة • وهو يقول انه قد ضاق ذرعا « بالتكتم » الذي تمليه عليه الدبلوماسية ، وانه يسعده ان يجد في الامير آندره رجلا يستطيع ان يكتابه واثقا مطمئنا ، ويستطيع ان يفضي اليه بكل المرارة التي تراكت في نفسه من رؤية ما يحدث في الجيش • وكانت هذه الرسالة سابقة على معركة « برويش — ايلاد » ، فهي اذن قديمة •

كتب بيلييين يقول : « انني منذ انتصاراتنا الكبيرة في اوسترلتس ، كما تعلم ذلك يا عزيزي الامير ، اصبحت لا اغادر القيادات العامة • فلاشك انني استطبت الحرب واصبحت احبها وانني جنيت من ذلك خيرا واتنعت به انتفاعا كبيرا • ان مارايته خلال هذه الاشهر الثلاثة لا يستطيع المرء ان يصدقه •

وابداً بالانتصار ^(١) • ان عدو النوع الانساني ^(٢) • يهاجم

(١) باللاتينية في الاصل .

(٢) بحرف بارز في الاصل .

البروسيين كما تعلم • والبروسيون هم حلفاؤنا الاوفياء الامناء الذين لم يخذعونا الا ثلاث مرات منذ ثلاث سنين • ونحن نشيد بهم ونثني عليهم • ولكن الذي يحدث هو ان عدو النوع الانساني لا يلتفت أي التفات الى خطبنا الجميلة ، واقوالنا البديعة ، ويهجم على البروسيين بطريقته التي تخلو من الادب والتهذيب ، واسلوبه الوحشي الهمجي ، دون ان يتيح لهم اكمال الاستعراض العسكري الذين يكونون قد بدأوه ، فيشنهم جراحا ويجند لهم بضربتين من يده ، ثم يمضي يستقر في قصر بوتسدام •

لقد كتب ملك بروسيا الى بونابرت يقول له : انني أرغب رغبة قوية في ان تستقبل جلالتك في قصري وان تعامل فيه على النحو الذي يطيب لك ؛ وقد سارعت الى اتخاذ جميع الاجراءات التي تتيحها لي الظروف تحقيقا لهذا الغرض • اتراني نجحت ؟ ان الجنرالات البروسيين ليفخرون ويباهون بأدبهم في معاملة الفرنسيين، ويخفضون أسلحتهم متى بلغتهم اولى الانذارات •

وان قائد حامية جلوجاو الذي يرأس مائة الف رجل قد سأل ملك بروسيا عما يجب عليه ان يفعله اذا جاءه انذار بالاستسلام ... هذا كله ايجابي •

الخلاصة هي اننا اردنا ان نفرض مهابتنا باتخاذ الموقف العسكري لاغير ، اصبحنا في حرب فعلا ؛ واكثر من ذلك اننا اصبحنا في حرب على حدودنا مع ملك بروسيا وفي سبيله • وكل الامور مهيأة اتم تهيئة ، وليس يعوزنا الا شيء صغير ، هو ان يكون لنا قائد عام • فانهم لما

اتضح لهم ان انتصاراتنا في اوسترلتس كان يمكن ان تكون حاسمة اكثر مما كانت حاسمة لو ان القائد العام كان اقل شابا ، فقد استعرضوا القادة الذين بلغوا الثمانين ، وكان عليهم ان يختاروا احد اثنين هما بروزوروفسكي وكامنسكي^(١)، فوقع اختيارهم على كامنسكي وقد وصل الينا الجنرال مرتديا « كييكا » على طريقة سوفوروف ، واستقبل بهتافات الفرح والنصر •

وفي اليوم الرابع من الشهر وصل اول بريد من بطرسبرج • وجيء بالحقائب الى مكتب المارشال الذي يجب ان يعمل كل شيء بنفسه • واستدعيت للمساعدة في فرز الرسائل ، وان اخذ منها ما هو مرسل الينا • وكان المارشال ينظر الينا ونحن نعمل ، ويتنظر الرزم الموجهة اليه •

وبحثنا فلم نجد شيئا • فنقد صبر المارشال ، فأخذ يبحث معنا ، فوجد رسائل مبعوثة من الامبراطور الى الكونت « ت . . . » ، والامير « ف . . . » وغيرهما • فاذا هو يغضب غضبة من غضباته الزرق ، ويأخذ يقذف جميع الناس بحممه ، واستولى على الرسائل ، ففضها وقرأ الرسائل الموجهة من الامبراطور الى غيره • وكان يصيح اثناء ذلك قائلا : آ . . . هكذا يعاملونني • انهم يتجسسون علي • حسن جدا • الى الشيطان ! وكتب الى الجنرال بينجنس ، جدول الاعمال المشهور • كتب يقول :

(١) الامير الكسندر بروزوروفسكي (١٧٣٢ - ١٨٠٩) ، تميز اثناء حرب السنين السبع وحرب القرم . وقد احيل على التقاعد منذ سنة ١٧٩٧ ، ثم استدعي سنة ١٨٠٧ ، وقد استلم قيادة الجيش مدة في الحملة التي شنت على تركيا فلم يحسن التصرف .

« انني جريح ، لا استطيع ان اركب حصانا ، ولا استطيع اذن ان اقود جيشا . لقد اعدت فيلقك الى بولتوسك مهزوما : وهو فيها بلا حماية ، وهو فيها بغير حطب وبغير علف ، لذلك يجب تدارك الامر؛ وكما ابلغت الكونت بوكسهوفن بنفسك امس ، يجب التفكير في الانسحاب نحو حدودنا ، وذلك ما ينبغي ان تنفذه في هذا اليوم نفسه .

وكتب الى الامبراطور يقول : « ان تنقلاتي الكثيرة قد احدثت لي من الاحتكاك بالسرج كشطة تجعلني ، هي ومتاعب جولاتي القديمة ، عاجزا عجزا مطلقا عن ركوب حصان وقيادة جيش يبلغ هذا المبلغ من الضخامة . لذلك سلمت القيادة الى اقدم جنرال بعدي ، وهو الكونت بوكسهوفن ، ونقلت اليه جميع وظائفه وكل ما يتصل بها ، ونصحته بأن يتقدم في داخل الاراضي البروسية مزيدا من التقدم اذا اعوزه الخبز ، ذلك انه لم يبق خبز الا ليوم واحد ، ولم يبق خبز البتة في بعض الافواج ، كما اعلن لي ذلك قائد فرقة اوسترمان ، وقائد فرقة سيد موريدسكي؛ ان كل ما عند الفلاحين قد اكل . اما انا فأبقى في مستشفى اوسترولنيكا^(١) الى ان يتم لي الشفاء . واني اضم الى رسالتي هذه تقريرا عن حالتي . ويشرفني ان ابلغ جلالتك ان الجيش ، اذا بقي خمسة عشر يوما اخرى في معسكره الحالي ، لن يبقى منه في فصل الربيع رجل واحد سليما .

« اسمحوا لشيخ جلله العار منذ الان لانه لم يستطع ان ينهض بالعبء الكبير المجيد الذي اختير له ، اسمحوا له بأن يذهب الى الريف

(١) اوسترولنيكا ... بولتوسون : قرية صغيرة في بولنده الشمالية كانتا تنتميان الى بروسيا .

وينزوي فيه • سوف انتظر هنا في المستشفى وصول الاذن الكريم الذي تتفضل به جلاتكم علي ، وهو الاذن بأن لا يكون دوري في الجيش دور « كاتب » بدلا من ان يكون دور « قائد » • ان رحيلي عن الجيش لن يحدث ضجة اكبر من الضجة التي قد يحدثها ان يتركه اعمى • ان في روسيا آلافا من امثالي •

غضب المارشال من الامبراطور ، فعاقبنا جميعا • اليس هذا منطقيا ؟

هذا هو الفصل الاول • وفي الفصول التالية مايشوق ويضحك • فبعد سفر المارشال حدث أن كنا في مواجهة العدو ، وكان علينا أن نخوض معركة • والجنرال بوكسهوفدن هو القائد العام بحكم الاقدمية • ولكن الجنرال بينجنس لا يوافق على هذا الرأي ، لاسيما وانه هو وفيلقه في مواجهة العدو • وانه يريد أن يستغل فرصة معركة ، كما يقول الالمان • فأتاح هذه الفرصة ، وكانت معركة بولتوسك التي عُدَّت انتصارا كبيرا ، ولكنها في رأبي ليست انتصار البتة • ان الذي ينسحب بعد المعركة يكون هو المهزوم • ذلك ما نقوله • وعلى هذا الاساس نكون نحن المهزومين في معركة بولتوسك • الخلاصة اننا انسحبنا بعد المعركة ، ولكن أرسلنا الى بطرسبرج بريدا يحمل أنباء النصر ، ولم يتنازل الجنرال عن القيادة العامة لبوكسهوفدن ، أملا أن يتلقى من بطرسبرج لقب القائد العام ، اعترافا بفضلته في النصر الذي فاز به • وفي أثناء هذه الفترة بين قيادتين ، بدأنا خطة مناورات شائقة وطريفة الى أبعد حد • ولم يكن هدفنا أن نتجنب العدو او أن نهاجمه ، وانما كان هدفنا الوحيد هو أن نتجنب الجنرال بوكسهوفدن

الذي يجب أن يكون قائدنا بحكم الاقدمية . وقد لاحقنا تحقيق هذا الهدف بهمة ونشاط ، حتى كنا اذا قطعنا نهرا لا يمكن عبوره ، نغرق الجسور في سبيل أن نفصل عن عدونا الذي ليس هو الآن بونا برت بل بوكسهوفدن . وقد أفلت الجنرال بوكسهوفدن من أن تهاجمه قوات العدو التي تتفوق عليه ، وأن تدمّره ، وذلك بفضل مناورة من مناوراتنا الجميلة التي كانت تتقذنا منه . واستطاع عدونا بوكسهوفدن أخيرا أن يدركنا وأن يهاجمنا . وثار غضب الجنرالين ، حتى أن بوكسهوفدن دعا الى المبارزة ، وحدث أن أصيب بينجنسن بنوبة صرع . ولكن وصل من بطرسبرج في اللحظة الحرجة ، البريد الذي نقل نبأ الانتصار في بولتسوك ، وصل حاملا قرار تعيين قائدنا العام ، فخلع عدونا الاول بوكسهوفدن ، وأصبحنا نستطيع أن نفكر في عدونا الثاني، بونا برت . ولكن هذا عدو ذلك ما يلبث أن يقف في وجهنا ، هو الجيش الارثوذكسي الذي أخذ يصرخ صراخا قويا يطالب بخبز ولحم وسوخاري^(١) وعلف ، وما لا أدري . والمخازن فارغة ، والطرق لا يمكن السير فيها . وأخذ الجيش الارثوذكسي ينهب ويسلب ، بطريقة لا يمكن أن تعطيك الحملة السابقة أية فكرة عنها . وأصبح نصف الافواج يؤلف قطعاً حرة تحرق كل شيء ، وتسفح الدم في كل مكان . فتدمّر السكان وغصّت المستشفيات بالمرضى ، وعمّت المجاعة . حتى لقد عمدت قطعاً النهب والسلب الى الهجوم على القيادة العامة مرتين ، واضطر القائد العام نفسه الى طلب كتيبة لطردهم . وفي أحد ذينك الهجومين نهبنا حقيبتى الفارغة ونهب ثوب المنزل الذي كنت ألبسه . ان الامبراطور

(١) نوع من البسكويت لقطعاً الجيش .

يريد أن يجيز لجميع قادة الفرق أن يطلقوا الرصاص على الناهيين ،
ولكنني أخشى أن يضطر ذلك نصف الجيش الى اطلاق الرصاص على
نصفه الآخر .

كان الامير آندره لا يقرأ في أول الامر الا بعينه ، ولكنه رغم
ارادته (على علمه بأن يليبين ما ينبغي الركون الى ما يقوله) أصبح
ما يقرؤه يشوقه أكثر فأكثر . حتى اذا وصل الى هذا الموضع من رسالة
يليبين ، رأى ليس ما قرأه هو الذي أحققه وانما أحققه انه لاحظ ان
ما يجري هناك ، وهو من الامور التي لا شأن له بها ، يمكن أن تهيجه
وتثيره . وأغمض عينيه ، وحكّ جبينه بيده كأنه يريد أن يطرد من ذهنه
كل اهتمام بما قرأه ، وأصاخ بسمعه الى ما يجري في غرفة الطفل .
فخيّل اليه فجأة أنه يسمع وراء الباب صوتا غريبا ، فاعتراه خوف ،
وخشي أن يكون قد حدث للطفل مكروه أثناء انصرافه الى قراءة الرسالة،
فمضى الى الباب سائرا على رؤوس الاصابع وفتحته .

وبينما كان يدخل اذ رأى الخادمة العجوز تخفي عنه شيئا وقد
لاح في وجهها ارتياح شديد ، ولاحظ أن الاميرة ماريا ليست الآن
بقرب السرير الصغير .

وسمع الاميرة ماريا تدمدم من ورائه قائلة بلهجة بدت له يائسة :

— صديقي ...

فاذا برعب غريب لا تفسير له يستولي عليه فجأة ، كما يحدث ذلك
بعد مدة طويلة من الارق والقلق : لقد هجس في خاطره أن الطفل مات .
وبدا له أن كل ما يراه ويسمعه يؤكد هذا الذي هجس في خاطره .

قال لنفسه : « انتهى كل شيء » ، وغطت جبينه قطرات عرق بارد . واقترب من السرير الصغير طائش اللب ، موقنا أنه سيرى السرير خاليا ، وأن ما أخفته عنه الخادمة منذ قليل انما هو الولد ميتا . وأزاح ستائر السرير ، وظلت عيناه المرتاعتان تنتقلان من شيء الى شيء مدة طويلة فلا تستطيعان أن تقعا على الطفل . وأخيرا رآه : كان الصبي الصغير متورد اللون ، متباعد الذراعين ، راقدا على السرير الصغير بالعرض ، رأسه اخفض من الوسادة ، يرضع في منامه ، ويتنفس تنفسا منتظما .

فما كان أعظم فرحة الامير آندره حين رأى الطفل على هذه الحال بعد أن ظن انه فقدته ! ومال عليه ، ووضع شفثيه على جبهته ليرى أهو محموم ، كما علمته ذلك أخته ؛ فكانت جبهة الطفل الطرية رطبة ندية ، فجسّ الاب الرأس بيده ، فكان الشعر نفسه مبتلا ، فالى هذا الحدّ كان التعرق غزيرا . فالطفل لم يمت اذن ، بل انه لمن الواضح الآن أن أزمة قد حدثت ، وانه شفي من المرض . ودّ الامير آندره أن يمسك هذا الكائن الصغير الذي لا يملك عن نفسه دفاعا ، وأن يضمه الى صدره ، وأن يضغظه على قلبه . ولكنه لم يجرؤ . فبقي في مكانه يتأمل رأسه ، ويديه الصغيرتين ، وساقيه الصغيرتين اللتين ترتسمان تحت الغطاء . وسمع خفيفا بقربه ، وظهر له طيف تحت ستارة السرير . وكان هذا الطيف طيف الاميرة ماريا اقتربت بخطى لا يُسمع لها وقع ، ورفعت الستارة ثم أسدلتها عليها . عرفها الامير آندره دون ان يلفت رأسه اليها ، ومدّ يده صوبها فصافحته .

قال الامير آندره :

— تعرّق •

— ذهب اليك لابتشرك بذلك •

وتحرك الطفل حركة خفيفة في نومه ، وابتسم ، وحكّ جبينه
بالوسادة •

نظر الامير آندره الى أخته • فكانت عيناها المشرقتان ، وقد
فاضتا بدموع الفرح ، تسطعان في العتمة الخفيفة تحت الستارة مزيدا
من السطوع • ودنت من أخيها فقبّلته فصدمت ستارة السرير الصغير
صدما خفيفا ، وحرّك كل من الاخ وأخته يده بإشارة تدعو الى الصمت ،
وبقيا في هذه العتمة الخفيفة قليلا ، كأنهما يأسفان على أن يتركا هذا
العالم المستقل الذي يجعلهم هم الثلاثة في عزلة عن الدنيا بأسرها • وبادر
الامير آندره فابتعد قبل أخته وقد اشتبك شعره بستارة الموسلين ،
وقال متنهدا : « نعم ، هذا كل ما بقي لي بعد الآن • » •

الفصل العاشر

بعد قبوله في جمعية الماسونيين الاحرار بمدة قصيرة ، سافر بطرس الى اقليم كييف الذي يوجد فيه القسم الاكبر من فلاحيه ، سافر مزودا بتعليقات مكتوبة كاملة عما يقع على عاتقه أن يفعله في أراضيه .

وما ان وصل الى كييف حتى استدعى جميع وكلاء أعماله الى المكتب الرئيسي وأوضح لهم نيّاته ورغباته . وقال ان اجراءات مباشرة سوف تتخذ لعتق فلاحيه عتقا تاما ، فباستظار اتمام هذه الاجراءات يجب أن لا يُثقل الفلاحون بعمل فوق طاقتهم ، وان لا يرسل النساء والاطفال الى اشغال السخرة ، ويجب أن يساعد الفلاحون ، وان تكون العقوبات التي تُنزل فيهم هي التأنيب والتفريع لا القصاص الجسدي ، ويجب أن تُنشأ في كل أرض مستشفيات وملاجيء ومدارس . فكان بعض الوكلاء (ومنهم محاسبون لا يكادون يعرفون القراءة والكتابة) يصغون الى كلام بطرس جزعين ، مفترضين أن هذا الكلام يعني أن الكونت الشاب مستاء من ادارتهم واختلاساتهم . وشعر بعض آخر بشيء من الخوف في أول الامر ثم لم يلبثوا ان أخذوا يتسلون بالانصات الى لشعة مولاهم في النطق ، والى الكلمات الجديدة التي يقولها ولم يسبق

لهم ان سمعوها • ولم يزد بعض ثالث على الاستمتاع بلذة الاستماع الى الكلام • أما أذكاهم ، ومنهم الوكيل العام ، فقد تعلموا من هذا الحديث كيف يجب عليهم أن يتصرفوا مع مولاهم للوصول الى غاياتهم •

فعبّر الوكيل العام عن استحسانه الحار لنيات مولاه ، ولكنه أضاف الى ذلك أن الاعمال جملة تعاني الآن من الارتباك والفوضى ، فلا بد من الاهتمام بتنظيمها قبل الشروع في هذه الاصلاحات •

وكان بطرس — رغم أنه يملك الآن ثروة الكونت ييزوخوف الطائلة التي كان يقدّر الناس أن دخلها السنوي يبلغ خمسمئة ألف روبل — كان يحس بأنه أفقر كثيرا مما كان في العهد الذي كان فيه أبوه يخصه بمصروف قدره عشرة آلاف روبل في السنة • واليكم كيف كان يتصور ميزانيته على وجه الاجمال : كان يدفع الى « مجلس الوصاية » عن مجموع أراضيهِ قرابة ثمانين ألف روبل • وكانت صيانة مبانيهِ في ضواحي موسكو وفي موسكو ، تبلغ مع معاش الاميرات زهاء ثلاثين ألف روبل • وكانت معاشات مختلفة أخرى تكلفه نحو خمسة عشر ألف روبل ، وكانت أعمال البر والاحسان تستنفد مثل هذا المبلغ • وكانت فوائد الديون تصل الى حوالي سبعين ألف روبل • وكانت الكنيسة التي شرع في بنائها قد كلفته في الستين الماضيتين قرابة عشرة آلاف روبل • أما الباقي — وهو نحو مائة ألف روبل — فلا يدري كيف كان ينفقه ، وكان يضطر الى الاقتراض في جميع السنين تقريبا • وعدا ذلك كان الوكيل العام يبلغه كل سنة عن اندلاع حريق تارة ، وعن سوء المحاصيل تارة أخرى ، وعن ضرورة اصلاح القبارك والورشات تارة

ثالثة • فالشيء الوحيد الذي كان يجب على بطرس أن يوليه اهتمامه
انما هو مصالحه ، وتلك بعينها هي المهمة التي يشعر أنه غير مؤهل لها ،
ولا يحس بميل إليها •

ومع ذلك أخذ بطرس يعمل مع الوكيل العام كل يوم • ولكنه
أدرك أنه لا يتقدم في سيره شبرا واحدا • لقد أحس أن جهده يسير
في طريق خطأ ، وانه لا يصل الى ثمرة ، ولا يحسن تسيير أعماله •
فمن جهة أولى كان الوكيل يصوّر له الامور في أحلك أشكالها ، مبّينا
ضرورة دفع الديون ، والشروع في أعمال جديدة بمساعدة الاقنان ،
وذلك ما كان بطرس لا يوافق عليه ، ومن جهة ثانية كان بطرس يطالب
بالسير في طريق عتق الفلاحين ، وذلك ما كان الوكيل يعارضه مشيرا
الى ضرورة سداد الدين المستحق « لمجلس الوصاية » اولا وقبل كل
شيء ، مبرهنا بذلك على أن تحقيق هذا المشروع تحقيقا سريعا أمر
مستحيل •

كان الوكيل لا يقول ان الامر مستحيل استحالة مطلقة • وكان
يقترح لتحقيق هذا الهدف أن تباع غابات كوستروما ، وأراضي الفولجا
— الدنيا ، وأملاك القرية ، ولكنه يضيف الى ذلك أن هذه العمليات
معقدة غاية التعقيد ، فهي تحتاج الى دعاوى لدى القضاء ، والى أوامر
بالغاء وضع اليد ، والى تراخيص من الجهات المختصة ، والى أشياء
أخرى كثيرة ، فكان بطرس يتوه حين سماع هذا الكلام ، فلا يزيد على
أن يجيبه بقوله : « نعم ، نعم ، افعّل كل شيء ! » •

لم يكن بطرس يملك ذلك الفكر العملي وذلك الثبات العنيد

الذين كان يمكن أن يتحدا له أن يقبض على الامور بيديه ، وان يتصرف في الاعمال بنفسه ، فكان لذلك لا يجب هذا العمل ، ولا يزيد على ان يتظاهر أمام الوكيل بأنه شديد الاهتمام به . وكان الوكيل ، من جهته ، يجهد أن يتظاهر أمام الكونت بأنه يعدّ هذه المشاغل تنفع مولاه أكبر النفع ، وترهقه هو أكبر الارهاق .

ووقع بطرس في المدينة الكبيرة على أشخاص يعرفهم . والذين كانوا لا يعرفونه أسرعوا يسدون هذه الثغرة ويستقبلون بالمودعة والترحيب هذا القادم الجديد الذي هو أغنى رجل وأكبر مالك في الاقليم . وكانت الاغراءات المتعلقة بضعفه الاكبر ، وهو الضعف الذي اعترف به بطرس يوم قبوله في المحفل الماسوني ، كانت كذلك من القوة بحيث لم يستطع ان يقاومها . فعاد يقضي من حياته الايام والاسابيع والاشهر الكاملة مشغولا بالسهرات ومآدب العشاء وولائم الغداء ، وحفلات الرقص ، كما كان شأنه في بطرسبرج ، فلا يدع له هذا كله فسحة من الوقت تتيح له ان يرجع الى نفسه ويسترد رشده . فبدلا من ان يعيش الحياة الجديدة التي أمّل أن يبدأها ، استمر في حياته القديمة ، ولكن في مكان جديد .

وأدرك بطرس أنه من بين الواجبات الثلاثة التي تفرضها الماسونية لا يقوم الا بذلك الواجب الذي يأمر كل أخ بأن يكون قدوة في الاخلاق ، وأدرك أن هناك فضيلتين من الفضائل السبعة لا يتحلى بهما البتة : العادات الحسنة وحب الموت . فكان يعزي نفسه بأنه في مقابل ذلك يقوم بمهمة أخرى وينهض برسالة أخرى ، هي اصلاح النوع الانساني ،

وأنة يملك فضائل أخرى منها حب الانسان ، ومنها الكرم والسخاء
خاصة .

في ربيع عام ١٨٠٧ قرر بطرس أن يعود الى بطرسبرج . وكان
ينوي أن يزور في طريق عودته جميع أراضيه ، وأن يتأكد بنفسه من
مدى تطبيق التعليمات التي أصدرها الى وكلائه ، وليرى بعينه أيضا
حالة هذا الشعب الذي عهد به الرب اليه ، والذي يتطلع هو الى اسعاده .

واضطر الوكيل العام ، الذي كان يرى أن جميع مشاريع الكونت
الشاب حماقات جنونية تلحق الضرر به وبمولاه وبالفلاحين على حد
سواء ، اضطر ان يتنازل عددا من التنازلات . فانه على استمراره في
تصوير عتق الاقنان على أنه مستحيل ، امر بأن تبنى في جميع الاملاك
مبانٍ كبيرة تكون مدارس ومستشفيات وملاجيء . ولعلمه ، بعد أن
درس طبع بطرس ، بأن الاستقبالات الفخمة الباذجة تسوءه ، فقد
استغنى عنها باستقبالات توزع فيها عطايا خبز وملح ، وتتم فيها أعمال
بر واحسان ، وتعرض فيها أيقونات ، فمن شأن ذلك في رأي الوكيل
العام أن يؤثر في قلب الكونت ، وأن يفشه .

وكان لربيع الجنوب وللسفر المريح في مركبة من طراز مركبات
فيينا ، وللوحدة والعزلة ، أثر حسن في نفس بطرس . كانت جميع
الاملاك التي لم يكن يعرفها رائعة يأخذ حسنهما بمجامع القلب . وكان
يبدو على السكان في كل مكان أنهم يعيشون في رخاء ، وأنهم يشعرون
بالشكر العميق لما نالوا من نعم وآلاء وخيرات . كان بطرس يُستقبل
في كل مكان استقبالا يُشعره بالخجل ، ولكنه يهيء له في قرارة نفسه

فرحا عظيما . وقد قدّم اليه الفلاحون في أحد الاماكن خبزا وملحا وأيقونة تثل القديس بطرس والقديس بولس ، وسألوه أن يأذن لهم بأن يشيدوا على نفقتهم مصلّى جديدا في الكنيسة يخصصون به القديسين اللذين يرعيانه ، وذلك عرفانا منهم بفضله فيما أسبغه عليهم من نعم . وفي مكان آخر ، استقبلته النساء حاملات أطفالهن الرضع ، ليشكرنه على اعفائه اياهن من الاعمال الشاقة . وفي مكان ثالث كان الكاهن هو الذي جاء يستقبله حاملا بيده الصليب ، محاطا بالاولاد الذين أصبح بفضل الكونت يعلمهم القراءة والكتابة ويلقنهم تعاليم الدين . وفي جميع الاملاك كان بطرس يرى بعينه مباني من حجر تشاد ، على نموذج واحد ، لتكون مستشفيات ومدارس ومضافات يتم تدشينها في وقت قريب . وكان يرى في كل مكان ، وفقا لما يقوله الوكلاء ، أن السخرة قد خُفّفت ، وكان يسمع الشكر الحار تعبّر له عنه وفود من الفلاحين يلبسون القفاطين الزرق .

كان بطرس يجهل أن البلدة التي قدّم اليه فيها الخبز والملح ، والتي كان يُبنى في كنيستها مصلّى للقديس بطرس وللقديس بولس انما هي بلدة تجارية تقام فيها سوق موسمية تسمى باسم القديس بطرس ، وأن المصلّى قد بُدّيء بينائه منذ مدة طويلة على نفقة فلاحين أثرياء هم اللذين جاءوا اليه، وأن تسعة أعشار الفلاحين الآخرين مدمّرون تدميرا كاملا . وكان يجهل ان اعفاء النساء اللواتي لهن أولاد صغار من أعمال السخرة ، قد شُفّع بتحميل هؤلاء النساء أنفسهن ان يقوموا في مساكنهن بأعمال فيها مزيد من العناء والمشقة . وكان يجهل أن الكاهن الذي يستقبله والصليب في يده كان يرهق الفلاحين بالعشور ، وأن

الفلاحين كانوا لا يعهدون اليه بأولادهم الا باكين ، ولا يستطيعون أن يستردوهم الا بدفع مبالغ ضخمة • وكان يجهل أن المباني الحجرية التي رآها انما كان يبنها الفلاحون أنفسهم سخرةً ، وان ذلك فاقم السخرة، وأن السخرة لم تُخفف اذن الا كتابة على الورق • وكان يجهل أن المكان الذي أطلعه فيه أحد الوكلاء على دفاتره ، فرأى ان الاتاوة قد أُنقص ثلثها تنفيذا لاوامره ، انما زيدت فيه السخرة ضعفين • كان بطرس يجهل كل ذلك ، فلا عجب أن سُـر سرورا عظيما بهذه الجولة في أراضيه، واسترد ما كانت تجيش به نفسه من حماسة للأعمال الخيرية حين غادر بطرسبرج • وأخذ يكتب رسائل تفيض حرارة الى الاخ المعلم (هذا هو اللقب الذي كان يلقب به المعلم الكبير) •

وصار يقول لنفسه : « ما أسهل أن يقوم المرء بأعمال الخير هذه كلها ، وما أقلّ الجهود التي يحتاج الى بذلها من أجل انجازها • ولكن ما أقلّ ما نحاول بذل هذه الجهود الضئيلة ! » •

وكان يسعده ما يعبرون له عنه من مشاعر الشكر ، ولكن كان يحرجه كثيرا أن يقبل هذا التعبير من الشكر ، اذ كان يذكرّه بأنه قادر على أن يصنع لهؤلاء الناس البسطاء الطيبين أكثر كثيرا مما صنع •

كان الوكيل العام رجلا محدودا لكنه ماهر ، وقد نفذ نفاذا تاما الى نفس الكونت الذي كان ذكيا ولكنه ساذج ، فأصبح الكونت ألغوبة بين يديه • فلما رأى ما أحدثته الاستقبالات التي نظمتها من أثر في نفس الكونت ، أعلن له جازما قاطعا أن الفلاحين سعداء كل السعادة بدون تحرير ، وأن تحريرهم مستحيل ، وأنه خاصة لا فائدة منه ولا داعي اليه •

وكان بطرس في قرارة نفسه موافقا وكيله العام على الاعتراف بأن من الصعب أن يتخيل المرء وجود أناس يتمتعون بسعادة أكبر من السعادة التي ينعم بها هؤلاء الفلاحون ؛ وليس يعلم الا الله ما قد ينتظرهم من مصير اذا هم حُرِّروا ! ولكنه أصرَّ مع ذلك ، ولو بغير حماسة ، على ضرورة تحريرهم ، لان هذا التحرير حق وعدل . فوعده الوكيل العام بأن يبذل قصاره لارضاء رغبته وتنفيذ أمره ، مدركا حق الادراك أن الكونت لن يستطيع أن يتشبَّث من أن الاجراءات اللازمة لبيع الغابات والاملاك وسداد الديون المستحقة لمجلس الوصاية قد أتخذت ، وانه لن يعلم بأن المباني التي شيدت ما تزال خالية ، وأن الفلاحين ما يزالون يعطون من العمل والمال في أملاكه كل ما يعطونه في أملاك غيره ، أي كل ما يستطيعون أن يعطوه .

الفضل الحادى عشر

في طريق عودته من الجنوب وهو على أحسن حال من الابتهاج ،
حقق بطرس مشروعا قديما كان ينوي تحقيقه ، هو أن يمضي يزور
صديقه بولكونسكي الذي لم يره منذ سنتين •

تقع بوجوتشاروفو على أرض مسطحة ليس لها جمال يجذب
اليها ، تغطيها حقول وغابات صنوبر وغابات سندر مهيأة لان تقطع
أشجارها • وتقع دار أصحابها في طرف قرية تمتد خطا مستقيما على
طول الطريق الكبير وراء غدير حفر في الآونة الاخيرة وملئ بالماء حتى
صفائه ، ولما تزيّن شواطئه بعد بالعشب ، وسط غابة فتية ينتصب
فيها عدد من أشجار الصنوبر عاليا سامقا •

وتتألف الدار من فناء وملحقات وزرائب وحمامات وجناح في
الحوش ، ومن منزل ضخم بني بالحجر ، وزيّّن بواجهة مزخرفة على
شكل نصف دائرة لما يكتمل العمل فيها بعد • وتحيط بالدار حديقة فتية
غرست منذ مدة قصيرة • ان الاسيجة والبوابة متينة جديدة • وتحت
طنف من الاطناف مضختان للحريق ، وبرميل مدهون بلون أخضر •
والطرق مستقيمة ، والجسور قوية لها درابزين • وكل شيء يحمل طابع
النظام وحسن الادارة •

وصل بطرس وسأل الخدم الذين لقيهم أين يسكن الأمير ،
فأشاروا له الى جناح صغير جديد يقع على ضفة الغدير • وقام أنطون ،
الخدام العجوز من خدم آندره ، بمساعدة بطرس على النزول من
مركبته ، وقال له ان الامير في مسكنه ، وقاده الى غرفة انتظار صغيرة
نظيفة جدا •

دُهِش بطرس من تواضع هذا المسكن الصغير النظيف الذي يقيم
فيه آندره ، بعد مظاهر الفخامة والبذخ في المنزل الذي لقي فيه صديقه
آخر مرة ببطرسبرج ، وأسرع يدخل صالونا صغيرا لم يجصّص بعد ،
وما تزال تفوح فيه رائحة خشب الصنوبر ، وأراد أن يمضي الى أبعد
من ذلك ، وأن يوغل مزيدا من الايغال ، ولكن أنطون أسرع يتقدمه
سائرا على رؤوس الاصابع ، ونقر الباب •

فأجاب صوت قاطع فيه جفوة :

— ماذا ؟

فقال أنطون :

— زائر •

فأجابه الصوت :

— فلينتظر •

وسمعت ضجة كرسي يُدفع •

اقترب بطرس من الباب بخطى سريعة ، فاصطدم على عتبة بالامير
آندره الذي كان مقبلا عليه كالح هيئة ، هرم الوجه ، فاحتضنه بطرس

بذراعيه ، ونزع عن عينيه نظارتيه ، وقبَّله من الخدين ، وأخذ يتفرس فيه عن قرب .

قال الامير آندره :

— غريب ! لم أكن أتوقع هذه الزيارة ! ما أسعدني بك !
لم يقل بطرس شيئا ، وكان ينظر الى صديقه مدهوشا لا يحل عنه بصره . لقد أذهله هذا التبدل الذي طرأ على آندره . صحيح أن كلماته كان فيها مودة ، وأن شفقيه كانتا هما ووجهه تبتسمان ، ولكن نظرتة كانت منطفئة ، ميتة ، وكان رغم رغبته الواضحة لا يفلح في أن يسبغ على نظرتة شيئا من بريق الفرح والمرح . لم يكثر بطرس بما أصاب صديقه بولكونسكي — هزال وشحوب وشيوخة . ولكن هذه النظرة الميتة ، وهذا الغضن في الجبين ، وهما دليان على أن فكر صاحبهما قد تركز زمنا طويلا على موضوع واحد بعينه ، قد أذهلا بطرس وأشعراه بأنه بعيد عن صديقه ، لانه لم يعهدهما فيه من قبل قط . وكما يحدث دائما بعد فراق طويل ، لم يقم الحديث بين الصديقين الا في بطاء . وكانت الاسئلة والاجوبة في أول الامر لا تتناول الا في اقتضاب شديد تلك الموضوعات التي كانا يعلمان أن عليهما أن يتوقعا عليها ، ويتلبثا عندها . ثم أخذ حديثهما ينصب شيئا فشيئا على هذه الموضوعات التي لم يمسها في البداية الا مساهفيا ، فأخذا يتكلمان عن حياتهما الماضية ، وعن مشاريعهما في المستقبل ، وعن الرحلة التي قام بها بطرس ، وعن مشاغله ، وعن الحرب ، وما الى ذلك . وكان التركيز والانهيال اللذين لاحظهما بطرس في نظرة الامير آندره يظهران الآن واضحين مزيدا من الوضوح في الابتسامة التي تصحب اصغاءه اليه

دلا سيما حين تحدث بحماسة فرحة عن الماضي والمستقبل • كان الامير آندره كمن يتمنى أن يهتم بما يسمعه من صديقه بطرس ، ولكنه لا يفلح في ذلك • وأخذ بطرس يشعر أن الحديث عن حماسه وأحلامه وآماله في السعادة والفضيلة أمام آندره أمر ليس في محله • وضايقه أنه أخذ يشرح جميع أفكاره الماسونية الجديدة ، ولا سيما بعد أن انغشتها وغززتها رحلته الاخيرة • فكان يصدء نفسه عن الكلام، ويخشى أن يبدو ساذجا ، ولكنه كان في الوقت نفسه يحترق رغبة في أن يبين لصديقه أنه الآن بطرس آخر تماما ، يختلف كل الاختلاف عن بطرس بطرسبرج قال :
— أنا عاجز عن أن أشرح لك كل ما طرأ على حياتي منذ أن تلاقينا آخر مرة • انني لأنكر الآن نفسي ولا أعرفها •

فقال الامير آندره :

— نعم ، تغيرنا كثيرا ، كثيرا •

فسأله بطرس :

وأنت ، ما مشاريعك ؟

فأجابه الامير آندره ساخرا :

— مشاريعي ؟

ثم كرر يقول كمن يستغرب معنى هذه الكلمة :

— مشاريعي ؟ مشاريعي ما ترى : انني ابني ، وأنوي أن اقيم في

السنة المقبلة هنا اقامة دائمة ...

تفرس بطرس صامتا في الامير آندره الذي شاخ وجهه • ثم قال :

— لا ، انما اردت أن أسألك ...

ولكن الامير آندره قاطعه قائلاً :

— علام الكلام عني أنا أ الاخرى أن تروي انت ... حدثني عن رحلتك • عن كل ما فعلته في أراضيك •

فأخذ بطرس يحدثه عما فعله ، باذلاً قصارى جهده لاختفاء مشاركته في هذه الاصلاحات • وقد تولّى الامير آندره عدة مرات اكمال ما كان يحكيه بطرس ، كأن كل ما فعله بطرس قصة قديمة حفظها على ظهر القلب • وكان واضحاً أنه لا يولي كلام بطرس ايّ اهتمام ، بل كان كالخجلان من اصغائه الى هذه السفاسف •

وشعر بطرس أخيراً بضيق ، فصمت لايقول شيئاً • وأغلب الظن أن آندره شعر بهذا الضيق نفسه ، فأصبح لايهمه الا أن يشغل هذا الضيف المذني ليس بين آرائه وآرائه أي شيء مشترك • فقال له :

— انني مخيّم هنا تخييساً يا عزيزي ، ولم اجيء الا لالقاء نظرة ، ثم أعود اليوم الى عند اختي • سوف أقدمك اليهم واعرفهم بك •

— ولكنك تعرفها فيما أظن • سنرحل اليها بعد الغداء • والآن هل تريد أن ترى أملاكى ؟

وخرجا ، فظلاً يتجولان حتى موعد الغداء ، متحادثين تحدث أناس لا تجمعهم صداقة حميمة عن الانباء السياسية وعن اصدقائهما • ولم ينتعش الامير آندره ولم يظهر عليه شيء من الاهتمام الا حين تكلم عن أملاكه الجديدة التي شرع يرتب أمورها وينظم شؤونها، وعن الاعمال التي بدأها ، ولكنه اثناء هذا الحديث نفسه أيضاً أمسك فجأة عن الكلام

بينما كان على السقالات يصف المسكن الذي سيقم به في المستقبل . وقال :
— لا قيمة لهذا كله على كل حال ، هلمَّ بنا الى الغداء ثم نساfer
الى اختي .

وفي اثناء الغداء دار الحديث على زواج بطرس . قال الامير آندره :
— دهشت حين علمت بزواجك .

فاحمر بطرس كما يحمر دائما كلما جاء ذكر زواجه ، وأسرع يقول :
— سأقص عليك في يوم من الايام كيف حدث الامر . ولكنك
تعلم أن كل شيء قد انتهى ، انتهى الى الابد .

فقال الامير آندره :

— الى الابد ؟ لاشيء ينتهي الى الابد ...

— ولكن هل تعرف الخاتمة التي اختتم بها هذا الامر كله ؟ هل
سمعت عن المبارزة ؟

أجاب آندره قائلاً :

— نعم ، أعرف انك مررت بهذا ايضا !

قال بطرس :

— شيء وحيد احمد الله عليه ، هو أنني لم أقتل هذا الرجل !

فقال الامير آندره معترضا :

— لماذا ؟ ان قتل كلب شرير لهو عمل محمود جدا .

— لا ، ليس خيرا قتل انسان . قتل الانسان ظلم ...

فعاد الامير آندره يعترض قائلاً :

— لماذا تقطع بأنه ظلم • ان البشر لم يؤتوا القدرة على الحكم بأن هذا عمل عادل وهذا عمل ظالم • لطالما أخطأ البشر في تقدير العدل والظلم ، وسوف يظلون يخطئون ، وهم لا يخطئون في شيء خطأهم فيسا يعتقدون أنه عدل أو ظلم •

قال بطرس وقد سرّهُ أن يرى الامير آندره ينتعش ويتحمس وينطلق في الكلام ، وكأنه يريد أن يوضح له بالاسباب التي احالته هذه الاحالة وجعلته ما هو الآن :

— الظلم هو اىذاء شخص آخر •

فسأله آندره :

— وكيف تعلم أن عملا من أعمالك هو أذى لشخص آخر •

قال بطرس :

— الاذى ؟ الشر ؟ نحن جميعا نعرف ما هو اذى لنا وشر •

قال الامير آندره وهو يزداد انتعاشا ، ويزداد رغبة في أن يعرض على بطرس نظراته الجديدة الى الامور :

— نعم ، نحن نعلم ما هو أذى لنا وشر • غير أن ما أعرف أنه أذى لي وشر ، لا أصنعه لشخص آخر ، لانني أحب أن أجنب نفسي الاذى والشر •

وأضاف يقول بالفرنسية :

— ليس هناك الا شران هما شران حقا : عذاب الضمير ، واعتلال الجسم • وليس هناك من خير الا غياب هذين الشرين • أن لا أعيش الا

لنفسى متجنباً هذين الشرين ، تلك هي الحكمة التي آخذ بها الآن .
قال بطرس :

— وحب الانسان أخاه الانسان ؟ والتضحية بالنفس ؟ لا ، لا ،
انتي لا أستطيع أن أشاطرك رأيك . لان يحيا الانسان دون أن يؤدي
أحداً بعينه يتجنب عذاب الضمير فهذا قليل . لقد عشت أنا هكذا ، عشت
لنفسى ، فأفسدت حياتي . والآن انما صرت أحيا ، أو قل على الاقل
صرت أحاول أن أحيا للآخرين (كذلك صحح بطرس عبارته) ، الآن
انما فهمت كل السعادة التي يمكن ان تهبها لنا الحياة . لا ، أوافق على
آرائك . وأنت تفسك لا تتقيد بما تقوله .

وكان الامير آندره ينظر الى بطرس صامتا ، ويتسمم ابتسامة
سخرية . ثم قال :

— سوف ترى اختي الاميرة ماريا ، وسوف تتفاهمان . وتابع
يقول بعد صمت :

— قد تكون مصيبا فيما يتعلق بك . ولكن كل انسان يحيا على
طريقته . أنت عشت لنفسك فأوشكت . فيما تقول أن تفسد حياتك ،
ولم تعرف السعادة الا اذا أخذت تحيا في سبيل الآخرين . أما أنا فتجربتي
نقيض هذه التجربة . أنا عشت في سبيل المجد (وما المجد ؟ هو أيضا
حب الآخرين ، والرغبة في صنع شيء لهم ، الرغبة في أن يمدحوه) ،
فأنا عشت اذن في سبيل الآخرين فلم أوشك أن أفسد حياتي فحسب ،
بل أفسدتها فعلا . ومنذ أصبحت أعيش لنفسى انما هددت بالاواطماننت
نفسا .

قال بطرس متحمسا :

— ولكن كيف يحيا الانسان لنفسه فحسب ؟ وابنك ؟ واختك ؟
وأبوك ؟

قال أندره :

هؤلاء هم أنا وليسوا الآخرين • أما الآخرون الذين تسميائهم ،
أنت والاميرة ماريا ، باسم « اخوتنا البشر » ، فهم أكبر مصدر للضلال
والشر • « اخوتنا البشر » هم فلاحو كييف أولئك الذين تريد أن تصنع
لهم خيرا ، وأن تحسن اليهم •
قال بطرس وقد اشتدت حماسته :

— أنت تمزح • أي ضلال وأي شر يمكن أن تشتمل عليه الرغبة
التي قامت في نفسي فدفعنتني الى فعل الخير (وأنا لم أفعل من الخير الا
القليل ولم أحسن فعله) ، وجعلتني افعل الخير ولو قليلا ؟ أي شر
يمكن أن يشتمل عليه تعليم هؤلاء الناس البؤساء ، فلاحينا الذين هم
بشر مثلنا ، والذين يشبون ويموتون دون أن يعرفوا عن الرب وعن
الحقيقة الا طقوسا وصلوات آلية ، أي شر في تعليمهم الايمان بالحياة
الآخرة ، الايمان بأنهم سيجزون خيرا ، فيشد هذا أزرهم ويغريهم
ويواسيهم ؟ أي شر وأي ضلال يمكن أن تشتمل عليه منع الناس من
الموت بالمرض دون اغاثة ، مع أن اعانتهم بالمال وامدادهم بطبيب
ومستشفى وملجأ للشيوخ أمر سهل كل السهولة ؟ أليس خيرا محسوسا
ملسوسا لا يمكن ججوده أن تهب للفلاح وزوجه وابنه شيئا من راحة ،

وأن تهيء لهم شيئاً من فراغ ، وهم لا يكفون عن الكد والنصب في نهار
أو ليل ؟

كذلك كان يتكلم بطرس متعجلاً متلجلجاً • وأردف يقول :

— ذلك ما فعلته أنا ، ولعلني لم أحسن فعله كاملاً ، فجاء ناقصاً ،
ولكنني فعلت شيئاً في هذا السبيل على كل حال ، ولن تستطيع أن
تقنعي بأن ما فعلته ليس خيراً ، بل لن تستطيع أن تقنعي بأنك لا ترى
أنت نفسك هذا الرأي •

وتابع كلامه قائلاً :

— المهم على كل حال ، وذلك ما عرفه وأوقن به ، هو أن فعل الخير
هو السعادة الحقيقية الوحيدة في الحياة •

قال الامير آندره :

— نعم ، إذا طرحت المسألة على هذا النحو ، اختلف الامر أنا ابني
منزلاً وأزرع حديقة ، وأنت تشيد مستشفيات • وكلا الشئين يمكن
أن يكون تزجية للوقت • أما العدل وأما الخير فاترك الحكم في شأنهما
لمن يعلمون ، فما نحن بأهل لأن نقرر في أمرهما شيئاً •

وأضاف يقول :

— ولكن اذا كنت تحب أن تناقش ، فلنتناقش • ونهض الاثنان
عن المائدة ، وجلسا على مصطبة الباب التي كانت بمثابة شرفة •

قال الامير آندره :

— هياً تناقش !

وأضاف وهو يعدُّ على أصابعه :

— انت تقول : المدارس ، تعليم الدين ، الى آخر ما هنالك • أي أنك تريد أن تنتشل هذا ...

قال ذلك وهو يومئ الى فلاح كان يمر أمامهما خالعا قبعته •
وتابع كلامه :

— تريد أنت أن تنتشل هذا من حالته الحيوانية ، وأن تهب له حاجات روحية • ولكن يبدو لي أنا أن سعادته الوحيدة الممكنة هي هذه السعادة الحيوانية ، ومن هذه السعادة انما تريد أنت أن تحرره • أنا أحسده ، وأنت تريد أن تجعله مثلي دون أن تهب له الوسائل اللازمة • وتتكلم بعد ذلك عن تخفيف عمله • ورأيي أنا أن العمل الجسمي هو له ضرورة وهو شرط وجوده ، كما أن العمل الفكري هو لنا ضرورة وهو شرط لوجودنا أنا وأنت • أنت لا تستطيع الا أن تفكر وأنا أرقد في فراشي في نحو الساعة الثالثة من الصباح فتأخذ الافكار تهجس في نفسي فلا أستطيع أن أنام ، وأظل أقلب على فراشي وأتقاب ، وأبقى يقظان حتى مطلع الصبح ، لانني أفكر ، ولانني لا أستطيع الا أن أفكر ، كما لا يستطيع هو الا أن يحرث • ومثلما لا أطيق أنا أن أقوم بما يقوم به هو من عمل جسدي رهيب ، فاذا قمت بهذا العمل متُّ بعد ثمانية أيام ، كذلك لا يطيق هو أن يتحمل ما أحمله أنا من قعود عن العمل الجسمي ، فاذا هو يسمن ويموت • ثالثا : ما الذي قلته أيضا ؟

كان الامير آندره ما يزال يعد على أصابعه ، وهتف يجيب عن سؤاله قائلا :

آ ... نعم ... المستشفيات ، الادوية • هو يصاب بنوبة فيموت أو تنصده أنت فتبقية حيا ، فيعيش عشر سنين عاجزا معطوبا ، ويكون عالة على الآخرين • أليس موته أسهل عليه وأبسط له ؟ لسوف يولد كثيرون ، ولسوف يبقى من الاحياء ما فيه كفاية • لو كنت تأسف على فقد عامل — وأنا أنظر الى الامر هذه النظرة — لما كان لي اعتراض ولكنتك !نما تريد أن تشفيه بدافع المحبة له • وما هو في حاجة الى ذلك • ثم من قال ان الطب شفى احدا من المرض في يوم من الايام ؟ لو قلت لي ان الطب يميت لاجبتك : نعم ، الطب يميت •

قال آندره ذلك وهو يقطب حاجبيه غضبا ويشيح وجهه عن بطرس وكان الامير آندره ييسط أفكاره بوضوح ودقة يدلان على أنه فكر في هذا كله مرارا ، وكان يتحدث راضيا ، وكان لسانه يجري بالكلام سريعا ، كمن لم تتح له فرصة التعبير عما بنفسه منذ مدة طويلة • وكانت نظراته تزداد انتعاشا كلما ازدادت آراؤه جهامة •

قال بطرس :

— شيء فظيع ! شيء فظيع ! انني لا أفهم أن يستطيع أحد أن يعيش حاملا مثل هذه الافكار • أنا أيضا مرت بي لحظات كهذه منذ مدة غير طويلة ، في موسكو ، واثناء رحلتي ، ولكنني كنت عندئذ أنهار انهيارا ، فلا أحيا ، وأعدو مشمزا من كل شيء ، مشمزا من نفسي خاصة فأنقطع عن الطعام ، وآكف عن الاغتسال ... كيف تقدر أنت أن ...

قال الامير آندره مقاطعا :

لِمَ لا أغتسل ؟ اهمال الاغتسال قذارة • بالعكس • يجب على

المرء أن يجهد لجعل حياته مستعة اكبر الامتاع . انني أعيش ، وليس هذا ذنبي ، فيجب اذن أن أعيش أحسن عيشة ، دون أن أضايق أحدا ، الى أن يحين أجلي فأموت ...

— ولكن ما الذي يجعلك متعلقا بالحياة وهذه أفكارك ؟ ان المرء في مثل هذا الحال يبقى ساكنا لا يتحرك ، ولا يقوم بعمل ...

— الحياة ، لاتدع راحة على كل حال . اني لأود أن لا أعمل شيئا . ولكن الحياة لا تتيح لي هذا . فالطبقة النبيلة هنا مثلا قد شرفتني بتسميتي مارشالها . فما اكثر ما لقيت من تعب وعناء من اجل اقناع هؤلاء السادة بانني لست الرجل الذي ينشدونه ، فهذا المنصب يتطلب من مزايا البساطة المرحاة الجذلة والعامية المتحركة المضطربة ، ما ليس في طبعي . وعدا ذلك كان لابد لي من بناء هذا المنزل ليكون ركنا آوي اليه ، وأهدأ فيه . والآن جاءني هذا العمل في الميليشيا .

— لماذا لم تعد الى الخدمة في الجيش ؟

قال الامير آندره مبرداً الوجه :

— أبعد أوسترلتس ؟ لا . شكرا . لقد آليت على نفسي ألا أخدم في الجيش الروسي العامل . ولن اراجع عما عقدت عليه نيتي . فلو وصل نابوليون الى هنا قرب سمولنسك ، وصار يهدد لسيا جوري ، لما هببت الى الخدمة في الجيش الروسي .

وتابع كلامه وقد هدأ :

— قلت لك انهم يجندون رجالا للميليشيا ، وان ابي سمي قائدا

عاما للمنطقة الثالثة ، فكان سييلي الوحيد الى الافلات من الخدمة
العاملة هو أن ألحق به .

— فأنت اذن تخدم ؟

— نعم .

وصمت آندره لحظة . فسأله بطرس :

— ولماذا تخدم ؟

— اليك السبب . ان ابي واحد من ابرز رجال عصره . ولكنه
شاخ ، ولست أقول انه قاس ، ولكن له طبعاً مسرفاً في النشاط . فهو
رهيب بما اعتاده من سلطة لا حدود لها ، وهو الآن رهيب بالسلطة
التي خولها الامبراطور لقادة الميليشيا .

وأضاف الامير آندره وهو يتسم :

— منذ خمسة عشر يوما ، لو حدث وصلت متأخرا ساعتين لكان
أبي قد أخذ « كاتبا » الى يوخنوف . فأنا أخدم في الجيش لانه ليس
لاحد تأثير في ابي غيري ، فأستطيع من حين الى حين أن أمنعه من ارتكاب
أعمال يمكن أن يؤلمه أشد الايلام بعد ذلك أن يكون قد ارتكبها .

— آآآ... أرايت ؟

فانبرى الامير آندره يقول :

— نعم ، ولكنني لا أفهم الامر على نحو ما تفهمه أنت . أنا لم
أنشد ولا أنشد أي خير لذلك « الكاتب » الوغد الذي سرق أحذية
رجال من الميليشيا . ولو رأيت يشنق لاسعدني ذلك كثيرا . ولكنني

أشفق على أبي ، أي أشفق على نفسي كما سبق أن قلت .

وكان الامير يزداد انتعاشا وحرارة . وكانت عيناه تسطعان بريق محموم حين كان يحاول أن يبرهن لبطرس على أن عمله لا يشتمل على أية رغبة في أن يحسن الى « أخيه الانسان » . وأردف يقول :

— أنت تنوي تحرير اقنانك . هذه نية طيبة جدا . ولكن هذا لن يكون فيه خير لا لك أنت — وأظن أنك لم تجلد أحدا منهم ولا قتيت أحدا منهم الى سبيريا في يوم من الايام — ولا للفلاحين . واذا حدث أن ضربوا وان جلدوا وأن رحلوا فأنا اعتقد أن هذا لن يصيبهم بشر كبير . سيظلون يعيشون في سبيريا حياتهم البهيمية وسوف تلتئم الجراح التي أحدثها الجلد في اجسامهم ، وسيكونون سعداء مثلما كانوا سعداء قبل ذلك . ولكن تحرير الاقنان لازم مع ذلك ، لازم لاولئك الذين يفقدون كل حس أخلاقي شيئا بعد شيء ، ويتراكم في نفوسهم عذاب الضمير ، ثم هم يكتبون هذا العذاب ويخنفونه ، وتزداد قسوتهم لفقدهم سلطة المعاقبة بحق وبغير حق ، اولئك أرثي لحالهم واشفق عليهم ، واتمنى لهم أن يحرروا فلاحهم . ربما كنت لا تعرف أحدا من هذا النوع من الناس ، أما أنا فقد رأيت رجالا أحيارا نشأوا على تقاليد السلطة التي لا تقيدها حدود ، ثم أصبحوا مع تقدمهم في السن سريعين الى الاهتياج ، مسرفين في القسوة والوحشية ، وهم يعرفون هذا في أنفسهم ، ولكنهم يعجزون عن السيطرة على أعصابهم ، فيزداد من ذلك شقاؤهم يوما بعد يوم .

كان آندره يتكلم بحرارة شديدة ، فقدّر بطرس ، على غير ارادة

منه ، ان هذه الافكار لابد أن يكون آندره قد استوحاها من حالة ابيه
فلم يجب بشيء •

وختم آندره كلامه فقال :

— ذلك ما يوقظ اهتمامي ويثير شفقتي : كرامة الانسان ، راحة

الضمير ، نقاء النفس • أما ظهور أولئك الناس ورءوسهم ، فمهما تجلدها

ومهما تحلقها ، تظل ظهوراً ورءوساً •

قال بطرس :

— لا ، لا ، ألف مرة لا ••• لن يكون رأيي هذا الرأي في يوم

من الايام أبداً •

الفصل الثاني عشر

في المساء ، ركب آندره وبطرس عربة وسافرا الى ليسيا جوري .
فكان الامير آندره ينظر الى بطرس من حين الى حين ، ويقطع الصمت
بكلمات تدل على أنه حسن المزاج .

فحدثه وهو يريه الحقول عن التحسينات التي أدخلها على استثمار
أراضيهِ .

فكان بطرس يظل صامتا صمتا متجهما ، ولا يجيب الا بكلمات
قصار قليلة ، ويبدو غارقا في أفكارهِ .

كان يرى أن آندره انسان شقي ، وأنه مخدوع مغشوش ، وأنه
لا يرى النور الحق ، وأن عليه ، هو بطرس ، أن يعينه فينيره ويقلله
من هذه العثرة وينهض به . ولكنه ما ان يفكر فيما عسى أن يقوله له ،
وفي الاسلوب الذي يجب أن يعتمد اليه في مواجهة هذه المهمة ، حتى
يحس ان الامير آندره يستطيع بكلمة واحدة أو حجة واحدة أن يهدم
كل ما قد يقدمه هو من برهان ، وكل ما قد يجريه من استدلال ، فكان
يمسك عن الكلام خوفا من السخريات التي قد يوجهها آندره الى ما
يعدّه هو أقدس الامور قاطبة .

وبدا يتكلم فجأة فقال وهو يخفض رأسه كثور المصارعة عند الهجوم :

— عجيب ! من أين جاءتك هذه الآراء ؟ ما ينبغي لك أن تفكر هذا التفكير .

فسأله الامير آندره مدهوشا :

— أية آراء ؟

— آراؤك في الحياة وفي مصير الانسان . هذا مستحيل . لقد كنت أفكر مثل تفكيرك ، فهل تعرف ما الذي أنقذني ؟ الماسونية . لا ، لا تبسم . ليست الماسونية فرقة دينية قوامها طقوس كما كنت أظن ، بل هي أجمل تعبير عما هو في الانسان خير" وأبدى ، وهي التعبير الوحيد عن ذلك .

وطفق بطرس يشرح للامير آندره ما هي الماسونية على نحو ما يفهمها . فقال ان الماسونية عقيدة مسيحية متحررة من عوائق الحكومات والدين ، وانها مذهب المساواة والاخوة والمحبة . قال :

— ان جمعيتنا المقدسة هي الوحيدة التي تعرف المعنى الحقيقي للحياة ، وكل ما عداها أحلام من أحلام اليقظة . اعلم يا صديقي أن كل ما عداها كذب وزيف ، واني لا وافقك على أنه لم يبق لانسان ذكي خيرٌ الا ان يختم حياته على نحو ما تفعل أنت ، مكتفيا بأن يحاول ان لا يضايق الآخرين . ولكن خذ بسادتنا الاساسية ، ادخل في جمعيتنا ، انتقدنا لنا ، أتح لنا ان نوجهك ونرشدك ، فسرعان ما تجس كما

أحسست أنا أنك لست الا حلقة في سلسلة كبيرة لا تراها الاعين ، يغيب أولها في السماوات •

كان الامير آندره ينصت اليه صامتا ، محدقا بصره الى نقطة ثابتة في الفضاء أمامه • حتى لقد استعاده مرارا بعض الاشياء التي حالت ضجة جريان العربة بينه وبين سماعها واضحة • ولاحظ بطرس من البريق الخاص الذي التمعت به عينا آندره ومن الصمت الذي التزمه مصفيا ، أن كلامه لا يضيع سدى ، ولاحظ أن آندره لا يقاطعه ، وأنه لن يستهزىء بما يقوله •

ووصلا الى نهر فائض اضطرا أن يعبراه على معدّية ، فجلسا في مكان على المعدّية بينما كانت العربة والخيول تنقل اليها ، وراح آندره يتأمل صفحة الماء الساطع تحت أشعة الشمس الغاربة ، متكئا بكوعيه على الدرازين •

سأله بطرس :

— هيه ! ما رأيك ؟ ما بالك تصمت ولا تجيب ؟

— رأيي ؟ لقد أصغيت الى كلامك • وهو كله كلام جميل • ولكنك تقول : ادخل في جمعيتنا فندلك على غاية الحياة ومصير الانسان والقوانين التي تحكم الوجود • ولكن ماذا نحن ؟ بشر • فكيف تعلمون أتمم كل شيء ، وأكون أنا الوحيد الذي لا يرى ما ترون • أتمم ترون على الارض ملكوت الخير والحقيقة • ولكنني لا أرى أنا هذا الذي ترون ...

فقاطعه بطرس قائلا :

— هل تؤمن بالحياة الآخرة ؟

فكرّر الامير آندره :

— الحياة الآخرة ؟

ولكن بطرس لم يدع له وقتا للجابة ، وعدّه تكراره للسؤال نفيا ، ولاسيما وأنه كان يعرف الحاد الامير آندره . قال :

— تقول انك لا ترى ملكوت الخير والحقيقة على الارض . أنا أيضا كنت لا أراه . ولايستطيع الانسان أن يراه اذا كان يعد حياتنا نهاية كل شيء . فعلى الارض^(١) لاحقيقة (قال بطرس ذلك وهو يشير الى البرية حوله) ، وكل شيء على الارض شر وكذب .

أما في الكون ، في مجموع الكون فالحقيقة هي التي لها الملك ، ونحن لسنا أبناء الارض الا لحظة ، ولكننا أبناء الكون كله في الابدية . ألا أشعر في قرارة نفسي أنني جزء من ذلك الكل الواسع المتسق المنسجم ؟ ألسنت أحس أنني في هذا العدد الضخم لا يحصى من الموجودات التي تتجلى بها الالهوية ، أو قل تتجلى بها القوة العليا اذا شئت ، لست الا حلقة صغيرة ، ولست الا درجة في السلم الذي يمضي من الكائنات الدنيا الى الكائنات العليا ؟ اذا كنت أرى ، وأرى رؤية واضحة ، صعود هذا السلم من النبات الى الحيوان ، فكيف يجوز لي أن أفترض أنه ينتهي عندي ، ولايمضي صاعدا فيتجاوزني ؟ أنا أحس أنني لايمكن أن أزول ، كما لا يمكن أن يزول شيء في الكون ، وانما سأبقى موجودا ،

(١) مبرزة في الاصل .

وأنتي ووجدت دائما • أنا أحس أن هناك موجودات غيري ، موجودات فوقية ، هي أرواح تحيا ، وأن الحقيقة في هذا الكون •

قال الامير آندره :

— نعم ، هذا مذهب هرذر ، ولكن ليس هذا ما سوف يقنعني يا عزيزي ؛ الحياة والموت ، ذلك ما يقنعني • ان ما يقنع المرء هو أن يرى انسانا عزيزا عليه ، تربطه به صلات ، وكان قد أساء اليه ، وكان يرجو أن يستغفر لديه (هنا اختلج صوت الامير آندره وأشاح وجهه) ، ثم اذا بهذا الانسان يتألم ويتحمل سوء العذاب وينيب عن الوجود ... لماذا ؟ لا يمكن أن لا يكون هناك جواب عن هذا السؤال • أنا مؤمن بأنها موجودة • ذلك ما يقنع ، ذلك ما أقنعني •

قال بطرس :

— نعم ، نعم ، هذا بعينه ما أقوله •

— لا • أنا أعني أن الحجج والبراهين ليست هي التي تقنع المرء بضرورة الحياة الآخرة ، وانما نعينه ان يسير في هذه الحياة مع انسان آخر يدا بيد ، ثم اذا هو يرى هذا الانسان الآخر يغيب فجأة هناك ، في العدم^(١) ، فيتوقف عندئذ أمام تلك الهوة ، ويغوص فيها ببصره • وقد غصت أنا ببصري في تلك الهوة ...

— اذن ؟ رأيت ما نسميه هناك ، ورأيت ان هناك أحدا^(١) ؟ ان ما نسميه هناك هو الحياة الآخرة ، وان ذلك الاحد هو الرب •

(١) مبرزة في الاصل .

لم يجب الامير آندره • وكانت العربية والخيول قد بلغت الشاطئ
الاخر منذ مدة طويلة ، وكانت الخيول قد قرنت بالعربة ، وكانت الشمس
قد غاب نصفها ، وكان تجلد الماء في المساء يغطي البرك الصغيرة عند
الوصول بنجوم ، ولكن بطرس وآندره كانا ما يزالان يتكلمان
ولا يفادران المعدية ، فأثار ذلك دهشة الخدم والحوذين والنونيين •

قال بطرس :

— اذا كان الرب موجودا ، واذا كانت الحياة الآخرة موجودة
فالحقيقة والفضيلة موجودتان أيضا ، وسعادة الانسان القصوى انما
تكون عندئذ في محاولة الوصول اليها • يجب على الانسان أن يحيا ،
يجب عليه أن يحب ، ويجب عليه أن يؤمن بأن حياتنا ليست الحياة التي
نعيشها على هذه القطعة من الارض فحسب ، وانما نحن عشنا هناك منذ
الازل ، وسنعيش هناك الى الابد ، في الكل ...

قال بطرس ذلك وهو يشير الى السماء •

وكان آندره متكئا على درابزين المعدية ، يصغي الى كلام بطرس
دون أن يحول بصره عن حمرة انعكاس أشعة الشمس على صفحة الماء
الازرق •

وسكت بطرس • وخيم صمت مطلق •

وكانت المعدية قد رست على الضفة منذ مدة طويلة ، فليس يسمع
الا ارتطام الامواج على قاعها • فكان يبدو للامير آندره أن هدير
الامواج هذا انما كان صدى لاقوال بطرس : « هذا حق ، آمن به » •
وتنهذ الامير آندره ، وألقى على وجه بطرس نظرة مضيئة حنونا

كنظرة تنقل ، وكان وجه بطرس مصطبغا بحسرة شديدة ، يعبر عن الحساسة والحميئة ، ولكنه ما يزال يعبر أيضا عن خوفه من تفوق صديقه . وقال آندره أخيرا :

— نعم • أرجو أن يكون الامر كذلك •

وأضاف يقول :

— هلمَّ نركب العربة •

وحين غادر المعدة شخص يبصره الى السماء التي أشار اليها بطرس ، فرأى لأول مرة بعد أوسترلتنس ، رأى تلك السماء العالية الابدية التي تأملها راقدا على الارض في ساحة المعركة ، فاذا بشيء كان قد غفا زمنا طويلا ، شيء كان خير ما فيه ، اذا بهذا الشيء يستيقظ في نفسه فرحا فتيا على حين فجأة • لقد غاب هذا الشيء عنه منذ عاد الى ظروف حياته الطبيعية ، ولكنه كان يعلم أن هذه العاطفة التي لا يستطيع أن يشرحها ما برحت قائمة في نفسه •

فكذلك كان حديث الامير آندره مع بطرس فجر حياة روحية جديدة ، رغم أنه لم يظهر منها الى الخارج ما يدل عليها أو ينبىء بها •

الفصل الثالث عشر

كان ظلام الليل يخيم حين وقفت عربة آندره وبطرس أمام الباب الكبير من أبواب ليسيا جوري . فلفت آندره نظر صاحبه الى الاضطراب الذي أحدثه وصولهما عند باب الخدمة كانت امرأة مسنة مقوسة الظهر ، ورجل قصير طويل الشعر ، قد هربا صوب الباب حين رأيا العربة ، فتبعتهما في الهرب امرأتان ، وصعد الاربعة سلم الخدمة راكضين وهم يلقون على العربة نظرات ارتياح .

قال الامير آندره :

— هؤلاء من « أولياء الله الصالحين » في نظر ماشا . لقد ظنوا أننا أبي . في هذا الامر وحده تعصي أختي أباهما : فهو يأمر بطردهم وهي تحسن استقبالهم .

سأله بطرس :

— ولكن ما أولياء الله الصالحين هؤلاء ؟

ولكن لم يتسع الوقت لان يجيب الامير آندره عن سؤال بطرس . فقد أقبل عليهما خدم . فسألهم آندره عن الامير الشيخ أين هو ، وهل ينتظر وصوله بعد قليل .

كان الامير الشيخ لايزال بالمدينة ، ومن المتوقع أن يصل بين لحظة ولحظة •

وقاد الامير آندره صاحبه بطرس الى شقته التي ظلت معدة لاستقباله في منزل أبيه ، ومضى هو الى غرفة الطفل •

وعاد بعد برهة ليصحب بطرس الى أخته ، وقال له :

— هلم بنا الى أختي • لم أرَها • انها متوارية مع « أوليائها الصالحين » • سوف نخجل هي حين نباغتها معهم ، ولكنك تكون قد رأيتهم • شيء عجيب ، أقسم لك •

قال بطرس سائلا :

— ولكن ما أولياء الله الصالحون ؟

فأجابه آندره :

— سوف ترى •

اضطربت الاميرة ماريا فعلا واصطبغ وجهها ببقع حمر حين رأتهما داخلين عليها • كان في الغرفة المريحة التي تشتعل فيها قناديل أمام خزانة الايقونات ، شاب طويل الانف طويل الشعر يرتدي ثوب راهب ، قد جلس بقربها على الديوان أمام السماور • وكانت امرأة نحيلة لها وجه وديع كوجه طفل قد جلست الى جانبيها على مقعد •

قالت الاميرة ماريا عاتبة عتبا رقيقا وهي تقف أمام هؤلاء الجوّالين وقفة الدجاجة تحمي أفراخها :

— آندره ، لماذا لم تخبرني ؟

وأضافت مخاطبة بطرس :

— سعيدة بلقاءك مبتهجة برؤيتك كل الابتهاج •

فقبل بطرس يدها •

كانت ماريا قد عرفت بطرس طفلا ، وهي تحمل له الان عواطف طيبة بسبب الصداقة التي تربطه بأخيها آندره ، وبسبب المصائب التي نزلت بحياته الزوجية ، وبسبب ما في وجهه من طيبة وبساطة قبل كل شيء • ونظرت اليه بعينها الجميلتين المضيئتين فكانت، كن تقول :

« أحبك كثيرا ، ولكن لا تسخرن° بأصحابي هؤلاء ، ارجوك • »•

وجلس الجميع بعد تبادل الملاحظات المألوفة •

قال الامير آندره مشيرا الى الجوّاب الشاب وهو يتسم :

— آ آ... اينافوشكا هنا أيضا !

قالت الاميرة ماريا بلهجة الضراعة :

— آندره !

فقال الامير آندره لبطرس :

— يجب أن تعلم أن هذا امرأة •

فكررت الاميرة ماريا توسلها قائلة :

— آندره ! ناشدتك الله !

وكان واضحا ان كلمات الامير آندره استهزاء بالجوّابين ،

وشفاعات الاميرة ماريا دفاعا عنهم كانت قد غدت عادة بين الاخ وأخته .
قال الامير آندره :

— ولكن يجب عليك يا صديقتي الطيبة أن تشكري لي أنني أشرح
لبطرس صداقتك الحميمة مع هذا الشاب ، لا أن تغضبي من ذلك !
— حقا ؟

وهو يتفرس من خلال نظارتيه في وجه ايفانوشكا بدهشة رضية
لا استهزاء فيها (وذلك أمر أثار في نفس ماريا شعور الشكر) ، بينما
كان ايفانوشكا يحيل على الجمع نظرتة الماكرة مدركا أن الحديث
يدور عليه .

والحق أن الاميرة ماريا كانت مخطئة كل الخطأ في خوفها على
أصحابها (١) الذين لم يكن يبدو عليهم أنهم يشعرون بشيء من الحرج .
كانت العجوز خافضة عينيها ، ولكنها تطوف ببصرها على القادمين
الجديدين ، وكانت جالسة في مقعدها جلسة هادئة بغير حركة ، وقد
قلبت فنجانها على صحنه ، ووضعت بجانبه قطعة السكر التي قضمت
جزءا منها ، منتظرة أن يسكب لها مزيدا من الشاي . وكان ايفانوشكا
مستمرا في احتساء الشاي رشقات صغيرة من صحنه ، ولكنه لا يغفل
عن اختلاس النظر الى الشابين بعينييه الماكرتين اللتين تشبهان عيني امرأة .

قال الامير آندره يسأل العجوز :

— الى أين ذهبت ؟ الى كيف ؟

(١) مبرزة في الاصل .

فأجابت العجوز بلطف وكياسة ، وقد سرها كثيرا أن تحل عقدة لسانها :

— نعم يا ابني ، وفي يوم عيد الميلاد انما سعدت بتناول القربان المقدس عند ضريح « الابرار » . . . أما الان فأنا قادمة من كوليازين^(١) . وقد تجلت فيها آية عظيمة من آيات الله . . .

— وايفانوشكا ، هل صحبتك ؟

فانبرى ايفانوشكا يقول محاولا ان يجعل صوته صوتا جهيرا :

— لا أنا أسير في دربي متجها الى حيث اريد . ولم نلتق ، أنا وبيلاجيوشكا ، الا في يوخنوف .

فقاطعت بيلاجيوشكا رفيقها ، وكان واضحا أنها تحب أن تحكي مآشدهته في كوليازين ، قالت :

— حدثت في كوليازين نعمة كبيرة يا بني .

فسألها الامير آندره :

— ماذا كانت تلك الآية ؟ أظهر رفات قديسين آخرين ؟

قالت الأميرة ماريا :

دعها يا آندره ! لاتكلمي يا بيلاجيوشكا !

لماذا يا ابنتي ؟ ما هذا الرأي الذي ترينه ؟ انني أحب أخاك

(١) ان كييف هي المكان الذي يحج اليه الجوابون الروس أكثر ما يحجون ، وهناك يزورون في دير الاقبية المشهور ، قبور « الابرار » الاثني عشر . — وكوليازين بلدة صغيرة باقليم تفر ، فيها أيضا دير شهير هو دير « الثالث الاقدس » ، والحجاج يكثر هناك ، ولاسيما في عشر جمعة بعد عيد الفصح .

كثيرا • لقد هداه الرب فأعطاني عشرة روبلات ، أذكر هذا • انه محسن الي • نعم ، حين كنت في كيف ، قال لي كيريوشا المجذوب ، وهو من الاولياء الصالحين حقا ، رجل يمشي حافي القدمين صيفا وشتاء على السواء ، قال لي : ما مقامك هنا ؟ ليس هذا مكانك ! اذهبي الى كوليازين ، فهناك أيقونة معجزة تجلت فيها أم الرب • فودعت الابرار، ورحلت الى كوليازين •••

كان الجميع صامتين ، وكانت المرأة التقية وحدها تتكلم بصوت موزون ، وتنفس تنفسا عيقا • قالت :

— وصلت ، فقال لي الناس : حدثت آية عظيمة ، فالبلسم المقدس يسيل من خد أم الرب المقدسة •••

قالت الاميرة ماريا وقد احمر وجهها :

— طيب ، طيب ، ستروين لنا هذا في مرة أخرى •

وقال بطرس :

— اسحجي لي أن ألقى عليها سؤالا : هل رأيت هذا بعينيك ؟

أجابت المرأة التقية :

— أعتقد أنني رأيته يا ابني • شرفت برؤيته • وكان في وجهها

اشعاع كأنه نزر سماوي ، وكان البلسم يسيل من خدها ، يسيل ، يسيل •••

قال بطرس بسنداجة وكان قد أصغى الى كلام المرأة التقية منتبها

انتباها شديدا :

— ولكن هذا غش ...

فصاحت بلاجيوشا تقول مرتاعة وهي تنظر الى الاميرة ماريا نظرة من يلتمس الحماية :

— آه ... بني ... ما هذا الذي تقوله ؟

فكرر بطرس يقول :

— بهذا الاسلوب انما يخدعون الشعب .

فقالت المرأة التقية وهي ترسم اشارة الصليب :

— يا سيدنا يسوع المسيح ! آه ... لاتقل هذا الكلام يا بني .

ان الكلام الذي تفوهت به قد نطق بمثله جنرال لم يؤمن بالآية فقال :

« هذا خداع من الرهبان ! » ، فما ان نبس بهذه الكلمات حتى عميت

عيناه . ثم رأى في الحلم أن العذراء المقدسة التي تجلت في الايقونة

جاءت اليه وقالت له : « متى آمنت بي شفيتك » . فأخذ يضرع قائلاً :

خذوني اليها ، خذوني اليها . هذه هي الحقيقة الحقّة اقولها لك . رأيت

ذلك بنفسي . فأخذ الجنرال اليها أعمى وأوقف أمامها منتصب القامة ،

فدنا وركع يقول : « اشفيني ! لأهبنّ لك كل ما أعطانيه القيصر . » .

رأيت نجمته معلقة على الايقونة . رأيت ذلك بعيني . واسترد بصره .

انه لإثم أن تقول هذا الكلام . سيعاقبك الرب .

بهذه العبارة الاخيرة ختمت المرأة التقية كلامها في وقار . فقال

بطرس يسألها :

— ولكن كيف تعلقت النجمة بالايقونة ؟

وقال الامير آندره مبتسماً :

— وهل فازت أم الرب برتبة جنرال ؟

قاصفر وجه ييلاجيوشكا فجأة ورفعت ذراعيها الى السماء ،
وقالت :

— يا بني ، يا بني ، هذا اثم • ان لك ولدا •

وانقلبت صفرة وجهها الى حمرة • وتابعت تقول وهي تضرب
يدا بأخرى :

— ما هذا الذي تقول يا بني ! غفر الله لك • اللهم اغفر له •

ورسمت اشارة الصليب • ثم اتجهت بالكلام الى الاميرة ماريا
قائلة :

— ما معنى هذا يا ابنتي ؟

ونفضت ، وحملت كيسها وهي تكاد تبكي •

كان واضحا أنها تشعر بهول شديد ، وتحس بالخجل والعار من
أنها قبلت ضيافة منزل يُقال فيه كلام كهذا الكلام ، مع احساسها في
الوقت نفسه بالاسف لاضطرارها الى الكف عن زيارته بعد الان •

قالت الاميرة ماريا لاختها :

— ما تلذذك بهذه المناكدة ! كان في امكانك أن لاتجيء •

قال بطرس :

— أنا ما أردت الا المزاح يا ييلاجيوشكا •

وأضاف يخاطب الاميرة قائلاً :

— أقسم لك يا أميرة انني لم أشأ الاساءة اليها ، وقد كان كلامي خاليا من المكر •

وأردف يقول مبتسما في خجل راغبا في اصلاح خطئه :

— لاتظني بي الظنون • فانما كنت أمزح لا أكثر • أنا الذي بدأت المزاح ، ولم يقصد هو الا ان يمزح أيضا •

فتوقفت بيلاجيوشكا غير مصدقة ، ولكن وجه بطرس كان يعبر عن ندم يبلغ من الصدق ، وكان الامير آندره ينظر تارة اليها وتارة الى بطرس بلطف يبلغ من الرقة ، انها لم تلبث أن أخذت تهدأ شيئا فشيئا •

الفصل الرابع عشر

هدأت المرأة النقية ، وعادت تتكلم في ذلك الموضوع نفسه ، فتحدثت طويلا عن الاب آنفيلوك الذي يعيش حياة تبلغ من القداسة أن يديه الغاليتين تنتشر منهما رائحة بخور ، ثم ذكرت أنها في حجتها الاخيرة الى كييف قد أعطاها رهبان من معارفها مفاتيح الاقية التي تضم قبور الابرار ، فتزودت ببسكويت ، وقضت مع الابرار ثماني وأربعين ساعة . قالت : « كنت أصلي أمام واحد ثم أقرأ قليلا ، ثم أمضي الى آخر . وكانت تأخذني سنة من نوم خفيف قصير ، ثم ما ألبث أن أستيقظ وأخذ أقبل الاضرحة . وكان يخيم يا ابنتي هدوء عظيم ، وكنت أشعر بهناءة طافحة تغمر نفسي ، حتى صرت لا أحب أن أعود الى رؤية نور الله . » .

كان بطرس ينصت الى كلامها بانتباه وجد . وخرج الامير آندره . وقامت الاميرة ماريا وقادت بطرس الى الصالون ، تاركة أولياء الله الصالحين يفرغون من حشو شايعهم .

قالت الاميرة ماريا لبطرس :

— أنت طيب جدا .

— حقا ما أردت أن أسئ اليها ، واني لافهم عواطفها وأحترم هذه

العواطف أسمى الاحترام .

فُنظرت اليه الأميرة ماريّا دون أن تقول شيئاً ، وأبتسمت ابتسامة رقيقة • ثم قالت :

— انني أعرفك منذ زمن طويل ، وأحبك كما تحب الاخت أخاها •
ثم أضافت تسأله متعجلة دون أن تترك له وقتاً للرد على كلماتها اللطيفة :

— ما رأيك في حال آندره ؟ انه يقلقني كثيراً • كانت صحته في الشتاء أحسن ، وانتكأ جرحه في الربيع ، فقال الطبيب ان عليه أن يستشفى في الخارج • وحالته النفسية تقلقني قلقاً شديداً كذلك • انه ليس قادراً ، مثلنا نحن النساء ، على أن يستنفد حزنه بالدموع وأن يسفحه الى الخارج بالتعبير عنه ، وانما هو يحمل حزنه في نفسه • انه اليوم مرح منتعش • ولكن زيارتك هي التي أحدثت في نفسه هذا الاثر • ويندر ان يكون على هذه الحال في العادة • ليتك تستطيع اقناعه بالسفر الى الخارج • انه في حاجة الى نشاط ، وهذه الحياة الهادئة التي تجري على وتيرة واحدة تقتله قتلاً • الآخرون لا يلاحظون هذا ، ولكنني أنا أراه رؤية واضحة •

في نحو الساعة العاشرة هرع الخدم الى درج المدخل حين سمعوا رنين جلاجل مركبة الامير الشيخ ، وتبعهم آندره وبطرس •

سأله الامير الشيخ حين نزل من العربة وأبصر بطرس :

— مَنْ هذا ؟

فلما علم من هذا الشاب الذي لا يعرفه ، قال :

— آ... سعيد بلقائك • قبّلني !

كان الامير الشيخ رائق المزاج ، فهش بطرس وأحسن استقباله
ورحب به أجمل ترحيب •

وحين مر الامير آندره بحجرة أبيه قبل العشاء ، رأى الامير
الشيخ منهما في مناقشة حامية مع بطرس • كان بطرس يذهب الى
أن الحروب ستزول في وقت من الاوقات ، وكان الامير الشيخ يؤكد
نقيض ذلك ، ويستهزئ برأي بطرس ، ولكن بدون ان يكون استهزاؤه
لاذعا • قال الامير الشيخ لبطرس :

— أفرغ الاوردة من دمها ، ثم املاها ماء ، فتزول الحروب •
آراؤك هذه أوهام نساء ، أوهام نساء •

ولكن الامير الشيخ ربت مع ذلك على كتف بطرس بمودة
وصداقة ، وأقبل على الطاولة التي كان الامير آندره جالسا اليها يقلّب
الاوراق التي حملها أبوه من المدينة ، وكان واضحا أن الامير آندره
لايرغب في المشاركة في المناقشة •

انضم الامير الشيخ الى ابنه ، وأخذ يكلمه في شؤون العمل ؛
وقال :

— ان الكونت روستوف ، مارشال النبالة في الاقليم ، لم يستطع
أن يقدم نصف العدد المطلوب من الرجال • ولم يستح أن يجيء الى
المدينة يدعوني الى الغداء ، تصور ! ... ولكنني عرفت كيف أصده ،
وكيف أصرفه هو وغداؤه • أمور عجيبة !

وتابع • الامير نيقولا آندريتش حديثه الى ابنه فقال وهو يرث على كتف بطرس ملاطفا :

— يعجبني صديقك الجسور هذا • لقد أحببته • انه يثبت في نفسي الحماسة • رب شاب غيره يقول أشياء معقولة ثم لا يحب المرء أن يسمعه ، أما هو فيقول آراء سخيفة ، فيثبت في نفسي الحماسة رغم شيخوختي • ثم أضاف :

— طيب • اذهبا الآن • وقد ألحق بكما وانضم اليكما في العشاء • وسوف تتناقش أيضا •

وفيما كان بطرس يخرج هتف يقول له :

— أحبب عزيزتي الحمقاء ، الاميرة ماريا ...

في ذلك الوقت ، أثناء اقامته في لسيا جوري ، انما استطاع بطرس أن يقدر قدرا كاملا كل ما تشتمل عليه الصداقة التي تربطه بآندره من قوة وفتنة • وكانت تلك الفتنة لا تتبع من علاقاتها الشخصية بقدر ما تتبع من الصلات التي انعقدت بينه وبين الاسرة كلها وسكان المنزل جميعا ؛ وأحس بطرس دفعة واحدة بأن صداقته للأسرة صداقة قديمة ، رغم أنه لم يكد يعرف الامير الشيخ القاسي والاميرة ماريا الرقيقة الخجول الا منذ مدة قصيرة •

وكان الجميع قد أحبوه • لقد استولى على قلب الاميرة ماريا بما أظهره من لطف في معاملة أصحابها الجوّالين ، فكانت تنظر اليه بعينها المضيئتين نظرة مودة صادقة • وحتى الامير الصغير نيقولا ، كما يسميه جدّه ، كان يتسم له ، ويحلو له أن يرتمي على ذراعيه • وكان

ميخائيل يفاتش ومدموازيل بوريين ينظران اليه مبتسمين ابتسامات
فرحة حين يجري الحديث بينه وبين الامير الشيخ •

وقد انضم الامير الى العشاء ، وكان واضحا أنه انما انضم تكريما
لبطرس • وظل الامير الشيخ خلال اقامة بطرس في ليسيا جوري ،
التي دامت يومين ، يعامله معاملة تفيض مودة ومحبة ، وقد دعاه الى
تكرار الزيارة •

وحين سافر بطرس واجتمع أعضاء الاسرة ، أبدى كل واحد منهم
رأيه فيه ، كما يحدث دائما بعد رحيل زائر جديد ، فلم يقل أحد فيه
الا خيرا ، كما لا يحدث ذلك الا في النادر القليل •

الفضل الخامس عشر

حين عاد روستوف من اجازته أحسَّ لأول مرة بقوة الصلة التي تربطه بدينيسوف ، وبالفوج كله .

لقد شعر عند اقترابه من المعسكر بعاطفة تشبه العاطفة التي أحسها عند اقترابه من منزل أهله في شارع بوفارسكايا . وحين أبصر أول رجل من فرسان فوجه مرتديا دولمائه حالاً أزواره ، وحين تعرّف ديمتيف الأحمر ، ورأى أوتاد الاحصنة الشقراء ، وسمع لافروشكا يصرخ لمولاه فرحاً : « وصل الكونت » ، وبصر بدينيسوف الذي كان نائماً فهرع اليه من مخيمه مشعث الشعر ليعانقه وقد أحرق به الضباط الآخرون ، شعر بذلك الانفعال نفسه الذي شعر به يوم أخذت أمه وأخواته وأبوه يقبلونه ، ففصَّ بدموع الفرح فلم يستطع الكلام . لقد كان الجيش له بمثابة منزل آخر ، منزل حبيب الى نفسه عزيز على قلبه كمنزل أهله سواء بسواء .

وحين قدّم نفسه لقائد الفوج الذي ألحقه بكتيبته نفسها ، فاستأنف قيامه بدوره حراسة وخدمة ، أحسَّ وقد غرق مرة أخرى في مشاغل الفوج الصغيرة كافة ، وشعر بالحرمان من الحرية ، وبأنه حبيس اطار ضيق ثابت ، أقول أحسَّ تلك الطمأنينة نفسها التي غمرته

تحت سقف أبيه ، وأحس ذلك الشعور نفسه بأنه مسنود مدعوم ،
وبأنه هنا في بيته ، في مكانه ، كما كان في منزل أبيه سواء بسواء .
زد على ذلك أنه تخلص هنا من فوضى الحياة الحرة التي كان لا يجد
فيها مكانه ، ولا يسن فيها الاختيار ؛ وتخلص هنا من همّ صونيا التي
كان لا يدري أيّجب أن تقوم بينه وبينها مكاشفة أم لا ؛ وتخلص من
حرية الذهاب الى مكان دون مكان آخر ؛ وتخلص من تلك الايام التي
طولها أربع وعشرون ساعة يستطيع أن يقضيها على أشكال شتى وصور
مختلفة ؛ وتخلص من تلك الجمهرة من الناس الذين لا يحسن أن واحدا
منهم أقرب اليه من آخر ، ولا يحسن أن واحدا منهم غريب عنه غربة
تامة ؛ وتخلص من تلك العلاقات المالية التي قامت بينه وبين أبيه
مضطربة مشوشة غير محدّدة ؛ وتخلص من تذكر خسارته تلك الرهبة
في القمار . فكل شيء هنا في الفوج بسيط وواضح . العالم كله
ينقسم هنا قسمين غير متساويين : أولهما فوج بافلوجراد الذي نحن
منه ، والثاني كل ما عداه . وما عداه لا يهمنا كثيرا . وفي الفوج كل
شيء معروف : فنحن نعرف في الفوج من هو ليوتنان ، ومن هو كابتن ،
من هو شاب طيب ومن هو غير ذلك ، ونعرف خاصة من هو الرفيق
حقا . والقوّم على الكاتنين يبيعك دينا ، وسداد الدين يتم كلّ ثلاثة
أشهر . ولا حاجة هنا الى التفكير ولا الى الاختيار ، وانما يكفيك أن
تمتنع عمّا يُعدّ في فوج بافلوجراد عارا . واذا كلّفت بمهمة فما
عليك الا أن تنفّذ أوامر واضحة دقيقة ، فيجرى كل شيء أحسن
مجرى .

لقد شعر روستوف ، حين استأنف روتين الحياة في الفوج ، شعر

بتلك السكينة وذلك الفرح اللذين يشعر بهما المرء اذا هو رقد ليرتاح بعد طول عناء . ومما زاد ارتياحه الى الحياة في الفوج ومتعته بها أثناء الحملة الثانية أنه منذ خسارته في القمار (وذلك أمر لم يستطع أن يغفره لنفسه رغم جبيع ما بذل أهله من جهود لمواساته) قد قرر أن يقوم بواجباته في الجيش لا كما كان يقوم بها من قبل ، وانما هو يريد أن يقوم بها الآن على نحو يصلح خطأه ، ويكفّر عن ذنبه ، ويريد أن يكون رفيقا وضابطا نموذجيا ، أي انسانا مستقيما شريفا كأحسن ما تكون الاستقامة ويكون الشرف ، وذلك أمر يبدو له عسيرا كل العسر في المجتمع^(١) ، يسيرا كل اليسر في الجيش .

ولقد قرر منذ الخسارة التي مّني بها في القمار أن يرد الى أهله ما أصبح لهم عليه من دين ، أن يردّه اليهم في خمس سنين . لقد خصوه بمعاش قدره عشرة آلاف روبل في السنة . ولكنه عزم أمره على أن يكتفي بألفين ، وأن يقف الباقي على سداد الدين .

وكان جيشنا يتجمع في بارتشايين بعد ان تقدم الى أمام ، وتراجع الى وراء عدة مرات ، وبعد معركة بولتوسك ومعركة برويسشس — آيلاو . وكان يُنتظر أن يصل الامبراطور لبدء العمليات الحربية .

وكان فوج بافلوجراد ينتمي الى جزء من الجيش شارك في حملة ١٨٠٥ ؛ فلاضطراره الى أن يستكمل عدده في روسيا ، كان قد وصل متأخرا ، فلم يشهد العمليات الاولى ، ولم يكن لا في بولتوسك ولا في برويسشس — آيلاو . وهو الآن جزء من مفرزة بلاتوف .

(١) مبرزة في الاصل .

وكانت مفرزة بلاتوف تعمل مستقلة عن الجيش • ففي عدة مرات شارك فرسان بافلوجراد في مناوشات مع العدو ، وأسروا منه أسرى ، حتى انهم اختطفوا في احدى المرات قوافل تموين المارشال أودينو • وكانوا في شهر نيسان (أبريل) يعسكرون منذ عدة أسابيع بقرب قرية المانية مهجورة مهدمة تهديما كاملا •

وبدأ ذوبان الجليد ، ففي كل مكان وحل ، والبرد شديد ، والانهار تقصفت جليدها ، والطرق أصبحت لا يمكن سلوكها • وبقيت الرجال والخيول عدة أيام لا توزع عليها مؤن وأعلاف • وصار وصول قوافل التموين مستحيلا ، فالجنود ينتشرون في القرى المقفرة المهجورة بحثا عن البطاطس التي أصبحت هي أيضا نادرة •

لقد أكل كل شيء ، وفقر جميع السكان • والذين لم يفروا كانوا أفقر وأشد بؤسا من المتسولين ، لم يبق عندهم ما يمكن أن يؤخذ منهم ، حتى لقد أصبح الجنود - والجنود لا تأخذهم شفقة في العادة - يقاسمونهم آخر ما بقي لهم من فئات ، بدلا من أن يتزروهم •

لم يكن القتال قد ألحق بفوج بافلوجراد ضررا ، عدا جرح رجلين من رجاله ، ولكن الجوع والمرض ذهب بنصف عدده • وكان دخول المريض الى المستشفى يقضي به الى موت محقق ، فلذلك كان الجنود الذين يورثهم سوء التغذية حمى واستسقاء يفضلون أن يتابعوا الخدمة جاريين أنفسهم في الصفوف جرا شاقا أليما ، على أن يدخلوا المستشفيات • وقد اكتشفوا عند حلول الربيع نبتة تشبه الهليون تطلع من الارض ، سمئوها « جذر ماشكا الحلو » (لا يدري الا الله لماذا

سمّوها بهذا الاسم) فأخذوا ينتشرون في المروج والحقول بحثا عن هذا الجذر الحلو (الذي كان في الواقع مرا مرارة شديدة) ، فيخرجونه من التراب بسيوفهم ويأكلونه رغم الحظر الذي صدر اليهم بتجنب هذه النبتة الضارة السامة . وانتشر في الربيع مرض جديد هو وذمات تصيب الايدي والارجل والوجه عزاها الاطباء الى أكل تلك النبتة . ولكن فرسان كتيبة دينيسوف كانوا رغم الحظر يأكلون جذر ماشكا الحلو أكثر ما يأكلون ، لان توزيع البسكويت مقسّم منذ خمسة عشر يوما ، فلا تزيد حصة الرجل منه على نصف رجل ، كما أن بطاطس آخر شحنة من الشحنات التي وصلت الى الفوج كانت قد تجلّدت وأتشتت .

والخيول أيضا لم تذق من العلف منذ خمسة عشر يوما الا قش السقوف ، فكانت كالهياكل العظمية هزالا ، وكان الشعر الذي يكسو أبدانها في الشتاء لمّا يسقط بعد ، وانما هو تعقد عليها لبدا .

ورغم هذه المائبس كلها ، فقد ظلت حياة الجنود والضباط تجري في مجراها ، فهؤلاء الفرسان الذين اصفرّت وجوههم وتورمت ، وتمزقت بزاتهم وبليت ، ما يزالون يحضرون الاجتماع بالرؤساء لتلقي الاوامر ، وما يزالون يذهبون الى المراحيض للعناية بنظافتهم ، وما يزالون يمشطون الخيول ، ويلمعون العدّة ، وينترعون قش السقوف علفا ، ويذهبون الى حيث يأخذون نصيبهم من الحساء ليعودوا جائعين ، ساغبين ، متدربين مع ذلك على هزال طعامهم متمارحين عن فراغ بطونهم وشدة جوعهم . وعلى عادتهم دائما حين يفرغون من الخدمة ،

يشعلون النار ، ويستدفئون عراة ، ويدخنون ، ويفرزون من البطاطس
المتشعة المتعفنة ما يمكنهم أن يشووه ، ويروون أو يسمعون ما يثري
عن حملات بوتمكنين وسوفوروف ، ومغامرات أليوشا الماكر وميكولكا
أجير الكاهن^(١) .

والضباط يقيمون اثنين اثنين أو ثلاثا ثلاثا في بيوت مفتوحة
لجميع الرياح ، نصف مهدمة . والضباط الكبار يهتمون بالمؤن قشا
وبطاطس ، فاطعام جنودهم هو أكبر همومهم . والمرءوسون ينصرفون
على عاداتهم الى اللعب ، فمنهم من يلعب بالورق قمارا (وكان المال
يكثُر اذا نقصت الاغذية) ، وبعضهم يلعب ألعابا بريئة بغير قمار ،
كلعبة « السفايكا »^(١) أو لعبة « الاوتاد » . وقلما يدور الحديث على
سير العمليات الحربية ، أولا لان أحدا لا يعلم عنه شيئا علم اليقين ،
وثانيا لان الجميع يحسون احساسا غامضا بأنه ليس يسير سيرا حسنا .

وكان روستوف ما يزال يقيم مع دينيسوف ، وقد توثقت عرى
الصداقة بينهما منذ اجازتهما مزيدا من التوثق . وكان دينيسوف لا
يكلم روستوف عن أسرته أبدا ، ولكن روستوف كان يحس من
العاطفة الرقيقة التي يحملها قائد الكتيبة لصاحبه الضابط في هذه
الكتيبة أن الحب الشقي الذي ولَّه قلب الفارس القديم بناتاشا كان
له أثره في توثق عرى الصداقة بينهما . فكان دينيسوف يرعى
روستوف ، وكان واضحا أنه يجنبه التعرض للاخطار ما استطاع الى

(١) حكايات شعبية .

(١) وتد مفروس في الارض يجب على اللاعب ان يرميه بحلقة فتدخل الحلقة في الوتد .

ذلك سيلا ، وكان يفرح فرحا عظيما بعد كل اشتباك كلما رآه سليما
لم يمسه من القتال أذى •

وفيما كان روستوف يقوم بأحدى مهماته وقع في قرية مقفرة
خالية مهذمة على شيخ بولندي هرم ومعه ابنته ترضع طفلا • وكان
الجميع يرتدون خرقاً رثة وأسمالا بالية ، وكانوا جائعين ساغبين ،
عاجزين عن السير ، ولا يملك الشيخ الهرم ما يكتري به عربة -
فاقتادهم روستوف الى معسكره ، وأسكنهم في بيته الى أن أبل الشيخ
من مرضه واسترد بعض قوته • وكان أحد رفاق روستوف يتكلم عن
النساء في يوم من الايام ، فأخذ يتهكم على روستوف ، ووصفه بأنه
أمكر جميع الضباط ، وان في وسعه أن يعرف الآخرين بالبولندية
الجميلة التي أنقذها • فأخذ روستوف هذه المزاحة مأخذا سيئا ،
وئارت ثائرته وأخذ يقذف الضابط بكلام يبلغ من الغلظة أن دينيسوف
بذل جهدا كبيرا يعد ذلك ليحول دون قيام مبارزة بين هذا الضابط
وبين روستوف • فلما انصرف الضابط فحاول دينيسوف - الذي كان
يجهل هو نفسه طبيعة العلاقات بين روستوف والفتاة البولندية يلوم
روستوف على غضبته ، أجابه روستوف بقوله :

- ما حيلتي ... انها لي بمثابة أخت ، ولا أستطيع أن أعبر
لك عن مدى الاساءة التي أحسنت أنها ألحقت بي ، وعن مدى
الاهانة التي شعرت أنها مستتني ... لان ... لان ...

فربت دينيسوف على كتفه ، وأخذ يذرع الغرفة بخطى سريعة
دون أن ينظر اليه ، وهذا ما يحدث له حين تهيج نفسه • وقال أخيراً :
— يا لكم من أسرة لا تضم الا مختلفين يا آل روستوف !
ولاحظ روستوف أن عيني صاحبه دينيسوف كانت تترقق
فيها دموع •

الفصل السادس عشر

في شهر نيسان (أبريل) ، استردت القطعات الجيش شيئا من النشاط والحمية حين علمت بوصول الامبراطور الى الجيش . ولم تتح لروستوف فرصة شهود الاستعراض العسكري الذي قام به الامبراطور في بارتنشتاين : اذ كان فرسان بافلوجراد يعسكرون بعيدين في المخافر الامامية .

وكان دينيسوف وروستوف في المعسكر يقيمون في كوخ بالارض حفرة الجنود وغطّي بأغصان أشجار وأعشاب . وكان الكوخ مبني بالطريقة التالية التي كانت رائجة في ذلك الوقت : كانوا يحفرون خندقاً عرضه متر ، وعمقه متر ونصف ، وطوله متران ونصف ، ويجعلون له في أحد طرفيه درجات ، وذلك هو المدخل ، والخندق نفسه هو الغرفة ؛ وفي آخر الغرفة بالطرف الآخر ، اذا كان ساكن الغرفة عالي المنزل ، كقائد الكتيبة ، ينصبون لوحا من الخشب على أوتاد تُدق في الارض ، فيكون اللوح بمثابة مائدة ، وفي جهتي الخندق يجعلون التراب عالياً ستين سنتمترا ، وتلك هي السرر والدواوين ، والسقف عالٍ علواً يتيح للمرء أن يقف في وسط الغرفة ، ويتيح له أن يجلس على السرر اذا هو كان قريبا من المائدة ، وكان

مسكن دينيسوف بادخا ، لأن جنود كتيته يحبونه ، فكان فيه لوح من الخشب عند سقف المدخل ، وكان لوح الخشب مزوّدًا بزجاج مكسور لكنه مجبور . فاذا كان البرد شديدا جيء الى الدرجات (وهي التي كان يسميها دينيسوف باسم الصّالون) بصفحة من حديد عليها جمر متقد يؤخذ من نيران المخيمات ، فشاع الدفء في الكوخ بل الحرّ فيه ، فاضطر الضباط الذين يجتمعون عند دينيسوف – وهم كثير – أن يخلعوا أرديتهم ، فلا تكسو صدورهم الا القمصان .

في شهر نيسان (أبريل) كان روستوف يقوم بالحراسة . ففي نحو الساعة الثامنة من الصباح ، عاد الى البيت بعد ليلة قضاها في الحراسة ساهرا ، فأمر أن يؤتى بجمر ، وبديل ملابسه لانها كانت مبتلة ، وشرب شايا ، واستدفا ، ورتب أمتعته في ركنه وعلى الطاولة ، واستلقى على سريره عاريا الا من قميصه ، جاعلا يديه تحت رأسه . وأخذ يحلم متلذذا بأنه سيترفع رتبةً في القريب بعد الاستكشاف الاخير الذي قام به ، وينتظر دينيسوف الذي كان قد خرج والذي كان يحب روستوف أن يثرثر معه .

وانه كذلك اذا هو يسمع أصواتا تعلو وراء الكوخ ، فعرف أنه دينيسوف وقد ثارت ثأثرته ، واشتد غضبه ، فدنا من النافذة ليرى غلى من يصب دينيسوف غضبه ، فلمح الرقيب توبشاينكو .

كان دينيسوف يصرخ قائلا :

– أمرتك بأن لا تدعهم يأكلون جذر ماشكا هذا . ثم هأنذا أرى لازارتشوك آتيا به من الحقول .

فأجابه الرقيب :

— أبلغت الامر يا صاحب السعادة ، ولكنهم لا يطيعون .

عاد روستوف يرقد على السرير ، وقال لنفسه متلذذا : « فليتعب هو أيضا . لقد فرغت أنا من مهمتي واستلقت على مضجعي ، فحسبي ! » . وها هو ذا يسمع الآن صوتا آخر يمتزج بصوت الرقيب . انه صوت لافروشكا المحنك الماكر ، خادم دينيسوف . كان لافروشكا يتكلم عن شحنات من البسكويت والبقر زعم أنه رآها حين كان ذاهبا الى التموين . وهاهو ذا دينيسوف يعود يصرخ وراء الكوخ قائلا وهو يتتعد : « أسرجوا خيولكم يا جنود الفصيلة الثانية ! » . فتساءل روستوف : « أين عساهم يذهبون ؟ » .

وبعد خمس دقائق ، دخل دينيسوف الكوخ ، وصعد الى سريره بجزمته الوسختين ، ودخن غليوناً وقد بدا في وجهه غضب شديد ، وقلب امتعته كلها حتى اخذ منها سوطه وسيفه ، وتهيأ للخروج . فلما سأله روستوف الى اين هو ذاهب اجابه بلهجة غامضة خشنة ان عليه عملا يجب ان يؤديه . وقال وهو يخرج :

— ألا فليحكم علي الرب والامبراطور العظيم !

وسمع روستوف وقع حوافز خيول عدة تخوض في الوحل وراء الكوخ . فلم يهمه ان يعرف الى اين يذهب دينيسوف . ودفيء في ركنه دفئا كاملا فنام ، ولم يخرج الا في المساء . لم يكن دينيسوف قد عاد . وكان الجو قد تحسن . وعلى مقربة من الكوخ المجاور كان ضابطان ومرشح يلعبون « اسقايقا » وهم يزرعون في الارض الموحلة الرخوة

لفتاً فأنضم روستوف اليهم • وبينما هم يلعبون اذ رأوا عربات ثقل
مقبلة عليهم ، ووراءها زهاء خمسة عشر رجلاً من سلاح الفرسان
يتبعونها ممتطين ظهور أحصنتهم • وأصبحت العربات وحرسها قريبة من
الآوتاد ، فأحدثت بها طائفة من الفرسان •

قال روستوف :

— هيه ! هاهي ذي المؤن تصل ، فما كان اغنى دينيسوف عن ذلك
الزعل كله !

قال الضباط :

— فعلاً ! ما اعظم الفرح الذي سيشعر به الجنود !

وبعد وصول الفرسان بمدة قصيرة ، اقبل دينيسوف ومعه ضابطان
من ضباط سلاح المشاة يحادثونه ويحاورونه • فهب روستوف الى
لقاءه •

كان احد الضباطين وهو رجل قصير هزيل يقول لدينيسوف ظاهر
الغضب :

— انني احذرك يا كابتن !

فأجابه دينيسوف :

— قلت لك اني لن ارد شيئاً •

— سوف تحاسب على هذا يا كابتن • ان خطف شحنات من

المؤن مرسلة الى رفاق في السلاح لهو تمرد وعصيان • ان رجالنا لم
يطعموا شيئاً منذ يومين •

فأجابه دينيسوف :

— ورجالي لم يطعموا شيئاً منذ خمسة عتر يوماً • فكرر ضابط سلاح المشاة يقول رافعا صوته :

— هذا عمل من اعمال قطع الطرق ياسيد !

— هلا كففت عن ازعاجي ؟ هه ؟

كذلك صرخ دينيسوف وقد احتاج فجأة ، واضاف يقول صائحا :

— انا الذي سأحاسب لا انت • اخرس اذا كنت حريصا على

سلامة جلدك ! انصرف !

فهتف الضابط القصير يقول بدون احتياج :

— حسن جدا ! هذا عمل من اعمال قطع الطرق والسرقة •

انتي ...

— اذهب الى الشيطان ، واسرع في الذهاب مزيدا من الاسراع

قبل ان يسقط راسك عن كتفيك ...

قال دينيسوف ذلك وهجم بحصانه على الضابط • فقال الضابط

بلهجة التهديد وهو يلوي زمام حصانه ويفر خبيا ، مرتجا على سرجه :

— طيب ، طيب !

وصرخ دينيسوف يشتمه وراءه :

— كلب على سياج من قصب ، مانت حقا الا ككلب على سياج

من قصب ...

وتلك في الواقع اكبر سخرية يوجهها فارس الى رجل من المشاة

ركب حصانا •

واقترب دينيسوف من روستوف ، وانفجر ضاحكا ، وقال :
— خطفتها من سلاح المشاة . انتزعت منهم شحنات مؤنهم عنوة .
لا يريد احد على كل حال ان يفطس رجالنا جوعا .

كانت قافلة المؤن التي وصلت الى الفرسان مرسلة الى فوج من افواج المشاة ، ولكن دينيسوف ، وقد علم من لافروشكا ان القافلة ليس يحرسها حرس ، مضى اليها هو ورجاله واستولى عليها بالقوة فوزع البسكويت على الجنود بغير حساب ، حتى لقد اشركت فيه كتائب اخرى .

فلما كان الغد قام الكولونيل باستدعاء دينيسوف ، وقال له حاجبا عينيه باصابعه المتباعدة :
— اليك رأيي . انا لا اعرف شيئا ، ولا اريد ان اتدخل في الامر .

ولكنني انصحك بأن تذهب الى الاركان العامة لتسوي هذه القضية مع مدير التموين وان توقع له — اذا امكن ذلك — ايصالا تقر فيه بأنك استلمت كميات من المؤن هي كيت وكيت . والا حسبت الشحنة على فوج المشاة ، فقامت مشكلة قد تكون لها عواقب سيئة .

خرج دينيسوف من عند الكولونيل ، فمضى الى الاركان العامة على الفور ، راغبا في اتباع نصيحته . حتى اذا كان المساء رجع الى كوخه على حال لم يسبق لروستوف ان رأى صديقه على مثلها في يوم من الايام قط . كان دينيسوف عاجزا عن الكلام . كان يختنق . فلما سأله روستوف عما به ، لم يزد على ان اطلق من صدره شتائم وتهديدات بصوت أجش ضعيف .

فارتاع روستوف لمنظره ، وحمله على ان يخلع ثيابه ، وان يشرب شيئا من الماء ، وارسل يستدعي طبيبا .

— يحكم علي بأني قتت بعمل من اعمال قطع الطرق ، والسلب والنهب . آه . . . اعطني مزيدا من الماء . ضيق . . . فليحكموا علي . . . لن يمنعني ذلك من ان اهزم هؤلاء الاوغاد السفلة . سأحكي للامبراطور كل شيء . اعطني ثلجا .

أعلن الطبيب الميجر انه يجب فصدّه ، فعمدوا الى ذراع دينيسوف الغزير شعره ، فحجسوها فأنزفوا منها ملء صحن من دم اسود ، وبعد ذلك انما اصبح دينيسوف قادرا على ان يروي ماحدث . قال :

— وصلت . وسألت « اين رئيسكم اذن ؟ » . فدلوني عليه ، وقالوا لي « انتظر من فضلك » . قلت : « علي اعمال يجب ان اقوم بها . قطعت ثلاثين فرسخا لاجيء الى هنا . لا يتسع وقتي للانتظار . ابلغوا الرئيس عن وصولي . فماذا كان ؟ كان ان دخل رئيس اللصوص هذا ، وحشر نفسه في تلقيني درسا . قال : « هذا عمل من اعمال قطع الطرق والسلب والنهب . قلت : « قاطع الطرق ليس ذلك الذي يأخذ مؤثنا لاطعام رجاله ، بل هو الذي يستولي على مؤن ملء جيوبه ! » . فأمرني بان اسكت . طيب . وقال : « هيا وقع ايصالا لمفوض المؤن ، وستجري قضيتك في مجراها » . ذهبت الى المفوض . دخلت عليه . فهل تتصورون من هو مفوض المؤن هذا الذي يبيتنا جوعا ؟ احزروا . . . احزروا . . .

قال دينيسوف ذلك صارخا وهو يضرب الطاولة بيده المريضة

الموجة ضربة بلغت من القوة ان الطاولة اوشكت ان تنقلب ، وان
الاقداح تصادمت • واطاف يقول :

— هو تليانين • قلت : « كيف ؟ أنت اذن من يمينتنا جوعا ؟ » •
واخذت اكيل له الكلمات على خطمه • لكلمات في محلها ! فطفق يصرخ
شامتا : « آه ... يالك من ... » • وعدت أؤدبه ! ادبته فرحا كل
الفرح !

صرخ دينيسوف يقول هذه الجملة الاخيرة كاشفا عن اسنانه
البيضاء تحت شاربيه السوداوين ، فرحا فرح وحش كاسر • واطاف
يقول :

— كان يمكن ان اجهز عليه لولا ان اتزعوه من بين يدي اتزاعا •
قال له روستوف :

— ولكن لاتصرخ هذا الصراخ • انظر الى الدم كيف عاد يسيل
اهدا قليلا • يجب تجديد الضماد •

وأعيد تضديد ذراع دينيسوف ، وارقد على السرير • وفي الغد
استيقظ مرحا هادئا •

ولكن ضابط الاركان العامة جاء في الظهر الى الكوخ المشترك
الذي يقيم فيه دينيسوف وروستوف ، جاء جاد الهيئة رصين الوجه ،
وسلم الى الميجر دينيسوف ، على اسف ومضض ، ورقة رسية من
الكولونيل يطلب فيها ايضاحات عن حادث الامس •

وذكر ضابط الاركان ان القضية قد تجري مجرى سينا كل
السوء ، وان لجنة تحقيق قد تشكلت ، وان الامير يمكن ان ينتهي ، في

احسن تقرير ، الى تجريد دينيسوف من رتبته العسكرية ، بسبب صرامة الانظمة المطبقة في حق مرتكبي اعمال السلب والنهب ، وفي حق من لا يلتزمون واجبات الطاعة والانضباط في الجيش .

وذكر ضابط الاركان ان المشتكين يقولون ان الميجر دينيسوف . بعد ان استولى على قافلة المؤن ، ذهب الى المفوض العام للتسوين بدون استدعاء ، وطلق يشتمه ، ووصفه بأنه سارق ، وهدد بضربه ، فلما اخرجوه من عنده ، هرع الى احد المكاتب ، وهجم على اثنين من الموظفين يضربهما ضربا شديدا ، وخلع ذراع احدهما .

وحين القيروستوف على دينيسوف اسئلة جديدة، اجابه دينيسوف ضاحكا بأنه يبدو له ان شخصا اخر قد وقع بين يديه فعلا ، ولكن هذا كله لاقية له ولا شأن . وانه لن يخشى المحاكم ، وان هؤلاء الاشقياء الاوغاد اذا ارادوا ان يهاجسوه فليردن عليهم بما لن ينسوه طول حياتهم .

كان دينيسوف يتكلم عن هذه القضية كلها باستخفاف . ولكن كان يعرفه حق معرفته ، فلم يفته ان يلاحظ انه في قرارة نفسه (على محاولته كتمان ذلك) كان يخشى ان يواجه القضاء ، وكانت هذه القضية تقلقه اقلاقا شديدا ، وهي قضية كان واضحا انها ستكون لها عواقب وخيمة .

وأخذت تصل دينيسوف في كل يوم اسئلة عن امور يجب ان يجيب عنها ، وصار يُستدعى مرة بعد مرة ، حتى اذا كان اليوم الاول من شهر ايار (مايو) ، امر بأن يسلم قيادة الكتيبة الى اقدم الضباط رتبة ، وان يشل امام هيئة اركان الغرفة ليحاسب عن اعمال العنف التي اقترفها في منوضية المؤن . وكان بلاتوف ، في عشية ذلك اليوم ، قد

قام باستكشاف مع فوجين من القوزاق وكتيبة من الفرسان ، وكان دينيسوف ، الجسور المتهور على عادته ، قد اوغل في التقدم الى امام اثناء ذلك الاستكشاف فأصابته في فخذه رصاصة انطلقت من صفوف القناصة الفرنسيين •

لو كان دينيسوف في ظروف اخرى ، لما ترك الفوج بسبب جرح طفيف كهذا الجرح في اغلب الظن ، ولكنه استغل الفرصة ، ورفض ان يمثل امام هيئة اركان الغرفة طالبا نقله الى المستشفى •

الفصل السابع عشر

وقعت معركة فريدلاندر^(١) في شهر حزيران ، ولم يشترك فيها فرسان بافلوجراد ، واعقبها هدنة . وكان روستوف ، الذي لم يتلق أية انباء عن صديقه دينيسوف منذ رحيله ، قلقا عليه ، فهو لا يعرف ما آلت إليه قضيته ، ولا يعرف مآصار اليه جرحه ، وكان يحس بغيابه احساسا قويا اليما، فانتهاز فرصة الهدنة فطلب اذنا بالذهاب الى المستشفى ليعود دينيسوف .

وكان المستشفى يقع في ضيعة بروسية اتلفتها الجيوش الروسية والفرنسية مرتين . وكان منظر هذه الضيعة ، بسقفها المنهارة ، واسجيتها المخربة ، وشوارعها المملأ اقدارا ، وسكانها الذين يجوبونها لابسين اسمالا بالية ، والجنود الذين يتجولون فيها سكارى او مرضى منظرا محزنا مؤلما لاسيما وان فصل الصيف ، وأن البرية في فصل الصيف جميلة اكبر الجمال .

والمستشفى منزل من حجر ، له نوافذ ذات زجاج مهشم بعضه ؛ وله حوش تحيط به بقايا سياج . فكان عدد من الجنود الشاحبة وجوههم

(١) وقعت هذه المعركة بقرب كونجسبرج في بروسيا ، يوم ١٣ حزيران (يونيه) من سنة ١٨٠٧ ، وانتهت بانتصار نابوليون على بينجنسن ، وكانت خاتمة حملة سنة ١٨٠٧ .

المتورمة ابدانهم ، المضطدة جراحهم ، يطوفون في الحوش ، او يستدفئون بالشمس .

ما ان اجتاز روستوف العتبة حتى اخذت بخناقه رائحة لحم تتن ومستشفى . وفيما هو يصعد السلم لقي طبيبا — ميكر روسيا ، واضعا بين شفثيه سيجارا ، وراى وراء الطبيب ممرضا .

كان الطبيب يقول :

— لا استطيع ان انشطر فأضير اربعة . تعال هذا المساء الى عند ماكار الكسيفتش ، فسأكون انا هناك .

فألقي عليه الممرض سؤالا . فأجابه :

— افعل ماتراه مناسبا . ماعسى ينتج عن هذا !

ولمح روستوف صاعدا السلم ، فقال يسأله :

— ماذا تريد سيادتك ؟ مامجيئك الى هنا ؟ نجوتم من الرصاص ،

فتريدون ان تصابوا بمرض التيفوس ؟ هنا ياعزيزي وكر امراض حقا !

سأله روستوف :

— كيف هذا ؟

— التيفوس ياعزيزي . كل من يدخلون الى هنا فالموت نصيبهم .

لم يبق منا الا نحن الاثنين ، أنا وماكايف (قال ذلك وهو يدلّه على

المرض) . خمسة من زملائي فارقوا الحياة . وحين يصل زميل جديد

لا يمهل الموت أكثر من ثمانية أيام .

قال الطبيب ذلك وهو يشعر باعتزاز . وأضاف :

— وطالما طلبنا أطباء بروسين ، ولكن حلفاءنا الطبيين لايجيبون

هذا ! ...

ذكر له روستوف أنه يريد أن يعود ضابط سلاح الفرسان ، الميجر دينيسوف ، الذي يعالج في هذا المستشفى • فأجابه الطبيب بقوله :
— لا اعرفه يا عزيزي • تصور أنني أقوم وحدي على مرضى ثلاثة مستشفيات ، يربو عددهم على أربعمئة ! ومن حسن طالعنا على كل حال أن سيدات بروسيات محسنات يرسلن إلينا قهوة وخرقا للتضميد ، رطلين في اشهر • فلو لا ذلك لهلكنا !

قال ذلك واتفجر يضحك • ثم تابع كلامه يقول :
— أربعمئة يا عزيزي ، وفي كل يوم ترسل إليّ أعداد أخرى •

وقال يسأل الممرض :

— عددهم الان أربعمئة ، أليس كذلك ؟

كان الممرض منهوكا • وكن واضحا لمن يراه أنه ينتظر متبرما متمللا أن ينصرف الطبيب الذي زادت ثرثرته وطال هذره •

عاد روستوف يقول مكررا :

— الميجر دينيسوف ، جرح في مولتين •

فقال الطبيب بغير اكتراث :

— أظن أنه مات • أليس كذلك يا ماكايف ؟

ولكن الممرض لم يؤيد أقوال الطبيب • وقال الطبيب سائلا :

— كيف شكل صاحبك دينيسوف ؟ أهو طويل القامة أحمر

اللون ؟

فوصف روستوف هيئة صاحبه دينيسوف • فقال الميجر كالمرح :

— كان هنا رجل بهذه الاوصاف • أظن أنه مات • سأثبت من

الامر على كل حال • كان عندي قوائم • هل هي معك يا ماكايف ؟

فأجاب المريض :

— بل هي مع ماكار ألكسيفنش •

ثم أضاف محاطبا روستوف :

— ولكن الافضل أن تذهب الى صالة الضباط فتبحث بنفسك ،

فتثبت مما تريد التثبت منه •

قال الميجر :

— هيه ! خير لك أن لاتذهب الى تلك الصالة ، فقد تبقى فيها ولا

تخرج منها •

ولكن روستوف ودّع الطبيب ، وطلب من المريض أن يقوده

الى صالة الضباط •

وصاح الطبيب يقول له من أسفل السلم :

— لا تلمني اذا حدث لك مكروه !

ودخل روستوف والمريض في دهليز • ان رائحة المستشفى التي

تفوح في هذا الدهليز المظلم تبلغ من القوة أن روستوف سده أنفه ،

واضطر أن يتوقف قليلا ليسترد قدرته على استئناف السير • وبينما

كانا يسيран في الدهليز اذ فتح باب على اليمين ، وظهر في عتبه رجل

هزيل أصفر ، القدمين ، عار الا من الالبسة الداخلية ، متوكيء على

عكازتين ، مستند الى كفاف الباب ، فنظر الى القادمين بعينين ملبتمعتين

تفيضان حسدا • وألقى روستوف نظرة على الصالة فرأى المرض

والجرحى راقدین فيها على الارض فوق قش ومعاطف •

قال يسأل :

— هل أستطيع أن أدخل فأرى ؟

فقال له الممرض :

— ليس ثمة ما يثرى •

ولكن روستوف اجتاز عتبة هذه الصالة الموقوفة على الجنود ،
لا لشيء الا لانه كان واضحا أن الممرض لا يريد أن يدعه يدخل اليها •
ان الرائحة التي كان روستوف قد انتهى الى التعود عليها في الدهليز
هي هنا أشد وأقوى ، واذا كانت تختلف عن رائحة الدهليز بعض
الاختلاف ، فان المرء يحس أن هذا المكان هو الذي تخرج منه الرائحة
الى الدهليز •

كان المرضى والجرحى في هذه الغرفة التي تدخلها الشمس من
النوافذ فتغيرها اناة ساطعة ، يرقدون صفين بينهما ممر ، ورءوس
المرضى في كلا الصفين تحاذي الجدار • وكان أكثر المرضى في غيبوبة،
فلم ينتبهوا الى الداخلين عليهم أي اقتباه • أما الذين كانوا صحاة فقد
أنهضوا أجسامهم أو رفعوا وجوههم الهزيلة الصفراء معبرين جميعا
بقسماتهم عن معان واحدة ، هي الامل في اغائة ، واللوم على الاهمال ،
وحسد الآخرين على ما ينعمون به من سلامة الصحة وحسن العافية •
وكانوا كلهم ينظرون الى روستوف ولا يحوّلون أبصارهم عنه • تقدم
روستوف الى وسط الصالة ، وألقى نظرة من الباب المفتوح على
الصالات المجاورة ، فرأى في الجهتين ذلك المنظر نفسه ، فوقف يجيل
النظر حواليه صامتا • لم يكن يتوقع أن يرى ما يراه • هذا مريض لا بد

أنه قوزاقي (تدل على ذلك قصّة شعره) مستلق أمامه بالعرض على الارض العارية ، فيكاد يسد المر • انه راقد على ظهره ماد ذراعيه الضخمتين وساقيه الكبيرتين مدا كاملا ، وقد احمر وجهه احمرارا شديدا حتى صار بلون القرمز ، فلا يرى المرء الا بياض عينيه المنقلبتين انقلابا تاما ، وعلى ساقيه وذراعيه العارية ، المحمرة احمرارا شديدا كذلك انتفخت أوردته فكأنه جبال • وها هو ذا يلطم أرض الغرفة (بقذاله)، ويلفظ كلاما بصوت أبج ، ويأخذ يكرر هذا الكلام مرة بعد مرة • فأصاخ روستوف، بسمعه اليه فأدرك الكلام الذي كان يكرره ، وهو : أريد أن أشرب ، أريد أن أشرب • فأجال روستوف بصره باحثا عمّن يمكن أن يعيد المريض الى مكانه وأن يعطيه ما يشربه • وقال يسأل المرض :
— من المكلف بالعناية بالمرضى هنا ؟

فاذا بخادم الصالة ، وهو جندي من سلاح النقل ، يخرج من الغرفة المجاورة بخطى موزونة ، ويقف أمام روستوف وقفة التهيؤ ، ويصبح محملا عينيه محدقا الى روستوف :
— يومك سعيد يا صاحب السعادة !

كان واضحا أنه ظن روستوف أحد رؤساء المستشفى • فقال له روستوف وهو يريه القوزاقي :
— انقله الى مكانه ، وأعطه ماء •

فأجاب الجندي مسرورا وهو يحملق عينيه ، وينصب قامته بمزيد من النشاط والحمية ، أجاب يقول :

— أمرك مطاع يا صاحب السعادة •

ولكنه لم يتحرك من مكانه • فقال روستوف لنفسه : « لا عمل لي هنا قطعاً • » • وفيما كان يهيم أن يخرج اذ هو يحس على يسينه بنظرة مسددة اليه ، فالتفت الى اليمين ، فرأى في آخر الصف جنديا عجوزا قد جالس على معطفه وجعل يحدق اليه • ان وجه العجوز يشبه أن يكون وجه جثة ، وهو الى ذلك وجه قاس له لحية شائبة • كان أحد جيرانه يكلسه مدمدا ويشير له الى روستوف • فأدرك روستوف أن الشيخ العجوز يريد أن يطلب منه شيئا • فأقبل عليه ، فرأى أنه ليس له الا ساق واحدة قد ثناها تحته ، وأن الساق الاخرى مبتورة من فوق الركبة • وكان يجاوره جندي آخر ، بعيد عنه بعض البعد ، مسجى على الارض لا يتحرك ، منكفىء الرأس الى وراء ، منقلب اليمين انه جندي شاب أفتطس الانف ، ما يزال وجهه مغطى ببقع حمرة ، ولكنه أصفر كصفرة الشمع • فأقبل روستوف يتفرس فيه ، فشعر بقشعريرة باردة تسري في ظهره •

قال للممرض :

— أظن أنه ...

فانبرى الجندي الشيخ يقول وقد أخذ فكه الاسفل يرتعش :

— لطالما توسلنا وتضرعنا يا صاحب السعادة • لقد مات في هذا

النصباح • نحن بشر لا كلاب على كل حال ...

أسرع الممرض يقول :

— فورا ، فورا ، سوف ننقله ، سوف ننقله • تعال يا صاحب
السعادة •

قال روستوف متعجلا :

— هلمّ بنا ، هلمّ بنا •

وخرج خافضا عينيه ، مصغّرا جسمه ، محاولا أن يمرّ دون أن
يلاحظ تحت نار هذه النظرات الشاخصة اليه ، الزاخرة لوما وحسدا •

الفصل الثامن عشر

في آخر الدهليز ، أدخل المريض روستوف الى صالة الضباط ، وهي تتألف من حجرات ثلاث مفتوحة الابواب • ان في هذه صالة سررا كان الضباط الجرحى والمضى مضطجعين عليها أو جالسين • وكان بعضهم يتجولون في القاعة طولا وعرضا مرتدين معاطف المستشفى •

ان أول شخص وقع عليه بصر روستوف رجل قصير هزيل أكتع ، يضع على رأسه طاقيّة من قطن ، ويرتدي معطف المستشفى ، ويذرع الغرفة وفي فمه غليون قصير • فلما تفرّس روستوف في وجه هذا الرجل حاول أن يتذكر أين سبق أن رآه •

قال الرجل القصير :

— آ ... انظر كيف نلتقي ! أنا توشين ، توشين ، هل تتذكرني ؟ أنا الذي أخذتك الى شونجرابن ••

وأضاف يقول وهو يريه كمّته الخالي ، ويتسم :

— لقد بتروا لي قطعة ... انظر ...

ثم أردف وقد عرف عمّن يبحث روستوف :

— تبحث عن فاسيلي دميري دينيسوف ؟ نحن رفيقا غرفة واحدة •

هو هنا • هو هنا •

واقْتاده توشين الى الغرفة المجاورة ، وكانت تصل منها ضحكات
وقهقهات •

سأل روستوف نفسه : « كيف يستطيعون أن يعيشوا هنا ، ناهيك
عن أن يضحكوا ؟ » •

ألقى روستوف على نفسه هذا السؤال وكانت ماتزال تلاحقه رائحة
اللحم الميت التي امتلأ بها منخراه منذ كان في صالة الجنود ، وماتزال
ترافقه تلك النظرات الحاسدة المسددة اليه من صفين من الاعين ، وما
يزال يطارده منظر ذلك الجندي الشاب المنكفىء رأسه الى وراء ،
المنقلبة عيناه •

كان دينيسوف نائماً في سريره ، دافنا رأسه في الغطاء ، رغم أن
الساعة تجاوزت الحادية عشرة •

هتف دينيسوف مرحباً بذلك الصوت نفسه المعهود فيه أيام كان
في الجيش :

— هـا ••• روستوف ! أهلا ••• أهلا •

ولكن روستوف رأى بحزن شديد أن وراء هذه الحرارة وهذه
الطلاقة المألوفة ، شعوراً جديداً بحرارة مكظومة ومضض خبيء تدل
عليهما قسما ت وجه دينيسوف ، وتدل عليهما نبرات ه وكلمات ه •

لم يكن جرحه قد تندب بعد ، رغم أنه جرح طفيف ، ورغم
أن ستة أسابيع قد انقضت على اصابته بهذا الجرح الطفيف • وكان
وجهه أصفر متورماً كوجوه سائر نزلاء المستشفى • ولكن ليس هذا هو
ما خطف بصر روستوف ، وفجأ شعوره • ان ما خطف بصره وفجأ

شعوره هو أن دينيسوف لا يبدو عليه أنه سُرَّ برؤيته ، وأنه يتسم له
 ابتسامة يكره نفسه عليها اراها . ولم يسأله لا عن الفوج ولا عن سير
 العمليات ، وحين تكلم روستوف عن ذلك لم يصغ دينيسوف الى كلامه .
 حتى لقد لاحظ روستوف أن كل اشارة الى الجيش ، بل الى حياة الحرية
 التي يحياها الناس خارج جدران المستشفى كان تضايقه . لكنه يجهد
 أن ينسى تلك الحياة القديمة ، ولا يعنيه شيء الا القضية القائمة بينه
 وبين رجال ادارة التمويل . فلما سأله روستوف عن المرحلة التي وصلت
 اليها هذه القضية ، أسرع يستل من تحت مخدته ورقة تلقاها من
 المفوضية ، ومسودة رده على ما ورد في تلك الورقة . وقد انتعش
 ونشط حين أخذ يقرأ زروستوف هذا الرد الذي أعده ، ولفت نظره
 خاصة الى الوخزات التي يطعن بها خصومه . وكان رفاق دينيسوف في
 المستشفى قد أحاطوا في أول الامر بزيروستوف ، هذا القادم من خارج
 المستشفى ، فما ان أخذ دينيسوف يقرأ ورقته حتى تفرقوا بعضا وراء
 بعض . وأدرك زروستوف من النظر في وجوههم أنه كانوا جميعا قد
 سمعوا مرارا هذه القضية التي صدعت رؤوسهم . ولم يبق احد يصغي
 الى قراءة الورقة الا جار دينيسوف في السرير ، وهو « أوهلان » ضخم
 الجسم جلس على سريره يدخن غليونيه ويقطب حاجبيه مكفهر الهيئة
 مربد الوجه ، وكذلك الاكتع القصير توشين الذي كان يهز رأسه
 مستنكرا .

قاطع « الاوهلان » دينيسوف قائلا لزروستوف :

— أرى أن خير ما يفعل هو طلب الرأفة من الامبراطور . يقال أن
 مكافآت كثيرة ستوزع ، ولا شك أنه سيصدر عفو ...

فاعترض دينيسوف قائلاً ببلهجة أراد أن يودعها كل ما كان له في الماضي من طاقة ومن حيوية ، ولكنها لم تشتمل الا على حق لاطائل تحته — أنا أطلب الرأفة من الامبراطور ؟ لو كنت لصا قاطع طريق لطلبت العفو غني ، ولكنهم لا يحكمون عليّ الا انني كشفت النقاب عن وجوه اللصوص قطاع الطرق • فليحكموا عليّ • انني لا أخشى أحدا • لقد خدمت القيصر والوطن بشرف واستقامة وأمانة • ما أنا لص ! ويريدون أن يجردوني أنا من رتبتي ! اسمع ••• انني أقول لهم بصراحة قاطعة ••• اليك ما كتبته لهم : « لو كنت من مختلسي الاموال العامة ••• » •

قال توشين :

— كلام محكم • ولكن ليست هذه هي المسألة ، يا فاسيلي دمترش •••

وكان توشين يوجه كلامه الى روستوف أيضا ، فتابع يقول : — يجب الخضوع ، وفاسيلي دمترش لا يريد أن يخضع • ولقد قال لك كاتب المحكمة مع ذلك ان قضيتك خطيرة ، وان عاقبتها سيئة •• قال دينيسوف :

— ليكن ما يكون ! لست أكثر •••

واصل توشين كلامه يقول :

— لقد حرّر لك كاتب المحكمة استرحاما ، فعليك أن توقعه وتوصله بواسطة هذا السيد (أشار الى روستوف) • لا بد أن له من يدعمونه في هيئة الاركان • لن تتاح لك فرصة أفضل من هذه الفرصة • فقطعه دينيسوف قائلاً :

— سبق أن قلت انني لن أذل نفسي •••

واستأنف قراءة ورقته •

لم يجرؤ روستوف أن يحاول اقناع دينيسوف ، رغم شعوره بأن الطريق الذي ينصح نوشين والضباط الآخرون بسلوكها هي الطريق الوحيد المضمونة ، ورغم أنه يسعده كثيرا أن يستطيع مساعدة صاحبه: لقد كان يعرف ما يتصف به دينيسوف من صلابة لا تشني ، وكان يعرف أنه على حق في غضبه •

فلما انتهى دينيسوف من قراءة كلماته المألئ سما (وقد دامت القراءة أكثر من ساعة) لم يقل روستوف شيئا ، واعتراه حزن ملك عليه نفسه كلها ، وقضى بقية النهار في صحبة رفاق دينيسوف في المستشفى ، الذين عادوا يحتشدون حوله ، فكان يحكي لهم ما يعرفه ، ويصغي الى ما يروونه له • ولزم دينيسوف صمتا قاتما طوال السهرة • وفي ساعة متأخرة من المساء تهيأ روستوف للانصراف فسأل دينيسوف هل يوصيه بشيء • فأجابه دينيسوف وهو يلقي نظرة على الضباط :

— نعم ، انتظر •

وسحب أوراقه من تحت وسادته ، ومضى الى النافذة التي كان قد ترك عليها محبرته ، وجلس يكتب •

وقال وهو يعود من النافذة ويسلم روسوف ظرفا كبيرا :

— لكل داء كبير دواء كبير •

كان الظرف يضم استرحاما للامبراطور حرره كاتب المحكمة ، وفيه لا يشير دينيسوف الى اختلاسات ادارة التموين أية اشارة ، ولا يزيد على أن يطلب الرأفة به والعفو عنه • قال لروستوف :

— أوصل هذا مادام

ولم يكمل جملته ، وابتسم ابتسامة أليمة مقهورة •

الفصل التاسع عشر

عاد روستوف الى الفوج ، فحدث الكولونيل عما آلت اليه حال دينيسوف ، وعما صارت اليه قضيته ، ثم ذهب الى تيلسيت حاملا الاسترحام الموجه الى الامبراطور .

كان امبراطور فرنسا وروسيا قد اجتمعا في تيلسيت يوم ١٣ حزيران (يونيه) . وكان بوريس دروبتسكوي قد طلب من الشخصية الكبيرة التي كان يتبعها أن يلحق في هذه المناسبة بحاشية الامبراطور ، قائلاً بالفرنسية عن نابوليون الذي كان يسميه حتى ذلك الحين كسائر الناس على سبيل الاحتقار « بوونابرت » :
— أريد أن أرى الرجل العظيم .

فسأله الجنرال مبتسماً :

— تعني بوونابرت ؟

فنظر بوريس الى الجنرال نظرة استفهام ، فصرعان ما أدرك أنها مزحة يقصد بها الجنرال أن يمتحنه .

فأجاب يقول :

— اعني الامبراطور نابوليون ياسيدي الامير .

فرتبت الجنرال على كتفه مبتسما ، وقال له متنبئا :

— ستبلغ شأوا بعيدا .

واصطحبه .

فكان بوريس واحدا من تلك القلة القليلة التي حظيت بهذا الامتياز أعني أن تكون على نهر نيسن يوم التقاء الامبراطورين^(١) . فشهد الاطواف مزدانة بأرقامها ، ورأى نابوليون يمر على الضفة المقابلة أمام الجرس الفرنسي ، ورأى وجه الامبراطور الاسكندر واجما مفكرا ، وهو ينتظر صامتا وصول نابوليون الى نزل على ضفة نهر نيسن ، ورأى الامبراطورين يركبان قاربهما ، ورأى نابوليون الذي بلغ الطوف قبل الاسكندر يتقدم نحو الاسكندر بخطى سريعة ويمد اليه يده ، ثم رآهما كليهما يغيان في الجناح الذي أعد لاجتماعهما . وكن بوريس ، منذ أخذ يصعد الى الدوائر العليا ، ويتسلل بين كبار رجال السلطة ، قد اعتاد أن يلاحظ باقتباه كل ما يجري حوله ، واعتاد أن يسجله . ففي أثناء اللقاء الذي تم في تيلسيت ، سأل عن أسماء جميع الذين كانوا يرافقون نابوليون ، وحين دخل الامبراطوران الى الجناح نظر في ساعته ، ولم ينسى أن ينظر فيها مرة أخرى حين خرج الاسكندر من الجناح . ودام اللقاء ساعة وثلاثا وخمسين دقيقة . فسجل بوريس هذا كله في ذلك المساء نفسه ، كما سجل وقائع أخرى كان يعتقد أن لها قيمة تاريخية . ولم يكن عدد حاشية الامبراطور كبيرا ، لذلك كان وجود ضابط في تيلسيت أثناء ذلك اللقاء شأن كبير وخطر عظيم اذا كان ممن

(١) تم هذا اللقاء التاريخي يوم ٢٥ حزيران (وفقا للتقويم الجديد) على طوف في وسط نهر نيسن .

يريدون أن يشقوا لانفسهم طريقا ، وأن يكون لهم مستقبل لامع . فكان بوريس ، وقد ظفر بأن يكون أحد أفراد الحاشية ، يحس أن مركزه قد أصبح منذ ذلك الحين ثابتا راسخا ، وصار ، من كثرة ما يرى ، رجلا معروفا ، بل رجلا مرموقا تلقت اليه الانظار ، وتألفه الابصار . وقد كلف مرتين بمهمة لدى الامبراطور ، حتى غدا الامبراطور يعرفه اذا رآه ، وغدا رجال الامبراطور لا يتحاشونه كما كانوا يتحاشونه من قبل حين كانوا يعدونه وجها غريبا ، حتى لقد صاروا يستغربون أن لا يروه بعد الآن .

وكان بوريس يسكن مع ضابط مرافق هو الكونت زيلنسكي^(١) ان زيلنسكي بولندي واسع نشأ في باريس ، مشغوف بالفرنسيين ، فكان ضباط فرنسيون من الحرس ومن القيادة العامة يجيئون كل يوم تقريبا من أيام اقامتهم في تيلسيت ، الى بيت زيلنسكي وبوريس ، يتعشون أو يتغدون .

وفي مساء اليوم الرابع والعشرين من شهر حزيران أقام الكونت زيلنسكي حفلة عشاء لاصدقائه الفرنسيين ، فكانت الحفلة تضم ضيف شرف هو ضابط من مرافقي نابوليون ، وعددا من ضباط الحرس الفرنسي ، وغتى هو سليل أسرة ارستقراطية عريقة ألحقه نابوليون بخدمته غلاما . وفي ذلك اليوم نفسه انما استغل روستوف الظلام حتى لايعرفه أحد ، ووصل الى تيلسيت بثياب مدنية ، وقصد بيت زيلنسكي وبوريس .

(١) اسم و لندي .

وكان هذا التبدل المبالغ في الموقف من نابوليون ومن الفرنسيين الذين كانوا أعداء فاذا هم الآن أصدقاء ، وهو تبدل حدث في القيادة العامة وفي ذهن بوريس ، ما يزال بعيدا عن أن يقوم في ذهن روستوف وفي أذهان رجال الجيش الذي كان روستوف آتيا منه . كان الجيش الروسي ما يزال يحمل لبونا بارت وللفرنسيين تلك العاطفة نفسها المنسوجة من غضب واحتقار وخشية . حتى أن روستوف كان منذ مدة قصيرة يناقش ضابطا من قوزاق بلاتوف فذهب الى أن نابوليون ، اذا تمَّ أسره ، سوف يعامل معاملة مجرم لا معاملة امبراطور . ومنذ مدة قصيرة أيضا لقي روستوف كولونيلا فرنسيا جريحا فطفق يبرهن له متحمسا على أنه لا مجال لقيام صلح بين امبراطور شرعي وبين هذا المجرم بونا بارت . لذلك دهش روستوف دهشة أليمة حين رأى في بيت بوريس ضباطا فرنسيين بتلك البزات العسكرية نفسها التي ألف أن يواجهها في المخافر الامامية على غير هذه الحال وفي ظروف مختلفة كل الاختلاف . ومنذ أن أبصر روستوف واحدا منهم ظهر له على الباب ، اعتراه على الفور ذلك الشعور بالعداوة الحربية الذي كان يحسه دائما حين يرى العدو . فوق على العتبة ، وسأل باللغة الروسية هل هنا يسكن دروبتسكوي . فلما سمع بوريس صوتا أجنيا في الدهليز أقبل يلقاه ، حتى اذا عرف فيه روستوف عبَّر وجهه في الوهلة الاولى عن شيء من الضيق والبرم . ولكنه قال مبتسما وهو يتقدم منه .

— ها ... هذا أنت ! سعيد برؤيتك ، سعيد جدا برؤيتك .

ولكن روستوف كان قد لاحظ المعنى الاول الذي عبرت عنه
قسمات وجهه . فقال بلهجة فاترة :

— أظن أنني جئت في غير الوقت المناسب • وما كنت أحرص على
المجيء ، ولكن جاءت بي قضية ...

— لا ، أبدا ؛ ولكنني استغربت أنك استطعت أن تترك الفوج •

وناداه صوت ، فقال يجيبه بالفرنسية :

— بعد لحظة أفرغ لك •

عاد روستوف يقول :

— واضح أن مجيئي يضايقك •

وكان التعبير عن الضيق والبرم قد زایل وجه بوريس • وأغلب
الظن أنه فكر بما يجب عليه أن يعمل ، واتخذ فيه قرارا ، فأمسك يدي
روستوف بلطف ، وسار به الى غرفة مجاورة ، ونظر اليه الان بهدوء
وثبات ، فخیل الى روستوف أن صاحبه قد وضع على عينيه نظارتين
تحجب حقيقة ماتعبران عنه في الواقع من شعور ، وهما النظارتان اللتان
يوجب التمدن على المرء أن يغطي بهما عينيه كياسة ولباقة • ذلك كان
احساس روستوف • قال بوريس :

— ما هذا الكلام الذي تقوله ؟ كيف يمكن أن يضايقني مجيئك ؟

وأدخله الى الغرفة التي مدت فيها المائدة للعشاء ، وأخذ يعرف
به الضيوف ، وذكر انه ليس مدنيا بل ضابطا من سلاح الفرسان ، وانه
صديق له قديم حميم • ثم أخذ يعرفه بالضيوف ذاكر اسماءهم :
الكونت زيلنسكي ، الكونت « ن • ن » ، الكابتن « س • س » ،
الخ • فكان روستوف ينظر الى الفرنسيين مكفهر الوجه ، ويحيهم على
مضض ويصمت •

لم ير زيلنسكي بأن يقبل في حلقة هذا الروسي الدخيل ، ولم يقل له شيئا . ولم يد على بوريس أنه يلاحظ الضيق الذي أحدثه دخول روستوف في نفوس الحفل ، وكان يجهد أن ينعش الحديث محتفظا بذلك الهدوء السهل نفسه ، وتلك النظرة المحجبة ذاتها ، أعني الهدوء والنظرة اللذين استقبل بهما روستوف . وهذا واحد من الفرنسيين تدفعه الكياسة التي يتصف بها أهل وطنه ، فيوجه الكلام الى روستوف الذي كان مصرا على الصمت اصرارا عنيدا ، فيقول له انه قدم الى تيلسيت لرؤية الامبراطور في أغلب الظن .

فأجابه روستوف بإيجاز :

— بل جئت لعمل :

لقد تعكر مزاج روستوف منذ لاحظ ماعبر عنه وجه بوريس من ضيق وبرم حين رآه ، وكما يحدث دائما في مثل هذه الحالات ، كان يتراءى له ان الجميع يضرمون له عدا ، والواقع أنه ضايقهم جميعا ، وظل وحده لا يشارك فيما كان يدور بينهم من حديث ، فكانت النظرات التي يرشقونه بها كأنها تقول : « لماذا يبقى هنا ؟ » . فلم يلبث ان قام وأقرب من بوريس وقال له بصوت خافت :

— واضح أنني أضايقك ، فلاحدثك بالقضية التي جئت من أجلها

ثم انصرف .

قال بوريس ،

— لا ، أبدا ، ولكنك متعب مكدود حتما ، فلنذهب الى غرفتي

فتستريح .

— فعلا .

ودخلا الغرفة الصغيرة التي ينام فيها بوريس، فلم يجلس روستوف وأسرع يعرض له قضية دنييسوف حائقا ، كأن بوريس قد ارتكب في حقه ذنوبا ، وسأله هل يريد او يستطيع ، بواسطة جنراله ، ان يتدخل لدى الامبراطور ، فيوصل اليه الرسالة بسلوك هذا الطريق ، كان روستوف يحس لأول مرة ، منذ خلا الى صاحبه بوريس ، أنه يزعجه ان ينظر الى وجهه . وكان بوريس قد جلس ووضع ساقا على ساق ، وكان يحك يده اليسرى الاصابع الناعمة من يده اليمنى ، ويصفي اليه كما يصفي جنرال الى تقرير أحد مرؤوسيه ، موجها عينيه تارة الى جانب ، محدقا بهما اليه تارة أخرى بنظرة ماتزال محجبة . كان روستوف يشعر عندئذ بخرج وضيق ، فيخفض عينيه .

قال بوريس :

— سعت عن قضايا من هذا النوع ، وأنا أعلم ان الامبراطور شديد كل الشدة قاس كل القسوة في هذه الحالات . أحسب ان الافضل أن لا يرجع في هذا الامر الى جلالته . وفي رأيي ان التوجه رأسا الى قائد القطعة أصوب لكنني أظن عامة أن

فقال روستوف بما يشبه ان يكون صراخا ، قال لبوريس دون ان ينظر اليه :

— اذا كنت لا تريد أن تفعل شيئا ، فما عليك الا ان تقول لي ذلك صراحة

فابتسم بوريس ، وقال :

— بالعكس ، سأفعل كل مايمكنني أن أفعله ولكنني أقدر أن

وفي تلك اللحظة سُمع صوت زيلنسكي ينادي بوريس وراء الباب • فقال روستوف رافضا ان يشارك في العشاء :

— هيا ، اذهب اليهم ، اذهب اليهم •

وبقي في الغرفة الصغيرة وحيدا ، وظل يزرعها مدة طويلة ، مصغيا الى انطلاقات الاصوات الفرحة الجذلى التي تتكلم الفرنسية في الغرفة المجاورة •

الفضل العشرون

لقد وصل روستوف الى تيليس في وقت لم يحسن اختياره من أجل التشفع لدينيوف هو لا يستطيع أن يذهب بنفسه الى جنرال الاركان لانه كان لا يرتدي بزته العسكرية ، ولانه تغيب دون ان يحصل على اذن من رؤسائه ، كما أن بوريس ما كان له ان يستطيع تولي هذا الامر في الغد حتى لو اراده . ففي ذلك اليوم ، يوم السابع والعشرين من شهر حزيران (يونيه) ، تم التوقيع على مقدمات الصلح ، وتبادل الامبراطوران الاوسمة ، فتوشح الاسكندر بوسام جوقة الشرف ، وتوشح نابوليون بوسام القديس أندره الاكبر ، وفي ذلك اليوم نفسه ستقيم كتيبة من الحرس الفرنسي مأدبة لكتيبة من فوج بريوبراجنسكي ، يحضرها الامبراطوران .

كان روستوف قد بلغ من شدة الضيق برؤية بوريس ، أنه تظاهر بالندم حين جاء اليه بوريس بعد العشاء ، وانصرف في الغداة مبكرا دون ان يراه . وأخذ روستوف يتجول في شوارع المدينة بلباسه المدني الرسمي وقبعته المستديرة ، متفرسا في الفرنسيين وبزاتهم الرسمية ، مدققا في الشوارع والمنازل التي يقيم فيها امبراطور روسيا وامبراطورة فرنسا . ورأى في الساحة العامة موائد منصوبة ، ورأى فيها إعدادات المأدبة ، ورأى الشوارع مزدانة برايات تحمل الالوان الروسية

والفرنسية ، وأشرطه ضخة كتب عليهما الحرفان اللذان يبدأ بهما أسما
الاسكندر ونابليون بخطوط كبيرة N.A . ورأى في النوافذ كذلك
أعلاما وأحرفا .

كان روستوف يحدث نفسه بقوله : « بوريس لا يريد أن يساعدني ،
وأنا من جهتي لا أحرص على أن أستعين به ، فقد انتهى بيننا كل شيء ،
ولكنني لن أذهب من هنا قبل أن أفعل كل ما أستطيع فعله من أجل
دنيسوف ، وقبل أن أسلم الامبراطور عريضة الاسترحام خاصة ،
والامبراطور هنا ، فلهمَّ بي إليه ! » ، وكان يرجع الى المنزل الذي يقيم
فيه الاسكندر ، يرجع اليه على غير شعور وبدون ارادة .

كانت أحصنة ركوب تنتظر على الباب ، وكان ضباط الحاشية
يتوافدون ، وكان الامبراطور يوشك أن يخرج حتما .

قال روستوف لنفسه : « قد أراه بعد لحظة . فليتني أستطيع ان
اسلمه هذه الرسالة بيده وأن أشرح له كل شيء واضحا . قد يوقفوني
بسبب لباسي ؟ لا ، لا يمكن أن يوقفوني . ولسوف يعرف الامبراطور
من هو الظالم ومن هو المظلوم . انه يدرك كل شيء . انه يعرف كل
شيء . من ذا يمكن أن يكون أعدل منه وأكرم منه ؟ ... وهبهم
أوقفوني لانني هنا ، فأني ضير في هذا ؟ » .

ورأى ضابطا يدخل منزل الامبراطور ، فتابع حديثه لنفسه بقوله :
« أرى أن الدخول الى منزل الامبراطور سهل لا صعوبة فيه . فما
لي لا أتسجع فأدخل ! سأسلم الرسالة الى الامبراطور بنفسى ، وليخسأ
دروبتسكوي الذي يجبرني على هذا أجارا ! » .

وبعزم قوي ما كان يتصور أنه قادر عليه ، أتجه روستوف الى الباب
قُدُما بعد أن جسُ الرسالة في جيبه .

قال لنفسه وهو يتوقع في كل لحظة ان يجد نفسه في حضرة
الامبراطور ، ويشعر حين يتصور ذلك بالدم يزدحم في قلبه : « في هذه
المرّة لن أدع للفرصة أن تفلت مني كما حدث في أوسترلتس . سوف
أرتمي على قدميه ضارعا اليه . فينهضني ، ويصغي الى كلامي ، بل
سيشكر لي صنيعي أيضا . » . « أكون سعيدا حين أستطيع أن أفعل
خيرا ، ولكن أكبر سعادة لي هي أن أرفع ظلما وقع » هذه هي الكلمات
التي كان روستوف ينسبها في خياله الى الامبراطور . وصعد درجات
الباب وقد اتجهت اليه أبصار الحضور مستطلعة مستغربة .

وعند المدخل كان سلّم عريض يفضي الى الطابق الاول رأسا .
وعلى اليسين باب مغلق ، وفي أسفل السلم باب آخر يؤدي الى الطابق
الارضى .

سأله واحد :

— ماذا تريد ؟

— أريد أن أسلم صاحب الجلالة رسالة ، استرحاما .

كذلك أجاب روستوف بصوت مختلج متهدج . فأجابه الرجل
بقوله :

— انما يُسلم الاسترحام الى ضابط الخدمة . من هنا ، من
فضلك !

وأشار الى الباب الاسفل . ولكنه أضاف يقول له :

— غير أن ضابط الخدمة لن يستقبلك .

فحين سمع روستوف هذا الصوت الخالي من الاكتراث رومعه ما يفعله . صحيح أن لقاء الامبراطور بين لحظة وأخرى شيء يغريه أعظم الاغراء ، ولكنه بلغ من اخافته أنه تمنى أن يولّي هاربا . ولكن ضابط الصف الذي كان يحرس الغرفة فتح له باب ضابط الخدمة ، فلم يكن له بد من الدخول .

كان يقف في وسط الغرفة رجل قصير بدين في نحو الثلاثين من العمر ، يرتدي سروالا أبيض ويرتدي جزميتين عاليتين ، وكان واضحا أنه قد فرغ في تلك اللحظة من لبس قميصه المصنوع من قماش الباتسيता، وكان خادمه يعقد له من الخلف أزرار حمالات للسرّوال جديدة رائعة مطرزة بحريّر لا يدري روستوف لماذا لاحظته . وكان هذا الرجل يكلم أحدا في الغرفة المجاورة . كان يقول له بالفرنسية :

— قوام رائع ، وجمال شيطاني !

ولكنه قطع حديثه وقطب حاجبيه منذ رأى روستوف ، وقال يسأله :

— ماذا تريد ؟ تقديم استرحام ؟

وسأل أحد من الغرفة المجاورة :

— ماذا ؟

فأجاب صاحب الحمالات المطرزة بحريّر :

— رجل آخر يحمل عريضة ؟

— قل له أن يرجع بعد قليل . يهمّ الامبراطور أن يخرج . يجب

أن نركب أفراسنا .

فقال الرجل لروستوف :

— تعال في وقت آخر ، في وقت آخر ، غدا • فات الاوان ...

فاستدار روستوف على كعبيه وأراد أن يسحب ، ولكن الرجل صاحب الحملات المطرزة بالحرير استوقفه :

— من أرسلك ؟ من أنت ؟

— أرسلني الميجر دنييسوف •

— وأنت ، من أنت ؟ ضابط ؟

— ليوتتان ، الكونت روستوف •

— يالها من جرأة ! العرائض تُقدّم بالتسلسل • هيا انصرف ،

انصرف ...

قال الرجل ذلك ، وارتدى بزته العسكرية التي مدّها اليه خادمه •

رجع روستوف الى الدهليز ، فرأى عددا كبيرا من الضباط والجنرالات بثياب الاحتفالات محتشدين عند درجات الباب فعليه أن يمرّ أمامهم •

لعن روستوف جرأته وتهوّه ، وخارت قواه اذ تصوّر أن من الممكن في أية لحظة ان يلقي الامبراطور ، وأن يُعتقل ويتجل بالعار أمامه ، واحسّ احساسا كاملا بما يشتمل عليه سلوكه من خروج على قواعد الكياسة ، وأسف لذلك أسفا شديدا ، فخفض عينيه ، وتسلسل خارجا من هذا المنزل الذي كانت تحيط به جمهرة الحاشية المتألقة اللألاء ، فاذا بصوت جهير غير مجهول له يناديه على حين فجأة ، واذا بيد توقته ، واذا صاحب الصوت الجهير يقول له سائلا :

— ما وجودك هنا برداء « الفراك » يا عزيزي ؟

انه جنرال من سلاح الفرسان كان قائد فرقته في الماضي ، وجعلت له مزاياه وكفاءاته أثناء الحملة خطوة خاصة لدى الامبراطور .

ارتاع روستوف ، وأراد أن يرر للجنرال وجوده ، ولكن لم يلبث أن اطمأن لما رآه في هيئة الجنرال الطيب من بشاشة وابتهاج ، فاتتحي به جانبا وشرح له القضية كلها بلهجة مفعمة بالتأثر والهيجان ، ورجاه أن يتشفع لدينيسوف الذي كان الجنرال يعرفه . فبعد أن أصغى الجنرال الى مارواد له روستوف هز رأسه مهموما مغموما وقال :

— محزن ، محزن أمر هذا الفتى الشهم . أعطني عريضة الاسترحام .

فما أن سلمه روستوف الرسالة حتى أخذت تدوي على درجات السلم خطوات سريعة تصحبها قرعة مهاميز ، فتركه الجنرال واقترب من الباب . كانت شخصيات حاشية الامير تهبط السلم راكضة ، متجهة الى أفراسها . وجاء السائس إينوي (وهو ذلك السائس نفسه الذي كان في أوسترنتس) مقتادا حصان الامبراطور ؛ وسُمع وقع خطى خفيف على درجات السلم سرعان ما عرفه روستوف ؛ وسرعان ما نسي روستوف خطر أن يكتشف ، فتقدم نحو الباب مع من تقدموا من المستلمين ، فرأى مرة ثانية ، بعد انقضاء سنتين على المرة الاولى ، رأى تلك القسمات المعبودة نفسها ، رأى ذلك الوجه نفسه ، رأى تلك النظرة نفسها ، رأى تلك المشية نفسها ، رأى ذلك المزيج نفسه من الفخامة والركة ... فاشتعلت نار الحماسة والحب للامبراطور في قلبه من جديد ، متأججة قوية كقوتها في المرة الماضية . وظهر الامبراطور مرتديا بزة فوج بريوبراجنسكي ، سروالا من جلد الشاموا الابيض ،

وجزمتين عاليتين ، مع وسام لايعرفه روستوف (هو وسام جوقة الشرف) ، ظهر على باب المنزل وهو يتأبط قبعته ويلبس قفازية • ووقف يجيل نظرة دائرة ، فيضيء بهذه النظرة كل ما حوله • ووجه كلاما الى عدد من الجنرالات ، وتعرّف الجنرال الذي كان قائد فرقة روستوف في الماضي ، فابتسم له ، وأوما له أن يتقدم منه •

ابتعدت الحاشية كلها ، ورأى روستوف ذلك الجنرال يكلم الامبراطور طويلا •

فأجابه الامبراطور ببضع كلمات ، وتقدم خطوة من حصانه ، فعادت الحاشية وجبهه المتطلعين الذين كان روستوف أحدهم ، عادت تقترب • ووقف الامبراطور بقرب حصانه ، ووضع يده على السرج ، والتفت الى جنرال الخيالة ، فقال له بصوت عال كان واضحا أن الامبراطور تعمد أن يكون عاليا ليسمعه الجميع :

— لا أستطيع يا جنرال ، واذا كنت لا أستطيع فلأن القانون أعلى مني •

ووضع قدمه في الركاب • فانحنى الجنرال باحترام واجلال ، وامتنى الامبراطور صهوة حصانه ومضى • وكان روستوف يهذي حماسا ، فركض مع الجمهور وراءه •

الفصل الحادي والعشرون

في الميدان الذي كان الامبراطور ذاهبا اليه كانت تصطف على اليمين كتيبة من فوج بريوبراجنسكي ، وعلى الشمال كتيبة من الحرس الفرنسي بقلنسوات من ذات وبر .

وفيما كان الامبراطور الاسكندر يصل الى أحد جنبي الكتيبتين اللتين تشلان مختلف الاسلحة ، كانت كوكبة أخرى من الفرسان تسير الى الجنب الآخر عدواً سريعا . ورأى روستوف في طليعة هذه الكوكبة فارسا أدرك روستوف بغريزته أنه نابوليون . ما كان يمكن أن يكون هذا الفارس أحدا غير نابوليون . كان بقبعته الصغيرة ، ووسام القديس آندره الذي يوشح صدره ، وبزته العسكرية الزرقاء القاتمة التي تكشف عن صديرة بيضاء ، يعدو سريعا على حصان عربي أصيل أشهب يغطي سرجه غطاء من قطيفة مطرزة بذهب . حتى اذا وصل الى الاسكندر ، رفع قبعته محييا . وقد اضطر روستوف ، وهو الذي يملك بصر فارس خبير ، أن يلاحظ من خراقة هذه الحركة التي قام بها نابوليون أن نابوليون لم يكن ثابتا على ظهر فرسه ، ولم يكن راكنا على سرجه . وصاحت الكتيبتان تهتفان : « هورررا ! وعاش الامبراطور ! » وقال نابوليون شيئا للاسكندر . ونزل الامبراطوران عن حصانيهما ، وتصافحا . وكانت ابتسامة مصنوعة كريهة تنموج

على قسّات وجه نابوليون • وكلّمه الاسكندر بلهجة فيها مودة
ولطف •

ورغم أن أفراس رجال الدرك الفرنسيين الذين كانوا يصدون
الجمهور ، فقد استطاع روستوف أن يتابع كل حركة من حركات
الاسكندر ونابوليون ، ولم يحول بصره عنهما لحظة • فكان الشيء الذي
أدهشه أكثر من كل ما عداه أن الاسكندر عامل نابوليون معاملة الند
للند ، وأن نابوليون ، من جهته ، كان يعد رفع الكلفة بينه وبين
الاسكندر أمرا طبيعيا كأنه يرجع الى عهد بعيد جدا •

تقدم الاسكندر ونابوليون مع رتل الحاشية الطويل الذي يسير
وراء كل منهما ، تقدما من الجنب الايمن من فوج بريوبراجنسكي
مقبلين قُدّما على الجمهور الذي كان محتشدا هناك ، فاذا بالجمهور
يجد نفسه على حين فجأة قريبا من الامبراطورين قربا شديدا ، حتى
أن روستوف الذي كان في الصفوف الاولى خشي أن يعرف •

قال صوت قاطع واضح يبرز كل حرف من حروف كلامه :
— صاحب الجلالة ، هل لي أن أستأذنكم في أن أهب وسام
جوقة الشرف الى رجل تعدونه أشجع جنّكم ؟

كان بونايرت القصير هو المتكلم ، وكان شاخصا ببصره الى
عيني الاسكندر من تحت الى فوق • وقد أنصت الاسكندر الى ما
قاله نابوليون ، ووافق على اقتراحه بحركة من رأسه ، وابتسم له
ابتسامة فيها لطف ومودة •

وأضاف نابوليون يقول مبرزا كل مقطع من مقاطع كلامه :

— الى ذلك الذي أبلى في هذه الحرب الاخيرة أحسن البلاء ،
وكان أجسر الجسورين •

وبهدوء وثقة أثارا ثائرة روستوف ، وأخنقاه وأغاظاه ، أجال
نابوليون بصره على صفوف الجنود الروس الذين كانوا متجسدين لا
يتحركون ، وكانوا ما يزالون خافضين أسلحتهم ، محدقين بأبصارهم
الى وجه امبراطورهم •

قال الاسكندر :

— هل تأذن لي جلالتيكم بأن أسأل الكولونيل رأييه ؟

وتقدم من الامير كوزلوفسكي الذي كان يقود الكتيبة ، بضع
خطوات سريعة • وفي أثناء ذلك نضا بوتابرت عن يده الصغيرة البيضاء
قفازها ، ومزق القفاز ورماه • فأسرع ضابط مرافق يرفع القفاز
عن الارض •

قال الامبراطور الاسكندر يسأل كوزلوفسكي بصوت خافت
وباللغة الروسية :

— لمن يوهب الوسام ؟

— لمن تشاء يا صاحب الجلالة •

فقطب الامبراطور حاجبيه مستاء ، وقال وهو يلقي نظرة حوالية:
— لا بد من اجابته على كل حال •

فأجال كوزلوفسكي على الصفوف نظرة حازمة ، وشمل بهذه
النظرة روستوف •

قال روستوف محدثا نفسه : « أيقع الاختيار عليّ ؟ » •

وصاح الكولونيل مقطبا حاجبيه مناديا :
— لازاريف !

فتقدم أول جندي من جنود الصف الاول يسير بخطى عسكرية
وهيئة جسور •

فهمست أصوات تقول للازاريف الذي كان لا يعرف أين يجب
عليه أن يتجه :
— الى أين تذهب ؟ ابق هنا !

فتوقف عن السير وهو ينظر الى الكولونيل من جانب ، خائفا
مضطربا ، وارتجف وجهه كما يحدث هذا للجنود حين يُنادَوْنَ
أمام القطعات •

لفت نابوليون رأسه لفتا يسيرا لا يكاد يلاحظ ، ومدَّ وراء
ظهره يده الصغيرة السمينة كمن يريد أن يأخذ شيئا ، فسرعان ما أدرك
ضباط حاشيته ماذا يريد ، فدبَّت الحركة فيهم ، وأخذوا يتهاسون
ويتناقلون شيئا من يد الى يد ، ثم اذا بفتى هو ذلك الفتى نفسه الذي
رآه روستوف عند بوريس بالامس ، أعني الفتى الذي ألحقه نابوليون
بخدمته غلاما ، يهرع الى اليد الممدودة وينحني عليها باحترام ، ويضع
فيها الوسام ذا الشريط الاحمر ، فيقبض نابوليون على الوسام باصبعيه
دون أن ينظر الى وراء ، ويثقل على لازاريف الذي كان محمقا
عينية ، وكان مصرا على أن لا ينظر الا الى امباطوره ؛ فألقى نابوليون
نظرة على الاسكندر مشيرا بهذه النظرة الى أن ما يفعله انما يفعله
لحليفه • وامتدت اليد الصغيرة التي تقبض على الصليب فلامست

عروة الجندي لازاريف ملامسة خفيفة • كان نابوليون يبدو واثقا بأنه حسبه أن تلمس يده ، هو نابوليون ، صدرَ الجندي لمسا حتى يُسعدده الى الابد ، ويغمره بالعزة والفخر ، ويميزه على سائر الناس • فاكتمى نابوليون بأن ضغط الصليب على صدر لازاريف ، وسحب يده ، والتفت الى الامبراطور الاسكندر ، كالواثق بأن الصليب لا بد أن يكون قد التصق بالصدر ، وقد التصق الصليب بالصدر فعلا •

ذلك أن أيادي مجاملة ، روسية وفرنسية ، هبّت تثبّت الوسام على صدر الجندي • وألقى لازاريف نظرة قاتمة على الرجل القصير ذي اليدين السميتين الذي أنعم عليه بالوسام ، ثم حوّل بصره الى الاسكندر وهو ما يزال مادا سلاحه ، كأنما ليسأله أيجب عليه أن يبقى واقفا هذه الوقفة على هذه الحال • أم يجب عليه أن يتعد ، أم ربما يجب عليه أن يفعل شيئا آخر • ولكنه لم يؤمر بشيء ، فلبث جامدا على هذه الوقفة مدة طويلة •

وركب الامبراطوران حصانيهما ومضيا • فخرج جنود فوج بريوبراجنسكي من صفوفهم ، واختلطوا بجنود الحرس الفرنسي ، وجلسوا الى الموائد المعدة لهم •

وكان لازاريف يحتل مكان الشرف • وأخذ الضباط الروس والفرنسيون يقبلونه ، ويهنئونه ، ويصافحونه • وجعل العسكريون والمدنيون يقبلون عليه ذرافات ذرافات لا شيء الا أن يروه • وقامت في الميدان جلبة ضحكات وأحاديث باللغة الروسية وباللغة الفرنسية •

ومرّ أمام روستوف ضابطان مرحان سعيدان قد احمر وجهاهما حتى صارا بلون الارجوان • كان أحدهما يقول للآخر :

— يا لها من حفلة ! هه ؟

— حقا .

— يقال ان فوج بريوبراجنسكي سيدعوهم أيضا .

— لا . ولكن ما أعظم هذا الحظ الذي هبط على لازاريف .

معاش قدره ألف ومائتا فرنك مدى الحياة .

وصاح جندي من فوج بريوبراجنسكي وهو يضع على رأسه

قلنسوة جندي فرنسي ذات وبر ، صاح يقول :

— هذه قلنسوة يا شباب !

— ما أجملها ! رائعة !

وقال ضابط من الحرس يسأل ضابطا آخر :

— هل تعرف كلمة المرور ؟ كانت أمس الاول : نابوليون ،

فرنسا ، بسالة ؛ وكانت أمس : الاسكندر ، روسيا ، عظمة . فيوما

يضعها امبراطورنا ويوما يضعها نابوليون . غدا سيمنح الامبراطور

صليب القديس جرجس لاشجع جندي من جنود الحرس الفرنسي .

لا بد له من هذا . يجب أن يردّ على اللباقة بمثلها .

وكان بوريس ورفيقه زيلنسكي يريان المأدبة . فلما انصرف

لح روستوف واقفا عند زاوية أحد المنازل . فهتف يقول له :

— روستوف ! يومك سعيد ! اتنا لم نكد نلتقي .

ولم يسهه الا أن يسأله عما حدث له من شدة ما رأى من

اكفهار وجهه وانقلاب سحنه .

أجابه روستوف بقوله :

— لا شيء ، لا شيء !

— ألا تنوي أن تجيء اليّ ؟

— بلى • سأجيء •

لبث روستوف في ركنه مدة طويلة ينظر الى الاحتفال من بعيد •
كان عمل شاق يتم في ذهنه ، ولا يستطيع هو أن يضي به الى نهايته •
وكانت شكوك رهية تحاصره • كان تارة يتذكر دينيسوف ووجهه
الذي تبدل تعبيره ، ويتذكر خصومه واذعانه ، ويتصور المستشفى
وما رآه فيه من أيد مقطوعة وسيقان منتزعة وقذارة وأمراض ،
وتلاحقه رائحة المستشفى ، ورائحة اللحم الميت المتفسخ حتى ليلتفت
الى وراء ليرى مصدر هذه الرائحة • وتارة يتصور بونايرت ذا اليد
البيضاء الصغيرة ، مزهوا بنفسه وقد أصبح الآن امبراطورا يظهر له
الامبراطور الاسكندر مودة واحتراما ، فيتساءل : علام اذن تلك
الاذرع المبتورة والسيقان المقطوعة وهؤلاء الموتى • أو يتصور
لازاريف مكافأً ويتصور دينيسوف معاقبا لم يثقف عنه • وكان
يستغرب أن يحرك في ذهنه هذه الافكار الغريبة التي يخافها
ويجزع منها •

واتترعته رائحة الوليمة واتترعه الجوع من هذه الحالة : كان
عليه أن يصيب شيئا من الطعام قبل أن يسافر عائدا • فاتجه الى فندق
كان قد رآه في الصباح •

رأى الفندق يبلغ من الازدحام بالناس ، وهم ضباط يرتدون مثله
ثيابا مدنية ، أنه لم يستطع أن يطلب طعاما وأن يلبى طلبه الا بعد
عناء كثير • وقد انضم اليه ضابطان من فرقته • ودار الحديث بطبيعة

الحال على الصلح . كان هذان الضابطان ، كسائر الناس في الجيش تقريبا ، مستائين من هذا الصلح الذي تمَّ بعد فريدلاند . كانا يذهبان الى أننا كنا نستطيع أن نصمد ، وأن نابوليون كان سيهلك لو صمدنا ، لأن قطعاته لم يبق عندها لا بسكويت ولا ذخيرة . وكان روستوف يأكل صامتا وكان يشرب فيكثر من الشراب . شرب وحده زجاجتين من النبيذ . ان العمل الشاق الذي يتم في ذهنه دون أن يؤدي الى نتيجة ، ما يزال يعذبه ويرهقه من أمره سرا . كان خائفا من الاستسلام لهذه الافكار ، ولكنه كان في الوقت نفسه عاجزا عن انتزاع نفسه منها . وبينما كان أحد الضباطين يقول انه لا امر مزعج مثير أن يرى المرء هؤلاء الفرنسيين ، اذ أخذ روستوف يصرخ على حين فجأة غاضبا غضبا ليس له ما يبرره ، غضبا أدهش الضباطين أشد الدهشة ، فقال وقد سعد الدم الى وجهه :

— ما يدريك أنت بما كان الافضل أن يفعل ؟ أتتى لنا نحن أن نحكم على سلوك الامبراطور ؟ أي حق لنا في مناقشة سلوكه ؟ انا لا نستطيع أن نفهم لا أهدافه ولا أفعاله !

فقال الضابط معترضا مبرئا نفسه :

— ولكنني لم أقل عن الامبراطور كلمة واحدة .

ولم يستطع الضابط أن يعلل غضب روستوف الا بتأثير السكر .

ولكن روستوف لم يكن يصغي اليه ، وتابع كلامه يقول :

— نحن لسنا دبلوماسيين بل جنودا لا أكثر . فاذا أمُرنا بأن نموت لم يكن علينا الا أن نموت . واذا عوقبنا ، فلأننا نكون قد أذنبنا . لسنا نحن من يقضي في الامور . اذا رأى الامبراطور أن

يعترف بنابوليون امبراطورا وأن يعقد بيننا وبينه تحالفا ، كان ذلك هو الصواب لانه يكون ضرورة • واذا نحن حشرنا أنفسنا نأخذ نحكم في الامور ، وناقش • ونفكر ، لم يبق ثمة شيء مقدس ، وربنا وصلنا الى القول بأن الله لا وجود له ، وأن لا شيء موجود ...

قال نيقولا روستوف هذا الكلام صارخا وهو يضرب الطاولة بقبضة يده ضربة قوية رأى صحبه أنها لا محل لها ، ولكنها كانت في حقيقة الامر مقنعة ومجرى الافكار التي كانت تضرب في ذهنه • وختم كلامه بقوله :

— دورنا نحن هو أن نقوم بواجبنا ، أن نسايف لا أن تفكر •

فقال أحد الضابطين تحاشيا لنشوب مشاجرة :

— وأن نشرب أيضا •

فقال نيقولا مؤيدا هذا الرأي :

— نعم ، وأن نشرب •

ونادى الخادم صارخا :

— هيه ! أنت ! هات زجاجة أخرى •

الجزء الثالث

الفصل الأول

في سنة ١٨٠٨ ، ذهب الاسكندر الى ايرفورت ليلقى نابوليون لقاء جديداً ، وتحدث المجتمع العاليي بيطرسبرج عن هذا اللقاء حديثا كثيرا .

وفي سنة ١٨٠٩ كان التفاهم بين سيّدي العالم العظيمين ، — كما كانا يلتقيان في ذلك الوقت ، قد بلغ من القوة أنه حين أعلن نابوليون الحرب على النمسا ، عبر جيش روسي الحدود ليساعد عدونا القديم بونابرت ، على حليفنا القديم امبراطور النمسا ، وبلغ ذلك التفاهم من القوة أن الدوائر العليا من المجتمع أخذت تتكلم عن زواج سوف يتم بين نابوليون واحدى أخوات الامبراطور الاسكندر . ولكن المجتمع الروسي كان عدا اهتمامه بأحداث السياسة الخارجية هذه ، مهتما اهتماما خاصا شديدا بالاصلاحات الداخلية التي كانت تتم حينذاك في جميع أجزاء جهاز الدولة .

وكانت الحياة في أثناء ذلك ، أعني حياة الناس الحقيقية ، بما تشمل عليه من اهتمامات أساسية ، كالصحة والمرض والراحة ، وما تشتمل عليه من اهتمامات أخرى كالفكر والعلم والشعر والموسيقى والحب والصدقة والكره والاهواء ، استمرت تجري كما كانت تجري في الماضي ، مستقلة عن جميع الاصلاحات ، خارجة عن حسن التفاهم أو سوء التفاهم مع بونابرت .

قضى الامير آندره في الريف سنتين كاملتين بلا انقطاع . فاذا بجميع المبادرات التي حاولها بطرس في أراضيه دون أن تؤدي الى أية ثمرة ، اذا هي تتحقق على يد الامير آندره في أراضيه واحدة بعد واحدة، دون أن يتحدث عنها مباهيا لأول قادم ، ودون أن يبدو عليه أنه يبذل جهدا أو يتحمل عناء .

كان الامير آندره يملك أقصى درجة من درجات ذلك الثبات العملي الذي يعوز بطرس ، والذي كان يدفع مشروعات آندره الى الامام بدون هزات وبدون جهد منه .

فالاقنان الثلاثائة في احدى أراضيه استحالوا مزارعين أحرارا (كان آندره أول قدوة لغيره في روسيا في هذا المضمار) ، وفي الاراضي الاخرى حلت الاجرة محلّ السخرة . وجاء آندره الى بوجوتشاروفو بقبالة تسكن فيها لتولّد النساء ، ودفع أجرا لكاهن من أجل أن يعلم أولاد الفلاحين والخدم القراءة والكتابة .

وكان الامير آندره يقضي نصف وقته في ليسيا جوري مع أبيه وابنه الذي ما يزال بين أيدي الخادومات ، ويقضي نصفه الآخر في منسكه ببوجوتشا روفو، على حد تعبير أبيه . ورغم ما تظاهر به أمام بطرس من عدم الاكتراث بالشئون الخارجية في هذا العالم ، فقد كان يواصل متابعة أنبائها مثابراً مواظباً ، فيكلف أناساً بامداده بالكتب يرسلونها اليه ، ويُدْهشه حين يزور أباه أو يزوره هو زوار من بطرسبرج — قطب الحياة ومحورها في البلاد — أنهم أقل اطلاعا على مجرى الشئون السياسية ، الداخلية والخارجية ، منه هو الذي لا يغادر الريف أبداً .

وكان الامير آندره ، عدا ادارة شئون أراضيه ، وعدا انكبابه على

القراءة ، يهتم بأن يدرس حريينا الاخيرتين المشؤمتين دراسة نقدية ،
ويعمل في كتابة مشروع اصلاح لأنظمتنا العسكرية •

وذهب في ربيع ١٨٠٩ الى أراضي ريازان التي كانت ملكا لابنه ،
وهو وصي عليه •

فكان وهو في عربته ، تحت الاشعة الدافئة التي ترسلها شمس
الربيع ، ينظر الى أول العشب ، وأولى أوراق أشجار البتول ، وأولى
غمامات الربيع البيض ، المنتشرة على صفحة السماء اللازوردية • كان
لا يفكر في شيء ، ولكنه يدع بصره أن يطوِّف حواليه فرحاً •

وقطع المعدية التي قطعها منذ سنة مع بطرس ، وجرى بينهما
الحديث • واجتاز قرية قدرة ، وبيادر ، وحقولا من قمح الشتاء ، وهبط
منحدرا ما يزال عليه ثلج بقرب جسر ، وصعد منحدرًا من صلصال
وحاذى حقل قصب تتخلله هنا وهناك شجيرات مخضوزة ، ودخل
غابة سندري تحف بالطريق من جانبيه • وكان الجو في ظل الغابة شبه
دافئ ، فلا رياح تهب ، وأشجار السندر ، التي انتشرت على أغصانها
أوراق خضراء لزجة ، ساكنة لا تهتز ، ومن بين بساط الأوراق اليابسة
التي تغرس أرض الغابة من خريف السنة الماضية كانت تطلع بواكير
العشب الأخضر والازهار البنفسجية ، مزيجة أوراق الشجر اليابسة •
وكانت عدد من أشجار الصنوبر المبعثرة في غابة السندر تذكر خشونة
خضرتها الدائمة بالشتاء تذكيرا يقبض الصدر •

حمحت الخيل وهي تدخل الغابة ، وصار عرقها أظهر وأبين •

وهذا بطرس ، خادم الامير أندره ، يقول شيئا للحوذي ، فيجيبه
الحوذي مؤيدا رأيه ، ولكن تأييد الحوذي لرأيه لم يكفه في أغلب

الظن ، فيستدير على مقعده متجها الى مولاه ويقول له مبتسما ابتسامة فيها كثير من الاحترام :

— ما أحلى هذا يا صاحب السعادة !

فتساءل الامير آندره وهو ينظر حواليه : « ماذا يقول ؟ أغلب الظن أنه يتكلم عن الربيع • انه على حق • اخضوض كل شيء منذ الآن ... بهذه السرعة كلها ! وأشجار البتول ، وأشجار كرز الطير ! وهذه أشجار المqn قد بدأت أيضا ... ولكن أين أشجار السنديان ؟ ها ... هذه سنديانة ! » •

كانت سنديانة تنتصب سامقة على حافة الطريق • لا شك أنها أكبر سنا من أشجار السندر عشر مرات ، وأضخم منها عشر مرات ، وأعلى منها مرتين • انها سنديانة كبيرة لا يستطيع أن يحتضنها الا شخصان أثنان؛ أغصانها تكسرت منذ فترة طويلة ؛ وقشرتها المكشوفة مغطاة بندوب قديمة ؛ أذرعها وأصابها الضخمة العققاء الخرقاء الممدودة بغير تناظر تجعلها تنتصب بين أشجار البتول البسامة الضاحكة أشبه بغول عجوز غاضب مبغض محتقر • كانت وحدها رافضة أن تستسلم لسحر الربيع وأن تنقاد لفتنته ، ولا تريد أن ترى لا ربيعا ولا شمسا • كانت كأنها تقول : « الربيع ، الحب ، السعادة ! كيف لم تسأموا من هذا الخداع المتكرر الأبدي ؟ ألا ترون أن ذلك كله ليس الا غشا ؟ لا ربيع ولا شمس ولا سعادة ! انظروا الى شجيرات الصنوبر هذه المختنقة الميتة التي لا تتغير لها حال ! ولطالما حاولت أنا أيضا أن أبسط أذرعي وأصابي العققاء القشراء تخرج من ظهري وتطلع من جنبيّ وتنبت أنثى تشأ أن تنبت ، وأبقى على حالي حيث أنا لا أتغير ولا أتبدل ، فلست أوئن بآمالكهم وأكاذيبكم ! » •

التفت الامير آندره عدة مرات الى هذه السنديانة أثناء اجتيازه الغابة ليراها كأنه ينتظر من رؤيتها شيئاً • كان في ظلها أزهار ملونة وعشب أخضر ، ولكن ذلك لا يسعها هي أن تصر على تجهمها وجبودها وفظاظتها وشراستها •

فقال الامير آندره محدثاً نفسه : « نعم ، انها على حق ، هذه السنديانة ! ألا فلتظل الخديعة على الشبان بدورهم ! أما نحن فقد بلونا الحياة وعرفناها ، لقد انتهت حياتنا نحن ! » •

وتعاقب في ذهنه بصدد هذه السنديانة موكب متلاحق من المعاني التي تجرد النفس من افتتانها ، وتحررها من أوهامها ، ولكن فيها كآبة حلوة • وطفق يستعرض أثناء رحلته حياته كلها ، فأنتهى مرة أخرى الى النتيجة التي سبق أن انتهى اليها ، وهي نتيجة تهديء النفس وتبث فيها الطمأنينة والسكينة ، ولكنها تجردها من افتتانها ، وهي أن عليه أن لا يخرط في عمل شيء من الاشياء ، وأن يكتفي بانهاء حياته دون أن يضع بأحد شراً ، ودون أن يعذب نفسه بالقلق ، ودون أن يشتهي شيئاً من الاشياء •

الفصل الثاني

لأسباب تتعلق بوصاية الامير آندره على ابنه في أملاك ريزان ،
احتاج الامير آندره الى لقاء مارشال النبالة في المنطقة • وكان مارشال
النبالة هو الكونت ايليا آندريفتش روستوف ، فذهب اليه في منتصف
شهر مايو •

نحن الان في الفترة الحارة من الربيع ، والغابات قد كمل اكتساء
أشجارها بالأوراق ، وفي الطريق غبار ، والجو يبلغ من الحر أن المرء
يشتهي أن يستحم اذا مر بأي ماء •

هاهي ذي عربة الامير آندره تسير في الممر المفضي الى منزل آل
روستوف بين صفيين من الأشجار بحديقة منزلهم في أوترادنوي • انه
متجههم الوجه مشغول البال بما سيطلبه من مارشال النبالة •

وهذه أصوات نسوية فرحة تصل الى مسمعه من بين الأشجار في
اليمين ، وها هو ذا يرى عصابة من الفتيات تجري فتسد على عربته
الطريق • ان في طليعتهن فتاة سمراء لها عيان سوداوان ، وقامة هيفاء
شديدة النحافة ، ترتدي فستانا أصفر من نسيج الهند ، وتعقد على رأسها
منديلا أبيض من المناديل التي توضع في الجيب ، وتثقلت من تحت
المنديل خصلات من شعرها مشعثة • كانت الفتاة تصيح قائلة كلاما ،
ولكنها ما ان رأت رجلا غريبا حتى ولت هاربة دون ان تنظر اليه •

فاذا بالامير آندره يحس فجأة بضيق في صدره ، لا يدري لماذا !
كان الجو رائع الجمال ، وكانت الشمس فاتنة التلألؤ ، وكان كل شيء
حواليه يشع فرحاً ؛ وهذه الفتاة الهيفاء النحيفة لاتعرف حياته ، ولا يهمها
أن تعرفها . انها راضية عن حياتها هي ، مكتفية بها ؛ وقد تكون غبية ،
لكنها فرحة سعيدة . « ما الذي يجعلها سعيدة هذه السعادة كلها ؛ في
أي شيء تفكر ؟ لاشك انها لاتفكر لا في النظام العسكري ، ولا في منح
فلاحي ريزان حق استئجار الارض ! ما الذي تفكر فيه ؟ وما الذي
يجعلها سعيدة ؟ » . كذلك كان الامير آندره يتساءل باهتمام شديد .

كان الكونت ايليا آندريفتش روستوف يعيش سنة ١٨٠٩ ، في
أوترادنوي ، نفس الحياة التي كان يحياها في الماضي ، أي كان يتقبل في
منزله جميع أهل المقاطعة تقريبا ، ويهيء الى رحلات صيد ، وينظم لهم
حفلات تشيل ، ويولم لهم مأدب عشاء ، ويدعوهم الى سماع موسيقى .
وكانت كل زيارة جديدة تسرته كثيراً ، فما كان أعظم سعادته برؤية الامير
آندره ، حتى لقد احتجزه للمبيت في منزله بما يشبه الإجبار .

قضى الامير آندره نهاراً مملاً مضجراً في صحبة ضيوف الكونت
روستوف الوجهاء المرموقين من مدعويه الذين كان المنزل يفص بهم
بمناسبة عيد قريب ، ولكنه نظر عدة مرات الى ناتاشا التي كانت تضحك
وتتسلى مع الشبية ، فكان يتساءل كل مرة : « في أي شيء تفكر ؟
ما الذي يجعلها سعيدة هذه السعادة كلها ؟ » .

حتى اذا كان المساء ، وخلا الى نفسه في غرفة لايعرفها ، لبث ساهرا
مدة طويلة لا يستطيع الى النوم سيلا . لقد قرأ ، ثم أطفأ الشمعة ،
ثم أشعلها من جديد . وكان الجو في الغرفة حاراً لان مصاريع النوافذ

كانت مغلقة • فغضب من ذلك الشيخ الغبي (كذلك كان يسمى روستوف) الذي احتجزه للمبيت زاعماً أن الاوراق اللازمة لم يتم جلبها من المدينة ، وغضب من نفسه لانه رضي أن يبقى •

وها هو ذا ينهض فيسضي الى النافذة ليفتحها • فما ان شق مصراعها حتى داهمت اشعة القمر الغرفة ، كأنها كانت تتربص وراء النافذة منذ مدة طويلة ، ولاتنتظر الا ان تفتح النافذة حتى تقتحم الغرفة • كانت الليلة طرية مضيئة ساجية • وكان يمتد أمام النافذة تماما صفا من أشجار مقلمة ، سود من احدى جهتيها مضاءة بنور فضي من جهتها الاخرى • وكان تحت الأشجار نبت مترع بالنسغ، مخضل بالرطوبة، شديد الكثافة، الى اوراق وسيقان فضية متناثرة هنا وهناك ؛ ووراء الاشجار السود في بعيد ، يثرى سقف يتلألاً بقطرات الندى ، وعلى اليمين شجرة ضخمة كثيفة جذعها وأغصانها باهرة البياض ؛ والقمر يطل على هذا كله وقد أوشك أن يكتمل بدرا في سماء مضيئة كما تكون السماء في الربيع ، فلا تكاد ترى فيها نجوم •

وضع الامير آندره كوعه على النافذة ، وشخص ببصره الى السماء • ان غرفته تقع في الطابق الاول ؛ وغرف الطابق الذي يعلوه مسكونة لمّا ينم سكانها بعد • فان أصوات نساء تصل الى مسمعه من فوق •

قال صوت سرعان ما تعرفه الامير آندره •

— مرة أخرى ، مرة واحدة لا اكثر •

فأجاب الصوت الآخر :

— فمتى تنامين اذن ؟

— لن أنام • لا اريد أن انام • ليس هذا ذنبي ! هيا • مرة اخيرة !

فأخذت المرأتان تشدان جملة موسيقية هي خاتمة قطعة .
— آه ... ما أجملها ! ما أروعها ! والآن هيا نامي . انتهينا .
— نامي أنت ، أما أنا فلا أستطيع .

بذلك أجاب الصوت الأول الذي كان أقرب الى النافذة . وكان واضحاً أن المرأة التي أجابت بهذا الكلام كانت مائلة خارج النافذة كثيراً ، لأن حفيف فستانها كان يسمع ، بل كانت انفاسها تسمع أيضاً . وصمت كل شيء وجمد كل شيء ، كالقمر وضياءه والظلال . وكان الامير أندره يخشى هو أيضاً ان يجري أية حركة مخافة أن يفتضح وجوده الذي كان بغير إرادة منه .

عاد الصوت الاول يقول :

— صونيا ، صونيا . أين لنا أن ننام ؟ ألا نظرت ما أروع هذا !
آه ... ما أروع !

وأضافت والدموع تكاد تخالج صوتها :

— هلاء استيقظت يا صونيا ! أؤكد لك أننا لم نشهد في حياتنا ليلة تبلغ هذا المبلغ من الروعة ، أبدا ...

فأجابت صونيا ببعض الكلام على مضض .

— ألا نظرت الى هذا القمر ! آه ... ما أروع ! تعالي هنا يا عزيزتي ، يا روحي ، تعالي هنا ! هيه ... هل ترين ؟ ان المرء ليشتهي أن يقرص كهذه القرفصة ، وان يتحفز بشد ركبتيه شدا قويا ، قويا جداً ، قويا الى اقصى حد يستطيعه ، ثم يثب ، فاذا هو يطير ... هكذا ...

— انتبهي ، تكادين أن تسقطي .

وسمعت جلبة صراع ، وسمعت صوت صونيا تقول مستاءة :

— الساعة تجاوزت الواحدة !

— آه ... انك تفسدين عليّ كل شيء • هيا ! هيا انصرفي !

وصت كل شيء من جديد ، ولكن الامير آندره عرف أنها ما تزال

هناك ، فهو تارة يسمع خفيفا خفيفا ، وتارة يسمع تنهدات •

وهتفت الفتاة على حين فجأة تقول :

— آه ... رباه ! رباه ! ماهذا !

ثم أضافت :

— لننم اذا كان لا بد من النوم !

وأغلقت النافذة •

كان الامير آندره يتوقع أن تتكلم عنه ، وكان يخشى أن تتكلم

عنه حين كان يصغي الى كلامها ، فلما لما تفعل ، قال لنفسه : « لاشك

أن وجودي لا يهمها في قليل ولا كثير ! » • لا يدري الامير آندره لماذا

توقع أن تتكلم عنه • وتابع حديثه لنفسه قائلا : « لماذا أقع عليها في

طريقي مرة أخرى • مصادفة كأنها عمد ! » •

وهب في أعماق نفسه اعصار من الافكار وآمال الشباب ، اعصار

يناقض حياته كلها ويبلغ من العنف والقوة أنه أحس بعجزه عن تحليل

حالته فسرعان ما نام •

الفضل الثالث

عاد الامير آندره الى منزله في الغداة ، بعد أن ودّع الكونت الشيخ وحده ، ولم ينتظر أن يتمكن من تحية السيدات •

وكان قد بدأ شهر حزيران (يونيه) حين دخل الامير آندره ، في طريق عودته الى ليسيا جوري ، حين دخل مرة أخرى غابة أشجار السندر تلك التي رأى فيها شجرة السنديان العقفاء ، فأحدث هذه الشجرة في نفسه أثراً غريباً لا يئسى • وكانت أجراس عربته ترجع الآن في الغابة صوتاً بهيماً أكثر من الصوت الذي كانت ترجعه فيها قبل ستة أسابيع • كان كل شيء قد تفتح وازدهر ، وصار لكل شيء ظل ، وغدا كل شيء كثاً كثيفاً ، وغدت شجيرات الصنوبر المبعثرة في الغابة لا تنتقص من جمال جملة الغابة ، وانما هي الآن خاضعة للانسجام الشامل والاتساق العام تعرض على الابصار طراوة خضرة براعمها الفتية الزغبة •

كان الحر قد اشتد طوال النهار ، وكانت عاصفة توشك أن تهب في مكان من الامكنة ، ولكن غيمة صغيرة كانت قد انسكبت مطراً على غبار الطريق وعلى أوراق الأشجار المثقلة بالنسغ • وكان الجانب الايسر من الغابة غارقاً في الظل ، وكان الجانب الايمن يتمتع بقطرات المطر

تحت أشعة الشمس ولا تكاد تهزه ريح • كل شيء مزهر ؛ والعنادل تطلق أنغامها وترسل زغرداتها ، بعيدة تارة ، قريبة تارة أخرى كل القرب •

قال الامير آندره لنفسه وهو ينظر الى شمال الطريق : « نعم ، هنا ، في هذه الغابة انما كانت تقوم تلك السنديانة التي اتفقت معها في الرأي • ولكن أين هي ؟ » • وكان يُعجب بالسنديانة التي يبحث عنها دون أن يراها ، ودون أن يعرفها • كانت السنديانة العجوز التي استحالت استحالة كاملة تمتد هرما من خضرة قاتمة غزيرة مبتهجة أعظم الابتهاج تحت أشعة الشمس الغاربة • لا أصابع عقفاء ، ولا جراح ، ولا ذلك الشك القديم والحزن الغابر • ان الناظر الى السنديانة لا يرى شيئا من ذلك كله • ومن قشرتها الخشنة التي عمرها مائة سنة كانت تنبجس رأسا ، بغير أغصان ، أوراق تبلغ من الامتلاء بالنسغ أن المرء يصعب عليه أن يصدّق أن هذه السنديانة العجوز يمكن أن تهب لها الحياة • قال الامير آندره لنفسه : « ولكن هذه هي السنديانة نفسها » ، واعتراه على حين فجأة شعور بالفرح لم يعرف له سببا ، وأحس بنفسه تتجدد في هذا الربيع كما يتجدد سائر ما في الطبيعة • وعادت الى خياله أحسن لحظات حياته دفعة واحدة • وعرضت لخياله صورة أوسترلتس وسمائها العالية ، وتراءى له وجه زوجته ميتا مثقلا بالعتب ، ومرّ بخاطره بطرس في المعدية ، وتمثلت له الفتاة التي أهاجت روعة الطبيعة نفسها ، وتصور تلك الليلة ذاتها والقمر الذي داهم غرفته • ذلك كله عرض لخياله متعاقبا على حين فجأة •

قال لنفسه جازما على حين فجأة : « لا ، لا ، لا تنتهي الحياة في السنة

الحادية والثلاثين من العمر • ليس يكفي أن أعلم كل ما في نفسي ، وإنما يجب أن أعلم ذلك جميع الناس • يجب أن يعلمه بطرس ، وأن تعلمه تلك الفتاة التي أرادت أن تطير في السماء • يجب أن يعرفني الناس كافة ، وأن لا تنقضي حياتي لنفسي وحدي ، يجب أن لا يعيش الناس حياة مستقلة هذا الاستقلال كله عن حياتي ، يجب أن تنعكس حياتي في حياتهم ، وأن يعيشوا جميعا معي • » •

قرر الأمير آندره بعد عودته من رحلته أن يسافر في الخريف الى بطرسبرج ، وانتحل لهذا السفر أسباباً شتى • فكانت سلسلة كبيرة من الحجج العقلية والمنطقية مهياً في ذهنه للتدليل على ضرورة سفره الى بطرسبرج بل على ضرورة دخوله في خدمة الدولة أيضاً • حتى لقد أصبح لا يفهم كيف أمكنه يوماً أن يشك في لزوم المشاركة في الحياة ، كما كان قبل شهر واحد لا يستطيع أن يفهم أن تخطر بباله فكرة ترك الريف • أصبح يعتقد أن كل تجربة الحياة التي حصلها لا بد أن تضع وأن تموت اذا هو لم يطبقها تطبيقاً عالياً ، ولم يعد الى المشاركة الفعالة في الحياة • حتى لقد أصبح لا يفهم كيف أمكنه أن يتصور في الماضي ، بالاستناد الى خجج ضعيفة وأدلة واهنة ، أنه يخفض قدره وينزل بقيمته اذا هو آمن من جديد ، بعد دروس الحياة ، بأن في وسعه أن يكون نافعا ، وبأن في وسعه أن يلقي السعادة وأن يجد الحب • ان المنطق يوحي اليه الآن بشيء مختلف عن هذا كل الاختلاف • فبعد تلك الرحلة لم يلبث أن سئم من الريف ، وصارت مشاغله السابقة لا تشوقه ، وصار اذا خلا الى نفسه في مكتبه يقوم كثيرا الى المرأة ، ويأخذ ينظر في وجهه مليا ، ثم ينقل بصره الى صورة ليزا التي كانت تنظر اليه من

اطارها نظرة حنان وحب وفرح ، وقد رفعت خصل شعرها « على طريقة الاغريق » .

لقد كمت الآن عن مخاطبة زوجها بتلك الكلمات الرهيبة التي كانت توجهها اليه من قبل ، وانما هي تكتفي بالنظر اليه مرحة فرحة مستطلعة . وكان الامير آندره يجعل يذرع الغرفة مدة طويلة ، جاعلاً يديه وراء ظهره ، فتارة يكون عابس الوجه ، وتارة يكون مبتسماً يحرك في ذهنه تلك الخواطر التي لا يسهل على المرء أن يعقلها ، ولا يستطيع أن يعبر عنها بألفاظ ، وتظل مستترة مستخفية كالجريمة ، وهي خواطر تتصل ببطرس ، وبالمجد ، وبالفتاة مالت خارج النافذة ، وبالسنديانة ، وبجمال المرأة ، وبالحب ، وبغير ذلك مما كان قد بدّل حياته وأحالتها . فاذا اتفق أن دخل عليه في تلك اللحظات أحد ، ألفاه جافاً ، قاسياً ، قاطعاً ، باتاً ، ولا سيما مزعجاً بشدة اعتماده على المنطق ، واكتفائه به .

وكانت الاميرة ماريا تدخل عليه أحيانا فتقول له :

— عزيزي ، ان الصغير نيقولا لا يمكن أن يتنزه اليوم ، فالجو بارد جدا .

فاذا هو يجاوب اخته بلهجة جافة خشنة :

— لو كان الجو حاراً لخرج بقميص ، أما وأن الجو بارد فيجب إلباسه ثياباً تدفئه اخترعت لهذا الغرض . هذا ما توجه برودة الجو ، ولا توجب برودة الجو أن يثحبس الولد في البيت مع حاجته الى الهواء

بذلك كان الامير آندره يردّ معتمداً على منطق جامد جموداً شديداً ، كأنما ليعاقب أحداً على هذا الشيء الذي يحدث في أعماق نفسه مستترا لا منطق فيه . فكانت الاميرة تقول لنفسها في مثل تلك اللحظات أن عمل الدماغ يُبيّس الانسان .

الفصل الرابع

وصل الامير آندره الى بطرسبرج في شهر آب (أغسطس) سنة ١٨٠٩ ؛ كان ذلك هو العهد الذي بلغ فيه الشاب سبيرانسكي^(١) قمة مجده ، وكان في اصلاحاته يبرهن على طاقة كبيرة ومقدرة فائقة . وفي ذلك الشهر كان الامبراطور قد انقلب فجرحت رجله ، فقضى ثلاثة أسابيع ببطرسبرج كان في أثناءها يرى سبيرانسكي دون سائر الناس كلَّ يوم تقريبا . وفي ذلك الآوان كان يهيئ القانونان اللذان أقلقا الناس كثيرا ، وهما القانون الخاص بالغاء رتب البلاط^(٢) ، والقانون الخاص بالامتحانات التي تؤهل للحصول على الدرجة الثامنة والدرجة الخامسة في الوظائف المدنية ، بل كان يهيئ كذلك دستور كامل من

(١) ميخائيل ميخائيلوفتش سبيرانسكي (١٧٧٢ - ١٨٢٩) ، ابن كاهن ، كان استاذاً ، ثم ظهر أنه رجل دولة فذ ، عين سكرتير دولة سنة ١٨٠١ بفضل الكونت كوتشوباي ، وأعد قوانين لبرالية ومشروعا واسعا لدستور . وقد اتهم بأنه يدعم نابوليون فنفي سنة ١٨١٢ ، ثم عين حاكما لمقاطعة بئزا ، فحاكما عاما لسيبيريا الشرقية سنة ١٨١٩ ؛ وقد رجع الى العاصمة سنة ١٨٢١ ، فراس « لجنة التشريع » ، ولكنه لم يسترد ما كان له على الاسكندر الاول من نفوذ .

(١) ان تولستوي لا يعبر هنا تبعبرا دقيقا ، فان رتب البلاط لم تلغ الغاء ، وانما أصبحت لافترض لحاملها مرتبا أو مكافاة ، فهي رتب شرفية أو فخرية .

(٢) بمبادرة من سبيرانسكي ، أصبح الانتقال الى الدرجة الثامنة الى الدرجة الخامسة في الوظائف المدنية بالدولة انما يكون بامتحان .

شأنه أن يقلب النظام القضائي والاداري والمالي القائم رأسا على عقب ،
ابتداء بمجلس الدولة وانهاء بالسلطات في المقاطعات (١) . في ذلك
الآوان انما كانت تتحقق الاحلام اللبرالية الغامضة وتتجسد ، وهي
الاحلام التي اعتلى الامبراطور الاسكندر عرش روسيا حاملا لها ،
والتي حاول أن يحققها بمساعدة معاونيه حينذاك ، وهم كزارستوريسكي ،
ونوفوسيلتوف ، وكوتشوباي ، وستروجانوف ، الذين كان يسميهم
مازحا باسم « لجنة السلامة العامة » .

والآن حلَّ سيرانسكي محلهم جميعا في الشئون المدنية ،
وآراكتشايف في الشئون العسكرية . ولم ينقض على وصول الامير
آندره زمن قصير حتى ظهر في البلاط وفي اللقاءات العامة التي يقيمها
الاسكندر من حيث أنه كان حاجبا للامبراطور . وقد صادفه الامبراطور
مرتين ، فلم يشرِّفه بتوجيه كلمة واحدة اليه . وكان الامير آندره يحس
منذ زمن بعيد أن الامبراطور لا يستلطفه وأنه لا يستحب وجهه ،
ويضيق بشخصه كله . فكان من شأن النظرة الجافة المتحفظة التي رمقه
بها الامبراطور أن عززت احساسه مزيدا من التعزيز . وقد حاول رجال
البلاط أن يعللوا له هذه البرودة بأن صاحب الجلالة قد ساءه أن يراه
بعيدا عن كل عمل منذ عام ١٨٠٥ .

فكان الامير آندره يقول لنفسه : « أنا أعلم أننا لسنا نتحكم بما
نشعر به من عواطف المودة والنفور ، فلا يجب أن أفكر اذن في أن

(١) لقد اعد سيرانسكي خطة واسعة لنظام برلماني لأي مجلسين : مجلس الدولة الذي
دشن في اول كانون الثاني (يناير) سنة ١٨١٠ ، ومجلس النواب الذي لم يكتب
له أن يعنى الى بعد قرن من الزمان ، أي سنة ١٩٠٩ .

أتولى بنفس تقديم مذكرتي عن النظام العسكري الى الامبراطور ،
ولكن فكرتي ستجد سبيلها اليه من تلقاء ذاتها » . وأرسل الى صديق
من أصدقاء أبيه هو شيخ برتبة فيلد مارشال ، فحدد له الفيلد مارشال
موعدا ، واستقبله باشا مرّحبا ، ووعده بأن يعرض الامر على
الامبراطور . فما انقضت بضعة أيام حتى أُبلغ الامير آندره بأن عليه
أن يذهب الى وزير الحرب ، الكونت آراكشاييف .

ففي الساعة التاسعة من الصباح ، وهو الموعد المحدد ، دخل
الامير آندره الى صالون الاستقبال الملحق بمكتب الكونت آراكشاييف .
ان الامير آندره لا يعرف الكونت آراكشاييف معرفة شخصية ،
ولا رآه في يوم من الايام ، ولكن كل ما كان يعلمه عنه كان لا يجعله
يحترم هذا الرجل كثيرا .

قال محدثا نفسه وهو ينتظر في الصالون مع عدد كبير من الاشخاص
المتفاوتة أقدارهم : « انه وزير الحرب ، وهو يحظى بثقة صاحب
الجلالة . فليس لاحد أن يشغل باله بمزاياه الشخصية ، وقد عهد
اليه بدراسة مذكرتي ، فهو اذن الشخص الوحيد الذي يمكن أن يضعها
موضع الاعتبار . » .

وكان الامير آندره ، أثناء تقلبه في وظائف شتى ، ولا سيما أثناء
عمله ضابطا مرافقا ، قد رأى عددا كبيرا من غرف الانتظار الملحقة
بمكاتب شخصيات كبيرة ، وكان يعرف السمات التي تتميز بها هذه
الغرف كل المعرفة . ولكن صالون الاستقبال الملحق بمكتب الكونت
آراكشاييف كان له طابع خاص جدا .

إن الأشخاص الذين ليسوا من أصحاب الشأن الخطير ممن كانوا

ينتظرون أن يجيء دورهم لمقابلة الكونت كانت رؤوسهم مخفوضة وهيئاتهم مضطربة • والذين يفوقونهم رتبة كانوا يخفون هذا الارتباك نفسه تحت ستار من الانطلاق المصنوع ، والتندر على أنفسهم وعلى مراكزهم ، وعلى الرجل الذي ينتظرون أن يستقبلهم • وكان بعضهم يتمشى في الصالون واجبا مفكرا ، وكان بعضهم يتهامس حتى لقد سمع الامير آندره لقب « سيلا آندريتش »^(١) ، وسمع قول أحدهم لصاحبه « سيكر الرجل رأسك كسرا ، ويريك ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ! » ، قاصدا بذلك الكونت آراكشاييف • وكان في الصالون جنرال (شخصية عالية المقام) قد أزعجه ازعاجا واضحا أن يضطر الى الانتظار مدة طويلة هذا الطول كله ، فكان يضع إحدى ساقه على الأخرى ثم ينزلها وهو يتسم ابتسامة فيها احتقار •

ولكن هذه الوجوه كلها كانت متى فُتح الباب لا تعبر الا عن شيء واحد ، هو الخشية • وطلب الامير آندره من ضابط الخدمة أن يبلغ عنه مرة ثانية ، ولكن ضابط الخدمة نظر اليه نظرة ساخرة وأجابه بأن دوره سيجيء • وبعد أن أدخل الضابط المرافق الى مكتب الوزير عدة أشخاص ثم أرجعهم ، أوما الى ضابط تعبر هيئته عن الذل والرعب ، وأدخله الباب الرهيب • لم تطل مقابلة الضابط ، فما هي الا برهة حتى سُمعت من وراء الباب انفجارات صوت مزعج ، ثم اذا بالضابط يخرج شاحب اللون ، مختلج الشفتين ، ويجتاز صالون الانتظار واضعا رأسه في يديه •

(١) سماه « سيلا آندريتش » بدلا من أن يسميه باسمه وهو الكسي آندريتش . وذلك فكاهة قائمة على جناس لفظي فاسم سيلا ، وهو اسم نادر ، معناه « صامت » ، وكلمة « سيلا » معناها قوة .

وجاء بعده دور الامير آندره ، فمدد ضابط الخدمة قائلاً له :
« على اليمين ، بقرب النافذة » •

فدخل الامير آندره ، فاذا هو يجد نفسه في غرفة بسيطة نظيفة ،
قد جلس الى مكتبها رجل في نحو الاربعين من عمره ، طويل الجذع ،
طويل الرأس ، قصَّ شعره قصيرا ، وتخذد وجهه بغضون كبيرة ،
وتقطب حاجباه فوق عينين لا تعبران عن شيء ، تضرب سمرتھما الى
اخضرار ، وله أنف أحمر متهدل •

قال يسأل :

— ماذا تطلب ؟

فأجابه الامير آندره برصانة ووقار :

— لا ... لا أطلب شيئاً يا صاحب السعادة !

فالتفت آراكتشايف بعينه اليه • وقال :

— اجلس يا أمير بولكونسكي •

قال آندره بولكونسكي :

— أنا لا أطلب شيئاً ، ولكن الامبراطور تفضّل فأحال الى سعادتك

مذكرة قدمتها ...

فقاطع آراكتشايف بلهجة لم تكن لطيفة الا في الكلمات الاولى

التي قالها :

— اسمع أيها العزيز جدا ، لقد قرأت مذكرتك

وعاد يتكلم لا ينفك يزداد فيها معنى التأنيب والاحتقار ، فقال وهو

لا ينظر اليه :

— انك تقترح قوانين عسكرية جديدة ، أليس كذلك ؟ فاعلم أن

القوانين القديمة كثيرة جدا ، وهي أكثر من أن يمكن تطبيقها • جميع الناس في هذا الزمان يكتبون مشاريع قوانين • ما أسهل الكتابة وما أصعب العمل !

قال الامير آندره بلهجة مهذبة :

— جئت تلبية لامر من صاحب الجلالة لاعرف ما الذي تنوي أن تفعله بصدد مذكرتي •

فقال آراكشاييف وهو ينهض ويتناول من على مكتبه ورقة :

— أبديت رأيي في مذكرتك ، وكتبته عليها ، وأحلتها الى اللجنة •
انني لا أؤيدها • خذ •
ومدّ اليه الورقة •

كانت الورقة تحمل الكلمات التالية مكتوبة بالعرض ، بالقلم الرصاص ، من غير أحرف كبيرة تستهل بها الجملة ، ومن غير تقيد بقواعد الاملاء ، ومن غير استعمال للنقاط والفواصل : « لا تقوم على أساس منقولة عن النظام العسكري الفرنسي تنأى عن النظام المطبق بدون فائدة » •

سأله الامير آندره :

— الى أية لجنة أحيلت هذه المذكرة ؟

— الى لجنة النظام العسكري ، وقد اقترحت أن تكون سيادتكم عضوا فيها ، ولكن من غير مرتب •

فابتسم الامير آندره ، وقال :

— لا أريد مرتبا •

فكرر آراكشاييف قوله :

— بدون مرتب • تشرفت • هيه • الذي بعده ! من هناك أيضا ؟

كذلك صاح ويحيي الامير آندره •

الفضل الخامس

انتظر الامير آندره أن يبلغ أنه عين عضوا في اللجنة . وفي أثناء ذلك جدد عقد صلات قديمة ، ولاسيما بأشخاص يعلم أن لهم سلطة ونفوذا ، وانه قد يحتاج اليهم وينتفع بهم . انه الآن في بطرسبرج يشعر بما يشبه الشعور الذي كان يلا نفسه عشية المعارك ، حين كان يستبد بنفسه حب الاطلاع قلقاً أشد القلق ، وحين كانت الدوائر العليا تجتذبه اجتذاًبا لا يملك ان يقاومه ، اعني الدوائر التي يتهيأ فيها المستقبل الذي يتوقف عليه مصير ملايين البشر . وكان يحس من ملاحظة حق الشيوخ ، وفضول غير المطلعين ، وتحفظ المطلعين ، واستعجال الناس كافة ، واشغال بال الجميع ، وتكاثر اللجان والمجالس التي يعلم بتشكيلها كل يوم ، معركة مدنية واسعة تنهي في سنة ١٨٠٩ هذه ، هنا بيطر سبرج وهي معركة قائدها العام شخص لا يعرفه هو ، شخص محفوف بالسر يبدو له أنه امرؤ عبقري . ان هذا الرجل هو سبيرانسكي . وقد بلغ الامير آندره من شدة الشغف بقضية الاصلاحات التي كان لا يعرفها الا معرفة ناقصة ، وبلغ من فرط الولوع بأمر سبيرانسكي صاحب هذه الاصلاحات ، انه مسألة النظام العسكري سرعان ما صارت في المقام الثاني من اهتماماته .

وكانت ظروف الامير آندره تهيئه احسن تهيئة لان تستقبله شتى

الحلقات وارفع الحلقات في المجتمع البطر سبرجي العالي . فكان حزب
الاصلاحات يستقبله استقبالا مفعما بالمودة ، ويتقرب اليه ، اولاً لانه
اشتهر بأنه رجل ذكي واسع الثقافة ، وثانياً لانه بتحريره فلاحيه قد ذاع
صيته وعرف بأنه لبرالي . وكان حزب الشيوخ المستائين يحاولون ان
يجدو فيه حليفا لهم بحكم انه ابن ابيه ، حليفا يشاطرهم استنكارهم
للاصلاحات . وكانت النساء ، أي المجتمع الراقي ، تفتح له ابوابها
على مصاريعها ، اولاً لانه شاب مرشح للزواج يملك ثروة طائلة ويحمل
لقباً ممتازاً ، ولانه وجه شبه جديد تحف به هالة المغامرات التي وقعت
له والتي تشبه ان تكون احداث رواية من الروايات ، كشيوع نبأ موته
قتيلاً في الحرب ، وكأنها نهاية الحزينة التي ختمت بها حياة زوجته . زد
على ذلك ان جميع الذين عرفوه من قبل كانوا مجمعين على الاعتراف
بأنه في خلال هذه السنوات الخمس قد تبدل تبديلاً طيباً ، فرق طبعه
ولانت عريكته ونضج فكره ، وان ما كان يتصف به في الماضي من تصنع
وزهو وميل الى السخرية قد زال وحل محله هذا الهدوء الذي يكتسبه
الانسان حين يتقدم في السن . كان الناس يتكلمون عنه ، ويهتمون
به ، وكان جميع الناس يريدون ان يروه .

في غداة زيارته للكونت آراكشاييف ، ذهب الامير آندره الى
الكونت كوتشوباي (١) يقضي السهرة في بيته . وقص على الكونت
ماجري بينه وبين « سيليا آندريتش » (بهذا الاسم كان كوتشوباي
يسمى صاحبنا آراكشاييف ، تسمية مشوبة بتلك السخرية الغامضة

(١) فيكتور كوتشوباي (١٧٦٨ -) ، صديق شباب الاسكندر الاول ، وزير للداخلية
من سنة ١٨٠٢ الى سنة ١٨٠٧ . من اصحاب الاملاك البراليين .

نفسها التي لاحظها الامير آندره في قاعة الانتظار الملحقة بمكتب وزير
(الحرب) •

قال كوتشوباى للامير آندره :

— يا عزيزي ، حتى في هذه القضية لاتستطيع الاستغناء عن
ميخائيل ميخائيلوفتش • هو الصانع الكبير • سأكله في الامر وقد
وعد بأن يجيء هذا المساء ...

سأل الامير آندره الكونت كوتشوباى :

— كيف تكون الانظمة العسكرية امرا يخص سيرانسكى ،
فيحال هذا الامر اليه ؟

فهب كوتشوباى راسه مبتسما ، كالمندهش من سذاجة بولكونسكى
وتابع كلامه يقول :

— تكلمنا عنك في هذه الايام ، وتكلمنا عن مزارعك الاحرار ...
فانبرى شيخ من عهد كاترين يسأل بولكونسكى ملتفتا اليه بهيئة
تدل على الاحتقار :

— ها ... اذن انت الذي حررت فلاحيك يا امير ؟
فأجاب بولكونسكى حتى لا يغيظ الشيخ بغير فائدة ، وحتى يخفف
في نظره فداحة عمله :

— هي أرض صغيرة كانت لاتدر ربحا !

قال الشيخ وهو ينظر الى كوتشوباى :

— تخشى أن تعد متخلفا •

وتابع كلامه يقول :

— هناك شيء لا افهمه • من عسى يفلح الارض •

إذا نحن حررناهم ؟ ان وضع القوانين سهل ، والحكم هو الصعب
قل لي مثلاً يا كونت :

من أين يؤخذ رؤساء المكاتب اذا كان على جميع الناس ان يتقدموا
الى امتحانات ؟

أجاب كوتشوباي وهو يضع ساقاً على ساق ، ويلقي بصره حواليه :

— يؤخذون من بين الناجحين في الامتحانات فيما أتخيل .

— اليك هذا المثال : ان في مكاتي رجلاً يقال له برياتشنيكوف .
هو رجل شهم ، بل هو كنز حقا . ولكنه عمره ستون سنة ، فهل عليه
اذن ان يتقدم الى امتحانات ينجح فيها ؟

أجاب الكونت كوتشوباي :

— هذه صعوبة طبعاً ، ولا سيما أن التعليم قليل الانتشار جداً ،

ولكن ...

لم يكمل الكونت كوتشوباي جملته ، بل قام وامسك ذراع الامير
آندره ومضى يستقبل قادماً جديداً فارع الطول ، أشقر ، اصلع الرأس
طويل الوجه ، أبيض بياضاً عجيباً خارقاً ، يرتدي فراكاً أزرق ، ويتوشح
عنقه بوسام ، ويزدان صدره برصيعة . انه سيرانسكي . وسرعان ما
حزر الامير آندره انه سيرانسكي فأحس باحتياج في نفسه ، كما يحدث
ذلك للمرء في اللحظات الخطيرة من حياته . ان لشخص سيرانسكي
كله طابعاً خاصاً اصيلاً سرعان ما يتعرفه الانسان به . لم يكن الامير
آندره قد عرف في أحد من أبناء البيئة التي عاش فيها ، رجلاً اجتمع
له هذا الهدوء كله وهذه الثقة كلها ، وهذه الخراقة كلها في الحركات

والاشارات معا . ولم يكن قد رأى في أحد نظرة اجتمع لها كل هذا الثبات وكل هذه الرقة في عينين نصف مغمضتين ، مخضلتين قليلا ، ولم يكن قد رأى في احد صلابة كهذه الصلابة في ابتسامة لاتعبر عن شيء ، وصوتاً يبلغ هذا المبلغ من النحول والتساوي والهدوء ، ولم يكن قد رأى في أحد بياضا لطيفا هذا اللطف كله في الوجه ولاسيما في اليدين ، وهما يدان عريضتان لكنهما تبلمان من الرقة والامتلاء والبياض شيئا خارقا لم يكن قد رأى هذا البياض وهذه الرقة في الوجه الا لدى جنود بعد أن اقاموا اقامة طويلة في المستشفى . ذلك كان سيرانسكي ، سكرتير الدولة ومستشار الامبراطور ومرافقه في ايرفورت حيث كلم نابوليون غير مرة .

لم تنتقل عينا سيرانسكي من شخص الى آخر ، كما يفعل المرء بغير ارادة منه حين يدخل على جماعة كبيرة العدد ، ولم يتعجل المبادرة الى الكلام . وكان يتحدث بصوت خافت ، واثقا ان الاذان تصغي اليه ، وكان لا ينظر الا الى الشخص الذي يتجه اليه بالمخاطبة .

اتتبه الامير آندره اتبهاها شديداً الى كل كلمة قالها سيرانسكي والى كل حركة صدرت عنه . وكما يحدث خاصة لأولئك الذين اعتادوا ان يصدروا في حق غيرهم حكما قاسيا اذا هم التقوا رجلا جديدا ، مثل سيرانسكي خاصة ، لا يعرفونه الا من سمعته وشهرته ، فقد كان الامير آندره يتوقع ان يجد في سيرانسكي جميع الفضائل الانسانية وهي في ذروة كمالها .

قال سيرانسكي للكونت كوتشوباوي انه يؤسف انه وصل متأخرا بعض التأخر لانه احتجز في القصر . لم يقل ان الامبراطور هو الذي

احتجزه . فلاحظ الامير آندره كذلك اصطناع التواضع هذا . وحين عرفه كوتشوباي بالامير آندره ، رفع سيرانسكي عينيه اليه في بطء مبتسما ابتسامته نفسها ، ونظر اليه صامتا . ثم قال :

— يسعدني ان اعرفك ، فقد سمعت عنك كما سمع عنك جميع الناس .

واشار كوتشوباي بوضع كلمات الى الاستقبال الذي استقبل به أراكشاييف الامير بولكونسكي ، فازداد تبسم سيرانسكي ، وقال مبررا كل مقطع وكل كلمة من جملته ابرازا واضحا :

— ان مدير « لجنة الانظمة العسكرية » ، ماجنتسكي^(١) ، وآمل أن تجد لديه التعاطف وحب المعاونة في تحقيق كل ما هو معقول .

واحتشدت حول سيرانسكي حلقة ، وألقى عليه الشيخ الذي سبق أن تكلم عن مرعوسه بريانتشيكوف ، ألقى عليه سؤالا أيضا .

كان الامير آندره لا يشارك في الحديث ، وانما هو يلاحظ جميع ما يصدر عن حركات عن سيرانسكي، هذا الرجل الذي كان منذ وقت قصير طالبا في مدرسة كهنوتية ، فاذا هو الآن يقبض بيديه البيضاء السمينتين على مصير روسيا . وقد خطف بصر الامير آندره ما رآه من هدوئه الخارق المزدرى الذي ظهر في جوابه عن سؤال الشيخ . كان كمن يساقط كلامه من عل متنازلا أكبر التنازل . فلما رفع الشيخ صوته كثيرا ،

(١) ميخائيل . ليونتييفتش ماجنتسكي (١٧٧٨ - ١٨٥٥) ، ابن كاهن ، كان في بداية بزوغ نجمه معارضا لسيرانسكي ، ثم نفي هو ايضا سنة ١٨١٢ (نفي الى فولوجدا) ، ورجع من النفي سنة ١٨١٦ ، وانتقل الى صفوف الرجعية وعين سنة ١٨١٩ قيما على جامعة قازان ، فخلق فيها كل فكر لبرالي .

ابتسم سيرانسكي وقال انه ليس بالقاضي يحكم على مزايا وعيوب ما
يقرره الامبراطور •

وبعد أن شارك سيرانسكي زمنا في الحدث العام قام من مكانه
وأقبل على الامير آندره ، فأمسك يده واقتاده الى الطرف الآخر من
الغرفة • كان واضحاً انه يعتقد بضرورة الاهتمام بالامير بولكونسكي •
— لم أتمكن من أن أكلسك ، يا أمير ، في وسط تلك المناقشة الحامية
التي جرّني اليها ذلك الشيخ المحترم ...

قال سيرانسكي ذلك للامير آندره وهو يتسم ابتسامة تحمل معنى
التسامح والازدراء ، فكأنه بهذه الابتسامة يعترف بأنه والامير آندره
يدركان تفاهة هؤلاء الناس الذين كان يحدثهم • فكان من شأن هذا
أن أرضى الامير آندره عن نفسه • وتابع سيرانسكي كلامه فقال :

— أعرفك منذ مدة طويلة : أعرفك أولاً بما صنعت لفلاحيك • لقد
ضربت أول مثل يتمنى المرء أن يقتدي به آخرون كثيرون • وأعرفك
ثانياً أحد قلة قليلة من حجاب الامبراطور الذين لم يسؤهم القانون الجديد
الخاص بوجهاء البلاط ، وهو قانون أثار كثيراً من المناقشات والتعليقات
قال الامير آندره :

— نعم ، لم يشأ أبي أن أستفيد من ذلك الحق ، فتابعت الاجراءات
القانونية •

— لاشك أن السيد أباك ، وهو من رجال الزمان لقديم ، يفوق
معاصرينا هؤلاء الذين ينتقدون هذا الاجراء ، وهو اجراء لايزيد على
اعادة قيام العدالة الطبيعية •

قال الامير آندره وكان يحاول أن يقاوم ما أخذ يحس به من تأثير سيرانسكي فيه وثقوده عليه :

— أظن مع ذلك أن هذه الانتقادات لاتخلو من أساس تقوم عليه .
كان يسوء الامير آندره أن يوافق سيرانسكي في كل أمر ، فأراد أن يعارض رأيه . لكنه وهو المعروف بسهولة الكلام وطلاقة اللسان ، يشعر الآن بشيء من الصعوبة في التعبير . ذلك أنه كان منصرفاً بكل نفسه الى ما يرصده ويلاحظه في شخص هذا الرجل الشهير .

أجابه سيرانسكي قائلاً بركة ولطف :

— ربما كان الاساس الذي تقوم عليه هذه الانتقادات هو ارضاء الطمع الشخصي ...

فقال الامير آندره :

— وربما كان الرغبة في تحقيق مصلحة الدولة أيضا . فسأله سيرانسكي برفق وهو يخفض عينيه :

— كيف تتصور الامر ؟

فأجاب الامير آندره قائلاً :

— أنا معجب بموتسكيو . والفكرة التي يذهب اليها موتسكيو ، وهي أن مبدأ الملكيات الشرف ، تبدو لي صحيحة لا يمكن جحودها . وهناك حقوق وامتيازات تتمتع بها الطبقة النبيلة يبدو لي أنها وسائل تعزز عاطفة الشرف هذه .

زايلت الابتسامة وجه سيرانسكي الابيض ، واكتسبت محياه من ذلك جمالا كثيرا . لابد أن فكرة الامير آندره قد بدت له هامة شائقة .

وبدأ يتكلم فقال بهدوء شديد ، رغم أنه تكلم بالفرنسية ضيقاً بذلك
ضيقة واضحة ، بطيئاً في النطق بطأً يزيد على بط نطقه حين يتكلم
بالروسية :

— اذا كنت تنظر الى الامر من هذا الجانب ... ومضى يشرح
بحجج بسيطة موجزة واضحة أن الشرف لا يمكن أن تعززه امتيازات
تضر بحسن سير الامور ، وأوضح أن الشرف ليس الا التعبير السلبي
عن فكرة الامتناع عن أعمال توجب العقاب أو هو أيضا محرض يدعونا
الى اكتساب الرضى عنا أو جنى المكافآت التي تعبر عن هذا الرضى .
ثم قال :

— وان خير نظام يحقق هذا الهدف هو النظام الذي أنشأه الامبراطور
العظيم نابوليون : أعني وسام جوقة الشرف . فهذا النظام لا يسيء الى
حسن سير العمل ، بل يحسن اليه دون أن يكون امتيازاً لطبقة أو امتيازاً
لرجال البلاط .

— قال الامير آندره :

— لا أمجد هذا ولا أماري فيه ، ولكن المرء لا يستطيع أن ينكر
أن امتيازات البلاط تبلغ هذا الهدف نفسه : فكل رجل من رجال البلاط
يعد نفسه مضطراً الى مراعاة مكاتته مراعاةً كريمة .

فقال سيرانسكي وهو يتسم ابتسامة يشير بها الى رغبة في انتهاء
المناقشة بهذه الجملة الودود اللطيفة ، وهي مناقشة بدأت تربك محدثه :
— ومع ذلك لم تشأ أنت أن تستفيد من هذه الامتيازات :
وأضاف قوله :

— شرفني بزيارة يوم الاربعاء . وسأكون في أثناء هذه المدة قد
رأيت ماجنتسكي ، وتحدثت معه ، فأستطيع أن أقول لك أشياء تهلك .
هذا عدا أنه سيسرني أن أتحدث معك مدة أطول .

وحياه مغمضا عينيه ، وتسلسل يخرج على الطريقة الفرنسية بدون أن
يودّع ، محاولاً أن يمر من غير أن يراه أحد .

الفصل السادس

أحس الأمير آندره في الاوقات الاولى من اقامته بيطرسبرج أن جملة الافكار التي تهيات في نفسه أثناء حياته معتزلاً بالريف قد طغى عليها وألقاها الى الظل ألف هم من الهموم الصغيرة التي استولت عليه منذ وصوله •

كان في المساء حين يرجع الى بيته يسجل أربع زيارات أو خمساً من الزيارات التي لا غنى له عن القيام بها ، والمواعيد التي حدد زمانها • وكان ترتيب حياته وتنظيم وقته على النحو الذي يجعله حاضراً بأمكنة شتى في أزمنة محددة، كان ذلك يستنفد الجزء الأكبر من طاقته وحيويته فكان لا يفعل شيئاً ، ولا يفكر في شيء أيضاً ، فليس في وقته لهذا متسع ، ولا يزيد على أن يتكلم عما أمكنه أن يفكر فيه من قبل في الريف ، فيجيد الكلام ، ويرع فيه •

وكان في بعض الاحيان يلاحظ مستاءً متعضاً أنه يحدث له في يوم واحد أن يكرر شيئاً واحداً في بيئات مختلفة • ولكن أيامه كانت تبلغ من الإمتلاء أن وقته لا يتسع لان يقول انفسه انه كان لا يفكر في شيء • وكما وقع له حين التقى سيرانسكي أول مرة عند كوتشوباوي ، فقد أحدث سيرانسكي في نفسه يوم زاره يوم الاربعاء التالي ، وجرى بينهما حديث على انفراد ، أحدث في نفسه أثراً قويا كل القوة •

كان الامير آندره يحكم على كثير من الناس بأنهم تافهون يستحقون الاحتقار وأنهم أصغار لا قيمة لهم ، وكان يتحرق شوقا الى أن يجد في رجل آخر ، المثل الاعلى الحي لذلك الكمال الذي كان يتوق اليه ، فلم يصعب عليه أن يجد في سيرانسكي ذلك المثل الاعلى للانسان الذي يتمتع بكمال العقل والفضيلة . ولو كان سيرانسكي ينتمي الى نفس العالم الذي ينتمي اليه بولكونسكي ، وكان قد نشأ نفس النشأة ، وتلقى نفس الثقافة ، وتلقى نفس التربية الاخلاقية ، لسرعان ما أمكنه أن يكتشف جوانبه الضعيفة ، الانسانية ، غير البطولية ، ولكن هذا الفكر المنطقي العجيب الذي يتمتع به سيرانسكي ، كان يوقظ في نفس الامير آندره احتراماً عظيماً على قدر عجزه عن فهمه فهما كاملاً . وكان سيرانسكي ، عدا ذلك ، اما لانه قدر كفاءات الامير آندره ، واما لانه ارتأى أن يجذبه اليه ويربطه به ، كان يبدي بحضوره كل ما ينعم به من ميزات التفكير الهادى الخالي من التحيز ، وكان يتملقه ذلك التملق البارع الذي يمازجه غرور ، وهو الاعتراف ضمناً بأن محدثه هو الرجل الوحيد القادر على أن يدرك غباء الآخرين جميعاً ، ويدرك ما تتصف به أفكارهما ، هما الاثنين ، من حكمة وعمق .

ففي أثناء الحديث الطويل الذي جرى بينهما مساء الاربعاء ، قال سيرانسكي غير مرة :

« الناس في بلادنا نحن يعدون كل ما يتجاوز مستوى العادة الراسخة ويعلمون عليه ... » أو قال وهو يتسم : « ولكننا نحن نريد ألا تجوع الذئاب ، بشرط ان تبقى الخراف سليمة لم يمسسها سوء » ، أو قال : « هم لا يستطيعون أن يدركوا هذا ... » . وكان سيرانسكي يقول

هذا الكلام بلهجة تريد أن تقول : « نحن ، اي أنا وأنت ، نعرف من هم ومن نحن » •

فكان من شأن هذا الحديث الطويل أن عزز في نفس الامير آندره ذلك الاحساس الذي تركه سيرانسكي في نفسه أول مرة ، فرأى فيه رجلا يملك عقلا منطقيا رجا ، ودقة صارمة في التفكير ، وأنه ما وصل الى السلطة الا بفضل قوة طاقته وشدة دأبه ، وأنه لا يستعمل هذه المقدرات الا في خدمة روسيا ومن أجل تحقيق الخير لها ، ورأى فيه الرجل الذي كان يتسنى هو أن يكونه ، الرجل الذي يخضع لمحك العقل جميع ظواهر الحياة ، الرجل الذي لا قيمة في نظره الا لما هو مطابق للنقل ، والذي يعرف كيف يزن بيزان العقل كل شيء •

بدت له جميع الآراء التي عرضها سيرانسكي بسيطة كل البساطة واضحة كل الوضوح ، فلم يملك ، رغم ارادته ، الا ان يوفقه على كل شيء • فاذا اعترض عليه أو ناقشه ، فهو لا يعترض ولا يناقش الا ليرهن على استقلاله ، ومن أجل أن لا يخضع بغير شيء من المقاومة •

شيء واحد كان يث الاضطراب في نفس الامير آندره ، هو هذه النظرة الباردة برودة المرأة لا تحس ولا تتيح للمرء ان ينفذ الى نفس صاحبها ، وهذه اليد البيضاء السمينة التي كان الامير آندره ينظر اليها رغم ارادته كما ينظر في العادة الى أيدي أولئك الذين في أيديهم زمام السلطة • ان هذه النظرة الباردة برودة امرأة ، وهذه اليد الناعمة توربان حنق الامير آندره دون أن يعرف لماذا ! وقد صدمه أيضا هذا الافراط في شدة احتقار الناس لدى سيرانسكي ، وهذا التنوع في الادلة التي

بيديها والخجج التي يسوقها في تأمين أقواله ودعم آرائه . كان سيرانسكي يستعمل جميع أساليب الاستدلال والبرهان ، باستثناء المقارنة ، وكان يبدو للامير آندره أنه ينتقل من أسلوب الى أسلوب مسرفا في الجرأة لا يتهيب . فهو يقف على أرض الواقع العملي معرضا بالحالين ، لائما لهم ، وتارة أخرى يلجأ الى هجاء خصومه والتهمك عليهم ، والاستهزاء بهم ، وهو تارة يلتزم المنطق الصارم ، وتارة يرتفع فجأة الى أفق الميتافيزيقا . وكان يجب هذه الصورة الاخيرة من صور الاستدلال والبرهان جبا خاصا ، فيرتفع بالمسألة الى ذرى ميتافيزيقية منتقلا الى الكلام على تعريفات المكان والزمان والفكر يستمد منها دحضا لرأي من الاراء ثم يعود يهبط الى أرض المناقشة .

الخلاصة أن السمة الاساسية التي خطفت بصر الامير آندره في عقل سيرانسكي أكثر من سائر ما عداها ، هي هذا الايمان المطلق الذي لا يتزعزع بما للعقل من قدرة وحقوق . وكان واضحا أن جميع الشكوك التي خامرت نفس الامير آندره . لا يسكن أن يكون سيرانسكي قد ساوره منها شيء البتة : فهو لم يتساءل يوما هل يحسن بالمرء أن لا يفصح عن كل ما يفكر فيه ، وهو لم يخطر بباله يوما أن يرتاب في صحة ما يفكر فيه ويؤمن به . وكانت هذه السمة الخاصة التي يمتاز بها فكره هي ما فتن الامير آندره أكثر من أي شيء آخر .

لقد محض الامير آندره في بداية علاقاته بسيرانسكي ، محضه اعجابا مشبوبا شبيها بالاعجاب الذي حصله في الماضي لنابليون بونابرت . ولئن كان الحمقى من الناس قد اتخذوا من كون سيرانسكي سليل أسرة كهنوتية حجة للتهوين من شأنه ولتحقيقه ، فنعتة كثير منهم بأنه « فأر كنيسة » ، وبأنه « بذرة قس » ، فإن ذلك كان يدعو الامير آندره الى المحافظة على العواطف التي يحملها له سليمة لم يمسخها سوء ، بل

كان يزيد هذه العواطف حرارة وحماسة •

وفي أثناء تلك السهرة الاولى التي قضاها معه ، جاء ذكر « لجنة التشريع » فقال له سيرانسكي ساخرا : ان هذه اللجنة موجودة منذ خمسين عاما ، وانها كلفت الملايين ولم تفعل شيئا ، وان روزنكايف لم يزد على أن وضع لجميع مقالات التشريع المقارن بطاقات ألصقها بها • وختم سيرانسكي كلامه بقوله :

— تلك هي الشررة التي انفقت الدولة من أجلها ملايين • اننا نريد أن نهب لمجلس الشيوخ سلطة قضائية جديدة وليس عندنا قوانين • لذلك أقول لك يا أمير انها لجريفة في الوقت الراهن أن يتنحى عن العمل رجال مثلك !

فقال الامير آندره ان هذا العمل يتطلب ثقافة حقوقية وتخصصا في القانون لا يملكهما •

فأجابه سيرانسكي بقوله :

— ولكن أحدا لا يملك هذه الثقافة الحقوقية وهذا التخصص في القانون • فماذا تريد ؟ ان علينا أن نكسر هذه الحلقة المفرغة بجهد نبذله • وبعد ثمانية أيام سمي الامير عضوا في لجنة النظام العسكري » ، وندب كذلك لامر ما كان ليتوقعه قط ، هو رئاسة شعبة في « لجنة التشريع »^(١) • وقد تولى بطلب من سيرانسكي اعداد الجزء الاول من القانون المدني مستعينا بقانون نابوليون وقانون جوستتيان ، وعمل في كتابة الفصل الخاص بحقوق الافراد •

(١) كانت روسيا طوال القرن الثامن عشر يحكمها القانون المدني المسمى باسم الكسي ، ويرجع عهده الى سنة ١٦٤٩ ، وتحكمها آلاف من القرارات الامبراطورية المتناقضة في كثير من الاحيان . وقد اخفقت المحاولة التي قامت بها كاترين الثانية سنة ١٧٦٩ لوضع قانون مدني جديد ، فحاول سيرانسكي أن يمهز روسيا بقوانين حديثة مستلزمة من التشريع النابوليوني خاصة . وقد أجهضت هذه المحاولة سنة ١٨١٢ ، ثم لم يشرع سيرانسكي في تحرير مجموعة قوانين الامبراطورية الروسية الا سنة ١٨٢٦ ، وهي التي نشرت سنة ١٨٣٥ ، وكانت أميل كثيرا الى روح المحافظة التي فرضها نيقولا الاول •

الفصل السابع

في سنة ١٨٠٨ ، أي قبل سنتين ، حين رجع بطرس من رحلته الى أراضيهِ ، وجد نفسه رئيسا للماسونية البطرسبرجية دون أن يتوقع هذا . فكان ينشيء محافل للكهنة ، ومحافل للجناز ، ويدخل اعضاء جددا ، ويعني بتوحيد محافل مختلفة ، وامدادها بصكوك شرعية . وكان يساهم بماله في بناء معابد ، ويكمل في حدود طاقته حصيلة التبرعات التي كان أكثر الاعضاء يضمنون بها ، ولا يدفعونها في مواعيدها . وكان يعول وحده تقريبا منزل الفقراء الذي انشأته الجمعية في بطرسبرج .

ولم تتغير حياته في أثناء ذلك ، فما تزال فوضى كما كانت من قبل ، وماتزال تشتمل على انجراف وانحلال . انه يحب الطعام والشراب ، ولا يستطيع أن يمنع نفسه من المشاركة في ملذات بيئات العازبين الذين كان يختلف اليهم ، رغم اعتقاده بأن هذه الملذات تنافي الاخلاق ، وتحط القدر ومع ذلك ما ان انقضت سنة واحدة حتى اخذ بطرس ، وهو في زوبعة مشاغله وملذاته ، يحس بأن أرض الماسونية التي وضع نفسه عليها ، تهرب من تحت قدميه على قدر محاولته تثبيت نفسه فوقها مزيدا من التثبيت . وكان يحس في الوقت نفسه أنه كلما تهربت هذه الارض من تحت قدميه ازداد هو تشبها بها ، واستحال عليه أن ينفصل عنها ، انه حين دخل الماسونية قد أحس احساس انسان يضع على صفحة سبخة

مستوية ، فغاصت قدمه فيها منذ أن وضعها ، فمن أجل ان يشعر شعورا قويا بمثانة الارض وضع قدمه الاخرى فغاص مزيدا من الغوص ، فهو الان يتخبط في الوحل الى الركبتين •

ولم يكن أوسيب الكسيفتش في بطرسبرج (لقد انزوى عن محافل بطرسبرج منذ بعض الوقت ، واصبح لا يغادر موسكو) • وكان جميع الاخوة ، أعضاء المحافل ، أناسا عرفهم بطرس في المجتمع وكان يصعب عليه أن لا يرى فيهم الا اخوة في الماسونية ، متناسيا أن هذا هو الامير ب ، وهذا هو ايفان فاسيليفتش د ، وهؤلاء غيرهما ممن يعرف اناس ضعاف ، ورجال تافهون لاقية لهم • وكان يصعب عليه أن لا يتصور تحت وزراتهم وشاراتهم الماسونية البزات الرسمية والالوسمة التي كانت هدف حياتهم • وكان حين يقوم بجمع التبرعات ، فيسجل على قوائم التبرع مبالغ تتراوح بين عشرين روبلا وثلاثين روبلا في عمود « له » وفي عمود « عليه » في أكثر الاحيان ، وهي تبرعات من عشرة اشخاص نصفهم لا يقلون عنه غنى ، كان يتذكر اليمين الماسوني الذي يحلفه الاخ الماسوني متعهدا بأن يهب ثروته كلها لاخوته البشر ، فتقوم عندئذ في نفسه شكوك يحاول أن لا يتلبث عليها •

كان الاخوة الذين يعرفهم ينقسمون في نظره اربع فئات • فأما الفئة الاولى فتضم أولئك الذين لا يشاركون مشاركة فعالة لا في امور المحافل ولا في الشؤون الانسانية ، ولا يهمهم الا أن يتعمقوا أسرار « الجمعية » ، ومسائل التسمية الثلاثية لئلا، والمبادئ الثلاثة للأشياء ، وهي الكبريت والزئبق والملح ، ومعنى المربع والصور المرسومة في هيكل سليمان ، فكان بطرس يحترم هذه الفئة من الاخوة التي ينتمي اليها

الاقدمون خاصة ، وأوسيب الكيفتش نفسه فيما يعتقد بطرس ، ولكن بطرس كان لا يقاسم هذه الفئة همومها ومشاعلها .

وأما الفئة الثانية فكان بطرس يدرج نفسه وأشباهه فيها، وهي الفئة التي تضم أولئك الذين يبحثون ، ويتدردون، ولما يهتدوا بعد الى طريقهم في الماسونية ، ولكنهم يأملون أن يهتدوا اليه .

وأما الفئة الثالثة فهي تضم الاخوة (وهؤلاء اكثر عددا من سائر الفئات) الذين لا يرون في الماسونية الا صورتها الخارجية التي تشتمل على الطقوس ، ويتقيدون بهذه الصورة الخارجية تقيدا دقيقا صارما ، دون أن يهتمون بمضمونها ومعناها الحقيقي . ومن هؤلاء فيلارسكي ، وحتى المعلم الكبير في المحفل الرئيسي .

وأما الفئة الرابعة فهي تضم عددا كبيرا من الاخوة أيضا ، ولا سيما الاعضاء الجدد في الجمعية ، وكان هؤلاء في نظر بطرس اناسا لا يؤمنون بشيء ، ولا يريدون شيئا ، ولا يدخلون الماسونية الا ليلتقوا فيها اخوة شبابا اغنياء يملكون سلطة ونفوذ بما لهم من علاقات ، وبحكم محتدهم وما اكثر هؤلاء في المحفل !

وأخذ يشعر بطرس أن نشاطه لا يرضى نفسه ، فالماسونية ، أو الماسونية التي عرفها هنا على الاقل ، اصبحت تبدو له في بعض الاحيان شكلية محضا . لم يخطر بباله أن يشك في قيمة الجمعية ذاتها ، ولكنه صار يترأى له أن الماسونية الروسية قد ضلت الطريق وانحرفت عن النبع . لذلك سافر في نهاية السنة الى الخارج بغية الاطلاع على الاسرار العليا للجمعية .

حتى اذا كان صيف سنة ١٨٠٩ رجع بطرس الى بطرسبرج . وقد

علم الماسونيون عندنا من مراسلاتهم مع الماسونيين في الخارج ، أن بطرس حظي بثقة عدد كبير من وجوه الماسونية ، وأنه اطلع على أسرار كثيرة ، وأنه رقى الى اعلى رتبة ، وأنه يحمل مشاريع كثيرة تنفع العمل الماسوني في روسيا . فتوافد عليه الماسونيون ببطرسبرج يزورونه ، ويلتمسون حظوته ، وشعروا جميعا أنه يضر ويهيئ شيئا ما .

وتقرر أن يعقد اجتماع فخم لمحفل من الدرجة الثانية وعد بطرس أن يلقي فيه على الاخوة ببطرسبرج رسالة كلفه القادة الاعلون بنقلها اليهم ، فلم يتخلف عن تلبية النداء وحضور الاجتماع أحد ، فلما انتهت الطقوس المألوفة ، قام بطرس وبدأ يلقي خطابه . قال محمر الوجه متلعثم اللسان ، حاملا وخطابه المكتوب بيده :

— أيها الاخوة الاعزة ، ليس يكفي أن نطبق أسرارنا في داخل المحفل ، وانما يجب علينا أن نعمل .. ان نعمل . اننا نأتمون بينما يجب علينا ان نعمل .

وفتح بطرس دفتره وأخذ يقرأ :

« من أجل ان تنشر الحقيقة الصافية ، ومن أجل أن نكفل النصر للفضيلة ، يجب علينا أن نخلص الناس من الاوهام الراسخة في أذهانهم ، وان نذيع فيهم القواعد التي تطابق روح العصر ، وان نتولى تربية الشبيبة ، وأن توحدنا روابط متينة بالعقول الكبرى ، وان تغلب على الخرافات والجحود والحماسة بجسارة ولكن بتأن وروية وحذر ، وان ننشئ من المخلصين لنا رجالا تربط بينهم وحدة الهدف ، ويملكون المقدرة والقوة .

« ومن أجل الوصول الى هذا الهدف يجب ان نغلب الفضيلة على

الرذيلة ، وان نحاول أن يحصل الانسان الشريف في هذه الحياة الدنيا نفسها على ما تستحقه فضائله من مكافأة أبدية . ولكن العائق الكبير الذي يقف في طريقنا الى تحقيق هذه الاهداف انما هو المؤسسات الحالية . فما عسانا نفعل والامور على هذا النحو ؟ هل يجب أن نشجع الثورات ، أن نقلب كل شيء رأسا على عقب ، أن نلجأ الى القوة في محاربة القوة ؟ ... لا ! نحن أبعد ما نكون عن هذا . ان كل اصلاح بالعنف يستحق أن يُشجب ، لانه لن يصلح الشر مازل البشر كما هم ، ولان الحكمة لا حاجة بها الى العنف .

» ان كل العمل الذي يجب أن تقوم به الجمعية هو ان تحاول انشاء رجال صلاب العود ، يتمتعون بالثبات ويتمسكون بالفضيلة ، وتربطهم وحدة الاقتناع ، أي تربطهم وحدة الرغبة في ان نظارد الرذيلة والحقاقة في كل مكان بكل ما أوتينا من قوة ، وان نحمي الموهبة والفضيلة ، وان ننتشل من التراب أولئك الذين هم أهل لذلك فنلحقهم بجمعيتنا ، ونضمهم الينا . وعندئذ انما يصبح في وسعنا ان نكبّل أيدي صانعي الفوضى شيئا بعد شيء ، وان نوجههم حتى دون أن يشعروا هم بذلك . الخلاصة أن علينا أن ننشي نوعا من سلطة عالمية تشمل العالم كله دون ان تقطع الروابط المدنية ، وتدع لجميع الحكومات الاخرى ان تستمر في ممارسة وظائفها الخاصة بها ، وان تفعل كل شيء الا ما يعيق الغاية العليا التي تسعى اليها جمعيتنا ، أعني ضمان انتصار الفضيلة على الرذيلة . ولقد كان هذا الهدف هو هدف المسيحية نفسها . فالمسيحية أوصت البشر أن يكونوا حكماء عقلاء أخيارا ، وان يقتدوا في سبيل مصلحتهم نفسها بأفضل الرجال وارجحهم عقلا وأوسعهم حكمة ، وان يتبعوا تعاليمهم .

« لقد كان الوعظ كافيا حين كان كل شيء غارقا في الظلمات ، ذلك أن جدة الحقيقة كانت تهب لها قوة خاصة • أما اليوم فنحن في حاجة الى وسائل أقوى كثيرا من الوعظ والارشاد والتبشير • اليوم يجب للانسان الذي تحكمه حواسه أن يجد في الفضيلة نفسها فتنة للحواس • ان الاهواء لا يمكن استئصالها ، وانما يحسن توجيهها الى هدف نبيل • ومن اجل ذلك يجب أن يستطيع كل فرد ارضاءها في حدود الفضيلة ، وان على جمعيتنا أن تهنيء وسائل ذلك •

« متى صار لنا في كل بلد من البلدان عدد من الرجال أهل لتحقيق هذه المهمة ، علّم كل واحد منهم اثنين آخرين ، ثم اتحدوا جميعا اتحادا وثيقا ، وعندئذ تصبح جمعيتنا ، التي استطاعت منذ الان ان تفعل للانسانية في السر خيرا كثيرا ، تصبح قادرة على كل شيء • » •

ان هذا الخطاب الذي ألقاه بطرس لم يحدث في المحفل تأثيرا قويا فحسب ، بل أثار فيه كذلك هيجانا شديدا • أكثر الاخوة الذين رأوا في هذا الخطاب مشاريع خطيرة من المشاريع التي يتصورها أناس من أتباع المذاهب الاشراقية الخيالية ، استقبلوا الخطاب ببرود أدهش بطرس • والمعلم الكبير وجهه اليه اعتراضات • فأخذ بطرس يشرح آراءه بحماسة ماتنفك تشد • منذ زمن طويل لم تعتقد عاصفة الى هذا الحد • وتكونت أحزاب : فبعضهم يهاجم بطرس وينعته بأنه انسان خيالي من أتباع المذهب الاشراقي • وبعضهم يؤيده ويدعمه • فكانت تلك أول جلسة يدهش فيها بطرس من تنوع العقول الانسانية تنوعا لا حد له ، تنوعا يجعل أية حقيقة من الحقائق لا تعرض لاثنتين في صورة واحدة ، ولا يراها اثنان رؤية واحدة • حتى الذين كانوا بين الاعضاء يؤيدونه ،

كان كل منهم يفهم آراءه فهما خاصا ، فيقيدها بقيود ويحورها تحويرات
لايستطيع بطرس أن يوافق عليها ، لان ماكان يهمه اكثر من أي شيء
آخر هو أن ينقل فكرته الى الآخرين على نحو ما يفهمها هو نفسه كاملة
دقيقة لم يطرأ عليها أي تعديل •

وفي نهاية الجلسة لفت المعلم الكبير نظر بيزوخوف بشيء من الخبث
والسخرية الى انه تحمس بعض التحمس ، والى أن حب الصراع قد
وجّهه في المناقشة اكثر مما وجهه حب الفضيلة • فلم يجاوب بطرس
بشيء ، وسأل بإيجاز هل قبل اقتراحه • فكان الجواب نيا ، فخرج
دون ان ينتظر اجراء الطقوس المألوفة ، ورجع الى بيته •

الفصل الثامن

مرة أخرى استولى على بطرس ذلك الحزن الكالح الذي كان يخشاه كثيرا . فقضى الايام الثلاثة الاولى التي تلت القاء خطابه في المحفل ، مستلقيا على ديوانه لا يستقبل أحدا ولا يخرج .

وفي ذلك الوقت انما وصلته رسالة من امرأته تضرع اليه فيها ان يتكرم عليها بقاء ، وتتحدث عن الحزن الذي تشعر به حين تفكر فيه ، وعن رغبتها في ان تقف عليه حياتها كلها .

وفي نهاية الرسالة تبلغه امرأته انها عائدة الى بطرسبرج في غضون عدة أيام بعد اقامة في الخارج .

وبعد وصول هذه الرسالة اليه ببرهة قصيرة اقتحم بابه واحد من الاخوة الماسونيين كان بطرس يعدّه أقلهم جدارة بالتقدير ، وأخذ يتكلم عن الحياة الزوجية ، فقال لبطرس على سبيل النصح ان الشدة التي أخذ بها زوجته ظلم ، وانه برفضه العفو عن النادمة التائبة يخالف القواعد الاساسية التي يجب ان يلتزمها الماسوني .

وفي الوقت نفسه بعثت اليه حماته ، أي زوجة الامير فاسيلي ، من يقول له انها تبتهل اليه أن يجيء اليها ولو بضع لحظات ليتكلما في أمر يبلغ غاية الخطورة . فرأى بطرس أن هناك تواطؤا عليه ، وانهم يريدون

أن يصلحوا بينه وبين زوجته ، فلم يسؤه هذا التواطؤ ، وهو على ما هو عليه من حالة نفسية خاصة ، اذ كان قد فقد اكترائه ، وصار يرى أنه لا شيء في هذه الحياة له شأن أو قيمة ، وصار بتأثير التشاؤم الذي استولى عليه لا يحرص على حريته ، ولا يصرّ على معاقبة زوجته .

كان يقول لنفسه : « لا أحد على حق ، ولا أحد على خطأ ، وهي أيضا ليست اذن على خطأ » . ولئن لم يوافق فوراً على استئناف الحياة الزوجية ، فانما كان مردّد ذلك الى ان حالة الاكتئاب التي استبدت به جعلته عاجزاً عن اتخاذ أي قرار ، والشروع في أي شيء . ولو ان امرأته جاءت اليه الآن لما طردها . ألم يكن يستوي عنده أن يعيش معها وان لا يعيش معها بالقياس الى ما يشغل باله ويملاً نفسه في هذه الايام ؟ لم يجاوب بطرس امرأته ولا حماته ، وسافر في ذات مساء الى موسكو ليرى أوسيب الكيفتش . واليكم ما سجله في يومياته :

• موسكو في ١٧ تشرين الثاني (نوفمبر) .
خرجت من عند « المحسن » ، وهأنذا أسارع فأودع هذه الاوراق كل ما شعرت به . ان أوسيب الكيفتش يعيش في فقر وعذاب منذ أكثر من سنتين ، ويقاسي من مرض أليم في المثانة . وهو منذ الصباح الى ساعة متأخرة من الليل ، باستثناء الساعات التي يتناول فيها وجبات بسيطة أكبر البساطة ، عاكف على الدراسة لا ينقطع عنها . استقبلني باشا مرحباً ، وأجلسني على السرير الذي كان مضطجعا عليه . حركت يدي بإشارة فرسان « الشرق والقدس » ، فردّ على الإشارة بمثلها ، وسألني مبتسماً عمّا تعلمته في بروسيا وايقوسيا . فعرضت عليه الآراء التي تضمنها خطابي في محفلنا ببطرسبرج ، وذكرت له أن كلامي استقبل

استقبالا سيئا ، وذكرت له أن هذا أدى الى قطيعة بيني وبين الاخوة .
فبعد أن فكّر أوسيب الكسيفتش لحظة وهو صامت ، عرض لي رأيه
الذي أنار لي الفور كل الماضي الذي عشته ، وكل الطريق الذي يفتح
أمامي الآن . وقد أدهشني حين سألني هل أذكر الاهداف الثلاثة التي
ترمي اليها الجمعية ، وهي أولا : المحافظة على السر وتعمقه ، وثانيا :
تطهير النفس واصلاحها بغية أن تصبح أهلا للتعلم ، وثالثا : اصلاح
النوع البشري بالسعي الى هذا التطهير . وقد تساءل : أي هذه الاهداف
الثلاثة أخطرها شأنًا وأولها في الميزان ؟ وأجاب : هو اصلاح النفس
وتطهيرها . فذلك هو الهدف الذي نستطيع دائما أن نحاول بلوغه أية
كانت الظروف . ولكنه في الوقت نفسه الهدف الذي يطلب منا أكبر
قدر من الجهود ، ولذلك ترانا وقد أضلّنا الزهو والعجب نهمل هذا
الهدف وتنشبت اما بمعرفة الاسرار التي لا نستحق ان نفذ اليها قبل
أن نطهر نفوسنا ، واما الى اصلاح النوع البشري بينما نحن مثال الحطة
والفساد . فالمذهب الاشراقي الذي يشوبه الزهد والغرور ، ويطمع
طبعًا شرها في ان يلعب دورا اجتماعيا ، هو اذن مذهب سيء . ومن هذه
الناحية أخذ عليّ أوسيب الكيفتش خطابي ، ولامني على كل نشاطي .
وقد وافقته في قرارة نفسي على ما ساق من آراء . أما بصدد شئوني
الزوجية فقد قال لي : « ان الواجب الاساسي الذي يقع على عاتق
ماسوني هو تحسين نفسه كما قلت لك . ولكننا كثيرا ما نظن أننا بابعادنا
جميع مصاعب الحياة عن أنفسنا نستطيع أن نبلغ هذا الهدف بسرعة
أكبر ، والصواب عكس هذا أيها السيد العزيز ، ففي وسط الاضطراب
الذي يملأ العالم انما نستطيع أن نحقق الاهداف الرئيسية الثلاثة ،
وهي أولا : معرفة النفس ، لان المرء لا يستطيع أن يعرف نفسه الا

بالمقارنة ؛ وثانياً : تحسين النفس وهذا لا يتم الا بكفاح ، وثالثاً : الفضيلة القصوى أعني حب الموت ، وما من شيء الا ظروف الحياة يمكن أن تبرهن لنا على أن الحياة باطل ، وان تنمي في أنفسنا حب الموت ، أي الانبعاث في حياة جديدة » . وكان مما يزيد في قيمة هذه الاقوال التي نطق بها أوسيب ألكيفتش أنه رغم آلامه الجسيمة المبرّحة الخطيرة لا يشكو أبداً من عبء الحياة ، وأنه يحب الموت ولكنه لا يحس أنه أعدّ نفسه له اعداداً كافياً على ما تتصف به روحه من نقاء وطهارة وسمو ثم شرح لي « المحسن » المعنى العميق لمربّع الخلق الكبير ، وأشار الى أن رقمي ثلاثة وسبعة هما أساس كل شيء . ونصحتني بأن لا أقطع صلتي بالاخوة في بطرسبرج قطعاً تاماً ، وان أحاول — وان لم أشغل في المحفل الا وظائف من الدرجة الثانية — أن أحاول بتحذيرهم من الانجراف في مهاوي الزهو والصلف ، ردهم الى الطريق الذي يؤدي الى المعرفة الصادقة ، والى اصلاح النفس والسير بها في معارج الكمال ، وعدا ذلك طالبني بأن ألاحظ نفسي وأعطاني هذا الدفتر الذي أكتب عليه ، والذي سأسجل فيه بعد اليوم كل ما أقوم به من أفعال . » .

بطرسبرج في ٢٣ تشرين الثاني (نوفمبر)

صالحت زوجتي ، واستأنفنا حياتنا المشتركة . لقد جاءت اليّ حماتي باكية تقول ان هيلين هنا ، وانها تضرع اليّ أن اسمع لها ، وانها بريئة ، وان هجري اياها قد أشقاها ، وقالت أشياء أخرى كثيرة أيضاً . وكنت أعلم أنني اذا قبلت أن استقبلها ، فسوف أعجز عن رفض طلبها . وكان الشك يملأ نفسي ، وكنت لا أعرف مَنْ عسى استعين به وأسأله النصيح ، فلو كان « المحسن » هنا لارشدني وهداني الى الطريق

القويم • لذلك انزويت في بيتي ، وأعدت قراءة رسائل أوسيب
 ألكسيفتش ، واستعرضت بذاكرتي ما جرى بيني وبينه من أحداث ،
 فخلصت من ذلك كله الى أنني ما ينبغي أن أمنع عن سائل شيئا ، وأن
 عليّ أن أمد الى كل انسان يد العوث والنجدة ، فكيف والسائل انسانيّة
 تربطني بها أقوى الروابط ، فلا بد لي اذن من أن أحمل صليبي • ولكن
 اذا غفرت لها بدافع حب الفضيلة ، فمعنى ذلك أنني أرى أن ارتباطي
 بها الان لم يبق له الا هدف روحي • وذلك ما عقدت عليه عزمي ،
 وكتبت فيه الى أوسيب الكسيفتش • وقلت لزوجتي انني أرجوها أن
 تنسى الماضي كله ، وأن تغفر لي ما لعلي ارتكبته في حقها من أخطاء ،
 وما نلتها به من ايذاء ، وانني من جهتي لا آخذ عليها ما يجب أن أغفره
 لها ، وقد أسعدني أنني استطعت أن أقول لها هذا الكلام ، ولتجهل هي
 مبلغ ما عانيته من ألم وما قاسيته من عذاب حين استقبلتها ! انني أقيم
 الان في الطابق الاعلى من المنزل الكبير ، وأذوق فرحة الشعور بأنني
 خلقت خلقا جديدا • « •

الفصل التاسع

في ذلك الوقت ، كما في كل وقت ، كان المجتمع الراقي الذي يلتقي في البلاط ويلتقي في حفلات الرقص الكبرى ينقسم حلقات لكل منها لونها الخاص . وكانت كبرى هذه الحلقات عددا هي الحلقة الفرنسية التي تضم الكونت روميا تنسيف^(١) وكولانكور^(٢) وهما من أنصار التحالف مع نابليون . وقد أخذت هيلين تحتل مكانا مرموقا منذ أقامت هي وزوجها في بطرسبرج ، وكان نجمها لايفنك يزداد سطوعا . وكان أولئك السادة من أعضاء سفارة فرنسا وعدد كبير من هذا الجانب نفسه ، وهم رجال اشتهروا بالفكر القوي والذوق اللطيف يختلفون الى صالونها .

لقد كانت هيلين في ايرفورت أثناء اللقاء الشهير الذي تمّ بين الامبراطورين ، فانعقدت صلات بينها وبين جميع الوجهاء من أنصار

(١) الكونت نيقولا روميا تنسيف (١٧٥٤ - ١٨٢٦) ، وزير التجارة من سنة ١٨٠٢ الى سنة ١٨٠٨ ؛ وزير الشؤون الخارجية منذ ١٨٠٨ ؛ وبعد ذلك مستشار الامبراطورية . شخص قوي النفوذ ، كان نصيرا للاداب انشأ المكتبة العامة بموسكو ، وكانت تسمى باسمه ، وهي التي تسمى الان باسم لينين .

(٢) المركيز لويس كولانكور (١٧٧٢ - ١٨٢٧) : ارستقراطي انضم الى نابليون ، وعين سفيرا في روسيا من عام ١٨٠٨ الى عام ١٨١١ ، وكان نصيرا صادقا للتحالف الفرنسي الروسي ، وقد نشر كتابا ثميناً بعنوان « مذكرات » .

نابوليون الاوروبيين • حتى ان نابوليون نفسه ، وقد لاحظها في المسرح ،
سأل مَنْ هي ، وقال ، وصفها : « هذا حيوان رائع » •

لم يدهش بطرس من النجاح الذي أصابته هيلين كامرأة جميلة
رشيقة أنيقة ، فان جمالها قد زادت السنون فتنة • ولكن الشيء الذي
أدهشه هو أن امرأته استطاعت في خلال هاتين السنتين أن تثبته بأنها
امرأة أخاذة ، ذكية جميلة في آن واحد • وكان الامير دو لينى الشهير^(١)
يكتب اليها رسائل من ثماني صفحات • وكان يلبس يخبىء كلماته
ليقدمها بواكير الى الكونتيسة بيزوخوف • وكان استقبالها أحدا في
صالونها شهادة له بأنه صاحب فكر • وكان الشبان يقرأون كتبها قبل
أن يذهبوا الى سهراتها ليتزودوا بموضوع يتحدثون فيه •

وكان سكرتيرو السفارات وحتى السفراء يفضون اليها بأسرار
دبلوماسية ، حتى ليتمكن أن يقال بمعنى من المعاني أن هيلين أصبحت
قوة • وكان بطرس الذي يعرف أنها غبية جدا يحضر في بعض الاحيان
سهراتها وحفلات العشاء التي تقيمها والتي يتحدث فيها الحضور عن
السياسة ، ويتكلمون في الشعر والفلسفة ، فيشعر بمزيج عجيب من
الحيرة والخشية ، كان يحس في تلك الاوقات بما يحسه « حاو » يتوقع
في كل لحظة أن يكتشف المشاهدون خدعته • ولكن الخدعة لا تكتشف ،
إما لان الغباء هو بينه ما تحتاج اليه إدارة صالون ، وإما لان المخدوعين
أنفسهم يجدون لذة في أن يُخدعوا ، وكانت شهرة هيلين فاسيليفنا

(١) شارل - جوزيف دو لينى (١٧٢٥ - ١٨١٢) ، ولد في بلجيكا ، وخدم في الجيش
النمساوي ، ثم عمل بروسيا في عهد كاترين الثانية ، وكان صديقا لجوزيف الثاني .
كاتب ، ومن رجال الصالونات ، يفيض فكرا وظرفا ، وقد مات في بروكسل .

بيزو خوف بأنها امرأة أخذة ذكية قد بلغت من الرسوخ أن هيلين قد تقول أتع السخافات واكبر الحساكات ، فاذا بالجميع لايزيدهم ذلك الا افتنانا بكل كسة من كساتها ، واذا هم يبحثون في أقوالها عن معنى عسيق لم يخطر لها هي نفسها على بال .

وكان بطرس هو الزوج اللازم لهذه المرأة المتألقة من نساء المجتمع ، فهو « سيد من كبار السادة » ، ذاهل ، متفرد ، لا يضايق أحدا ، ولا يحدث نشازا في لهجة الصالون ، الرفيعة السامية ، حتى أن ما بينه وبين امرأته من تناقض في أناقة الهندام وحسن الكياسة ، يساهم في ابراز قيسة امرأته مزيدا من الابرار . ان ما ألقه خلال هاتين السنتين من انصراف فكره الى مسائل مجردة ، وما يحمله في نفسه من ازدراء لكل ما عدا ذلك ، قد أتاحا له في هذا المجتمع الذي يحيط بزوجته والذي لا يعنيه أمره أن يتخذ لهجة فيها قلة الاكتراث ، وفيها أخذ جميع الناس بالرفق والحسنى ، وهي لهجة لا تكتسب اصطناعا وافتعالا ، ولكنها بسبب ذلك تفرض على الناس احترام صاحبها شاءوا أم أبوا .

كان بطرس يدخل صالون زوجته كمن يدخل مسرحا يعرف جميع من فيه ، فيشئ لهم جميعا على السواء ، ويظل غير مكترث بهم جميعا على السواء . وربما شارك أحيانا في حديث يهيمه ، فاذا هو ، دون ان يعنيه أن يعلم أن سادة السفارة هؤلاء حاضرون أو غائبون ، يعرض آراءه مدمدما ، وهي آراء قد لا تكون مطابقة للتيار السائد في تلك اللحظة . ولكن الرأي الشائع عن هذا الرجل المتفرد الشاذ ، زوج أرقى امرأة ببطرس برج ، كان يبلغ من الرسوخ أن أحدا لا يأخذ فوراته مأخذ الجد .

وبين الشبان الكثيرين الذين كانوا يتوافدون في جميع الايام على صالونات الكوتيسة بيزوخوف ، بعد العودة من ايرفورت ، لم يبلغ أحد من وثوق الصداقة وارتفاع الكلفة ما بلغه بوريس دوربتسكوي الذي كان قد لمع نجمه في عمله أثناء ذلك كثيرا ، وكانت هيلين تنعته بأنه غلامها ، وتعامله معاملة طفل ؛ وكانت البسمة التي توجهها اليه هي نفس البسمة التي توجهها الى سائر الضيوف ، ولكن بطرس كان يضيق برؤية هذه البسمة في بعض الاحيان ، وكان بوريس يراعي بطرس مراعاة خاصة ، وييدي له احتراماً خاصاً فيه رصانة وفيه حزن . فكان بطرس يضيق بهذا أيضاً ، ويشعر فيه بقلق ، ان الالم الذي عاناه قبل ثلاث سنين بسبب الاساءة التي ألحقها زوجته به قد بلغ من القسوة أن بطرس يضع نفسه الان في منجى من اساءة مثلها ، أولاً لانه ليس زوج امرأته ، وثانياً لانه لايسمح لنفسه بالاشتباه فيها .

كان يقول لنفسه : « انها ، وقد اصبحت امرأة متعالة قد عدلت عملاً كانت تنجرف فيه من قبل . فلم يعرف عن امرأة متعالة انها انقادت لغوايات الاهواء ونزوات القلب » . هكذا ما كان يكرره بطرس لنفسه ، ويؤمن به ايماناً مطلقاً لايدري المرء من أين جاء به ا

ومع ذلك كان وجود بوريس في صالون امرأته (وهو لا يكاد يغيب عنه) يحدث فيه تأثيراً جسيماً ، فهو يكبل جميع أعضائه ، ويذهب بطلاقة حركاته وحريتها . فكان بطرس يقول لنفسه : « ما أعجب نفوري هذا منه ! لقد كان يعجبني في الماضي كثيراً مع ذلك . » .

وفي نظر الناس ، كان بطرس سيّدا من كبار أصحاب الاملاك ، وكان زوج امرأة ذائعة الصيت (زوجا أعمى بعض العمى ، غريب الاطوار قليلا) ، وكان رجلا شاذا ولكنه غير غبي ، وكان انسانا عاطلا عن العمل ولكنه لا ينال أحدا بأذى ، أي كان فتى طيبا شهما على وجه الاجمال •

وحقيقة الامر أنه كان يتحقق في نفس بطرس ، في أثناء ذلك الوقت ، تطور نفسي معقد شاق ، يفتح له آفاقا كثيرة ، ويُسلمه الى شكوك كبيرة ، ولكنه يسده أيضا بأفراح روحية جمّة •

الفصل العاشر

ثابر بطرس على الكتابة في دفتر يومياته ، واليكم ما كتبه في ذلك الوقت :

٢٤ تشرين الثاني (نوفمبر)

قمت من سريري في الساعة الثامنة • قرأت في الكتاب المقدس ، ثم ذهبت الى اللجنة (كان بطرس قد عمل بنصيحة « المحسن » ، فصار عضوا في احدى اللجان) • عدت الى الغداء ، تغذيت وحدي (كان عند الاميرة ضيوف كثيرون من أضييق بهم وأكره صحبتهم) • اعتدلت في الطعام والشراب • وبعد الغداء نسخت وثائق للاخوة • ونزلت في المساء الى الكونتيسة فقصصت هنالك قصة مضحكة عن « ب » ، ولم أفطن الى انني ما كان يجب عليّ أن أقصّها الا حين رأيت جميع الحضور يضحكون ضحكا صاخبا مجلجلا •

« نمت سعيد النفس هادىء البال • يارب يا من تقدر على كل شيء ، كن في عونى لاسير في طرقك : ١ - أن انتصر على ميلي الى الغضب باللين والرفق والصبر ؛ ٢ - وعلى الشبق بالعفة والتقزز ؛ ٣ - أن أنأى عن أباطيل هذا العالم ، ولكنّ دون أن أتخلى عن : أ - شئون الدولة ؛ ب - أمور الاسرة ؛ ج - روابط الصداقة ، د - المشاغل الاقتصادية •

٢٧ تشرين الثاني (نوفمبر)

صحوت من نومي ضحى • بقيت في سريري زمنا طويلا ، مستسلما
للكسل • اللهم كن في عونى وهب لي من القوة ما يتيح لي أن أسير
في طرقك ! قرأت في الكتاب المقدس بخشوع كاف •

جاءني الاخ أورشوف • وتكلمنا عن أباطيل هذا العالم • وتكلم عن
المشاريع الجديدة التي يمضي فيها الامبراطور • هممت أن أتقدها ، لكنني
تذكرت القواعد التي ذكرها لي « المحسن » والاقوال التي قالها • لقد قال
أن الماسوني يجب أن يكون خادما متحمسا للدولة حين يطلب منه أن
يشارك في خدمتها وأن يكون مشاهدا سليا حين لا يطلب منه ذلك • ان
لساني عدوي ، وجاء الاخوة « ج » و « ف » و « و » و « أ » • تحدثنا في أول الامر عن
القيام بمراسم قبول أخ جديد • وعهدوا الي بأن أكون « الخطيب » •
أنا أحس بأنني عاجز عن هذا ، غير جدير به • ثم انتقلنا الى الكلام عن
تأويل معنى الاعمدة والدرجات السبع في الهيكل ، والعلوم السبعة ،
والفضائل السبع ، والرذائل السبع ، وهبات « الروح القدس » السبع ،
كان الاخ « أ » فصيحاً بليغا جدا • تم استقبال الاخ الجديد في المساء
أسهم التنظيم الجديد الذي أدخل على المحفل في جلال المشهد • ان
بوريس دروبتسكوي هو العضو الجديد الذي قمنا بمراسم قبوله •
وقد جعلت عرّابه ، وكنت الخطيب أيضا • هزنتي عاطفة غريبة طحوال
مدة بقائي معه في المبد المظلم • اكتشفت في نفسي انني أكرهه كرها لم
استطع أن أنقلب عليه وددت صادقا لو أنقذه من الشر وأهديه الى طريق
الحقيقة ، ولكن الافكار السيئة التي قامت في ذهني عنه لم تفارقني •
قدرت أن الهدف الوحيد الذي يرمي اليه من الانتساب الى الجمعية هو
الاقتراب من اشخاص هم أعضاء في محفلنا ، واكتساب الخطوة لديهم ،
ألم يسألني مرارا هل « ن » أو « س » ينتميان حقا الى محفلنا (وذلك

أمر لم يكن من حقي أن أكشف له عنه) ؟ يضاف الى ذلك انني احسست انه غير مؤهل لان يشعر نحو جمعيتنا المقدسة بما يجب لها من الاحترام وانه أكثر انشغالا واهتماما بظاهر شخصه من أن يرغب في اصلاح ذات نفسه والعروج بها الى الكمال . لم يكن لي فيما عدا هذا اسباب تدعو الى الشك فيه . لكنني احسست انه امرؤ يعوزه الصدق ، واحسست طوال مدة خلوتي به انه كان يتسم محتقرا أقوالي ، فوددت لو اطعن صدره العاري بالسيف الذي كنت أسدده اليه . لم أستطع أن أكون في كلامي بليغا . ولم أستطع أن اصارح الاخوة والمعلم الكبير بشكوكي . اللهم يا مهندس الكون الاعظم ، كن في عوني لاهتدي الى الطرق الصحيحة التي تخرجني من متاهة الكذب . » .

وبعد هذه الاسطر ترك ثلاث صفحات بيضاء ، ثم سجل ما يلي :

« جرى حديث طويل مفيد في خلوة بيني وبين الاخ «ق» الذي نصحني بأن أعقد صلة بالاخ «آ» لقد اذكشت لي امور كثيرة لست جديرا بها . ان آدوناي هو اسم خالق العالم . وأوليئيم هو اسم من يحكم كل شيء . والاسم الثالث ، وهو اسم لا ينطق ، معناه الكل ان احاديثي مع الاخ « ف » تشد أزرعي وتقوي عزيستي وتنعش روحي ، وتثبت قدمي على طريق الفضيلة . متى كنت معه لم يبق مجال للشك . انني أرى بوضوح شديد ، الفرق بين تعليم علوم هذا العالم ، وهوتعليم فقير ، وبين مذهبنا المقدس الذي يشمل كل شيء . العلوم الانسانية تجزيء كل شيء من أجل أن تفهم ، وتقتل من أجل أن تدرس دراسة مدققة . أما في علم جمعيتنا المقدس فالكل واحد ، وكل شيء يعرف في كماله في حياته . والثالوث ، اعني المباديء الثلاثة للاشياء هي الكبريت والزئبق والملح . وللكبريت خصائص الزيت والنار . وباتحاده بالملح

تحدث النار التي فيه ظمأً به يجذب الزئبق ويقبض عليه ويولد بالانضمام
اليه أجساماً متميزة • والزئبق هو الجوهر الروحي سائلاً متبخراً - المسيح
الروح القدس ، الموجود • » •

٣ كانون الاول (ديسمبر)

صحوت متأخراً • قرأت في الكتاب المقدس ، ولكنني • قرأت بغير
تأثر • ثم خرجت من غرفتي وتجولت في الصالون • كنت أريد أن أتأمل •
ولكنني بدلاً من أتأمل استيقظ في خيالي حادث وقع منذ أربع سنين •
ان السيد دولوخوف ، حين لقيني بموسكو بعد المباراة ، قال لي انه
يأمل أن أنعم الان بهدوء البال كاملاً ، رغم غياب زوجتي • ولم اردء عليه
حينئذ بشيء • ثم اذا أنا في هذا الصباح اذكر جميع تفاصيل ذلك اللقاء
فأخذ أكيل له في خيالي أقصى الكلمات ، وأجيبه بالذع الاجابات ، ولم
أثب الى رشدي وأسيطر على نفسي وأطرد من خيالي هذه الصورة الا
بعد أن رأيته اشتعل غضباً • ولكنني لم أندم على فعلت ندما كافياً •
ثم جاء بوريس دروبتسكوي ، وسرعان ما أخذ يقص علي أحداثاً
ومغامرات شتى • وقد ساءتني زيارته ، واستقبلته استقبالا جافاً خشناً ،
فرد علي ، فثار حنقي ، ووجهت اليه كلمات مزعجة بل قلت له أقوالاً
فظلة • فسكت ، ولم أفيء الى هدوئي الا بعد فوات الاوان • انسي لا
أعرف كيف أتصرف معه • والذنب في ذلك ذنب انانيتي • فأنا أضع نفسي
في منزلة فوقه ، وهذا يجعلني أسوأ منه ، لانه من جهة متسامح يغفر لي
فظاظتي ، بينا أنا لا أحمل له الا شعور الاحتقار • اللهم هب لي أن أرى
حقارتي بحضوره رؤية أسلم • وقد نمت بعد الغداء ، وفيما كنت أنام
سمعت صوتاً واضحاً يقول لي في اذني اليسرى : « جاء يومك » •

حلمت انني أسير في الظلام ، فاذا بكلاب تحديق بي أحداقا ، ولكنني
 ظلت أسير بلا خوف . ثم اذابكلب صغير بعض ساقي بأنيابه ولا يتركني
 فأخذت أخقه بيدي . فما أن استطعت أن أنزعه عني ، حتى أخذ يعضني
 كلب أكبر منه . فانهضت الكلب ، فاذا هو يضخم مزيدا من الضخامة
 ويثقل مزيدا من الثقل كلما انهضته . وفجأة وصل الاخ « آ » ، فتأبط
 ذراعي ، وقادني الى مبنى لا يستطيع المرء أن يدخله الا سار على لوح
 ضيق . وضعت قدمي على اللوح ، فاذا هو يترنج ويسقط . فتشبثت
 بسيج القصب المحبوك الذي كانت يداي لا تكادان ان تستطيعا بلوغه .
 فأمكنني بعد جهود كبيرة أن ارتفع بنفسني عليه ، بحيث صارت ساقي
 متدليتين في أحد جانبيه وصار جذعي متدليا في جانبه الآخر . والتفت
 فرأيت الاخ « آ » واقفا على السور يريني صفين من الاشجار بينهما ممر
 ويريني حديقة ، ويريني في الحديقة بناء واسعا شامخا . استيقظت من
 نومي . اللهم يا مهندس الكون الاعظم ، كن في عوني لأتخلص من
 الكلاب ، أهوائي ، ومن الكلب الاخير الذي تجتمع فيه قوة سائر
 الكلاب . كن في عوني لأدخل في معبد الفضيلة هذا الذي أتيح لي أن
 أنأمله في الحلم » .

٧ كانون الاول (ديسمبر)

حلمت بأن أوسيب الكسيفتش كان عندي ، وانني كنت سعيدا بذلك ،
 وانني اردت أن أحسن معاملته . وفيما أنا أثرثر مع اخرين أدركت فجأة
 أن هذا قد لا يسره ، فأردت أن أدنو منه وأن أحتضنه بذراعي . ولكن
 ما ان اقتربت حتى رأيت وجهه يتبدل تبديلا كاملا فاذا هو وجه شاب ،
 وقال لي بصوت خافت جدا بضع كلمات عن مذهب جمعيتنا ، وقد

بلغ صوته من الخفوت انني لم أسمعه • ثم خرجنا جميعا من الغرفة ،
فحدث عندئذ أمر غريب • كنا جالسين على الارض أو مضطجعين • وكان
يكلمني يكلمني • وأردت أنا أن اكشف له عن حساسيتي ، فلم أصغ
الى كلامه ، ورحت أصور كياني الداخلي وقد زارني النعمة الالهية •
وترقرت في عيني دموع سري انه لاحظها • ولكنه رشفني بنظرة جhme
كالحة ، ونهض يتعد عني بحركة سريعة قوية قاطعا حديثي دفعة واحدة ،
فخجلت ووجلّت وسألته هل عني انا كان يريد ان يتكلم • غير انه لم
يجب بشيء ، ولا طفني وأظهر لي المودة ، ثم اذا نحن في غرفة نومي التي
تضم سريرا يتسع لشخصين • فاضطجع على حافة السرير ، وكنت
احترق رغبة في أن اظهر له عاطفتي وأن استلقي الى جانبه • سألتني « قل
بالصراحة كلها : ما عيبك الرئيسي ؟ هل تعرفه ؟ أظن أنك لابد قد عرفته
الآن ؟ » • فبث هذا السؤال اضطرابا في نفسي ثم أجبتة الكسل هو آفتي
الكبرى • فهز رأسه غير مصدق • وقلت له وقد ازداد اضطرابي : صحيح انني
أعيش مع زوجتي ، عملا بنصيحته ، ولكنني لا أعيش معها كما يعيش زوج
مع زوجته • فكان رده على هذا انه ما ينبغي للمرأة أن يحرم زوجته من
الملاطفات ، وقال ما يفهم منه ان هذا واجب يقع على عاتقي ولا يمكن أن
أغضى منه • لكنني أجبتة بأن ذلك يشعرني بخزي • وغاب فجأة كل شيء
لقد استيقظت فوجدت في ذهني هذا النص من الكتاب المقدس : « وكانت
الحياة ضياء البشر • وكان الضياء يتلألأ في الظلمات ، والظلمات لم
تستقبله ^(١) كان وجد أوسيب الكسيفتش شابا مضيئا • وفي ذلك اليوم
نفسه وصلتني رسالة من « المحسن » يحدثني فيها عن واجباتي الزوجية »
٩ كانون الاول (ديسمبر)

(١) انجيل يوحنا (الاصحاح الاول ، ١ - ٥) .

حلمت حلماً جديداً ترك قلبي بعد اليقظة خافقاً خفقاً شديداً . حلمت انني بموسكو ، في منزلي ، في غرفة مكتبي الكبيرة ، وأن أوسيب الكسيفتش مقبل على من الصالون . وسرعان ما رأيت أنه قد بعث بعثاً جديداً ، وهرعت اتلقاه . وقبلت وجهه ويديه ، وقال لي : « هل لاحظت أن وجهي ليس وجهي الذي عهدته ؟ » ، فأنعمت النظر اليه بانتباه شديد وأنا ما أزال احتضنه بذراعي : كان وجهه اصغر ، وقد تغيرت قسماته تغيراً كاملاً ، وليس له الآن شعر . قلت له : « لو انني رأيتك مصادفة لعرفتك مع ذلك » . ولكنني تساءلت بيني وبين نفسي : « أأنا قلت الحقيقة حقاً ؟ » . ثم اذا أنا أراه أمامي راقداً رقاد جثمان . ثم صحا شيئاً فشيئاً ، ودخل معي الى غرفة مكتبي الكبيرة . ممسكاً بيديه كتاباً كبيراً مخطوطاً على أوراق من البايروس . قلت له : « أنا كاتب هذه المخطوطة » . فأجابني بهز رأسه . فتحت الكتاب ان جميع صفحاته مزدانة بصور جميلة . وكنت أعرف أن هذه الرسوم تمثل مغامرات النفس العاشقة مع حبيبها . وكانت احدى الصور تمثل عذراء بفلالات شفافه ، وجسم شفاف وهي تطير الى السحب . وكنت اعلم ان هذه العذراء انما تمثل نشيد الانشاد » . احسست وأنا انظر في هذه الصور انني اسوء ، ولكنني لم استطع ان انتزع بصري منها . يارب كن في عوني ! اللهم ان كان ما أنا فيه من اهمال هو من صنعك ، فلتكن مشيئتك ! ولكن اذا كنت أنا سببه فأرشدني الى ما يجب أن افعله . ان فسادى سيهلكني اذا أنت هجرتني هجراً تاماً . » .

الفصل الحادى عشر

رغم أن آل روستوف قد دفنوا انفسهم في الريف ستين ، فان أحوالهم المالية لم تتحسن .

وقد وفى نيقولا بالعهد الذي قطعه على نفسه فعاش حياة غيرمتألقة في فوج نكرة ، وكانت نفقات قليلة . ولكن طراز المعيشة الذي عاشه أهله في اوترانويا ، ولا سيما سوء ادارة متينكا ، قد جعلوا الديون تزداد عليهما سنة بعد سنة لا محالة . وكان الدواء الوحيد الذي يخطر ببال الكونت الشيخ بداهة هو أن يدخل في خدمة الدولة ، فذهب الى بطرسبرج يبحث عن منصب . يبحث عن منصب ، ويسرّي عن البنّات في الوقت نفسه ، مرة أخيرة ، على حد قوله .

وما ان انقضى على وصول آل روستوف الى بطرسبرج وقت قصير حتى تقدم برج يخطب فيرا ، وقبل .

ان آل روستوف ينتنون في موسكو الى المجتمع العالي ، دون أن يهمهم مع ذلك أن يعرفوا الى أي مجتمع هم ينتمون . ولا كذلك في بطرسبرج ، فقد اختلطوا ببيئة تضم اشئاتا من الناس ليس لها انتماءمحدد ان كثيرا من الناس كان آل روستوف يعاملونهم في موسكو معاملة الانداد دون أن يتساءلوا عن محتدهم ، لا يحبون الان أن يتنازلوا فيكون لهم بهؤلاء الريفين علاقات .

وظل آل روستوف يعيشون في بطرسبرج عيشة مضيافة كما كانوا في موسكو ، فكانت مآدب العشاء التي يولمونها تجمع اشخاصا اشتاتا ، منهم جيران لهم في أوترادنويا ، ومنهم شيوخ من نبلاء الريف مع بناتهم ، ومنهم وصيفة الشرف بيرونسكي ، ومنهم بطرس بيزوخوف ، ومنهم ابن ناظر المحطة في مقاطعتهم وهو موظف ببطرسبرج . وسرعان ما غدا بوريس وبطرس في عداد اقرب الناس مودة اليهم ، (كان الكونت الشيخ قد لقيهما في الشارع فاقتادهما الى بيته) وكذلك بيرج الذي أصبح يقضي عندهم أياما كاملة ، وييدي لكبرى البنات ، الكوتيسة فيرا اهتماما عظيما بها ، هو اهتمام شاب ينوي أن يخطب .

لم يكن عبثا ولهوا ان بيرج كان يظهر كل من يلقاه على يده الجريمة التي اصببت في أوسترتس ، وليس عبثا ولا لهوا انه ظل يحمل بيده اليسرى سيفا لا فائدة له منه البتة . لقد كان يروي الحادث لكل انسان باصرار يبلغ من العناد وجد يبلغ من القوة ان الجميع انتهوا الى تصديقه والايان بمآثرته ، كما أنه منح وسامين مكافأة له على بلائه الحسن في أوسترتس .

كان قد أتيح له أن يجلي أيضا في حرب فنلندا^(١) ، فانه حمل من الارض شظية قبلية يدوية كانت قد قتلت ضابطا مرافقا الى جانب الجنرال الاعظم ، وسلمها اليه . وكما فعل بعد حرب أوسترتس ، ظل يروي هذه الحادثة للناس زمنا طويلا ، حتى صدق الجميع مرة أخرى ان عمله كان أمرا لازما لاغنى عنه وقد منح وسامين آخرين مكافأة له على مآثرته

(١) انتهت هذه الحرب (١٨٠٨ - ١٨٠٩) باستيلاء على فنلندا كلها . وقد مهر الاسكندر الاول فنلندا بدستور لبرالي ، وعدها - دوقه كبرى متحدة بالامبراطورية .

في حرب فنلندا • وفي سنة ١٨٠٨ كان ضابطا برتبة كابتن في الحرس الذي يحمل أوسمة ، وكان يشغل في بطرسبرج منصبا خاصا مجزيا جدا . ورغم أن بعض الشكاكين الرياين كانوا يتسمون حين يكلمهم أحد عن مزايا بيرج ، فقد كانوا لا يملكون الا أن يعترفوا أنه ضابط يتقيد بالمواعيد ويتصف بالشجاعة ، ويقدره رؤساؤه قدرا حسنا ، وأنه شاب محمود السيرة ينتظر له مستقبل لامع ، بل وأنه يحتل منذ الان مركزا راسخا في المجتمع •

كان بيرج منذ أربع سنين قد لقي في ردهة مسرح بموسكو أحد رفاقه الالمان ، فأراه فيرا وقال له بالالمانية « هذه هي التي ستكون زوجتي » ، وقرر منذ ذلك الحين أن يتزوجها •

وقد علم الآن بمركز آل روستوف في بطرسبرج وقارن بين حالهم وحاله ، فخلص من ذلك الى أنه آن الاوان وتقدم الى الاسرة يخطب الكونتيسة فيرا •

وقد استقبل طلبه في أول الامر بدھشة لاترضي عزته كثيرا • لقد استغربوا أن يخطب شاب هو ابن رجل نكرة من لتوانيا كونتيسة من آل روستوف ولكن السمة الاساسية في طبع بيرج هي انانية تبلغ السذاجة والطيبة ان آل روستوف اتتهوا، رغم ارادتهم، الى أن يعتقدوا بأن عليهم أن يوافقوا ، ما دام مقتنعا هو بالامر هذا الاقتناع القوي كله • زد على ذلك أن أحوالهم المالية كانت مضعضة ، وذلك امر لا بد أن بيرج يعرفه عدا أن فيرا كانت في الرابعة والعشرين من العمر وكانت تختلف الى المجتمع كثيرا ، وأنها على ما تتصف به من جمال ورجاحة عقل لايمكن جحودها لما يطلبها أحد الى الآن • فتمت موافقة الاسرة على طلب بيرج • قال بيرج لرفيقه الذي كان لا يسميه صديقه الا لعلمه بأن لكل امرئ صديقا :

— اسمع : لقد وزنت كل شيء ، ووضعت كل شيء في الاعتبار
فما كنت لاتزوج لو وجدت في هذا الزواج أي ضرر • ان ابي وامي
أصبحا في منجى من العوز منذ أن جعلتهما يملكان أراضى في أقاليم
البلطيق •

وأنا أستطيع بما أتصف به من روح الاقتصاد والتوفير أن أعيش
في بترسبرج بمرتبي وثروتها هي • يمكننا أن نعيش عيشة حسنة •
لست أتزوج من أجل المال • فالزواج في سبيل المال خال في نظري من
النبل ، ولكن يجب أن تساهم المرأة بنصيب وأن يساهم الرجل بنصيب
أنا لي مركزي • وهي لها علاقات ولها ثروة صغيرة • وذلك امر له قيمته
التي يجب أن لا يهملها المرء في هذا الزمان ، أليس كذلك ؟ على أن أهم
شئ هو أنها فتاة حلوة ومستقيمة ، وأنها تحبني •

قال بيرج ذلك وهو يتسهم ويحمرّ وجهه • وتابع كلامه يقول :

وأنا أيضا أحبها ، لان طبعها يتصف بالجد • ولا كذلك الاخت
الآخرى • الاسرة واحدة • ولكن شتان بين الاختين • فالثانية طبعها
مزعج ، وهي لا تملك ما تملكه هذه من ذكاء ثم لا أدري •• إن فيها
شيئاً يبعث على الفور منها • أما خطيبتى فشأنها شأن آخر •••

وأراد بيرج أن يردف قائلا : « سوف تأتي الينا فتتشفى معنا ، ولكنه
عدل عن رأيه فقال : « سوف تأتي فتشرب الشاي معنا » • وبحركة
خاصة من لسانه ، أطلق دائرة من الدخان تعبر أكمل تعبير عن أحلام
سعادته •

ان الحيرة الاولى تجاه طلب بيرج قد حلّ محلها في الاسرة جو عيد
وفرّح لا بد منه في مثل هذه الاحوال ، ولكن الفرح كان يعوزه الصديق

وكان ظاهريا ، فقد كان يمازج موقف الابوين من هذا الزواج شعور بالحرص والخيال والخزي . لكأنهما الان يشعران بالعار من أنهما لم يحبا فيرا الحب الذي تستحقه ، وأنهما يتخلصان منها بمثل هذه السرعة وكان الكونت الشيخ أقوى أفراد الاسرة شعورا بالضيق والحرص . وأغلب الظن أنك لو سألته عن سبب هذا الضيق وهذا الحرج لما استطاع أن يحدد لك السبب، ولكن مسألة المال كانت تصدع رأسه وتقض مضجعه . انه يجهل كل الجهل ماذا يملك ، وماذا عليه من ديون ، وما المهر الذي يستطيع أن يهبه لابنته فيرا . كان حين ولادة بناته خص كل واحدة منهن بمهر قدره ثلاثمائة نفس . ولكن قرية من قراه بيعت ، وقرية أخرى رھنت ، وبلغ من التأخر في دفع الفوائد المترتبة على رھنها ان يبيعها اصبح امرا لا مفر منه ، لذلك كان يستحيل عليه أن يهب لابنته مھرا من أطيان ، وأما المال فلا مال لديه .

هاقد انقضى اكثر من شهر على قبول بيرج خطيا للكونتيسة فيرا ، ولم يبق الا ثمانية أيام لحلول موعد الزواج . ولكن الوقت لمّا يفلح بينه وبين نفسه أن يحل مشكلة المهر الى الآن ، ولا حدث بها امراته . كان تارة يهب لابنته فيرا أرض ريازان ، وتارة يريد أن يبيع غابة ، وتارة يريد أن يقترض مالا بسند . وقبل الاحتفال بيضة ايام دخل بيرج في ساعة مبكرة من الصباح غرفة مكتب الامير ، وسأل حماء المقبل ، مع ابتسامة رقيقة واحترام كبير ، أن يمدّه بايضاحات دقيقة عن المهر الذي ينوي أن يخص به فيرا . فكان من شأن هذا السؤال الذي كان يتوقعه منذ مدة طويلة أن بث في نفس الكونت اضطرابا بلغ من الشدة والضعف أنه اسرع يقول . على غير هدى أول شيء خطر بباله . قال :

— يسرني اهتمامك بهذا الامر ، يسرني كثيرا ، سوف تكون راضيا

وربت على كتف بيرج ، ونهض راغبا في انهاء هذا الحديث • ولكن بيرج قال له وهو يتسم ابتسامة لطيفة انه سيكون مضطرا الى العدول عن خطبة فيرا اذا هو لم يعرف مقدار مهر فيرا معرفة دقيقة ولم يقبض جزءا منه على الاقل • واطاف قوله :

— أرجو أن تفهم الامر على حقيقته يا كونت • اذا أنا سمحت لنفسي بأن أتزوج قبل أن اضمن انني سأكون قادرا على الوفاء بواجباتي تجاه زوجتي ، وسد احتياجاتها ، فلن يكون سلوكي سلوك رجل شريف • • وكانت النتيجة أن الكونت ، من أجل أن يظهر كريما ومن أجل أن يقطع الطريق على أية مطالب جديدة ، وعده بأن يحرر له سندا بمبلغ ثمانين ألف روبل • فابتسم بيرج ابتسامة عذبة ، وقبل كتف الكونت ، وقال انه شاكر اجزل الشكر ، ولكنه لا يستطيع أن ينظم حياته الزوجية قبل أن يقبض ثلاثين ألف روبل عدا ونقدا • واطاف يستدرك :

— أو عشرين ألف روبل على الاقل ، فيكون السند عندئذ بمبلغ ستين ألف روبل •

فانبرى الكونت يقول :

— نعم ، نعم ، تماما • ولكن معذرة يا صديقي • انني سأدفع لك العشرين ألف روبل عدا ونقدا ، ولكن السند سيقتى بمبلغ ثمانين ألف •
هيا قليني •

الفصل الثاني عشر

لقد بلغت ناتاشا السادسة عشرة من عمرها • ونحن الان في سنة ١٨٠٩ ، أي السنة التي حددتها لبوريس ، وهي تعد على اصابعها ، يوم تبادلنا قبلة قبل أربع سنين ، ثم لم تره بعد ذلك مرة واحدة • وكانت أمام صونيا وأمام أمها ، اذا جاء ذكر بوريس ، تقول بحرية كاملة ان تلك القصص القديمة كلها لم تكن الا صيانيات نسيته منذ مدة طويلة ، ولا تستحق حتى أن يجري فيها حديث ، ولا أن يدور عليها كلام • ولكنها في أعماق قلبها كانت تتساءل عن ارتباطها ببوريس أكان مزاحا أم كان وعدا جديا بربطها ، وكان هذا التساؤل يعذبها تعذيبا •

ان بوريس ، منذ أن ترك موسكو الى الجيش سنة ١٨٠٥ لم يلق آل روستوف مرة واحدة • وقد جاء الى موسكو مرارا ، ومر بأمكنة لا تبعد عن أوترادنويا ، ولكنه لم يطأ أرض منزلهم في يوم من الايام • فكانت ناتاشا تقول لنفسها في بعض الاحيان انه لا يريد ان يراها ، وكانت اللهجة الحزينة التي يتكلم بها الكبار في الاسرة حين يجيئون على ذكره تعزز في ذهنها هذا الافتراض •

كانت الكوتيسة تقول حين يشير أحد الى بوريس :

— الناس في هذا الزمان ينسون اصدقاءهم القدامى ، وكانت آنا

بافلونا التي قلّت زياراتها في الاونة الاخيرة قد اتخذت هي أيضا وضعا فيه كثير من الوقار ، وكانت في كل مرة تتكلم بحماسة شديدة عن مزايا ابنها بوريس وعن انواع النجاح الباهر التي أصابها ، وعن المستقبل اللامع الذي يشق طريقه اليه . وحين وصل آل روستوف الى بطرسبرج جاء بوريس يزورهم .

لقد ذهب اليهم مهتاج النفس بعض الاهتياج . ان ذكرى ناتاشا هي بين ذكرياته أكثرها شعرية . ولكنه كان قد عقد نيته جازمة قاطعة على أن يفهمها ويفهم أهلها أن ما كان بينهما من علاقات في الطفولة لا يمكن أن يكون ارتباطا منه بها ، ولا ارتباطا منها به ، فليس بينهما أي التزام . ان له الان مركزا متألقا في المجتمع بفضل صلته الحميمة بالكوتيسة بيزوخوف ، وان له مكانة مرموقة في عمله بفضل حماية الشخصية الخطيرة الشأن التي تحضه ثقة مطلقة ، فهو يتصور مشاريع زواج بفتاة من أغنى الوارات بطرسبرج ، وهي مشاريع يمكن جدا ان تتحقق .

حين دخل بوريس صالون آل روستوف ، كانت ناتاشا في غرفتها . فلما علمت بوصوله هزعت مخضبة الوجه بحمرة شديدة ، متألفة المحيا بإبتسامة منعمة لظفا ومودة .

كان بوريس يتذكر ناتاشا بفستانها القصير ، وعينيها السوداوين اللامعتين تحت خصلات شعرها ، وضحكتها المجنونة التي يضحكها الاطفال ، أي كانت ذكرها في خياله هي صورتها قبل أربع سنين . لذلك اضطرب حين رأى دخول ناتاشا اخرى مختلفة عن تلك الصورة كل الاختلاف ، وعبر وجهه عن دهشة مترعة بالاعجاب ، فسرّت ناتاشا بما عبر عنه وجه بوريس .

قالت الكوتيسة :

— هيه ! هل تعرفت صديقتك الصغيرة العفريتة ؟

قبّل بوريس يد ناتاشا وأعرب عن دهشته من التبدل الذي طرأ عليها ، وقال :

— ما أكثر ما جملت !

فأجابت عينا ناتاشا الضاحكتان تقولان : « صحيح » • وقالت تسألته :

— وهل شاخ بابا ؟

وجلست ناتاشا ، وأخذت تنفّس في خطيب طفولتها صامتة لا تشارك في الحديث بينه وبين الكوتيسة ، وراحت تنعم النظر فيه لا تترك صغيرة ولا كبيرة الا تدقق فيها • فكان بوريس يشعر بوطأة هذه النظرة العنيدة الملأى عاطفة ، وكان ينظر اليها هو ايضا من حين الى حين •

كانت بزة بوريس العسكرية ، ومهاميزه ، وكرافته ، وتسريحة شعره ، كان ذلك كله على آخر موضحة ، وكان « كما يجب » • وقد جلس على مقعد بقرب الكوتيسة مواربا بعض المواربة ، يعدل بيده اليمنى قمازه الناصع الذي يلف يده اليسرى ، ويتكلم عن مباحج المجتمع الراقي ببطرسبرج زامعا شفثيه زما أنيقا ، ويستعرض الزمان الماضي ومعارفه بموسكو ساخرا سخرية ناعمة • ولم يكن من قبيل المصادفة (وقد أحست ناتاشا بذلك) أنه حين تكلم عن المجتمع الراقي دسّ في حديثه كلمة عن حفلة الرقص التي أقامتها السفارة ودعته اليها ، وعن الدعوات التي تلقاها من « ن ن » و « س س » •

لبثت ناتاشا صامتة تختلس النظر اليه اختلاسا • فكانت نظرتها هذه اليه تقلقه مزيدا من الاقلاق وتبث في نفسه مزيدا من الاضطراب شيئا

بعد شيء • وأصبح يلقي عليها نظرات أكثر عددا ، وينقطع عن المضي في كلامه من حين الى حين • وما انقضت عشر دقائق حتى قام يستأذن بالانصراف • فكانت العينان الثابتان المستطلعتان اللتان تعبران عن الاستفزاز والسخرية في آن واحد ما تزالان مصوّبتين اليه •

قال بوريس لنفسه بعد زيارته الاولى ان ناتاشا ما برحت كما كانت تجذبه في الماضي ، ولكن يجب عليه ان لا يخضع لهذه العاطفة ، لان زواجا بها ، وهي الفتاة التي لا تكاد تملك ثروة ، سيدمّر مستقبله في الطريق الذي سلكه ، وان تجديد علاقاته القديمة بها من غير أن ينوي تزوجها ليس بالسلوك الشريف • فقرر بينه وبين نفسه ان يتحاشى لقاءها ولكنه رغم هذا القرار عاد يزور آل روستوف بعد بضعة أيام ، ثم اعتاد أن يرجع يزورهم كثيرا ، حتى لقد صار يقضي عندهم اياما كاملة • كان يقول لنفسه ان عليه حتما أن يكشف ناتاشا ، فيعلن لها ان عليهما أن ينسيا الماضي ، وانها رغم كل شيء •• لايمكن ان تكون زوجته ، وانه لا يملك ثروة ، فلا يمكن أن يُقبل زواجا لها • ولكن لم يفلح في اقتحام هذه المكاشفة ، ولم يعرف كيف يحتال للامر • فكان يغوص كل يوم مزيدا من الغوص • وكانت ناتاشا ، كما لاحظت ذلك أمها وصونيا ، تعود الى حبّها القديم ، وتزداد تولها ببوريس • فهي تغني له الاغنيات التي يؤثرها ، وتريه ألبوم الصور ، وتطلب منه ان يكتب فيه بعض الكلمات ، وتحظر عليه أن يعود الى ذكر الماضي لفهمه أن الحاضر أجمل • وكان هو ينصرف في كل يوم طائش اللب دون ان يكون قد استطاع قول ما كان ينوي أن يقوله ، ودون أن يعرف هو نفسه ماذا كان يفعل ، ولماذا كان يجيء ، والى ماذا سينتهي هذا الامر • وأصبح لا يذهب الى هيلين ، وصارت هيلين ترسل اليه بطاقات ملأى بملامات ، وظل هو يقضي عند آل روستوف اياما كاملة •

الفصل الثالث عشر

في ذات مساء، بينما كانت الكونتيسة العجوز تسجد سجدة صلاة المساء على سجادتها متأوهة آنسة، وهي لابسة قميص النوم، خالعة شعرها المستعار فلا تخرج من تحت طاقيتها المصنوعة من قماش قطني خشن الا خصلة شعر هزيلة، اذ صرّ الباب، وهرعت ناتاشا تدخل عليها، لابسة قميص النوم هي أيضا، ملفّمة شعرها بشرائط لتجميده، حافية القدمين في بابوجين. فالتفت الكونتيسة وقطبت حاجبيها. كانت تختتم صلاتها بقولها: «أحقّ سريري هذا سيكون نعشي؟».

تبدّد خشوع الكونتيسة. أما ناتاشا التي كانت محمرة الوجه منتعشة الهيئة، فانها أسرعت تتوقف حين رأت أن أمها تصلي، وجثت على ركبتها، وأخرجت طرف لسانها كما يفعل من يفاجأ وهو يرتكب ذنبا من الذنوب.

واستمرت أمها في صلاتها، فركضت ناتاشا سائرة على رؤوس الاصابع نحو السرير، وخلعت بابوجيها وأخذت تحك إحدى قدميها الصغيرتين بالقدم الأخرى حكا شديدا، ثم وثبتت الى السرير الذي كانت الكونتيسة تخشى أن يسمي نعشها، انه سرير عال فراشه من ريش، وله خمس وسائد نضّدت هابطة من فوق الى تحت. وثبتت ناتاشا الى

السريـر ، ودفنت نفسها في اللحاف ، وتدحرجت حتى بلغت الحائط فأقامت عنده ، وأخذت تتحرك تحت الغطاء جاعلة ركبتيها تحت ذقنها ، خابطة بقدميها ، ضاحكة ضحكا مخنوقا ، مخبئة رأسها تارة ، ناظرة الى امها تارة اخرى • فلما انتهت الكوتيسية من صلاتها ، أقبلت على السريـر عابسة ، ولكنها ما ان رأت ناتاشا مخبئة رأسها في الغطاء حتى ابتسمت ابتسامتها الطيبة الضعيفة •

قالت الام :

— هيا ، هيا ! ما هذا ؟

فأجابت ناتاشا :

— ماما ، هل يمكننا أن نتحدث معا ؟ خذي هذه قبلة في العنق ، وهذه قبلة اخرى اذا كنت تقبلين •

قالت ناتاشا ذلك وأحاطت عنق أمها بذراعيها ، وقبلتها تحت الذقن • صحيح أن ناتاشا كانت تباغت أمها بحركات مفاجئة ، ولكن ناتاشا تبلغ من رهاقة الحس وحنق الحركة ، انها كانت ، اذا طوقت أمها ، تعرف دائما كيف تحتال على الامر بحيث لا تحدث لامها ألما ، ولا انزعاجا ، ولا ضيقا أو برما •

استندت الكوتيسية الى وسائدتها ، فتدحرجت ناتاشا على نفسها مرتين ، حتى ضجعت بجانب امها تحت غطاء واحد مخرجة يديها من تحت اللحاف ، مضطنعة هيئة الجد •

فسألتها الام :

— هيه ! ما الامر اليوم ؟

ان هذه الزيارات الليلية التي تجمع الام وابنتها قبل ان يعود الكونت من النادي لهي من أكبر مسرات الام وابنتها كليهما •

عادت الكونتيسة تسأل ناتاشا :

— هيه ! ما الامر اليوم ؟ أنا أيضا أريد أن أكلمك في شيء ...
فوضعت ناتاشا يدها على فم أمها ، وقالت بلهجة جادة :

— أعرف • تريدان أن تكلميني عن بوريس ... ومن اجل هذا
انما جئت • لا تقولي شيئا • أنا اعرف • بل قليني ما تريدان أن تقولي •
ونزعت يدها عن فم أمها ، وأردفت تسألها :

— قليني ياماما • أهو لطيف محبب ؟

فأجابت الام :

— ناتاشا • أنت في السادسة عشرة من عمرك • حين كنت أنا في
سنك كنت قد تزوجت • نعم ، انه لطيف ، واني لاجبه كما تحب ام
ابنها ، ولكن ما الذي تريدان أن تصلي اليه ؟ ماذا تضمرين من نيات ؟
لقد سلبته عقلاه ، أنا أرى هذا رؤية واضحة ...

قالت الكونتيسة هذا الكلام ، وألقت نظرة على ابنتها • كانت
ناتاشا جامدة لا تتحرك ، وكانت تحدّق بعينيها الى أمام ، ناظرة في أحد
تماثيل أبي الهول المنحوتة من خشب الآكاجو في أطراف السرير ، بحيث
كانت الكونتيسة لا تستطيع أن ترى من وجه ابنتها الا جانبه • ففجأها
ما كان يعبر عنه هذا الوجه من جد واستغراق •

كانت ناتاشا تصغي الى كلام أمها وتفكر • قالت :

— ثم ماذا ؟

— أقول انك سلبت عقله ، فعلام هذا ؟ ما الذي تريدينه منه ؟

أنت تعلمين حق العلم أنك لايمكن أن تتزوجه •

فسألتها ناتاشا دون أن تغير وضعها :

— لماذا لايمكن أن أتزوجه ؟

— لانه صغير السن ، ولانه فقير ، ولانه قريبك ... ولانك

لاتحبينه •

— ما يدريك ؟

— أعرف •

قالت الام :

— واذا أردت ؟

— لاتقولي سخافات ؟

— ولكن اذا أردت ؟

— ناتاشا ، انني أتكلم جادة لا هازلة ...

لم تدع ناتاشا لامها ان تكمل كلامها ، بل جذبت يدها الكبيرة ، فقبلت وجه اليد ثم قبلت راحتها ، ثم أدارتها مرة أخرى ، فطبعت قبلة على مفصل احدى الاصابع ، فقبلة ثانية على الفرجة بين هذه الاصبع وجارتها ، فقبلة ثالثة على المفصل الذي يليه ، وهي تعد الاشهر : « كانون الثاني ، شباط ، آذار ، نيسان ، أيار • »

وقالت وهي تلقي نظرة على أمها التي كانت تتأمل ابتها بعينين
ممتلئتين حنانا ، والتي كانت في هذا التأمل كمن نسيت ما كانت تريد
أن تقول :
— تكلمي يا ماما ، لماذا تسكتين ؟
قالت الكونتيسة :

— ليس هذا لائقا يا عزيزتي • ثمة أناس لن يفهموا ما كان بينكما
من صداقة في الطفولة • فإذا رأوا ما بينكما الآن من مودة حميمة كان
ذلك سيء اليك في نظر الشباب الآخرين الذين يترددون علينا • ثم ان
هذا يجعله يتعذب في غير طائل • لعله عثر على فتاة يناسبه أن يتزوجها،
فتاة غنية • ثم ها هو ذا الآن يسلب عقله ...

رددت ناتاشا قولة أمها :

— يسلب عقله •

— انني أصدر في كلامي عن تجربة • لقد كان لي قريب ...

— أعرف • كيريل ماتفتش ، ولكنه عجوز ...

— لم يكن عجوزا منذ صدر حياته ! ... اسمعي يا ناتاشا ،

سأكلم بوريس • لا يحسن أن يكثر من هذا المجيء هذا الاكثار كله •

— ولماذا لا يجيء اذا كان يحب أن يجيء ؟

— لانني أعرف أن ذلك لن يؤدي الى شيء •

— ما يدريك ؟ لا يا ماما • لا تقولي له أن لا يكثر من المجيء •

هذه سخافات !

قالت ناتاشا هذا الكلام بلهجة من يتراد أن يئنزع منه ماله •
وأردفت :

— طيب ، لن أتزوجه • ولكن° فليستمر في المجيء مادام ذلك
يسليه ، ويسليني أنا أيضا •

ونظرت ناتاشا الى امها مبتسمة • وعادت تقول :

— لن أتزوجه ، وانما يحبني وأحبه « هكذا » •
— كيف « هكذا » ؟

— « هكذا » ... الزواج لا يهمني • يستوي عندي أن أتزوج
وأن لا أتزوج • ويكون الحب بيننا « هكذا » •

فقالت الكونتيسة مرددة وقد أخذ جسمها كله يهتز بضحكة كبيرة
مجلجلة تضحكها امرأة عجوز على حين فجأة :

— هكذا ، هكذا ...

فهتفت ناتاشا تقول :

— لاتضحكي هذا الضحك الشديد يا ماما • انك ترجئين السرير
كله ... ما أعجب الشبه بيني وبينك ! انك ضحّاكة كبيرة ، لاتقلين
عني في هذا •

وتناولت ناتاشا يدي أمها ، واستأنفت العد وهي تقبّل مفصل
الاصبع الصغيرة ، حزينان ، ثم تواصل التقبيل تموز وآب الى نهاية
اليد ، وقالت :

— ماما ! أهو موكه بحبي كثيرا ؟ ما احساسك ؟ هل أحببت أنت

بهذا القدر ؟ نعم ، انه لطيف ، لطيف جدا ، لطيف جدا جدا ... ولكنه
لا يعجبني كثيرا . لكأنه نواس ساعة الحائط في قاعة الطعام ... هل
تفهمين ما أقصد ؟ نحيل ، أشهب ، فاتح ...

قالت الكونتيسة :

— ما هذا الزهر الذي تقولين ؟

وتابعت ناتاشا كلامها تقول :

— أأنت لاتفهمين عني حقا ؟ نيقولا يستطيع أن يفهم ما أريد ان
أقوله . ييز وخوف ، مثلا ، أزرق ، أزرق قاتم تخالطه حمرة ، وهو مربع .

قالت الكونتيسة ضاحكة :

— له أيضا تتغنجين !

— لا ، هو ماسوني . قيل لي هذا . انه لطيف ، أزرق قاتم تمازج
زرقته حمرة . كيف أشرح لك ما أريد أن أقوله ...

وانهما لماضيتان في هذا الحديث اذ علا صوت الكونت الشيخ وراء
الباب يقول :

— أأنت نائمة يا عزيزتي الكونتيسة ؟

فوثبت ناتاشا عن السرير الى الارض ، وحملت بابوجيها ، وولت
هاربة الى غرفتها حافية القدمين .

وبقيت مؤرقة مدة طويلة . وكانت تقول لنفسها ان احدا لا يستطيع
أن يفهم كل ما تفهمه وكل ما يعتل في نفسها .

وتساءلت وهي تنظر الى القطة الصغيرة النائمة متكورة مع ضفيريها

الكبيرة : « صونيا ؟ لا ! أين لها أن تفهم ؟ انها متمسكة بأهداب الفضيلة أكبر التمسك حقا . وهي تحب نيقولا ولا تريد ان تعرف شيئا آخر . وأمي لا تفهمني أيضا . ألا ما أذكاني ... »

وتابعت تقول عن نفسها كمن يتكلم عن غائب ، وتتصور أن رجلا ذكيا هو الذي يشني عليها هذا الشئ ، رجلا لا يضارعه في ذكائه رجل ، رجلا هو خير الرجال قاطبة :

— ما أفتتها !

ويتابع الرجل الذكي كلامه عنها فيقول :

— انها تملك جميع المزايا ، جميعها ... هي خارقة في ذكائها ، خارقة في لطفها ... ثم هي جميلة ، جميلة جمالا خارقا ، وحاذقة حدقا خارقا . وهي تجيد السباحة ، وتتقن ركوب الخيل ... وما اروع صوتها في الغناء ! نعم، نستطيع أن نقول ان لها صوتا مدهشا مذهلا !» .

ودندنت جملتها الموسيقية الاثيرة عندها ، المستمدة من أوبرا ألفها شيرويني . وارتمت على سريرها ، وأفرحها أعظم الفرح أنها ستنام ، فضحكت سعيدة كل السعادة ، ونادت دونياشا لتطفئ الشمعة ، فما كادت دونياشا تخرج حتى كانت ناتاشا قد انتقلت الى عالم آخر ، عالم زاخر بمزيد من السعادة ، هو عالم الاحلام ، هو العالم الذي يكون كل شيء فيه سهلا سهولته في الواقع ، جميلا جماله في الواقع ، ولكنه خير من عالم الواقع لانه مختلف عنه .

وفي الغد استدعت الكونتيسة بوريس ، وتحدثت اليه ، فانقطع عن المجيء الى منزل آل روستوف منذ ذلك اليوم .

الفصل الرابع عشر

في اليوم الحادي والثلاثين من شهر كانون الاول ، عشية رأس سنة ألف وثمانمائة وعشر ، أقيمت حفلة رقص في منزل سيد من كبار أصحاب الاملاك من عهد كاترين الثانية ، وكان أعضاء السلك الدبلوماسي والامبراطور سيحضرون هذه الحفلة .

فعلى الرصيف الانجليزي^(١) كان المنزل الفخم الذي يملكه هذا السيد الكبير من أصحاب الاملاك ، تتلأأ فيه الانوار آلافا . وأمام درجات الباب المضاءة ، المفروشة بسجادة حمراء ، كانت الشرطة تصطف سياجا بإشراف مدير الشرطة نفسه مع عشرات من الضباط . وكانت مركبات يحرسها خدم بسلامتهم الحمراء ، وخدم بقبعات ذات ريشة ، ماتنفك تصل ثم تسفي . انها ثقيل سادة يرتدون بزات عسكرية تزوقها رصائع وأوشحة ؛ وكانت سيدات ترتدي الساتان وفراء السمور ينزلن في حذر على مواطىء العربات ، التي تنخفض مقرقة ، ثم يرقين الدرجات المفروشة بالسجادة الحمراء مسرعات صامتات .

وكانت دمدمة تسري في الجهور وكانت القبعات ترفع عن الرؤوس عند وصول كل غربة تقريبا .

(١) رصيف جميل على نهر نيفا في وسط العاصمة .

— أهو الامبراطور ؟ .. لا .. هذا وزير .. هذا أمير ..
هذا سفير ...

كذلك كان يقول الناس • وكان أحد المستطلعين ، وهو أحسنهم
هنداما ، يبدو كمن يعرف جميع القادمين ، فكان يسمى أشهر رجال
ذلك العصر بأسمائهم •

وبينما كان ثلث المدعوين قد وصلوا ودخلوا ، كان آل روستوف،
المدعوون أيضا ، ما يزالون منهمكين في اتمام تزينهم بسرعة •

كانت هذه الحفلة قد أثارت في أذهان آل روستوف تعليقات كثيرة،
وحضتهم على استعدادات جمة ، وايقظت في نفوسهم مخاوف عدة :
هل توجه اليهم دعوة ؟ هل تكون زينتهم مهيأة في الموعد ؟ هل يتم
كل شيء على ما يجبون أن يتم ؟

وكانت ماريا إجناتيفنا بيرونسكي ، صديقة الكونتيسة وقريبتها ،
وهي امرأة نحيلة الجسم صفراء الوجه من آنسات الشرف في البلاط
السابق ، قد وعدت بأن تصحب هؤلاء الريفيين الى الحفلة ، وكانت لهم
بمثابة مرشد وموجه في المجتمع البطربرجي الراقي •

وكان على آل روستوف أن يمروا في الساعة العاشرة من المساء
بآنسة الشرف ماريا إجناتيفنا ليضطجعوها من منزلها بقرب حديقة
« توريد »^(١) • وها هي ذي عقارب الساعة تبلغ العاشرة الا خمس
دقائق والبنات لمّا يتهيأن •

(١) حديقة تحيط بالقصر المسمى بهذا الاسم ، وكان يملكها جريجوار بوتمكن ، أمير
« توريد » (القرم) ، وكانت في ذلك الاوان مقر الامبراطورة - «الوالدة ماري » .

ان هذه أول حفلة رقص تحضرها ناتاشا في حياتها • وقد قامت من فراشها منذ اساعة الثامنة من الصباح، وقضت النهار كله في سعي محموم واضطراب مسعور • كانت جهودها كلها ترمي ، منذ الصباح ، الى أن يكنّ هنّ الثلاثة ، هي وماما وصونيا ، في أبهى حلة من الثياب • وقد اعتمدت الكوتتيسة وصونيا عليها كل الاعتماد ، فسلّمتها أمرها بلا جدال •

كان على الكوتتيسة أن ترتدي ثوبا من مخمل ما ساكا ، وكان على الفتاتين أن تلبسا ثوبين أبيضين من شفوف فوق فستانين ضيقين من حرير وردي اللون مع ورود في الصدر • وكان عليهن أن يصففن شعرهن على الطريقة الاغريقية •

لقد فرغن من الامور الاساسية في تزيهن : فالاقدام والاذرع والاعناق والآذان غُسلت وعُطِّرت ومسحت بالبودرة في كثير من العناية على ما يجب أن يُفعل لحفلة رقص • وجوارب الحرير المخرّمة، وأحذية الساتان الابيض ذات الاشرطة ، قد لبّست ، وتصفيف الشعر قد انتهى أو شارف على الانتهاء • وصونيا تفرغ من ارتداء ثيابها ، وكذلك الكوتتيسة • ولكن ناتاشا ، من شدة اهتمامها بأمرها وبصونيا ، ومن كثرة عنايتها بهما • قد تأخرت ، فهي ما تزال جالسة أمام المراة بمئزر ملقى على كفّيهما • وانتهت صونيا من ارتداء ملابسها ، فوققت في وسط الغرفة تغرز باصبعها الصغيرة دبوسا يؤلم غرزُه اصبعها من شدة ضغطها عليه ، لتثبت به آخر شريط كان يصرّ تحت الدبوس صريحا •

قالت لها ناتاشا وقد انصرفت عن تسريح شعرها ، وأمسكت شعرها
بكلتا يديها قبل أن تستطيع الخادمة تركه :

— ما هكذا يا صونيا ، ما هكذا يا صونيا • وما هكذا تعقد العقدة •
تعالى الى هنا •

فجلست صونيا ، وثبتت لها ناتاشا الشريط بطريقة أخرى •

قالت خادمة ناتاشا وهي ما تزال ممسكة شعرها :

— معذرة يا آنسة ••• حقا لا يمكن •••

فأجابت ناتاشا قائلة :

— آه ••• يا إلهي ! انتظري قليلا :•••

وأردفت تقول لصونيا :

— هكذا يا صونيا •

قالت الكوتيسية :

— هل أوشكتما على الانتهاء ؟

— حالا ، حالا ، وهل انتهيت أنت يا ماما ؟

— لم يبق عليّ الا أن أضع قبعتي ؟

فصرخت ناتاشا تقول لها :

— لا تضعيها ، لا تضعيها بغير مساعدتي • لن تحسني وضعها
وحدك !

— ولكن الساعة بلغت العاشرة •

كانوا قد قرروا أن يصلوا الى الحفلة في العاشرة والنصف ، وما

تزال ناتاشا تنهياً • ثم ان عليهم أن يسروا بحديقة توريد لاصطحاب ماريا
إجنايفنا بيرونسكي الى الحفلة •

فلما انتهت ناتاشا من تسريح شعرها ، هرت بقميص أمها وبتنورة
قصيرة تكشف عن حذاءيها الصغيرين الخاصين بحفلة الرقص ، هرت
الى صونيا تفحص زيتنها مدققة ، ثم انطلقت مسرعة الى أمها ، فأدارت
رأسها ، وثبتت لها قبعنها بدبايس ، وطبعت قبلة على شعرها الشائب
خطفا ، ثم ركضت عائدة الى الخادومات اللواتي كنَّ يعدن كفاً
حاشية تنورتها •

لم يكن قد بقي الا هم " واحد ، هو تنورة ناتاشا التي كانت مسرفة
في الطول • فكانت خادمتان عاكفتين على تقصيرها ، وكاتتا تقطعان
الخيوط بأسنانهما مستعجلتين ، وكانت خادمة ثالثة تركض بين الكوتيسية
وصونيا والدبايس بين شفتيها ، وكانت خادمة رابعة ترفع الثوب
الشفاف بكلتا ذراعيها •

— ما فروشكا ! مزيدا من السرعة يا عزيزتي !

— اعطيني الكشتبان يا آنسة •

وسأل الكونت من وراء الباب :

— هل تفرغن بعد قليل ؟

هذا عطر لكن ! لا بد أن الآنسة بيرونسكي قد نفذ صبرها •

قالت الخادمة وهي ترفع الثوب الشفاف باصبعيها بعد أن قصَّرتة ،
وتنفخ عليه وتهزه لتظهر بهذه الحركة أنها عارفة بخفة ما تحمله
وبنصاعة بياضه •

وأخذت ناتاشا تلبس الفستان ، وهي تصرخ قائلة لأبيها الذي
فتح الباب :

لحظة ، لحظة ! لا تدخل يا بابا • كان الثوب الذي يشبه أن يكون
غمامة بيضاء يغطي كل وجهها • وأعادت صونيا اغلاق الباب • وسُمح
للكونت بعد لحظة أن يدخل •

كان الكونت معطرا مدّهنّا ، وكان يرتدي فراكا أزرق ، وجوربين
وحذاءين خفيفين •

قالت ناتاشا وهي واقفة في وسط الغرفة تعدل ثنيات ثوبها :
— آ ••• بابا ! ما أجملك ! أنت آية من آيات الجمال !

قالت إحدى الخادومات وكانت تشد الثوب راحة على ركبتيها ،
منقّلة الدبايس من أحد طرفي فهما الى طرفه الآخر :
— من فضلك يا آنسة ، من فضلك •••

وصاحت صونيا تقول وفي صوتها يأس حين أنعمت النظر في ثوب
ناتاشا :

— قولي ما تشائين ، ولكن الثوب ما يزال طوله زائدا •
فتراجعت ناتاشا لترى نفسها في مرآة الحائط ، فوجدت الثوب
زائد الطول فعلا •

قالت مافروشكا وكانت تتبع مولاتها على أربع :
— أحلف لك يا آنسة أنه ليس زائد الطول البتة •

وعقبت دونياشا تقول جازمة وهي تسلُّ إبرة من خسارها، وتستأنف العمل حالا :

— اذا كان زائد الطول نقصّره •

وفي تلك اللحظة دخلت الكوتيسية بثوبها المصنوع من المخمل وقبعتها ، دخلت تخطو خطوا وجلا لا صوت له • فصرخ الكونت يقول :

— أوه ! أوه ! ما أجملها ! انها أجملكن جميعا •

وأراد أن يضسها بذراعيه ولكنه تنحى محمّر الوجه خشية أن يجعل لها ثوبها •

وقالت ناتاشا :

— اعطني القبعة قليلا الى جانب يا ماما • انتظري • سأدبّر هذا • سأعدلها لك •

وهبت تندفع الى الامام سريعة فلم تستطع الخادومات أن يتبعنها في جريها فاذا بقطعة من الثوب الذي يشبه أن يكون غمامة بيضاء تبقى في أيديهن •

— يا الهي ! ما هذا أيضا ! يمينا ما أنا بمسئولة •••

فقالت دونياشا مؤكدة :

— سأرفّع القطعة فلا يظهر شيء •

ودخلت المروضة فهتفت تقول :

— ملكتي الجميلة ! ملكتي العزيزة ! وصونيا أيضا ! آه ••• ما أجملكما !

وفي الساعة العاشرة والرابع استطاع آل روستوف أخيرا أن يركبوا العربا وينصرفوا • ولكن لا يزال عليهم أن يملأوا بحديقة توريد •

كانت الآنسة بيرونسكي متأهبة • ورغم تقدمها في السن ، ورغم دماثة وجهها ، كانت الاحتفالات التي جرت في منزل آل روستوف قد جرى مثلها عندها أيضا ، ولكن بتعجل أقل ، ومرد ذلك الى ما تملكه من خبرة واسعة • كانت قد عطرت جسمها كله ، حتى لقد مسحته بالبودرة ، وعشيت بغسل وجهها الى ما وراء الأذنين ، بل وحدث ثننها ، كما حدث عند آل روستوف ، أن خادمتها العجوز صاحت متحمسة معجبة حين رأت مولاتها تدخل الصالون بثوب أصفر يزينه الحرف الاول من اسم الامبراطور •

ومدحت الآنسة بيرونسكي زينة آل روستوف • وأثنى آل روستوف من جهتهم على ذوقها ومدحوا زينتها • حتى اذا كانت الساعة الحادية عشرة ركبوا العربات بكثير من الحذر خشية على القبعات والفساتين وانطلقت العربات تقلهن الى الحفلة •

الفصل الخامس عشر

امتلاً نهار ناتاشا كله بالعمل ، فلم يتح لها أن تفكر لحظة فيما كان ينتظرها •

وفي هواء الليل الرطب البارد ، في العربة الضيقة المظلمة التي كانت تهتز وترجح انما استطاعت لأول مرة ، أن تتصور تصورا واضحا ما ينتظرها هناك في الصالات المضاءة بالألأءة ، فكانت كأنها تسمع الموسيقى ، وترى الازهار ، وتترك في الرقصات ، وتراى لها الامبراطور ، وتخيلت جميع شبيهة بطرسبرج اللامعة المتألقة • ان ما كان ينتظرها يبلغ من شدة الروعة ، ومن فرط التضاد بينه وبين ما تحسه في العربة من برد وضيق وظلام أنها لا تستطيع تصدق ما يتصوره خيالها • ولم تستطع أن تدركه ادراكا تاما وأن تفهمه فهما كاملا الا حين دخلت الدهليز بعد أن تجاوزت السجادة الحمراء على درجات الباب ، فنزعت فروتها ، ومشت بين الازهار تصعد السلم الكبير المضاء بجانب صونيا ، متقدمة الكوتيسة • وفي تلك اللحظة انما تذكرت ما عقدت نيتها عليه من التزام وضع الابهة الذي كانت ترى أن على كل فتاة أن تلتزمه في مثل هذا الظرف ، فسرعان ما أخذت تصطنع هذا الوضع • ولكن كان من حسن حظها أنها أحست ببصرها يتزغل ، فلا ترى شيئا من الاشياء رؤية واضحة ، وأحست بنبضها يشتد اشتدادا

عنيفا ، وأحست بقلبها يخفق خفقانا قويا • فلم تستطع أن تصطنع تلك الهيئة الرضية الوقور التي كان يمكن أن تجعلها مضحكة ، وتقدمت خائرة العزم من شدة الاهتياج ، محاولة اخفاء اضطرابها بكثير من المشقة والعناء • وكان ذلك هو الوضع الذي يناسبها أكثر من أي وضع سواه • ومن حول آل روستوف ، كان المدعوون يصعدون مثلهم • بزينة الحفلات ، ويتكلمون مثلهم بصوت خافت • وكانت مرايا السلم تعكس أخيلة السيدات بأثوابهن البيضاء والزرقاء والوردية مع جواهر الماس واللؤلؤ تزين أذرعهن وأجيادهن العارية •

كانت ناتاشا تنظر في المرايا فلا تستطيع أن تميز في الاخيلة التي تعكسها بين صورتها وصور غيرها من السيدات ، فالصور كلها يختلط بعضها ببعض موكبا واحدا لامعا متلاثا • وحين نفذت الى الصالون الاول أصمَّت أذنيها ما سمعته من جلبة الاصوات ، ووقع الاقدام ، وكلمات المجاملة التي يتبادلها الحضور ، كما أعمى بصرها سطوع الاضواء ، وبهاء الاثاث • وكان أصحاب المنزل واقفين على الباب منذ نصف ساعة يرددون لكل قادم جملة الترحيب الابدية « سعيد برؤيتك أعظم السعادة » ، وقد استقبلوا آل روستوف والآنسة ييرونسكي هذا الاستقبال نفسه مكررين لهم تلك الجملة ذاتها •

وقد انحنت البنيَّتان اللتين تلبسان كلتاهما ثوبا أبيض ، ويزدان شعرهما كليهما الاسود بورود متماثلة ، انحنتا انحناء واحدة ، ولكن ربة المنزل تلبث نظرتها على النحيلة ناتاشا أكثر مما تلبث على الاخرى ، وابتسمت لهذه الطفلة ابتسامة خاصة مختلفة عن ابتسامة الترحيب

رأيتها تذكرت أيامها الذهبية في صباها ، وهي أيام مضت الى غير رجعة ،
وتذكرت أول حفلة رقص شهدتها . ورب المنزل أتبع ناتاشا بنظرة أيضا ،
وسأل الكونت أي الفتاتين ابنته ، وقال وهو يلثم أطراف أصابعه اعجابا :

— فتانة !

وكان الضيوف في صالة حفلة الرقص يزدهمون على باب الدخول
منتظرين الامبراطور . واندست الكونتيسة في الصفوف الاولى من هذا
الجمهور المحتشد . وسمعت ناتاشا وأحست أن أصواتا كثيرة تستعلم
عنها ، وأن عيوننا كثيرة تنظر اليها . وأدركت أنها حظيت باعجاب أولئك
الذين لاحظوها ، فكان من شأن ذلك أن هدأ روعها واطمأن بالها قليلا .
وقالت لنفسها ، « بين الناس من هم مثلنا ، وبينهم من هم أسوأ
حالا منا ! » .

وفي أثناء ذلك كانت الأنسة بيرونسكي تسمي للكونتيسة أبرز
الشخصيات في الحفل .

قالت لها وهي تشير الى شيخ قصير ذي شعر فضي اللون غزير
الخصل ، واقف في طائفة من السيدات يضحكن :

— هذا وزير هولانده ، هناك ، ذو الشعر الاشيب ...

وأضافت تقول مشيرة الى هيلين وهي تدخل :

— وهذه ملكة بطرسبرج ، الكونتيسة بيزوخوف .

— ما أجملها ! انها لا تقل عن ماريا آنطونوفنا^(١) انظري كيف
يزدحم الناس حولها شيوخا وشبابا • انها جميلة ، وانها ذكية • يقال
ان الامير «...» مجنون بهواها جنونا • وانظري الى هاتين الأخريين •
ان الذين يتزاحمون عليهما أكثر من الذين يتزاحمون على الكوتيسة
بيزوخوف ، مع أنهما ليستا من الجمال في شيء •

قالت الآنسة بيرونسكي ذلك وهي توميء الى سيدة تجتاز القاعة
ومعها ابنتها الدمية دمامة صريحة • وأردفت الآنسة بيرونسكي تقول
معقبة :

— هي فتاة مرشحة للزواج تملك الملايين ، وهؤلاء شباب يطمعون
في الفوز بتزوجها •

وأضافت تقول مشيرة الى فارس جميل الطلعة من فرسان الحرس
مرءً أمامهما رافعا رأسه ناظرا الى بعيد :

— هذا أخو الكوتيسة بيزوخوف • انه آنا تول كوراجين • ما
أجمله ! أليس كذلك ؟ يقال انهم سيزوجونه هذه الوارثة الغنية •
وقريبكم دوربتسكوي يحوم حولها كثيرا أيضا • يقال انها تملك
ملايين •

(١) ماري ناريشكين ، واسمها قبل الزواج الاميرة كزفرنتسكا ؛ امرأة دمتری لقوشتش
ناريشكين . ان هذه البولندية الجميلة ظلت الخليفة الوفية للاسكندر الاول الذي
كانت زوجته اليزابت ، المراض كثيرا ، لا تخرج الا في النادر القليل •

وأجابت عن سؤال ألقتهما عليه الكونتيسة عن كولانكور :

— نعم ، هذا سفير فرنسا بنفسه • انظري اليه • لكأنه ملك •
انهم لطاف ، لطاف جدا ، هؤلاء الفرنسيين ، رغم كل شيء • لا أحد
يضارعهم لطفا وظرفا في المجتمع • وها هي ذي أخيرا ! لا شك في أنها
أجملهن جميعا ، صاحبتنا ماريا آنطونوفا ! وما أبسط أناقتها ! رائعة !
تُعبد عبادة !

وقالت وهي تدلها على ييزوخوف :

— انظري الى هذا الشاب السمين الذي يضع على عينيه نظارتين •
انه الماسوني العام ، هو بجانب امرأته أشبه بالدمية حقا !

كان بطرس يسير مرجّحا جسمه الضخم ، مخترقا الجهور اختراقا
يحمي رأسه محييا ذات اليمين وذات الشمال ، وكأنه بقلّة احتفاله وطيبة
قلبه وسداجة حركاته يسير بين جمهور من الناس في السوق • كان
يشق لنفسه طريقا كمن يبحث عن أحد •

نظرت ناتاشا فرحة الى هذا الوجه الذي تعرفه ، الى هذا الشاب
الذي وصفته الآنسة بيرونسكي بأنه دمية ، فعرفت أنه عنهم وعنّها خاصة
انما يبحث • كان قد وعدها بأن يجيء الى الحفلة ، وأن يعرفها براقصين •

ولكن ييزوخوف قبل أن يصل اليهم ، وقف بقرب رجل أسير بارع
الجمال متوسط القامة يرتدي بزة عسكرية بيضاء^(١) ، كان واقفا عند

(١) هي بزة لابسى الدروع وفرسان الحرس •

كوة نافذة يتحدث مع شخص طويل القامة يزدان بالأوسمة ، ويتوشح بوشاح • وسرعان ما تعرفت ناتاشا ذلك الشاب الذي يرتدي البزة العسكرية البيضاء • انه الامير آندره بولكونسكي • وقد بدا لها أنه صار أصغر سنا ، وأنضر عودا ، وأجمل طلعة ، وأكثر مرحا وفرحا •

ف قالت لأمها وهي تدلها على الامير آندره :

— هذا شخص آخر نعرفه يا ماما • انه بولكونسكي • هل ترينه ؟
لقد بات عندنا ليلة ، ألا تذكرين ؟

قالت الآنسة ييروفسكي :

— آ ... تعرفينه ؟ انني لا أطيقه ! هو الآن يسقط المطر ، ويطلع الشمس ! ما أشد غروره ! ليس لغروره حدود ! ابن أبيه ! لقد توطدت الصلة بينه وبين سيرانسكي ، فهما يهيئان الآن مشاريع لا أدري ما هي ! انظري كيف يعامل السيدات ! هذه سيدة تكلمه فيشيخ عنها وجهه • لو عاملني كما يعامل هذه السيدات لعرفت كيف أقول له رأيي فيه •

الفصل السادس عشر

وفجأة حدثت حركة شاملة ، وتهامس الجمهور ، وعاد يتنحى ، ودخل الامبراطور في وسط سياج من المشاهدين على أنغام أوركسترا أخذت تعزف ، كان رب المنزل وربته يتبعانه . وكان هو يسير مسرعا ، يحيي يمينه ويسرة ، كأنه يستعجل الانتهاء من هذا الاحتفاء باستقباله . أن الاوركسترا تعزف موسيقى رقصة بولندية كانت رائجة في ذلك الآوان وكانت مهداة الى الامبراطور : « الاسكندر ، اليزابت ، انكما تأسران قلوبنا ! » . ومضى الامبراطور انى الصالون ، واحتشد الناس على الباب ، ودخل الى الصالون عدد من الاشخاص اصطنعوا الهيئة المناسبة للطرف ، ثم خرجوا مسرعين . فعاد الناس ينفضون عن باب الصالون ، وعاد الامبراطور يظهر في الباب متحدثا مع ربة المنزل . وهجم شاب مضطرب الهيئة على السيدات يرجوهن أن يفسحوا مكانا . ولكن عددا منهن كانت وجوههن تدل على أنهن نسين مواصفات المجتمع الراقي كل النسيان ، فاندفعن الى الامام متراحات متشاجرات على احتلال الصف الاول ، مجازفات بريتهن . وأقبل الرجال على السيدات وتألفوا زوجين زوجين استعدادا للرقصة البولندية .

وخرج الامبراطور من الصالون مبتسما ، ممسكا يد ربة المنزل ، سائرا بخطوات لا تلتزم ايقاع الموسيقى ، ووراءهما كان يسير رب

المنزل مع ماري آفونوفنا ، يتبعهما سفراء ووزراء وجرالات كانت
الآنسة بيرونسكي لا تكف عن تسميتهم واحدا واحدا . وكان لأكثر
من نصف عدد السيدات مراقصون تهيأوا للرقصة البولندية معهم ،
واتخذوا أماكنهم أمامهم . ولاحظت ناتاشا عندئذ أنهم ، هي وأمهها
وصونيا ، من القلة القليلة المبعدة الى الجدار المتصقة به . فكانت
وقد تهدأت ذراعاها النحيفتان ، وأخذ جيدها الغض ينبض نبضا قويا
من شدة التأثر ، وانجست أنفاسها ، كانت تنظر الى أمام بعينين
ساطعتين قلقتين تبدوان متأهبتين لأعظم الفرح ولاشد الحزن في آن
واحد . لم يكن يعينها لا الامبراطور ولا أحد من الشخصيات الكبيرة
التي كانت تسميها الآنسة بيرونسكي وتشير اليها ، وانما كان يمتليء
فكرها كله بتساؤل واحد : « هل يمكن أن لا يدعوني أحد الى
مراقصته ؟ هل يمكن أن لا أكون من أوائل الراقصات والراقصين اثنين
اثنين ؟ هل يمكن أن لا يلاحظني أحد من هؤلاء الرجال جميعا ، الذين
يبدو عليهم أنهم لا يلاحظونني الآن أو يبدو عليهم اذا هم نظروا اليّ
أنهم يقولون : « لا ، ليست هي ، فلا فائدة من النظر اليها ؟ » وكانت
تجيب عن هذا التساؤل بقولها : « لا ، مستحيل ، يجب أن يعرفوا مدى
رغبتي في الرقص ، وأن يعرفوا أنني أرقص رقصا يفتن الابصار ، وأنهم
اذا راقصوني فليجئوني في مراقصتي بهجة عظيمة . »

ان نبرات المعزوفة البولندية التي استمرت مدة طويلة تترجع الآن
في أذني ناتاشا ترجعا حزينا ، حتى تكاد تطفر من عينيها الدموع .
وكانت الآنسة بيرونسكي قد تركتهن . وكان الكونت في الطرف
الآخر من الصالة . فالكوتيسة وصونيا وناتاشا وحيدات في وسط هذا

الجمهور الغريب عنهن ، كأنهن في وسط غابة ، لا يهتم بهن أحد ، ولا يخطر ببال أحد أن يكثرث بهن . ومرّ أمامهن الأمير آندره متأبطا ذراع سيدة ، وكان واضحا أنه لم يتعرفهن . وكان آناطول الجبيل يكلم مراقبته متبسا ، ونظر الى ناتاشا كمن ينظر الى جدار . ومرّ بوريس مرتين ، فأشاح وجهه في كلتا المرتين . وكان برج وامراته لا يرقصان فجاءا ينضمان اليهن .

فكان هذا الاجتماع العائلي هنا في حفلة الرقص يثير حنق ناتاشا . أليس ثمة مكان غير هذا المكان لمثل هذا النوع من الاحاديث ؟ لذلك لم تصغ الى فيرا التي جعلت تحدثها عن فستانها الاخضر .

وأخيرا وقف الامبراطور أمام مراقبته الاخيرة (وكان قد راقص ثلاث سيدات) ، وصتت الموسيقى . وهرع ضابط مرافق الى آل روستوف منهكا ، يطلب اليهن أن يحسنوا الاصطفاف ، مع أنهم كانوا ملتصقين بالجدار التصاقا . ومن الرواق بدأت تصل الى الاسماع نغمات الفالس البطيئة الموزونة المحكم ايقاعها التي تجرف الى الرقص جرفا . فأجال الامبراطور بصره في القاعة مبتسا ، وأقبل الضابط المرافق الذي يتولى أمر التنظيم ، أقبل على الكوتيسة ييزوخوف يدعوها الى مراقبته ، فرفعت يدها مبتسمة ، ووضعتها على كتفه دون أن تنظر اليه . وكان الضابط المرافق راقصا حاذقا محنكا واثقا بنفسه ، فطوَّق مراقبته بحزم وثبات وقوة ، ولكن بهدوء وغير تعجل ، فقادها الى آخر الحلقة منزلقا بها انزلاقا ، ثم امسك يدها اليسرى واخذ يدور بها ، وعلى ايقاع الموسيقى الذي ما انفك يتسارع ويتسارع أصبح الحضور لا يسمعون

الارنين مهمازيه في قدميه الخفيفتين الرشيقتين موزونا محكما ، واخذ فستان المخمل الذي ترتديه مراقصته ينتفخ عند كل زمن ثالث من أزمان الايقاع ، فاذا هو كأنه يرسل شررا ويطلق لها • فكانت ناتاشا تنظر اليهما ، وتكاد تبكي لانها ليست هي التي ترقص هذه الدورة الاولى من رقصة الفالس •

وكان الامير آندره بيزته العسكرية البيضاء التي تحمل شارات رتبة كولونيل في سلاح الفرسان ، وبجوريه وحذاءيه الخفيفين ، يقف في الصفوف الاولى طلق المحيا متهلل الاسارير فرح الهيئة ، غير بعيد عن آل روستوف • وكان البارون فيرهوف ^(١) يكلمه عن الجلسة الاولى التي سيعقدها مجلس الامبراطورية في الغد ^(٢) • ان الامير آندره يستطيع بحكم انه من خلصاء سيرانسكي ، وبحكم انه عضو في لجنة التشريع ، يستطيع أن يمد محدثه بمعلومات أكيدة عن هذه الجلسة التي كان الناس يعلقون عليها تعليقات شتى يختلف بعضها عن بعض كثيرا • ولكنه كان لا يصغي الى ما يقوله له فيرهوف ، وانما هو ينظر تارة الى الامبراطور وتارة الى الراقصين الذين يشتهون أن يرقصوا ولكنهم لا يجسرون أن ينطلقوا •

كان الامير آندره يلاحظ أولئك المرافقين الوجلين المتهيين وجود الامبراطور ، ويلاحظ أولئك المراقصات اللواتي يحترقن رغبة في ان يدعوا الى الرقص •

(١) شخصية خيالية لا وجود لها في الواقع ، صاغ لها المؤلف اسما على غرار اسم البارونات فيتجنوف .

(٢) عقدت هذه الجلسة في اول كانون الثاني (يناير) من سنة ١٩١٠ .

واقرب منه بطرس وامسك يده ، وقال له :

— أنت يامن ترقص دائما • ههنا الكوتيسة روستوف الشابة،
التي أحسها ، فادعها الى الرقص •

فسأله بولكونسكي :

— أين هي ؟

وقال للبارون :

— معذرة ، سنهي هذا الحديث في مكان آخر • أما في حفلة
الرقص فيجب الرقص •

وتقدم في الاتجاه الذي دله عليه بطرس • وخطف بصره وجه
ناتاشا الزاخر بالتعبير عن انتظار يائس • وتعرفها ، وحزر مايعتمل في
نفسها من عواطف ومشاعر ، وادرك أنها مبتدئة ، وتذكر حديث النافذة
واقبل على الكوتيسة روستوف متهلل الاسارير •

قالت له الكوتيسة وقد احمر وجهها :

— اسمح لي أن أعرفك بابنتي •

فأجاب وهو يحيي بانحناء كبيرة يناقض ادبها ولطفها ما نسبته
الآنسة بيرونسكي الى الامير من خشونة قائلا :

— سبق ان سعدت بعرفتها ، اذا كانت الكوتيسة تتذكرني •

قال ذلك وهو يدنو من ناتاشا ويمد اليها يده ، ثم يطوقها بذراعيه
حتى قبل أن يكسل دعوته اياها الى مراقصته • فاذا بوجه ناتاشا المغصوم،

المتأهب للتعبير عن اليأس بقدر تأهبه للتعبير عن الحماسة يشرق فجأة
بابتسامة سعيدة فيها من الشكر والامتنان ما يرى مثله في الاطفال .
وكانت هذه الابتسامة التي ظهرت من خلال دموع متهيأة للانسكاب
في كل لحظة من غيني هذه البنية المروعة السعيدة بينما هي تضع يدها
على كتف الامير آندره ، كانت كأنها تقول : « كنت انتظر ك منذ مدة
طويلة » .

كان الامير آندره يعد من أحسن راقصي زمانه . وكانت ناتاشا
تجيد الرقص اجادة ليس بعدها اجادة . فكانت قدماها الصغيرتان ،
بحذاءيهما المضمومين من ساتان ابيض تفعلان ما يراد منهما أن تفعلاه ،
وتتحركان مطواعتين بسرعة وسهولة لا ارادة لها فيهما ، بينما يتألق وجهها
بهجة وغبطة وسعادة . ليس في جسدها العاري وذراعيها العاريتين جمال
اذا هي قورنت بهيلين فكتفاها هزيلتان وعنقها نحيل ، ويدها نحيفتان
ولكن هيلين كانت قد ألفت آلاف النظرات التي انزلت على جسدها ،
في حين أن من يرى ناتاشا يحس انه ازاء بنية صغيرة عروا جيدها ونحرها
لاول مرة ، وانها كانت ستشعر بخجل شديد وخزي كبير لولا انهم
اقتنعوها بأن هذه التعرية لا بد منها ولاغنى عنها .

وكان الامير آندره يحب ان يرقص . وكان كذلك يرغب في
الافلات بأقصى سرعة من الاحاديث السياسية الجدية التي يريد جميع
الناس ان يفرضوها عليه ، وان يبدد ايضا جو الكبت الذي خلقه وجود
الامبراطور ، فقرر ان يرقص ، واختار ناتاشا لان بطرس اوصاه
بمراقبتها ، ولانها اول فتاة جميلة يمكن ان تلفت انتباهه وتخطف

بصره . ولكنه ما ان طوق هذه القامة النحيلة المرنة . وما ان أخذت
ناتاشا تتحرك قرية منه هذا القرب كله ، وتبتسم له قرية منه هذا
القرب كله أيضا ، حتى سكر بفتنة الفتاة سكرًا ، وشعر بعودة الحياة
اليه ، واحس بتجدد شبابه ، فلما استرد انفاسه بعد ان ارجعها الى
مكانها ، توقف ينظر الى الراقصين .

الفصل السابع عشر

بعد الامير آندره ، جاء بوريس يدعو ناتاشا الى الرقص ، ثم جاء الضابط المرافق الذي كان قد افتتح الحفلة ، وتلاه ضباط آخرون ، فكانت ناتاشا وقد تورد وجهها ولاحت فيه علائم السعادة ، تحيل الى صونيا الشباب الكثر الذي يتقدمون اليها ، وظلت ترقص طوال السهرة لا تلاحظ شيئا ولا ترى شيئا مما كان يلفت الانتباه العام في تلك الحفلة

لم تر الامبراطور يتحدث مدة طويلة مع سفير فرنسا ، وانه خاطب فلانة من السيدات بلطف خاص ، ولم تنتبه الى ان الامير فلانا او فلانا قال كيت او كيت ، ولم تلاحظ ان هيلين أصابت نجاحا كبيرا ، او انها شرفت باهتمام خاص حظيت به من فلان ؛ حتى انها لم تر الامبراطور ، ولا ادركت أنه انصرف الا حين اشتد نشاط الحفلة بعد انصرافه مزيدا من الاشتداد وقد رقص الامير آندره معها مرة اخرى قبل العشاء ، رقصة من رقصات « الكويتون » المرحه ، وذكرها بلقائهما الاول في الممر الذي يحف به صفان من الاشجار في أوترادنويا ، وبذلك الليلة المقمرة التي لم تستطع فيها أن تنام ، وبالحديث الذي سمعه على غير ارادة منه . فاجمرت ناتاشا لهذه الذكرى ، وارادت أن تسوغ مافعلته كأن العاطفة التي باغتها فيها بغير ارادة منه تشتمل على مايدعو الى الخجل وتبعث على الشعور بالخزي .

وكسائر الذين شبوا في المجتمع الراقي ، كان الامير يحب ان يصادف في هذا المجتمع اناسا لا يدفعهم ذلك الطابع المألوف المبذول ، طابع المجتمع الراقي . وتلك كانت حالة ناتاشا بدهشاتها وفرحها وخجلها ، وحتى بأخطائها في اللغة الفرنسية . فكان يعاملها ويكلمها بلطف خاص ورقة خاصة وعاطفة خاصة . وكان اذا جلس الى جانبها يحادثها في ايسر الامور شأنا واكثرها ابتذالا ، كان يعجب بيريق عينيها ، وبابتسامتها التي لا شأن لها بما كانا يقولانه ، وانا هي تفصح عما في نفسها من فرح . وكان اذا هي دعيت الى الرقص فقامت ترقص مبتسمة ، يعجب خاصة برشاقتها الخجلى وفيما منتصف رقصة « الكوتيون » ، بعد الانتهاء من احدى حركات هذه الرقصة ، عادت ناتاشا الى مكانها لاهثة ، فاذا بمراقص جديد جاء يدعوها الى الرقص ، فهمت ان ترفض من شدة تعبها ولهاثتها وتقطع انفاسها ، ولكنها سرعان ما وضعت يدها على كنف المراقص الجديد فرحة مريحة ، وابتسمت للامير آندره . فكانت ابتسامتها كأنها تقول : « كان يسعدني أن أرتاح قليلا وان ابقى بجانبك فأنا متعبة ، ولكنك ترى مدى رغبة الشباب في مراقبتي ، وانا بهذا مبتهجة ، وانا به سعيدة .

انني أحب الناس كافة ، وانا لندرك هذا كله ، أنا وانت » . كذلك كانت تقول ابتسامتها وتقول اشياء اخرى كثيرة أيضا . وحين عاد بها مراقصها الى مكانها ، راحت تجتاز الصالة ركضا لتدعو سيدتين الى رقص الحركة التالية من الرقصة . فاذا بالامير آندره يقول لنفسه وهو ينظر اليها ، دون ان يتوقع اطلاقا ان يقول لنفسه هذا الكلام ، او ان يدور بخلده هذا خاطر : « اذا ذهبت الى قريبتها اولا ، ثم الى السيدة

الآخري ، فلتكونن زوجتي » • واتجهت ناتاشا الى صونيا اولاً •

قال الامير آندره مخاطباً نفسه : « ما اسخف السخافات التي تخطر ببال المرء أحياناً ! ولكن مما لا شك فيه ان هذه الفتاة تبلغ من الروعة وتبلغ من الاختلاف عن غيرها ، انها لن ترقص شهراً واحداً الا وتتزوج هي هنا انسة نادرة • هي هنا استثناء ! » • بذلك حدث الامير آندره نفسه بينما كانت ناتاشا تعدل فتجلس بقربه وهي تعدل وردة صدرها • وفي نهاية رقصة « الكوتيون » : أقبل الكونت الشيخ على الراقصين بردائه الأزرق فدعا الامير آندره أن يزورهم في منزلهم ، وسأل ابنته أهى مسرورة • فلم تجب ناتاشا بكلام ، ولكنها ابتسمت ابتسامة كأنها تقول معاتبه : « أهذا سؤال يسأل ؟ » • ثم قالت أخيراً :
— انني مسرورة سرورا لم أشعر بشله في حياتي كلها •

ورأى الامير آندره ذراعيها النحيلتين ترتفعان بغير ارادة منها لتعانقا اباهما ثم ما تلبثان ان تنزلا • كانت ناتاشا في تلك الذروة من السعادة التي يصبح فيها المرء طيباً كل الطيبة ، كاملاً كل الكمال ، لا يؤمن بالشر ولا بالشقاء ولا بالحزن •

لاول مرة ، في تلك الحفلة ، شعر بطرس بالخزي من المركز الذي تحتله امرأته في المجتمع العالي • فكان مريد الوجه وشارد اللب ، وكان غضن عريض يخدد جبينه ، وقد وقف بقرب النافذة ينظر من خلال نظارتيه فلا يرى أحداً •

وقد مرت ناتاشا على مقربة منه وهي ذاهبة الى العشاء • ففجأها مآرائه في وجهه من اكفهار وشتاء فوقفت أمامه ، وودت لو تساعد ، وتمنت لو تنقل اليه شيئاً من فيص سعادتها الطافحة ، وقالت له :

— ما أكثر ما يتسلى الانسان هنا ياكونت ! أليس كذلك ؟ فابتسم
بطرس ابتسامة ذاهلة ، وكان واضحا انه ابتسم دون ان يفهم ما كان
يقال له • وأجاب :

— نعم ، أنا مغتبط جدا •

تساءلت ناتاشا : « كيف يستطيع انسان ان يكون مستاء غير
مسرور ، ولا سيما انسان يبلغ ما يبلغه بنىروخوف هذا من لطف • » •
في نظر ناتاشا ، كان جميع أولئك الذين شهروا الحفلة أناسا
طيبين لطافا كاملين لا يختلف احد منهم في هذا عن احد ، وكانوا جميعا
متحابين ، فلا احد يمكن ان يسيء الى احد ، فلا بد ان يكونوا كلهم
سعداء • • »

الفصل الثامن عشر

في الغد تذكر الامير آندره حفلة الليلة ابارحة ، ولكنها خواطره لم تتلبث عليها . « نعم ، كانت حفلة متألفة جدا . ثم ... نعم ، تلك الصغيرة روستوف أخاذة ... ان ان فيها نضارة ، وان فيها شيئا خاصا ليس من بطرسبرج يسيثرها عن غيرها . ذلك كل ما قاله لنفسه عن حفلة الرقص . ثم احتسى الشاي ، وأخذ يعمل .

ولكن ذلك النهار لم يكن موافيا للعمل ، لا ندري أكان ذلك السبب التعب أم بسبب قلة النوم . المهم أن الامير آندره لم يستطع أن يجبر نفسه على العمل ، وكان لا ينفك ينتقد هو نفسه ما كان يعمل ، كما يحدث له هذا كثيرا ، وسره أن أبلغ أن زائرا يريد أن يدخل عليه .

كان الزائر رجلا يقال له بتسكي ، وهو عضو في لجان شتى يتردد على جميع حلقات بطرسبرج ، وهو رجل شديد الاعجاب بالافكار الجديدة ، قوي الحماسة لسييرانسكي ، ينشر أنباء العاصمة بنشاط لا يفتر وهمة لا تتعب . انه واحد من أولئك الذين يختارون آراءهم كما يختارون ثيابهم مسايرين الموضة ، ولكنهم لهذا السبب نفسه يظهرون بنظر اكثر أنصار الراء الجديدة حرارة واندفاعا .

ما ان خلع بتسكي قبعته حتى هرع الى الامير آندره مهموم الهيئة ، وسرعان ما طفق يتكلم ، لقد اطلع منذ قليل على معلومات مفصلة عن

اجتماع « مجلس الامبراطورية » الذي افتتحه الامبراطور في ذلك الصباح بخطاب رائع ، تكلم فيه الامبراطور كما لا يتكلم الا ملوك دستوريون . « لقد قال الامبراطور صراحة ان مجلس الامبراطورية ومجلس الشيوخ هما من « هيئات » الدولة ، وان الحكومة يجب أن لا تقوم على الاستبداد ، بل على « مبادئ راسخة » . وقال ان أموال الدولة يجب أن يعاد تنظيمها ، وان الحسابات يجب أن تنشر في الناس » . ذلك ما قاله بتسكي على بعض الكلمات ، محملا بعينه حملات بليغة . وختم كلامه بقوله :

— نعم ، هذه بداية عصر جديد هو أمجد عصور تاريخنا .

أصغى الامير الى مارواه بتسكي عن تدشين « مجلس الامبراطورية » هذا الذي طالما انتظره نافذ الصبر ، والذي طالما أضى عليه شأنا خطيرا ، وعقد عليه آمالا كبارا ، فما كان أشد دهشته حين لاحظ أن هذا الحادث وقد تم الآن — لم يهز نفسه ، بل بدا له تافها بل أقل من تافه . فكان يسمع لحديث بتسكي المتحمس ، ساخرا في قرارة نفسه سخرية لا يظهرها حتى لقد خطرت بباله هذه الفكرة البسيطة جدا : « فيم يهم بتسكي ويهمني ويهمننا جميعا ان الامبراطور قد حلا له أن يقول هذا الكلام في المجلس » ؟ هل في امكان هذا كله أن يجعلني أحسن وأسعد ؟

وكان من شأن هذه الفكرة البسيطة أن جردت الاصلاحات التي يجري انجازها من كل قيمة في نظره . وكان عليه أن يتعشى في ذلك اليوم نفسه عند سيرانسكي « في اجتماع يضم عددا صغيرا من الاصدقاء » على حد تعبير سيرانسكي حين دعاه الى هذا العشاء .

كان الامير آندره ، حتى ذلك الحين ، يفتن افتنانا حين يتصور أنه

سيَتَعشى مع هذا الرجل الذي يعجب به ذلك الاعجاب العظيم كله ، وأن يقتصر العشاء على أسرة الرجل وعدد صغير من الاصدقاء ، لاسيما وأنه لم يسبق له أن رأى سيرانسكي في حياته الخاصة قبل ذلك . ولكن هاهو ذا الان لا يحس برغبة في الذهاب الى هذا العشاء .

ومع ذلك وصل الامير آندره في الساعة المحددة الى منزل سيرانسكي بقرب حديقة « توريد » ، ودخل صالة الطعام المبلطة بالخشب في هذا المنزل المتواضع الذي يتميز بنظافة شديدة ، فوجد أن جميع افراد هذا « الاجتماع الذي يضم عددا صغيرا من الاصدقاء » كانوا في الساعة الخامسة قد سبقوه الى الوصول والتأم شملهم ، وهم اصدقاء سيرانسكي الخالصاء الحسيين . لم يكن في الاجتماع سيدات ، الابنت سيرانسكي (وهي ذات وجه طويل كوجه أبيها) . وكان المجتمعون هم : جرفيه وماجنسكي وستولييين^(١) . ما ان ولج الامير آندره حجرة المدخل حتى سمع أصواتا تتدلق ، وضحكا رنانا واضحا كذلك الضحك الذي يسمعه المرء صادرا عن مثل على خشبة المسرح . وكان أحدهم يقطع فقهقته تقطيعا بينا : قه .. قه .. قه .. بصوت يشبه صوت سيرانسكي لم يكن الامير آندره قد سمع سيرانسكي ضاحكا قبل هذه المرة ، فكان لهذا الضحك الرنان الجاد الصادر عن رجل الدولة أثر غريب في نفسه . دخل الامير آندره غرفة الطعام . فرأى الصبح كلهم مجتمعين بين

(١) جرفيه موظف من أصل فرنسي . أما ماجنسكي فراجع حاشية الصفحة ... ، وأما دم تري ستولييين فقد أصبح جنرالاً (١٧٨٥ - ١٨٢٧) ، وكان ابنه أركاي صديق تولستوي إبان الدفاع عن سيباستوبول ، وقد تزوج الاميرة ناناليا جور تشاكوف ، وهي تمت بقرابة بعيدة الى تولستوي ، وأنجب الزوجان بطرس أركاديفتش (١٨٦٢ - ١٩١١) الذي صار رئيسا للوزارة في عهد نيقو الثاني .

نافذتين أمام مائدة صغيرة ملأى بالمقبلات ، ورأى سيرانسكي مستقرا بقرب المائدة متهلل الاسارير ، يزدان رداؤه الفراك برصيعة وسام ، وما يزال لابسا الصديرة البيضاء والكرافطة العالية اللتين كان يلبسهما في اجتماع « مجلس الامبراطورية » ذاك ، وقد أحاط به المدعوون . كان ماجنتسكي يروي نكتة متجها بحديثه الى ميخائيل ميخاميكوفتش ، وكان سيرانسكي يصفي اليه ضاحكا مما سيقوله قبل أن يقوله . ولما دخل الامير آندره غطت الضحكات كلمات ماجنتسكي من جديد ، فكان ستولييين يضحك ضحكا متفجرا بصوت ضخم جهير وهو يمزغ لقمة من خبز مع جبن ، وكان جرفيه يضحك ضحكا نجيلا صافرا ، وكان سيرانسكي يضحك ضحكا حادا موقعا .

وقد مد سيرانسكي يده البيضاء الناعمة الى الامير آندره دون أن ينظر اليه ، قائلا له :

— سعيد برؤيتك يا أمير .

وأضاف يقول لماجنتسكي مقاطعا قصته :

— لحظة ...

وأردف يكمل كلامه للامير آندره :

— المتفق عليه بيننا أن عشاء هذا اليوم عشاء بهجة ومتعة ومسرة ،

فلا كلمة واحدة عن الاعمال .

والتفت ثانية الى قصاص النكتة ، واستأنف ضحكه .

كان الامير آندره . يصفي الى سيرانسكي ويرى ضحكه ، يشعر

بما يشعر به المرء من اندهاش وحزن حين يخيب ظنه . كان كمن يبدو له

أن هذا ليس سيرانسكي بل رجلا آخر . وتبدد كل ما كان خياله يضيفه على سيرانسكي من سر وفتنة ، فاذا سيرانسكي يصبح في نظره واضحا متعبا على حين فجأة ، فاقد ما كان له من قوة الاسر ، فلم يبق في هذا الرجل شيء يجذب الامير آندره اليه .

ولم ينضب معين الحديث على المائدة احظّة ، وكان كله سلسلة من نكات مسلية مضحكة . فما ان انتهى ماجنتسكي من رواية نكته حتى انبرى آخر يقول انه مستعد لان يروي نكته ابعث على الضحك أيضا . وكانت النكات ينصب اكثرها على رجال الادارة ، ان لم تنصب على الادارة نفسها . فكان تفاهة هؤلاء الاشخاص الذين يتندر عليهم المجتسعون في هذه الحلقة أمر ثابت لامراء فيه ، فالموقف الوحيد الذي يمكن أن تقيده منهم هو ان يتندروا عليهم بروح التسامح الساخر . وقد روى سيرانسكي أن رجلا أطرش من كبار القوم سئل رأيه هذا الصباح في اجتماع « مجلس الامبراطورية » فلم يزد على أن أجاب بأنه موافق على هذا الرأي . وروى جرفيه بالتفصيل قضية تفتيش أبرز فيها غباء جميع الاطراف المشاركة فيها . وحشر ستوليبن نفسه في الحديث متأتا فأخذ يشهر بأسوء العهد الماضي ، فكان ذلك منه تهديدا باضفاء طابع الجد على الحديث ، فسخر ماجنتسكي من حماسه ، وقذف جرفيه بمزاحة ، فعاد الحديث الى مجراه المرح .

واضح أن سيرانسكي كان يجب أن يرتاح من أعباء أعماله في جو حلقة صغيرة من الاصدقاء ، وكان المدعوون كلهم يدركون رغبته ، فيحاولون أن يسلوه وأن يتسلوا هم انفسهم ايضا . ولكن هذا المرح شق على الامير آندره ، وبدا له مصطنعا ، وأعجبه هذه النبوة الحادة في صوت سيرانسكي ، وآذى احساسه هذا الضحك المستمر الذي ينطلق

زائفا . فكان لا يشارك في الضحك ، وكان يخشى أن يضايق حضوره
أحدا ، ولكن ما من أحد انتبه الى أنه لم يندمج في هذا الجو والى أنه
ممتعض . فكان الجميع يبدون في قمة الفرح .

وقد أراد مرارا أن يشارك في الحديث ، ولكن ما كان يقوله كان
ينبذه الحديث نبذ الماء سداة من الفلين . كان لا يستطيع أن ينزح
مع هؤلاء المازحين .

لم يكن فيما يقولونه شيء مصيب أو لا محل له ، بل كان كلامهم
كله فكها ، وكان يمكن أن يبعث على الضحك ، وانما كانت تعوزه تلك
النكهة التي هي من المرح بثابة الملح الطعام ، وكانوا هم لا يخطر ببالهم
ذلك .

ولما فرغوا من الوجبة ، قامت بنت سيرانسكي ومريبتها . ولاعب
سيرانسكي ابنته وقبلها ، فكانت هذه الحركة من سيرانسكي في نظر
الامير آندره مصطنعة أيضا .

وبقي الرجال جالسين الى المائدة لاحساء خمرة البرتو ، على
الطريقة الانجليزية . وجرى الحديث عن الحرب في اسبانيا ، فكان الجميع
يؤيدون موقف نابوليون . فأباح الامير آندره لنفسه أن يعارضهم
في الرأي ، فابتسم سيرانسكي ، ومن أجل أن يحرف الحديث عن هذا
الموضوع الشائك ، فأخذ يروي نكتة لا علاقة لها بهذا الموضوع ،
وخيم بعد ذلك صمت .

وسد سيرانسكي الزجاجاة بعد برهة قائلا : « الخمرة الطيبة ليست
متوافرة في هذه الايام » ، وناول الخادم الزجاجاة ونهض ، فنهض الجميع
في اثره ، وانتقلوا وراءه الى الصالون متمازحين في صخب . وجيء

سيرانسكي بظرفين حملهما ساع ، فتناول الظرفين ، ومضى الى مكتبه .
فما ان خرج من الصالون حتى زال المرح العام ، وأخذ الضيوف
يتحدثون بكلام معقول وصوت خافت . ولكن سيرانسكي لم يلبث
أن رجع ، وقال :

• — والآن فلننتقل الى الانشاد .

وأضاف يقول مخاطبا الامير آندره :

— ان له موهبة رائعة .

فأسرع ماجتسكي يتخذ وضع المنشد ، وجعل ينشد أبياتا فكاهية
باللغة الفرنسية كانت تقاطع بالتصفيق ، وهي أبيات ماجتسكي قد
نظمها عن أشخاص معروفين ببطرسبرج . حتى اذا انتهى الانشاد تقدم
الامير آندره من سيرانسكي ليستأذنه بالانصراف . فقال له سيرانسكي

— أتصرف منذ الآن ؟

فأجابه الامير آندره :

— وعدت بحضور سهرة ...

وصست الحضور . ونظر الامير آندره من قرب الى هاتين العينين
الباردتين برودة مرآة ، اللتين لا تسمحان للسوء بأن ينفذ الى ما وراءها ،
فأدهشه أن يكون قد انتظر من سيرانسكي ، وأدهشه أن يكون قد
انتظر من نشاطه هو نفسه شيئا ، وأدهشه أن يكون قد اضفى على ما
يعمله قيسة ، وأسبغ عليه شأنا خطيرا . وظلت تلك الضحكة المصنوعة ،
الخالية من الفرح ، تترجع في أذنيه زمنا طويلا بعد انصرافه .

عاد الامير آندره الى بيته ، وأخذ يستعرض الحياة التي عاشها في

بطرسبرج خلال هذه الاشهر الاربعة الاخيرة ، وكأنها شيء جديد عليه ، فتذكر الجهود التي بذلها والمساعي التي قام بها ، وتذكر مشروع النظام العسكري الذي أعدّه ، والذي قبلوا أن ينظروا فيه ، ويحاولون الآن ان يصمتوا عنه ، لا لشيء الا لان مشروعاً آخر ، سيأكل كل السوء ، كان قهراً وضع وقُدِّم الى الامبراطور وتذكر جلسات اللجنة التي كان يبرج أحد أعضائها ، وتذكر كيف كان أعضاء اللجنة في تلك الجلسات يحرصون على تحاشي مواجهة جوهر المشكلة ، ويطلقون المناقشة حول الشكل الذي يجب التزامه في تدوين عناية شديدة في ترجمة بنود القانون الروماني والقانون المدني الفرنسي الى اللغة الروسية ترجمة دقيقة ، فخجل من نفسه • ثم تراءت له بوجو تشاروفو ومشاغله في الريف ، ورحلته الى ريازان ، وتذكر فلاحيه ، و « الستراوست » ومرون ، فلما طبَّق عليهم مبادئ حقوق البشرياتي عني بتقسيمها الى فقرات ، أدهشه أن يكون قد أضع هذا الوقت الطويل كله في عمل لا طائل تحته •

الفصل التاسع عشر

في الغد مضى الامير آندره يقوم بزيارات الى اشخاص لما يزرهم بعد ، ومنهم آل روستوف الذين جدد معرفته بهم في حفلة الرقص الاخيرة وكانت هذه الزيارة لاتمليها عليه قواعد الآداب الاجتماعية فحسب ، وانما تحضه عليها كذلك رغبة في أن يرى تلك الفتاة التي تختلف عن غيرها كل الاختلاف ، تلك الفتاة المفردة الاصيلة التي تفيض حياة والتي تركت في نفسه أجمل الاثر .

كانت ناتاشا احدى الاوائل اللاتي استقبلنه . كانت ترتدي فستانا أزرق مما ترتديه فتاة في منزلها ، فبدت له وهي بهذا الفستان أشد فتنة وأعظم سحرا مما بدت له بزينة السهرة في حفلة الرقص . واستقبلته أسرة روستوف كلها كما يستقبل صديق قديم ببساطة ومودة وترحيب . وبدت له هذه الاسرة التي كان في الماضي قد قسا في الحكم عليها ، بدت له مؤلفة من أناس طيبين بسطاء أحيارا . فلم يستطع أن يقاوم روح الضيافة عند الكونت الشيخ ، وهي تناقض ببساطتها وصراحتها روح الاحتفال وطابع التكلف في أسلوب الضيافة ببطرسبرج ، فرضى أن يبقى الى العشاء . قال لنفسه : « نعم ، هؤلاء أناس ذوو شهامة وأريحية ، وليس يدور في خلدكم طبعاً أنهم يسلكون كنزاً عظيماً هو ناتاشا ، وذلك بعينه أحسن ظرف يبرز قيمة هذه الفتاة اللذيذة، التي تفيض شعراً وحياة »

كان الامير آندره يحس تجاه هذه الفتاة بأنه أمام عالم مجهول ، عالم مفرد على حدة ، مليء بأفراح لا تخطر بالبال ، هو ذلك العالم نفسه الذي سبق أن اجتذبه كثيرا وحيّره كثيرا في ذلك الممر الذي يحف به صفان من الاشجار في أوترادنوفا ، وفي النافذة التي كان يغمرها ضوء القمر . ان هذا العالم لم يبق غريبا عنه الآن ، فهو لا يحيّره ، وكلما أوغل فيه أحس بمباهج جديدة .

وبعد العشاء قامت ناتاشا الى البيانو ، تلبية لطلب من الامير آندره وأخذت تعزف وتغني ، فكان الامير آندره يصغي الى عزفها وغنائها مع استمراره في التحدث مع السيدات عند كوة نافذة . ولكنه صمت فجأة في منتصف جملة كان يقولها ، وأحس بشهقات بكاء تصعد الى حلقة ، وذلك أمر ما كان يظن أنه يمكن أن يحدث له . وحدث بعينه الى المغنية وأحس بتأثر لاعهداه بمثله ، وشعر بسعادة يمازجها حزن كان يوشك أن يذرف دموعا دون أن يكون هناك ما يدعو الى البكاء . على ماذا يذرف الدموع ؟ على حبه الاول ؟ على الاميرة الصغيرة الراحلة ؟ على تبدد أحلامه ؟ على ضياع آماله ؟ نعم ولا . كانت تلك الرغبة في البكاء تصدر خاصة عن انكشاف تم له : ان التناقض الرهيب المرعب بين ما يحسه في أعماق نفسه من عظمة لانهاية لها ولا حد ، وبين الكائن الضيق الجسمي الذي كانه — وكانت هي ايضا — قد ظهر له في تلك اللحظة على حين فجأة . ذلك كان سبب عذابه وفرحه في آن واحد أثناء غناء ناتاشا .

وحين انتهت ناتاشا من الغناء جاءت تسأله هل أعجبه صوتها . ولكنها ما أن ألقت هذا السؤال حتى أدركت أنه لا يليق ، فاضطربت ، فنظر اليها مبتسما ، وقال لها أن غناءها أعجبه مثلما أعجبه كل ما فعلته .

وعاد الامير آندره الى بيته في ساعة متأخرة من السهرة ، فاضطجع على فراشه بحكم العادة ، ولكنه لم يلبث أن أدرك أنه لن يستطيع أن ينام في هذه الليلة . فأشعل الشمعة وقام ، ثم عاد يضطجع ، دون أن يضيق ذرعا بهذا الارق : فالى هذا الحد كانت موجة الاحساسات الجديدة التي تجتاح نفسه عذبة حلوة : كان يشعر شعور من يخرج من غرفة موصدة خائفة فيستنشق هواءا نقياً ملء رغتيه . ولم يدرك في خلده أنه يمكن أن يحب الأنسة روستوف . وكان لا يفكر فيها ، لكن صورتها كانت ماثلة أمامه ، فكانت حياته كلها تلوح له في ضوء جديد ، ويراها رؤية جديدة ، فيقول لنفسه : « لماذا اغنى نفسي هذا العناء كله ، لماذا ابذل هذه الجهود المضنية كلها في هذا الاطار الضيق المغلق ، على حين أن الحياة ، كل الحياة ، بكل أفراح ، تنكشف لي وتفتح أمامي ؟ » . ولاول مرة منذ زمن طويل ، تصور للمستقبل مشاريع سعيدة . فعقد عزمه بينه وبين نفسه على أن يعنى بتربية ابنه فيجد له مربية يعهد به اليه ، وقرر أن عليه أن يستقيل ويسافر الى الخارج فيزور انجلترا وسويسرا وإيطاليا قال لنفسه : « يجب أن استفيد من حريتي ما احسست في نفسي بهذه القود كلها وهذا الشباب كله . لقد كان بطرس على حق حين قال ان الانسان لا يسعد اذا لم يؤمن بإمكان السعادة . واني لاؤمن الآن بإمكان السعادة . لنضع الموتى يدفنون موتاهم . فما ظل المرء حيا يجب أن يعيش وأن يسعد . » .

الفصل العشرون

في ذات صباح جاء الكولونيل بيرج ، الذي يعرفه بطرس كما يعرف جميع الناس في موسكو وبطرسبرج ، جاء الى بطرس متأنق الهدام أشد التألق ، داهنا شعره ، نازلا به الى الصدين على غرار الامبراطور الاسكندر . وقال له مبتسما :

— انني خارج من عند الكوتيسة زوجتك ، ويحزني أنها لم تقبل رجائي . ولكنني آمل يا كونت ، أن يكون حظي منك أكبر .
— ما الذي تريده يا كولونيل ؟ أنا رهن اشارتك .

قال بيرج ، وكان واضحا أنه يعلم أن هذا النبأ الذي يقوله لا يمكن أن يكون سارا :

— لقد استقررت الآن استقرارا تاما ، فأريد أن أقيم لاصحابي وأصحاب زوجتي سهرة .

وقال ذلك وهو يتسم ابتسامة فيها مزيد من اللطف وتابع كلامه قائلا :

— ووددت أن أرجوك والكوتيسة أن تشرفا بيتنا بحضوركما لتناول الشاي و ... العشاء .

ان الكوتيسة هيلين فاسيلفينا تملك وحدها من القسوة ما يتيح

لها أن ترفض دعوة كهذه الدعوة ، لأنها ترى مجتمع أسرة بيرج ليس جديرا بها ولا يرقى الى مستواها .

وقد بلغ بيرج من الوضوح في شرح الاسباب التي تحضه على أن يجمع في بيته ضيوفا عددهم قليل ولكنهم صفوة مختارة ، وبلغ من الوضوح في وصف ابتهاجه بدعوة هذه الصفوة المختارة ، وبلغ من الوضوح في قوله انه اذا كان لايجب أن يتلف مالا في قمار وفي أمور تستحق اللوم ، فهو مستعد لان ينفق ما يجب اتفاقه لاقامة سهرة تضم صفوة مختارة ، بلغ كل ذلك ان بطرس لم يملك أن يرفض دعوته ، فوعده بالمجيء .

قال بيرج :

— لكنني أرجو أن لا تتأخروا يا كونت ، اذا كان يجوز لي أن أتجاسر فأقدم بهذا الرجاء . آمل أن تصلوا في نحو الساعة الثامنة الا عشر دقائق ، اذا تكرمتم . سوف نلعب بالورق قليلا . وسوف يجيء الجنرال . انه رجل طيب جدا في معاملتي . وسوف تتعشى . اتفقنا اذن . وصل بطرس في ذلك المساء الى بيت بيرج في الساعة الثامنة الا خمس عشرة دقيقة ، بدلا من الساعة الثامنة الا عشر دقائق على خلاف عادته في التأخر .

وكانت أسرة بيرج قد فرغت من استعداداتها ، فهي متأهبة لاستقبال الضيوف .

كان الزوجان ينتظران في غرفة المكتب الانيقة ، النيرة ، المزدانة بتمائيل ولوحات صغيرة وأثاث جديد . وكان بيرج ، وقد ارتدى بزة عسكرية جديدة أحكم عقد ازرارها ، جالسا بقرب امرأته يشرح لها

أن المرء يستطيع دائما ويجب عليه دائما أن تكون له علاقات بأناس
يعلمونه مقاما ، لان هذه العلاقات لا يمكن الا أن تحمل بهجة ومسرة .
وقال :

— ان المرء لابد أن يجني من أمثال هؤلاء الناس شيئا . ان في وسعه
دائما أن يستمد منهم قدما تسعى أو جناحا يطير . انظري مثلا الى حياتي
العسكرية منذ حصولي على رتبتي الاولى (كان ييرج لايحسب حياته
بعدد السنين بل بعدد الترقيات) . ان رفاقي ما يزالون الى الآن لاقيمة
لهم ، أما أنا فعلى أهبة أن أصبح قائد فوج ، وقد سعدت بأن أكون
زوجك .

قال ذلك ونهض ليقبل يد فيرا ، وكان طرف من أطراف السجادة
مشيا ، فانتهاز الفرصة فبسطه ، وتابع كلامه يقول :

— وما الفضل في هذا كله ؟ . ان الفضل في هذا كله انما يرجع
الى حسن اختيار العلاقات ومن الواضح طبعا أن على المرء — عدا هذا —
أن يتمسك بأهداب الفضيلة ، وأن يتقيد بدقة المواعيد .

وابتسم ييرج شاعرا بتفوقه على امرأة ضعيفة ، وصمت قائلا لنفسه
ان امرأته العزيزة تشبه سائر النساء على كل حال في أنها لا تستطيع أن
تفهم « قيمة أن يكون الانسان رجلا » (بالالمانية) . وابتسم فيرا في
الوقت نفسه هي أيضا ، شاعرة بتفوقها على زوجها الممتاز الفاضل الذي
يشبه سائر الرجال في نظرها من حيث أن لهم رأيا في الحياة خطأ . كان
ييرج يحكم على جميع النساء بمقياس امرأته ، فيعدهن ضعيفات غيئات
وكانت فيرا تحكم بمقياس زوجها وتعم ملاحظاتها ، فتفترض أن جميع
الرجال يظنون ان العقل وقف عليهم ، على حين أنهم لا يفهمون شيئا
وأنهم مذهبون بأنفسهم أنايون .

قام بيرج ، وضم امرأته بذراعيه محاذرا ، حتى لا يدعك وشاحها المخرم الذي دفع ثمنه غاليا ، وقبلها في شفيتها • وقال وقد تنادت في ذهنه الخواطر على غير شعور منه :

— أهم شيء هو أن لا نسرع في انجاب اولاد •

فأجابته فيرا قائلة :

— نعم ، لست أحرص على هذا البتة • فانما يجب على المرء ان يعيش للمجتمع •

قال بيرج وهو يشير الى وشاح امرأته مبتسما ابتسامة طيبة سعيدة :

— كان للاميرة يوسوبوف وشاح مثله تماما •

وفي تلك اللحظة أعلن الخادم وصول الكونت ييزوخوف • فتبادل الزوجان نظرة رضى ، وكان كل منهما ينسب شرف هذه الزيارة الى نفسه •

قال بيرج محدثا نفسه : « هكذا تكون المهارة في عقد صلات •
هكذا يكون الحذق في احتلال مكانة ! » •

قالت فيرا :

— لي رجاء واحد أن لا تجيء تقاطعني حين أهتم بالضيوف فأنا أعرف ما بهم هذا أو ذاك ، وأعرف ما يجب التحدث به مع هؤلاء أو أولئك •

فابتسم بيرج وقال :

— ولكن يجب أن يكون الحديث مع الرجال أحيانا حديثا بين رجال :

استقبل بطرس في الصالون الجديد كل الجدة ، الذي لا يستطيع
المرء ان يجلس في أي مكان منه دون أن يخل بالتناظر والنظام فيه .
فكان أمرا طبيعيا لا غرابة فيه أن تسخو نفس بيرج فيادر الى الاخلال
بترتيب المقاعد أو الديوان ، تكريما لهذا الضيف العزيز ، ولكن كان
واضحا أنه متردد في هذا الامر ترددا قاسيا ، فترك للضيف نفسه أن
يحل المسألة . ويتولى بطرس الاخلال بالتناظر في ترتيب المقاعد ،
فقرب كرسيها جلس عليه ، فسرعان ما افتتح بيرج وفيرا السهرة ، وأخذ
كل منهما يقاطع الآخر في الحديث تنافسا على تسلية الضيف .

كانت فيرا قد قررت بينها وبين نفسها أن عليها أن تكلم بطرس عن
سفارة فرنسا ، فلم تلبث ان شرعت في الحديث عن هذا الموضوع .
وكان بيرج قد قرر بينه وبين نفسه أن حديث الرجال ضرورة أيضا ،
فقاطع امرأته مثيرا مسألة محاربة النمسا ، وانتقل من أمور عامة الى
أمور شخصية ، على غير ارادة منه ، فتكلم عن العروض التي عرضت
عليه للمشاركة في هذه الحملة ، ومن الاسباب التي دفعته الى الرفض .
وكان من شأن ذلك أن جعل الحديث مفككا ، فساء فيرا أن يُثَقَم في
الحديث هذا العنصر الذي يهم الرجال وحدهم ؛ ومع ذلك أحس
الزوجان كلاهما ، رغم أن سهرتهما ، رغم اقتصارها حتى الان على
ضيف واحد ، قد بدأت بداية حسنة جدا ، وانها تشابه أية سهرة أخرى
تشابه قطرتي ماء ، في أن الحديث يجري ، والشاي يُحتسى ، والشروع
تشتعل .

ولم يلبث أن وصل بوريس ، وهو رفيق قديم لصاحبنا بيرج ، فكان
يعامل بيرج وفيرا بشيء من الشعور بالتفوق عليهما وبأنه يراعاهما
ويحميها . وبعد بوريس وصلت سيدة يصحبها كولونيل ، ثم وصل

الجنرال نفسه ، ثم وصل آل روستوف ، فصارت السهرة منذ تلك اللحظة تشبه سائر السهرات شبيها تاما لا جدال فيه ، فكان بيرج وفيرا لا يملكان الا ان يتسما فرحا وهما يريان هذه الحركة النشطة تسود الصالون ، ويسمعان الاحاديث المفككة وحفيف الاثواب وتبادل التحيات . كان كل شيء يجري كما يجري في كل حفلة أخرى . وكان الجنرال خاصة يشبه سائر الجنرالات . وقد مدح البيت ، وربت على كتف بيرج ، ونظم طاولة لعبة « البوستون » بسلطة كسلطة أب ، وجلس الى جانب الكونت ايليا آندريتش الذي كان يعده أهم المدعوين شأنا بعده .

الشيخوخة مع الشيخوخة ، والشبان مع الشبان ، وربة البيت بقرب مائدة الشاي — وقد وضعت عليها سلة من فضة ملأى بأقراص من الحلوى التي قدمت للضيوف في سهرة آل يانين — فلا فرق إطلاقا بين هذه السهرة وبين سائر السهرات في أي أمر من الامور .

الفصل الحادي والعشرون

كان على بطرس، من حيث هو ضيف مرموق ، ان يلعب «البوستون» مع ايليا آندريتش وانجنرال والكولونيل . فكان وهو جالس الى مائدة اللعب يقابل ناتاشا ، فخطف بصره ما طراً عليها من تغير غريب منذ حفلة الرقص . كانت ناتاشا صامتة . ولولا ما كان في هيئتها من عدوبة ورقة ، ومن قلة الاكتراث بأي شيء ، لكانت دميمة ، فضلاً عن أن تكون جميلة كل ذلك الجمال الذي تألفت به في تلك الحفلة .

تساءل بطرس وهو يرقبها : « ماذا بها ؟ » . كانت جالسة الى المائدة بقرب أختها تجيب بأطراف شفيتها ، على مضض ، عن أسئلة بوريس الذي جلس الى جانبها . ونظر بطرس اليها مرة اخرى بعد أن أخذ « بوستونا » ولمَّ أرباحا خمس مرات فرح بها شريكة ، فتساءل بمزيد من الدهشة : « ماحدث لها ؟ » .

كان الامير آندره واقفا أمام ناتاشا يكلمها بانتباه ورقة ولطف . وكانت هي رافعة رأسها : مخضبة الوجه بحمرة شديدة ، تنظر اليه محاولة أن تهديء تنفسها المتقطع . كان ذلك واضحاً . ان نار نفسها ، التي كانت منطفئة منذ برهة ، قد عادت تلتهب متأججة . وتبدلت حالها

تبدلا كاملا ، فاذا هي تسترد جمالها الذي تألقت به في الحفلة ، بعد أن كانت دميمة .

وجاء الامير آندره الى بطرس يحييه ، فلاحظ بطرس في وجه صديقه تعبيراً جديداً ، وعودة الى الشباب .

وقد بدّل بطرس مكانه عدة مرات أثناء اللعبة ، فكان تارة يدير لها ظهره ، وتارة يقابلها بوجهه ، وظل طوال الجولات الست لا يكف عن ملاحظة صديقه والفتاة . قال لنفسه : « ان امراخيطر الشأن يحدث بينهما » ، وكانت عاطفة هي مزيج من فرح ومرارة في آن واحد تهز نفسه وتنسيه اللعب .

نهض الجنرال بعد الجولات الست معلنا أن اللعب مستحيل في هذه الظروف ، فردّت الى بطرس حريته . كانت ناتاشا تكلم صونيا وبوريس . وكانت تحدث الامير آندره وعلى شفقتها ابتسامة ناعمة . فأقبل بطرس على صديقه وجلس بقربها بعد أن سأل هل يشتمل حديثهما على سر . كانت فيرا قد لاحظت انتباه الامير الى ناتاشا ، واهتمامه به ، فرأت أن تلميحات عاطفية خفيفة يجب أن لا تخلو منها سهرة تستحق أن تسمى سهرة ، فانتهزت فرصة خلو الامير آندره الى نفسه وحيدا ، فأخذت تكلمه في العواطف عامة ، وتكلمه عن أختها خاصة . وكانت ترى أن عليها حين تحدث ضيفا ذكيا كالامير آندره الذي تراه ذكيا جدا ، أن تستعمل كل ماتملك من دبلوماسيّة .

فلما انضم اليها بطرس رأى فيرا راضية عن نفسها ، منهمكة في

الحديث بكل نفسها ، متحمسة له ، ورأى بطرس مضطربا ، وذلك أمر قلَّ أن يحدث له •

قالت فيرا وهي تبسّم ابتسامة ناعمة :

— ما رأيك يا أمير ؟ ان لك ذكاء حادا وبصيرة نافذة ، فتفهم طباع الناس من أول وهلة • ما رأيك في ناتاليا ؟ هل يمكنها أن تكون ثابتة في عواطفها كنساء أخريات (وهي هنا تعني نفسها) ؟ هل تستطيع أن تحب رجلا الى الابد ، وان تبقى وفية له حياتها كلها ؟ ان الحب الحق في نظري هو هذا • فما رأيك يا أمير ؟

أجاب الامير آندره وهو يتسّم ابتسامة سخرية يريد أن يخفي بها اضطرابه :

— ان معرفتي بأخذك أضعف من أن تتيح لي الاجابة عن هذا السؤال الحرج •

وأضاف يقول وهو ينظر الى بطرس الذي انضم اليها في تلك اللحظة :

— ثم انني لاحظت أن المرأة يكون ثباتها أكبر كلما كان الاعجاب بها أقل •

فقالت فيرا :

— نعم يا أمير • هذا حق •

وتابعت كلامها تقول متحدثة عن خصائص العصر كما تحب ان تتحدث عن خصائص العصر جميع العقول المحدودة التي تظن أنها

اكتشفت خصائص زمانها ، وعرفت حق معرفتها ، ووزنتها بالميزان الصحيح ، ظانة أن البشر يختلفون باختلاف العصور :

— في عصرنا هذا تتمتع البنات بحرية تبلغ من السعة أن « متعة التغزل بهن » تخنق فيهن العاطفة الحقة • « ويجب أن نعترف بأن ناتاليا « تتأثر بالتغزل كثيرا » •

فكان من شأن هذه العودة الى الكلام على ناتاشا أن قطب الامير آندره حاجبيه مرة اخرى ، وأراد أن يقوم ، ولكن فيرا واصلت كلامها وهي تبسم ابتسامة فيها مزيد من النعومة :

— أعتقد أنه ما من فتاة غوزلت كما غوزلت ناتاليا ، ولكن أحدا لم يعجبها حتى الان اعجابا فيه جد •

واضافت تقول مخاطبة بطرس :

— حتى « قرينا » بوريس ، كما تعلم يا كونت ، الذي يجب أن نعترف « بينا » أنه أوغل بعيدا في مجال العاطفة •••

فقطب الامير آندره حاجبيه ولم ينس بكلمة •

قالت له فيرا :

— أنت صديق بوريس ، اليس كذلك ؟

— نعم ، أعرفه •

— لا بد أنه حدثك عن حب الطفولة الذي كان بينه وبين ناتاشا •

فسألها الامير آندره وهو يحمر فجأة :

— كان بينهما حب طفولة ؟

— نعم . « انك لتعلم ان الصلة الحميمة بين قريب وقريبته تؤدي
احيانا الى الحب : فالقربة مجاورة خطرة . أليس كذلك ؟ » .

قال الامير آندره :

— آ ... طبعاً .

والتفت فجأة الى بطرس ، ونصحه في مزاح أكره عليه نفسه اكرهاه ،
بأن يحذر من قريباته المقيمات بسوسكو ، اللواتي يلغن الخمسين من
العمر ، ثم تأبط ذراعه ، ومضى ينتحي به جانبا .

سأله بطرس وقد أدهشه ما رآه في صديقه من اضطراب ، ولاحظ
النظرة التي ألقاها على ناتاشا حين قام :

— هيه ؟ ما وراءك ؟

فقال له الامير آندره :

— يجب ... يجب أن أكلمك . أتذكر ققازي المرأة ؟

(كان يقصد الققازين اللذين يُعطاها الماسوني حين دخوله ملة
الماسونيين الاحرار ليعطيها المرأة التي يحبها) .

وتابع كلامه قائلاً :

— فاعلم أنني .. أنني .. ولكن لا .. سأكلمك في هذا الامر في
وقت آخر .

وبلهيب غريب في عينيه ، وبحركات عصبية ، دنا الامير آندره من
ناتاشا ، وجلس الى جانبها .

ورأى بطرس أنه سألها سؤالا ، ورأى أنها احمرت احمرارا شديدا .
ولكن بيرج جاء في تلك اللحظة الى بطرس يلح عليه أن يشارك في
المناقشة القائمة بين الجنرال والكولونيل حول شئون اسبانيا .

كان بيرج راضيا وسعيدا . كانت الابتسامة الفرحة لاتغادر وجهه .
لقد نجحت السهرة نجاحا كبيرا ، فهي تشبه جميع السهرات الاخرى التي
حضرها ، تشبهها في كل أمر من الامور شبيها تاما . فيما قام بين السيدات
من احاديث رقيقة ، في لعب الورق ، في علو صوت الجنرال أثناء اللعب ،
في السماور ، في أقراص الحلوى . غير أن الحفلة مايزال ينقصها شيء
لاحظه دائما في جميع السهرات التي حضرها والتي يريد أن يقلدها ، هو
نشوب مناقشة حادة بين الرجال حول موضوع هام له شأن وخطر .
وقد بدأ الجنرال مناقشة من هذا النوع ، فأسرع بيرج يدعو بطرس الى
اقحامه فيها .

الفصل الثاني والعشرون

في الغداة ذهب الامير آندره يتعشى عند آل روستوف تلبية لدعوة ايليا آندرئتش ، وقضى النهار كله عندهم .

كان كل فرد من أفراد الاسرة يعرف لمن يجيء الامير آندره ؛ وقد حرص الامير آندره على أن يبقى طول النهار بقرب ناتاشا ، لا يخفي ذلك . وكانت ناتاشا ، السعيدة المرتاعة في آن واحد ، وكانت الاسرة كلها تشعر بذلك القلق الذي يسبق وقوع حدث له شأن خطير . كانت الكونتيسة اذا ترسل الى الامير آندره نظرات فيها حزن وجد حين كان يحدث ابنتها ، ولكنها ما إن ينقل بصره اليها حتى تخفي اضطرابها وراء ستار من أحاديث تافهة . وكانت صونيا تخشى أن تترك ناتاشا ، وتخشى في الوقت نفسه أن تبقى حتى لا يكون بقاؤها مضايقا . وكان وجه ناتاشا يشحب ويصفر قلقلًا وانتظارًا وتوقعًا حين تخلو الى الامير آندره لحظة . وكان خجل الامير آندره يدهشها . كانت تحس أنه يريد أن يقول لها شيئًا ، ولكنه لا يفلح في أن يعزم أمره على أن يقوله .

فلما انصرف الامير آندره من السهرة بعد العشاء ، جاءت الكونتيسة الى ناتاشا ، وقالت لها مدممة :

— هيه ؟

فأجابتها ناتاشا قائلة :

— ماما ، ناشدتك الله لا تسأليني الان عن شيء • لا يمكن الكلام في مثل هذه الامور •

ومع ذلك ظلت ناتاشا مضطجعة زمنا طويلا في ذلك المساء نفسه بجانب أمها على السرير ، مضطربة تارة ، مروعة تارة أخرى ، جامدة العينين في الحالين ، تحكي لها تارة أنه مدحها ، وتارة أنه سيسافر الى الخارج ، وتقول لها تارة أخرى أنه سألها أين سيقضون الصيف ، أو انه سألها أيضا عن بوريس •

وقالت تعترف :

— انني لم أشعر في حياتي بشيء كالذي أشعر به الان • ولكنني أظل خائفة حين اكون معه ، فما معنى هذا يا ماما ؟ معناه أن الامر خطير ، أليس كذلك ؟ هل انت نائمة يا ماما ؟

فأجابت الام :

— لا يا حبيبتى • أنا نفسي خائفة • اذهبي الى سريرك فنامي •

— لن أستطيع أن أنام على كل حال • أين لي أن أنام ؟ ما أغبى أن أنام ! ماما ، ماما الحبيبة ، لم أشعر في حياتي بما أشعر به الان ... هل كان يمكننا أن نقدر أن ...

كذلك قالت ناتاشا مدهوشة مرتاعة من اكتشافها هذه العاطفة الجديدة في نفسها •

كانت ناتاشا تعتقد أنها أخذت بالامير آندره منذ لقاءهما الاول في

أوترادنويا • وها هي ذي تلقى الان في طريقها ذلك الرجل الذي اختارته حينذاك (وكانت مقتنعة بهذا اقتناعا تاما) ، وها هو ذا يهتم بها ويبدو عليه أنه مأخوذ بها • فكانت تخيفها هذه السعادة الغريبة التي لم تكن في الحسبان • وكانت تحدث نفسها قائلة : « وكأنه جاء الى بطرسبرج عسدا في الوقت الذي نحن فيه ببطرسبرج ، وكأننا التقينا في تلك الحفلة على ميعاد ، فهذا هو القدر • واضح أن هذا هو القدر • كان لابد للامور أن تنتهي الى ما انتهت اليه • لقد شعرت منذ البداية ، منذ أن رأيته ، شعرت بعاطفة خاصة •

قالت الام شاردة اللب تسأل ابنتها التي حدثتها عن أشعار كتبها الامير آندره في « ألبوم » ناتاشا :

— ماذا قال لك أيضا ؟ ما تلك الاشعار ؟

قالت ناتاشا :

— ماما ، اليس شرا أن تتزوج الفتاة رجلا أرمل ؟

— اسكتي يا ناتاشا • صليّ للرب • « الزيجات تتم في السماوات » •

— ماما ، جيبتي ، ما أعظم ما أحبك ! ما أعظم سعادتي !

كذلك هتفت ناتاشا وهي تذرف دموع السعادة والاهتياج • وارتست على عنق أمها •

وفي تلك اللحظة نفسها كان الامير آندره الذي ذهب الى بطرس يكشف له عن حبّه ناتاشا ، وعن عزمه الجازم على تزوجها •



وكان عند الكونتيسة هيلين في ذلك اليوم احتفال ، حضره سفير فرنسا ، والامير الذي أصبح يلزم المنزل منذ مدة قصيرة ، وسيدات كثيرات ، واشخاص من ذوي المنزلة العالية والمكانة المرموقة .

وقد قام بطرس بجولة في الصالونات ، ولاحظ كل فرد من الحضور أنه كان ذاهل الهيئة ، غارقا في التفكير ، مكفهر الوجه .

كان بطرس ، منذ حفلة الرقص التي حضرها وزوجته ، يحس بأن نوبة من نوبات السوידاء والاكتئاب توشك أن تعتريه ، وكان يقاومها مقاومة المستميت . انه ، منذ انعقدت صلة صميمية بين الامير وامراته ، قد عيّن في البلاط حاجبا للامبراطور على حين فجأة ، فصار يشعر في المجتمع بحرج وخزي ، وعادت أفكاره القديمة السوداء المظلمة التي تقول له ان الامور الانسانية جميعها أباطيل وانها عبث وغرور ، عادت هذه الافكار تحاصر ذهنه مرارا ما تنفك تزداد . ما لاحظته من نشوء عواطف بين محميته ناتاشا وبين الامير آندره أن فاقمت في نفسه ذلك التجهم بالتضاد الواضح بين وضع صديقه ووضعه . فكان يحاول أن يطرد من ذهنه كل فكرة تتصل بامراته أو بناتاشا أو بالامير آندره على السواء . وعاد كل شيء يبدو له باطلا بالقياس الى الابدية ، وعاد يلقي على نفسه هذا السؤال : « علام ؟ » ، وأخذ يفرق نفسه ليلا نهارا في أعمال ماسونية ، آملا أن يطرد من نفسه الروح الخبيث .

وفي نحو منتصف الليل ، بعد أن غادر جناح الكونتيسة ، ومضى الى مسكنه فوق ، وجلس الى مكتبه في غرفة واطئة ، لابسا ثوبا قديما

للمنزل ، عاكفا على نسخ القرارات الاصلية الصادرة عن المحافل
الايتوسية ، اذا بأحد يدخل عليه • انه الامير آندره •

قال بطرس ذاهل الهيئة متعضا :

— ها ... هذا أنت ؟

ثم آراه دفتره وقد ظهرت في وجهه امارات عذاب أولئك الناس
الاعتياء الذين يلتمسون في العمل نسيان آلام حياتهم :

— انني أعمل ، كما ترى ...

وقف الامير آندره أمامه مشرق الوجه ، قد تغيرت هيئته وارتد
الى الحياة ، وابتسم له ابتسامة السعادة الانانية ، غير حافل بحزن
صديقه ، وقال له :

— يا صديقي ، كنت أريد أن أقول لك أمس شيئا ، ومن أجل أن
أقول لك هذا الشيء انما جئتك الآن • ان العاطفة التي أشعر بها الآن
لا عهد لي بمثلها من قبل • انني مغرم يا صديقي •

زفر بطرس زفرة عميقة ، وتهالك بكل ثقل جسمه على الديوان
وجلس بجانب الامير آندره ، وقال يسأله :

— مغرم بناتاشا روستوف ، أليس كذلك ؟

— نعم ، نعم ، بها • بمن غيرها يمكن أن أغرم ؟ ما كنت لأصدق
أن يقع لي شيء من هذا ، ولكن هذه العاطفة أقوى منى • تعذبت
بالامس وتألمت ، ولكنني لن أتنازل عن هذا الالم نفسه بحال من
الاحوال • كنت من قبل لا أحيا • والآن انما صرت أحيا ، ولكنني

لا أستطيع أن أحيا بدونها • ولكن هل تستطيع هي أن تحبني ؟ انني كبير السن بالقياس اليها ، ما بالك لا تقول شيئا ؟

فقال بطرس وقد نهض فجأة وأخذ يذرع أرض الغرفة :

— أنا ؟ أنا ؟ ماذا تريد أن أقول لقد كان هذا رأيي دائما ... ان هذه الفتاة لهي كنز حقا ... نعم ، كنز ، فتاة قلَّ أن يوجد لها نظير •
يا صديقي العزيز ، أرجوك ... لا تعتد الامور ... لا تتردد ...
تزوجها ، تزوجها ، تزوجها • وأنا واثق بأنك ستكون أسعد الرجال قاطبة •

— ولكن هي ؟

— تحبك •

قال الامير آندره مبتسما وهو يحدّق الى عيني بطرس :

— لا تقل سخافات !

فصرخ بطرس نافذ الصبر :

— تحبك • أنا أعرف أنها تحبك •

فقال الامير آندره وهو يمسك ذراعه :

— اسمع • هل تعرف ما أنا عليه من حالة نفسية ؟ انني في حاجة الى من أبوح له بما في قلبي •

فقال بطرس وقد بان الهدوء في قسمات وجهه فعلا ، وزال الغضب الذي كان يخدج جبينه :

— تكلم ، تكلم ، اني ليسعدني أن أسمع منك •

وأخذ يصغي الى الامير آندره فرحا .

ان الامير آندره يبدو الآن انسانا آخر . أين المراتة التي كانت تسأل نفسه ؟ أين احتقاره للحياة ؟ أين ما كان يلوح عليه من تبدد الاوهام وزوال الاحلام وخيبة الآمال ؟

وكان بطرس هو الانسان الوحيد الذي يجرؤ أن يكشفه الامير آندره بما يعتل في نفسه ، فباح له بأعمق ما كان يدور في ذهنه من أفكار خفية . كان يحدثه تارة عن مشاريع جريئة سهلة لمستقبل طويل ، ويقول له انه لا يستطيع أن يضحي بسعادته ارضاء لنزوة من نزوات أبيه ، وانه سوف يستغني عن موافقة أبيه اذا منع عنه أبوه هذه الموافقة ، وكان تارة أخرى يعبرّ له عن استغرابه هذه العاطفة التي استولت عليه واستبدت به ، كأمر عجيب لا سلطة له عليه ولا حيلة له فيه . وختم كلامه بقوله :

— لو قال لي أحد أن من الممكن أن أحب هذا الحب لما صدّقته .
ان العاطفة التي أشعر بها الآن تختلف عما سبق أن شعرت به من قبل .
والعالم ينقسم الآن في نظري نصفين : نصفا هي فيه ، ففيه السعادة والامل والنور ، ونصفا ليست فيه ، فليس فيه الا ظلمات ويأس ...
قال بطرس مكررا :

— ظلمات ، ويأس ... نعم ، نعم ، انتي أفهم هذا .
لا أقدر أن لا أحب النور . ذلك ليس رهنا بارادتي . واني لسعيد .
هل تفهمني ؟ أنا أعلم أنك مغتبط لي .
قال بطرس وهو يلفّ صديقة بنظرة حب واكتئاب :
— نعم ، نعم .
على قدر ما بدا له مصير الامير آندره مضيئا مشرقا ، بدا له مصيره هو مظلما قاتما .

الفصل الثالث والعشرون

ان الامير آندره في حاجة الى موافقة أبيه على زواجه • لذلك سافر اليه في الغد •

استقبل الاب ما ذكره له ابنه ، بهدوء ظاهر وغضب باطن • انه لا يستطيع أن يتصور أن يريد أحد أن يغيّر حياته ، وأن يدخل فيها عنصرا جديدا ، على حين أن حياته هو قد انتهت • كان الشيخ يقول لنفسه : « فليدعوا لي ، على الاقل أن أنهي أيامي على نحو ما أحب لها أن تنتهي ، ثم فليفعلوا بعد ذلك ما يشاءون • » ومع ذلك عمد في معاملة ابنه الى استعمال الدبلوماسية التي كان يستعملها في المناسبات الكبرى ، فاصطنع لهجة هادئة ، وناقش معه جميع جوانب الامر •

فذكر أولا أن الفتاة ليست فذة من حيث قرابتها وثروتها ومحتدها • وذكر ثانيا أن الامير آندره ليس في ريعان شبابه ، وان صحته ضعيفة (وقد ألحّ الشيخ على هذه النقطة كثيرا) على حين أن للأمير آندره إبنا وأنه يشفق عليه من أن يوضع بين يدي صبية صغيرة • وقال الاب أخيرا وهو يرمقه بنظرة ساخرة : « اني أطلب منك هذا الطلب : أرجي الامر سنة واجدة ، سافر الى الخارج ، عالج صحتك ، ابحث للأمير الصغير نيقولا عن مرب ألماني كما تنوي أن تفعل ذلك ، فاذا وجدت

بعد ذلك أن حبك وغرامك وعنادك ، أو ما شئت فسمّه ، ما يزال قويا
شديدا ، فتزوّج ... » •

كذلك ختم الامير الشيخ كلامه بلهجة تدل على أنه لا شيء يمكن
أن يحمله على النكول عن قراره •

وأدرك الامير آندره ادراكا واضحا أن الشيخ يأمل أن لا تدوم
عواطف ابنه أو عواطف الفتاة التي سيخطبها ، سنة كاملة ، أو أنه يأمل
أن يموت هو نفسه في أثناء هذه السنة • فقرر الامير آندره أن يذعن
لارادة أبيه ، فيخطب ناتاشا ويؤجل الزواج سنة •

وبعد انقضاء ثلاثة أسابيع على آخر سهرة قضاها الامير آندره عند
آل روستوف ، عاد الى بطرسبرج •



غداة المسارعات التي قامت بين ناتاشا وأمها ، ظلت ناتاشا تنتظر
الامير آندره بولكونسكي طوال النهار ، ولكنه لم يجيء ، ولا جاء في
الايام التالية • وكان بطرس لا يجيء أيضا ، فلم تستطع ناتاشا — وكانت
تجهل أن الامير آندره سافر الى أبيه — أن تجد لغيابه هذا تعليلا •

وانقضت على هذه الحال ثلاثة أسابيع • فكانت ناتاشا ترفض أن
تخرج ، فهي تطوّف في الغرف متنقلة من غرفة الى أخرى كالشبح ،
مكفهرة الوجه ، لا تهتم بشيء ولا تعمل شيئا ، فاذا كان المساء أخذت
تبكي في الخفاء حريصة على أن لا يرى بكاءها أحد ، وصارت لا تذهب
الى أمها • وأصبحت يحمر وجهها وتثور أعصابها في كل مناسبة • كان

يبدو لها أن الناس جميعا قد علموا بخيبة أملها ، وأنهم يسخرون منها ، ويرثون لحالها ، فكان هذا الجرح الذي يصيب كرامتها يزيد شقاء ، رغم كل الحزن العميق الذي يملأ نفسها .

وفي ذات يوم ذهبت الى الكويتية تريد أن تقول لها شيئا ، فاذا هي تنفجر باكية . وكانت دموعها أشبه بدموع طفل أسىء اليه ولكنه يجهل لماذا عوقب .

أرادت الكويتية أن تواسيها ، فأصغت ناتاشا في أول الامر الى ما كانت تقوله لها أمها ، ولكنها لم تلبث أن قاطعتها على حين فجأة بقولها:

— دعي هذا الكلام يا ماما . انني لا أفكر فيه ، ولا أريد أن أفكر فيه . والامر بسيط على كل حال : كان يجيء ثم انقطع عن المجيء .

واختلج صوتها ، وأوشكت أن تبكي ، ولكنها سيطرت على نفسها ، وتابعت كلامها قائلة بهدوء :

— ثم انني لا أريد أن أتزوجه أبدا . انني أخاف منه . والآن هدأت نفسي هدوءا كاملا ...

وفي غداة هذا الحديث ارتدت ناتاشا فستانا قديما كانت تعرف أن له قدرة على بث المرح في نفسها ، واستأنفت منذ الصباح طراز حياتها الذي كانت قد هجرته منذ حفلة الرقص . وبعد أن احتست الشاي ذهبت الى صالة الرقص التي كانت تحبها جدا خاصة لما تمتاز به من ترجش الاصوات فيها ترجعا رائعا ، وجعلت تراجع دروس الغناء ، حتى اذا انتهت من الدرس الاول ، تقدمت الى وسط الغرفة وكررت جملة موسيقية كانت قد أعجبتها اعجابا خاصا ، وانقادت لفتنة هذه الانغام

التي تملأ فراغ الغرفة متساقطة تساقطاً ، ثم تغني في أرجائها غناء بطيئاً ، انقادت لفتنتها فرحة بها ، وكان هذه الفتنة غريبة عنها جديدة عليها وكأنها لم تكن تتوقعها ، فاذا هي تشعر فجأة بمرح وجذل ، واذا هي تقول مخاطبة نفسها : « علام ذلك التفكير كله ! ان كل شيء حسن حتى على هذه الحال » ، وأخذت تتجول في الصالة سائرة على أرضها الخشبية الرنانة لا بخطو عادي ، بل بانزال الكعب أولاً (وكانت تنتعل حذاءين جديدين تحبهما) ، ثم بانزال رأس القدم ، بفرح لا يقل عن فرحها الموقّعة الموزونة ، والى صريف رأس القدم ، بفرح لا يقل عن فرحها بأصوات غنائها منذ قليل . حتى اذا مرّت أمام المرأة نظرت الى نفسها فيها ، فكان وجهها كأنه يقول على لسانها : « هاأنذا ! لا أحسن مما أنا فيه ! لست بحاجة الى أحدا ! » .

وأراد خادم أن يدخل الصالة ليرتبها ، ولكنها صرفته ، وأغلقت الباب وراءه ، واستأنفت تجوالها . لقد رجعت في هذا الصباح الى حالتها النفسية الاثيرة : حبّها لنفسها واعجابها بنفسها . وأخذت تقول مرة أخرى بلسان شخص ثالث ، شخص هو مجموع رجال : « يا لئاناشا هذه من معجزة ! انها بارعة الجمال ، ريشانة الصبا ... وان لها صوتا لا يضارعه صوت ! وهي لا تضايق أحدا ، فدعوها وشأنها ولا تضايقوها ! » . ولكن هبهم تركوها وشأنها ولم يضايقوها ، فانها لن تجد الى الهدوء سبيلا بعد الآن . وسرعان ما شعرت نائاشا بذلك .

فتّح باب الدهليز ، وسأل أحد " هل الكوتيتيسة في غرفتها ، وسُمع وقع خطى .

ف نظرت نائاشا في المرأة ، فلم تَرَ نفسها ، لانها كانت تنصت الى

ما في الدهليز من حركة • فلما أبصرت نفسها في المرآة ، كان وجهها شاحبا • انه هو • هي من ذلك على يقين ، رغم أنها لم تكذب تسمع صوته وراء الباب الموصل •

وهرعت الى الصالون شاحبة اللون مضطربة أشد الاضطراب ، وقالت لأُمها :

— ماما ! بولكونسكي هنا • ماما ! شيء رهيب • شيء لا يطاق... لا أريد أن ... أتعذب ! ماذا يجب عليّ أن أعمل ؟

فما ان همّت الكونتيسة أن تفتح فاتها للكلام حتى دخل الامير آندره قلق الهيئة مهموما ، فلما رأى ناتاشا أشرق وجهه وتهللت أساريره ، وقبّل يد الكونتيسة ويد ناتاشا وجلس بقرب الديوان •

قالت الكونتيسة :

— منذ مدة طويلة لم نحظ بمسرة مجيئك ...

ولكن الامير آندره قاطعها مجيبا عن سؤالها ، مستعجلا ذكر الهدف الذي جاء من أجله استعجالا واضحا :

— لم أجيء اليكم طوال هذه المدة لانني كنت عند أبي : كان عليّ أن أَسوِّي معه أمرا خطيرا الشأن • ولم أرجع الا هذه الليلة ...

قال هذه الجملة الاخيرة وهو يلقي نظرة على ناتاشا • وتابع كلامه فقال مخاطبا الكونتيسة بعد لحظة صمت :

— هناك أمر أريد أن أكلّمك فيه يا كونتيسة !

فخفضت الكونتيسة عينيها وزفرت زفرة عميقة ، وقالت :

— اني مصغية اليك •

وكانت ناتاشا تعلم أن عليها أن تنصرف، ولكنها لم تستطع أن تخرج •
كانت تشعر بانقباض في حلقها ، وكانت تنظر الى الامير آندره محمقة
غير حافلة بقواعد الكياسة •

قالت تسائل نفسها : « الان ؟ في هذه اللحظة نفسها ! ... لا ...
هذا مستحيل ! » •

ونظر اليها الامير آندره مرة أخرى ، فأقنعتها هذه النظرة بأن ظنها
لم يخطيء • نعم ، الان ، في هذه اللحظة نفسها ، يتقرر مصيرها •

قالت الاميرة لناتاشا متممة :

— اذهبي يا ناتاشا ، سوف أناديك •

فألقت ناتاشا على الامير آندره وعلى امها نظرة مرتاعة ، ضارعة •
وخرجت •

قال الامير آندره :

— جئت أخطب ابنتك يا كوتيسة •

فاحمر وجه الكوتيسة احمرارا شديدا ، ولكنها لم تقل شيئا • ثم
استجمعت قواها وقالت برصانة وجد :
— ان طلبك ...

وكان الامير آندره صامتا منصتا ينظر في عينيها ...

وعادت تقول مضطربة :

— ان طلبك .. يسرنا ويبهجنا .. وانا .. أقبله .. وأنا سعيدة

به .. وزوجي كذلك .. ولكن الامر مرهون بها ..

فقال الامير آندره :

— سأكلّمها متى ظفرت بموافقتك •• فهل تمنحيني هذه الموافقة ؟
— نعم •••

وبعاطفة هي مزيج من الشعور بالبعد والحب معا ، لثمت جبينه
حين مال على يدها • كانت تريد أن تحبه كما تحب أم ابنها ، ولكنها
كانت تحس بأنه غريب عنها ، مخيف لها •

وقالت :

— اني واثقة بأن زوجي موافق ، ولكن أباك •••
— أطلعت أبي على ما عقدت عليه نيتي ، فاشتراط لموافقته أن لا يتم
الزواج قبل انقضاء عام • هذا بعينه ما كنت أريد أن أقوله لك •

قالت الكونتيسة :

— صحيح أن ناتاشا ما تزال صغيرة ، ولكن مهلة تبلغ هذا المبلغ
من الطول •••

قال الامير آندره متتهدا :

— لم يمكن غير هذا •

قالت الكونتيسة :

— سأرسلها اليك •

وخرجت • فكانت تردد قائلة وهي تبحث عن ابتها : « ارحمنا
يا رب ! اللهم رحمتك ! » وقالت لها صونيا ان ناتاشا في غرفتها •
فوجدتها جالسة على سريرها شاحبة اللون ، جافة العينين ، تحدّق الى
الايقونات وتهمس راسمة على نفسها !شارة الصليب بحركة سريعة •
فلما رأت أمها وثبتت قائمة وهبتت تتلقاها سائلة :

— هيه ماما ؟ ماذا ؟

قالت الكونتيسة بلهجة بدت لناتاشا باردة :

— اذهبي اليه • انه يخطبك !

ورددت تقول : « اذهبي ، اذهبي » بلهجة فيها حزن وفيها لوم حين

رأت ابنتها تجري اليه جريا •

لم تستطع ناتاشا أن تتذكر في يوم من الايام كيف دخلت الصالون ،
انها ما ان رآته وهي على عتبة الباب حتى توقفت • « هل يمكن أن يكون
هذا الرجل قد أصبح كل شيء عندي ؟ » وأجابت عن سؤالها قائلة في
اللحظة نفسها : « نعم ، كل شيء : هو الآن أعزّ في قلبي من كل ما في
العالم » •

وجاءها الامير آندره خافضا عينيه • وقال لها :

— لقد أحبتك منذ رأيتك • فهل آمل أن ...

ونظر اليها ، فأذهله ما كان يعبر عنه وجهها من هوى مشبوب •
كان وجهها كأنه يقول : « لِمَ السؤال ؟ لم الشك فيما يستحيل أن لا
يُعرف ؟ لِمَ الكلام حين يستحيل التعبير بالالفاظ عما تجيش به
النفس ؟ » •

واقتربت منه • وتوقفت • ثم تناولت يده وقبّلتها •
سألها :

— هل تحبينني ؟

فأجابت ناتاشا بما يشبه الغضب :

— نعم ، نعم •

ونشقت نفسا عميقا ، فنفسا عميقا ثانيا ، فثالثا ، الى أن انفجرت
تنشج باكية •

سألها الامير آندره :

— لماذا ؟

فأجابته :

— آه ... أنا سعيدة •

وابتسمت من خلال الدموع ، ومالت عليه ، وترددت لحظة كأنها
تسأل هل تستطيع أن تفعل ما تهمُّ أن تفعله ، ثم قبَّلته •

أمسك الامير آندره يديها بيديه ، ونظر في عينيها ، فلم يحس أن
قلبه ما يزال عامرا بذلك الحب ذاته الذي كان يعمر به • ان نوعا من
انقلاب قد حدث في نفسه : اختفى ما كان في الفتاة من جاذبية شعرية
ملفعة بالسر ، ولم يبق في نفس الرجل الا شفقة على ضعفها امرأة وطفلة،
وخوف انقيادها وثقتها ؛ وشعور حاد هو مزيج من فرح وحزن بواجب
الارتباط بها الى الابد • وكانت هذه العاطفة الجديدة ، على خلوها من
الشعر والتألق ، أشدَّ قوة وأكثر جدا •

قال الامير آندره وهو ما يزال ينظر في عينيها :

— هل ذكرت لك ماما أن الزواج لن يتمَّ قبل انقضاء سنة ؟

حدثت ناتاشا نفسها متسائلة : « هل يمكن أن أكون ، أنا الطفلة
(جميع الناس يسموني طفلة) قد أصبحت منذ الآن امرأة لهذا الرجل
الاجنبي ، مساوية له ، امرأة لهذا الرجل الآسر الذي يحترمه حتى أبي ؟
أصحيح أنني لا أستطيع بعد الآن أن آخذ الحياة مأخذ الخفة والطيش ،

وأنتي غدوت شخصا كبيرا ، وأنتي مسئولة عن كل عمل من أعمالي ،
وكل قول من أقوالي ؟ ولكن عمَّ سألني ؟ » •

وأجابته دون أن تفهم السؤال الذي ألقاه عليها :
— لا •

قال الامير آندره :

— معذرة • انك صغيرة السن جدا ، واني عشت كثيرا • فأنا أخاف
عليك • أنت نفسك لا تعرفين نفسك •

كانت ناتاشا تصغي الى كلامه بانتباه شديد ، محاولة أن تفهم معنى
أقواله فلا تظفر بذلك •

وتابع الامير آندره كلامه يقول :

— مهما تكن هذه السنة التي تؤجل سعادتي شاقة على نفسي ، فان
هذه المهلة ستنجح لك أن ترى ما في قلبك رؤية واضحة • فأنا أطلب
منك أن تهبي لي السعادة بعد سنة ، ولكنك حرة ، فسوف تظل خطوبتنا
سرا مكتوما ، فاذا لاحظت أنك لا تحبينني أو اذا لاحظت أنك تحين...•••

قال ذلك وتبسّم مكرها نفسه على التبسّم اكرهاها • فقاطعته
ناتاشا تقول مقتنعة بأنها تذكر الحقيقة :

— لماذا تقول هذا الكلام ؟ أنت تعلم أنني أحببتك منذ أول لقاء
حين جئت الى أوترادنويا •

— سيُتاح لك في خلال سنة أن تعرفي نفسك...•••

فقالت ناتاشا فجأة وقد أدركت في تلك اللحظة أن الزواج
مؤجل سنة :

— سنة ... كما...ملة ؟ ولكن لماذا التأجيل سنة ؟ لماذا يكون
التأجيل سنة ...

فأخذ الامير آندره يشرح لها أسباب هذا التأخير . فكانت ناتاشا
لا تصغي الى كلامه . ثم سأله :
— ألا يمكن غير هذا ؟

فلم يجب الامير آندره بشيء ، ولكن وجهه دلّ على أن القرار بات
لا رجوع عنه .

قالت ناتاشا فجأة :

— شيء فظيع ، شيء فظيع ، فظيع !

وانفجرت تبكي ناشجة من جديد . وأردفت تقول :

— سوف يسميني أن أنتظر سنة . مستحيل . فظيع .

ونظرت الى خطيبها ، فرأت على وجهه تعبيرا عن شفقة وارتباك .

فانبرت تقول بغتة وهي تجفف دموعها :

— لا ، لا . أنا راضية بكل شيء ، موافقة على كل شيء .

اني سعيدة !

ودخل الأب والأم في تلك اللحظة ، فباركا الخطيبين .

ومنذ ذلك اليوم أصبح الامير آندره يتردد على آل روستوف

خطيبا .

الفصل الرابع والعشرون

لم يحتفل بخطبة بولكونسكي وناتاشا ، ولم يعلم بها أحد . لقد أصر الامير آندره على هذا . كان يقول : مادام هو سبب هذا التأجيل فيجب عليه أن يتحمل جميع عواقبه . فالوعد الذي قطعه على نفسه يربطه الى الابد ، ولكنه لا يريد ان يربط ناتاشا ، بل هو يدع لها حريتها كاملة فاذا لاحظت بعد ستة أشهر مثلاً انها لاتحبه ، كان من حقها ان تنكل . وواضح ان الابوين وناتاشا جميعا كانوا لا يريدون ان يسمعوا كلاما كهذا الكلام . ولكن الامير آندره لم يترشح عن رأيه . وقد أصبح يجيء الى آل روستوف كل يوم ، ولكنه لايعامل ناتاشا كما يعامل خطيب خطيبته . فهو ما يزال يخاطبها بصيغة الجمع ، وما يزال لايقبل الايدها . واتخذت العلاقات بين الامير آندره وناتاشا منذ الخطوبة طابعا جديدا ، يمتاز بأن الصلة بينهما صارت صحيحة وبسيطة ، حتى لكأنهما كانا لايعرف احدهما صاحبه قبل الان . واصبحا يجبان أن يتذكرا كلاهما ماذا كان يرى كل منهما في الآخر من رأى حين لم يكن احد منهما شيئا في نظر الآخر .

هما يشعران الان بانهما اصبحا انسانين جديدين يختلفان عما كانا من قبل كل الاختلاف : كانا من قبل متصنعين ، وهما الان بسيطان

وصادقان • وكانت الاسرة تشعر في اول الامر بشيء من الحرج حين جاء
الامير آندره • كان يبدو لها انه آت من عالم غريب •

فاتفقت ناتاشا وقتا طويلا لتخلق جوا من الالفة بين اهلها وبينه
أخذت تؤكد لهم معتزة بأنه لا يبدو رجلا على حدة الا في الظاهر ، اما
في حقيقة الامر فهو كسائر الناس ، فهي لاتخشاه ، وما ينبغي لاحد ان
يخشاه • فما هي الا أيام حتى ألقوه ، واستردوا طراز حياتهم السابقة
بغير حرج ، وشاركهم هو في هذا الطراز من الحياة كان يعرف كيف
يكلم الكونت في امور الزراعة ، وكان يعرف كيف يبحث مع الكونتيسة
وناتاشا شئون الثياب والزينة ، وكان يعرف كيف يحدث صونيا عن
اللبومات والتطريز • وكان آل روستوف يدهشون أحيانا ، بينهم وبين
أنفسهم ، او بحضور الامير آندره ، من أن هذا كله قد امكن ان يحدث
فكانوا يقطعون بأن القدر هو الذي تدخل في الامر الذي تضافرت فيه
ظروف كثيرة : رحلة الامير اندره الى أوترادونيا ، اقامتهم ببطر سبرج ،
الشبه بينه وبين ناتاشا ، وهو شبه لاحظته الخادمة العجوز منذ اول
زيارة ، المشادة التي وقعت سنة ١٨٠٥ بين الامير آندره وابنهم نيقولا ،
وما الى ذلك من امور رأت الاسرة فيها دليلا واضحا على تدخل القدر •

وكان جو البيت مشبعا بذلك السأم الشعري وذلك الصمت الذي
يحيطان دائما بخطيئين • فكثيرا ما كانوا يصمتون جميعا وقد ضمنهم
غرفة واحدة •

وكانوا في بعض الاحيان يقومون وينصرفون ، فيختلي الخطييان
ويظلان صامتين • وهما لا يتكلمان عن مستقبلهما الا نادرا • كان الامير
آندره يخشى أن يواجه هذا الموضوع ، ويتحرج ان يخوض فيه •

وكانت ناتاشا تشاركه هذا الشعور ، مثلما كانت تشاركه جميع عواطفه التي تحرزها دائما . وفي ذات مرة سألته عن ابنه . فاحمر وجهه ، وكان احمرار الوجه قد أصبح يعتريه كثيرا ، وكانت ناتاشا تحب فيه هذا حبا خاصا ، ثم قال ان ابنه لن يقيم معهما . فسألته ناتاشا مدعورة :
— لماذا ؟

فقال :

— لانني لا استطيع ان انتزعه من جده ، ثم ... فسرعان ما حزرت ناتاشا ما كان يفكر فيه ، فقالت :
— آه ... ما اعظم ما سأحبه ! ولكنني اعلم انك لا تريد ان يستطيع احد لومنا ، لا انا ولا انت .

وكان الكونت الشيخ يدنو من الامير آندره أحيانا ، فيقبله ويسأله النصح في أمر تربية بيتيا أو عمل نيقولا . وكانت الكونتيسة العجوز تنتهد وهي تنظر الى الخطيبين . وكانت صونيا تخشى دائما ان يكون وجودها زيادة ، فتتحل شتى المعاذير لتتركهما وحيدين ، حتى حين لا يكونان في حاجة الى ذلك البتة . وكانت ناتاشا ، اذا تكلم الامير آندره (وهو يجيد الكلام خير اجادة) تصغي اليه فخورة معتزة . وكانت اذا هي تكلمت ، تلاحظ — فرحة وجلة في آن واحد — انه يرمقها باتباه ، وينظر اليها متفرسا ، فتتساءل مرتبكة متحيرة : « ما الذي يبحث عنه في ؟ ما معنى هذه النظرة ؟ ما عسى يحدث اذا لم يقع في على ما يبحث عنه هذا البحث ؟ » . وكان يرتد اليها في بعض الاحيان مرحها الجنوني المعهود فيها ، الخاص بها ، فكانت في تلك الاحيان تحب ان تصغي الى الامير آندره اكثر من أي وقت مضى وان تراه يضحك . وكان

هو لا يضحك الا قليلا ، ولكنه اذا اتفق له أن ضحك ، استسلم للضحك بنفسه كلها ، فكانت ناتاشا ، بعد كل ضحك من هذا النوع ، تشعر بمزيد من القرب منه . وكان يمكن أن تسعد ناتاشا سعادة كاملة لولا انها كانت تتصور الفراق الوشيك فتخاف ، وكان الامير آندره من جهته لا يتصور هذا الفراق الا شحب لونه وبرد جسمه رعبا .



قبل ان يغادر الامير آندره بطرسبرج يوم ، جاء الى آل روستوف مصطحبا بطرس الذي لم يزرهم منذ حفلة الرقص . وكان بطرس يبدو قلقا مضطربا . وانخرط في حديث مع الام . وجلست ناتاشا وصونيا الى رقة الشطرنج تلعبان داعيتين الامير آندره بذلك ان ينضم اليهما ، فأقبل عليهما ، وقال يسأل ناتاشا :

— انك تعرفين بيزوخوف منذ مدة طويلة ، اليس كذلك ؟ ولا شك أنك تحمين له شعور المودة والصداقة .

— نعم . هو لطيف ، لكنه مضحك قليلا .

وعلى عادتها حين تتكلم عن بطرس أخذت تروي نكات عن ذهوله ، وهي نكات أغلبها ملفق تلقيفا .

قال الامير آندره :

— لقد بحث له بسرنا . انني اعرفه منذ الطفولة . هو رجل قلبه

من ذهب .

وأضاف يقول فجأة بلهجة فيها جد :

— أرجوك يانا تاليا . . . اني مسافر . . . ولا يعلم الا الله ما عسى

يحدث . قد يزول من نفسك ما تحمينه لي الان من . . . نعم ، انا

أعلم انه لايجوز ان اقول هذا الكلام . لكنني واحدا : اذا حدث لك
أي شيء اثناء غيابي ...

— ماالذي يمكن ان يحدث ؟

تابع الامير آندره كلامه فقال :

— اذا نزلت أية نازلة ... فأرجوك ياآنسة صوفيا ، ان تطلبي
العون والنصح منه وحده . هو رجل ذاهل ، مضحك جدا ، ولكنه
أطيب الناس قلبا ، وانقاهم سريرة .

لا الاب ولا الام ولا صوفيا ولا الامير آندره نفسه ، استطاعوا
أن يتنبأوا بالاثر الذي ستركه في نفس ناتاشا فراقها عن خطيبتها .
كانت في يوم الفراق تذهب وتجيء في المنزل محمرة الوجه مضطربة
الحركة ، جافة العينين، تشغل نفسها بأمور تافهة وتهتم بترهات وسفاسف
كأنها لاتدرك ماينتظرها ، ولم تذرف دمعة واحدة حين قبل الامير آندره
يدها لآخر مرة مودعا . ولكنها قالت له بصوت اضطره ان يتساءل فعلا
الا يجب عليه ان يبقى ، (وقد بقيت ذكرى هذا الصوت في خياله زما
طويلا) ، قالت له :

— لا تسافر !

وحين مضى ، لم تبك ايضا ، ولكنها حبست نفسها في غرفتها عدة
أيام لاتسكب دمعة ولا تفعل شيئا ، ولا تزيد على ان تكرر من حين الى
حين قولها : « لماذا سافر ؟ » .

وما كان أشد الدهشة التي اعترت من حولها ، حين رأوها تصحو
من خدرها فجأة بعد خمسة عشر يوما ، وتعود الى ماكانت عليه ، ولكن
بهئية نفسية جديدة ، كالاطفال الذين يبلون من المرض فيكون لهم
وجه جديد .

الفصل الخامس والعشرون

ساعت صحة الامير نيقولا آندرعتش وساء طبعه كثيرا أثناء السنة التي أعقبت سفر ابنه . فأصبح اسرع الى الاهتياج والسخط، واصبحت نوبات الغضب التي تعتريه بغير مسوِّغ تنصب على الاميرة ماريا ، حتى لكأنه يختار النقاط الحساسة في نفسها اختيارا ، ليؤذي شعورها أشد الايذاء ويوقع فيها اكبر التعذيب .

وكان للاميرة ماريا . وكان لماريا ولعان اثنان ، وكان لها اذن فرحتان اثنتان : نيقولا الصغير ، ابن اخيها ، والدين ، فكان الامير الشيخ يختار هذين الولعين موضوعا اثيرا للهجوم عليها والسخرية بها . فأيا كان الحديث الذي يجري بينه وبينها ، تراه يحرفه الى الكلام عن الخرافات التي تؤمن بها العوانس ، ومن الافراط في التساهل والتسامح مع الاولاد . كان يقول لها مثلا : « تريدان ان تصنعي منه (يعني الصغير نيقولا) عانسا مثلك ، فأنت مخطئة . ان الامير آندرة في حاجة الى ابن لا الى ابنة » ، او كان يتجه بالكلام المدموزيل بورين فيسألها بحضور الاميرة ماريا عن رأيها في قسنا وأيقوناتنا وأخذيهزل ويزح

أصبح يؤذي شعور الاميرة ماريا ايذاءً قاسياً في كل وقت . ولكن ابنته لم تحتج حتى الى بذل شيء من الجهد لتغفر له . كانت تتحمله بدون أي تذمر . هل يمكن أن يخطيء في حقها هذا الاب الذي تعلم علم اليقين أنه يجبها ، هل يمكن أن يكون ظالماً غير عادل ؟ وما العدل أصلاً ؟ كانت الاميرة ماريالا تفكر ابداً في هذه الكلمة الصلغة «العدل» . كانت جميع القوانين الانسانية المعقدة تتخلص عندها في قانون واحد بسيط واضح ، هو قانون المحبة والتضحية الذي علمنا اياه « ذلك » الذي تحصل العذاب في سبيل البشر وهو إله . فما قيمة أن تلقى لدى الآخرين عدلاً او أن تلقى ظلماً ؟ المهم أن عليها أن تتألم وتحب ، وذلك ما كانت تفعله .

وجاء الامير آندره الى لسيا جوري في الشتاء ، وكان مرحاً لطيفاً رقيقاً عذبا ، وكان يبلغ من هذا كله مالم يسبق للاميرة ماريا أن رآته فيه يوما . فأدركت أن شيئاً ما قد وقع له ، ولكنه لم يحدثها بشيء عن غرامه الجديد . وقد جرى بينه وبين أبيه حديث طويل ، فلاحظت الاميرة ماريا أن كلا منهما خرج من هذا الحديث ممتعضاً من الآخر .

وبعد سفر الامير آندره بوقت قصير ، كتبت الاميرة ماريا من لسيا جوري الى بطرسبرج ، رسالة لصديقتها جوليا كاراجين التي كانت تحلم الاميرة ماريا ، كما تحلم الآنسات دائماً ، أن تزوجها أخاها ، والتي كانت حينذاك في حداد على قتل أخاها في تركيا^(١) . وهذا نص الرسالة :

(١) حرب على الترك بدأت في تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٨٠٦ ، واستمرت الى تموز (يوليه) من عام ١٨١٢ .

يجب أن تؤمن بأن الحزن نصيبنا جميعا يا صديقتي الغالية الرقيقة
جوليا .

ان فقدك أذاك يبلغ من القسوة أنني لا أستطيع أن اجد له تعليلا
الا في أنه نعمة من الرب اراد بها أن يمتحنكما وهو يحبكما أنت وأمك
المتأزاة آه يا صديقتي ! ان الدين وحده يستطيع أن يخلصنا من اليأس
ولا أقول أن يعزينا . ان الدين وحده يستطيع أن يفسر للانسان مالا
يستطيع الانسان أن يفهمه الا بالدين : لماذا ينادي الرب الى جواره أناسا
أخيارا شرفاء نبلاء يستطيعون أن يجدوا السعادة في الحياة ، ولا يؤذون
أحدا ، بل لاغنى عنهم لسعادة الآخرين ، على حين أن اناسا أشرارا لا
يفيدون الناس أو هم يلحقون بالناس الضرر ، ويكونون عبئا على أنفسهم
وعلى الآخرين ، يبقون أحياء ؟ ان الموت الاول الذي شهدته ولن أنساه
مدى الحياة وهو موت زوجة أخي العزيزة ، قد ترك في نفسي هذا الاثر
وخلف في ذهني هذا الرأي . وكما تسألين أنت القدر لماذا كان يجب أن
يموت أخوك الممتاز ، كذلك كنت أتساءل انا لماذا كان يجب أن تموت
ليزا ، هذه الملاك التي لم تؤذ في حياتها أحدا ، ولا احتوت نفسها الا أنبل
المعاني . وقد انقضت على موتها يا عزيزتي خمس سنين ، وأخذت أدرك
الان بعقلي الضعيف ادراكا واضحا لماذا كان لابد أن تموت ، وأخذت
أدرك بعقلي الضعيف ادراكا واضحا ان هذا الموت لم يكن الا تعبيرا
عن رحمة الخالق التي لانهاية لها ، عن رحمة هذا الخالق الذي ليست
أفعاله ، وان لم تفهمها في كثير من الاحيان ، ليست الا تجليات حبه
لخليقته حبا ليس له حدود . واني لاقول لنفسي أحيانا : لعلها كانت
تسلك براءة ملائكية تجعلها اعجز عن أن تقوم بجميع الواجبات التي تقع

على عاتق أم • لا مأخذ عليها زوجة شابة ، فلعلها لم تكن قادرة على ذلك
أما • وهي لم تخلف لنا جميعا ولا سيما للامير آندره أجمل الذكرى
وانقى الحسرة فحسب ، وانما هي تحتل أيضا في السماء ، ولا شك ،
مكانا لا اجرؤ أن أطمع لنفسي بمثله • واذا تركنا الكلام عنها هي ، فلا
شك في أن هذا الموت المبكر الرهيب كان له ، رغم كل الحزن الذي
أمضئنا ، كان له اثر مفيد في نفسي وفي نفس اخي • في ذلك الوقت ، حين
ماتت ، ما كان لهذه الافكار أن تساورني ، ولو ساورتنى لطردتها مرتاعة،
أما الآن فان كل شيء واضح في ذهني كل الوضوح ، فلا سبيل الى
جوده • لا أكتب لك هذا يا صديقتي لا لأقنعك بالحقيقة الانجيلية التي
اصبحت قاعدتي في الحياة : لا شعرة تسقط من رأسنا الا بإرادة الرب •
وارادة الرب لا يوجهها الا ما يحمله لنا من حب لا نهاية له ، فكل ما يحدث
لنا انما هو خير • تسأليني هل سنقضى الشتاء القادم بموسكو ؟ لا اظن
هذا ولا أتمناه ، رغم كل شوقي اليك ورغبتني في رؤيتك • وقدಿದೆشك
أن تعلمي أن سبب هذا كله انما هو « بوونابرت » • اليك شرح ذلك : ان
صحة ابي تتردى تردى ترديا واضحا • أصبح لا يحتمل أن يعارضه أحد ،
وأصبح سريع الاهتياج ، وهذا الاهتياج السريع انما تثيره فيه الشئون
السياسة خاصة كما تعلمين • فهو لا يطيق أن يتصور أن يعامل
« بوونابرت » جميع ملوك اوربا ، وان يعامل امبراطورنا خاصة ، وهو
حفيد كاترين العظمى معاملة الند للند • تعلمين أنني لا اكرث بالسياسة
أي اكراث ، ولكنني اطلع من أقوال ابي وأحاديثه مع ميخائيل ايفانوفتش
على كل ما يجري في العالم ، واطلع خاصة على الامجاد التي يسبغونها على
بوونابرت • لاشك أن ليسييا جوري تنفرد عن سائر الكون بأنها لاتعترف
به لا رجلا عظيما ، ولا امبراطورا لفرنسا • تلك هي الامور التي تخرج

أبي عن طوره • ويبدو لي أنه بسبب آرائه السياسية ، ولأنه يتوقع أن تورثه صراحته المألوفة التي تحمله عنى أن يقول رأيه غير مبال بأحد ، أن تورثه منازعات كثيرة ومتاعب جمة ، انما يستعص من الحديث عن رحلة نقوم بها الى موسكو • ان كل ما قد تجنيه صحته من تحسن بفضل العلاج الذي سيتبعه في موسكو ، سيفقده بما سيشارك فيه من مناقشات عن بونابرت لا يمكنه ان يتحاشاها • على كل حال ، سيتقرر هذا الامر قريبا جدا •

حياتنا في الاسرة تجري كما كانت تجري في الماضي ، باستثناء أن أخي أندره غائب • وقد سبق أن كتبت لك أنه تغير كثيرا في الآونة الاخيرة • انه منذ محنته بفقد زوجته لم يعد الى الحياة النفسية الطبيعية الا في هذه السنة • لقد رجع الى ماعهده فيه منذ طفولته : طيبا رقيق العاطفة ، له قلب من ذهب لا اعرف له نظيرا في غيره • أظن أنه أدرك أن حياته لما تنته • ولكنه الى جانب هذا التبدل النفسي قد ساءت حاله الجسدية ، فهو شديد النحول ، تأثر الاعصاب • انني قلقه عليه ، سرني أنه قام بهذه الرحلة الى الخارج ، وهي رحلة يصفها له الاطباء منذ زمن طويل • أمل أن يسترد بهذا عافيته • تقولين ان الناس بيطرسبرج يتحدثون عنه حديثهم عن شاب يعد من اكثر الشباب نشاطا ، وأوسعهم ثقافة ، واحدهم ذكاء • فاغفري لي اعتزاز الاخت بأخيها : انني لم يخامرني في هذا شك يوما • ان ما فعله هنا خير للناس كافة لا يعد ولا يحصى ، ابتداء بفلاحيه وانتهاء بابناء الطبقة النبيلة • فحين ذهب الى بطرسبرج لم ينل من المكافأة الا ما يستحق • يدهشني أن تصل من بطرسبرج الى موسكو شائعات تبلغ من البعد عن الحقيقة ما تبلغه

الشائعات التي تذكرنيها لي عن زواج مزعوم سيتم بين أخي وبين الانسة الصغيرة روستوف • لا أعتقد أن آندره سيتخذ له أية زوجة ، فضلا عن أن يتزوج هذه الانسة • اليك شرح ذلك : أنا أعلم أولا ، رغم قلة حديثه عن المرحومة امرأته ، أن الحزن الذي أصابه به فقدها أعمق رسوخا في قلبه من أن يستطيع في أي يوم من الايام أن يعزم أمره على اتخاذ زوجة تحل محلها ، وعلى أن يجيء لملاكننا بزوجة أب • وأنا أعلم عدا ذلك أن هذه الفتاة ليست من نوع النساء اللواتي يمكن أن يعجبه • فلا أعتقد أن الامير آندره يمكن أن يختارها زوجة له ، وأقول لك بصراحة انني لا أتمنى ذلك • ولكن هأنذا ثرثرت وأسرفت في الثثرة ، فملأت الورقة الثانية كلها • استودعك الله يا صديقتي العزيزة ، وأسأله تعالى أن تكوني في رعايته المقدسة القادرة • صاحبتى الانسة بورين تقبّلك •

ماريا

الفصل السادس والعشرون

في منتصف الصيف تلقت الاميرة ماريا من سويسرا رسالة بعثها الامير آندره ، وفيها يطلعها على نبأ غريب لا يتوقع . انه يبلغها خطوبته للآنسة روستوف . وكانت رسالته تفيض غراما جياشا بخطيبته ، وتزخر بشعور الصداقة الوثيقة الحنون نحو أخته . كتب يقول انه لم يحب في حياته كما يحب الان ، وانه لم يدرك الحياة ولم يعرف الحياة قبل الان . وهو يسأل أخته ان تغفر له أنه لم يحدثها بشيء عن نياته أثناء اقامته الاخيرة في لسيا جورى ، رغم أنه كاشف بها أباه ، ويذكر أن السبب في ذلك هو أنه لو حدثها بالامر لرجت أباه أن يوافق ، فأثارت غضبه عليها وغيظه منها . ويضيف الى ذلك أن الامر كله لم يكن قد بت فيه بتا قاطعا كما بت فيه الان . « لقد فرض عليّ ابي أن اترث سنة ، وهاقد انقضت أشهر ستة، أي انقضى نصف المهلة ، فما ازددت الا اصرارا على عزمي وثباتا على قراري ولولا أن احتجزي الاطباء هنا للعلاج بالمياه المعدنية ، لكنت قد رجعت الى روسيا ، ولكن يجب علي أن أؤجل عودتي ثلاثة أشهر أخرى . انك تعرفيني وتعرفين علاقاتي بأبي ، فتعرفين . أنني اكتب اليه في هذا الامر نفسه الان ، فأرجوك أن تختاري لحظة مناسبة تسليمه فيها رسالتي ، ثم أن تخبريني بوقع هذا كله في نفسه ،

ورده عليه ، وأن تبلغيني هل ثمة أمل في أن يوافق على انقاص المهلة
ثلاثة أشهر » •

بعد ترددات كثيرة ، وشكوك كبيرة ، ودعوات وصلوات ، سلّمت
الاميرة ماريا الرسالة الى أبيها • فقال لها أبوها في الغد بهدوء :

اكتبي الى أخيك فقولي له أن يترث الى أن ارحل عن هذا العالم ،
ولن يتأخر رحيلي كثيرا ، فاني لن ألبث أن اخلّصه مني •••

أرادت الاميرة أن ترد ، ولكن أباه لم يسمح لها بالرد ، وقال بصوت
ماينفك يزداد علوا وحدة :

— تزوج ••• تزوج يا عزيزي ! لم لا ؟ مصاهرة عظيمة ! •• هم
أناس أذكاء ، اليس كذلك ؟ واغنياء ، أليس كذلك ؟ نعم ، وسيكون
لنيقولا الصغير زوجة أب جميلة • اكتبي اليه أن يتزوج منذ الغد اذا
شاء • ستكون هي زوجة اب لنيقولا ، وسأتزوج أنا الانسة بورين !
هاهاها ! فبذلك يكون له هو أيضا زوجة أب ! ولكنني لا أريد أن يضم
بيتي نساء أخريات ، فليتزوج ، ولكن على شرط أن يعيش مستقلا • وقد
تحبين أنت أن تذهبي اليه ، فتعيشي معه ، فهلمي هلمي ! أسأل الله ان
يباركك ••• وأرجو لك سفرا موفقا ، أرجو لك سفرا سعيدا ! ••

وبعد ذلك الانفجار لم ينس الامير بكلمة واحدة عن هذا الامر •
ولكن الغضب العظيم الذي سببه له ضعف ابنه ظهر في علاقاته بابنته
فأضيف الى موضوعات التندر القديمة موضوع جديد : هو الكلام عن
زوجة الاب ومغازلة الانسة بورين • فكان يقول لابنته :

لم لا أتزوجها ؟ لتكونن اذا تزوجتها أميرة رائعة ! ولم تلبث ماريا أن لاحظت فعلا أن أباهما صار يقرب اليه الفرنسية مزيدا من التقريب . فكتبت الى اخيها كيف استقبل ابوهما الرسالة، ولكنها واسته بأن أمكته في أنها ستفعل في ثني أبيها عن موقفه المتشدد .

الصغير نيقولا وتربيته ، والامير آندره والدين ، تلکم هي تعزيتات الاميرة ماريا وفرحاتها . ولكن كل امريء يحتاج الى أن تكون له آمال خاصة به . فكانت الاميرة ماريا تخفي في أعرق أعماق قلبها حلما وأملا هما اللذان يشدان أزرها ويقويان عزيمتها في الحياة . وهي مدينة بهذا الحلم وهذا الامل الى « أولياء الله » والمجذوبين والجواين الذين كانوا يجيئون اليها خفية فلا يراهم الامير . كانت الاميرة ماريا ما تنفك تلاحظ الناس وتجرب الحياة ، فتزداد دهشتها من عمادة البشر الذين يبحثون عن المباهج والسعادة على الارض ، ويكدون ويجهدون ويتألمون ويكافحون ويؤذي بعضهم بعضا لبلوغ هذه السعادة المستحيلة الوهمية الدنسة . لقد أحب الامير آندره امرأته وماتت ، فلم يكفه هذا ، فهو يحاول الان أن يجعل سعادته رهنا بامرأة اخرى . وأبوه يعارض هذا الامر ، لانه يريد لابنه زوجة أعلى شأنًا وأعرض ثراء . وكل امريء يكافح ويتألم ويؤلم غيره ويفسد نفسه ، الخالدة ، لبلوغ سعادة ليس عمرها الا لحظة . ونحن أنفسنا نعلم هذا ، بل ان المسيح ، ابن الرب ، نزل الى الارض ليقول لنا أن هذه الحياة حياة عابرة ، وانها امتحان ، ومع ذلك، نظل نتشبث بها ، ونظل نعتقد أننا واجدون فيها السعادة . كانت الاميرة تحدث نفسها قائلة : « كيف لم يدرك أحد هذا ؟ كيف لم يدركه الا « أولياء الله » هؤلاء الذين يحتقرهم الناس ، ويأتون اليه »

حاملين آكياسهم على اكتافهم ، صاعدين سلّم الخدم خشية ان يراهم الامير ، لا اتقاء لغضبه بل رغبة في تجنبه الخطيئة . لان يترك المرء أسرته ووطنه ، ويهجر الاهتمام بخيرات هذا العالم جميعا ، لايتعلق منها بشيء ، ويجعل يضرب في الارض جوابا من مكان الى مكان متدثرا بأسمال من قنب ، لا يؤذي من البشر احدا بل يصلي من أجلهم ، ويدعو الله للذين يطردونه مثلما يدعو الله للذين يحمونه : هل من حياة تفوق هذه الحياة ، وهل من حقيقة تفوق هذه الحقيقة ؟

كان بين أولئك التقيات واحدة اسمها فيدوسيوشكا^(١) ، هي امرأة قصيرة وديعة مجدورة ، عمرها خمسون سنة . ان هذه المرأة تضرب في الارض منذ ثلاثين عاما ، حافية القدمين مثقلة بالسلاسل . وقد اجبتها الاميرة ماريا حبا خاصا . ففي ذات يوم روت هذه المرأة على الاميرة ماريا في غرفتها المظلمة التي لا يضيئها الا سراج واحد ، روت لها قصة حياتها ، فاذا بالاميرة ماريا تؤمن فجأة بأن هذه المرأة وحدها قد اهتدت الى الطريق الحق ، واذا هي تبلغ من الايمان بذلك انها قررت أن تضرب في الارض هي أيضا . وحين مضت فيدوسيوشكا الى النوم كانت الاميرة ماريا قد جازمت بأن عليها أن تعيش حياة تجواب مهما يد ذلك غريبا . ولم تبج الاميرة ماريا بما عازمت عليه الا للكاهن الذي تعترف له ، وهو الاب آكنفي ، فاستحسن رأيها وشجعها على انفاذ ما عقدت عليه نيتها . وبحجة اهداء هدايا الى النسوة الجوابات التقيات اشترت لنفسها ثيابا كاملة : جلبابا وخفين وققطانا وخمار أسود . وصارت تقترب كثيرا من

(١) تصغير اسم فيدوسيا تدليلا .

الخزانة التي تنطوي على سرها ، فتساءل مترددة ألم يحن لها أن تضع مشروعها موضع التنفيذ •

وصارت في كثير من الاحيان ، حين تصغي الى ما ترويه لها الجوابات تشتعل حماسة لهذه الاقوال البسيطة التي يرددنها هنّ ترديدا آليا ، ولكنها تشتعل في نظرها هي عى معنى عميق ، وبلغت من ذلك انها همت عدة مرات أن تهجر كل شيء وتولي هاربة من المنزل • وفي خيالها أخذت تتصور نفسها لابسة خرقة غليظة ، حاملة عصا وكيسا ، سائرة مع فيدوسيوشكا في طرق غرباء ، منتقلة من معبد الى معبد بلا أسف ولا حب انساني ولا رغبة ولا شهوة ، واصلة في نهاية المطاف الى حيث لا حزن ولا زفرات ، بل فرح ابدى وغبطة لا تنتهي •

كانت الاميرة ماريا تقول انفسها في أثناء ذلك : « أصل الى مكان فأصلّي فيه ، وقبل أن آلفه وأتعلق به ، انصرف منه وأوغل في السير بعيدا ، وأظل أمشي الى أن تشني ركبتاي ، فأرقد على الارض وأموت في مكان من الامكنة ، فألقى أخيرا ذلك الشاطئ الامين الوادع ، حيث لا شجن ولا آهات ! » •

ولكنها ما ان تر اباها ، أو تر الصغير كوكو خاصة ، حتى تضعف عزيزمتها ، فتبكي في الخفاء ، وتحس انها آثمة ، لانها تحب أباها وتحب ابن أخيها اكثر مما تحب الرب •

الجزء الرابع

الفصل الأول

يزعم ما ترويه التوراة أن سعادة الانسان الاول قبل سقوطه كانت تقوم على فراغ وقته وخلوّه من العمل • وحين سقط الانسان بقي حب البطالة في نفسه ، ولكن لعنة الرب ماتزال جاثمة على صدره ، لا لأن عليه أن يكسب خبزه بعرق جبينه فحسب ، بل أيضا لان طبيعته النفسية تجعله لا يجد راحة النفس في الفراغ والبطالة • فكأن صوتا خفيا يهتف قائلاً لنا انا نكون آثمين خطاة ان لم نعمل • فاذا استطاع الانسان أن يهتدي الى حالة يحس فيها أنه مفيد وأنه يقوم بواجبه مع أنه لا يعمل، أمكنه أن يسترد ظرفا من ظروف السعادة الاولى التي كان ينعم بها الانسان الاول قبل سقوطه • وحالة البطالة الاجبارية التي لا يلام عليها صاحبها ولا يعدّ سببها مقصّرا ، انما هي الحالة التي تنعم بها طبقة اجتماعية بأسرها ، أعني طبقة العسكرين • وهذا بعينه ما هو يجعل للسلك العسكري وسيظل يجعل للسلك العسكري فتنة خاصة •

ولقد كان نيقولا روستوف ينعم بهذه السعادة منذ سنة ١٨٠٧ ضابطا في فوج بافلوجراد يقود كتيبة الفرسان خلفا لدينيسوف •

هو الآن شاب جسور خشن لو رآه أصحابه الذين عرفوه بموسكو لوصفوه بأنه جلف ، ولكن رفاقه ومرءوسيه ورؤساءه يحبونه ويقدرونه

وهو راض بحظه ، سعيد بالحياة التي يعيشها • ولكن الرسائل التي تصله من أمه في هذه الاونة الاخيرة ، سنة ١٨٠٩ ، تشتمل على شكوى ماتفك تزداد ، فأمه تشكو من الحالة المالية التي يتفاقم سوءها يوما بعد يوم ، وتقول له انه قد آن له أن يعود ليكون لابويه بهجة وعزاء •

كان نيقولا حين يقرأ هذه الرسائل يخشى أن يكون المقصود منها هو أن ينتزع من هذه البيئة التي يعيش فيها عيشة هادئة حلوة في منجى من جميع تعقيدات الحياة • كان يحس أنه سيزج في زوبعة الحياة مرة أخرى فيواجه احوالا مالية عليه أن يقلبها من عثراتها ، ويحاسب الوكلاء وينخرط في مشاجرات ، وتحاصره المكائد ، وتضايقه علاقات بالمجتمع الراقي ، ويواجه مسألة حبه لصونيا والوعد الذي قطعه لها • ذلك كله معقد تعقيدا رهيبا ، متشابك تشابكا فظيحا ، فكان يجب أمه برسائل تقليدية خالية من الحرارة تتبدى بقوله : ماما العزيزة ، وتنتهي بتوقيعه ابنك المطيع ، ولا تذكر شيئا عما ينتويه في أمر عودته • وفي سنة ١٨١٠ وصلت رسالة من أهله تبلغه خطوبة ناتاشا والامير آندره بولكونسكي ، وتأجيل الزواج سنة بسبب معارضة الامير الشيخ • فألمت هذه الرسالة نيقولا وأذت كرامته • فهو أولا قد أحزنه أن يرى ناتاشا ، أثيرة قلبه ، تترك المنزل ، وهو من حيث أنه ضابط في سلاح الفرسان ، يؤسف أنه كان غائبا ، والا لافهم بولكونسكي هذا ان مصاهرته ليست شرفا كبيرا وأنه اذا كان يحب ناتاشا لاستطاع أن يستغني عن موافقة أبيه المستبد الطاغية • وتساءل نيقولا روستوف في لحظة من اللحظات ألا يجب عليه أن يطلب اجازة ليرى ناتاشا مخطوبة ، ولكن حدث أن تقرر القيام بمناورات في ذلك الحين ، كما أنه فكر في صونيا وفكر في المصاعب

التي سيواجهها ، فأرجأ مشروع طلب الاجازة • غير ان امه كتبت له في ربيع تلك السنة نفسها بغير علم الكونت ، فاذا هو يعزم أمره على السفر لقد قالت له أمه في رسالتها انه ان لم يعد فيقبض على الامور بيديه ، فلسوف تباع جميع أملاكهم بالزاد ، وان حالهم ستصير الى التسول والاستجداء والاستعطاء • فالكونت ضعيف مسرف في الضعف ، طيب مسرف في الطيبة ، يعتمد على متينكا اعتمادا كاملا ، ويتكل عليه اتكالا تاما ، ويثق به ثقة مطلقة ، والناس جميعا يغشونه غشا فاحشا ، فتسير الامور من سيء الى أسوأ • وقالت الكونتيسة في رسالتها : « أناشدك الله أن تأتي حالا ، أضرع اليك أن ترجع فورا اذا كنت لا تريد أن تشقيني وتشقي الاسرة كلها » •

وأحدثت هذه الرسالة في نفس نيقولا أثرها المنشود • انه يملك ذلك الحس السليم الذي يملكه متوسطو المواهب من الناس ، والذي يرسم سهم طريق واجبهم واضحا لا لبس فيه •

لم يبق عليه الآن الا أن يسافر ، ان لم يكن باستقالة فباجازة • كان لا يعرف لماذا يجب عليه أن يسافر • ولكنه ما ان قام من قيلولته بعد الظهر ، حتى أمر بأن يسرج « مارس » ، وهو جواد فحل أشهب جامع لم يكن قد خرج منذ مدة طويلة ، فلما وصل الى بيته راكبا على صهوة جواده المغطى بالزبد أبلغ لافروتكا الجندي الخادم الذي كان يخدم دينيسوف وانتقل الى خدمة روستوف) وأبلغ رفاقه الذين أتوا يزورونه في المساء أنه طلب اجازة ليسافر الى اسرته •

كان يؤلمه ويدهشه أن يسافر بدون أن يعلم من هيئة الاركان — وذلك أمر يهمه كثيرا — هل سيرقى الى رتبة كابتن في ختام المناورات ،

أو هل سينال وسام « القديسة حنة » في أقل تقدير ؛ وكان يستغرب أن يسافر قبل أن يبيع الكونت جولوشوفسكي^(١) زلاجه التي تقودها أفراس غبراء ، وهي زلاجة كان هذا البولندي يساومه على شرائها وكان هو يؤكد أنه سيبيعها بألفي روبل ؛ وكان يبدو له أمرا غير معقول أن لا يحضر حفلة الرقص التي سيقمها سلاح الفرسان لـ « بانا » برزازديكا^(٢) اغاظة للأوهلان^(٣) الذين كانوا سيقمون حفلة لصاحبته « بانا » بورزوفشكا^(٤) ، ولكنه كان يعلم علم اليقين أنه سترك هذا العالم الممتع المبهج السهل الى عالم كل شيء فيه مضطرب مرتبك . ووصلة الموافقة على طلب الاجازة بعد ثمانية أيام . فأقام له رفاقه ، لا من فرسان كتيبته فحسب بل من فرسان اللواء كله ، حفلة عشاء لتكريمه كلفت كل فرد خمسة عشر روبلا ، وضمت فرقتي عزف ، وجوقتي غناء ، ورقص فيها روستوف رقصة التريان مع الميجر باسوف ، وسكر فيها الضباط ، فقبّلوه ، ثم حملوه ورجّحوه ، ثم تركوه يسقط على الارض . وحمله جنود الكتيبة الثالثة مرة أخرى ، فرجّحوه هاتفين « هورررا » ! ثم وضعوه في زلاجه وقادوها له الى أول محطة .

ظل روستوف خلال الشطر الاول من رحلته ، وهو الشطر الذي يمتد من كريمنتشوج الى كييف ، ظل يعيش في فكره مع الاشياء التي تركها ، كما يحدث هذا دائما ، أي ظل يعيش مع كتيبته . ولكنه ما ان قطع نصف الطريق ، حتى أخذ ينس الترويكات التي تجرها أفراس غبراء ،

(١) كان فرسان بافلوجراد مرابطين في مكان باقليم كييف الذي كان جميع كبار المالكين فيه بولنديين . وكلمة « بانا » تعني باللغة البولندية « آنسة » .

(٢) فرسان مرتزقة في الجيش البروسي .

والرقيب دوجوفيكو ، وأخذ يتساءل ، قلقا ، عما سيجده في أوترادنويا .
وكان كلما ازداد قربا من أوترادنويا ، سيطرت على فكره صورة المنزل
الابوي مزيدا من السيطرة (كأن العواطف خاضعة لقانون تسارع
سقوط الاجسام تسارعا متناسبا مع مربع المسافة) . حتى اذا وصل
الى المحطة الاخيرة التي تليها أوترادنويا ، نفح الحوذي ثلاثة روبلات
بقشيشا ، فاذا بلغ المنزل صعد درجات المدخل أربعا أربعا كما يفعل
صبي صغير ، وهو يلهث لهاثا شديدا .

شعر نيقولا بعد حماسة الوصول الاولى بخيبة الامل التي تجعل
المرء يقول لنفسه : « هؤلاء هم كما كانوا ، وما يزال كل شيء على
حاله ، فما كان حاجتي الى ذلك الاسراع كله ! » ثم عاد يألف حياة
الاسرة شيئا فشيئا من جديد . كان أبواه على حالهما لم يتغيرا ، ولكنهما
شاخا قليلا . وكان الجديد فيهما نوعا من قلق ، وفي بعض الاحيان
نوعا من الخلاف لم يكن له وجود من قبل ، وهو خلاف سرعان ما علم
نيقولا أن مردّه الى أن الاحوال المالية في الاسرة سيئة مرتبكة .

وكانت صونيا تشرف على بلوغ الثالثة والعشرين من العمر ، فلا
يمكن أن تزدد جمالا بعد الآن ، ولا يمكن أن يَرجى لها أن تملك
من الحسن أكثر مما تملك ، ولكن ما تملكه كان يكفي أكبر الكفاية .
وقد أصبح كل شيء فيها يشع سعادةً وجبا منذ وصول نيقولا ، فكان
تعلق هذه الفتاة به ووفاءها له وثباتها على حبه يملأ قلبه فرحا . وكانا
يتيا وناتاشا هما اللذان أدهشاه أكبر دهشة . ان يتيا هو الآن فتى
جميل بلغ الثالثة عشرة من العمر ، فتى مرح عفريت قد بدأ صوته يتغير .
وأما ناتاشا فقد أذهلته طويلا ، فكان يضحك كلما رآها ، ويقول لها :

— ما أنت الآن ناتاشا التي أعرف •

فتجيبه سائلة :

— هل صرت دمية ؟

فيدمدم قائلاً لها :

— بالعكس • ولكنني أرى فيك من الوقار ما لا عهد لي بمثله •

فتجيبه ناتاشا فرحة :

— نعم ، نعم ، نعم •

وروت له ناتاشا قصتها مع الامير أندره ، وحكت له عن زيارته

وأترادنيا ، وأرته آخر رسالة وصلتها منه ، وقالت تسأله :

— أنت مسرور ؟ انني الآن هادئة جدا ، سعيدة جدا •

فأجابها نيقولا قائلاً :

— مسرور جدا • إنه فتى ممتاز • هل أنت مغرمة به ؟

فأجابت ناتاشا :

— ما عساني أقول لك ؟ لقد أغرمت بيوريس ، وبأستاذي ،

وبرينيسوف ، ولكن عاطفتي الآن تختلف كل الاختلاف عن كل ما سبقها •

أنا الآن هادئة • أنا الآن واقفة على أرض صلبة ، أعرف أنه لا رجل

خير منه ، فاشعر من ذلك بطمأنينة كبيرة وسعادة عظيمة •

كاشفها نيقولا بما أحدثه تأجيل الزواج في نفسه من استياء ، ولكن

ناتاشا هاجمته هجوما عنيفا ، موضحة له أن التأجيل كان أمرا لا معدى

عنه ، وانها لا ترضى ان تدخل أسرة على كره من الاب ، وانها هي

نفسها أرادت التأجيل • وختمت كلامها قائلة :

— انك لا تفهم من هذا الامر شيئا البتة •
فصت نيقولا موافقا على رأيها •

وكثيرا ما كان يدهش حين ينظر اليها • انها لا تشبه خطيبة ولهى منفصلة عن خطيبها • انها متساوية المزاج ، هادئة ، مرحة كمرحها من قبل • فكان ذلك يثير دهشة نيقولا بل كان ذلك يبعث في نفسه شيئا من الرية في نيّات بولكونسكي • لم يصدّق أن مصير ناتاشا قد تقرر وانتهى الامر ، لاسيما وأنه لم يرها مع الامير آندره في يوم من الايام • كان يبدو له دائما أن في مشروع الزواج هذا شيئا يعرج • كان يتساءل : « لمَ هذه المهلة ؟ لمَ لم يحتفل بالخطوبة احتفالا رسميا ؟ » • وقد لاحظ في ذات يوم ، حين كان يكلم أمه في أمر أخته ، لاحظ مدهوشا ، ومسرورا بسعنى من المعاني ، أن أمه كانت في قرارة نفسها تشاطره ارتيابه في أمر هذا الزواج أحيانا • قالت له أمه وهي تريه رسالة من الامير آندره ، قالت له وهي تحس ذلك الشعور الخفي بالعداوة الذي تحسه جميع الامهات حين تتصور سعادة بناتهن الزوجية في المستقبل :

— ها هو ذا يكتب أنه لن يستطيع العودة قبل شهر كانون الاول (ديسمبر) ؟ أي عمل يحتجزه ؟ لا بد أن المرض هو الذي يمنعه من المجيء • ان صحته سيئة جدا • لا تحدّث ناتاشا بشيء من هذا الامر • لا تثق بما تراه فيها من مرح • انها تعيش أواخر أيام عزوبتها ، ولكنني أعلم أنها تتألم كلما وصلتها منه رسالة •

وكانت الام تختم كلامها في كل مرّة بقولها :
— على كل حال ، سيجري كل شيء مجرى حسنا اذا أراد الرب ذلك • فهو شاب ممتاز •

الفصل الثاني

كان نيقولا في المدة الاولى من اقامته شديد الرصانة بل متجهم الوجه ، فقد كانت تعذبه وتقلقه ضرورة التدخل في تلك القضايا المالية السخيفة التي استدعته أمه لحلّها ، فمن أجل أن يتخلص بأقصى سرعة من هذه السخرة المقيتة ، اتجه غداة وصوله وهو يفور ويغلي غضبا ولا يعرف الى أين هو ذاهب ، اتجه الى مسكن ميتينكا ، وطالبه بأن يقدم اليه « حسابات عن كل شيء » • وكان نيقولا لا يعرف لقوله حسابات عن كل شيء « اكثر مما كان يعرف ميتينكا نفسه لهذا القول من معنى ، فلما طلب منه نيقولا ذلك طاش صوابه وارتبك ارتباكا شديدا • ولم تطل ايضا حات ميتينكا وحساباته • كان رؤساء ادارة القرية ينتظرون في غرفة المدخل خائفين مسرورين في آن واحد، فيسمعون صوت الكونت الشاب يؤنب ويرعد ثم يعلو ويعلو مزيدا من العلو الى أن أخذ يطره بوابل من المسبّات والشتائم •

— لص ! حيوان عقوق ! ••• لا قطعنك اربا اربا يا كلب ! •••
لترين مني ما لم تره من أبي ياسارق •• الخ •

ثم رأى هؤلاء الناس انفسهم ، خائفين مسرورين أيضا ، رأوا الكونت الشاب ، وقد احمر وجهه احمرارا شديدا ، واحتقنت عيناه بالدم ،

ويمسك تلايب ميتنكا ويجره على الارض ، ويستمر في سبه وشتمه مضيفا اليهما ركلات محكمة بالقدم وضربات متقنة بالركبة على ظهره صائحا : « اخرج ، ولا تطأن قدماك هذا المكان أبدا ياوغد ، يانصاب! »

تدحرج ميتنكا على الدرجات الست بأقصى سرعة يستطيعها ، وهرب يختفي في أجمة شجرا (كانت هذه الاجمة هي الملجأ الذي يعتصم به المذنبون في اوترادنويا وكان ميتنكا نفسه يلوذ بها حين يرجع من المدينة سكرانا ، كما يلوذ بها كثير من سكان أوترادنويا الذين يريدون أن يتواروا عن انظار ميتنكا انقاذا لانفسهم منه) •

وقد أخرجت امرأة ميتنكا وكثاته رءوسهن المذعورة من باب غرفتهن التي كان يغلي فيها ماء سماور مجلو ملمع ، وينتصب فيها سرير الوكيل حاليا مغطى بغطاء مضلّع مصنوع من قطع مضاف بعضها الى بعض ، فمرّ الكونت الشاب أمامهن لاهثا سائرا بخطو جازم دون ان يولييهن انتباها ، وعاد الى المنزل •

وسرعان ما علمت الكونتيسة من الخادومات بما حدث في مسكن ميتنكا ، فاطمأنت من جهة قائلة لنفسها ان شئون الاعمال ستتحسن حالها بعد الان ، وآلمها في الوقت نفسه ما سببه هذا كله لابنها من غيظ واضطراب • حتى لقد سارت الى بابه على رؤوس الاصابع عدة مرات تنصت ، فسمعتة يدخن غليوننا بعد غليون •

وفي الغد انتحى الكونت الشيخ بابنه جانبا وقال له وهو يتسم ابتسامة خجلى :

— يا بني العزيز ، انك غضبت لغير ما سبب يدعو الى الغضب •
لقد حكى لي متينكا كل شيء •

قال نيقولا لنفسه : « كنت أعلم هذا حق العلم : لن يمكنني أن أفهم شيئاً هنا ، في هذا العالم الذي فقد عقله . » •

وتابع الكونت الشيخ كلامه فقال :

— لقد زعلت ذلك الزعل كله ، لأنه لم يسجل تلك السبعمئة روبل • والواقع أنها مسجلة في الصفحة التالية ، ولكنك لم تنظر في الصفحة التالية •

قال نيقولا :

— بابا ! هذا نصّاب وسارق • أنا من ذلك على يقين كامل • ولكنني لن أقول بعد الآن كلمة واحدة إذا شئت •

فقال الكونت الشيخ ، وكان هو نفسه متضيقاً ، وكان يعلم أنه سيء إدارة ثروة زوجته ، ويحس بأنه مذنب في حق أولاده ، ولكنه لا يدري كيف يصلح الحال :

— لا يا صديقي ، لا • انني اطلب منك أن تعني بشئون أعمالنا ، فأنا شيخ ، وأنا

— سامحني يا بابا اذا كان اندفاعي قد ساءك اني في هذه الامور أقل منك فهما وخبرة •

وقال لنفسه : « ليذهبوا الى الشيطان هم وهؤلاء الفلاحون وهذا المال وهذه التسجيلات في الصفحات التاليات ! ... لقد مر بي وقت كنت أفهم فيه مضاعفة الحطة ست مرات في القمار ... أما هذه التسجيلات في الصفحات التاليات فلست أفهم من أمرها شيئاً • » • ومنذ ذلك الحين أصبح لايتدخل في أي أمر من الامور • مرة واحدة

استدعته الكوتتيسة وقالت ان عندها سندا على آنا ميخائيلوفنا بمبلغ ألفي روبل ، وسألته ماذا ينوي أن يفعل بهذا السند • فأجابها نيقولا :
تقولين ان الامر رهن بارادتي ، فاعلمي أنني لا أحب آنا ميخائيلوفنا ،
ولا أحب بوريس ، ولكنهما كانا على صلة وثيقة بنا ، وهما فقيران ،
فاليك ما أرى أن علينا أن نفعله ...

قال ذلك ومزق السند ، فأخذت الكوتتيسة العجوز تبكي ناشجة
من الفرح • وبعد ذلك أصبح نيقولا لا يحشر نفسه في أمر من الامور ،
وشغفه صيد المطاردة بالكلاب شغفا شديدا ، فاندفع في هذه التسلية
الجديدة عليه ، وهي تسلية كانت عند الكونت رائجة راجا كبيرا •

الفصل الثالث

الجلدات الاولى البيضاء تحرق بالارض التي بللتها أمطار الخريف، وقمح الشتاء أخذ ينعدق فاحضراره الزاهي يناقض لون حشف المحاصيل القديمة السابقة : أشربة سمراء من قمح الخريف داستها الدواب ، وأشربة صفراء فاتحة من القمح الجديد تخدها خطوط حمراء من السيقان الحمر ، سيقان الحنطة السوداء • وذرى الأشجار والغابات التي كانت في نهاية شهر آب (أغسطس) ماتزال جزرا صغيرة من خضرة بين الحقول السوداء وحشف الزرع المحصود هي الان جزر صغيرة من ذهب وأرجوان بين نبت قبح الشتاء الذي يشبه لونه لون الزمرد • والارنب البري أخذ يفقد زغبه ، و « يتوسخ » على تعبير الصيادين ؛ ومواليد الثعالب بدأت تفرح وتطرب ؛ وصغار الذئاب تجاوزت قاماتها قامت الكلاب • هذه أحسن فترة للصيد • ولكن رهط الكلاب الذي يملكه الشاب الغائر كان من فرط تعب غير متأهب للانطلاق الى الصيد، فقرر مجلس الصيادين أن يسهلوه ثلاثة أيام ليرتاح ، ثم ينطلقوا الى الصيد في اليوم السادس عشر من شهر ايلول ، مبتدئين بغابة البلوط التي ذكر أن فيها بظنا من الذئاب لما يمسسه أحد بعد •

تلك كانت الحال في اليوم الرابع عشر من شهر ايلول (سبتمبر) •

ولم يخرج موكب الصيد طوال ذلك النهار . كانت الارض تجلد ، وكان البرد قارصاً^(١) . ولكن المناخ لطف في المساء ، حتى اذا كان صباح اليوم الخامس عشر ، نظر الشاب روستوف من النافذة وهو مرتد ثوب المنزل ، فرأى أن الجو أفضل جو يمكن أن يحلم به المرء للصيد : هي حركة هبوط ذرات صغيرة من الضباب ؛ قطرات شفافة من الندى تتلألأ على الاغصان العارية في الحديقة ، وتتدحرج على أوراق الاشجار التي سقطت منذ مدة قصيرة ؛ أرض البستان تلتمع بسواد بذور الخشخاش ، ثم تغيب وراء حجاب الضباب الكابي الرطب .

خرج نيقولا الى درجات الباب المبتلة التي تغشاها آثار خطى موحلة ، ان رائحة الاوراق الذابلة تمزج برائحة الكلاب . هاهي ذي كلبته « ميلكا » ، وهي كلبة سوداء مبقعة عريضة المؤخرة لها عينان سوداوان بارزتان تقوم حين ترى مولاه ، فتتمطى ثم تضطجع اضطجاع أرنب ، ثم تثب اليه فجأة ، فتلحس انفه وشاربه . وهذا كلب سلوقي آخر يلحظ مولاه من خلال أجسام الازهار ، فيقوِّس ظهره ، ويندفع الى درجات الباب اندفاع السهم ، فيشهر عليه نيقولا السوط ، فيقبع الكلب بين ساقيه يحك بهما جسمه .

وفي تلك اللحظة دوَّنت تلك الصرخة التي لاسبيل الى تقليدها ، صرخة الصيادين التي تجمع بين أعرق صوت جهير وأحدّ صوت حاد :
— آوووو ! آوووو ! ...

(١) هذا آخر شهر ايلول ، فاليوم الرابع عشر في التقويم القديم هو اليوم السادس والعشرون في التقويم الجديد ، والجديد يبدأ منذ ذلك الوقت في روسيا .

وهذا دانيلو ، أول قائد لكلاب الصيد ، ينبجس من زاوية المنزل .
ان شعره مقصوص على الطريقة الاكرانية ، ووجهه ملوَّح مغضَّن ،
وعلى يده يلتف سوط طويل ، وفي هيئته ما يعبر عن روح الاستقلال
والاحتقار الشديد التي يبدو أنها وقف على الصيادين . وقف دانيلو
أمام سيده رافعا طاقيته الشركسية ، ورشفه بنظرة ازدراء . ليس في هذا
الازدراء شيء يسوء أو يهين : ان نيقولا يعلم أن دانيلو هذا الذي
يحتقر كل شيء ، ويضع نفسه في منزلة أعلى من منازل الناس جميعا ،
ليس في آخر الامر الا رجلا من رجاله ، وليس الا قائدا لكلابه من على
صهوة حصانه .

قال نيقولا وقد رأى هذا الجو الذي لا يفضلُه جو للصيد ، ورأى
كلابه ، ورأى قائد كلابه الاول ، ف شعر ذلك الشغف العارم الذي يستبد
بالصياد فلا يستطيع الصياد أن يقاومه ، حتى لينسيه هذا الشغف
مشاريعه السابقة ، مثله كمثُل العاشق يلقي عشيقته :
— دانيلو !

فسأله دانيلو بصوت جهير خفيض يليق برئيس شماسة ، صوت صار
أبحّ أجش من فرط ما صرخ يحض الكلاب :
— ما أوامرك يا صاحب السعادة ؟

ومن عينيه الساطعتين السوداوين رشق مولاه بنظرة من تحت .
وكان مولاه قد صمت لا يجيب . وقال نيقولا أخيرا وهو يحك « ميلكا »
خلف أذنيه :

— نهار جميل ، أليس كذلك ؟ جميل للصيد ، وللسباق كليهما .

فلم يجب دانيلو وطرف بعينه ، ثم استأثف يقول بصوته الجهير بعد لحظة صمت :

— أرسلت أوفاركا ^(١) يتنصت في الغابة منذ الفجر ، فقال « انها » نقلتهم الى ذخر غابة أوترادنويا ، فهناك انما سمعت مواءهم • (يقصد بذلك أن الذئبة التي كانا كلاهما يعرفان وجودها قد انتقلت بصغارها الى غابة اوترادنويا التي تقع على مسافة فرسخين من المنزل ، وهي في الواقع بقية صغيرة من غابة) •

قال نيقولا :

— يجب أن نذهب اليها ، أليس كذلك ؟ تعال اليّ مصطحبا لافروشكا •

— أمرك مطاع •

— وانتظر لتعطي الكلاب طعامها •

— طبعاً •

وما انقضت خمس دقائق حتى كان دانيلو وأوفاركا في المكتب الواسع الذي يشغله نيقولا • ان رؤية دانيلو في غرفته ، رغم قصر قامته ، يحدث في النفس ذلك الاحساس الذي يحسه المرء اذا رأى حصانا أو دبا في غرفة أرضها من خشب ، وفيها أثاث ، فهو في مكان تنهياً فيه شرائط المعيشة لانسان لا لحصان او دب • وكان دانيلو نفسه يحس هذا الاحساس ، فكان على عادته يقف عند الباب ، محاولا ان يتكلم بأخف صوت ممكن ، وان لا يتحرك ، مخافة أن يحطم شيئا في

(١) تصغير اسم اوفار ، وهو اسم نادر •

منزل سادته متعجلا قول كلَّ ما يريد أن يقوله ليفلت الى الهواء
الطلق بأقصى سرعة •

فما ان انتهى نيقولا من القاء الاسئلة الضرورية ، وانتزع من دانيلو
اعترافا بأن حال الكلاب ليست سيئة (وكان دانيلو نفسه يرغب في
المضي الى الصيد) حتى أمر بأسراج الخيول • ولكن بينما كان دانيلو
يهم أن يخرج ، اذ دخلت ناتاشا لا مسرعة شعرها ولا مرتدية ثيابها ،
دخلت بخطى سريعة ، ووراءها بيتيا وقالت تسأل أخاها :

— ماض الى الصيد ، أليس كذلك ؟ كنت موقنة بهذا ؟ قالت
صونيا انك لن تمضي الى الصيد اليوم ، ولكنني كنت أعلم أنه يستحيل
على المرء أن لا يغريه الذهاب الى الصيد في مثل هذا الجو الجميل !

أجاب نيقولا على مضض ، وهو ينوي جادا أن يصطاد في هذا
اليوم ، ولا يحرص على أن يصطحب ناتاشا وبيتيا :

— نعم ، ماضون الى الصيد، ولكننا لن نزيد على أن نطارد الذئب،
وهذا يضجرك •

قالت ناتاشا :

— أنت أن مطاردة الذئب بالكلاب أكبر مسرة لي • ليس حسنا
منك أن تنوي الذهاب الى الصيد ، وأن تأمر بأسراج الخيول ، ولانقول
لنا شيئا •

وصاح بيتيا قائلا :

— « لا عقبات تقف، في طريق الروس »^(١) • هلموا بنا !

(١) مطلع الفئائية التي نظمت لباجريانيون (راجع هامش الصفحة ٣٤) •

قال نيقولا لئاتاشا :

— لكنك لا تستطيعين أن تصحبينا : ماما لا تريد هذا .

— بل سأصحبكم ، سأصحبكم حتما .

بذلك أجابت نئاتاشا جازمة قاطعة . وأردفت تخاطب دانيلو قائلة :

— دانيلو ، مَرَّ بأسراج خيولي ، وليأتني ميخائيلو بكلامي

السلوقية .

إذا كان دانيلو لا يستحسن أن يجد نفسه في غرفة ويشق عليه أن

يمكث فيها ، يكره أشد الكره أن يكلم آنسة . فهاهو ذا يخفض عينيه ،

ويخرج مسرعا كأن هذه الكلمات التي سمعها لا شأن له هو بها ، محاولا

أن لا يصدم مولاته الشابة وهو يولّي خارجا بهذه السرعة الشديدة .

الفصل الرابع

للكونت الشيخ دائما طقم كبير للصيد عهد الآن بإدارته الى ابنه ؛ وكان يشعر في ذلك اليوم ، يوم ١٥ أيلول (سبتمبر) ، بانسراح وفرح ، فقرر أن ينضم هو أيضا الى ركب الصيادين ،

فما انقضت ساعة حتى كانت عناصر الصيد كلها قد تجمعت أمام درجات الباب . ومرةً يقولون أمام ناتاشا وبيتيا عابسا دون أن يحفل بها أرادا أن يقولاه له ، مشيرا بذلك الى أن الوقت ليس وقت لغو وسفاسف . فبعد أن تثبت بالتفصيل من أن كل شيء جاهز وبعد أن أرسل الى الامام رهطا من الكلاب مع عدد من الحائشين ، ركب حصانه « دوتس » ، وصفر لرهط كلابه هو ، وسار في الحقول التي تقضي الى ذخر غابة أوترادنويا ، وكان سائس الكونت الشيخ يقود له حصانه « فيفليانكا » ، وهو حصان أشقر خصي صغير ذو عرف أبيض ، لأن الكونت الشيخ سيذهب بالعربة رأسا الى المكان الذي خص به ليرابط فيه .

كان عدد الكلاب المطاردة أربعة وخمسين يسيّرهما ستة قادة راكبين أفراسهم ، وكان عدد الذين يسيّرون الكلاب السلوقية ثمانية يحركون

أربعين كلبا ، فبذلك تكون أسراب الكلاب التي تحركت مع الاسياد
يبلغ عددها زهاء مائة وثلاثين كلبا مع عشرين صائدا .

وكان كل كلب يعرف سيده ، ويعرف اسه . وكان كل صياد
يعرف دوره ويعرف المركز الذي سيرابط فيه . ومنذ ان اجتاز الركب
السور أخذ الجميع يتمطون في هدوء ، بغير ضجة ، وبغير كلام ، في
فترات منتظمة مطردة على الطريق والحقول المؤدية الى أوترادنويا .

الخيول تسير في الحقول سيرها على بساط رخو ؛ ولكنها تتخبط
في الغدران عند تقاطع الطرق . وضباب السماء ما يزال يهبط الى
الارض شيئا فشيئا . والهواء ساكن رطب صامت . ومن حين الى حين
يُسمع صفير صياد أو حممة حصان ، أو طقطقة سوط أو نباح كلب
يهاب به أن يلتزم النظام .

حتى اذا قطع الركب قرابة فرسخ ، انبجس من الضباب خمسة
فرسان جدد تصحبهم كلابهم ، وأقبلوا على ركب آل روستوف .
كان يسير في مقدمتهم شيخ جميل الطلعة ما يزال قوي البنية ، له
شاربان أبيضان .

قال نيقولا حين وصل الشيخ اليه :

— صباح الخير يا عم .

فقال العم (وهو يمت بقرابة بعيدة الى آل روستوف ، وليس
واسع الثراء ، وتجاور أراضيهم أراضيهم) :

— المسألة واضحة ، الى الامام سِرْ ! . . . كنت واثقا ، كنت موقنا
بأنك لن تقاوم رغبة الخروج الى الصيد . حسنا فعلت . المسألة واضحة ،

الى الامام سر ! (هذه جملة أثيرة عند العم يكثر من ترديدها) • هاجم
ذخر الغابة فورا • لقد أبلغني لي جيرتشيك أن آل إيلاجين مرابطون مع
طقم الصيد في كورنيكي • سوف يسلبون منك الذئاب • المسألة
واضحة ، الى الامام سر !

— الى هناك انما نحن ذاهبون • هل نجمع أمراب الكلاب ؟
نجمعها ...

جمعوا الكلاب • رهطا واحدا ، وسار يقولوا والعم جنبا الى جنب •
ولحقت بهما ناتاشا متدثرة بشالات ينبجس منها وجهها المتوقد حياة
بعينه الساطعتين ، لحقت بهما خيبا يخفرها بيتيا وقائد الكلاب ميخائيلو
الذي كلفته خادمتهما العجوز بحراستها ، فكان لا يتعد عنها خطوة
واحدة • وكان بيتيا يضحك وهو يهز الحصان ويحضه على الاسراع •
وكانت ناتاشا منتصبه القامة بحذق وثقة على ظهر حصانها الاسود
« آرابتشيك » ، حتى اذا بلغت أخاها والعم ، أوقفت حصانها بحركة
بارعة من غير جهد •

رشق العم بيتيا وناتاشا بنظرة استنكار • كان العم لا يحب أن
يزج المزاح بهذا الامر الذي ليس فيه الا جد ، أعني الصيد •
هتف بيتيا يقول :

— صباح الخير يا عم ، نحن أيضا جئنا •
فقال العم بلهجة قاسية :

— صباح الخير ، صباح الخير ، ولكن إياكم أن تدوسوا الكلاب •
وقالت ناتاشا لأخيها مادحة كلبه الاثير في نفسه :

— نيقولا ، ما أجمل « ترونيلا » هذا من حيوان !

فقال نيقولا محدثا نفسه : « أولا ، ليس ترونيلا حيوانا بل هو كلب » ورشق أخته بنظرة قاسية ليجعلها تشعر بالمسافة التي يجب أن تفصلها في هذا الوقت . وقد أدركت ناتاشا ذلك ، وقالت :

— لا تظننَّ يا عمي أننا سنكون عبئا عليكم . سوف نرابط في مكاننا ، فلا نتحرك منه .

قال العم :

— هذا أفضل يا عزيزتي الكوتتيسة الصغيرة . ولكن حاذري أن تسقطي عن ظهر الحصان . والا فالمسألة واضحة : الى الامام سر ! ليس في إمكان أحد أن يتدارك الامر .

ها هي الجزيرة الصغيرة التي تتألف منها بقية غاية أوترادنويا تثرى على مسافة مائتي متر ، وكان رؤساء أسراب الكلاب قد بلغوها .

اختار نيقولا ، مستعينا بالعم ، أحسن مكان تبدأ منه الكلاب مطاردتها ، حتى اذا فرغ من هذا الاختيار بعد طول درس ، أشار لناتاشا الى المكان الذي يجب أن ترابط فيه والذي لا يمكن أن يمرَّ به حيوان ، وولج الغابة من أعلى الوادي .

قال العم :

— اتبه يا ابن أخي ! سوف تواجه حيوانا كبيرا ، فحذار أن تدعه يفلت .

أجاب روستوف :

— سوف نرى .

وصاح ينادي رادا على أقوال العم :

— « كاراي » ، تعال الى هنا .

ان « كاراي » كلب أسمر مسن دميم ، ولكنه اشتهر بأنه قادر أن يهاجم وحده ذئبا بالغاً . والتحق كل واحد بركزه الذي حُدِّد له .

وكان الكونت الشيخ الذي يعرف حماسة ابنه للصيد قد حرص على أن لا يصل متأخراً ، فما ان رابط الصيادون في أماكنهم حتى كانت مركبة إيليا آندرئتش التي تجرها الخيول السوداء خبياً على حقول القمح المعشب تصل به الى المكان الذي عيِّن له ، متهلل الاسارير ، منشرح المزاج ، متورد الوجه ، متهدل انخدين . حتى اذا أحكم التندر بفروته ، ووضع عدة الصيد ، امتطى صهوة فرسه فيفليانكا ، وهي فرس وادعة من جياذ الخيل ، شبعة ، لماعة ، كانت تشيب مثله . وصُرِفَت العربة . ان الكونت الشيخ يتقن معرفة قوانين الصيد اتقاناً عميقاً ، دون أن يكون صيادا بروحه . وقد مضى يرباط عند حافة الغابة ، جامعا أزمة الفرس ، منتصباً على ظهرها انتصاباً بارعاً ، حتى اذا أحس أنه أصبح متأهباً تأهباً تاماً ، نظر حواليه مبتسماً .

كان نجاره خادماً اسمه سيميون تشكمار ، هو فارس قديم أصبح الآن ثقیل الحركة . ان تشكمار يمسك أرسان ثلاثة كلاب جريئة من كلاب الحراسة ، ولكن الكلاب كانت كالحصان ومولاها قد سمّت وثقلت . وكان كلبان آخران مستأنّان من كلاب الحراسة راقدين على الأرض بلا رسن . وعلى بعد مائة خطوة عند طرف الغابة كان يرباط سائس آخر من سائسي خيول الكونت هو ميتكا ، الفارس الجسور ،

والصياد المولع بالصيد أشد الولع • ان الكونت قد شرب قبل الرحيل شيئا من الفودكا مع البهار باناء من فضة ، وأكل وجبة خفيفة احتسى معها نصف زجاجة من خمرة بوردو المفضلة عنده ، عملا بتقاليد قديمة .

فكان من نتائج تلك الوجبة وهذه الرحلة أن تورد وجه إيليا آندرغتش ، والتمعت عيناه الرطبتان التماعا خاصا ، فكان — وهو قاعد على سرج حصانه متدثر بمعطفه — أشبه بطفل سيصطحبونه في نزهة •

وكان تشكمار ، النحيل الجسم ، الخاسف الخدين ، كان بعد أن قام بواجبه وأنهى مهمته ، ينظر الى مولاه الذي يعيش معه منذ ثلاثين عاما في تفاهم تام ، فيحس أنه رائق المزاج ، فيتوقع أن يدور بينهما حديث ممتع • واقترب شخص ثالث محاذرا آتيا من الغابة (كان واضحا أنه أحسن تدريبه) ، ووقف وراء الكونت • هو عجوز ذو لحية بيضاء ، فضفاضا متموجا ، ويضع على رأسه طاقيّة عالية • انه المهرّج الذي أطلق عليه لقب هو اسم امرأة : ناستاسيا ايفانوفنا •

دمدم الكونت يقول غامزا :

— هيه ناستاسيا ايفانوفنا • اياك أن تخيف الحيوان ، والا كان

لك شأن مع دانيلو !

قال ناستاسيا ايفانوفنا :

— أنا أيضا أعرف كيف أدافع عن نفسي •

قال الكونت :

— شت° !...

والتفت الى سيميون يسأله :

— هل رأيت ناتاليا إيلينيشنا ؟ أين هي ؟

— ترابط مع بطرس إيلتش بقرب أدغال جاروف • انها سيدة ،
نعم ، ولكنها تحب الصيد هي أيضا •

كذلك أجاب سيميون مبتسما • فقال الكونت يردُّ عليه :

— أیدهشك هذا يا سيميون ؟ وانظر كيف تنتصب على صهوة
الحصان ، انها لتفوز على رجل •

— كيف لا أدهش ؟ يا لجسارتها ما أعظمها !

قال الكونت سائلا بصوت ما يزال خافتا :

— ونيقولا ؟ أين هو ؟ لا بد أنه عند وادي ليادوف ؟

فأجاب سيميون الذي يعرف كيف يحسن التصرف لابهاج مولاه :

— تماما • انه يعرف أين يرباط • وهو الى ذلك فارس يبلغ من
الکیاسة ما يذهلنا أحيانا عن أنفسنا أنا ودانيلو •

— يجيد ركوب الخيل ، هه ؟ وما أجمله على السرج !

— لوحة رائعة من لوحات كبار المصورّين ! ليتك رأيته يشب تلك
الوئبات في ذلك اليوم ، حينما كان يجفّل ثعلبا لاجراجه من مكمّنه في
أسيجة زافاردينو • ثمن الفرس ألف روبل ، ولكن الفارس لا يقدر
بشئ • ليس سهلا أن يجد المرء فارسا مثله !

قال الكونت أسفا أسفا واضحا على أن سيميون لم يقل أكثر
مما قال :

— نعم ، ليس سهلا أن يجد المرء فارسا مثله ...

وعاد يكرر هذه الجملة نفسها وهو يزيج حافة فروته ويخرج
كيس سعوطه :

— نعم ، ليس سهلا أن يجد المرء فارسا مثله

— في ذات يوم ، منذ مدة قصيرة ، كان خارجا من الصلاة في أجمل
حلة ، فاذا ميخائيل سيدورتش ...

ولم يكمل سيميون جملته ، لانه سمع ركض ونباح كلبين أو ثلاثة
لا أكثر ، سمعا واضحا في الهواء الساكن ، فمال برأسه ، وأصاخ
بسمعه ، وأشار لمولاه بدون كلام أن لا يحدث أية ضجة ، وتمتم يقول :

— وقعوا على الذئب ، فهم يطاردونهم عند وادي ليادوف .

نسي الكونت أن يزيل الابتسامة عن أسارير وجهه ، ونظر الى بعيد
أمامه ، ممسكا كيس سعوطه بيده دون أن ينشق منه . وبعد نباح
الكلاب سُمع صوت البوق ينفخ فيه دانييلو مستنفرا الى الذئب ،
فانضم رهط الكلاب الى الثلاثة الأول ، وسمع عويل الضراء كأنها تولول
ناشجة ، وتلك علامة على أنها تطارد الذئب . لم يبق على ساسة الكلاب
أن يحرّضوها ، ولكنهم كانوا يهتفون صائحين : « هارلووو ! » ، وكان
صوت دانييلو ، الأجش تارة ، الحاد تارة أخرى ، يعلو سائر الاصوات ،
حتى لكأنه يملأ الغابة كلها ، ويفيض عنها وينتشر بعيدا في الحقول .

وأدرك الكونت وسائسه ، بعد أن أصاخا بسمعهما دون أن ينبسا
بكلمة ، أدركا أن الكلاب انقسمت فئتين : فئّة ، وهي الفئة الأكبر
التي كانت تعمل بحماسة شديدة خاصة ، تبتعد شيئا فشيئا ، وفئة تمرّ
أمام الكونت بأقصى سرعة تقطع الغابة من أولها الى آخرها ، وبينها

انما كان يدوي حذاء دانيلو صائحا : « هارلووو ! » ، وتداخلت
جلبة الفتتين واختلطت ، ولكن الرهطين كليهما كانا يتأيان • وتنهّد
سيميون ومال على الارض ليزيح رسنا كان كلب قد اشتبك به • وتنهّد
الكونت أيضا ، فلما لاحظ أنه ممسك كيس سعوطه بيده ، فتحه ونشق
منه نشقة •

صرخ سيميون ناهرا كلبا كان مقبلا على تخوم الغابة :
— ابتعد !

واتنفّض الكونت ، وسقط كيس السعوط من يده ، فنزل ناستاسيا
ايفانوفنا عن حصانه ، ورفع كيس السعوط عن الارض •

وبينما كان الكونت وسيميون ينظران اليه اذ اقتربت جلبة الرهط
على الفور فجأة ، كما يحدث هذا كثيرا ، حتى لكأنهما يريان أفواه
الكلاب يخرج منها النباح ، ويريان دانيلو يطلق صيحاته أمامهما •

فأدار الكونت رأسه فاذا هو يرى ميتكا ينظر اليه جاحظ العينين ،
رافعا قبعته ، مشيرا له الى شيء في الامام بالجهة الاخرى ، صائحا
بصوت يدل على أن هذه الصرخة قد كظمت وهلة طويلة ثم انفجرت :
— حذار !

وأطلق كلابه ، وأقبل على مولاه بفرسه عدوا سريعا •

ترك الكونت وسيميون حافة الغابة ، ورأيا الذئب على يسارهم وهو
يترجح ترجحا رخوا ويتجه بوثبات صغيرة الى تلك الحافة نفسها التي
تزكاها قبل لحظة • وأعولت الكلاب الحائقة وانتزعت نفسها من أرسافها ،
وسارت الى الذئب تحت أرجل الخيول •

توقفت الذئب عن جريه فجأة ، ولفت رأسه العريض الجبهة الى جهة الكلاب بحركة خرقاء ، كمرريض مصاب بالتهاب في حلقه ، ثم وثب وثبة أولى فوثبة ثانية وهو يحرك ذيله وما يزال يترجح ترجحا رخوا ، وغاب في أسيجة الغابة . وفي تلك اللحظة نفسها انبجست من طرف الغابة الآخر كلاب تعول ، ظهر منها واحد فثان فثالث ، ثم ظهر رهطها كله راكضا خلال الحقول ، إثر الذئب . ثم انشقت أدغال شجر البندق ، وظهر حصان دانيلو مسودا من فرط العرق . كان دانيلو حاسر الرأس قد تشعث شعره الاشيب على وجهه الاحمر السابح في العرق ، ومال بجسمه الى امام ، وتجمع ظهره الطويل كرة على ظهر حصانه . وكان ما ينفك يهتف صائحا :

— هارلووو ! هارلووو ! هارلوو !

ولكنه حين لمح الكونت قدحت عيناه شررا ، وصاح يقول شاهرا
سوطه عليه مهددا اياه به !

— يالهم من ... تركو الذئب يفلت ! صيادون !

وكمن لا يجب أن يتنازل فيقول للكونت الخجل المرتاع أكثر مما قال ، ضرب جنبي حصانه الخاسفين المبلين ضربا أودعه كل الغضب المتراكم في قلبه من الكونت ، وأوغل مسرعا في إثر كلابه . وكأن الكونت أحس بأنه عوقب ، فنظر حواليه محاولا ان يستدر عطف سيميون . ولكن سيميون كان قد تركه ومضى يلتف حول أرومات الاشجار المقطوعة محاولا أن يقطع الطريق على الذئب ، وكانت الكلاب السلوقية تطارد الذئب أيضا من الجبهتين ، ولكن الذئب توغل في الادغال الكثيفة ، ولم يستطع أحد من الصيادين أن يسد عليه دربه .

الفضل الخامس

في أثناء ذلك كان نيقولا روستوف ما يزال مرابطا في مكانه ينتظر الذئب . لقد كان يدرك ما يجري في الغابة ، من اقتراب ركب الصيد او ابتعاده ، ومن تنوع نباح الكلاب التي كان يعرف أصواتها ، ومن مسافة صيحات الحائشين وكثافتها . وكان يعلم أن في الغابة ذئبا صفارا ، وذئبا كبيرا . وكان يعلم أن الكلاب انقسمت فئتين ، وأن ذئبا لوحق وأن حادثا طرا ، فكان يتوقع في كل لحظة أن ينبجس بقربه ذئب ، وراح يفترض ألف افتراض عن المكان الذي قد ينبجس منه الذئب ، وعن الطريقة التي سيفوز عليه بها . وكان يتوزعه الامل واليأس فتارة يتفائل وتارة يتشاءم . حتى لقد دعا ربه عدة مرات أن يبعث اليه الذئب . وكان في أدعيته وصلواته الى الرب حرارة شديدة تكاد أن تكون مخجلة ، كالادعية والصلوات في لحظات لا تناسب فيها بين الاسباب التافهة والاهتياج القوي . كان يقول مناجيا ربه : « رب ماذا يكلفك أن تصنع لي هذا الجميل ؟ اني لاعلم يارب أنك عظيم جبار ، وان طلبي هذا إثم وخطيئة . ولكنني أبتهل اليك يارب . اجعل لي ذئبا كبيرا ينقض نحوي ، فاذا « كاراي » ، شب الى عنقه وينشب فيها أنيابه ، على مرأى من العم الذي ينظر هناك . » وفي أثناء نصف ساعة أجال روستوف عينيه الف

مرة بنظرة عنيدة مشدودة قلقة على تخوم الغابة ، وعلى شجرتي السنديان الهزيلتين المنبجستين بين طائفة من شجيرات الحور الرجراج ، وعلى الوادي المتآكلة أطرافه ، وعلى طاوية العم التي لا تكاد تثرى وراء دغل على اليمين . فكان يقول لنفسه : « لا ، لن يكون لي هذا الحظ . ومع ذلك ، ماذا يكلف الرب أن يرسل اليّ الذئب . لا ، لن أفوز بهذا الحظ ! لقد كان النحس نصيبي في كل شيء ، في القمار ، وفي الحرب ! » . وطافت في خياله صور حرب أو سترلتس ، وصورة مقامرته مع دولوخوف ، وهي صور واضحة لكنها سريعة عابرة . « ألا فلأستطع مرة واحدة في حياتي أن أقهر ذئبا ضخما . ولست أطمع في أكثر من هذا ! » . كذلك كان يقول لنفسه ، ماذا أذنيه ، فاتحا عينيه ، ملقيا نظراته على اليمين تارة وعلى الشمال تارة ، متنصتا على أضعف ترجّع للضجيج الذي تحدثه حركة المطاردة . وبينما كان ينظر مرة أخرى الى اليمين ، اذ رأى شيئا يركض اليه خلال الحقل المقمر . فقال لنفسه وهو يخرج من صدره تلك الزفرة العميقة التي يزفرها من يرى تحقق أمر طال انتظاره له : « لا ، مستحيل ! » . أتتحقق سعادته الكبرى بمثل هذه السهولة ، بغير ضجة ، بلا بريق ، بدون بشائر ؟ ! . لم يصدق روستوف عينيه ، ولازمه هذا الشك لحظة وكان الذئب يوغل في الركض أمامه ، وتخطى ، بحركة ثقيلة ، بركة موحلة وجدها في طريقه . انه ذئب عجوز شائب الصلب كبير البطن كان يركض على مهل مقتنعا اقتناعا واضحا بأنه لا يراه أحد . حبس روستوف أنفاسه ، ونظر الى كلابه . كان بعضها راقتا وبعضها واقما ، ولم تكن قد رأت الذئب ، ولا خطر ببالها شيء من ذلك . وكان « كاراي » العجوز كافئا رأسه يبحث في حقن عن برغوث في زغبه ، كاشفا عن أسنانه الصفر ، مقرقعا بها عند مؤخرته .

دمدم روستوف مقدّمًا شفّتيه :

— هارلوو ! هارلوو !

فهزت الكلاب أرسانها ، وثبت ناصبة آذانها • وكف « كاراي »
عن حك جلده ، وهبّ قائما ، ورفع أذنيه ، وحرك ذيله الذي كانت
تدلى عنه طرّات زغب •

وكان روستوف يتساءل أثناء اقبال الذئب عليه وتقدمه منه مبتعدا
عن الغابة : « أيجب أن أطلقها ؟ أيجب أن لا أطلقها ؟ » • وفجأة تغيرت
حركة الذئب كلها : ارتعش الذئب حين رأى — ربما أول مرة في حياته —
عيني انسان تحدّقان اليه ، ولفت رأسه قليلا الى الصياد فوقف وكأنه
يحدث نفسه : « ماذا يجب أن أعمل ؟ أتقدم أم أتقهقر ؟ بل أتقدم ،
وليكن ما يكون ! هلمّ ! » • وبدون أن يتردد مزيدا من التردد ،
استأنف ركضه وثبات رخوة ، متباعدة ، متفاوتة ، ولكنها واثقة •

صرخ روستوف بصوت مرعد :

— هارلوو !

ثم اذا بحصانه ينطلق من تلقاء نفسه نازلا على المنحدر ، متخطيا
برك الماء الموحلة ، ليسد على الذئب طريقه ؛ وانطلقت الكلاب بسرعة
تفوق سرعة الحصان فسبقته • وطاش صواب نيقولا ، فهو لا يسمع
نفسه صارخا ، ولا يحس بجريه السريع ، ولا يبصر لا الكلاب ولا الارض
التي يقطع • انه لا يرى الا الذئب الذي حثّ الخطى هاربا على طول
الوادي لا يعير اتجاهه • هذه « ميلكا » ، الكلبة المبقعة ذات المؤخرة
الغريضة ، تسبق سائر الكلاب ، فتظهر قرية من الذئب ، ثم يزداد قربها
منه •••• ثم يزداد •••• ثم تبلغه • ولكن الذئب ينظر اليها ، فاذا هي ،

بدلاً من أن تنقض كما فعل دائماً ، إذا هي تتوقف على حين فجأة ،
رافعة ذيلها ، مقوسة ظهرها ، مثبتة على الأرض في الامام قائمتيها •

صرخ نيقولا مهيباً حادياً :

— هارلوو ! ...

وها هو ذا « ليوييم » العجوز ينبجس من وراء « ميلكا » وينقض
على الذئب ممسكاً مؤخرته • ولكنه لم يلبث أن خاف فوثب جانباً •
فتكوم الذئب على نفسه ، وطقق بأسنانه ، ثم عاد ينهض وانطلق الى
الامام ، تتبعه الكلاب كلها على مسافة نصف متر ، ولا تقترب منه أكثر
من ذلك •

قال نيقولا لنفسه وهو ما يزال يصرخ بصوته المبحوح : « لا ،
سوف يهرب ! مستحيل ! » •

وصاح وهو يبحث بنظراته عن كلبه العجوز ، أمله الوحيد :

— « كاراي » ! هارلوو ! ... •

وكان « كاراي » يجري ثقیل الحركة ليقطع الطريق على الذئب ،
بأذلا كل ما أبقت له الشيوخوخة من قوة ، شادا جسمه أقصى الشد ،
مثبتاً بصره على الذئب لا يحوله عنه • ولكن خفة الذئب وثقل الكلب
كانتا تحملان على التنبؤ بأن « حسابات » كاراي لن تصدق • وكان
نيقولا يرى منذ ذلك الوقت ، على مسافة غير بعيدة منه ، الغابة التي
لا شك أن الذئب سيفزع اليها ويغيب فيها • وان روستوف لكذلك ،
إذا بكلاب مع صياد يكاد يجري بحصانه مقبلاً عليه متجهاً اليه ، تظهر
أمامه ، فينتعش أمل روستوف • وهذا كلب أسمر من رهط آخر ،

كلب مستطيل الاشكال لا يعرفه نيقولا ، ينقض على الذئب ويوشك أن يقلبه . ولكن الذئب نهض من كبوته بأسرع مما يمكن أن يظن المرء ، وهجم على الكلب الفتى ، فعضه بأنيابه ، فركس الكلب رأسه الى الارض ممزق الجنب نازف الجرح ، صارخا صرخات حادة .

قال نيقولا بسا يشبه الأنين :

— عزيزي « كاراي » ، صديقي « كاراي » ، هيا !

وبفضل هذا الحادث الذي وقع ، كان الكلب المسن الذي يقطع الطريق على الذئب وتتدلى طرقات شعره على فخذه ، أصبح لا يبعد عنه الا خمس خطوات . وكأن الذئب أحس بالخطر ، فنظر الى « كاراي » من جانب ، ثم شد ذيله بين ساقيه مزيدا من الشد ، وغدّ خطاه يجري جريا سريعا . ولكن « كاراي » (ويجب أن نذكر أن نيقولا لم يلاحظ الا أن « كاراي » قد حدث له شيء) صار فوق الذئب في طرفة عين ، وأخذ الذئب والكلب يتدحرجان في مجرى سيل كان أمامهما .

ان اللحظة التي أتيح فيها لنيقولا أن يرى الكلاب في مجرى السيل تتجهم حول الذئب الذي يبصر نيقولا شعره الشائب ، واحدى رجله متوترة ورأسه المروّع اللاهث المستنيمة أذناه (كان كاراي قايسا على عنق الذئب) ، ان اللحظة التي أتيح فيها لنيقولا أن يرى ذلك كله كانت أسعد لحظة في حياته . وفيما كان يسك تروس السرج ليترجل ويجهز على الذئب ، اذا برأس الذئب ينبجس رأسه من بين جمهرة الكلاب ، ثم اذا برجليه تتشبثان بحافة مجرى السيل ، واذا هو يعرف بأسنانه وقد ترك كاراي رقبته ، واذا هو يشد ذيله بين فخذه ، ويخرج الى السهل

راكضا رغضا سريعا ، مخلفا الكلاب وراءه مرة أخرى • وخرج
« كاراي » من مجرى السيل بمشقة وعناء ، وخرج مشعث الشعر ،
مرضوا أو مجروحا في أغلب الظن •

صرخ نيقولا يقول مكروبا يائسا :

— ماذا جنت يداي يا رب حتى تنزل بي هذا العقاب ؟

ووصل قائد كلاب العم يعدو بحصانه عدوا سريعا ليسد طريق
الذئب من جهة أخرى ، فأفلحت الكلاب في وقف الذئب من جديد ،
وأحدثت به وطوقته •

فكان نيقولا وسائسه ، والعم وقائد كلابه يدورون حول الذئب
صائحين « هارلووو ! » ، ويتأهبون للترجل متى قعد الذئب على
مؤخرته ، ويتقدمون الى الامام متى تحرك وسار متقدما الى الغابة
التي يمكن أن تكفل له الخلاص وتضمن له السلامة •

وكان دانيلو قد خرج الى تخوم الغابة منذ بدء المطاردة حين سمع
الصراخ ، وكان قد رأى « كاراي » يقبض على الذئب فأوقف حصانه
ظانا أن كل شيء قد انتهى • ولكنه حين لاحظ أن الصيادين لم يترجلوا
وأن الذئب يتحرك ويهرب ، انطلق بحصانه لا متجها الى الذئب بل
متقدما من الغابة على خط مستقيم ، فقطع الطريق على الذئب كما سبق
أن فعل « كاراي » ، فاستطاع بفضل هذه المناورة أن يدرك الذئب
لحظة كانت كلاب العم توقعه مرة ثانية •

كان دانيلو يجري بحصانه صامتا ، ويمسك بيسراه خنجرا مسلولا ،
ويضرب جنبي حصانه الخاسفين بسوطه ضربا كأنه طرق مدقة من حديد •

لم يَرُ نيقولا صاحبا دانيلو ولا سمع حركة مجيئه الا لحظة مره
حصانه أمامه لاهثا ، وسرع سقوط جسم على الارض ، فرأى دانيلو
راقدا بين الكلاب فوق مؤخرة الذئب محاولا أن يقبض عليه من أذنيه .
ووضح منذ تلك اللحظة للكلاب وللصيادين وللذئب نفسه أن كل شيء
قد انتهى . كان الذئب يشد أذنيه الى جسمه وقد اعتراه رعب شديد ،
وكان يحاول أن يقوم ولكن الكلاب تزحمه وتلتصق به . وها هو ذا
دانيلو ينتصب ، ويخطو خطوة مترنحة ، ثم يتهاوى بكل ثقله على
الذئب كأنه يرتسي على سريره ، ويقبض على أذنيه . أراد نيقولا أن
يذبح الذئب بخنجره ، ولكن دانيلو دمدم يقول : « لا داعي الى ذبحه .
سوف نوثقه » ، وأسرع يغير وضعه ، فجعل قدمه فوق رقبة الذئب ،
ثم دُسَّت في فمه عصا ، وأوثق برسن كأنما هو يوضع له عنان ،
وربطت أرجله ، وقلبه دانيلو من جنب الى جنب مرتين أو ثلاثا .

وحملوا الذئب حيا الى ظهر حصان كان يشب ويصهل ، حملوه الى
ظهر الحصان وقد تهلت أساريهم التي أضناها التعب ، ومضوا به الى
مكان التجمع تتبعه الكلاب نابحة عليه . وكانت الضرار قد قبضت
على ذئبين صغيرين ، وكانت الكلاب السلوقية قد قبضت على ثلاث
ذئاب صغيرة أخرى . ان مكان التجمع هو المكان الذي يلتقي فيه
الصيادون مع طرائدهم ، ويأخذون يقصون بعضهم على بعض مغامراتهم .
تقدم الجميع ليروا الذئب الذي ترك رأسه ذا الجبهة العريضة يتدلى
كالمشنوق ، وراح يقضم العصا المدسوسة في فمه ، وينظر بعينه
الواسعتين اللتين تشبهان أن تكونا من زجاج ، الى تلك الجمهرة من
الكلاب والبشر التي تحيط به . وكان اذا لمسه أحد تسرى في أرجله

المربوطة رعدة ، ويحدّق الى جميع الملتفين حوله بنظرة وحشية ساذجة
في آن واحد •

ودنا الكونت إيليا آندرئتش هو أيضا ، ولمس الذئب ، وقال يسأل
دانيلو الذي كان واقفا بقربه :

— ذئب بالغ عظيم ؟ أليس بالغاً أم هو من صغار الذئب ؟

فأجابه دانيلو وهو يسارع الى رفع طاقيته احتراماً :

— بل هو بالغ يا صاحب السعادة •

فتذكر الكونت غلطته حين ترك للذئب أن يفلت وتذكر الكلام
العنيف الذي بادره به دانيلو ، وقال :

— أتعلم يا عزيزي أنك لست رضي الخلق ؟

فلم يقل دانيلو شيئاً ، ولم يزد على أن ابتسم ابتسامة خجلى وديعة
عذبة كابتسامة طفل •

الفضل السّادس

سلك الكونت طريق العودة الى المنزل ، ووعدت ناتاشا وبيتيا بأن يرجعا في الحال . وكان الصيد مستمرا ، فما يزال الوقت مبكرا . وفي نحو العصر ، أطلقت الكلاب في واد يغطيه حرج كثيف من شجيرات نابثة على أرومات أشجار مقطوعة . وكان نيقولا مرابطا في المراعي الجرداء فكان يستطيع ان يرى كل شيء .

ان أمامه حقولا من قمح صغير نبتة . وكان قائد كلابه يرابط وحيدا في حفرة وراء شجرة بندق . فما ان فصلت الكلاب حتى سمع نيقولا نباحا متقطعا صادرا عن كلب يعرفه واسمه « فولترون » ، وكانت الكلاب الاخرى تضم نباحها الى نباحه تارة ، وتسكت تارة أخرى ، وتعود الى النباح تارة ثالثة . فما هي الا لحظة حتى صدر عن ذخر الغابة صوت دل على وجود ثعلب ، فاذا برهط الكلاب كله يجتمع وينطلق متجها الى حقول القمح مبتعدا عن نيقولا .

وابصر نيقولا صيادين من قادة الكلاب لابسين طاقياتهم الحمراء ، يجزون بخيولهم على ضفاف الوادي عدوا سريعا ، حتى لقد ميز الكلاب فكان يتوقع ان ينبجس الثعلب الى حقول القمح بين لحظة واخرى .

وسار قائد الكلاب الذي كان مرابطا في الحفرة ، وفصل كلابه ،
 فاذا بنيقولا يرى ثعلبا غريب الشكل ، ناري اللون ، واطيء الصلب
 على قوائمه ، قصير الذيل ، يتسلل بين نبت القمح مسرعا ، وتطارده
 الكلاب فما تزال تقاربه الى ان ادركته . ها هي الكلاب تدنو من الثعلب ،
 وها هو الثعلب يرسم حولها دوائر مانتفك تضيق ، محركا ذيله الكث
 يضرب به الارض ، وها هو ذا كلب أبيض لا يعرفه نيقولا ينقض على
 الثعلب ، وها هو ذا كلب آخر اسود ينقض عليه أيضا ، ثم يختلط كل
 شيء وتتملق الكلاب حول الثعلب على هيئة نجمة ، واقفة امامه كالجامدة
 لا تكاد تتحرك . وهاهما قائدان من قادة الكلاب يصلان على فرسيهما
 مسرعين ، فأما احدهما فهو يضع على راسه طاقيه حمراء ، واما الثاني
 فهو صياد مجهول يرتدي ققطانا اخضر .

تساءل نيقولا : « ما هذا الذي يحدث ؟ من اين اتى هذا الصياد
 ليس هو قائد كلاب العم » .

أجهز الصيادان على الثعلب ، ومكثا في مكانهما مدة طويلة ،
 فلاههما يربطان الثعلب ولاهما يركبان حصانيهما اللذين يرى سرجاهما
 في حرج الشجيرات عاليا قربوسهما ؛ ورقدت الكلاب حولهما ، وطلق
 الصيادان يحركان ايديهما غاضبين ، ويحومان بقرب الثعلب مضطرين
 وسمع صوت بوق يدوي ، وهو الصوت الذي يدل اصطلاحا على
 نشوب مشاجرة .

قال سائس نيقولا :

— هذا قائد كلاب ايلاجين يشاجر صاحبنا ايفان .

فبادر نيقولا الى استدعاء ناتاشا وبيتيا ، واتجه خطوا الى حيث

كان الخدم يجمعون الكلاب ، وكان عدد من قادة الكلاب قد بلغوا مكان المشاجرة •

ترجل نيقولا ، ووقف هو وناتاشا وبيتيا اللذان ادركاه ، وقف بقرب الكلاب ينتظر نهاية الامر • فرأى احد قائدي الكلاب اللذين نشبت بينهما المشاجرة ، رآه يظهر عند حافة الغابة وقد ربط الثعلب بسرجه ، ويقبل على مولاه الشاب ، ويرفع طاقيته محيا من مسافة غير قريبة ، ويحاول ان يتكلم باحترام وتعظيم • ولكنه كان شاحب اللون، وكان يهتق غضبا وحقا شديدا ، وكانت احدى عينيه متورمة ، ولكن لا يبدو عليه انه متنبه الى ذلك او شاعر به •

سأله نيقولا :

— ماذا جرى بينكما ؟

— ماذا جرى ؟ اريد ان ينهب من كلابنا فريستها ؟ ثم ان كلبتي الشهباء هي التي اصطادت الثعلب ! ولم يشأ هو ان يفهم وان يلتزم جانب الصواب • كان يريد ان يأخذ الثعلب • فما كان مني الا ان امسكت الثعلب ، ولطمت به خطمه • وها هو ذا الثعلب مربوط بسرجي واذا كان ما وقع لك لا يكفيك فعندي هذا ايضا •

أضاف قائد الكلاب هذه الجملة الاخيرة مظهرا خنجره متخيلا انه ما يزال يخاطب خصمه •

لم يجبه نيقولا بشيء ، وطلب الى اخته والى بيتيا ان ينتظراه ، وذهب الى حيث كان يجتمع ركب الصيد الذي ينتمي الى ايلاجين الخصم •

اختلط الصياد المنتصر بجمهرة الصيادين الآخرين ، وأخذ يروي لهم مآثرته في جو مشبع بالحب له والاعجاب به .

واليكم ماكان قد حدث : ان ايلاجين الذي بينه وبين آل روستوف قضية تنظر فيها المحاكم كان يصطاد على ارض تعد في العرف تابعة لاملاك آل روستوف .

وكأنه تعد الآن ان يقترب من الغابة التي كان آل روستوف يصطادون فيها ، وسمح لقائد كلابه ان يسطو على الثعلب الذي اصطادته كلاب آل روستوف .

لم يكن نيقولا قد رأى ايلاجين من قبل قط ، ولكنه على عادته في التطرف في احكامه وعواطفه ، كان يكره ايلاجين كرها شديدا بكل قلبه ، ويعده أعدى أعدائه ، مستمدا رأيه فيه مما كان يروج من شائعات عن عنفه واستبداده . فهو الآن يسير اليه مهتاجا حائقا ، شادا على سوطه ، عازما عزمًا قاطعا على ان يعمد في معاملته الى اشد الاساليب خطورة وحسما .

فما كاد يبلغ زاوية الغابة حتى رأى سيدا ضخما على رأسه كسكيتة من قماش الكستور ، يقبل عليه راكبا حصانا اسود رائعا في صحبة سائسين اثنين .

فما كان اشد دهشة نيقولا حين رأى انه ليس امام خصم لدود ، بل أمام انسان مهيب الطلعة رضي الطبع رقيق الحاشية ، راغب رغبة شديدة في أن يتعرف بالكونت الشاب ، فانه ما ان اقترب من نيقولا حتى رفع كسكيتته محييا ، وقال انه سيعاقب قائد الكلاب الذي اجاز

لنفسه ان يتبع مسار رهط من الكلاب آخر ، وانه سيسعده كثيرا ان يعرف الكونت الشاب ، ودعاه ان يصطاد في اراضيه .

وكانت ناتاشا خائفة ان يحتد اخوها وان يتورط فيما لاتحمد عقباه ، تتبعه قرية منه مهتاجة اكبر الاهتياج ، فلما رأت الخصمين يتبادلان الملاحظات في مودة وصداقة ، اقبلت عليهما وتقدمت منهما ، فرفع ايلاجين كسكيتته مرة اخرى بمزيد من الادب والكياسة واللفظ ، وقال وهو يبتسم ابتسامة رقيقة ان الكونتيسة تشبه الهة اليونان ديانا حتى لكأنها صورتها ، بشغفها بالصيد ، او بجمالها الذي سمع عنه كثيرا .

ومن أجل ان يصلح ايلاجين ماافسده قائد كلابه ، اخذ يرجو روستوف ملحا ان يصحبه الى المكان الذي لايبعد الا فرسخا واحدا ، وهو مكان يحتفظ به لنفسه وتكثر فيه الارانب البرية . فقبل روستوف الدعوة . وتضاعف الركب مرة أخرى وسار .

وكان لابد من المرور في الحقول لبلوغ ذلك المكان . وكان قادة الكلاب فرحين تتهلل وجوههم بشرا ، وسار الاسياد معا ، فكان كل من العم وروستوف وايلاجين يختلس النظر الى كلاب صاحبيه ، خائفا ان يرى بينهما كلابا تفوق كلابه ،

أما في رهط كلاب ايلاجين فقد خطف بصر روستوف جمال كلبة ذات بقع حمراء ، طيبة العرق كريمة الاصل ، لها خطم دقيق ، وعينان سوداوان بارزتان ، ان تكن ضئيلة نحيلة فان لها عضلات كالقولاذ قوة وكان قد سمع عن خفة كلاب ايلاجين ، فرأى ان هذه الكلبة تنافس كلبته « ميلكا » .

وینما كانا فی حدیث جاء عن محاصیل هذه السنة ، وهو حدیث
بدأه ایلاجین ، اذ قال روستوف لصاحبه وهو یشير له الی الكلبة
مصطنعا قلة الاكتراث :

— کلبتك هذه جمیلة • فهل هی خفیفة الحركة ؟

فأجابه ایلاجین بلهجة غیر المبالي ، وهو الذی كان فی السنة الماضية
قد أعطى جارا له ثلاث أسر من الخدم الاقنان ثمنا لکلبته الحمراء هذه
« یرتسا » :

— تلك ؟ نعم ، هی كلبة طیبة تجید الصيد •

— واضاف مستأنفا حدیثه عن المحاصیل :

— اذن كانت المحاصیل عندكم ایضا ردیئة یاكونت •

ومن حرصه علی ان لا یكون اقل لطفا من الكونت ، القى نظرة
علی كلاب روستوف ، فاختر منها « میلکا » الی لفتت انتباهه بعرض
مؤخرتها :

— کلبتك السوداء هذه جمیلة ایضا ، جمیلة جدا •

فأجاب نیقولا :

— نعم ، لا بأس بها ، وهی سریعة العدو •

وقال محدثا نفسه : « لیت أرنبا بریا کبیرا یظهر الان ، لاریک
ما هذه الكلبة ! » •

ثم التفت الی سائسه ، ووعد بأن یهب روبلا لمن یرج أرنبا من
مکمنه •

واستأنف ایلاجین الكلام فقال

— يدهشني ياكونت ان يغار صياد مما يصطاده صياد اخر أو ان يغار من كلابه • اعترف لك ياكونت انني ، من جهتي ، انما يسرني التروض أكثر مما يسرني أي شيء آخر ، فاذا أوتي المرء صحبة كهذه الصحبة ، ففي أي شيء عساه يرغب زيادة على هذا ؟

(قال ذلك وهو يرفع كسكيتته لئاناشا مرة أخرى) • أما ان أعد انجلود التي أعود بها من رحلة الصيد ، فذلك أمر لا يهمني البتة •

— طبعاً •

— ولا يحقني أيضا أن يكون كلب ليس كلبني هو الذي قبض على الطريدة متى أعجبني الصيد نفسه ، اليس هذا رايبك ياكونت ؟ ثم انني أقدر ...

لم يكمل ايلاجين جملته ، لان أحد خدم الكلاب وقف يطلق صرخة طويلة :

— أر •• نا ••• ب !

كان الخادم واقفا على تلة صغيرة في الحقول ، رافعا سوطه ، وصرخ مرة أخرى صرخة طويلة مكررا :

— أر ••• نا ••• ب !

فكان هذا الصراخ وهذا السوط المرفوع يشير ان الى أنه يرى أمامه أرنا برياً في مأواه •

قال ايلاجين متظاهرا بعدم الاكتراث :

— أظن أنه وقع بصره على أرنب بري • فهل نظارده ياكونت ؟

أجاب الكونت وهو يلقي نظرة على « ايرتسا » كلبة ايلاجين وعلى

« روجاي » الكلب الاحمر الذي يملكه العم ، وهما منافسان مخيفان
لم يتح له من قبل أن يقارن بين قدرتهما وقدرة كلابه :

— نعم ، نعم ، ولكن هل نشترك في المطاردة جميعا ؟

وتساءل وهو يتقدم في اتجاه الارنب الى جانب العم وايلاجين :
« ماذا لو غلبا كلبتي العزيزة ميلكا ؟ »

قال ايلاجين يسأل الصياد الذي كشف عن وجود الارنب

— أهو ضخم ؟

ثم التفت الى « ايرتسا » قلقا ، وصفر يناديها . وقال يسأل العم
— وأنت يا ميخائيل نيكانوردفتش ؟

ولكن العم كان متجهم الوجه عابسا . وأجاب يقول :

— اين أنا منكما ؟ المسألة واضحة ، الى الامام سر . كلابكم أتم
أشترى كل منها بقرية . ان ثمن الكلب منها ألف روبل . فلتكن المباراة
بينها ، وحسبي أنا أن انظر ...
ولكنه أضاف مناديا كلبه :

— هلمَّ « روجاي » ، هلمَّ عزيزي روجاي .

وكان يودع هذا النداء كل ما يشتمل عليه قلبه من حب وحنان
وعاطفة ، وكل ما يعقده على هذا الكلب الاحمر من آمال وأمنيات .

وقد لاحظت ناتاشا الهيجان المكظوم الذي كان يضطرم في نفسي
الشيخين ونفس أخيها نيقولا . وكانت هي أيضا مهتاجة .

لا يزال الصياد واقفا على التلة رافعا سوطه ، والاسياد يتقدمون على

ظهور خيولهم خطأ ، والكلاب متفرقة مبعدة حتى آخر الافق على مسافة بعيدة من الارنب .

قال نيقولا يسأل الصياد الذي كشف عن وجود الارنب ، حين صار على مسافة مائة خطوة منه :

— أين رأسه ؟

لم تتح للصياد فرصة الاجابة عن هذا السؤال ، فان الارنب وقد أحس بأن الصقيع سيدهامه في صباح الغد ، وثب خارجا من مأواه . فأخذت الكلاب المقرفة تهبط المنحدر في اثره نابحة . وهرعت الكلاب السلوقية من كل صوب تتبعها بغير أرسان ، ثم اذا بجميع الصيادين الذين كانوا يسرون متمهلين ، وجميع قادة الكلاب الذين كانوا يستوقفون كلابهم صائحين بها : « هالت » ! وجميع الخدم الذين يطلقون الكلاب السلوقية بصيحة « تايو ! » ، اذا بهؤلاء جميعا يندفعون موهلين في الحقول .

وكان ايلاجين الهاديء ، ونيقولا ، والعم ، وناتاشا يجرون بخيولهم عدوا سريعا على غير هدى ، لا ينظرون الا الى الكلاب والارنب ، ولا يخشون الا أن يغيب منظر الصيد عن ابصارهم لحظة واتفق أن كان الارنب حيوانا ضخما سريع الحركة نشط الهمة ، يبدأ جريه منذ خرج من مأواه فورا ، ولكنه حرك أذنيه ، فلما سمع الصيحات ووقع حوافر الخيول التي بدأت تفرع الارض في كل صوب ، وثب زهاء عشر وثبات بدون سرعة كبيرة ، فاقتربت الكلاب منه ، لكنه وقد اختار اتجاهه وأحس بالخطر ، لم يلبث أن أنام أذنيه وانطلق يشق الفضاء كالسهم . حتى اذا خرج من المراعي التي فيها مأواه ، كانت تمتد حقول قمح على

أرض موحلة • وكان كلبا الصياد الذي اكتشف وجوده أقرب الكلاب إليه ، فرأيا الطريق التي سلكها قبل أن نراها الكلاب الأخرى ، فجريا بتبعانها ولكنهما كانها مايزالان بعيدين بعدا كبيرا حين انبجست من ورائهما « ايرتسا » ، كلبة ايلاجين الحمراء ، وسبقتهما حتى اذا اصبحت من الارنب على مسافة طول كلب ، وثبت وثبة رائعة تريد بها أن تمسك الارنب من ذيله ، ولكنها أخطأته ، فتدحرجت منقلبة على رأسها • وقوس الارنب ظهره ، وغذاء الخطى مسارعا جريه • وهذه « ميلكا » السوداء ذات المؤخرة العريضة تثب من وراء ايرتسا ، وتوشك أن تدرك الارنب صاح نيقولا بصوت المنتصر الظافر :

— ميلكا ، عزيتي !

وبلغت ميلكا الارنب ، ووثبت لتقبض عليه ، ولكن وثبتها تجاوزته فاستطاع الارنب أن يهرب منها • وعادت « ايرتسا » الجميلة تطارده فبلغته حتى مست ذيله ، وكأنها كانت تقيس المسافة بحيث لا تخطئه ثانية بل تمسك في هذه المرة فخذه •

هتف ايلاجين ضارعا بصوت غريب تبلله الدموع :

— ايرتسا ! جميلتي !

ولكن يبدو أن ايرتسا لم تحفل بضراعاته • ففي اللحظة التي كان يتوقع فيها أن تقبض على الأرنب ، حرف الارنب اتجاهه قليلا ، وارتدى في الثلم الذي يفصل المراعي عن حقول القمح وراحت ايرتسا وميلكا تجريان وراء الارنب جنبا الى جنب ، كحصانين قرنا بعريش واحد ، ولكن جري الارنب في الثلم كان أسهل من جري الكلاب فيه ، فلم تستطع الكلبتان أن تدركاه •

هنا تدخل في الصياح صوت جديد هتف مناديا :

— « روجاي » ، صغيرتي « روجاي » المسألة واضحة ، السي
الامام سر •

فاذا بالكلب الاحمر الاحدب « روجاي » ، وهو كلب العم ، يتمطى
ويقوس ظهره وينطلق فيدرك الكلبتين السابقتين ، ثم يسبقهما ، ثم
يعجّل ركضه مستميتا متفانيا ، فيحاصر الارنب من قرب ، ويضطره الى
الانحراف عن الثلم الى حقول القمح ، ثم يعجّل جريه بزيادة من الحقن
المسعود في الحقول الموحلة ، غائضا حتى بطنه ، ثم اذا هو يرى وقد
قبض على الارنب وراح يتدحرج معه في الحقل ملطخا بالوحل ظهره •
وتجمهرت الكلاب نجمة حوله • وما انقضت لحظة حتى كان الراكب كله
قد وصل الى حيث تجمهرت الكلاب • ولم يترجل الا العم وحده • فاجهز
على الارنب سعيدا وأخذ يهزه لينسكب دمه ، ملقيا على ما حوله نظرات
قلقة ، منتقلا ببصره من شخص الى شخص ، لا يدري ما عساه يصنع
بذراعيه وساقيه ، ويتكلم دون أن يعرف من ذا يخاطب وماذا يقول :
« هذه مسألة ••• الى الامام سر ••• هذا كلب حقا ! غلب الكلاب
جميعا •• الكلاب التي ثمنها ألف روبل ، والكلاب التي ثمنها روبل واحد
المسألة واضحة ، الى الامام سر ! » • كذلك كان يقول لاهتا مختنقا ،
وهو يلقي على الجميع نظرات حانقة ، كأنه يشتم أحدا ، وكأن جميع
من حوله اعداء أهانوه جميعهم فهو الآن يثار لنفسه منهم • « هذه هي
كلابكم التي ثمن الكلب منها ألف روبل • المسألة واضحة ، الى الامام
سر ! » •

وقال وهو يرمي الى كلبه رجلا ملطخة بالوحل من أرجل الارنب •

— خذ حصتك يا « روجاي » • انه جدير بها • هي حقه • المسألة واضحة ، الى الامام سر •

قال نيقولا وكان هو أيضا لا يصغي الى كلام أحد ، ولا يهمه أن يعرف هل يصغي أحد اليه أم لا :

— كانت قد نفذت قواها • قامت وحدها بثلاث مطاردات • وقال سائس ايلاجين من جهته :

— يا للشطارة ! لقد أخذها من خلف !

وقال ايلاجين في الوقت نفسه ، وكان وجهه محمرا احمرارا شديدا ، وكان يسترد انفاسه التي قطعها الاهتياج والجري ، يستردها بمشقة وعناء :

— بعد أن أخطأته ضربتها صار في امكان اي كلب زنيـم أن يستفيد من ذلك فيقبض عليه •

وفي اثناء ذلك كانت ناتاشا ماتزال تلهث ، وماتزال تطلق من شدة فرحها وحماستها صرخات حادة تصم الآذان • بذلك كانت تعبّر عما كان يعبر عنه الآخرون بالكلام جميعا في وقت واحد • وكانت صرخاتها تبلغ من الغرابة أنها لو أطلقتها في غير تلك اللحظة لكان يمكن أن تضجل من نفسها ، ولكان يمكن أن يدهش الناس من هذا الصياح العجيب أشد العجب •

تولى العم بنفسه ربط الارنب الى سرجه بحركات نشطة حاذقة ، ثم رده الى ردف الحصان عرضا بحركة تكاد تشتمل على معنى التحدي والاستفزاز ، وهمز حصانه الاشقر ومضى معبرا بهيئة عن أنه لا يريد أن

يكلم أحدا • وتفرق الآخرون مكتئين حزاني قد جرحت كبرياؤهم ، ولم يستردوا قدرتهم على اصطناع هيئة قلة الاكتراث وعدم المبالاة الا ببطء • وظلوا مدة طويلة يتبعون « روجاي » الاحمر بأبصارهم ، وكان روجاي وقد تلطخ ظهره المحدودب بالوحل ، وبدا في وجهه هدوء الانتصار ، يجري خبيا وراء حصان العم ، ويجعل لرسنه رنينا • فكان نيقولا ينظر اليه ، فكأنه يقرأ في وجهه أنه يقول : « نعم ، منظري كمنظر سائر الكلاب مالم يكن الامر امر صيد ! أما في الصيد ، فحذار مني ! » •

وبعد مدة طويلة ، حين اقترب العم من نيقولا وكلّمه ، شعر نيقولا باعتزاز من أن العم تنازل وتواضع وارتضى لنفسه أن يكلمه •

الفصل السابع

حين حلّ المساء ، وودع ايلاجين نيقولا ، كان نيقولا قد بلغ من الابتعاد عن منزله أنه قبل ما اقترحه عليه العم من صرف ركب الصيد ، وقضاء الليلة في قريته ميخائيلوفنا . قال العم :

— واذا جئتم جميعا الى منزلي كان هذا أفضل ، المسألة واضحة ، الى الامام سر . انكم لترون أن الجو الرطب ، فاذا تعبتم عندي أصبتم شيئا من راحة . أما الكوتيسة الصغيرة فنعيدها الى المنزل في عربة . قبل الاقتراح ، فأرسل أحد قادة الكلاب ليجلب عربة من أوترادنويا وسار نيقولا وناتاشا وييتيا يتبعون العم الى داره .

هرع الى الباب الكبير خمسة خدم أو ستة بعضهم طوال وبعضهم قصار لكنهم جميعا ذكور ، هرعوا الى الباب الكبير يستقبلون مولاهم . وأسرعت عشرات من النساء عجائز وشابات وصبايا صغيرات ، أسرعت الى باب الخدمة تنظر لتري وصول الصيادين . فما كان أشد فضولهن ودهشتهن حين رأين ناتاشا ، وهي امرأة وسيدة عظيمة ، ممتطية صهوة حصان ، حتى لقد بلغت الدهشة بعدد كبير منهن أنهن اقتربن منها . يتفرسن فيها بغير تحرج ، ويتبادلن أمامها بعض الملاحظات كأنها دمية لا انسان ، فلا تستطيع أن تسمع ولا أن تفهم مايقال عنها .

— آرينكا ، انظري كيف تجثم على الحصان من جانب وانظري كيف
تجر ذيل تنورتها الطويلة ! ولها عدا ذلك قرن !
— يا ساتر يا رب ! الا ترين السكين أيضا ؟
— لكأنها امرأة من التتر فعلا !
وقالت أجسرهنّ مخاطبة في هذه المرة ناتاشا رأسا :

— كيف لم تتشقلي ؟

ترجل العم أمام باب داره الصغيرة ، المبنية من خشب ، الفارقة في
الخضرة ، وطاف يبصره على خدمه ، فصرخ جازما يهيب بالعدد الزائد
منهم أن ينصرف ، وأمر بالقيام بما يجب القيام به لاستقبال ضيوفه
وركب الصيد .

فرح الجميع . وانزل العم ناتاشا عن الحصان ، وأمسك يدها لتصعد
درجات المدخل ، وهي درجات من خشب تهتز وتترجرج .

ان هذا المنزل الذي بنيت جدرانه من جذوع اشجار الصنوبر بغير
بلاط ، ليس من المنازل التي يعنى اصحابها بخدمتها ونظافتها عناية كبيرة
فالمرء لا يعدم أن يرى فيه بقعا ، ولكنه لا يلاحظ كذلك أنه مهمل اهمالا
شديدا . والدهليز تقوح فيه رائحة تفاح طري ، وعلى جدرانه عُلقت
جلود ذئاب وثعالب .

قاد العم ضيوفه من حجرة المدخل الى صالة صغيرة أاثاها طاولة
تنطوي وكراسي من خشب الاكاجو ، ثم مضى بهم الى صالون فيه
مائدة مستديرة من خشب السندر ، وديوان ، ثم ادخلهم مكتبه الذي
يضم كنبه ممزقة ، وسجادة مرقعة ، وصورة لسوفوروف ، وصورة لابوي

رب البيت ، وصورة لرب البيت نفسه . وكانت الغرفة ملاءى برائحة
تبغ ورائحة كلاب .

رجا العم ضيوفه أن يجلسوا ، وأن يشعروا أنهم في منزلهم ، ثم
خرج ، فدخل « روجاي » ملطخ الظهر بالوحل ، وجلس على الديوان ،
وطبق ينظف نفسه بضربات من لسانه وأسنانه . وكان المكتب يطل على
مسرى فيه حاجز ممزق ، فكانت تسمع من وراء الحاجز ضحكات
وهسات صادرة عن نساء .

ارتاحت نفس ناتاشا ويقولان بيتيا ، وجلسوا على الديوان ، وأسند
بيتيا كوعيه على فخذه ، وضع رأسه بين يديه ، فلم يلبث أن نام .
وصت يقولان وناتاشا . ان وجهيهما كالجمر احمرارا ، وانهما جائعان ،
وانهما فرحان اعظم الفرح . وتبادلا النظرات (ان يقولان وقد انتهى
الصيد ، أصبح يرى أن من الضروري أن يظهر لاخته تفوقه عليها رجلا)
وغمزته ناتاشا ، فلم يصعدا طويلا ، فإذا هما ينفجران ضاحكين ضحكا
رنانا مجلجلا لا يهمهما أن ينتحلا لمرحما هذا عذرا .

وعاد العم بعد قليل وهو يرتدي صدرية وسروالا أزرق وجزمين
قصيرتين . فأحست ناتاشا أن هذا الملبس الذي أثار في نفسها دهشة
ساخرة في اوترادنويا ، لا يختلف عن غيره من الملابس ، ولا يفوقه
الردنجوت أو الفراك في شيء . وكان العم مرحا كذلك ، لم يسئه
ضحك الاخ واخته (وما كان ليخطر بباله انهما يضحكان استهزاء بطراز
معيشته) ، حتى لقد انضم اليهما في الضحك .

قال وهو يمد الى روستوف غليوننا طويلا ويتناول لنفسه غليوننا
قصيرا بحركة مألوفة بين أصابعه الثلاث :

— انظر الى الكوتيسة الشابة ، المسألة واضحة ، الى الامام سر !
انني ما رأيت لها مثيلا في حياتي •
واستطرد قائلا :

— قضت النهار كله على ظهر الحصان ، وهذا عناء لا يكاد يحتمله
رجل ، ثم هي لا يظهر عليها الاعياء •

بعد عودة العم بوقت قصير فتحت الباب خادمة أغلب الظن أنها
حافية القدمين ، لانه لم يسمع لخطاها على الارض وقع ، وافسحت
المجال لدخول امرأة جميلة في نحو الاربعين من العمر ، نضرة البشرة ،
بضة الوجه كأنها ذات ذقين اثنتين ، لها شفتان مكتنزتان حمراوان ،
تحمل صينية مثقلة ، شملت الضيوف بنظرة رقيقة ، وانحت تحييم
باحترام وهي تبسم ابتسامة باشة مرحبة • ان هذه المرأة رغم بدانتها
التي تضطرها ان تقدم صدرها وبطنها الى أمام، وأن ترد رأسها الى وراء
(وهي خادمة العم) خفيفة المشية رشيقة الحركة ، اقتربت من المائدة
فوضعت الصينية ، واخذت ترتب عليها يديها السيميتين البيضاوين
الخفيفة حركتهما ، ما تحمله الصينية من قناني وأطباق وأقراص حلوى •
حتى اذا انتهت مهمتها تنحت ولبت بقرب الباب والابتسامة لا تبارح
شفثيها • فكان ظهورها هذا كأنه يقول ليقولا • « هذا أنا • فهل تفهم
الآن عمك ؟ » • وكيف لا يفهم روستوف ؟ ان ناتاشا نفسها قد فهمت
العمّ وفهمت ما ظهر في وجه العم عند دخول آيسيا فيدوروفنا من
نقطيب للحاجبين ومن ابتسامة سعيدة راضية غضنت شفثيه تفضينا
خفيفا • ولقد صفت آيسيا على المائدة فودكا بالاعشاب ، وخمور
حلوة ، وفطر مملّح ، وفطائر من قمح أسود معجونة بمصالة اللبن ،

وعلا مطبوخا رغوة ، وتقاحا ، وبندقا طريا منه المشوي ومنه المنقوع
في العسل وفي السكر . ثم جاءت آيسيا فيدوروفنا أيضا بمرقيات
عسل وشرائح من فخذ الخنزير ، ودجاجة أخرجت الآن من الفرن .
وكانت تقول وهي تسكب لها تارة من هذا الطعام وتارة من ذلك .
— كلي يا آنستي الكوتيسة الصغيرة .

فكانت ناتاشا تأكل من كل شيء فيخيل اليها انها لم تر في حياتها
ولا ذاق في أي مكان فطائر كهذه الفطائر ، ولا مريات لها هذا الشذى
كله ، ولا بندقا بالعسل كهذا البندق ، ولا دجاجة كهذه الدجاجة .
ذلك كله كانت آيسيا فيدوروفنا قد جمعته وهياته . ذلك كله كان
فيه عطر آيسيا فيدوروفنا ومذاقها . ذلك كله كان فيه حلاوتها ،
ونظافتها ، وبياضها ، وابتسامها اللطيف .

وخرجت آيسيا فيدوروفنا . وأخذ روستوف والعم ، وقد شربا
مع هذه الوجبة الخفيفة شيئا من خمرة الكرز ، يتحدثان عن الصيد الذي
كانا فيه ، وعن الصيد الذي سيقومان به في المستقبل ، وعن «روجاي» ،
كلاب ايلاجين . فكانت ناتاشا منتصبة الجذع على الديوان ، تصغي الى
حديثهما ساطعة العينين . وقد حاولت مرارا أن توقظ بيتيا لتطعمه شيئا
ولكن بيتيا كان لا يزيد على أن يجمعهم بكلمات غير مفهومة دون أن
يستيقظ . كانت ناتاشا في هذا الجو الجديد عليها تشعر سعادة وارتياح
يلغان من القوة أن كل ما تخشاه هو أن تصل المركبة التي ستقلها الى
منزلها قبل أن يرتوي ظمؤها من التسرع بهذا الجو البهيج . وبعد فترة
من فترات ذلك الصمت الذي لا ارادة للمرء فيه ، اعني صمت أولئك
الذين يستقبلون أصدقاء لأول مرة ، قال العم مجيبا عما كان يجول في
خاطر ضيوفه من أسئلة :

— هكذا اقضي بقية حياتي • حين يموت المرء ، فالامر واضح ، الى الامام سر ! لا يبقى بعد ذلك شيء • فعلام يحرم المرء نفسه !

كان وجه العم وهو يقول هذا الكلام بليغ التعبير ، بل كان جميلا أيضا • فتذكر روستوف على غير ارادة كل ما كان أبوه والجيران يقولونه عنه من خير ، ويصفونه به من مزايا كان للعم في الاقليم كله سمعة طيبة وكان يوصف بأنه رجل غريب الاطوار ، ولكنه من أنبل الناس وأزهرهم وأعفهم وأزهدهم بالمنفعة • كانوا يلجئون اليه حكما يفصل في الشئون العائلية ، وكانوا يختارونه منفذا للوصايا التي يتركها الراحلون عن هذه الارض ، وكانوا ييوحون له بالاسرار • وقد اختير قاضيا ، ودعي أن يتقلد وظائف أخرى ، ولكنه كان يصّر على رفض أية وظيفة من وظائف الدولة اصرارا عنيدا ، ويقضي الخريف والربيع في الحقول على ظهر حصانه الاشقر الخصى ، ويقضي الشتاء في منزله ، ويقضي الصيف مستلقيا في حديقته الكثيفة •

— لماذا ترفض أن يكون لك وظيفة ياعمي ؟

— جربت الوظيفة ثم تركتها • أنا لا أصلح للوظيفة • المسألة واضحة الى الامام سر ! يصلح غيري للوظائف ، أما أنا فلا أفقه من أمور الوظائف شيئا ولا كذلك في شئون الصيد •

وصاح مناديا :

— افتحوا الباب • لماذا أغلقتم الباب ؟

كان الباب الذي يقع في آخر الدهليز (والعم يقول « دهريز ») يفضي الى صالة قادة الكلاب • فأسرعت الى ذلك الباب أقدام عارية ، وفتحته أيد خفية ، فاذا بأنعام بالالايكا تصل الى الاسماع حلوة مطربة

فلا شك أن اليد التي تعزف على البالالايكاً يد صناع • وكانت ناتاشا تنصت على هذا الانغام منذ مدة طويلة ، فها هي ذي الآن تخرج الى الدهليز لتحسن الاستماع •

— قال العم :

— هذا ميتكا ، حوذي عربتي • لقد اشتريت له بالالايكاً مستازة •
انني أحب هذا •

كان من العادات المألوفة في منزل العم حين العودة من الصيد أن يعزف ميتكا على البالالايكاً في صالة قادة الكلاب • وكان العم يحب هذه الموسيقى •

قال نيقولا بلهجة بللقة على غير ارادة منه ، كأنه كان يستحي أن يعترف بأن هذه الموسيقى تعجبه :

— ما أجمل هذا العزف !

وأحست ناتاشا بما اشتملت عليه لهجة أخيها ، فعقبت تقول
معتضة :

— ما أجملها ؟ بل قل ما أروعها !

فكما بدت لها الفطائر المملحة والعسل والاشربة التي ذاقنها عند العم أشهى ما يؤكل وما يشرب في العالم بأسره ، كذلك بدت لها الآن هذه الموسيقى قصة النض الموسيقي قاطبة • فلما صمت صوت البالالايكاً هتفت تقول موجهة كلامها صوب الباب :

— المزيد ، المزيد ، رجاء !

فدوزن ميتكا آلتة الموسيقى ، وعاد يعزف « البارنيا »^(١) .
 بتوقيع سريع وتنوع في طبقة الصوت . فكان العم يصغي .. الى
 الموسيقى . مائلا برأسه الى جانب ، مبتسما ابتسامة خفيفة لاتكاد تثرى
 وقد دوزن ميتكا آلتة عدة مرات ، وأعاد عزف اللحن نفسه مرة بعد مرة ،
 فلم يسأم السامعون من سماعه . ودخلت آنيسيا ، وأسندت جسمها
 البدين الى ساكف الباب ، وقالت تسأل ناتاشا وهي تبسم ابتسامة
 تشبه ابتسامة العم . شبا كبيرا :

— هل تسمعين ؟ انه يجيد العزف .

وقال العم فجأة وهو يجري يده بحركة قوية :

— هذا جزء لا يتقن عزفه . هنا يجب التعديل قليلا . المسألة
 واضحة ، الى الامام سر . يجب التعديل قليلا .

فقال ناتاشا تسأل العم :

— ولكن هل تعرف أن تعزف ؟

فابتسم العم بدون أن يجيب عن سؤالها . وقال لآنيسيا :

— اذهبي فانظري أما يزال لقيثارتي أوتار ؟ انني لم أمسسها منذ
 مدة طويلة . المسألة واضحة ، الى الامام سر .
 أهملتها .

فأسرعت آنيسيا فيدوروفنا بخطوها الخفيف تنفذ أمر العم ، وجاءته
 بقيثارته . فنفخ العم على القيثارة ينفخ عنها الغبار ، ونقر بأصابعه
 المعروقة صندوقيها ، ودوزن الاوتار واستراح في مقعده ، وأمسك القيثارة
 من أعلى مقبضها مباعدا الكوع اليسرى (بحركة مسرحية قليلا) ،
 وغمز بعينه آنيسيا فيدوروفنا ، وبدلا من أن يعزف « البارنيا » ، بدأ

(١) أي « السيدة » .

ينقر الاوتار بنغمات صافية رنانة ، ثم أخذ - بوقار وهدوء ، ولكن بثبات وعزم - يعزف الاغنية الشهيرة « على طول الشارع المرصوف » عزفا بطيء الايقاع جدا . فسرعان ما ترجّع لحن الاغنية ترجع الصدى في نفس ناتاشا ونيقولا وهزّهما مرح خفيف يشبه ذلك المرح الذي يشع من آيسيا فيدوروفنا كلها . واحمرت آيسيا فيدوروفنا ، وخبأت وجهها بخمارها ، وخرجت ضاحكة . وظل العم يعزف لحن الاغنية عزفا معتدلا واضحا ، وقد ظهرت في وجهه امارات الجد والقوة ، وبدل الالهام نظرته ، وثبتت نظرته على المكان الذي تركته آيسيا فيدوروفنا منذ هنيهة . وكانت بسملة غامضة ترسم على شفثيه تحت شارييه الشائين ، وتزداد تفتحا وازدهارا كلما ازداد انطلاق اللحن وتسارع الايقاع ، وكلما صارت تنويعات طبقة الصوت تقترب من النهاية التي تختم اللحن بنغمة قصيرة مهتزة تشبه أن تكون انكسارا .

صاحت ناتاشا تقول منذ أنهى العم عزفه :

— رائع ! رائع يا عمي !

ووثبت من مكانها ، وهرعت اليه تطوق عنقه وتقبل وجهه . وقالت

وهي تلتفت الى اخيها منادية :

— نيقولا ! نيقولا !

فكانت بهذه المناداة كأنها تسأله : « ما هذا ؟ » .

وأحب نيقولا عزف العم كثيرا أيضا . وعاد العم يعزف اللحن مرة

أخرى . فاذا بوجه آيسيا فيدوروفنا الباسم يظهر من جديد في الباب ،

واذا بوجوه أخرى تظهر وراء وجهها . فلما وصل العم من عزفه الى

قول الشاعر :

انتظري ، انتظري ، يا جميلتي
فذهب الى البئر كلانا
نمتح الماء البارد •

نوع العم طبقة الصوت تنويعا بارعا مرة أخرى ، ثم ختم اللحن
بنقرة أخيرة حاسمة ، وهزّ كتفيه • فقالت ناتاشا بصوت فيه من الضراعة
والابتهاال ما يكاد يوهم أن حياتها كلها رهن بتلبية رجائها :
— هيّا يا عمي ، يا عمي العزيز !

فقام العم وكأنه صار رجلين ، رجلا يتسم بوقار من جنون الرجل
الخليّ المرح ؛ ورجلا آخر هو الخليّ المرح الذي أخذ يمهد للرقص
بعزف بسيط قوي •

وصاح العم مهيبا بناتاشا وهو يلوح بيده التي نقرت القيثاره
بآخر نعمة :
— هلمي يا ابنة أخي !

فرمت ناتاشا شالها ، واندفعت حتى صارت أمام العم ، فوضعت
قبضتي يديها على خصرها ، وهزّت كتفها ، واتخذت وضع الرقص •
أين ومتى وكيف استطاعت هذه الكونتيسة الصغيرة التي ربّتها
فرنسية مهاجرة ، كيف استطاعت بفضل الهواء الذي تنشقّه وحده ،
أن تشبع بهذه الروح القومية وأن تتمثل هذه الحركات التي كانت
« رقصة الشال » خليفة بأن تحوها منذ زمن طويل ؟ لا أدري • المهم
أن الروح التي تجلت في وقفة الفتاة وفي حركاتها ، وهي وقفة وحركات
لا سبيل الى تقليدها ، وقفة وحركات نابغة من الفطرة ،

وفقة وحركات روسية . كانت عين ما توقعه العم منها .
فما ان اتخذت وضع الرقص ، وابتسمت ابتسامة الفخر والعزة التي
يمازجها مكر مرح ، حتى زال عن نيقولا وعن جميع الحضور ذلك
الخوف الذي اعتراهم في الوهلة الاولى لظنهم أنها لن تحسن التصرف ،
فاذا هم يعجبون بها منذ الآن .

فعلت كل ما كان يجب أن تفعله ، بل بلغت فيه من حسن التمام
والكمال أن آيسيا فيدوروفنا التي أسرعت تناولها منديلها الذي لا بد
منه للرقص ، قد ذرفت من خلال ضحكها دمعة وهي تنظر الى هذه
الكوتيسية الهيفاء النحيلة الرشيقة التي نشأت بين الحرير والمخل ،
وكانت بعيدة عنها كل البعد ، فاذا هي ترى فيها الان كل ما فيها وما في
أبيها وما في عمتها وما في أمها ، هي آيسيا ، وترى فيها كل ما في أي
انسان روسي .

قال العم وهو يضحك ضحكا مرحا حين انتهى الرقص :
— هيه عزيزتي الكوتيسية الصغيرة ، الامر واضح ، الى الامام
سر . مرحى يا ابنة أخي . لم يبق الان الا أن نختار لك فتى جسورا
يكون لك عريسا . المسألة واضحة ، الى الامام سر !

قال نيقولا مبتسما :
— الاختيار تم .

فقال العم مدهوشا وهو يلقي على ناتاشا نظرة فيها معنى السؤال :
— هاه !

فحركت ناتاشا رأسها مؤمّنة وهي تبتسم ابتسامة سعيدة . وقالت :
— وما أحسنه من عريس !

لكنها ما ان نطقت بجملتها هذه حتى اجتاحتها موجة جديدة من الافكار والعواطف . ماذا كانت تعني ابتسامة يقولون حين قال : « الاختيار سم » ؟ اهو مغتبط أم لا ؟ لكأنه يعتقد أن خطيبي بولكونسكي ما كان ليحبذ مرحنا هذا ، وما كان ليفهمه . » . كذلك تساءلت ناتاشا ، فاذا بوجهها يريد . ولكن هذا لم يدم الا لحظة ، فقد قالت لنفسها : « لا تفكرن في هذا الامر الان ، ما ينبغي لنا أن تفكر فيه ! » ، ومضت الى العم تجلس بقربه مبتسمة ، وتسأله ان يعزف شيئا آخر .

فعزف العم أغنية ولحنا من ألحان رقص الفالس . ثم تنحنح بعد لحظة صمت ، وأخذ يعني أغنية الصيد ، وهي الاغنية الاثيرة في قلبه :
حينما في المساء
يأخذ الثلج يهطل . . .

كان العم يعني كما يعني الشعب ، مقتنعا ذلك الاقتناع الكامل الساذج بأن الكلام وحده هو الشيء الهام في الاغنية ، وان اللحن ينضاف الى الكلام انضيفا من تلقاء نفسه ، وأن لا لحن يقوم بذاته ، وان اللحن انما وجد للوزن لا غير . فلذلك كان غناؤه الذي صدح به على غير وعي وشعور كما يغرّد عصفور ، غناء يبلغ غاية الجمال ، فالتفت ناتاشا حماسة ، وقررت أن تترك العزف على آلة « الهارب » ، وأن لا تعزف بعد اليوم الا على القيثارة ، وطلبت من العم أن يناولها قيثارته ، وسرعان ما استطاعت أن تخرج منها نعمات ترافق بها الغناء .

وفي نحو الساعة العاشرة وصلت عربتان وثلاثة فرسان لآخذ ناتاشا وبيتيا . وقال أحد الفرسان ان الكونت والكونتيسة كانا لا يعرفان أين ناتاشا وبيتيا ، فقلقا عليهما قلقا شديدا .

حمل بيتيا ووُضع في احدى العربتين وهو ما يزال غارقا في نوم
ثقيل . وركب نيقولا وناشأ العربية الثانية . ودثّر العم ناشا وودّعها
بحنان كبير وعاطفة جائشة . ورافق الركب سائرا على قدميه الى الجسر
الذي كان يجب الالتفاف عليه ليقطعوا النهر خوفا ، وأصدر أمره الى
صيّاديه أن يستقوهم بصايح .

وصاح صوت العم يقول في الظلام :
— استودعك الله يا ابنة أخي العزيزة !

ولم يكن صوته في تحية الوداع هذه ذلك الصوت الذي كانت
تعرفه ناشا ، وانما كان هو الصوت الذي صدح به مغنيا : « حين في
المساء ... » .

كانت أضواء حراء تسطع في القرية التي اجتازوها ، وشموا فيها
رائحة دخان جذلي . فلما وصلوا الى الطريق الكبيرة ، قالت ناشا :
— يا لهذا العم من أعجوبة رائعة !

فقال نيقولا :

— حقا . ألا تشعرين بيرد ؟

قالت ناشا كالمدهوشة هي نفسها :

— لا ، أنا في خير حال ، في خير حال .

ولزما الصمت مدة طويلة .

كانت الليلة حالكة الظلام رطبة . وكانت الخيل لا تثرى ولكن
يُسمع خوضها في الوحل .

ما الذي كان يحدث في نفس تلك النفس الطفلة ، المنفتحة لكل

شيء ، تدرك وتمثل في نهم وشراسة ، أكثر الاحساسات تنوعا ؟ كيف يلتقي فيها ويتصالح فيها هذا كله ؟ المهم أنها كانت سعيدة سعادة كبيرة . وما ان أوشكوا أن يصلوا الى المنزل حتى صدح صوتها مغنيا على حين فجأة : « حينما في المساء ، يأخذ الثلج يهطل ... » • لقد ظلت طوال الطريق تبحث عن اللحن حتى اهتدت اليه •

قال نيقولا :

— اهتديت اليه أخيرا ؟

فسألته ناتاشا :

— في أي شيء كنت تفكر اللحظة ؟

كان الاخ وأخته يجبان أن يتطارحا هذا السؤال •

فقال نيقولا محاولا أن يتذكر :

— أنا ؟ آ ... نعم ... فكرت أولا في أن « روجاي » هذا الكلب الاحمر ، يشبه العم ، فلو كان هو الرجل وكان العم هو الكلب ، لاحتفظ به في منزله ، ان لم يكن في سبيل الصيد ، فبسبب ما بينهما من حسن التفاهم • ما أسهله عيشا ، هذا العم ! أليس كذلك ؟ وأنت ؟ في أي شيء كنت تفكرين ؟

— أنا ؟ انتظر • آ ... نعم ... فكرت أولا في أننا ظانون أننا عائدون الى المنزل ، ولكننا في حقيقة الامر ماضون في هذا الظلام الى حيث لا يدري الا الله ، وأننا واصلون فجأة الى مكان ليس هو أوترادنويا بل هو أرض مسحورة • ثم فكرت أيضا ... لا ... لم أفكر في شيء ...

فقال لها نيقولا مبتسما (وقد حذرت ناتاشا من نبرة صوته أنه مبتسم) :

— بل لاشك أنك فكرت « فيه » •

فقالت ناتاشا نافية :

— لا •

ولكنها في حقيقة الامر كانت قد فكرت في الامير آندره أيضا ،
وتساءلت هل تراه يُعجبه العم • وأردفت تقول :

— آآآ • وكنت طول الطريق أتصور أيضا آنيسيا فيدوروفنا

فأقول لنفسي : « ما أحسن عنايتها بنفسها ! » •

وسمع نيقولا ضحك أخته ينطلق في الظلام رنانا وضاحا سعيدا
لاتكلف فيه ولا اصطناع •

واستأنفت ناتاشا كلامها فجأة تقول :

— أحس أنني لن أنعم في يوم من الايام بمثل ما أنعم سعادة وهدوءا

فقال نيقولا محتجا :

— كفاك سخافات وترهات !

ولكنه قال بينه وبين نفسه في الوقت ذاته : « ما أروع ناتاشا هذه !

ليس لي ولن يكون لي صديق مثلها في يوم من الايام • ما حاجتها الى

الزواج ؟ لسوف نظل نقوم برحلات صيد بهيجة كرحلة هذا اليوم ! » •

وكانت ناتاشا تقول لنفسها أيضا : « ما أروعه ، نيقولا هذا ! » •

وقالت وهي تومئ الى نوافذ المنزل التي كانت تتلأأ فرحة في ظلام

الليل الرطب المخملي :

— آآآ • ما يزال الصالون مضاء !

الفصل الثامن

كان الكونت ايليا آندريئتش قد تنازل عن منصب مارشال الطبقة النبيلة ، وهو منصب كان يكلفه نفقات طائلة • ولكن حالته المالية ظلت سيئة لا تتحسن وكثيرا ما فاجأ نيقولا وناتاشا أحاديث سرية قلقة تدور بين أبويهما ، حتى لقد سمعا كلاما عن بيع المنزل الفخم الذي ورثته الاسرة عن الآباء والاجداد في موسكو ، وعن بيع الاملاك التي تقع في ضواحي موسكو •

أصبح الكونت ، وقد ترك منصب مارشال النبالة ، في غير حاجة الى اقامة حفلات استقبال ضخمة ، وأصبحت الحياة في أوترادونيا أهدأ مما كانت عليه في السنين السابقات • ولكن المنزل الكبير والاجنحة التي تقوم في الحوش ، ماتزال ملأى بالناس ، وما يزال عدد الذين يطعمون على مائدة الكونت يربو على عشرين شخصا فهم من أصبحوا منذ عهد بعيد من سكان المنزل ، حتى لكأنهم من أفراد الاسرة ، ومنهم من كان يبدو أنهم لا يستطيعون أن يتخلوا عن المعيشة في هذه الدار، كالموسيقي ديملر وامراته ومعلم الرقص فوجل وامراته ، والآنسة العجوز بيلوف ، وآخرون كثيرون كمعلمي بيتيا ، وخادمة عجوز من خادومات البنات ، ومنهم أناس يرون أن المعيشة في منزل الكونت أمتع أو أربح من المعيشة

في بيوتهم • وقد قلَّ تدفق الزائرين ، ولكن طراز الحياة بقي على حاله لم يتغير ، وكان الكونت والكوتيسة لا يتصوران للحياة طرازا آخر • فلا يزال للأسرة ركب الصيد الذي كانت تملكه ، حتى لقد زاد نيقولا عدده : لا تزال الخيول خمسين ، ولا يزال السائسون في الاسطبل خمسة عشر ؛ وما تزال الاسرة تهدي هدايا باهظة الثمن في الاعياد ، وما تزال تقيم في هذه المناسبات حفلات عشاء كبرى تدعو اليها وجوه القوم في المقاطعة كلها ، وما تزال موائد القمار بلعبة الويست والبوستون تُمَدَّدُ ويشارك فيها الكونت تاركا للجميع أن يروا أوراقه ، فيربح منه جيرانه في كل مرة مئات الروبلات ، حتى أن هؤلاء أصبحوا يعدون المقامرة مع الكونت ايليا أندريتشش موردا من موارد ربحهم •

أصبح الكونت يتخبط في شئون أعماله تخبطه في شبكة واسعة ، محاولا أن يوهم نفسه بأنه لا يتخبط ، وهو في حقيقة الامر يزداد تعثرا وارتابا في كل خطوة يخطوها ، فلا يشعر بأنه قادر على قطع هذه الشبكة التي أصبح سجينها ، ولا بأنه قادر على أن يشرع في فك حبالها بأناة وروية وصبر • وكانت الكوتيسة ، ذات القلب المحب الحنون ، تحس بأن أولادها مهددون بالدمار ، ولكنها لا تؤاخذ الكونت فهو ليس مذنباً ، وهو يشعر بخرابه وخراب أولاده فيتألم من ذلك وان أخفى ألمه ، فكانت تحاول بجميع الوسائل أن تجد من هذه الحال مخرجا ، فلم يعرض لها — وهي المرأة — الا حل واحد ، هو أن يتزوج نيقولا فتاة غنية • كانت تحس أن هذا هو الامل الاخير ، فان رفض نيقولا الفتاة التي وقع عليها اختيارها زوجة له ، فلا أمل في أن تصلح حال الاسرة أبدا • وكانت جوليا كاراجين هي الفتاة التي وقع عليها اختيار

الكوتيتيسة وطمعت فيها زوجة لابنها : انها فتاة ممتازان فاضلان ، يعرفها آل روستوف منذ طفولتها ، وقد أصبح لها ميراث ضخم بعد أن توفي آخر اخوتها •

كتبت الكوتيتيسة للسيدة كاراجين رأسا ، وبعثت الرسالة الى موسكو ، تعرض عليها هذا القران بين ابنتها وابنها ، وتلقت من السيدة كاراجين جوابا مرضيا • قالت السيدة كاراجين انها من جهتها موافقة ، وان الامر كله رهن بميل ابنتها ، ودعت فيقولوا أن يجيء الى موسكو •

وكانت الكوتيتيسة قد قالت لابنها مرارا ، والدموع تترقق في عينيها ، ان رغبتها الوحيدة بعد أن استقرت حال ابنتها في أمر الزواج هي ان تراه وقد تزوج ، فتموت قريرة العين مطمئنة النفس • ثم صارحته بأنها قد اختارت له فتاة رائعة ، وحاولت أن تعرف ما يدور في رأسه من أفكار بصدد الزواج •

وكانت في اوقات اخرى تمدح جوليا وتثني عليها ثناء عاطرا ، وتنصح فيقولوا بأن يذهب الى موسكو يسرى عن نفسه ويتسلى بمناسة الاعياد • فكان فيقولوا يحزر ما تنويه أمه ، وما تريد أن تنتهي اليه ، واستطاع ذات مرة في اثناء حديث بينهما ان يجر امه الى الافصاح عما تخفيه افصاحا صريحا ، فقالت له أن الامل الوحيد في اصلاح أحوال الاسرة هو ان يتزوج جوليا كاراجين • فما كان منه الا ان سأل امه دون ان ينتبه الى قسوة السؤال ، ودون ان يهسه الا يظهر نبل نفسه :

ماذا ؟ أتظلين مني يا ماما ، اذا كنت أحب فتاة لا ثروة لها ، أن أضحي في سبيل المال بعاطفتي وشرفي ؟

فقلت الام مرتبكة وهي لا تعرف كيف تبرر كلامها :

— لا ، انك لم تفهم عني • لم تفهم عني يانيقولا •

ثم اضافت تقول وهي تحس انها لا تصدق وانها تورطت :

— انا اريد سعادتك !

واجهشت تبكي •

اسرع نيقولا يقول لها :

— ماما ، لا تبكي ، يكفي أن تعلمي لي رغبتك حتى اضحي بحياتي

كلها • انني مستعد لكل شيء في سبيل ان تهدئي بالا وتقرى نفسا • انني

مستعد لان اضحي في سبيلك حتى بعاطفتي •

ولكن الكوتيسة كانت لا تفهم الامر على هذا النحو :

انها لا تريد أن يضحي ابنها بنفسه ، وانها لتود لو تضحي هي

بنفسها في سبيله •

قالت وهي تجفف دموعها :

— لا ، انك لم تفهم عني • فلا تتكلم في هذا الامر بعد الان •

وحدث نيقولا نفسه قائلا : « نعم ، يمكن ان احب فتاة فقيرة ،

فهل يجب علي في هذه الحال ان اضحي في سبيل المال بعاطفتي وشرفي ؟

يدهشني ان تقول لي امي هذا الكلام • انذا كانت صونيا فقيرة ،

يحرم علي أن أحبها ، ويحرم علي أن أستجيب لما تحمله لي من حب

زاخر بالوفاء والاخلاص والتفاني • لا شك في انني سأكون معها أسعد

مني مع دمية مثل جوليا • هبني مستعدا لان أضحي في سبيل ابوي

بعواظي ، ولكنني لا أستطيع أن أقمع هذه العواطف • اذا كنت أحب

صونيا ، فان هذه العاطفة هي عندي أقوى من كل شيء وأجل شأنًا
من كل شيء . » •

ولم يذهب نيقولا الى موسكو ، وكفت الكوتتيسة عن محادثته في
امر الزواج ، ولكنها اخذت تلاحظ ، وهي تشعر بحزن شديد ، وتشعر
أحيانا بغيظ قوي ، علاقات تقارب متزايد بين ابنها وبين صونيا ، الفتاة
التي لا تملك مهرا . وكانت تأخذ على نفسها انها لا تستطيع ان تمسك
عن مشاكسة صونيا والتذمر منها ، وعن توبيخها وتقريعها في كثير من
الاحيان ، وعن جرح شعورها بسخاطبتها بصيغة الجمع ، وقولها لها
« ايتها الأنسة العزيزة » • وكان ما يحقن الكوتتيسة الطيبة على صونيا
أكثر من أي شيء آخر هو أن هذه القرية الفقيرة ذات العينين السوداوين
كانت عذبة رقيقة طيبة مخلصمة وفيه تحمل لهؤلاء الذين أحسنوا اليها
أعمق عواطف العرفان بالجميل ، وتحب نيقولا حبا بلغ من الثبات
والتفاني انها لا يسكن أن يؤخذ عليها شيء .

وكان نيقولا في نهاية اجازته عند أهله . وكان الامير آندره قد بعث
برسالة رابعة من روما يقول فيها انه لولا أن جرحه قد انتكأ فجأة بتأثير
حرارة الجو ، فأصبح مضطرا الى البقاء في الخارج حتى مطلع العام
القادم ، لكان الآن في طريق عودته الى روسيا . ان ناتاشا ما تزال تحب
خطيبها ، وما تزال سعيدة بهذا الحب ، وما تزال منفتحة النفس لجميع
أفراح الحياة ومباهجها . ولكنها في نهاية الشهر الرابع الذي انقضى على
الفراق ، اعترتها نوبات حزن لم تستطع أن تنالها . كانت تأخذها
بنفسها شفقة ، وتأسف على هذا الوقت الذي ينقضي ويضيع هباء ،
بينما هي تشعر بقدرة هائلة على أن تحب وأن تحب .

أصبح المرح لايسود منزل آل روستوف .

الفضل التاسع

حالت أعياد الميلاد ، فلم تتميز بشيء خاص ، سوى القداس الفخم الذي أقيم لها ، والمعايدات المتصنعة والتمنيات المملة التي أزجها الجيران والخدم ، والثياب الجديدة التي لبسها الجميع . ولكن هذا البرد الذي بلغ عشرين درجة تحت الصفر^(١) بلا رياح ، وهذه الايام الوضاعة التي يغمرها نور الشمس ، وهذه الليالي الجميلة التي تتلألأ في سماءها النجوم كانت تحض المرء على أن يحتفل بهذه الفترة من السنة بطريقة من الطرق .

تفرَّق الجميع في اليوم الثالث من أعياد الميلاد ، هذا هو الوقت الذي يثقل فيه الضجر على النفس اكثر من أي وقت آخر . وكان نيقولا قد قام في الصباح بزيارة عدد من الجيران ، ثم نام في غرفة التدخين ، وكان الكونت يستريح في مكتبه . وكانت صونيا جالسة الى المائدة المستديرة في الصالون تنقل رسما من الرسوم . وكانت الكونتيسة تصف ورق اللعب منجّمة مبصّرة . وكان ناستاسيا ايفانوفنا ، المهرّج ، يجالس امرأتين عجوزين عابس الوجه حزين الهيئة .

دخلت ناتاشا على صونيا ونظرت الى ما تفعله ، ثم ذهبت الى أمها ووقفت صامتة . قالت لها أمها :

(١) ٢٠ رينامور ، أي - ٢٥ سيلْيوس .

— ما بالك تطوفين كالروح الهائمة المعذبة ؟ ماذا تريدين ؟

فأجابت ناتاشا ساطعة العينين لا تبتمس :

— « هو » من أريده حالا ! « هو » من أحتاج اليه في هذه اللحظة نفسها ! لا بد لي « منه » •

فرفعت الام رأسها تحدق الى عيني ابتتها • فقالت ناتاشا :

— لا تنظري اليّ هذه النظرة يا ماما ، لا تنظري اليّ هذه النظرة ،
والا ظفرت الدموع من عيني حالا •

قالت الكونتيسة :

— اجلسي ، اجلس بقربي قليلا •

— ماما ، انه « هو » من أحتاج اليه • لماذا يجب عليّ أن أبعثر حياتي
هذه البعثرة يا ماما ؟

واختلج صوتها ، وانبجست دموع من عينيها ، فأسرعت تشييح
وجيها اخفاء لدموعها ، وخرجت •

ذهبت الى غرفة التدخين ، فترددت لحظة تفكر ، ثم مضت الى
غرفة الخادومات • كانت امرأة عجوز في غرفة الخادومات تفرع فتاة وصلت
من حجرات الخدمة راكضة لاهثة ، وتقول :

— كفى تسلية • لكل شيء أوانه •

فقالت ناتاشا :

— دعيها يا كوندراتيفنا ! اذهبي يا مافردشكا ، اذهبي !

وبعد أن انقذت مافروشكا ، اجتازت ناتاشا صالة حفلات الرقص ،

واتجهت الى حجرة المدخل • كان في حجرة المدخل خادم شيخ وخادمان شابان يلعبان بالورق • فما أن رأوا مولاتهم الشابة داخلة عليهم حتى قطعوا لعبتهم ، وهبوا واقفين •

تساءلت ناتاشا : « ما الذي يمكنني أن استخدمهم فيه ؟ » ثم لم تلبث أن قالت :

— نيكيتا ، أرجوك أن تذهب الى ••

وتساءلت : « الى اين يمكن أن أرسله ؟ » ، ثم اردفت :

— اذهب الى حجرة الخدمة ، وائتني بديك^(١) • نعم ، وأنت ياميشا جئني بشوفان •

فقال ميشا سائلا بلهجة فرحة تدل على اغتباطه بالقيام بهذه الخدمة :

— بقليل من الشوفان لا بكثير ؟ أليس كذلك ؟

فقال العجوز مؤمنا :

— اذهب ، اذهب بسرعة •

وقالت ناتاشا :

— وأنت يا فيدور ، ابحث لي عن طبشورة •

وحين مررت بغرفة الخدمة ، أمرت فوكا بأعداد سماور الشاي ، رغم

أن الاوان ليس أوان الشاي •

(١) في الريف تمتد أعياد الميلاد الى القطاس : ففي هذه الفترة تقام حفلات تنكرية ، وحفلات رقص ، وتتنبأ البنات بالمستقبل على العادات القديمة : يؤتى بديك وشوفان ، ويكون على الديك أن ينقر الشوفان مؤشرا عليه بطباشير ، ويداب شمع (انظر ص ٢٥٩) ، وتذهب البنات تسأل المستقبل في قاعة الحمام المقفرة (انظر ص ٣٦١) باحثة عن طيف الخطيب التي سيخطبها في انعكاس مرآتين متقابلتين (انظر ص ٣٦٥) ، الخ •

ان خادم المائدة فوكا هو أكثر سكان المنزل تجهما وفضاظة • وكان يحلو لئاتاشا أن تمارس عليه سلطتها • فلم يصدق أذنيه ولم يأخذ أمرها مأخذ الجد الا بعد أن أكدته له • فقال وهو يتصنع العبوس :

— آه ••• هذه الآنسة •

ما كان أحد من أرباب المنزل يكلف الخدم بمهمات كثيرة ، مثل ناتاشا • فما ان يقع بصرها على أحد منهم حتى ترسله في مهمة الى مكان من الامكنة • فكأنها تريد أن ترى هل يضيق أحد ذرعا بأوامرها ، وهل بتلكا في تنفيذها أو يعصاها • ولكن الخدم كان يسرهم أن ينفذوا وأوامرها أكثر مما يسرهم أن ينفذوا وأوامر أي شخص آخر في المنزل •

وتساءلت ناتاشا وهي تتابع سيرها في الدهليز : « ماذا يمكنني ان أفعل أيضا ؟ أين يمكن أن أذهب ؟ » •

وبينا هي سائرة في الدهليز ببطء اذ رأت المهرج ناستاسيا ايفانوفنا مقبلا عليها بجلبابه الفضفاض ، فقالت تسأله :

— ما عسى ألد يا ناستاسيا ايفانوفيا ؟

— أنت براغيث يعاسيب ، جداجد •••

قالت ناتاشا محدثة نفسها : « يا الهي ، يا الهي ، كل شيء على حاله لم يتغير • آه ••• أين أذهب ؟ »

وأخذت تصعد السلم المؤدي الى فوجل الذي يقيم هو وامراته في الطابق الاعلى ، أخذت تصعد السلم تقطع الدرجات أربعا أربعا وتحدث ضجة شديدة • كانت المريتتان عنده ، وكانت المائدة مثقلة بأطباق الزبيب والجوز واللوز • وكانت المريتتان تقارنان بين أسعار المعيشة بموسكو وأسعار المعيشة بأوديسا •

جلست ناتاشا تسمع الحديث عابسة الهيئة شاردة الفكر ثم قامت وهي تقول :

— مدغسقر ... مد ... غسقر ...

نظت باسم مدغسقر وكررت ، مبرزة كل حرف من أحرفه ، دون أن تجيب عن اسئلة مدام شوس التي سألتها ماذا تقول . وانصرفت وكان أخوها بيتيا في ذلك الطابق أيضا ، يحضّر بمساعدة معلمه الاسهم النارية التي ينوي اطلاقها في الليل . هتفت تقول له :

— بيتيا ، بيتيا ، احبني على ظهرك ، وانزلي الى تحت . فهرع بيتيا اليها وحنى لها ظهره ، فوثبت الى ظهره ، وأحاطت بذراعيها عنقه ، وأخذ بيتيا يهبط بها السلم راكضا متواثبا .

فقالت ناتاشا قبل أن يصل بها الى آخر السلم :

— كفى هذا . لاداعي .

وعادت تكرر قولها :

— مدغسقر .

ووثبت عن ظهره تهبط بقية درجات السلم .

وكأن ناتاشا أنهت الطواف في أرجاء مملكتها ، وأحست بمالها من نفوذ وسطوة وسلطان ، وتأكدت أن الناس جميعهم طيعون خاضعون ، وأن هذا كله لا ينبغي أن ضجرا شديدا يخيم على هذه المملكة ، فذهبت الى الصالون الكبير، وتناولت القيثارة، وجلست في ركن معتم وراء خزانة صغيرة ، وأخذت تنقر الاوتار الجهيّرة من القيثارة ، محاولة أن تعزف جملة موسيقية من مسرحية اوبرا كانت قد سعتها في صحبة الامير أندره

في بترسبرج • فلو سمع شخص آخر ماعزفته لما كان له في نظره أي معنى ولا كان له في نفسه أي وقع ، ولكن هذه الاصوات التي اخرجتها من أوتار القيثارة قد بعثت في خيالها عالما كاملا من ذكريات • كانت ، وهي جالسة وراء الخزانة الصغيرة محدقة الى شعاع من ضوء ساقط من باب غرفة الخدمة ، تصغي الى عزفها وتذكر • كانت تعيش الماضي مرة أخرى •

واجتازت صونيا الصالون ذاهبة الى « الاوفيس » حاملة بيدها كأسا • فرغت ناتاشا عينيها تنظر اليها وتنظر الى شق الباب ، فبدا لها سقوط شعاع النور من شق الباب ومرور صونيا بكأسها ، جزءا مما كانت تتذكره • وقالت لنفسها : « نعم ، حدث هذا على هذا النحو تماما وصرخت ناتاشا وهي تضرب الوتر الغليظ :

— صونيا ! ما هذا الذي اعزفه ؟

فارتعشت صونيا وقالت :

— آ ... أنت هنا ؟

وأقبلت عليها ، وأخذت تصغي ، ثم قالت تسألها في خجل ووجل ، خائفة أن تخطيء :

— لا أدري أهو « العاصفة » ؟

قالت ناتاشا محدثة نفسها : « نعم ، على هذه الصورة تماما ارتعشت وعلى هذه الصورة تماما أقبلت علي ، وعلى هذه الصورة تماما ابتسمت خجلة وجلة حين حدث هذا كله أول مرة • وعلى هذه الصورة تماما انما قلت أنا لنفسي ما أقول الآن من أنها محتاجة الى شيء قطعاً » •

وقالت ترد على صونيا :

— لا ، ليس ما أعزفه هو « العاصفة » ، بل هو غناء الجوقة في حامل الماء » (١) .

ومن أجل أن تقنع صونيا بذلك غنّت اللحن الى آخره ثم سألتها :
— الى أين كنت ذاهبة ؟

— كنت أريد تغيير ماء الكأس . سأنهى رسمتي بعد قليل .
قالت ناتاشا :

— أنت تعرفين دائما كيف تشغلين نفسك بشيء ، أما أنا فلا أعرف...
أين نيقولا ؟

— أظن انه نائم .
قالت ناتاشا :

— فاذهبي وأيقظيه ، وقولي له أن يأتي اليّ ليغني معي .
ثم غاصت في ركنها وتساءلت كيف أمكن أن يحدث هذا كله من قبل ، فلم تفلح في الاجابة عن هذا السؤال ، ولكن ذلك لم يؤنسها ، وعادت تنتقل بخيالها الى العهد الذي كانا فيه معا ، وكان ينظر اليها بعينين تلتهبان حبا .

قالت محدثة نفسها : « آه ... ألا فليرجع بسرعة . اني لخشى كثيرا أن لا يتم زواجنا . وأنا مع ذلك اتقدم في السن وأشيوخ . فلن أكون في المستقبل ، أنا الان . ولكن قد يصل اليوم . قد يصل في الحال . ولعله فهو الآن في الصالون . بل لعله وصل بالامس ونسيت أنا ذلك . »
وقامت ، فوضعت القيثارة وذهبت الى الصالون . كان الجميع قد

(١) اوبرا ألفها شيروبيني سنة ١٨٠٠ .

جلسوا الى مائدة الشاي ، معلمين ومرييات وأسرة وزوارا . وكان الخدم واقفين في أماكنهم • ولكن الامير آندره لم يكن هناك ، والحياة ماتزال كما كانت •

قال ايليا آندرئتش حين رأى ابنته داخلة :

— آآآ هاهي ذي ! هلمي • اجلسي بجانبني •

ولكن ناتاشا وقفت بقرب أمها ناظرة حوالها كأنها تبحث عن شيء • ثم قالت متوسلة ضارعة :

— ماما ! هاتيه لي ، هاتيه لي حالا ، حالا •

ومرة أخرى لم تستطع أن تحبس نشيجها الا بكثير من المشقة • وجلست الى المائدة ، وأنصت الى محادثات الكبار ، والى حديث نيقولا الذي جاء هو أيضا • فقالت تحدث نفسها : « يا الهي ! الوجوه نفسها ، المحادثات نفسها ، بابا الذي يمسك فنجانه بنفس الطريقة ، وينفخ عليه نفس النفخ ! » وهالها أن تحس أن اشمئزازا شديدا من جميع سكان المنزل قد ملأ نفسها ، لانهم ما يزالون هم انفسهم •

وبعد العشاء مضت ناتاشا وصونيا ونيقولا الى غرفة التدخين يلودون بركنهم المفضل فيها ، وهو الركن الذي كانت تدور فيه بينهم الاحاديث الصميمة •

الفصل العاشر

قالت ناتاشا تسأل أخاها حين استقروا في غرفة التدخين :

— هل يحدث لك ، هل يحدث لك أن تحس أنه لن يكون شيء ، لن يكون شيء البتة ، وأن السعادة التي يمكن أن تنعم بها قد نعمت بها وانتهى زمنها ، فهي من الماضي ، فينتابك عندئذ حزن ، حزن لاضجر؟ فأجاب نيقولا :

— طبعاً . تكون الامور في بعض الاحيان على أحسن حال ، ويكون جميع الناس فرحين جذلين ، فإذا أنا أشعر فجأة باشمئزاز من هذا كله ، وأفكر في أن البشر جميعاً صائرون الى الموت . حين كنت في الجيش ، رفضت المشاركة في نزهة ، وكان في النزهة مع ذلك موسيقى ، فالى هذا الحد كان الضجر قد استبد بنفسي وملاً جوانحي ...

واستأنفت ناتاشا كلامها فقال :

— آ ... أعرف انني انا هذا . أعرفه . أعرفه . كنت طفلة حين حدث لي . هل تتذكر ؟ لقدعاقبوني ذات يوم بسبب ثمار خوخ لها قصة . وكنتم ترقصون جميعاً ، وكنت أنا في قاعة الدروس ، وكنت أذرف دموعاً حارة . لن أنسى هذا ماحييت : كنت حزينة ، وكنت أرثي لحالكم أرثي لحالي ، وأرثي لحالكم جميعاً . وكان يحزنني خاصة انني لم أكن فد أذنبت . هل تذكر ؟

قال نيقولا :

— نعم • وأذكر انني ذهبت بعدئذ اليك أريد أن أواسيك وأعزيك ،
ولا أعرف كيف أفعل • كنت اشعر بخجل • وكنا مضحكين كلانا ،
مضحكين جدا • كانت معي دمية صغيرة ، فأردت أن أهديها اليك ، هل
تذكرين ؟

قالت ناتاشا وهي تبسم ابتسامة حاملة :

— وهل تذكر أن عمنا نادانا يوما الى مكتبه ، وكنا صغارا جدا ،
فقد حدث هذا منذ زمان بعيد ، وكنا في المنزل القديم ، وكان الظلام
دامسا ، فما ان دخلنا عليه ، حتى رأينا على حين فجأة ...
— زنجيا ...

— كذلك أكمل نيقولا جملة أخته مبتسما ابتسامة فرحة ، وواصل
كلامه قائلا :

— كيف لا أذكر هذا ؟ واني حتى هذه اللحظة لا أدري أكان في
المكتب زنجي حقا ، أم أننا رأينا ذلك حلما في النوم ، أم أن الامر كله
حكاية حكيت لنا ...

— كان كالرماد الداكن لونا ، وكانت اسنانه بيضاء ناصعة البياض ،
وكان ينظر الينا ...

قال نيقولا سائلا :

— هل تذكرين يا صونيا ؟

فأجابت صونيا في خجل :

— نعم ، نعم ، أذكر ذكرا غامضا •

قالت ناتاشا :

— حدثت عن هذا الزنجي بابا وماما • فقلا انه لم يكن هناك زنجي قط • ولكنك تذكر طبعاً ؟

— كيف لا اذكر ؟ اني لاذكر أسنانه البيض كأني رأيت بالامس •

— ما أغرب هذا ! لكأنه حلم ! ذلك ما يعجبني في الامر كله •

— وهل تذكرين يوم كنا ندرج بيضا في صاله الرقص ، فاذا بامرأتين عجوزين تنبجان فجأة ، وتأخذان تدوران حلقة على السجادة أحدث هذا أم لا ؟ أتذكرين كم ذلك رائعا ؟

— نعم ، وهل تذكر يوم أطلق بابا رصاصا من على درجات الباب وهو مرتد فروته الزرقاء ؟

هكذا راح الاخ واخته يستعرضان ذكريات ليست هي ذكريات الشيوخ الحزينة ، بل هي ذكريات الشباب الشعرية ، انها ذكريات هي احساسات الماضي البعيد يمتزج فيها الحلم بالواقع ، فكانا وهما يستعرضان هذه الذكريات يضحكان ضحكا عذبا ، ويشعران بفرح لا يعرفان سببه •

وبقيت صونيا كالمتنحية ، رغم أن ذكرياتهم مشتركة • كانت صونيا قد نسيت كثيرا من الامور التي كانا يستعرضان ذكرياتها ، وكان ما تتذكره منها لا يوقظ في نفسها تلك العاطفة الشعرية التي كان الاخ والاخت يحسانها • ولكنها كانت مبتهجة بفرحهما ، وكانت تحاول أن تضع نفسها في جوّهما •

ولم تشارك في الحديث الا حين استعرضا ذكرى وصولها الى المنزل فروت كيف أنها خافت من نيقولا ، لان سترته الصغيرة كانت مزدانة

بزخارف في عراها ، وأن خادمتها أرادت أن ترعها فقالت لها أنها ستعلق في السترة مع هذه الزخارف •

قالت ناتاشا :

— وأنا قليل لي انك ولدت تحت نبتة يخنة ، وأذكر أيضا أنني لم أجرو أن لا أصدق هذا الكلام ، ولكنني كنت أعلم أنه غير صحيح ، وشعرت من ذلك بضيق شديد •

وفيما كانوا يديرون هذه الاحاديث ، مدت امرأة رأسها من شق الباب الموجود في آخر الغرفة وقالت همسا :

— جيء بالديك يا آنسة •

— فأجابت ناتاشا :

— لم تبق لي به حاجة يا بوليا • فليرد •

وفي أثناء ذلك دخل ويملر ومضى الى آلة « الهارب » التي كانت في ركن ، فزرع عنها غطاءها ، فأخرجت « الهارب » صوتا نشازا •

وسمعت صوت الكونتيسة تقول من الصالون :

— ادوارد كارلتش ، أرجوك أن تعزف « ليلية » فيلد^(١) الاثيرة

عندي •

فنقر ديملر الاوتار ، وقال وهو يلتفت الى ناتاشا وصونيا ويقولان :

— ما أهدأ الشباب !

(١) جون فيلد (١٧٨٢ - ١٨٢١) ، ولد في دان ، وهو ملحن كبير وعازف بيانو ، أقام بروسيا منذ سنة ١٨٢١ مريبا ، ومؤلف « ليليات » ، وكونشرتات للبيانو .

فقلت ناتاشا وقد أدارت رأسها لحظة واستأنفت الحديث :

— نعم ، اننا نتكلم في أمور فلسفية ، وكنا نتحدث الان عن الاحلام .
وأخذ ديملر يعزف • فاقتربت ناتاشا من الطاولة صامتة سائرة على
رءوس الاصابع ، وتناولت الشمعة ، وحملتها عائدة بها الى حيث كانت .
كان الظلام يخيم على الغرفة ، ولاسيما في الركن الذي جلسوا فيه على
الديوان ، ولكن شمعا فضا كان يسقط على أرض الغرفة من القمر
الذي كان بدرا •

قالت ناتاشا مدممة وهي تقترب من نيقولا وصونيا ، بينما كان
ديملر ، بعد أن أنهى المعزوفة ، يتساءل أيجب عليه أن يقف عن العزف
أم يجب عليه أن يبدأ معزوفة أخرى ، وهو ما يزال يطوف بأصابعه على
أوتار « الهارب » :

— هل تعلمون ماذا يخطر ببالي ؟ يخطر ببالي أننا من فرط ما نحرك
الذكريات مدة طويلة ، طويلة جدا ، نصل الى تذكر أمور حدثت قبل أن
نولد نحن ...

فقلت صونيا التي كانت تلميذة مجتهدة دائما ، وكانت ذاكرتها آمنة
— هذا هو التقمص أو تناسخ الارواح • لقد كان قدماء المصريين
يعتقدون بأن أرواحنا كانت من قبل أرواح حيوانات ، وأنها بعد موتنا
تحل مرة ثانية في حيوانات •

قالت ناتاشا بصوت ما يزال دمدمة خافتة ، رغم أن الموسيقى
صمتت :

— لا أظن أننا كنا حيوانات ، بل يقيني أننا كنا ملائكة هناك ،
في مكان ما ، وهنا أيضا ، وأنا بسبب ذلك انسا تتذكر كل شيء ...

قال ديمر يسأل وقد اقترب بغير ضجة وجلس بقربهم :

— هل يمكنني أن أنضم اليكم ؟

وقال يقولون :

— لو صح أننا كنا ملائكة فلماذا هبطنا الى أسفل ؟ لا ، ليس ما تقولينه معقولا .

— لم نسقط الى أسفل . من قال لك اننا أدنى مما كنا ؟ أين لي أن أعرف ماذا كنت من قبل ؟ اذا كانت النفس خالدة ، واذا كنت ساحيا الى الابد ، فانه يترتب على هذا اني حييت الازل كله .

كذلك قالت ناتاشا بحرارة واقتناع . فقال ديمر الذي انضم الى الشباب وهو يتسم ابتسامة خفيفة فيها معنى التواضع ، ولكنه يتكلم الآن مثلهم بهدوء وجد :

— نعم ، ولكن يصعب علينا أن نتصور السرمدية التي تمتد من الازل الى الابد .

فقال ناتاشا :

لِمَ يصعب ذلك ؟ بعد اليوم سيكون الغد ، وقبل اليوم كان الامس ، وهكذا يمتد الزمان الى الازل ويمتد الى الابد .

وسمعت صوت الكوتيسة تقول :

— ناتاشا ! جاء دورك الآن . غنّي لي شيئا . ماذا تفعلون هناك كأناس اجتمعوا لتدبير مؤامرة ؟

قالت ناتاشا :

— ماما ،ليست بي رغبة في الغناء ؛

ولكنها قامت •

لم يكن أحد ، حتى ديسلر الذي ليس الآن شابا ، يجب ان ينقطع هذا الحديث ، وان يترك هذا الركن من غرفة التدخين • ولكن ناتاشا قامت ، ونيقولا جلس الى البيانو • ومضت ناتاشا تقف ، على عاداتها ، في وسط صالة الرقص ، وهو المكان الذي يترجع فيه الصوت أحسن ترجع ، وغنّت الاغنية الاثيرة على أمها •

لقد قالت انها ليس بها رغبة في الغناء ، ولكنها لم تحسن الغناء منذ زمن طويل كما أحسنته في ذلك المساء ، وستظل زمنا طويلا لا تحسنه كما أحسنته في ذلك المساء • وكان الكونت ايليا آندرئتش في مكتبه يكلم ميتسكا ، فسرع غناءها ، فاذا هو يعجّل اصدار أوامره الى وكيله ، كتليد يستعجل الخروج الى اللعب بعد الانتهاء من درس ، ثم يصمت منصتا ، وكان ميتسكا جالسا أمام الكونت ينصت هو أيضا وقد ألت بشفتيه ابتسامة • وكان نيقولا لا يحوّل عن أخته بصره ، ويتنفس حين تنفس • وكانت صونيا تصغي الى الغناء فتفكر في الفرق الكبير بينها وبين صديقتها وتقول لنفسها انها يستحيل عليها أن تملك جزءا مما تسلكه قريبتها من فتنة وسحر • وكانت الكونتيسة العجوز تبتسم وقد بان في وجهها حزن وسعادة في آن واحد ، وكانت دموع تسلا مآقيها ، وكانت تهز رأسها من حين الى حين • كانت تتذكر شبابها ، وتفكر في ابنتها أيضا ، فترى أن زواجها بالامير آندره غير طبعي كثيرا ، وانه محفوف بالمخاطر •

وكان ديسلر قد جلس بقرب الكونتيسة بصغي الى الغناء مغمضا عينيه ، فقال أخيرا :

— هذه موهبة أوروبية يا كوتتيسة ، ليس في ذلك ريب • أصبحت في غنى عن أن تتعلم شيئاً • ما هذه الرخامة ، ما هذه العذوبة ، ما هذه القوة !•••

فقلت الكوتتيسة دون أن يعينها ان تعرف من الذي تكلمه :

— آه ••• ما أشد خوفي عليها ! ما أشد خوفي عليها !

كانت غريزة الامومة فيها تقول لها ان في ناتاشا شيئاً متطرفاً مغالياً ، وان هذا قد يجرمها من أن تكون سعيدة •

ولم تكن ناتاشا قد انتهت من الغناء ، اذا بأخيها بيتيا يقتحم الصالة ، ليعلن بحماسة الفتى الذي لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره ، ان المقنعين قد وصلوا •

فتوقفت ناتاشا عن الغناء بغتةً • وصرخت تقول له :

— غبي !

وأسرعت الى كرسي ، فتهاوت عليه واتفجرت تبكي ناشجة نشيجا بلغ من القوة أنها لم تستطع أن تسترد سيطرتها على نفسها والكف عن البكاء الا بعد مدة طويلة •

قالت مخاطب أمها وهي تحاول أن تبسم ولكن الدموع ما تزال تسيل والنشيج ما يزال يخنقها خنقا :

— ليس هذا شيئاً ذا بال يا ماما • أوكد لك أنه ليس شيئاً ذا بال • كل ما في الامر أن بيتيا روّعني •

وها هم أولاء الخدم ، المقنعون دبةً وأتراكا وخمارين ونساءً من المجتمع الراقى ، مضحكين أو مرعبين ، آتين بالبرد والمرح ، ها هم

أولاد يزدحسون أول الامر في الدهليز خجلين ، ثم يختبئون بعضهم وراء بعض ويلجئون الصالة ، ثم يندفعون في الغناء والرقص والدوران وألعاب عيد الميلاد ، على تردد في البداية ، وبزيد من المرح والاجتماع شيئاً بعد شيء . وبعد أن تعرفت الكونتيسة المقنعين ، وضحكت لتكرهم ، انسلت ذاهبة الى الصالون . وبقي الكونت ايليا أندريتش في الصالة يشجعهم متألق الابتسامة . واختفى الشبان . فما انقضى على اختفائهم نصف ساعة حتى انضمت الى المقنعين سيدة عجوز تحمل سلالاً (هي نيقولا) ثم انضم اليهم تركي (هو بيتيا) ، فنهرج (هو ديسلر) ، ففارس (هو ناتاشا) ، فشركي هو صوفيا ، وكانت ناتاشا وصونيا كلتاهما قد رسما بالنفلين المحروق على وجهيهما شوارب وحواجب .

فلما ظفروا من أولئك الذين لم يكونوا متكرين بدهشة مصطنعة ومدح وافر ، ولما تظاهر هؤلاء بأنهم لم يتعرفوهم ، أحس الشبان بأنهم وقَّعوا في ارتداء هذه الثياب توفيقاً كبيراً ونجحوا نجاحاً باهراً ، فأجبوا أن يراها أناس آخرون أيضاً . وكانت حالة الطرق مستازة فاقترح نيقولا أن يمضي بالجميع في عربته الى العم ، مصطحباً عشرة من الخدم المتكرين . فقالت الكونتيسة معترضة :

— لا ، فيم ازعاج الشيخ ! اذا كان لابد لكم أن تذهبوا الى مكان ما ، فاذهبوا الى آل مليوكوف .

فكانت السيدة مليوكوف ، مع أولادها المختلفة أعمارهم ، ومع مربيات ومعلمين ، تقيم على بعد أربعة فراسخ من منزل آل روستوف . قال الكونت الشيخ متحبساً :

— هذه فكرة حسنة يا عزيزتي . سوف أتكر أنا أيضاً ، فأصبحكم

الى آل مليوكوف . سأعرف كيف أحرّك باشيت^(١) الطيبة هذه وأنشّطها .

ولكن الكوتيسة لم تقبل أن يصحبهم الكونت ، فقد كان موجه الساق طوال الايام الاخيرة . فتقرر أن ايليا آندرئتش لا يمكن أن يذهب ، ولكن اذا وافقت لويز ايفانوفنا (مدام شوس) على مرافقتهم ، فمن الممكن أن تذهب البنات الى منزل آل مليوكوف . وكانت صونيا ، وهي المتحفظة أشد التحفظ ، الخجول أشد الخجل ، أكثر الجميع حماسة في الضراعة الى لويز ايفانوفنا أن لا ترفض .

وكانت ثياب صونيا أنجح الثياب . وكان شاربها وحاجباها فاتنين حقا . وكان الجميع يقولون لها انها جميلة ، فكانت ، على خلاف عاداتها ، تزخر حماسة وحرارة وطاقة واندفاعا . كان صوت^٢ في أعماق نفسها يقول لها ان مصيرها اما أن يتقرر اليوم واما أن لا يتقرر أبدا . كانت في ثياب الرجال التي ترتديها تبدو انسانا آخر مختلفا عنها كل الاختلاف . وقبلت لويز ايفانوفنا ان ترافقهم ، فما انقضى نصف ساعة حتى كانت أربع عربات ترويكاف قد جاءت تصطف أمام درجات الباب مثقلة^٣ بأجراسها وجلالها ، صارخة^٤ بزلاقاتها على الثلج المتجلد .

وكانت ناتاشا أول من أطلق نعمة الفرع بعيد الميلاد ، فاذا بهذا المرح ينتقل من فرد الى فرد ، وما ينفك يشتد مزيدا من الاشتداد شيئا بعد شيء ، حتى بلغ ذروته حين خرج الجمع كله الى الهواء البارد يتخاطبون ويتنادون ضاحكين صارخين ، وركبوا الزلاجات .

(١) صيغة مفرسة لاسم باشا ، وهو تصغير اسم بيلاجيا مليوكوف . ويصدق هذا على اسم ساشينيت الذي سيرد بعد قليل (ص . . .) ، فهو فرنسة^٥ لاسم ساشا ، مصغّر الكسندرا .

كانت اثنتان من عربات الترويكاز زلاجتي سباق ، وكانت الثالثة التي قرُن بعريشها حصان خبَّاب من أورولوف هي عربة الكونت . أما الرابعة فهي عربة نيقولا قرُن الى عريشها حصان صغير أسود كثيف الشعر . وقد بقي نيقولا ، وهو لابس ثوب امرأة عجوز مع زناره ، مرتد فوَّقه معطف الفارس ، بقي واقفا في وسط زلاجته ضاماً أعنتها .

وكان الجو يبلغ من الصفاء أن نيقولا كان يرى في ضوء القصر وركب ديسلر وامرأته ويتتبع زلاجة الكونت ، وتوزع الخدم المتكرون لمعان صفائح المعدن في عُدَّة الخيل ، ويرى بريق نظرات الافراس وهي تلتفت الى المسافرين يصخبون تحت الطنف المعتم فوق درجات الباب . ركب ناتاشا وصونيا ومدام شوس والخادمتان زلاجة نيقولا . على العربتين الآخرين .

صاح نيقولا قائلاً لحوذي أبيه من أجل أن تتاح له فرصة تجاوزه على الطريق :

— تقدمنا يا زاخار .

فتحركت عربة الكونت الشيخ التي ركبها ديملر ومتكرون آخرون ، تحركت صارفةً بزلاقتها التي كان الجليد يلصقها بالثلج ، مجلجلةً بجرسها الجهير . وشدت الافراس أبدانها الى القرش ، وأخذت توغل في ثلج يابس لامع كالسكر . تبع نيقولا الترويكاز الاولى ، وتحركت وراءه العربات الاخرى في صخب وجلبة . وساروا اول الامر في الطريق الضيق خيبا ، فكانت ظلال الاشجار العارية ، على طول سيرهم في محاذاة الحديقة ، تسقط على الطريق عَرَضاً ، فتحجب نور القصر الساطع ، ولكن ما ان اجتازوا الحاجز حتى انبسط أمامهم سهل يغمره الثلج ،

ويتلأأ كالماس ، وتنعكس عليه أشعة" يضرب لونها الى زرقة ، ويستحم في ضوء القمر الواضح الساكن ، ويمتد الى غير نهاية • وقد توائمت عربية المقدمة مرةً فمرةً ثانيةً على أخدود ، وتوائمت العربات الاخرى ذلك التوائب نفسه على ذلك الاخدود ذاته ، وواصلت سيرها متباعدة لا يضرب ضميرها أن تعكر صفو هذا السكون الساجي •

وانطلق صوت ناتاشا في الهواء الذي جمّده البرد ، قائلاً :

— آثار أرانب برية ، آثار كثيرة ...

وقال صوت صونيا :

— ما أوضح الرؤية يا نيقولا !

فالتفت نيقولا الى صونيا ، ومال ليرى وجهها من قرب • فظهر له في ضوء القمر وجه فتان ، جديد كل الجدة بحاجبيه الاكحلين وشاربيه الاسودين ، ظهر له خارجا من ياقة فراء السمور ، قريبا بعيدا في آن واحد •

قال نيقولا لنفسه وهو يتفرس فيها ويتسم : « أهذه صونيا التي أعرفها من زمان قديم ؟ » •

قالت صونيا :

— ماذا يانيقولا ؟

فأجابها وهو يلتفت ثانيةً الى الخيل :

— لا شيء •

حتى اذا وصلوا الى الطريق الكبير انذبي مهّدته زلاقات العربات ، وخدّته آثار كلاءبات كثيرة تثرى في ضوء القمر ، أخذت الخيول

تشد الاعنة من تلقاء نفسها وتعجّل سيرها • ان الحصان الايسر يسيل برأسه الى اليسار ، ويشد الاعنة شدا متقطعا • والحصان المقرون الى العرش يترجح محركا أذنيه كأنه يتساءل : « هل آن الآوان ، أم لا ؟ » • وكانت الترويكا السوداء التي يقودها زاخار قد أمعنت في السبق مجلجلة بجرسها على الثلج الابيض • وكانت تنطلق منها صيحات المتكرين وضحكاتهم وصرخاتهم •

وصرخ نيقولا يقول وهو يشد الاعنة باحدى يديه ، ويرفع يده الاخرى ليضرب بسوطه :

— هيا يا أصدقائي !

فما هي الا لمحة ، حتى كان الهواء يصفع الوجوه صفعا ما ينفك يشتد ، فكان يكفي أن يحس المرء بالهواء يصفع وجهه هذا الصفع ، وان يرى الخيول كيف تشد المجرّ دفعةً بعد دفعة ، حتى يحس بسرعة جري العربة • وألقى نيقولا نظرة الى وراء ، فرأى العربات الاخرى تغدّ الخصى بين صياح المتكرين ، واصطفاق السياط ، ووقع حوافر الخيل • وكان حصان العرش في عربته ما يزال يعدو سريعا ولا يخطر بباله أن يبطىء ، حتى انه ليعد بمزيد من الاسراع اذا طلب منه ذلك •

وأدرك نيقولا الترويكا الاولى • وأخذت العربتان تهبطان على منحدر ، ووصلتا الى طريق عريض مشقوق في مروج بحاذاة نهر •

تساءل نيقولا : « أين نحن ؟ لاشك أنها مروج كوسوي • ولكن لا • هذا شيء جديد ما رأيته من قبل قط • ما هذه مروج كوسوي ، ولا هذا شاطئ نهر داميان • الله يعلم ما ذا ! هذا مكان جديد مسحور • ولكن أي بأس في ذلك ؟! • • • » • وأخذ يستخفّ أفراسه مضراً على

ان يسبق الترويكاً الاولى •

فلجم زاخار عربته قليلاً ، وأدار له وجهه الذي يبضته الصبرة حتى
الحاجبين

وأطلق نيقولا أفراسه ، فاذا بزاخار يمد يديه الى أمامه ، ويصفر
بلسانه ، ويطلق أفراسه هو أيضا • وصاح يقول لنيقولا :

— اتبه يا سيدي ! حذار !

وطارت العربتان جنبا الى جنب ، وتسارع قرع حوافر الخيل مزيدا
من التسارع • وأفلح نيقولا في أن يتقدم زاخار قليلاً • فرفع زاخار
يده التي كانت ممسكة بالاعنة ، دون أن يغير وضع ذراعيه المشدودتين،
وصاح يقول لنيقولا :

— لن تنتصر عليّ يا مولاي •

فأطلق نيقولا أفراسه تجري حُضْرًا ، وسبق زاخار •

الخيول ترش وجوه المسافرين بثلج ناعم جاف ، وقرع حوافر الخيل
يترجع سريعا في الاسماع ، وقوائم الافراس تتصالب على ايقاع متسارع،
فتختلط بظلال الترويكاً التي تسبق ، وفي جميع الجهات تصر زلاقات
العربات على الثلج ، وترجع صيحات النساء حادة •

ولجم نيقولا عربته بعض الشيء مرةً أخرى ، ونظر حواليه والسهل
ما يزال هو ذلك السهل المسحور نفسه ، قد غرق في ضوء القمر ،
وتلألأت في سمائه نجوم من فضة هنا وهناك •

وقال نيقولا لنفسه : « ان زاخار يصرخ مهيبا بي أن انحرف الى
اليسار • ولكن علام انحرف الى اليسار • أنحن متجهون الى آل

مليوكوف ؟ أهذه مليوكوفنا ؟ الله يعلم أين نحن . الله يعلم ما الذي يحدث لنا . وان ما يحدث لنا لمغامرة جسيلة جدا وجسيلة جدا . » .

والتفت الى داخل الزلاجة . فسمع أحد هؤلاء الاشخاص العجيبين المجهولين الذين كانت حواجبهم وشواربهم المرسومة رسما دقيقا تضفي عليهم فتنة خاصة :

— انظر الى شاربيه وأهدابه كيف ابيضت ايضا تاما .

فقال نيقولا محدثا نفسه : « هذه ناتاشا فينا أظن . وتلك هي مدام شوس . . . أو لعلها ليست مدام شوس . أما هذا الشرکسي ذو الشاربين ، لا أدري من هو ، ولكنني أحبه . » .

وقال يسأل :

— ألا تشعرون ببرد ؟

فلم يجبن ، وأخذن يضحكن . وصاح ديملر من الزلاجة التي تسير خلف زلاجهن . لاشك انه قال شيئا يبعث على الضحك ، ولكن لم يسكن فهم كلامه .

أجابت أصوات ضاحكة :

— نعم ، نعم .

وهذه غابة مسحورة تنكشف للابصار ، غابة ذات ظلال سوداء ، تتلأأ كتلألؤ الماس ، وهذا صف درجات من مرمر ، وهذه سطوح من فضة تسقف مسكنا مسحورا ، وهذه صرخات حادة تطلقها حيوانات .

قال نيقولا لنفسه : « اذا صحَّ أن هذه مليوكوفكا ، فانها لذروة العجب أن نصل الى هذا المكان بعد طوافنا هذا الذي لا يعلم الا الله أين كان ! » .

وكانت هي مليوكوفكا فعلا • وهرعت خادمت وخدم الى درج
الباب تحمل شموعا ، وتضحك وجوها فرحا •

ونادى صوت من أعلى الدرج يسأل :

— ما هذا ؟

فأجابت أصوات أخرى :

— هم مقتنعو الكونت • عرفت أفراسهم •

الفصل الحادى عشر

كانت بيلاجيا مليوكوف ، وهي امرأة بدينة قوية ، تضع على عينيها نظارتين وتلبس فستانا فضفاضا مما يلبس في المنزل ، كانت جالسة في الصالون تحيط بها بناتها ، وتحاول هي أن تسليهن • ففيما كن يذبن شعا ، ويتأملن ظل الاشكال التي تتكون من الشمع ، اذا بوقع خطى القادمين وأصوات كلامهم تسع في الدهليز •

ودخل الفرسان والسيدات والساحرات والمهرجون والديبة الى الصالة الكبرى وهم يسعلون ويجففون وجوههم التي غشيتها الصبرة ، فرعان ما أشتعلت في الصالة الشموع • وهب المهرج ديملر يفتح الرقص هو والسيدة العجوز نيقولا • وراح المتنكرون ، وقد أحاط بهم الاطفال صارخين ، راحوا يحيون ربة الدار مخبئين وجوههم مبدلين أصواتهم ، وانتشروا في أرجاء الصالة •

— آ ••• يستحيل تعرفهم ! يارب من ذا تشبهه ناتاشا هذه ؟ انظروا الى هيئتها ! انها تذكرني حقا بأحد الناس • وما أحسن إدوارد كارليتس ! أين لي أن أتعرفه ! وما أبدع رقصه ! آه ، يا الهي ! شركسي ! ها ••• ولكن هذه صونيا ! ••• وذاك ، من ذاك ؟ يا نيكيتا ، يا فانيا ، ارفعا الطاولات •• يا لها من تسلية جميلة هذه التي تحملونها الينا ، بيننا نحن جامدون متعقلون ! •••

وقالت أصوات :

— ها .. ها .. فارس سلاح الفرسان ! انه لفتى حقا • انظروا الى قدميه ! • لا أستطيع أن أرى •

وغابت ناتاشا ، وهي الحبيبة الى قلوب فتيات آل مليوكوف ، الاثيرة في نفوسهن ، غابت معهن في غرف المنزل الداخلية ، وأمرت بأن يؤتين بفليئة ومبازل وثياب شتى من ثياب الذكور أخذت تتناولها أذرع الفتيات العارية من خادم يمدّها اليهن من شق الباب • فما انقضت عشر دقائق حتى كانت شببية مليوكوف كلها قد انضمت الى المتكرين •

وهيأت بيلاجيا دانيلوفنا للزوار أماكن ، وأعدت وجبة خفيفة للاسياد والخدم ، وكانت تطوف بين المتكرين لا تخلع نظارتها ، وتحاول أن تكظم ابتسامة تجتاح شفثتها ، وتتفرس فيهم من قرب فلا تتعرف منهم أحدا • لم تتعرف لا آل روستوف وديملر ، ولا تعرفت حتى بناتها ، ولا المبازل وبزات زوجها التي كن يلبسها •

كانت تسأل المربية وهي تتفرس في بنت من بناتها تنكرت في زي تري من قازان :

— وهذه ، من هذه ؟ لابد أنها واحدة من آل روستوف •
وقالت تسأل ناتاشا مرة :

وأنت أيها السيد من سلاح الفرسان ، من أي فوج أنت ؟
وأضافت تسأل قائلة :

— وهذا التركي ؟

ومر خادم يحمل صينية ، فقالت له :

— قدم فطائر بالفاكهة لهذا التركي • ان دينه لا يحرم عليه أكل الفطائر بالفاكهة •

وكانت في بعض الاحيان ترى الخطوات الغريبة المضحكة فيرقص الراقصين الذين ثبت لهم أن أحدا لا يعرفهم وهم في أزياء التنكر هذه ، فما ينبغي لهم أن يتحرجوا ، كانت تدفن وجهها في منديلها ، ويأخذ جسمها البدين كله يهتز بضحك طيب لاتسلك المرأة العجوز أن تكبحه •

وكم من مرة قالت :

— انظروا الى عزيزتي ساشينيت ! انظروا الى ساشينيت !

وبعد الرقص الروسي والغناء الروسي الذي يرافق الرقص حلقات حلقات ، شكلت بيلاجيا دانيلوفنا دائرة كبيرة ضمت جميع الخدم والسادة ، وجيء بخاتم وخيط وروبل ، وبدأت العاب جماعية •

وما ان انقضت ساعة حتى كانت الازياء كلها قد اندعكت وتشوهت ، وكانت الشوارب والحواجب المرسومة بالفلين المحروق قد سالت على الوجوه التي تنضح عرقا وتفيض نشاطا ومرحا وفرحا • فأصبحت بيلاجيا دانيلوفنا تتعرف المتكرين ، فتمتلىء نشوة واعجابا بنجاحهم في التنكر بهذه الازياء ، ولاسيما أزياء البنات ، وأخذت تشكر للجميع أنهم هيئوا لها هذه المسرة كلها • ودعي السادة الى تناول العشاء في الصالون ، وأطعم الخدم في الصالة الكبرى •

وفيما كانوا يتحدثون أثناء العشاء عن التنبؤ بالخطر في الحمامات قالت عانس تعيش في منزل آل مليوكوف :

— لا ... انه لشيء مرعب جدا أن نسأل المستقبل في الحمامات •

فسألتها كبرى بنات آل مليونكوف :

— لماذا ؟

فأجابت :

— لا ، لا تذهبن الى هناك • ذلك يحتاج الى جسارة كبيرة •

فانبرت صونيا تقول :

— أنا أذهب !

وطلبت صغرى بنات ميلوكوف من العانس أن تروي لهم ماحدث

لفتاة ساءلت المستقبل في الحمامات • فقالت العانس :

ذهبت فتاة مرة الى الحمامات ، ومعها ديك ، وعدة طعام لشخصين ، وكل ما يجب • وجلست تنتظر منصته مدة طويلة • وانها لكذلك اذا هي تسمع رنين جلاجل وأجراس على حين فجأة ، ثم اذا هي ترى عربة مقبلة • أصاحت بسمعا ، فأدركت أن أحدا آت • ودخل القادم : انه صورة رجل ، حتى لكأنه ضابط من ضباط الجيش ، وجلس الرجل بقربها الى المائدة •

صاحت ناتاشا وهي تدير عينيها مروءة مذعورة :

— أوه ! أوه !

— وبعد ذلك هل أخذ يتكلم ؟

— طبعاً ، كما يتكلم أي رجل ، وأخذ يغازلها متضرعاً • وكان يجب

عليها أن تستمر في الحديث معه الى أن يصيح الديك ، لولا أن اعترأها هلع شديد ، فدفنت وجهها في يديها • فما كان منه الا ان أمسك بها

وقبض عليها ... ولكن شاء حسن حظها أن تهرع اليها الخادما في تلك اللحظة ...

قالت يلاميا ايفانوفنا :

— علام التعرض لهذا الخوف ؟

فردت عليها احدى بناتها معترضة :

— ألم تفعلي هذا أنت نفسك ؟

وقالت صونيا تسأل :

— وهل يسأل المستقبل أيضا في الهري ؟ وكيف يكون ذلك ؟

— يكفي أن تذهبي الى هناك ، الان مثلا ، وأن تنصتي • فيكون

حظك مختلفا باختلاف ما تسمعين من أصوات ، فان سمعت ضربات

مطرقة ، كان ذلك نذير شؤم ، وان سمعت خرير قمح يسكب كان ذلك

بشير سعادة • ثم تصدق النبوءة •

— ماما ، قصّي علينا ما حدث لك يوما في الهري !

ابتسمت بيلاجيا دانيلوفنا ، وقالت :

— أو ... نسيت كل شيء • وما من أحد منكم ينوي أن يذهب

الى هناك ، أليس كذلك ؟

فانبرت صونيا تقول :

— بلى يا بيلاجيا دانيلوفنا • أنا أذهب اذا أذنت لي بذلك ؟

— اذهبي اذا لم تكوني خائفة •

فقالت صونيا تسأذن لوزير ايفانوفنا :

— هل يسكنني أن أذهب يا لوزير ايفانوفنا ؟

وكان يقول ، سواء أثناء اللعب بالخاتم والخيط والروبل ، أو أثناء الحديث ، لا يحوّل بصره عن صونيا ، وينظر اليها بعينين جديدتين كل الجدة . فكان يبدو له أنه لم يعرفها حقا الا في هذا اليوم بفضل هذين الشاربين اللذين رُسمابسخمة الفلين المحروق . ولقد كانت صونيا في ذلك المساء مرحلة حقا ، وكانت تتدفق نشاطا ، وتشع جمالا ، كما لم يرها على هذ الحال من قبل في يوم من الايام .

قالت صونيا :

— لست أخاف شيئا . هل يمكنني أن أذهب الى الهري حالا ؟

ونهضت . فقالوا لها أين مكان الهري ، وقالوا لها ان عليها أن تبقى صامتة منصتة مدة طويلة، وجاءوها بفروتها، فألقتهاعلى رأسها ،ورشقت يقولان بنظرة .

قال يقولان محدثا نفسه : « يالها من طفلة عذبة ! أين كان عقلي الى الان ؟ » .

وخرجت صونيا الى الدهليز لتذهب الى الهري ، فأسرع يقولان يمشي الى الباب الكبير قائلا انه يشعر بحر شديد . وكان الحشد قد جعل الجو في المنزل خانقا حقا .

وكان كل شيء في الخارج على حاله : البرد المتجمد ، والقمر المضيء . ولكن ضوء القمر ازداد تألقه كان الضياء يبلغ من السطوع ، وكانت نجوم الثلج تبلغ من التلاؤ ، أن المرء لا يفتن الى تلالؤ نجوم السماء التي كبا بريقها ، فالسماء تبدو خالكة حزينة ، والارض تبدو فرحا كلها .

قال نيقولا لنفسه : « غبي ، أنا غبي ! لماذا انتظرت حتى الان ؟ » .
وأخذ يهبط درجات الباب ، ثم دار حول المنزل سالكا الممر الذي يؤدي
الى باب الخدم . كان يعلم أن صونيا ستمر من هناك . هذه أكداس
من الحطب المعطى بالثلج تسقط على الارض في منتصف الطريق ظلالة
تنضم الى الظلال المواربة التي تسقطها على الثلج والممر وأشجار
الزيزفون المسنة العارية من أوراقها . والممر يؤدي الى الهري . وهذا
جدار من جدران الهري وهذا سقفه الذي يغطيه الثلج والذي يشبه أن
يكون مقدودا في صخرة من حجر ثمين يلتصقان في ضوء القمر التماعا
متألئا . وقرقت شجرة في الحديقة ثم عاد كل شيء الى السكون
والصمت . لكن المرء لا يتنفس هواء بل بعبء قوة فتية أبدية وينشق
الفرح نفسه .

وترجّع أصوات وقع أقدام على درجات الباب ، وسُمعت قرقة
رنانة على آخر درجة يغطيها الثلج ، وعلا صوت العانس يقول :
— قَدْماً قَدْماً على هذا الممر يا آنسة . ثم إياك خاصة أن تلتفتي
الى وراء .

فقال صوت صونيا :

— لست خائفة .

وظل الثلج يصرف صريفا تحت قدميها الصغيرتين اللتين تنتعلان
خفين دقيقين في الممر المؤدي الى مكن نيقولا .

كانت صونيا تتقدم متدثرة بفروتها . فلما صارت على بعد خطوتين
منه رآته . وقد رآته هي أيضا مختلفا عن الرجل الذي تعرفه والذي

كانت تخافه بعض الخوف دائما • وهو شعث الشعر متنكر بشباب امرأة ،
يبتسم ابتسامة سعيدة جديدة عليها • وركضت اليه صونيا مسرعة •

قال محدثا نفسه وهو ينظر الى وجهها الذي يغمره ضوء القمر :
« انها تختلف عما كانت كل الاختلاف ولكنها ما تزال عين نفسها » •
وأمر يديه تحت فروتها التي تغطي رأسها ، وطوّقها بذراعيه ، وشدها
اليها ، وضمها ضما قويا ، وقبل شفتيها اللتين يعلوهما الشاربان وتفوح
منهما رائحة الفلين المحروق • وقبلته صونيا في وسط شفتيه تماما ،
ثم خلّصت يديها وأحاطت بهما وجهه •
— صونيا ! ••• نيقولا ! •••

ذلك كل ما قالاه • وهرعا الى الهري ، ثم رجع كل منهما الى المنزل
سالكا الطريق الذي سلكه في مجيئه •

الفصل الثاني عشر

حين غادروا منزل بيلاجيا دانيلوفنا ، فان ناتاشا التي تراقب دائما كل شيء وتلاحظ كل شيء ، قد رتبت الامور ترتيبا يجعلها تركب عربة ديملر هي ولويز ايفانوفنا ، وأن تركب صونيا عربة نيقولا مع الخادومات .

لم يحاول نيقولا في هذه المرة أن يسبق الآخرين ، وكان يسير في العودة بسرعة متساوية ، ولا ينفك يلقي نظرات الى صونيا في ضوء القصر الغريب هذا ، ويحاول في هذا الضوء الذي يحيل كل شيء ، أن يكتشف تحت الحاجبين والشاربين صونياه التي عرفها في الماضي ، والتي قرر أن لا ينفصل عنها بعد اليوم أبدا . كان يتفرس في وجهها ، فاذا تعرّفها فرآها مختلفة عما كانت باقية كما كانت ، وتذكر مذاق الفلين ممتزجا بمذاق القبلية ، تنفس الهواء البارد ملء رئتيه ، ونظر الى المنظر المتهرب والسماء المتلألئة فأحس مرة أخرى أنه في عالم مسحور .

وكان يسألها من حين الى حين بصيغة المفرد رفعا للكلفة :

— صونيا ، هل « أنت » بخير ؟

فتجيبه بصيغة المفرد أيضا :

— نعم ، و « أنت » ؟

وفي منتصف الطريق سلمَ نيقولا الأعنة الى الحودي ، وهرع الى
عربة ناتاشا راكضا ، ووقف على طرف زلاقتها ، وهمس يقول لها :

— هل تعلمين يا ناتاشا ؟ لقد عزمت أمري في موضوع صونيا •

فسأله ناتاشا فجأة وقد أشرقت فرحا :

— وهل قلت لها هذا ؟

— هاه ••• ما أغربك بهذين الشارين وهذين الحاجبين يا ناتاشا ؟

هل سرّك النبا ؟

— أعظم المسرة ، أعظم المسرة ! كنت مغتظة منك حاقدة عليك ،
ولكنني لم أعلن لك ذلك • لقد أسأت معاملتها • ان لها قلبا لا يضارعه
في نبلة قلب يا نيقولا • ما أعظم ابتهاجي الآن ! اني شريرة أحيانا ، ولكن
ما كان أشد خجلي من نفسي لانني سعيدة وحدي ، سعيدة من دونها •
أما الآن فما أعظم اغتباطي ! هيا عُدْ ! اليها مسرعا !

فأجاب نيقولا وهو يتفرس في وجه أخته ، فيكتشف لديها هي
أيضا شيئا جديدا ، شيئا غير مألوف ، شيئا فيه عاطفة حنون وسخر
فاتن لم يعرفهما فيها من قبل :

— بل أمهليني لحظة • آه ما أغربك يا ناتاشا ! ناتاشا ، نحن في عالم

مسحور ، أليس كذلك ؟

— نعم • وقد أحسنت صنعا •

قال نيقولا محدثا نفسه : « لو رأيته قبل الآن كما أراها في هذا
الوقت ، لاستشرتها منذ زمن طويل فيما ينبغي أن أعمله ، ولنفذت كل
ما كان يمكن أن تنصحني به ، ولسارت الامور أحسن مجرى ! » •

— اذن أنت مسرورة ، وأنا أحسنت صنعا :

— أحسنت كل الاحسان . لقد ناقشت ماما في هذا الامر في الآونة
الاخيرة ، فكدنا تتشاجر . لن أسمح لاحد أبدا أن يقول فيها سوءا ،
ولا أن يخطر بباله أن يقول فيها سوءا ، لان كل شيء فيها هو الكمال .

قال نيقولا وهو يتفرس في تعبير وجه أخته من جديد ليعرف هل
ما تقوله حق :

— اذن أحسنت أنا صنعا ؟

وقرع جزمته احدهما بالاخري ووثب عن الزلاقة وأسرع يركض
الى عربته ، كان ذلك الشرکسي السعيد الباسم نفسه ، بشاريه
الصغيرين وعينيه المتألفتين ، ينظر اليه من تحت غطاء رأسه المصنوع من
فراء السور ، وكان ذلك الشرکسي هو صونيا ، ولتكونن صونيا
هذه امرأته السعيدة المحبة لا مراة في ذلك .

وصلوا الى المنزل ، وقصّت البنتان على الام كيف قضين الوقت
عند آل ميلوكوف ، ثم انصرفتا ، وبعد أن خلعتا زيَّهما دون أن تنزعا
شواربهما ظلتا مدة طويلة تتحدثان عن سعادتهما ، فتتكلمان عن حياتهما
الزوجية المقبلة ، وعن الصداقة التي ستربط زوجيهما ، وعن مدى
السعادة التي سينعمن بها . وكان على طاولة ناتاشا مرايا هياتها دونياشا
في المساء .

قالت ناتاشا وهي تنهض وتقرب من المرايا :

— ولكنني أتساءل متى يحدث هذا كله ؟ اني لأخاف أن لا يحدث
أبدا . لكأنه أجمل من أن يحدث !

قالت صونيا :

— اجلسي يا ناتاشا ، فقد نرينه .

فأشعلت ناتاشا الشموع وجلست ، ثم قالت وهي تنظر الى صورة وجهها في المرأة :

— أرى أحدا له شاربان .

قالت دونياشا :

— ما يجب الضحك يا آنسة .

وعدت ناتاشا المرأة بمساعدة صونيا والخادمة ، فجعلتها في وضعها الصحيح ، وعبرَ وجهها عن الجذ وصمتت ، وبقيت على هذه الحال تنظر الى صف الشموع يتعد في المرايا ، منتظرة (وفقا للحكايات التي حُكِيت لها) اما أن ترى تابوتا واما أن تراه « هو » ، الامير آندره ، في ذلك المربع الاخير الذي يختلط فيه كل شيء ويصبح فيه كل شيء غامضا مبهما . ولكنها على استعدادها لان ترى في أية بقعة شكل انسان أو شكل تابوت ، لم تبصر شيئا البتة . فأخذ جفناها يصطفقان اصطفاقا سريعا ، وتركت المرأة ، وقالت :

— ما السبب في أن غيري يرى وأنتي أنا لا أرى . تعالي اجلسي في مكاني يا صونيا ، وانظري ، عليك أن تجلسي وأن تنظري حتما . اني اليوم لخائفة خوفا شديدا .

فجلست صونيا أمام المرأة ، وعدلت وضعها ، وأخذت تنظر .

همست دونياشا تقول :

— لسوف ترى صونيا الكسندروفنا حتما • أنا واثقة أنها ستري •
والسبب في أنك أنت لم تري هو أنك ظللت تضحكين •

سمعت صونيا كلمات دونياشا هذه ، وسمعت جواب ناتاشا خافتا :
— أنا أيضا واثقة بأنها سوف ترى • في السنة الماضية رأت شيئا •
ولزمت الثلاثة الصمت عدة دقائق • ثم قالت ناتاشا مدمدمة :
« لا شك في ... » ولكنها لم تكمل كلامها ، فان صونيا لم تلبث أن
رفعت عنها المرأة فجأة ، وغطت عينيها بيدها وهي تصرخ قائلة :
— آه ... ناتاشا !

فهمت ناتاشا تسألها وهي تحجز المرأة :
— هل رأيت ؟ هل رأيت ؟ ماذا رأيت ؟

ولم تكن صونيا قد رأت شيئا ، وكانت على وشك أن تطرف عينيها
وأن تقوم حين سمعت صوت ناتاشا مدمدما بقولها : « لا شك في ... » ،
وكانت لا تريد أن تخدع لا دونياشا ولا ناتاشا ، وكانت قد تعبت من
البقاء جالسة ، وانها لتجهل لماذا • أفلتت منها تلك الصرخة حين غطت
عينيها بيدها •

سألته ناتاشا وهي تمسك ذراعها :
— أ « هو » الذي رأيته ؟

— نعم • انتظري • « هو » الذي رأيته •

• بذلك أجابت صونيا على غير ارادة منها دون أن تعرف من الذي
تقصده ناتاشا بقولها « هو » : نيقولا أو الامير آندره • لقد قالت

لنفسها : « لماذا لا أقول اني رأيت ؟ غيري يرى • ومن ذا الذي يستطيع أن يبرهن أنني رأيت أو أنني ما رأيت ؟ » • قالت :

— نعم ، رأيته •

— كيف كان ؟ كيف ؟ أواقفا أم راقدا ؟

— لا بل رأيت ••• في البداية لم أر شيئا ••• ثم رأيته على حين فجأة راقدا •

— رأيت أندره راقدا ؟ أهو مريض ؟

كذلك سألت ناتاشا صديقتها وهي تنظر إليها بعينين جمّدهما الرعب • فأجابت صونيا :

— لا ••• بالعكس ••• بالعكس ••• كان متهلل الاسارير فرحا ، وقد التفت اليّ •

وكانت صونيا وهي تقول هذا الكلام يبدو لها أنها رأت حقا ما تذكر أنها رأيته •

— وماذا أيضا يا صونيا ؟

— بعد ذلك لم أبصر شيئا ••• كان هناك زرقة وحمرة •••

— صونيا ! متى يعود ؟ متى أراه ؟ يا الهي ، ما أشد خوفي عليه وعلى نفسي • كل شيء يخيفني •••

كذلك قالت ناتاشا • وبدون أن تردّ على الكلمات التي قالتها لها صونيا شدا لأزرها وتقوية لعزيمتها ، استلقت على السرير ، ولبثت مدة طويلة ، بعد اطفاء الشمعة ، جامدة محملقة تنظر الى ضوء القمر البارد من خلال الزجاج الذي غشيته الصبرة •

الفصل الثالث عِشْرَ

بعد انقضاء زمن قصير على أعياد الميلاد اعترف نيقولا لأمه بأنه يحب صونيا ، وبأنه عازم عزما قاطعا على أن يتزوجها . وكانت الكونتيسة قد لاحظت منذ مدة ما يجري بين صونيا ونيقولا ، وكانت تتوقع من ابنها هذا الاعتراف ، فأصغت الى كلامه صامته ، ثم قالت له ان في وسعه أن يتزوج من يشاء ، ولكن مثل هذا الزواج لن يحظى بالباركة لا منها ولا من أبيه . فأحس نيقولا ، لأول مرة ، أن أمه مستاءة منه ، وأنها رغم كل ما تحمله له من حب لن تدعن لارادته ؛ وها هي ذي ترسل أحدا يستدعي زوجها بلهجة باردة ، دون أن تلقي على ابنها نظرة واحدة ، حتى اذا جاء الكونت أرادت أن تطلعه على الامر موجزة هادئة بحضور نيقولا ، ولكنها لم تستطع أن تسيطر على نفسها ، فاذا هي تنفجر باكية من فرط غضبها ، ثم تخرج . وأخذ الكونت الشيخ يعظ ابنه غير مقتنع بما يقوله له ، وأخذ يرجوه أن يعدل عن هذا الامر . فأجابه نيقولا بأنه لا يستطيع أن ينكل عن عهد قطعه ، فزفر الكونت الشيخ متنهدا تنهدا عميقا ، وقد ظهر عليه ضيق واضح ، وأسرع يقطع حديثه ومضى يلحق بالكونتيسة .

كان الكونت الشيخ ، كلما نشب بينه وبين ابنه خلاف ، يشعر

بأنه مذنب في حق ابنه ، لانه هو السبب فيما آلت اليهم أحوال الاسرة المالية من تدهور . لذلك لم يأخذ على ابنه أن يرفض تزوج فتاة غنية ، وأن يؤثر صونيا التي لا تملك مهرا . وكل ما في الامر أنه في هذه المناسبة أدرك ادراكا أوضح أنه ما كان يمكن أن يتمنى لابنه زوجة خيرا من صونيا لولا تدهور أحوالهم المالية ، وأنه هو المسئول عن تردي هذه الاحوال ، هو ووكيله ميتنكا وعاداته التي ترسخت فيه ولم يستطع أن يقطع عنها .

وبعد ذلك لم يكلم الاب والام ابنيهما في هذا الامر ، ولكن الكونتيسة استدعت اليها صونيا بعد بضعة أيام ، وبقسوة ما كان لا للكونتيسة ولا لصونيا أن تتوقعها ، أخذت تقرر على أنها أضلّت ابنها وعلى أنها فتاة عقوق . فكانت صونيا تصغي صامته خافضة العينين الى الكلمات الخشنة التي تقولها لها الكونتيسة ، ولا تفهم ماذا يُطلب منها أن تفعل . انها مستعدة لان تضحي بكل شيء في سبيل هؤلاء الذين أحسنوا اليها ، وان فكرة التضحية لهي من الافكار الاثيرة في نفسها . ولكنها في هذا الامر لا تعرف بماذا يجب أن تضحي ، ولمن يجب أن تضحي . هي لا تستطيع أن لا تحب الكونتيسة وأسرة روستوف كلها ، ولكنها لا تستطيع أيضا أن لا تحب نيقولا ، ولا تجهل أن سعادته هو نفسه رهن بهذا الحب . فصمتت حزينة ولم تجب بكلمة .

ورأى نيقولا أنه لا يستطيع أن يحتمل هذا الوضع مدة أطول ، فمضى الى أمه يكلمها ، فكان تارة يضرع اليها أن تغفر له ولصونيا وأن ترضى عن زواجهما ، وتارة يهددها بأنه سيتزوج صونيا في الحال اذا استمروا في اضطهادها .

فأجابته الكوتيسة ببرودة لم يعرفها ابنها فيها يوما من قبل ، بأنه بالغ راشد ، وبأن الامير آندره سيتزوج أيضا بدون موافقة أبيه ، فليفعل هو مثله ، ولكنها لن تعترف يوما لهذه « المحتالة » بأنها ابنتها .

فاستشاط نيقولا غيظا من كلمة « المحتالة » هذه التي قالتها أمه . فرفع صوته وقال انه ما كان ليصدق في يوم من الايام أن تدفعه أمه الى أن يبيع عواطفه بالمال ، أما وأن الامر كذلك ، فانه ينذرهما لآخر مرة ...

ولكن الوقت لم يتسع لان ينطق نيقولا بالكلمة الحاسمة التي - اذا صدق ما عبّر عنه وجه الكوتيسة - كانت الام تتوقعها مرتاعة أشد الارتياح ، والتي كان يمكن أن تترك بينهما ذكرى رهيبة . لم يتسع الوقت لان ينطق نيقولا بالكلمة الحاسمة لان ناتاشا التي كانت تنصت على حديثهما وراء الباب ، فتحت الباب وظهرت شاحبة اللون مكفهرة الوجه ، وقالت بما يشبه الصراخ ليغطي صوتها صوته :

- نيقولا ، كلامك حماقات ، كلامك سخافات ، اسكت ، اسكت ، أقول لك أسكت !

وأضافت تخاطب أمها التي كانت ، وهي تحس أنها على حافة قطيعة حاسمة بينها وبين ابنها ، تنظر اليه مروءة ، ولكنها بالعناد وانجرافها في الصراع لا تستطيع ولا تريد أن تستسلم :

- ماما ، ماما الحبيبة ، ليست هذه هي المسألة ، عزيزتي ماما ..

واتجهت الى أخيها تقول له :

- انصرف يا نيقولا ، سأشرح لك كل شيء . وأنت يا ماما العزيزة ،

أصغي اليّ ...

لم يكن لأقوال ناتاشا معنى ، ولكنها حققت هدفها وبلغت غايتها •

أخذت الام تبكي ناشجة نشيجا موجعا ، وارتمت على صدر ناتاشا تخفي وجهها فيه ، وقام يقول ممسكا رأسه بيديه وخرج •

واستطاعت ناتاشا أن تحسن التدبير في اكمال مسعاها للمصالحة ، فحصل يقول من أمه على وعدٍ بأن لا تضطهد صونيا ، ووعد من جهته بأن لا يفعل شيئا بغير علم •

وفي مطلع شهر كانون الثاني (يناير) التحق يقول بفوجه ، حزينا أشد الحزن لخلافه مع أبويه ، موقنا بأنه مولع أعرق النولع ، عازما على أن يستقيل من الجيش ثم يرجع ليتزوج صونيا •

وكان من شأن سفره أن جعل المنزل أشد حزنا مما كان في أي وقت مضى • ومرضت الكويتية في أعقاب ما عاتته من هزّات وهيجانات •

وكانت صونيا تتألم لفراق يقول ، وتتألم ألما أشد للهجة العداة التي أصبحت الكويتية لا تستطيع أن تمنع نفسها عن مخاطبتها بها • وازدادت هموم الكونت اشتدادا بسبب تردي أحواله المالية التي أصبحت تقتضي اتخاذ اجراءات قوية : أصبح لا غنى له عن بيع منزله الفخم بموسكو وبيع الارض التي تقع في ضواحي موسكو ؛ ومن أجل أن يستطيع اتمام هذا البيع لا بد له أن يكون بموسكو • ولكن سوء صحة الكويتية كان يضطره الى ارجاء سفره يوما بعد يوم •

وأصبحت ناتاشا التي لم يشق عليها في الاشهر الاولى أن تحتمل فراق خطيبها ، حتى لقد قبلت هذا الفراق راضية فرحة ، أصبحت لا

تفك تزداد احتياجا وتزداد ضيقا وتسللا . وأصبح يعذبها تعذيبا مستمرا أن تتصور أن أجمل أيامها التي كان يسكنها أن تعيشها في الحب انما تضع الآن سدى ولا ينتفع بها أحد . وكانت الرسائل التي تصلها من الامير آندره يثير أكثرها غيظا وحنقا ، وأصبح يجرح شعورها ويطعن كرامتها أن تعرف أنها لا تحيا هي الا بالتفكير فيه ، على حين أنه يحيا هو حياة حقيقية ، يرى بلادا جديدة ويعرف أناسا جددا تسره معرفتهم . وكلما كانت رسائله أحفل بها هو جدير أن يثير اهتمامها ويشوقها ، كان الغضب الذي تشعر به منها أقوى وأشد ، أما الرسائل التي تكتبها هي اليه ، فلم تكن تجد في كتاباتها أي عزاء بل كانت تبدو لها سخرة مملة ورياء كاذبا . كانت لا تعرف ماذا تكتب لانها لا تستطيع أن تتصور أن في وسعها أن تعبر بالكتابة عن جزء يسير مما ألفت أن تعبر عنه بصوتها وابتسامتها ونظرتها . فكانت تدبج له رسائل « كلاسيكية » رتيبة جافة لا تقيم لها هي نفسها أي وزن ، وتتولى أمها تصحيح ما فيها من أخطاء لغوية على المسودة .

وما تزال الكونتيسة مريضة لا تبل من مرضها . ولكن ارجاء السفر الى موسكو أصبح أمرا مستحيلا . كان يجب البدء في تجهيز العروس ، وكان يجب بيع المنزل . زد على ذلك أن الامير آندره سيجيء أولا الى موسكو التي كان نيقولا آندريتش يقضي فيها فصل الشتاء ، وكانت ناتاشا مقتنعة بأن خطيبها وصل الى موسكو .

هكذا بقيت الكونتيسة في الريف ، وسافر الكونت الى موسكو في نهاية كانون الثاني (يناير) مصطحبا صونيا وناتاشا .

الجزء الخامس

الفصل الأول

بعد خطبة الامير آندره وناتاشا ، أحس بطرس فجأة ، دون سبب ظاهر ، بأنه يستحيل عليه أن يمضي في حياته كما كان يمضي فيها ، فمهما يكن قويا اقتناعه بالحقائق التي كشفها له المحسن اليه ، ومهما يكن عظيما فرحه بالجهد الذي اندفع فيه للتسامي بروحه ، فانه بعد خطبة الامير آندره وموت أوسيب الكسيفتش الذي علم نبأه في الوقت نفسه تقريبا ، قد فقدت الحياة التي يعيشها كل ما كان لها في نظره من فتنة على حين فجأة ، وأصبح لا يرى منها الا عظامها : منزله الضخم ، وامراته المتألقة التي كانت تحظى في ذلك الاوان بالاء شخصية كبرى ، وعلاقاته ببطرسبرج كلها ، ووظيفته الرسمية في البلاط وما فيها من شكلية سخيصة ، فاشمأز من هذه الحياة فجأة ، فكف عن كتابة يومياته ، ونأى عن مجتمع الماسونيين ، وأخذ يتردد على النادي من جديد ، وعاد يسرف في الشراب ، ورجع يعاشر شبابا عزابا ، أي صار يسلك سلوكا جعل الكونتيسة هيلين فاسيليفنا ترى أن من واجبها أن توجه اليه توبيخا قاسيا عنيفا . وأحس بطرس أن امرأته على حق ، وسافر الى موسكو حتى لا تكون في حرج من أمرها .

حتى اذا وجد نفسه في منزله الضخم الواسع الذي ما يزال يعج بعدد كبير من الخدم . وما تزال تقيم فيه الاميرات اللواتي اصبحن مومياءات ؛ وحين رأى وهو يجتاز مدينة موسكو تلك الكنيسة التي تعرف باسم

« كنيسة عذراء ايريا »^(١) ورأى نيران شموعها التي لا يحصى عددها متوهجة أمام الايقونات المحلاة بالذهب ، ورأى ساحة الكرملين وثُلجها الناصع الذي ليس فيه لطفة ، ورأى شارع سفتسوف وما فيه من عربات ومساكن متداعية ، ورأى شيوخ موسكو هؤلاء الذين يختمون حياتهم الطويلة بغير تعجل وبغيرهم ، ورأى صالات حفلات الرقص والنادي الانجليزي ، أحس أنه عاد أخيرا الى الشاطئ . ان موسكو هي في شعوره ذلك الثوب العتيق المريح الناعم الذي ألف أن يلبسه في المنزل ، متسخا بعض الاتساخ .

واستقبل بطرس في مجتمع موسكو كله ، من سيداته حتى أطفاله ، استقبال ضيف طال انتظاره وما يزال مكانه شاغرا ينتظره . ان بطرس هو في مجتمع موسكو الرجل الذي لا يضارعه بين المنفردين أحد في حسن سريره وفتنته وذكائه ومرحه وجوده وكرمه . انه في نظر مجتمع موسكو رجل مهذب من الطراز القديم طيب القلب نبيل النفس .

وكان بطرس فارغ الكيس من المال ، لان كيس ماله مفتوح لجميع الناس دائما .

فهو لا يصدئ أحدا في يوم من الايام أبدا ، سواء من أجل احياء حفلات ذات ريع ، أو من أجل ابتياع لوحات أو تماثيل رديئة ، أو من أجل أعمال خيرية ، أو من أجل نساء غجريات ، أو من أجل التبرع لمدارس ، أو من أجل اقامة حفلات عشاء بالاكتتاب ، أو من أجل سهرات

(١) ان الايقونة الكبيرة التي تمثل مريم العذراء والتي ارسلت الى القيصر الكسي من دير إيفرون بمونت آتوس ، كانت تقديسا عظيما في روسيا ، وتشتهر بانها صانعة معجزات . وكانت الكنيسة التي تضم هذه الايقونة تقع في ساحة كراسنايا ، بين الكرملين وكتيايجورود ، وقد صدر امر بهدمها سنة ١٩٢٣ .

سكر وعربدة مع صخب ومرح ، أو من أجل الماسونيين الاحرار ، أو من أجل الكنائس ، أو من أجل شراء كتب ؛ ولولا صديقان له اقترضا منه مالا كثيرا ووضعاه تحت وصايتهما ، لوزع كل ما يملك . ما من حفلة عشاء أو سهرة تقام في النادي بدونه . ومتى استرخى على ديوان بعد أن يكون قد أفرغ في جوفه زجاجتين من خمرة « شاتو — ماجور » ، أحاط به الحضور يتبادلون الآراء ويتناقشون ويتمازحون مندفعين في ذلك اندفاعا حارا . وإذا نشب شجار كان يكفي أن يتسم ابتسامته الطيبة السمحة ، أو يطلق مزاحا مناسبة حتى يحل السلام والوئام . واجتماعات المحافل الماسونية تكون جبهة مضجرة اذا هو لم يشارك فيها .

وإذا كان في عشاء مع عصابة من فتيان ، فألحت العصابة أن يرافقها بعد العشاء ، فوافق على اقتراحها وهو يتسم ابتسامته الطيبة السمحة الرقيقة ، وقام ليرافقها ، انطلقت صرخات والانتصار من صدور الشباب . وإذا أعوز حفلات الرقص راقص قام فرقص . والنساء والفتيات يجيبينه لانه يلاطفهن جميعا على حد سواء ، دون أن يغازل واحدة منهن ، ولا سيما بعد العشاء ، فكان يقال عنه : « رائع ، لا جنس له » .

الخلاصة أن بطرس أصبح واحدا من أولئك الذين يسمون حجابا للامبراطور ، ولا يقومون بأي عمل ، ويقضون أيامهم في موسكو هادئة وادعة . وهم يعدون بالملئات .

لو أن أحدا قال له قبل سبع سنين ، حين عاد من الخارج ، انه ليس عليه أن يسعى الى شيء ، ولا أن يتخيل شيئا ، وان طريقه مرسومة منذ الازل وانه مهما يفعل من أمر فسيكون حاله كحال الآخرين قاطبة ، لشعره بهول ما بعده هول ، ولما أمكنه أن يصدق ما تسمعه أذناه .

أليس هو الذي أراد بكل قلبه تارة أن يقيم النظام الجمهوري في روسيا ،
وتارة أن يكون هو نفسه « نابوليونا » ، أو فيلسوفا ، أو مقاتلا يغلب
نابوليون ؟ أليس هو الذي اعتقد بإمكان بعث النوع الانساني الذي
فسد أمره ، وأن يسمو بنفسه الى الكمال المطلق ، ورغب في تحقيق
ذلك رغبة مشبوبة عارمة ؟ أليس هو الذي أقام المدارس والمستشفيات ،
وحرر فلاحيه ؟

أين هو من هذا كله الآن ؟ هو الآن لا يعدو أن يكون زوجا ثريا
لامرأة خائنة ، وحاجبا للامبراطور بغير عمل ، يحب الطعام الطيب
والشراب الشهي ويتنقد الحكومة بعد السكر انتقادا خفيفا ، هذا الى
كونه عضوا في النادي الانجليزي ، ورجلا • يحبه مجتمع موسكو
كله • لقد بقي بطرس مدة طويلة لا يستطيع أن يألف أنه هو هذا
الانسان ، هذا النموذج من حجاب الامبراطور بموسكو ، هذا
النموذج الذي كان يحتقره أعرق الاحتقار قبل سبع سنين •

كان يعزي نفسه أحيانا بأن يقول لنفسه انه لا يعيش هذه الحياة
الا الى حين • ولكنه ما يلبث أن يفكر مروعاً في عدد الذين انخرطوا مثله
في هذا الطراز من المعيشة الى حين ، ودخلوا مثله الى هذا النادي
بأسنانهم كلها وشعرهم كله ، ثم خرجوا بغير سن واحدة وبغير شعرة
واحدة •

وربما مرت به ساعات عجب وزهو حين يفكر في هذه الحال ،
فيبدو له أنه مختلف كل الاختلاف عن حجاب الامبراطور أولئك ، الذين
كان يحتقرهم ذلك الاحتقار كله ، فأولئك رجال عاميون أغنياء هادئين
راضين بما قسم لهم ، « اما أنا فمازلت حتى الآن ساخطا غير راض ،

وما زلت أريد أن أضع للإنسانية شيئا » • بثل هذا الكلام كان يحدث نفسه في تلك الساعات • ثم تسرب به ساعات تواضع ، فيقول لنفسه : « ولكن لعل جميع رفاقي هؤلاء قد صارعوا مثلما صارعت ، وبحثوا في الحياة عن طريق جديدة ، طريق تناسبهم ، طريق خاصة بهم ، ثم كان شأنهم كشأنى ، وصلوا الى النقطة التي اليها وصلت ، وصلوا اليها مكرهين بحكم الظروف والبيئة والمولد ، وبحكم تلك القوة الاولى من قوى الطبيعة التي لا حيلة للإنسان في دفعها ، ولا قدرة له عليها ! » وأصبح بعد اقامته بموسكو زمنا لا يحتقر رفاقه هؤلاء الاشقياء الذين لم يسفهم الحظ ، حتى لقد أصبح يحبهم ، ويقدرهم ، ويرثي لحالهم • وأصبح بطرس لا يعاني ما كان يعانيه في الماضي من لحظات اليأس والاكتئاب والاشمئزاز من الحياة ، ولكن ضيقه الذي كان يتجلى في الماضي نوبات عنيفة أصبح يكبت الآن في داخل نفسه ، ولا يبارحه لحظة • أصبح يتساءل متحيرا : « لماذا ؟ فيم ؟ ماذا يحدث في هذا العالم ؟ » ، وأصبح يلقي على نفسه هذه الاسئلة مرارا في كل يوم ، ويأخذ يبحث عن معنى ظواهر الحياة ، ولكنه لعله بالتجربة أن هذه الاسئلة ليس لها أجوبة لا يلبث أن يحاول الانصراف عنها ، فاما أن أن يتناول كتابا ، واما أن يسارع الى النادي ، واما أن يذهب الى ايلولون فيقول لا يفتش بيادله الهذر والاعتياب والاقاويل •

كان بطرس يحدث نفسه قائلا : « ان هيلين فاسيليفنا التي لم تحب في يوم من الايام شيئا الا جسدها ، والتي هي واحدة من أشد النساء حماقة وغباء ، يعدها الناس معجزة من معجزات الذكاء ورهافة الفكر ، ويسجدون لها سجودا • وحين كان نابوليون رجلا عظيما كان جميع الناس يحتقرونه ، حتى اذا صار مهرجا حقيرا ، أصبح الامبراطور

فرانسوا^(١) يحترق رغبة في أن يتخذ ابنته زوجة غير شرعية له. والاسبان يشكرون لله بواسطة الكهنوت الكاثوليكي أنه مكنهم من الانتصار على الفرنسيين في ١٤ حزيران (يونيه) ، والفرنسيون يشكرون لله بواسطة الكهنوت الكاثوليكي نفسه ، أنهم استطاعوا أن يهزموا الاسبان يوم ١٤ حزيران . واخواني الماسونيون الاحرار يحلفون بدمائهم أنهم مستعدون للتضحية بأنفسهم في سبيل أخيهم الانسان وهم يضمنون بروبل واحد على حملات التبرع للفقراء ، ويحرضون « آستره »^(١) على « الباحثين عن زان »^(١) ولا يدخرون جهدا للحصول على البساط الايقوسي الحقيقي وعلى ميثاق يجهل معناه مؤلفه نفسه ، ولا حاجة لاحد به . ونحن جميعا ندين بالقانون المسيحي الذي يدعو الى غفران الاساءات والمسبات والى حب الانسان أخاه الانسان ، وهو القانون الذي بفضل بنينا في موسكو أربعين وأربعين كنيسة^(٢) ، وبالامس جلدنا بالسياط حتى الموت رجلا هاربا من الجندية ، وتولى الكاهن الذي هو القيم على قانون الغفران والحب ، تولى جعل هذا الرجل يقبل الصليب قبل بدء التعذيب .

كذلك كان يفكر بطرس ؛ وكان هذا الكذب الذي يكذبه الناس كافة ، ويقبله الناس كافة ، يذهله في كل مرة كأنه شيء جديد رغم أنه اعتاده وألفه كان يقول لنفسه : « انني أفهم هذا الكذب وهذا الخلط ،

(١) تزوج نابوليون ماري لويز ، ابنة امبراطور النمسا سنة ١٨١٠ ؛ ولعل بطرس بيزوخوف بعد طلاق نابوليون وجوزيفين غير شرعي .

(١) اسم محفل من المحافل الماسونية المختلفة .

(٢) تعبير شعبي يزعم أن في موسكو أربعين أربعين كنيسة ، والحق ان عدد الكنائس بموسكو في ذلك الحين كان لا يكاد يبلغ مائتي كنيسة .

ولكن كيف أشرح للآخرين كل ما أفهم ؟ لقد حاولت فوجدت دائما أنهم في قرارة أنفسهم يفهمون هذا كله كما أفهمه أنا ، ولكنهم يرفضون أن يروه . فلا بد إذن أن تبقى الامور على هذه الحال ! ولكن أين عساني أهرب أنا ؟ الى أين يمكن أن ألقأ ؟ » • كان بطرس يمتاز بتلك الميزة المحزنة المشتركة بين كثير من الناس ، ولاسيما الروس ، أعني كونهم يعتقدون بإمكان الخير والحق ، ويرون الشر والكذب في الحياة رؤية أوضح من أن يستطيعوا المشاركة في الحياة حقا • ان كل نشاط ملوث في نظره بالشر والكذب ، فما ان يحاول أي فعل حتى يصدده الشر والكذب فاذا جميع الطرق مسدودة أمامه • وكان لابد له مع ذلك من أن يحيا ، وكان لابد له من أن يشغل نفسه • انه لشيء رهيب فظيع أن يبقى مرهقا بمشكلات الحياة هذه التي لا سبيل الى حلها • فكان بطرس ينحرف في أهوائه القديمة لا لشيء الا أن ينس هذه المشكلات التي تستعصي على الحل ، فيختلف الى بيئات شتى ، ويشرب الخمر صرفا غير ممزوج ، ويقتني لوحات تصوير ، ويقبل على القراءة خاصة •

كان يقرأ ، وكان يقرأ كل ما يقع تحت يديه ، حتى انه كان اذا عاد الى منزله يتناول كتابا ويشرع في القراءة قبل أن يفرغ الخدم من خلع ثيابه له ، ثم ينتقل من القراءة الى النوم ، فمن النوم الى ثرثرة الصالونات والنادي ، فمن الثرثرة الى القصف واللهو والنساء ، فمن القصف واللهو والنساء الى الثرثرة والقراءة والخمرة • ولم تلبث الخمرة أن أصبحت له حاجة ماسة ، جسدية ونفسية في آن واحد • ونصحها الاطباء بالاعتدال ، وقالوا له ان الخمرة تؤذيه أشد الاذى ولاسيما بسبب بدائته ، ولكنه ظل يسرف في الشراب • كان لا يحس بالراحة الا حين يشعر بدفع لذيذ في جسمه كله ، ويشعر بحنان نحو أخيه الإنسان ، ويصبح مستعدا لان يستجيب لكل فكرة استجابة سطحية دون أن يتعمق معناها ، وذلك بعد أن يتلذذ بفمه الكبير عدة

كؤوس من الخمرة ، ثم هو لا يشعر شعورا غامضا بأن العقدة الرهيبة الشائكة ، عقدة الحياة هذه التي كانت تروعه ، ليست مروعة الى الحد الذي كان يتصوره ، الا بعد أن يفرغ زجاجة أو زجاجتين • كان يظل يرى جانبا من جوانب هذه العقدة فائر النفس أثناء استرساله في ثرثرة أو أثناء اصغائه الى أحاديث غيره ، أو أثناء عكوفه على القراءة بعد عشاء ، وكانت الخمرة وحدها تستطيع أن تجعله يقول لنفسه : « ليس هذا بشيء ذي بال • لسوف أمله ، حتى أن عندي خلا منذ الآن • ولكن ليس هذا هو الاوان • سوف أفكر فيما بعد • ثم لا يأتي زمان « فيما بعد » هذه أبدا » •

فاذا كان صباح الغد واستيقظ صباحا من سكره رجعت هذه الاسئلة كلها الى طبيعتها أسئلة رهيبة لا سبيل الى حلها ، فيسرع بطرس الى كتاب يقرأ فيه أو يسره أن يأتيه زائر •

وكان يتذكر في بعض الاحيان أنه سمع ما سمعه عن الجنود من أنهم أثناء الانسحاب حين يضطرون الى التوقف عن القيام بأي عمل تحت نيران العدو ، يتفننون في شغل أنفسهم بأي شيء التماسا لنسيان الخطر بسهولة أكبر • فكان يترأى له عندئذ أن مثل البشر جميعا كمثل أولئك الجنود ، يسعون الى الهروب من الحياة ، فمنهم من يهرب منها بالطموح ، ومنهم من يهرب منها بالقمار ، ومنهم من يهرب منها بوضع قوانين ، ومنهم من يهرب منها بمعاشرة النساء ، ومنهم من يهرب منها بالانصراف الى أنواع التسلية ، بعض يتسلون بالخيال وبعض يتسلون بالسياسة أو بالصيد أو الخمرة أو بشئون الدولة • « فلا شيء تأفه ، لا شيء غير ذي قيمة ، لكل شيء شأنه : وانما المهم أن يستطيع المرء الهروب ما وسعه الهروب ! انما المهم أن لا أراها ، هذه الحياة الرهيبة » • بذلك كان بطرس يحدث نفسه •

الفصل الثاني

في مطلع الشتاء جاء الامير نيقولا آندرتش بولكونسكي وابنته الى موسكو . وسرعان ما أصبح بفضل ماضيه وذكائه وتفرده ، ولاسيما بفضل تضاؤل الحماسة التي كان قد ألهبها حكم الاسكندر الاول في نفوس الناس ، وبفضل عواطف العداء للفرنسيين وبفضل المشاعر الوطنية التي ملأت النفوس حينذاك ، سرعان ما أصبح أهل موسكو يولونه احتراما خاصا عظيما ، وسرعان ما أصبح مركز المعارضة للحكومة .

كان الامير قد شاخ كثيرا في أثناء تلك السنة ، وظهرت عليه علامات شيخوخة واضحة كل الوضوح : فهو يغفو على حين فجأة ، وهو ينسى الاحداث التي وقعت منذ وقت قصير ، ويتذكر الاحداث القديمة الموغلة في القدم ، هذا ما ظهر عليه من غرور ساذج كسذاجة الاطفال حين قبل أن يكون زعيم المعارضة بموسكو . ولكنه رغم هذه العلامات كلها ، ولاسيما في المساء ، حين يظهر ساعة احتساء الشاي مرتديا سترته المبطنة بالفرو ، واضعا على رأسه باروكته المرشوشة ، بالبودرة ، وينطلق في حكاية قصص مفككة تتعلق بالماضي أو يقطع بآراء أكثر تفككا وأكثر جزما عن الحاضر ، بتحريض من أحد الحضور ، كان يظل يوقظ في نفوس ضيوفه شعورا بالاحترام والتبجيل . ان هذا المنزل الفخم القديم ، وما يضمه من مرايا ضخمة تغطي الجدران

بين النوافذ ، وما يحتويه من أثاث عريق سابق عهد « الثورة » ، مع خدمة المرشوشين بالبودرة ، ومع هذا الشيخ القاسي الخشن الذكي من شيوخ القرن الماضي ، ومع بنته الرقيقة العذبة والفرنسية الحسناء اللتين تنحيان له احتراما ، ان هذا كله كان منظرا تبهج فخامته الابصار . ولكن الزائرين الذين يقضون في هذا المنزل ساعتين كان لا يخطر ببالهم أن هناك اثنين وعشرين ساعة من حياة داخلية خفية تجري فيه .

وقد أصبحت هذه الحياة الداخلية تؤلم الاميرة ماريا أكبر الالم بموسكو في الآونة الاخيرة . ان الاميرة ماريا محرومة هنا من أجمل أفرانها : محرومة من أحاديث « أولياء الله » ، محرومة من القدرة على الوحدة والعزلة ، وهي أمور تشدها الى ليسيا جوري ؛ كما أنها لا تتمتع بمزايا الحياة في العاصمة ومباهجها . فهي لا تختلف الى المجتمع ، لان كل انسان يعرف اباها لا يسمح لها بارتداد المجتمع الا اذا رافقها ، وهو لا يرافقها بسبب سوء حالته الصحية ، فكان لا يدعوها احد الى ما يقام من حفلات عشاء ومن سهرات . وقد أقلعت الاميرة ماريا عن كل أمل في الزواج اقلاعا تاما . فهي ترى كيف كان الامير نيقولا أندرئتش يعامل الشبان الذين يمكن أن يطمعوا في تزوجها والذين كانوا يجيئون أحيانا الى المنزل ، فاذا هو يسيء استقبالهم واذا هو يطردهم طردا . ولم يكن لها أيضا صديقات . انها أثناء اقامتها هذه بموسكو قد فقدت اوهاهما عن الانساتين اللتين كانتا أقرب الناس اليها ، وهما مدموازيل بورين وجوليا . فأما مدمدازيل بورين ، وهي لم تستطع أن تطمئن اليها اطمئنانا كاملا في يوم من الايام على كل حال ، فه أصبحت هنا بغيضة الى نفسها ، حتى لقد أخذت تبتعد عنها لبعض

الاسباب • وأما جوليا التي كانت مقيمة بموسكو ، والتي ظلت الاميرة ماريا تراسلها طوال خمس سنوات ، فانها ما ان رأتها بموسكو حتى أحست أنها غريبة عنها وأنها لا تربطها بها صلة من الصلات • ان جوليا التي جعلها موت اخوتها من أغنى البنات التي يطعم في تزوجهن تعيش الآن في زوبعة من مباحج المجتمع الراقي ، ويحيط بها شبان تظن أنهم اكتشفوا مزاياها على حين فجأة • انها في تلك السن التي تحس فيها بنات المجتمع الراقي اللواتي يتقدمن في السن أن عليهن أن يلقين بآخر سهم في سبيل أن يتزوجن ، ويدركن أن مصيرهن اما أن يتقرر الآن وأما أن لا يتقرر ابدا • فكانت الاميرة ماريا ، كلما جاء يوم الخميس ، تتذكر وهي تبسم ابتسامة حزينة انها أصبحت محرومة من الكتابة الى أحد ، لان جوليا ، جوليا التي لا يسر الاميرة ماريا أن تجالسها ، مقيمة هنا ، وهي تراها كل أسبوع • فكانت الاميرة ماريا ، مثلها في ذلك كمثل ذلك المهاجر القديم الذي رفض أن يتزوج السيدة التي ظل يقضي سهراته عندها عدة سنين ، تأسف لان جوليا مقيمة هنا ، وأنها محرومة لذلك من متعة الكتابة الى أحد • ولم يكن للاميرة ماريا أحد تستطيع أن تكلمه وأن تقضي اليه بما تعاني من حزن • وما أكثر أسباب الحزن الجديدة التي انضافت خلال هذه المدة الى أسباب الحزن القديمة • ان أو ان عودة الامير آندره وزواجه تقترب ، والمهمة التي عهد بها اليها أخوها ، وهي أن تهيء أباهما لقبول الامر لم يستحل عليها القيام بها فحسب ، بل أصبحت كذلك أمرا خطرا ، فان أية اشارة الى آل روستوف صارت تغضب الشيخ غضبا شديدا وتخرجه عن طوره ، فضلا عن أنه معتكر المزاج في أكثر الاحيان • ومن التبايرح الجديدة

التي جاءت تعذب الاميرة ماريا في الآونة الأخيرة ، هذه الدروس التي كان عليها أن تفرغ لها في تعليم ابن أخيها الذي بلغ السادسة من عمره . لقد هال الاميرة ماريا أن ترى أنها في علاقاتها بالصغير يقولون نزقة نزقا شبيها بنزق أبيها . وما أكثر ما نصحت نفسها بأن لاتدع للغضب سبيلا اليها ، ولكنها كلما بدأت تعليم الصبي الصغير مبادئ اللغة الفرنسية تمت لو تلقنه كل ما تعرفه بأقصى سرعة وأيسر وسيلة ، والطفل يخاف أن يرى عمته وقد استبد بها الغضب بين لحظة وأخرى ، حتى اذا شرد انتباهه أقل شرود أخذت ترتجف ، ونفذ صبرها ، واثارت أعصابها ، وعلا صوتها ، وربما جرته من ذراعه ووضعته في ركن من الاركان قصاصا له ، ثم اخذت تبكي ناشجة ، لائمة نفسها على هذا الطبع الرديء الشرير ، فاذا بالطفل يقولون يضم بكاءه الى بكاءها ، ويترك الركن الذي حبسته فيه دون أن يستأذنها ، ويقترب منها ، فيبعد عن وجهها يديها المبتلتين بالدموع ، ويأخذ يواسيها ويسرى عنها .

غير ان ما كان يشجي الاميرة ماريا أكثر من أي شيء اخر هو هذا النزق في ايها يصبه عليها هي دائما ، وقد بلغ في الآونة الأخيرة اشد قسوة . لو اجبرها على أن تسجد أمام الأيقونات ليلها كله ، لو جعل ضربها ، لو اكرهها على ان تحمل الحطب والماء ، لما خطر ببالها ان تعد حظها عاثرا وان تحزن . ولكن هذا الجلاد المحب ، هذا الجلاد الذي هو اقسس الجلادين طراً لانه يحبها ويعذب نفسه باضطهادها ، كان لا يكتفي باهانتها واذلالها بل يحرص على ان يبرهن لها على انها في كل أمر هي المخطئة . وظهرت في المدة الأخيرة ظاهرة بلغت بأشجان الاميرة ماريا أقصاها ، هي هذا الاهتمام المتزايد من ايها بمدموزيل بوريين .

ان الامير منذ أن علم بأن ابنه ينوي ان يتزوج ناتاشا قال مازحا انه سيتزوج مدموازيل بورين اذا تزوج ابنه ناتاشا ويظهر ان هذه الفكرة قد راقته ، فأصبح في المدة الاخيرة لالشيء الا أن يجرح شعور الاميرة ماريا (فيما اعتقدت الاميرة ماريا) يصر على ان يضاعف اهتمامه بدموازيل بورين ، وان يبدي بذلك استياءه وامتناعه من ابنته ، حتى انه في ذات يوم بموسكو ، قبّل يد مدموازيل بورين بحضور الاميرة ماريا ، ثم جذبها اليه وطوقها بذراعيه واخذ يزغزها فاحمرت الاميرة ماريا وولت هاربة . فما انقضت على ذلك لحظات حتى دخلت عليها مدموازيل بورين متهلفة الاسارير مشرقة الوجه بالتبسم واخذت تكلمها بصوتها العذب الحلو . فأسرت الاميرة ماريا تسبح دموعها ، وقامت لها بخطى حازمة ، وصرخت تقول وهي لاتدري ماذا تفعل ، صرخت تقول بغضب مفاجيء وصياح متفجر .

— هذا حقارة ... هذا دناءة ... عار على امرأة ان تستغل ضعف ... ولكن لم تكمل جملتها . واكتفت بأن اردفت تصيح قائلة :

— اخرجي من غرفتي .

وانفجرت تبكي ناشجة .

لم يقل الامير لابنته في الغد كلمة واحدة . ولكن البنت لاحظت اثناء العشاء انه امر بأن يقدم الطعام لدموازيل بورين قبل ان يقدم اليها . وفي نهاية العشاء ، حين سكب الخادم القهوة للاميرة قبل غيرها بحكم العادة ، استشاط الامير غضبا ، ورمي راس فيليب بعصاه ، واصدر على الفور امراً بتجنيدده . وقال صارخاً :

— أأنت أصم لاتسمع : قلتها مرتين ... مدموازيل بورين هي الاولى في المنزل • هي خير صديقة لي •

ثم صاح يقول غاضباً ، موجهاً كلامه لاول مرة الى الاميرة ماريا :
— وانت ، اذا سمحت لنفسك مرة اخرى ان تتجرتني عليها كما تجرات بالأمس ، فلاريتك من الأمر الناهي هنا • اخرجي • لا اريد ان اراك بعد الان • واطلبي منها العفو •

طلبت الاميرة ماريا العفو من مدموازيل بورين ومن ايها ، طلبته نفسها وللخادم فيليب الذي رجاها ان تتشفع له •

وكان الشعور الذي ينمو ويكبر في نفس الاميرة ماريا في مثل هذه اللحظات نوعاً من الزهو بأنها تضحى • ان هذا الاب الذي سمحت لنفسها بان تلومه يبحث في تلك اللحظات نفسها عن نظارتيه تلمسا يديه على مقربة منه ، وينسى ما حدث منذ دقيقة ، وتزل ساقاه الداهنتان فجأة ، فينظر حواليه متسائلاً هل رأى أحد ضعفه ، وأنكى من ذلك أنه حين يجلس الى المائدة ولا يكون ثمة ضيوف يوقظون نشاطه ، يغفو على حين فجأة ، فتسقط على الارض فوطته ، ويميل على الطبق راسه متهززا ، فتقول الاميرة ماريا في سرها مقرعة نفسها :

« انه شيخ وضعيف ، فكيف أبيع لنفسي ان ألومه ؟ » •

الفضل الثالث

كان بموسكو سنة ١٨١١ طبيب فرنسي اسمه الدكتور ميتيفيه ، ذاع صيته وطارت شهرته بسرعة ، وهو رجل وسيم جداً ، طويل القامة ، لطيف كسائر الفرنسيين ، يُجمع الناس على أنه طبيب حاذق حذقاً نادراً . وقد صار يُستقبل في المجتمع الراقي لا كما يُستقبل طبيب بل كما يُستقبل ند .

وكان الامير يقولون آندرئتش الذي يسخر عادة من الطب ، قد قبل في الآونة الاخيرة ، تنفيذاً لنصائح مدموازيل بورين ، ان يستشر هذا الطبيب وأصبح يألفه فكان ميتيفيه يعود في الاسبوع مرتين او ثلاثا .

وفي يوم القديس نيقولا ، وهو عيد اسم الامير ، جاءت موسكو كلها الى بابه تبارك له بالعيد ، ولكن الامير كان قد اصدر امره بأن لا يُستقبل الا عدداً من خلصائه القلائل أعطى الاميرة ماريا قائمة باسمائهم لتدعوهم الى العشاء .

وقد جاء ميتيفيه في الصباح ليبارك للامير بالعيد ، ورأى انه ، بصفته طبيباً ، يستطيع ان يخالف الأوامر ، على حد تعبيره حين كلم

الأميرة ماريا ، فدخل على الأمير وشاعت الظروف ان يكون الأمير في صباح يوم عيده هذا معتكر المزاج أكثر من أي يوم آخر ، فهو مهتاج النفس يطوف في المنزل ذاهباً آيماً ، ويصب غضبه على كل من يلقاه ويتظاهر بأنه لا يفهم ما يقوله أحد ، ولا يفهم ما يقوله هو . وكانت الأميرة ماريا تعرف فيه هذا المزاج المقاتل المكظوم القلق حقاً معرفته ، وتعلم كيف ينتهي عادة بانفجار فكانت تشعر طوال الصباح بأنها في مرمى بندقية ملقومة مرفوعة الزناد ، وتنتظر أن تصيها الطلقة لامحالة . وقد انقضى الصباح بغير حدوث شيء الى أن وصل الطبيب ، فأدخلته ومضت تجلس في الصالون بقرب الباب وفي يدها كتاب ، فكان يمكنها أن تسمع هناك كل ما يحدث في مكتب أيها .

لم تسمع في أول الامر الا صوت ميتيفيه ، ثم سمعت صوت أيها ، ثم سمعت صوتيهما يتكلمان في آن واحد ، ثم رأت الباب ينفتح على مصراعيه ، ورأت قامة ميتيفيه الجميلة ورأت ذؤابته السوداء ورأت وجهه المرتاع ، ورأت قامة الأمير وهو مرتد ثوب المنزل معتمر بطاقيته المصنوعة من نسيج القطن ، ورأت سحنه منقلبة وعينية محتقتين من فرط الغضب ، وكان الأمير يزار قائلاً :

— أنت لا تفهم ؟ ولكنني أنا أفهم ! جاسوس فرنسي ، خادم لبونا برت جاسوس ، اخرج من هنا ، اخرج من هنا ، أقول لك اخرج !
وصفق الأمير الباب .

اقرب ميتيفيه من مدموازيل بورين التي هرعت من الغرفة المجاورة حين سمعت هذا الصياح ، اقرب منها وهو يهز كتفيه ، وقال لها :
— ان صحة الأمير سيئة . فهو مصاب بالصفراء وباحتقان في الدماغ

هدئي نفسك • سأرجع غدا • ورفع اصبعاً الى شفتيه ، وخرج مسرعاً • وظل يسمع من وراء الباب وقع خفيّ الامير متجولاً في مكتبه ، صارخاً ملء صوته : « جواسيس ، خونة ، في كل مكان خونة ! أما من سبيل الى أن يترك المرء وشأنه هادئاً في بيته ! » وبعد انصراف ميتينيه ، استدعى ابنته ، وصبّ عليها مرة اخرى كل غضبه ، قائلاً ان الذنب ذنبها ، فهي التي تركت لجاسوس أن يدخل عليه ، مع أنه سلكها قائمة وأمرها أن لاتسمح بالدخول الا للذين أدرج أسماءهم في القائمة ! فهي سبب كل تعب ، ومصدر كل عذاب ، « وهو لا يستطيع معها أن يعيش لحظة واحدة في هدوء ، ولا يمكنه أن يموت في سلام » •

وأضاف يقول :

— فلا بد أن نفرق حتماً يا عزيزتي • لابد ان نفصل ، اعلمي هذا ! اعلمي هذا ! تمذ صبري ، أصبحت لا أطيق !

وكأنه خشي أن تستطيع تعزية نفسها ، فها هوذا يعود اليهامحاولاً أن يصطنع هيئة الهدوء ، وهاهوذا يضيف قائلاً :

— لاتحسبي أنني أقول لك هذا في سورة غضب • انني هادىء كل الهدوء • وقد فكرت في الامر ملياً • وما قلته له هو ماسيحدث • يجب أن نفرق • ابحي لنفسك عن مأوى تلجئين اليه !

ولكنه لم يستطع أن يستمر في السيطرة على نفسه واصطناع الهدوء فهاهو ذا يهز قبضتي يديه بغضب قد لا يقدر عليه الا رجل يحب ، متألماً هو نفسه ألماً واضحاً ، ويصرخ قائلاً :

— ليت غيباً من الأغبياء يتزوجها ، فيريحني منها !

وصفق الباب ، ونادى مدموازيل بورين ثم لم يسمع صوته في مكتبه بعد ذلك .

وفي الساعة الثانية وصل الاشخاص الستة الذين دُعوا الى العشاء ، وهم الكونت الشهير روستوبتسين ، والامير لوبوخين^(١) وابن أخيه ، والجنرال تشاروف ، أحد قدامى رفاق الامير في السلاح ، وشابان هما بطرس وبوريس روستوكوي . وجلسوا ينتظرون الامير .

ان بوريس الذي يقضى اجازة بموسكو منذ بضعة ايام كان قد حرص على أن يقدم الى الامير نيقولا آندريتش ، وعرف بالحدق كيف يفوز بحظوته ، فاستثناه الامير من الشبان العزّاب ، اذ كان لا يستقبل في منزله شابا عازبا .

لم يكن منزل الامير ما يسمى « مجتمعا » بمعنى كلمة المجتمع ، وانما هو حلقة صغيرة لا يتكلم الناس عنها كثيرا في المدينة ، ولكن لاشيء يرضي غرور امريء ويرفع قدره في نظر نفسه كأن يقبل في هذه الحلقة . وقد أدرك بوريس ذلك قبل ثمانية أيام حين قال روستوبتشين بحضوره للحاكم العسكري الذي كان يدعوه الى العشاء احتفالا بيوم القديس نيقولا :

— انني في هذا اليوم أذهب دائما الى حلقة الامير نيقولا آندريتش أباركها وأقدسها .

فأجابه الجنرال بقوله :

(١) هو بطرس فاسيليقتش وبوخين (١٧٥٣ - ١٨٢٧) ، كان نائبا عاما سنة ١٧٩٨ ، ثم اصبح وزيرا للعدل من سنة ١٨٠٢ الى سنة ١٨١٠ ، وقد نالت ابنته جنة خطوة بوس الاولى الاتيرة في قلبه ، وبفضل ذلك خلع عليه لقب الامير سنة ١٧٩٩ .

— آ... حقا • نعم • كيف حاله •

ان هذه الجماعة الصغيرة التي اجتمعت قبل العشاء في الصالون ذي السقف العالي على الطراز القديم ، وذي الاثاث العريق العتيق، لا شبه بأعضاء محكمة ضمتهم جلسة محاكمة مهيبة • انهم جميعا صامتون فاذا قطع أحدهم الصمت ، تكلم بصوت خافت •

وطلع عليهم الامير نيقولا آندرئتش رصينا صموتا • وكانت الاميرة ماريا تبدو أشد خجلا وأكثر استحياءً منها في أي وقت مضى • وكان الضيوف لا يوجهون كلامهم اليها الا قليلا ، لانهم لاحظوا أن فكرها منصرف الى غير ما هم فيه من حديث • وكان الكونت روستوتشين مسكا وحده زمام الحديث ، فتارة يقص ما يروج في المدينة من أقاويل، وتارة يروي آخر الانباء السياسية • وكان لوبوخين والجنرال الشيخ يقولان شيئا من حين الى حين • أما الامير نيقولا آندرئتش فهو يصغي اصغاء القاضي الاعلى الى تقرير يقرأ له ، ولا يبدي الا بين الفينة والفينة، بالصمت أو بكلمة موجزة ، انه يأخذ علما بما يقال له • وكانت لهجة المحادثة كلها تدل على أن أحدا لم يكن راضيا عما يجري في عالم السياسة • وكانت تروي أحداث تقطع بأن الامور تجري من سيء الى أسوأ • ولكن ما يلفت النظر في كل قصة تروى وفي كل رأي يقال ، أن المتحدث يقف في حديثه كل مرة عند الحدود التي قد يكون في تجاوزها مس بالامبراطور •

وفي أثناء العشاء دار الكلام على آخر نبأ سياسي وهو استيلاء نابوليون على ممتلكات دوق أولدنبرج الاكبر^(١) وعن المذكرة

(١) في مطلع عام ١٨١١ ألحق نابوليون دوقية اولدنبرج الكبرى فنقل الى داخل المانيا الدوق الاكبر « بطرس فريدريك » زوج كاترين ، اخت الاسكندر الاول •

الروسية المعادية لنابليون التي أرسلت الى جميع ملوك أوروبا • فقال الكونت روستوبتشين مكررا جملة سبق أن قالها مرارا في كل مكان :

— ان نابليون يعامل أوروبا كما يعامل قرصان باخرة استولى عليها ، وليس يسمع المرء الا أن يدهش من صبر الملوك أو من عماوتهم • والان جاء دور البابا ، فان بونابرت الذي أصبح لا يتخرج من شيء يريد أن يقلب رئيس الكنيسة الكاثوليكية ، ثم لانرى أحدا يحرك ساكنا ، ويصمت الجميع • ان امبراطورنا وحده احتج على اغتصاب نابليون دوقية اولدنبرج • وليت •••

وصمت الكونت روستوبتشين ، لانه شعر أنه بلغ الحد الذي لايجوز بعده لوم •

قال الامير نيقولا آندرئتش :

— عرض عليه أن يعطى ممتلكات أخرى لقاء تخليه عن دوقية اولدنبورج • انه يعامل الادواق معاملتي لفلحي" اذا أنا نقلتهم من ليسيا جوري الى بوجوتشاروفو أو الى أملاكي في ريازان •••
قال بوريس مت دخلا في الحديث باحترام :

— ان دوق اولدنبرج يتحمل الكارثة التي اصابته بصلابة رائعة واذعان مدهش •

وقد قال بوريس هذا الكلام ، لانه حين مروره ببطرسبرج قد شرف بأن قُدِّم الى الدوق • فنظر الامير نيقولا آندرئتش الى الشاب نظرة من يريد أن يجيبه ، ولكنه عدل عن ذلك ، لانه عدّه أصغر سنا من أن يردّه عليه •

وقال الكونت روستوتشين بلهجة طليقة هي لهجة امريء يعرف
المسألة التي يتكلم فيها حق معرفتها :

— قرأت مذكرة الاحتجاج التي ارسلناها في أمر أولدنبورج ،
فأدهشتني رداءة اسلوبها •

فنظر اليه بطرس نظرة استغراب ساذج ، لانه لم يدرك كيف تهمة
رداءة الاسلوب ، وقال معلقا على كلامه :

— ماقيمة اسلوب المذكرة اذا كان مضمونها شديدا ؟

فأجابه الكونت روستوتشين قائلا :

— يا عزيزي ، انه لمن السهل علينا ونحن نملك خمسمائة ألف من
الجند ، أن نكتب بأسلوب جيد •

فأدرك بطرس لماذا يضيق الكونت بهذا الاسلوب •

قال الامير الشيخ :

— يخيل الي مع ذلك أن ما يعوزنا ليس هو الكتاب ان بطرسبرج
لا تفعل شيئا غير الكتابة ، لا كتابة المذكرات فحسب ، بل كتابة القوانين
الجديدة بغير انقطاع • ان ابني آندرويوشا كتب في بطرسبرج لروسيا
مجلدا ضخما من القوانين • في هذا الزمان لايزيد أحد على أن يكتب •
وضحك الامير الشيخ ضحكة مصطنعة •

وانقطع الحديث لحظة • ثم تنحج الجنرال الشيخ ليلفت الانظار
اليه ، وقال :

— هل سمعتم بالحادث الاخير الذي وقع اثناء الاستعراض العسكري

الذي جرى ببطرسبرج ؟ لقد تكشفت حقيقة سفير فرنسا الجديد !

— ماذا حدث علي وجه الدقة ؟ سمعت كلاما غامضا عن أمر وقع ،
يظهر ان السفير كان اخرق في مخاطبة الامبراطور •

— كان صاحب الجلالة الامبراطور يلفت انتباه السفير الى رمة
القنابل اليدوية الذين كانوا يسرون بخطى الاستعراض ، فلم يلق السفير
بالا الى كلام الامبراطور ، حتى انه أجاز لنفسه أن يعقب بقوله انهم
في بلادهم فرنسا ، لا يعبأون كثيرا بأمثال هذه السفاسف والترهات ،
فلم يجبه الامبراطور بشيء ، ولكنه في الاستعراض التالي لم يتنازل
فيكلم السفير مرة واحدة •

صت الجميع : انهم لا يستطيعون أن يصدروا أي حكم في هذه
الواقعة التي تتعلق بالامبراطور نفسه •

قال الامير :

— هؤلاء أناس وقحون ! هل تعرفون ميتيفيه ؟ طردته من منزلي
في هذا الصباح • لقد جاء الى هنا ، فسمح له بأن يدخل عليّ •

وأضاف الامير يقول وهو يرشق ابنته بنظرة ساخطة حائقة :

— سُمح له بأن يدخل علي ، رغم انني ألححت على أن لا يسمح لاحد
بالدخول •

ثم روى الامير الحديث الذي جرى بينه وبين ميتيفيه ، وشرح
الاسباب التي تحمله على الاعتقاد بأن هذا الرجل جاسوس • فلم يعترض
عليه أحد ، رغم أن الاسباب التي ذكرها ناقصة اكبر النقص غامضة
أشد الغموض •

وشرب الضيوف الشمبانيا مع الشعراء • ثم قاموا يباركون للامير بالعيد ويعربون له عن تمنياتهم • وتقدمت منه الاميرة ماريا فرشقا بنظرة باردة شريفة ، ومدت لها خده المغضنة المحلوقة لتقبلها ، فكان تعبير وجهه يقول لها انه لم ينسى حديثه اليها في الصباح ، وان قراره ما يزال قائما ، وانه ان لم يكلمها في هذا الامر الان ، فما ذلك الا مراعاة ومدارة للضيوف •

وحين انتقل الجمع الى الصالون لاختساء القهوة جلس الشيوخ على حدة •

وتحمس الامير نيقولا آندرئتش ، فبسط آراءه في الحرب التي ستشب •

فقال ان الحملات التي سنشنها على نابوليون ستبوء بالافاق ما ظللنا نسعى الى محالفة الالمان ، وتتدخل في شئون أوروبا ، وهي سياسة جرنا اليها صلح تيلسيت • فلم يكن ينبغي لنا لا أن نحارب في سبيل النمسا ، ولا أن نحارب النمسا • ان مصالحنا كلها في الشرق • والموقف الوحيد الذي يجب أن نفقه من نابوليون هو أن نسلخ حدودنا ، وأن نكون في السياسة صلابا ، فبذلك لا يجرؤ أن يطأ الارض الروسية كما فعل ذلك سنة ١٨٠٧ •

فقال الكونت روستوتشين :

— أين لنا أن نحارب الفرنسيين يا أمير ؟ أين لنا أن نتمرد على سادتنا وآلهتنا • انظر الى شبابنا ، انظر الى سيداتنا ! اصبح الفرنسيون آلهتنا ، وأصبحت باريس جنتنا •

قال الكونت روستوتشين ذلك رافعا صوته ، من أجل أن يسمعه الجميع في أغلب الظن . وواصل كلامه يقول :

— مוזات فرنسية ، أفكار فرنسية ، عواطف فرنسية ! لقد طردت أنت ميتيفيه لانه فرنسي ولانه وغد ، أما سيداتنا فانهن يجرين وراءه راكعات . كنت أمس في سهرة . فماذا رأيت ؟ ان ثلاثا من السيدات الخمس اللواتي كن في السهرة كاثوليكيات حصلن على اذن خاص من البابا بأن يطرزن يوم الاحد ، وكن عدا ذلك أشباه عاريات يصلحن أن تتخذ صورهن لافتات لدور حمامات لا تؤاخذني يا أمير فاني لا أستعمل هذه اللغة بحضورك فإسما يجب لك علينا من احترام . آه . . . حين أرى شبيبتنا لا تمنى أن آخذ من المتحف هراوة بطرس الاكبر^(١) ، وأن أهشم بها أضلاعهم على الطريقة الروسية ، فلفل ذلك أن يخرج من رؤوسهم ما امتلأت به من حماقات !

صمت الجميع . وكان الامير الشيخ ينظر الى روستوتشين مبتسما ويهز رأسه مجبذا مؤيدا .

قال روستوتشين وهو يقوم ويمد يده الى الامير بحركة قوية معهودة فيه :

— أستودعك الله يا أمير ، واتمنى لك صحة موفورة .

فأجابه الامير وهو يحتجز يده في يديه ، ويمد اليه خده ليقبله :

— استودعك الله يا عزيزي . ان له فما من ذهب ، فلا أسأم من سماع كلامه .

ونهض الآخرون مقتدين بالكونت روستوتشين .

(١) كان بطرس الابن الفتى الجبار يحمل عصا ضخمة يضرب بها كبار رجال الدولة الذين يخرجون على الطاعة او يرتكبون ذنبا .

الفصل الرابع

ان الاميرة ماريا التي سمعت في الصالون مآدار بين الشيوخ من أحاديث وما تبادلوه من آراء لم تفهم شيئاً مما سمعت ، وكان همها الوحيد هو أن لا يلاحظ الضيوف ما يحمله لها أبوها من عداوة ، حتى أنها لم تلاحظ ما أحاطها به دروبتسكوي طول مدة العشاء من اهتمام شديد . وكانت هذه ثالث زيارة له .

رفعت الاميرة ماريا نظرة ذاهلة سائلة الى بطرس الذي تقدم منها آخر المتقدمين وفي يده قبعته وعلى شفثيه ابتسامة ، بعد أن خرج الامير ، وبقياً وحيدين في الصالون . وقال لها وهو يتهالك بكل ثقله على مقعد بقربها :

— هل أستطيع أن أبقي قليلاً ؟

فقلت :

— طبعاً .

وكانت نظرتها تسأله : « هل لاحظت شيئاً ؟ »

كان بطرس رائق المزاج ، كما يكون دائماً بعد العشاء . وكان ينظر أمامه ، ويتسم ابتسامة عذبة . قال يسألها :

— هل تعرفين هذا الشاب منذ مدة طويلة يا أميرة ؟

— أي شاب ؟

— دروبتسكوي •

— لا ، عرفته منذ مدة قصيرة •

— هل يعجبك ؟

أجابت الاميرة ماريا وهي لاتزال تفكر في الحديث الذي قام بينها وبين أبيها هذا الصباح :

— شاب لطيف • ولكن لمَ تسألني هذا السؤال ؟

فقال بطرس :

— لانني لاحظت امرا هو أنه حين يجيء شاب الى موسكو من بطرسبرج في اجازة ، فانه لا يجيء عادة الا بقصد أن يتزوج فتاة غنية •

قالت الاميرة ماريا :

— لاحظت هذا ؟

فتابع بطرس كلامه وهو يتسم :

— نعم ، وهذا الشاب لا يذهب الا الى حيث يكون ثمة فتيات غنيات للزواج • انني أقرأ مافي نفسه كما أقرأ في كتاب • وهو يتساءل الان من التي يجب أن يوجه اليها حملته : أنت أم الانسة جوليا كاراجين انه يلزمها ملازمة شديدة •

— هل يتردد عليهم ؟

— نعم ، يذهب اليهم كثيرا • وهل تعرفين الاسلوب الجديد في المغازلة ؟

ألقى بطرس هذا السؤال وهو يتسم ابتسامة مرحة تشتمل على ذلك النوع من السخرية التي كان يؤاخذ نفسه عليها في يومياته •
مأجابه الاميرة ماريا قائلة :

— لا •

فقال بطرس :

— من أجل أن يفوز الشاب باعجاب فتيات موسكو في هذه الايام ،
يجب أن يكون مكتئبا • وما أشد ما يظهر من اكتئاب حين يكون مع
الآنسة كاراجين !

قالت الاميرة ماريا وهي تنظر الى وجهه الطيب وماتزال تفكر في
حزنها :

— حقا ؟

وكانت تحدث نفسها بقولها : « انه ليسرّي عني ويخفف وطأة ما
أعانيه من حزن أن أتجراً فافضي الى أحد بكل ما أشعر به • وبطرس
هو الانسان الذي اتمنى لو أحدثه بكل شيء • انه طيب جدا ، وان له
قلبا نبيلًا • فلو أسررت اليه بما في نفسي لاحسن هذا الي • ان في وسعه
أن ينصحني ! » •

سألها بطرس :

— هل ترضين أن تتزوجيه اذا طلب ذلك ؟

فاذا بالاميرة ماريا تقول على غير ارادة منها تقريبا ، والدموع في
صوتها :

— آه يا كونت ! تمر بي لحظات اتمنى فيها أن اتزوج أي انسان !

آه... ما أشد الألم الذي يعاينه المرء حين يجب أحداً يمت إليه بأقرب صلة ثم هو يحس أنه لا يستطيع أن يسبب له إلا الحزن ، وانه لا يملك أن يغير من الامر شيئاً ، ان المخرج الوحيد الذي يبقى له في هذه الحالة هو أن ينصرف . نعم ، أن ينصرف ، ولكن الى أين يمكنني أن أذهب؟

أضافت الاميرة قولها هذا بصوت متهدج ، فقال بطرس يسألها :

— ماذا بك ؟ ما هذا الذي تقولينه يا أميرة ؟

ولكن الاميرة ماريا لم تكمل كلامها ، وأجهشت تبكي . ثم قالت :

— لا أدري ماذا اعتراني اليوم . لاتسمع كلامي . انس كل ما قلته لك زال عن بطرس مرحة كله . وأخذ يسأل الاميرة ضارعا أن تحدثه بكل شيء ، أن تفضي اليه بأشجانها ، ولكن الاميرة ماريا لم تزد على أن كررت رجاءها اليه أن ينسى كل ما قالته له ، وأكدت له أنها هي نفسها نسيت ما قالته ، وأنها خالية النفس الا من هم واحد يعرفه ، وهو أن يكون زواج الامير آندره مهددا بافساد صلة الاب بابنه .

وسأله لتغير الحديث :

— هل بلغتك أنباء عن آل روستوف ؟ قيل لي انهم واصلون الى موسكو في القريب . وأنا أنتظر أن يصل الامير آندره أيضا بين يوم وآخر . وأود أن يلتقيا مرة أخرى هنا .

قال بطرس يسألها :

— ما رأيه « هو » الآن ؟

وكان يقصد ، الامير الشيخ . فهزت الاميرة ماريا رأسها ، ثم قالت :

— ماذا نستطيع أن نفعل ؟ لم يبق من مهلة السنة الا بضعة أشهر .

ولكنني لست متفائلة • كل ما أتمناه هو أن أخفف عن أخي وطأة اللحظات الاولى • أود أن يصلوا بسرعة • وآمل أن يقوم بيني وبينها تفاهم ... • انك تعرفهم منذ زمن طويل ، فأستحلفك أن تقول لي الحقيقة كاملة : ما نوعها من فتاة ؟ ما رأيك فيها ؟ ولكن قل لي الحقيقة كلها • ذلك أن آندره ، اذا تزوجها مخالفا ارادة أبيه ، يجازف مجازفة كبيرة • لذلك أريد أن أعرف •

أدرك بطرس بغريزة غامضة أن هذه المواربات في الكلام ، وهذه المطالبات المتكررة بأن يقول لها « الحقيقة كلها » ، تخفي وراءها أن الاميرة ماريا ليست مرحة بخفية أخيها ، وأنها تتمنى أن تسمع منه شجبا واستنكارا لسوء اختيار الامير آندره • ولكن بطرس عبّر لها عن احساسه لا عن رأيه ، فقال وقد احمر وجهه لا يدري لماذا :

— لا أدري بماذا أجيب عن سؤالك • انني لاجهل كل الجهل ما نوعها من فتاة • انني عاجز عن تحليلها • كل ما أستطيع أن أقوله عنها هو انها فتاة • لماذا ؟ لا أدري •

فتنهت الاميرة ماريا ، وكان تعبير وجهها يقول : « نعم ، هذا ما كنت أقدّرهُ ، وهذا ما كنت أخشاه ! » • وسألته :

— امي ذكية ؟

ففكر بطرس برهة ثم قال :

— لا أظن أنها ذكية ، ومع ذلك فهي ذكية • ثم أنها لا يهمها كثيرا أن تكون ذكية • هي فتاة وكفى •

فهزت الاميرة ماريا رأسها مرة اخرى وقد لاح في وجهها الاستهجان ثم قالت :

— لشد ما أود أن أحبها • قل لها هذا اذا رأيتها قبلي •

قال بطرس :

— سمعت أنهم آتون في الايام القليلة القادمة •

فأعلنت له الاميرة ماريا أن عازمة على أن تصادق هذه الفتاة التي
ستصبح زوجة أخيها ، وأنها ستحاول أن يآلف الامير الشيخ هذا الوجه
الجديد •

•

الفصل الخامس

لم يفلح بوريس في أن يتزوج فتاة ثرية في بطرسبرج ، فجاء يجربّ حظه بموسكو • وكان مترددا في اختيار احدى أغنى فتاتين : جوليا والاميرة ماريا • وقد جذبته الاميرة ماريا أكثر مما جذبته جوليا ، رغم أنها ليست على حظ من جمال ، ولكنه كان يتهيب أن يغازلها • ولقد حاول في آخر لقاء بينهما ، وهو اللقاء الذي تمّ يوم عيد الامير الشيخ ، أن يسبغ على حديثه معها طابعا عاطفيا ، فباءت محاولاته كلها بالفشل ، اذ كانت أجوبتها ذاهلة ، لان فكرها كان منصرف الى امور اخرى • ولا كذلك جوليا فقد رحّبت بملاطفاته ، ولو ترحيا من نوع خاص بها تنفرد بها دون غيرها •

ان جوليا في السابعة والعشرين من عمرها • وقد أصبحت طائلة الثراء بعد موت أخويها • وقد فقدت الآن كل حسن وبهاء • ولكنها تظن أنها ماتزال جميلة كما كانت ، بل هي تظن فوق ذلك أنها أصبحت أشد فتنة واغراء • وكان ثراؤها يعزز هذا الخطأ عندها ، وكان يعززه كذلك أنها كلما تقدمت في السن صارت أقل خطرا على الرجال ، فصار الرجال يشعرون بالارتياح حين يلقونها ، ويحسون أن من حقهم أن يستمتعوا ، دون أي تورط ، بما يصيبونه عندها من طعام ، وما يقضونه في منزلها من سهرات ، وما يلقونه لديها من مجتمع ممتعة صحبته •

فمن كان يمكن ، قبل عشر سنين ، أن يخشى التردد كل يوم على منزل يضم فتاة في السابعة عشرة من عمرها مخافة أن يسيء الى سمعتها أو أن تُعدَّ زياراته الكثيرة ارتباطا بها وعهدا عليه لها ، أصبح الآن لا يتردد في المجيء اليها كل يوم ، وأصبح لا يعاملها معاملة آنسة للزواج بل معاملة صديقة ليست أنثى .

كان منزل آل كاراجين في ذلك الشتاء أمتع منازل موسكو وأكثر ترحيبا بالضيوف ، يحتشد فيه كل يوم عدد كبير من الناس أكثرهم رجال ، ويطعمون فيه اذا انتصف الليل ، ويلبثون فيه حتى الساعة الثالثة من الصباح ، هذا عدا السهرات الخاصة وحفلات العشاء الخاصة . وكانت جوليا لا تفوّت حفلة رقص ، ولا تتخلف عن نزهة ، ولا تغيب عن عرض في مسرح . وكانت ثيابها تلبي آخر صيحة من صيحات الموضة دائما . ومع ذلك كان يحلو لها أن تمثل دور الفتاة التي خابت ظنونها وزايلتها أوهامها ، فهي تقول لكل من تحدّثه انها أصبحت لا تؤمن لا بالصدّاقة ولا بالحب ولا بأي بهجة من مباهج الحياة ، وانها لا تنتظر سكينّة النفس والطمأنينة الا « هناك » . لقد اصطنعت جوليا لهجة فتاة فقدت انسانا أحبته حبا قويا ، أو لهجة فتاة خدعت خديعة قاسية . ورغم أن شيئا من هذا لم يحدث لها في حياتها ، فقد كان الناس يتظاهرون بأنهم يصدّقونها ، وكانت هي نفسها مقتنعة بأنها قاست آلاما كثيرة ونزلت بها مصائب كبيرة . على أن هذا المزاج المكتئب كان لا يمنعها أبدا من أن تتسلّى ، ولا يمنع الشبان الذين يختلفون اليها من أن يقضوا في منزلها وقتا ممتعا . فكان كل زائر من زوارها يدفع ما يستحقّه عليه مزاجها المكتئب من ضريبة منذ يصل ، ثم يمضي يشارك في أحاديث المجتمع ، أو يندفع في الرقص ، أو يساهم فيما يتفكّه به القوم من

نكات عمادها جناس الالفاظ ، أو فيما يقوم بينهم من مباريات الجمل
المسجوعة المقفاة التي كان التسليي بها رائجا في منزل آل كاراجين .
وكان عدد قليل من الشبان ، منهم بوريس ، يعرفون كيف يشاطرون
الآن جوليا مزاجها المكتئب مشاطرة أكبر ، فكانت تقوم بينها وبينهم
أحاديث طويلة على انفراد ، فيتكلمون عن بطلان شئون هذا العالم ؛
وتريهم ألبوماتها الملأى برسوم وأفكار وقصائد تعبر عن أشد الحزن
وأعمق الكآبة .

وقد خصت جوليا صاحبنا بوريس بسودة لم تخص بها غيره .
فكانت تشاركه ما يعانیه من أسى مبكّر ، وتحمل عزاء الصداقة الذي
تقدر أن تحمله اليه لانها تأملت هي نفسها . وقد فتحت له ألبومها ذات
يوم ، فرسم بوريس على احدى أوراقه شجرتين ، وكتب ما يلي :
يا أشجار البرية ، ان أغصانك القاتمة ترجّح فوق الظلام والكآبة .
وفي صفحة أخرى رسم قبرا وكتب تحته هذين البيتين من الشعر :

في الموت غوث ، في الموت هدوء

فلا ملاذ من الآلام الا بالموت .

وقد رأت جوليا أن هذا الكلام كله ممتع لذيد رائع . وقالت
مفصحة عن رأيها :

انه شعاع من ضياء في غيب الظلام ، انه يعبر عن عاطفة خاصة تقع
بين الالم واليأس ، وتشير الى العزاء الممكن .

كانت جوليا قد اقتطفت هذه الجملة من كتاب ، فرد عليها بوريس
بهذه الايات :

أيتها الكآبة ، يا سما تغتذي به النفس الحساسة

يا عاطفة لا سعادة لي بدونها !

أيتها الكآبة الرقيقة العذبة الحنون !

تعالى واسيني

تعالى هدئي تباريح عزلتي القائمة •

وبشي في الدموع التي أحس انسكابها ،

بشي عذوبة خفية •

وكانت جوليا تغزف لبوريس على آلة « الهارب » ليليات محزنة
كاوية تفيض بالشكوى وكان بوريس يقرأ لها قصة « ليزا المسكينة »^(١) ،
ويقطع قراءته في بعض الاحيان لاهثا من شدة الاتفعال • وكان بوريس
وجوليا اذا التقيا في صبح كبير العدد ، يتبادلان نظرات خاصة معناها
أنهما الانسانان الوحيدان اللذان يفهم احدهما الآخر بين هؤلاء الناس
الذين لا يكثرثون بشيء ، وان روجيهما اختان •

وكانت آنا ميخائيلوفنا تزور آل كاراجين كثيرا ، فتلازم الام ،
فتجمع أثناء ذلك معلومات دقيقة عن مهر جوليا ، فعرفت أنه أرضان في
اقليم ينتسا وغابات في اقليم نيجني نوفجورود • وكانت تأمل هذا
الحزن الرفيع الذي يربط بين ابنا بوريس وجوليا الغنية ، تأمل هذا
الحزن وقد فاض قلبها حنانا واذعانا لمشيئة الرب ، وتقول للفتاة :

(١) قصة عاطفية كتبها كارانرين ، تصف الحب الشقي الذي احبته فتاة قروية اغواها
شاب من الاسياد الملاكين . وقد نشرت القصة سنة ١٧٩٣ ، وظهرت بنجاح كبير
في روسيا .

— دائما فتانة أسيانة ، هذه العزيزة جوليا •

وتضيف قائلة للام :

— ان ابني بوريس يؤكد أنه لا يجد طمأنينة الروح وسكينة النفس الا عندكم • ما أكثر ما خابت آماله في الماضي ، وانه لحساس شديد الحساسية •

وكانت تقول لابنها بوريس :

— آد يا بني ، لا أستطيع أن أعبر لك عن مدى تعلقي بجوليا في هذه الآونة الاخيرة ! ومن الذي يمكنه أن لا يحبها ؟ انها من غير هذا العالم • آد ، بوريس ، بوريس •••

وتمسك عن الكلام لحظة ثم تقول :

— وما اشد رثائي لحال أمها • لقد أطلعتني اليوم على الرسائل والحسابات التي تتلقاها من بنتسا • ان لها أملاكا واسعة هناك • والمسكينة مضطرة أن تهتم وحدها بكل شيء • وما أكثر ما يغشونها ! فكان بوريس ، حين يسمع أمه ، يتسم ابتسامة خفيفة لا تثرى ، ويستهنىء في سرّه استهزاء ناعما بمكرها الساذج ، ولكنه كان يصغي الى كلامها بانتباه ، وربما ألقى عليها أسئلة عن أملاكها في بنتسا ونيجني نوفجورود •

وكانت جوليا تنتظر منذ مدة طويلة أن يصارحها عاشقها الاسيان بحبه ، وكانت مستعدة لان تقبله زوجا • غير أن بوريس كان في دخيلة نفسه يحس نوعا من الاشمزاز من جوليا ، وينفر من رغبتها المشبوبة هذه في أن تتزوج ، ويكره فيها هذا التصنع والتكلف ، ويخشى أن يكون مضطرا الى التنازل عن كل أمل في أي حب حق ، فكان ذلك

كله ما يزال يصده عن مصارحتها وكانت اجازته تشارف على نهايتها • وكان يقضي وقته كله في منزل آل كوراجين ، فكان في كل يوم يفكر في الامر ويقول لنفسه انه سيصارحها بحبه غدا • ولكنه كلما اجتمع وجوليا ، فرأى وجهها الاحمر وذقنها المطلية في جميع الاحيان تقريبا بطبقة من البودرة ، ورأى عينيها المبتلتين ، ورأى ما تعبر عنه هيئتها من تأهب دائم لان تستبدل بقناع الاكتئاب المصطنع قناع الحماسة المصطنعة التي يوقظها في نفسها أمل السعادة بالزواج ، يعجز عن النطق بالكلمات الحاسمة ، رغم أنه في خياله يكون قد عد نفسه منذ زمن طويل مالكا لاطيان بنتسا ونيجني نوفجورود ، واستغل موارد هذه الاطيان • وكانت جوليا ترى تردد بوريس ، ويخطر ببالها في بعض الاحيان أنه ينفر منها • ولكن سرعان ما كانت قدرتها النسوية على الوهم تهب الى نجدتها في تلك اللحظات ، فتقول لنفسها ان الحب هو الذي يجعله خجولا • ومع ذلك أخذ اکتئابها يستحيل الى حق • ولما كان موعد سفر بوريس يوشك أن يأزف ، فقد قررت أن تتصرف تصرفا حازما قويا • وحدث في الوقت الذي شارفت فيه اجازة بوريس على نهايتها ، حدث أن ظهر آنا تول كوراجين في موسكو وفي صالون آل كوراجين طبعاً ، فسرعان ما هجرت جوليا اکتئابها فجأة ، وأصبحت شديدة الفرح والمرح ، وأظهرت اهتماما كبيرا بآنا تول كوراجين •

قالت آنا ميخائيلوفنا لابنها بوريس :

— انني أعلم من مصدر مطلع ان الامير فاسيلي أرسل ابنه الى موسكو ليزوجه جوليا • واني لاحب جوليا كثيرا ، فأشفق عليها من مثل هذا الزواج • فما رأيك يا صديقي ؟

فلما تصور بوريس أنه بذل ذلك الجهد كله ، وسلخ من عمره شهرا كاملا في تمثيل دور الفارس المكتتب الذي يضع نفسه في خدمة جوليا ، ولما تصور أن جميع موارد أملاكه بنتسا ستفلت من يديه الى يدي شخص آخر ، ولاسيما هذا الغبي الاحمق آنا تول ، بعد أن أحسن توزيعها واستثمارها في خياله ، لما تصور بوريس ذلك كله اضطرب اضطرابا شديدا ، وذهب الى آل كاراجين عاقدا عزمه على ان يخطب جوليا بغير تردد . فاستقبلته جوليا مرحة غير عابئة ، وحكت له باهمال عن مدى استمتاعها بحفلة الرقص التي قامت في البارحة ، وسألته عن موعد سفره . فاذا هو رغم أنه جاء منتويا أن يكلمها عن حبه ، وان يكون اذن دمثا رقيق الحاشية ، اذا هو يفيض في الكلام عن تذبذب النساء ساخطا وينعتن بأنهن لا ثبات لهن ، وبأنهن ينتقلن انتقالا سهلا من الحزن الى الفرح ، وبأن مزاجهن ليس مرهونا الا بمن يغازلهن . فوخز هذا الكلام جوليا ، فردت على بوريس بأن ما قاله صحيح ؛ وبأن النساء يحتجن الى التغيير ، وبأن الحياة التي تجري رتيبة على وتيرة واحدة تضجر كل انسان . فأراد بوريس أن يلذعها فبدأ يتكلم فقال :

— أنصحك اذن ...

ولكنه سرعان ما خطرت بباله هذه الفكرة التي تذله وتهينه ، وهي أنه قد يغادر موسكو قبل أن يبلغ هدفه وأنه ضيَّع جهوده كلها سدى (وهذا ما لم يحدث له من قبل قط) ، فأمسك عن اتمام جملة ، وخفض عينيه حتى لا يرى وجه جوليا الحائق المتردد الذي ينفره ، وأردف يقول :

— أنا لم أجيء لاشا جرك ... بالعكس ...

ونظر اليها ليرى هل ينبغي له أن يستمر في هذا الكلام • فلاحظ ان
سخط جوليا كله قد تبدد فجأة ، وأن جوليا تحدد اليه بعينين قلقتين
ضارعتين مستجديتين ، وتنتظر أن يتم كلامه نافذة الصبر نهمة أشد
النهم • فقال بوريس لنفسه : « سأعرف كيف أرتب الامور بحيث
لا أراها الا نادرا • لقد بدأت فيجب أن أكمل • » ، ثم رفع اليها بصره
وقال لها وقد اصطبغ وجهه بحمرة شديدة :

— انك تعرفين العواطف التي أحملها لك ! ولم يحتج بوريس الى
أن يزيد على جملته كلمة واحدة ، فها هو ذا وجه جوليا يشرق معبرا
عن الظفر والرضى ، ولكنها أجبرت بوريس على أن يقول لها كل ما يقال
في مثل هذه الظروف ، فقال لها انه يحبها ، وانه لم يحب في حياته امرأة
كما أحبها • لقد كانت جوليا تعلم أن اراضي بيتسا وغابات نيجني
نوفجورود تهب لها الحق في ان تقتضيه أن يقول لها كلمات الغرام هذه،
وظفرت بما ارادت •

وكف الخطيبان عن الاهتمام بالاشجار التي ترجح فوقها الظلام
والاكئاب ، وبحثا أمر تجهيز منزل متألق لهما بطرسبرج ، وقاما
بزيارات ، وانصرفا الى اعداد زفاف فخم •

الفصل السادس

في آخر شهر كانون الثاني (يناير) ، وصل الكونت ايليا آندرئتش الى موسكو مع ناتاشا وصونيا • لم تستطع الكونتيسة ، وهي ما تزال مريضة ، أن ترافقهما ، ولا كان يمكن انتظارها الى حين إبلاها من مرضها : فالامير آندره يتوقع وصوله من يوم الى يوم ، ولا بد عدا ذلك من شراء جهاز العروس ، وببيع الارض التي تقع في ضواحي موسكو ، وانتهاز فرصة وجود الامير بموسكو لتعريفه بمن ستصبح امرأة ابنه • ولم يكن منزل آل روستوف بموسكو مدفاً ، واقامتهم بموسكو لابد أن تكون اقامة قصيرة ، والكونتيسة ليست معهم ، لذلك كله قرر ايليا آندرئتش أن ينزلوا ضيوفا على ماريا دمترينا آخروسيموف ، التي تعرض عليهم ضيافتها منذ زمن طويل •

في ساعة متأخرة من المساء كانت العربات الاربع التي تقل آل روستوف تدخل فناء المنزل الفخم الذي تقطن فيه ماريا دمترينا في شارع « الحظائر القديمة » • ان ماريا دمترينا تعيش في هذا المنزل وحيدة ، فابنتها تزوجت ، وابناؤها التحقوا بوظائف •

وهي ماتزال على جانب كبير من الاستقامة ، وما تزال على جانب كبير من الصراحة والصرامة والقطع في اعلان رأيها للناس كافة ، بل انها

تجسيد حي للاحتجاج على انواع الضعف والاهواء والانحرافات التي تراها في الناس ولا تملك أن تقبلها بحال من الاحوال ، وكانت حياتها تجري على هذه الوتيرة : فما إن يطلع الصباح حتى تأخذ بالعناية بشئون منزلها مرتدية جلبابا فضفاضا ، وفي أيام الآحاد والاعياد تذهب الى الكنيسة لحضور القداس ، فاذا فرغت من القداس زارت السجون لثئون لها بها لاتكلم عنها أحدا ، وفي أيام الاسبوع ما ان تنته من زينتها حتى تستقبل أناسا من جميع الطبقات يحتشدون في منزلها كل يوم ملتسمين وساطتها أو شفاعتها . فاذا حان موعد العشاء ، وهو عشاء وافر شهي دائما ، جلست الى المائدة في صحبة ثلاثة ضيوف أو أربعة ؛ وبعد العشاء تشارك في لعبة بوستون ، وقبل النوم تقرأ الجرائد والكتب الجديدة وهي تحيك ؛ وقلَّ أن تخل بعاداتها لتخرج ، فاذا خرجت لم تزر الا أعلى شخصيات المدينة مقاما وأرفعهم شأنا .

لم تكن قد نامت بعد حين صرَّ باب المنزل على محاوره ليدخل آل روستوف وأتباعهم . فكانت ماريا دمتريفنا تنظر الى القادمين من موقعها في عتبة الصالون الكبير وقد خففت نظارتها على عينيها وردَّت رأسها الى وراء ، وبان في وجهها غضب وقسوة . فاذا رآها أحد على هذه الحال ظن أنها مستاءة من قدوم هؤلاء القادمين، ولاعتقد أنها ستطردهم لولا أن ماريا دمتريفنا طفقت تصدر أوامرها ، لاعداد سكنى ضيوفها وترتيب أمتعتهم ، ملأى بالترحيب . فكانت تقول مشيرة الى الحقائق دون أن تحيي أحدا :

— أهذه للكونت ؟ خذوها اذن الى هنا . وهذه للانستين ؟
انقلوها اذن الى هناك ، على اليسار .

وكانت تصيح مقرعة الخادما :

— هيا ! ما بالكن تتحركن في غير فائدة • أعدن اشعال السماور •

ثم تقول لئاتاشا التي توردها من شدة البرد ، تقول لها وهي تجذبها اليها ممسكة برنسها :

— ما أكثر ما نما جسمك ! ما أعظم ما ازداد جمالك ! اف من هذا البرد الشديد •

وتهتف قائلة للكونت الذي أراد أن يقبل يدها :

— هيا استرح • لا بد أنك متجمد من شدة البرد •

وتقول آمرة الخادما :

— لاتسين أن تضعن للشاي شيئا من خمرة « الروم » •

وتصيح مخاطبة صونيا بالفرنسية ، مدكلة بهذا الاختفاء بها باللغة الفرنسية على ما تحمله لها من عاطفة فيها شيء من التنازل :

— صونيوشكا ، « يومك سعيد » •

حتى اذا خلع القادمون فرواتهم ، واستراحوا قليلا من غناء السفر ، اجتمعوا على الشاي ، وقبلتهم ماريا دمتريفنا كلهم ، واحدا بعد آخر ، وهي تقول :

— اني مغتبطة أعماق الاغتباط بوصولكم ونزولكم عندي •

وأضافت تقول وهي تلقي على لئاتاشا نظرة خاصة ذات معنى !

— آن الاوان حقا • الشيخ هنا ، ويستظر وصول ابنه من يوم الى

يوم • يجب التعرف به • ولكننا سنتكلم في هذا الامر من بعد •

قالت هذه الجملة الاخيرة وهي تلف صونيا بنظرة تدل على أنها

لا تريد أن تبحث هذا الموضوع بحضورها • وواصلت كلامها مخاطبة الكونت :

— والآآن اسمع • ماذا تريد أن تفعل غدا ؟ من تريد أن استدعي لك ؟

وأخذت تعد الاسماء على أصابعها :

— شنشين ؟ وتلك البكاء آنا ميخائيلوفنا ؟ انها هنا مع ابنها •
والابن يتزوج • من أيضا ؟ ييزوخوف ؟ هو هنا مع زوجته • هرب منها ، ولكنها أسرع تطارده • تعشى عندي يوم الاربعاء •

وأردفت تقول وهي تشير الى الفتاتين :

— أما هاتان ، فسوف أقودهما غدا الى « عذراء إيريا » ، ثم أمضي بهما الى مدام أويير شالميه ^(١) • تريدان أحدث الازياء ، أليس كذلك ؟ لاتنظروا الى ثيابي أنا • ان الثياب التي تلبسها النساء في هذه الايام لها اكمام هكذا ••• منذ بضعة أيام جاءت تزورني الاميرة الشابة إيرين فاسيليفنا : لكأن كل كم من كميها برميل • شىء يراه المرء فيفزع • لاينقضي يوم في هذا الزمان الا وتظهر موضة جديدة •

وقالت تسأل الكونت الشيخ :

— وأنت شخصا ؟ ما الاعمال التي جئت لها ؟

فأجاب الكونت يقول :

(١) تاجرة فرنسية كان لها متجر شهير للازياء في زقاق « المجلات » ؛ وفي حاشية كتبها هـ • مونجو ان نابوليون بدت له هذه الفكرة الغربية ، وهي ان يسالها عما قد يصيبه اصدار مرسوم بتحريم الفلاحين من نجاح • وقد نبتت انسحاب « الجيش الكبير » ، وغرقت في نهر بيرزنيا •

— حدث كل شيء دفعة واحدة • يجب شراء ثياب • وهناك من يريد شراء ارضي ومنزلي • اذا أذنت لي ، مضيت أقضي يوما في مارنيسكويا ، وعهدت اليك بيتتي •

— حسن • حسن • ستكونان عندي في أمان • منزلي لا يقل أمانا عن « مجلس الوصاية » • سأذهب بهما الى حيث يجب أن نذهب ، وسأقرعهما أيضا •

قالت ماريا دمتريفنا ذلك وهي تلامس بيدها خدًا ناتاشا ، ابنتها بالمعمودية ، والاثيرة في قلبها •

فلما كان صباح الغد قادت ماريا دمتريفنا الفتاتين الى كنيسة « عذراء إيبيريا » ، ثم مضت بهما الى مدام أويير شالميه التي كانت تخشاها خشية كبيرة ، حتى انها كانت تبيعها ثيابها وزينتها بخسارة بغية ان تتخلص منها بأقصى سرعة • وقد أوصت ماريا دمتريفنا على الجهاز كله تقريبا • حتى اذا رجعت الى البيت صرفت الجميع الا ناتاشا ، ودعتها ان تجلس بقرب مقعدها • وقالت :

— والآن فلنتحدث قليلا • انني أهنتك بخطيبك • وقعت على شاب من خير الشباب • ما أعظم فرحي لك ! أنا أعرفه منذ أن كان طوله هكذا •••

قالت ذلك وهي تمد ذراعها عالية عن الارض نصف متر • واحمرت ناتاشا سرورا • وتابعت ماريا دمتريفنا كلامها قائلة :

— اني أحبه كثيرا ، وأحب أسرته كلها • والان اسمعي • أنت تعلمين أن الامير نيقولا يعارض أشد المعارضة أن يتزوجك ابنه • انه شيخ مستبد • صحيح أن الامير آندره ليس طفلا ، وانه يستطيع أن

يستغني عن موافقة أبيه • ولكن ليس يُستحسن أن تدخلي أسرة
يعارض الاب دخولك فيها • يجب أن يتم كل شيء بهدوء ، بتفاهم ،
بمودة • أنت ذكية ، وسوف تعرفين كيف تحسنين التصرف في الامر •
تحلي بقوة العزيمة وحسن التدبير ، فتجري الامور كلها مجرى حسنا •

كانت ناتاشا صامتة ، لا من خجل كما ظنت ماريا دمتريفنا ، بل
لأنها كانت تكره أن يتدخل أحد في حبها للامير آندره ، وهو حب ترى
أنه يبلغ من الاختلاف عن كل ما يشغل بال الآخرين انه ما من أحد
يستطيع أن يفهمه • انها لاتحب ولا تعرف الا الامير آندره ، وسوف
يرجع في غضون أيام فيأخذها ، وليست تطلب أكثر من هذا •

واصلت ماريا دمتريفنا كلامها قائلة :

— انني أعرفه منذ مدة طويلة ، وأعرف أخته ماشنكا وأحبها كثيرا .
يقال ان اخوات الزوج سم ، ولكن ماشنكا لاتستطيع أن تؤذي ذبابة •
وقد طلبت مني أن أعرفها بك • ستذهبن اليها غدا مع أبيك ، فكوني
لطيفة في معاملتها كل اللطف • أنت الاصغر سنا • حتى اذا وصل
خطيبك تكونين قد عرفت أخته وأباه ، ويكونان قد أحبك • أليس
كذلك ؟ أليس هذا أفضل ؟

فأجابت ناتاشا على مضض :

— بلى !

الفصل السابع

عملا بنصيحة ماريا دمترينا ، ذهب الكونت ايليا آندرئتش مع ناتاشا الى منزل الامير نيقولا آندرئتش . لم يقيم الكونت بهذه الزيارة مرتاحا اليها ، وانما كان في قرارة نفسه يخشاها . انه لم ينس لقاءهما الاخير أثناء تشكيل الميليشيا حين دعا الامير الى العشاء ، فكان ردّه الامير على الدعوة توبيخا للكونت لانه لم يقدم العدد المطلوب من الرجال . ولا كذلك ناتاشا ، فقد كانت وهي ترتدي أجمل فستان لها ، فرحة كل الفرح . كانت تقول لنفسها : « يستحيل أن لا يجباني لقد أحبني جميع الناس دائما . واني لمستعدة أن أضع لهما كل ما يشاءان ، أما هو فلأنه أبوه ، وأما هي فلأنها أخته ، وما من سبب يدعوها الى أن لا يجباني » .

وقفت العربة أمام المنزل الكبير المتجهّم في شارع فوزدفيجنكا ، ودخل الكونت وابنته الدهليز ، وقال الكونت مازحا جادا في آن واحد :

— حمانا الله !! .

ولاحظت ناتاشا أن أباهما اضطرب حين دخوله ، وأنه سأل بصوت خافت خجل هل الامير والاميرة في المنزل . وما ان تم الابلاغ عن

زيارتهما حتى قامت بين خدم الامير بليلة . فالخادم الذي هرع يبلغ عن وصولهما استوقفه في الصالون خادم آخر وأخذاً يتهامسان ، وأسرت اليهما خادمة ، فقالت لهما كلاما عن الاميرة متعجلة . وأخيرا طلع على الكونت وابنته خادم عجوز قاسي الوجه ، فأنبأهما بأن الامير لا يستطيع أن يستقبلهما ، ولكن الاميرة ترجوهما أن يعرجا عليها . وجاءت مدموازيل بورين ، فرحبت بالاب وابنته بأدب كبير ، وقادتهما الى الاميرة . وقامت الاميرة بخطوها الثقيل تتلقاهما مهتاجة مرتاعة مصطبغة الوجه بيقع حمر ، تحاول أن تصطنع هيئة طليقة باشة فلا تفلح . لم تعجبها ناتاشا منذ الوهلة الاولى . رأت أنها مسرفة في الاناقة ، وأنها تحب الظهور ، وأنها مرحلة مرحا فيه خفة وطيش . لم تقطن الاميرة ماريا الى أنها كانت قبل أن ترى ناتاشا تكرهها بعض الكره بدافع غيرة لا شعورية من جمالها وصباها وسعادتها ومن الحب الذي يحمله أخوها لها . والى عاطفة الكره هذه أضيفت الآن عواطف خوف وقلق وغم ، لان الامير حين أبلغ زيارة الكونت روستوف وابنته صرخ قائلا انه ليس في حاجة اليهما ، فما على الاميرة ماريا الا أن تستقبلهما اذا شئت ، ولكنه لا يريد أن يؤتى اليهما به . وقد قررت الاميرة ماريا أن تستقبلهما ، ولكنها كانت تخشى في كل لحظة أن يداهمهم الاب غاضبا ، لان هذه الزيارة قد أهاجته فيما يبدو وأخرجته عن طوره .

قال الكونت وهو يقرع كعبه أحدهما بالآخر ويلقي حواليه نظرات قلقة كأنه يخشى أن يرى الامير الشيخ مغيرا عليهم :

— جئتكم بمغيتي الصغيرة أيتها الاميرة ما أسعدني بأن تتعارفا .

خسارة أن الامير ما يزال مريضا .

وبعد عبارات أخرى مبتذلة قام وهو يقول :

— اذا أذنت لي يا أميرة ، تركت لك ناتاشا ربع ساعة ، ومضيت لشأن من الشئون على مسافة خطوتين من هنا ، في « ميدان الكلاب » ، عند آنا سيميونوفنا ، ثم عدت آخذها .

اخترع ايليا أندريتش هذه الحيلة الدبلوماسية من أجل أن يتيح لمن ستصيران أخت زوج وزوجة أخ أن تتبادلا الحديث مرتاحتين (اعترف بهذا لابنته من بعد) ، وكذلك اتقاء لخطر لقاء الامير ، وهو لقاء يهابه ويخشاه . وهو لم يقل هذا لابنته ، ولكن ناتاشا حذرت ما بنفس أيها من خوف وقلق فساءها هذا وأحست منه بمهانة ، واحمر وجهها خجلا عن أيها ، وأضرم حنقها مزيدا من الاضرار أنها احمرت ، فألقت على الاميرة ماريا نظرة جريئة متحدية تريد أن تقول انها لا تخاف أحدا .

أجابت الاميرة الكونت بأنها سعيدة بلقائه ، حتى لقد سألته أن يبقى عند آنا سيميونوفنا أطول مدة . وانصرف الكونت .

وكانت مدموازيل بورين راغبة في أن تحدث ناتاشا ، فلم تنسحب رغم نظرات التملل التي كانت ترميها بها الاميرة ماريا ، وظلت تكلم ناتاشا باصرار عن مباحث موسكو ومسارحها .

وكانت ناتاشا قد جرحها الارتباك الذي حدث بين الخدم في الدهليز ، والقلق الذي ظهر على أيها ، واللهجة المصطنعة التي بدا لها أن الاميرة تخاطبها بها وكأنها تنعم عليها اذ تستقبلها . لذلك كان كل شيء يضايقها . فلم تعجبها الاميرة ماريا ، ورأتها شديدة القبح ، كثيرة

التصنع ، خشنة الجانب ، كرهية الى القلب ، فانطوت على نفسها ، واتخذت على غير ارادة منها لهجة طليقة ليس فيها اكتراث ، فكان من شأن هذا أن جعل الاميرة ماريا تنفر منها مزيدا من النفور . وبعد خمس دقائق انقضت في محادثة شاقة مصطنعة ، سُمع وقع خطى سريعة يخطوها رجل يحتذي بابوجين ويقترب من الغرفة . فارتسم على قسماط الاميرة ماريا رعب ، وفتح الباب ، ودخل الامير بطاقةية بيضاء وثوب للمنزل ، وجعل يقول :

— آآآ . الانسة الكوتيسة . . . الكوتيسة روستوف اذا لم يخطيء ظني . أرجوك أن تسامحيني ، أن تسامحيني . شهد الله يا آنسة أنني كنت أجهل أنك شرفتنا بالزيارة ، وكنت أظن أنني سأجد ابنتي وحدها حين جئت بهذه الثياب .

وظل يردد ملحا على قوله « شهد الله » بلهجة تبلغ من التصنع والسوء أن الاميرة ماريا بقيت جامدة خافضة عينها لا تجرؤ أن تنظر لا الى أبيها ولا الى ناتاشا :

— شهد الله ، كنت أجهل ، شهد الله . . .

وكانت ناتاشا قد قامت وانحنت تحية ثم عادت تجلس ، فأصبحت لا تعرف ما هو الموقف الذي يجب أن تقفه ، وما هو السلوك الذي ينبغي أن تلتزمه . وكانت مدموازيل بورين تبسم ابتسامة رقيقة لطيفة . وظل الشيخ يجمعهم بقوله :

— أرجوك أن تسامحيني ، شهد الله أنني كنت أجهل . . .

ثم نظر الى الاميرة ماريا من رأسها الى قدميها وخرج . فكانت مدموازيل بورين أول من أفاق من صدمة هذه المداهمة ، فتكلمت

عن سوء صحة الامير . وتبادلت ناتاشا والاميرة ماريا النظر صامتتين ، فكلما طال هذا الصمت دون أن تقول احدهما ما يجب أن تقوله ، ازداد ما تشعر به كل منهما ازاء الاخرى من نفور .

وحين رجع الكونت أظهرت ناتاشا فرحها برجوعه ولم تحاول أن تخفيه ، وأسرت تودع الاميرة ماريا . انها الآن تكاد تمتقت مقنا هذه الاميرة المسنة الجافية التي استطاعت أن تضعها في موقف حرج أشد وأن تقضي معها نصف ساعة بدون أن تقول لها كلمة واحدة عن الامير أندره . وكانت تقول لنفسها : « ما كان في وسعي أنا أن أكون الاولى في الكلام عنه بحضور الفرنسية . » وكانت هذه الفكرة نفسها تعذب الاميرة ماريا أيضا . ان الاميرة ماريا تعرف ماذا الذي كان يجب عليها أن تقوله لناتاشا ، ولكنها لم تستطع أن تقوله ، أولا لان حضور مدموازيل بورين كان يضايقها ويجعلها في حرج من أمرها ، وثانيا لانها شقَّ عليها ، دون أن تعرف لماذا ، أن تتحدث في أمر هذا الزواج .

وفيما كان الكونت يخرج ، جرت الاميرة ماريا الى ناتاشا بخطى سريعة ، فأمسكت يديها ، وقالت لها وهي تنتهد تنهدا عميقا : « لحظة ... يجب عليّ أن ... » . فظرت اليها ناتاشا نظرة ساخرة على غير ارادة منها . قالت الاميرة ماريا :

— ناتاليا العزيزة ، اعلمي انني مبهجة بأن أخي وجد السعادة ... ولكنها أمسكت عن المضي في هذا الكلام لاحساسها بأنها لا تقول الحقيقة . وقد لاحظت ناتاشا ترددها هذا ، وأدركت سببه ، فقالت

برصانة وهدوء تكبدت مشقة كبيرة لتستطيع أن تصطنعها بينما هي تحس الدموع تصعد الى حلقها :

— أظن يا أميرة أن هذا الوقت ليس هو الوقت المناسب للحدث في هذا الامر .

وما ان خرجت حتى كانت تتساءل : « ماذا قلت ؟ ماذا فعلت ؟ » .
وفي ذلك اليوم تأخرت ناتاشا كثيرا عن المجيء الى المائدة ،
واتتظرها الجميع مدة طويلة . لقد حبست نفسها في غرفتها تبكي
ناشجة كما يبكي طفل ، وتتمخط وتشهق . وكانت صونيا مائلة عليها
تقبل شعرها وتقول لها :

— ناتاشا ، لماذا تبكين ؟ فيم يهك أمرهم ؟ سوف يسوئى
كل شيء .

فتقول ناتاشا :

— لو علمت مدى ما كان في ذلك من جرح لشعوري وطعن
لكرامتي ... لكأنتي ...

— لا تتكلمن في هذا الموضوع يا ناتاشا ، ليس الذنب ذنبك ،
ففيم يهك الامر ؟ هيئا قبّليني ...

رفعت ناتاشا رأسها فقبّلت صديقتها في شفيتها ، وشدت اليها
وجهما الغارق في الدموع ، وقالت :

— لا أستطيع أن أقول من المخطيء . لا أعرف من المخطيء .
ليس أحدا مخطئا . أنا المخطئة . ولكن ذلك كله يؤذي ايذاء رهيبا ،
ويؤلم ايلا ما فظيحا .

وجاءت الى المائدة محمرّة العينين . وكانت ماريا دمتريفا قد
عرفت كيف استقبل الامير نيقولا آل روستوف ، فتظاهرت بأنها لم
تلاحظ انقلاب سحنة ناتاشا ، وطفقت أثناء الطعام تمازح الكونت
وسائر الضيوف بلهجة طليقة وصوت عالٍ .

الفصل الثامن

في ذلك المساء ذهب آل روستوف الى الاوبرا ، حيث أعدت لهم ماريا دمتريفا شرفة .

لم تكن بناتاشا رغبة في الذهاب الى الاوبرا ، ولكنها لا تستطيع رفض دعوة كانت من جانب ماريا دمتريفا ملاطفة لها هي وحدها . فلما فرغت ناتاشا من ارتداء ثيابها ، ودخلت الصالون تنتظر أباه ، وألقت نظرة على مرآة الحائط بين النافذتين ، فرأت أنها جميلة ، جميلة جدا ، أحسّت مزيدا من الحزن ، ولكنه الآن حزن فيه حب ودنف . وقالت تحدثت نفسها : « يا الهي ، لو كان هنا ، لما خجلت ذلك الخجل الاحق كما كنت أخجل من قبل ، ولاحتضنته بذراعي من غير حرج ، ولشدت نفسي الى صدره ، فيأخذ ينظر اليّ بعينه المستطلعيتين المستفهمتين كما كان ينظر اليّ من قبل ، ثم أجعله يضحك كما كان يضحك في ذلك الوقت ... وتبرق عيناه ... يا لعينه ! ... ما أوضح ما أرى عينيه ! ومالي أهتم بأبيه وأخته ! ما شأني بهما ! انه هو الذي أحبه ، هو وحده ، هو بوجهه وعينه ، وابتسامته الملأى رجولة وطفولة في آن واحد . لا ، الافضل أن لا أفكر فيه ، أن لا أفكر في شيء ، أن أنسى نسيانا تاما ، أن أنسى الى حين على الاقل . ان هذا الغياب سيقتلني قتلا . هأنا ذا أهمّ أن أنفجر باكية مرة أخرى . »

وأشاحت عن المرأة وهي لا تحبس دموعها الا بكثير من المشقة .
ودخلت صونيا وقد ارتدت ثيابها هي أيضا ، وأمسكت بيدها مروحة ،
فقالت ناتاشا لنفسها : « كيف تستطيع صونيا أن تحب نيقولا حبا هادئا
هذا الهدوء كله ، وأن تنتظر هذه المدة كلها ، وأن تصبر هذا الصبر كله ؟
انها تختلف عني اختلافا تاما . أنا لا أطيق ما تطيقه ! » .

وأحست ناتاشا في تلك اللحظة بدنف وحنان يبلغان من الشدة أنها
أصبحت لا يكفيها أن تحب وأن تعلم أنها محبوبة ، وانما هي محتاجة
الآن ، في الحال ، على الفور ، أن تعانق الحبيب بذراعيها ، وأن تقول له
وتسمع منه ما يزر به قلبها من كلمات الحب .

وطوال مدة سير العربة ، بينما هي تنظر أسيانة الى الاضواء المتهربة
التي ترسلها مصابيح الشارع الى زجاج العربة المغشى بالجليد ، كانت
تحس بدنفها وحبها يزدادان ، حتى أصبحت لا تدري الى أين هي ذاهبة ،
ومع من هي ذاهبة . وأخيرا أخذت عربة آل روستوف التي كانت
عجلاتها تصرئ صريحا شاكيا على الثلج أخذت تسير في إثر العربات
الآخرى ، ووصلت الى مدخل المسرح . فقفزت ناتاشا وصونيا الى
الارض بخفة ورشاقة وقد شمردتا فستانيهما ، ثم نزل الكونت يسنده
الخدم ، واختلط الثلاثة بالجمهور الداخل وباعة البرامج ، ثم ولجوا
دهليز الشرفات . وكانت الاركسترا تُسمع من خلال الابواب المغلقة
نصف إغلاق .

دمدمت صونيا تقول :

— ناتاليا ، شعرك .

وأسرع الخادم الذي يقوم على فتح أبواب الشرفات لاصحابها ،

أسرع يتقدم الآنستين بأدب واحترام ، وفتح باب الشرفة ، فأصبحت الموسيقى تُسمع سمعا أوضح ، وظهرت صفوف الشرفات المتوهجة تزينا أكتاف السيدات وأذرعهن العارية ، وبانت ردهة المسرح وقد علا فيها الضجيج وزرقتها البزات الرسمية • ودخلت سيدة الى الشرفة التي تجاور شرفة آل روستوف ، فألقت على ناتاشا نظرة ملأى بالغيرة النسوية • ولم تكن الستارة قد رُفعت بعد ، وكان الموسيقيون يعزفون الافتتاحية • فعدلت ناتاشا فستانها ، وتقدمت مع صونيا ، فجلستا ، وأخذت تطوف ببصرها على صفوف الشرفات اللألاء التي تقابلها ، فاذا باحساس لم تحسه منذ زمن طويل يعتريها فجأة ، هو الاحساس بأن مئات الابصار تشخص الى عنقها العارية وذراعيها العاريتين ، وقد سرَّها هذا الاحساس وضايقها في آن واحد ، وأيقظ في نفسها جمهرة من الذكريات والرغبات والافعال •

لقد نفتت أنظار الناس كافة هاتان الفتاتان الجميلتان جمالا بارعا ، ولقت أنظارهم الكونت ايليا أندريتش الذي لم يروه بموسكو منذ زمن طويل • وكان الناس عدا ذلك يعرفون نبأ خطبة ناتاشا والامير أندره معرفة غامضة ، وكانوا يعرفون أن آل روستوف يعيشون منذ الخطبة في الريف ، فأخذوا يتفرون بكثير من حب الاطلاع في تلك التي ستتزوج واحدا من أحسن الرجال الذين يُطمع في تزوجهم بروسيا كلها •

وكانت ناتاشا قد ازدادت حسنا وجمالا في الريف • قال لها هذا جميع الناس • وهي في هذه اللحظة قد زادها الانفعال حسنا على حسن وجمالا على جمال • وكان ما يخطف الانتباه فيها هو هذا الفيض من

الحياة والجمال مقترنا لديها بعدم الاكتراث بكل ما حولها • كانت عيناها السوداوان تنظران الى الجمهور دون أن تبحثا عن أحد ، وكانت ذراعها النحيلة العارية الى ما فوق الكوع متكئة على الحافة المكسوة بالمخمل ، وكانت يدها تنقبض وتنبسط على ايقاع موسيقى الافتتاحية فتدعك البرنامج الذي تمسكه على غير شعور منها في أغلب الظن •

قالت لها صونيا :

— انظري ، هذه هي الآنسة آلتين، وأحسب أن التي معها هي أمها •

وقال الكونت الشيخ :

— يا الهي ! سمن ميخائيل كيريلتش مزيدا من السنة •

— انظري الى هذه القبعة على رأس آنا ميخائيلوفنا !

— ها هم أولاء آل كاراجين ، جوليا وأمها ، ومعها بوريس • يلاحظ

المرء فورا أنهما خطيبان •

قال شتشين وهو يدخل شرفة آل روستوف :

— خطبها دروبتسكوي ! طبعاً ! علمت هذا منذ قليل •

نظرت ناتاشا الى حيث كان ينظر أبوها ، فرأت جوليا جالسة بقرب أمها متهللة الاسارير سعيدة الهيئة ، ورأت عقدا من اللؤلؤ في جيدها الاحمر الذي تعرف أنه مطلي بالبودرة ، ورأت وراء السيدتين رأس بوريس الجميل يميل على جوليا مبتسما لينصت الى كلامها ، وقد غني بتصنيف شعره وتبليسه أكبر العناية • وكان بوريس ينظر الى آل روستوف خلسة ، ويكلم خطيبته باسم •

قالت ناتاشا لنفسها : « انهما يتكلمان عني وعنه ، وعن العلاقات التي كانت بيني وبينه . ولا شك أنه يهدىء غيرة خطيبته . لا حاجة الى القلق ! لیتهما يعرفان مدى قلة اكرائي بهما ! » .

وفي الخلف كانت تجلس آنا ميخائيلوفنا وعلى رأسها قبعة خضراء ، وفي وجهها تعبير عن الانتصار ، مع الازعان لمشیئة الله كما تصطنع ذلك دائما . وكانت شرفتهم مشربة بجو الخطبة ، هذا الجو الذي كانت ناتاشا تعرفه جيدا وتحبه كثيرا ، فأشاحت وجهها ، واذا بكل ما أحست به في زيارة هذا اليوم من مشاعر المذلة والمهانة يغزو ذاكرتها على حين فجأة . فقلت لنفسها : « بأي حق لا يريد أن أكون في أسرته ؟ آه .. .
الافضل أن لا أفكر في هذا الامر الى حين عودته ! » ، وأخذت تستعرض وجوه الجالسين في ردهة المسرح ممن تعرفهم او لا تعرفهم ، فرأت في وسط الصف الاول دولوخوف وقد ارتدى لباسا فارسيا ، ورفع جزء شعره الاجعد عالية جدا . كان دولوخوف يحس أنه محط أنظار الصالة كلها ، فكان في مظهره من الطلاقة واليسر ما لا يكون لامرء الا في بيته ؛ وكان يحيط به ألمع شبان موسكو ، وكان واضحا أنه زعيمهم .

لكز الكونت الشيخ صونيا بكوعه ، ودلها ضاحكا على الرجل الذي توله بحبها وطمع في تزوجها ، وكانت صونيا قد تضرع وجهها بحمرة شديدة . سألها الكونت الشيخ :

— هل عرفته ؟

ثم أضاف مخاطبا شنشين :

— ولكن من أين طلع علينا ؟ كان قد اختفى اختفاء تاما ، أليس

كذلك ؟

فأجابه شنشين :

— نعم ، كان في القوقاز ثم هرب ، ويقال انه ذهب الى بلاد فارس
فصار فيها وزيرا لامير حاكم ، وانه قتل أخا الشاه . ويمينا ان جميع
سيدات موسكو مجنونات به . حسبك أن تقول : دولو خوف الفارسي؛
لا حديث الا عنه ، ولا قسم الا به ! ومثل الذي يقيم حفلة ويدعو الى
رؤيته كممثل الذي يولم سمك الحفش على مائدته . ان دولو خوف
وآنا تول كوراجين قد أطارا صواب جميع سيداتنا .

ودخلت الى الشرفة التي تجاور شرفة آل روستوف امرأة فارعة
القوام بارعة الجمال ذات جديلة ضخمة وكتفين يضاوين زاهين عارين
عريا شديدا ، ونحر ناصع مزهو عارٍ عريا شديدا كذلك ، يزين جيدها
عقد ذو صفين من لؤلؤ كبير . دخلت وجلست على مهل فيه كبرياء فكان
لفستانها الحريري الثقيل خفيف مسموع .

لم تستطع ناتاشا الا أن تتأمل هذه العنق ، وهاتين الكتفين ، وهذه
اللالى ، وهذه التسريحة ، فراعها جمال الكتفين ، وأعجبت باللالى .
وفيما كانت تنظر اليها مرة أخرى ، التفت السيدة فوقعت عيناها على
عيني الكونت ايليا أندريتش ، فحيته بحركة من رأسها وابتسمت له .
انها الكونتيسة بيزوخوف ، زوجة بطرس . ومال الكونت الذي يعرف
جميع الناس ، مال نحوها وأخذ يكلمها . قال لها :

— هل وصلت منذ مدة طويلة يا كونتيسة ؟ ساجيء اليك ، نعم ،
ساجيء اليك أقبل يدك . قدمت أنا هنا لاعمال أقضيها ، واصطحبت
بنتي . يقال ان سيمونوفا تمثل تمثيلا رائعا . لقد كان الكونت بطرس
كيريلوفتش يزورنا ، وكان من أوفى أصدقائنا . هل هو هنا ؟

فأجابت هيلين وهي تنظر الى ناتاشا بانتباه شديد واضح :

— نعم ، وكان ينوي أن يجيء ،...

وعاد الكونت يجلس ، وقال يسأل ابنته همسا :

— جميلة ، أليست جميلة ؟

قالت ناتاشا :

— رائعة ! هذه امرأة يمكن التوله بجها •

وفي تلك اللحظة سُمعت النغمات الاخيرة من الافتتاحية ، ثم قرع
رئيس الاركسترا منضدته بعصاه ، فأسرع المتأخرون يجلسون في أماكنهم
بالردهة ، ورفعت الستارة •

وسرعان ما صمت الجميع في الشرفات والردهة ، وانصب انتباه
جميع الرجال ، شبانا وشيوخا ، من كان منهم بيزات عسكرية أو بشياب
رسمية ، وجميع السيدات، العاريات نحوراً وأكتافاً، والمزدانات بالحليّ
ألواناً وأنواعاً ، انصب انتباههم على المسرح بكثير من الاستطلاع النهم
واقترنت ناتاشا بهم •

الفضل التاسع

وسط المسرح مزدان بألواح من خشب ، وعلى جانبيه زينات تمثل أشجارا ، وفي آخره قماش عليه رسوم وصور قد شدد على اطار . وهاته فتيات مرتديات صدرا أحمر وتنورة بيضاء يجلسن من المسرح في وسطه . وهذه احدهن ، وهي فتاة بدينة جدا ، لابسة فستانا من حرير أبيض ، قد انتحت جانبا على مقعد صغير ألصق وراءه كرتون أخضر . ان الفتيات يغنين جوقة واحدة ، حتى اذا انتهين من غنائهن ، تقدمت الفتاة ذات الفستان الابيض من مخبأ الملقن ، وتبعها رجل يلبس سروالا من حرير ملتصقا بجسمه لافا فخذه السمينتين لفا ، وعلى قبعته ريشة وفي حزامه خنجر ، فوقف بجانبها وأخذ يغني محركا يديه بإشارات كثيرة .

غنى الرجل في البداية وحده ، ثم غنت الفتاة وحدها ، ثم صمت الاثنان كلاهما ، واستأنفت الاركسترا عزفها ، وأخذ الرجل يربت بأصابعه على يد الفتاة وفقا لايقاع الموسيقى ، منتظرا اللحظة التي يجب أن يصدح فيه صوتاهما بالغناء معا . وغنيا معا ، فصفت لهما الصالة كلهنا وهتفت مستحسنة ، بينما كان الرجل والفتاة ، وهما يمثلان حبيين ، ينحنيان مبتسمين مباعدين ما بين الذراعين .

وكان طبيعيا من ناتاشا ، وهي واصلة من الريف رأسا ، عدا ما هي عليه من حالة نفسية فيها كثير من الجذ ، أن تجد هذا كله غريبا بل سخيفا . ولم تستطع أن تتابع مجرى أحداث المسرحية الغنائية ، وعجزت حتى عن سماع الموسيقى ، فهي لا تزيد على أن ترى صورا على الشاشة التي في آخر المسرح ، ورجالا ونساء يلبسون ثيابا عجيبة مضحكة ، ويتحركون ويتكلمون ويغنون على نحو غريب تحت ضوء ساطع . لم تكن ناتاشا تجهل ما لا بد أن يمثل هذا كله ، ولكن جميع ما رآته كان يبلغ من الاصطناع والتعقيد والزيف أنها كانت تارة تشعر بخجل عن الممثلين ، وتارة تنتابها رغبة في الضحك عليهم . وكانت تنظر الى وجوه المشاهدين من حولها ، متوقعة أن تكتشف فيها نفس مشاعر السخرية والاستغراب التي تشعر بها ، فتراها جميعا مشدودة الانتباه الى ما يجري على المسرح ، معبرة عن افتتان يبدو لها كذبا وتظاهرا ، . وتقول لنفسها : « لا بد أن هذا كله تظاهر كاذب » . وتنظر الى هذه الصفوف من الرؤوس المدهنة في ردهة المسرح صفا صفا ، وتنظر الى النساء المعرّاة الاكتاف والنحور في الشرفات ، وتنظر خاصة الى جارتها هيلين التي كانت متعرية تعريا شديدا وكانت تتأمل المسرح وهي تبسم ابتسامة هادئة ، ولا تحوّل بصرها عنه لحظة ، مستمتعة بالضياء المتألق في كل مكان وبدفء الصالة ينشره حشد المشاهدين ، فاذا هي تحس بنشوة تتسرب الى نفسها شيئا بعد شيء ، نشوة انقطعت عن الشعور بمثلها منذ زمن طويل ، وبلغت من الشعور بهذه النشوة السكرى الى حيث أمست لا تعرف ماذا تعمل ، ولا أين هي ، ولا ماذا يجري أمام بصرها ، فهي تنظر ولا ترى ، والافكار تتلاحق في خيالها غريبة أشد الغرابة متفككة لا تربط بينها صلة . فتارة يخطر ببالها أن تثب فتصعد

الدرج الى المسرح ، لتغني اللحن الذي تغنيه المثلة ، وتارة تعترها
رغبة في أن تلمس بمرحلتها رأس شيخ قصير يجلس غير بعيد عنها ،
أو أن تنيل على هيلين وتزغزغها •

وفي لحظة صمت فيها على المسرح كل شيء قبيل البدء في قطعة
جديدة من الغناء ، صرّ باب الردهة من جهة شرفة آل روستوف ،
وسمّع وقع خطى مشاهد تأخر عن الوصول في بداية المسرحية • فهمس
شفتين قائلاً : « هذا كوراجين ! » ، والتفت الكوتيسة بيزوخوف
الى القادم الجديد مبتسمة • ونظرت ناتاشا الى حيث نظرت الكوتيسة،
فأبصرت ضابطا مرافقا جميلا جمالا نادرا يقبل على شرفتهم وقد فاضت
هيئته ثقة وكياسة في آن واحد • انه آناطول كوراجين الذي سبق أن
رأته ولاحظته من قبل في حفلة رقص بيطرسبرج • وهو الآن يرتدي
البزة العسكرية التي يرتديها ضابط مرافق بكتفية واحدة تزيناها
زخارف • كان يمشي مشية عسكرية رصينة يمكن أن تبعث على الضحك
والاستهزاء لولا أنه جميل هذا الجمال كله ، ولولا أن وجهه الرائع
يعبّر عن فرح كبير ورضى ساذج يغلان سلاح من يراه • ورغم أن
الفصل الاول من المسرحية بدأ ، فقد كان يمشي على سجادة الممر غير
متعجل ، جاعلا مهاميزه وسيفه ترن رنينا خفيفا ، رافعا رأسه الجميل
المعطرّ عاليا في أبهة وفخامة • فلما رأى ناتاشا تقدم من أخته ، ووضع
يديه الملفوفتين بقفازيهما على حافة الشرفة ، وأومأ لها برأسه ، وسألها
سؤالا بصوت هامس وهو يدللها على ناتاشا ، وقال وهو يعني ناتاشا
حتما ، لان ذلك ظاهرا واضحا :

— فتانة !

لم تسمع ناتاشا هذه الكلمة بأذنيها بقدر ما حذرتها حزراً من
حركة شفثيه •

ثم عاد يلتحق بالصف الاول من مقاعد الردهة ، ويجلس الى جانب
دولوخوف ، ويلكز بكوعه ، دون كلفة ، دولوخوف هذا الذي كان
جميع الناس يسعون الى الحظوة برضاه • فابتسم له دولوخوف وهو
يغمز بعينه غمزا مرحا ، وأسند ساقه الى الدرايزين •

قال الكونت :

— ما أعظم الشبه بين الاخ وأخته ! وما أجملهما كليهما !

فقصّ عليه شنشين بصوت خافت مغامرة جديدة من مغامرات
كوراجين بموسكو ، فكانت ناتاشا تنصت الى ما يرويه شنشين لا شيء
الا لان الشاب وصفها بأنها فتاة •

وانتهى الفصل الاول ، فقام جميع من في الردهة ، وأصبح المرء
لا يرى الا ذهابا وايابا ، وخروجا ودخولا •

وجاء بوريس يحيي آل روستوف في شرفتهم ، فتلقى تهنئاتهم
بكثير من البساطة ، ورجا ناتاشا وصونيا وهو يرفع حاجبيه ويتسم
ابتسامة ذاهلة ، رجاهما باسمه واسم خطيبته أن يحضرا زواجه ثم
خرج • وقد كلمته ناتاشا وهي تبتسم ابتسامة فرحة تفيض دلالا ،
وهنأت بالزواج هذا الشاب بوريس نفسه الذي كانت مولهة بحبه في
الماضي • ان كل شيء كان يبدو لها بسيطا طبيعيا وهي على ما هي عليه
من نشوة سكرى •

وكانت هيلين شبه العارية جالسة بقربها تبتسم للجميع ابتسامة

واحدة هي تلك الابتسامة نفسها التي منّت بها ناتاشا على بوريس •

ولم تلبث شرفة هيلين أن امتلأت وحوصرت بجمهرة من الرجال المرموقين يريد كل واحد منهم أن يرى الناس أنه يعرفها •

وقضى كوراجين كل فترة الاستراحة مع دولوخوف ، مستندا بظهره الى الدرابزين ، شاخصا ببصره الى شرفة آل روستوف • وكانت ناتاشا تعلم أنه يتكلم عنها فسرّها ذلك ، حتى لقد لفتت رأسها بحيث يستطيع أن يرى وجهها من جانب ، اذ كانت تعتقد أن هذا الوضع يبرز جمالها أكثر من أي وضع آخر • وقبل بداية الفصل الثاني طلعت في الردهة قامة بطرس بيزوخوف الذي لم يكن آل روستوف قد رأوه منذ وصولهم • كان بطرس يبدو حزينا ، وكان قد ازداد بدانة وسمنة عن آخر مرة لقيته فيها ناتاشا • وقد مضى الى الصفوف الاولى دون أن يلاحظ أحدا • فاستوقفه آناطول وكلمه مشيرا الى شرفة آل روستوف • فلما رأى ناتاشا انتعشت هيئته وأسرع يمشي بين صفوف المقاعد متجها الى شرفتها ، الى أن بلغ حافة الشرفة ، فوضع كوعه عليها وجعل يحدث ناتاشا مبتسما خلال مدة طويلة • وسمعت ناتاشا في أثناء الحديث صوت رجل في شرفة الكوتيسية بيزوخوف ، فأدركت (دون أن تعرف كيف !) أن الرجل هو كوراجين ، حتى اذا التفتت التقى بصرها ببصره • كان كوراجين يتأملها متفرسا وقد أملت بشفتيه ابتسامة خفيفة ، يتأملها بعينين تبلغان من الحماسة والحرارة والملاطفة والمودة أنها أدهشها أن تكون قريبة منه هذا القرب كله ، وأن تظل تنظر اليه هذه النظرة ، وأن تثق هذه الثقة كلها بأنها ظفرت باعجابه رغم أنها لمّا تعرفه بعد •

وكان ديكور المسرح في الفصل الثاني يمثل أضرحة ورموساً ، وكان في الشاشة المصوّرة التي تقع في آخر المسرح ثقب يمثل القمر . ورفعت عاكسات النور في الدرابزين ، وأخذت الابواق وآلات الكمان الضخم تعزف عزفا خفياً ، وتقدمت جمهرة من الناس من يمين ومن يسار لابسة ثياباً سوداء ، وأخذت تحرك أيديها بإشارات ، وتهز أشياء تشبه الخناجر ، ثم هرعت طائفة أخرى تريد أن تختطف الفتاة التي كانت في الفصل الأول تلبس فستاناً أزرق وهي تلبس الآن فستاناً أزرق كابي اللون . ولكنهم لم يجروها على النور ، بل لبثوا يغنون معها زمناً طويلاً ، حتى اذا انتهى الغناء اقتادوها ، وسُمع وراء الكواليس صوت معدنٍ يُقرع ثلاث مرات ، فخرّ جميع الممثلين عندئذ رُكعاً وصدحت أصواتهم بصلاة . وقد قاطع المشاهدون هذه المناظر المختلفة بصيحات الحماسة مرارا .

وكانت ناتاشا ، كلما ألقت نظرة على الردهة في أثناء هذا الفصل ، ترى آنا تول كوراجين ملتفتاً إليها يتأملها ، جاعلاً ذراعه وراء ظهر مقعده ، فيسرها أن تراه مفتوناً بها ولا يخطر ببالها أن في هذا أي سوء .

حتى اذا انتهى الفصل الثاني نهضت الكوتيسة بيزوخوف ، والتفتت الى شرفة آل روستوف (وكان نحرها عارياً عرياناً تاماً) ، ونادت الكونت بإشارة من اصبعها المكسوة بالقفاز ، وأخذت تحدثه مبتسمة ابتسامة تفيض بالمودّة دون أن تولي أولئك الذين ملأوا شرفتها أي انتباه . قالت له :

— هلاًّ عرفتي بينتيك الفتاتين ! أتحدث المدينة كلها عنهما ولا أعرفهما ؟

فقامت ناتاشا ، وحيّت الكوتيسة الخلاّبة بثني ركبتهما احتراما ،
وتضرجت وجنتاها سرورا بهذا المديح تزجيه لها هذه المرأة ذات
الجمال الباهر •

وتابعت هيلين كلامها تقول :

— أنا أيضا أريد ان اصبح من سكان موسكو حقا • ألا تستحي
أن تدفن مثل هذه اللآلئ في الريف ؟

كانت الكوتيسة بيزوخوف معروفة بأنها ساحرة • انها تعرف
كيف تعلن ما لا تضر ، وكيف تظهر ما لا تبطن ، وكانت تشتهر خاصة
بأنها تحسن ازجاء المديح والثناء ببساطة لا يبدو فيه أثر من تكلف •

أضافت تقول :

حقا يا كونت ! دعني أعني بينيتك • صحيح انني لست مقيمة
هنا زمنا طويلا • ولكن اقامتكم اتم لن تطول كثيرا أيضا • فاسمح لي
أن أسليها خلال هذه المرة •

وتابعت تقول مخاطبة ناتاشا وهي تبسم ابتسامتها الواحدة نفسها :
— سمعت عنك كثيرا ببطرسبرج ، فوددت لو أعرفك • وسمعت
عنك أيضا من غلامي دروبتسكوي ، وهو يوشك أن يتزوج كما
تعلنين • وسعت عنك كذلك من صديق لزوجي هو بولكونسكي ،
الامير أندره بولكونسكي •

وقد شددت هيلين على هذا الاسم لتفهم ناتاشا أنا تعرف ما
بولكونسكي عندها ؛ طلبت من الكونت أن يسمح لاحدى الفتاتين
بجالتها في شرفتها بقية المسرحية زيادة للتعارف ، فذهبت اليها
ناتاشا •

كان الفصل الثالث يمثل قصرا تشتعل فيه شموع كثيرة ، وتزين جدرانه صور فرسان ذوى لحى صغيرة ، ويقف في وسطه شخصان لا شك أنهما الملك والملكة . ويحرك الملك يده بإشارة ، ويفني لحنا من الالحان غناء رديئا وقد بدا عليه خجل واضح ، ثم يجلس على عرش بلون القטיפه . والفتاة التي رأيناها لابسة فستانا ابيض ، فستانا أزرق ، لا يكسوها الآن الا قميص ، وهي تقف بقرب العرش مبعثرة الشعر ، فتغني لحنا حزينا تتجه به الى الملكة ولكن الملك يحرك يده بإشارة قاسية ، فاذا برجال عارية سيقانهم ونساء عارية سيقانهن ينبجسون من الجهتين راقصين . ثم تعزف آلات الكمان عزفا خفيفا مرحا ، وتنفصل احدى النساء ذوات السيقان البدنية والاذرع النحيلة من الاخريات ، وتنسحب الى ما وراء الكواليس ، فتعدل صدارها ، ثم تنطلق الى وسط المسرح وتأخذ ثب وتضرب احدى قدميها بالقدم الاخرى ضربا قويا . فيصفق لها جميع المشاهدين الجالسين في ردهة المسرح ، ويهتفون معبرين عن الاستحسان والاعجاب . ثم يمضي أحد الرجال الى ركن من المسرح يقف فيه ، وتأخذ آلات الصنج والابواق تعزف عزفا أقوى ، فينطلق هذا الرجل العاري الساقين يثب وحده وثوبا عاليا جدا ويضرب قدميه احدهما بالآخرى (ان هذا الرجل هو دوبو^(١) الذي كانت ممارسة هذا الفن يدر عليه ربحا قدره ستون ألف روبل في السنة) فاذا بجميع من في الردهة ومن في الشرفات ومن في المقاصير العليا يصفقون يصيحون ويطلقون هتافات الاستحسان بكل ما أوتوا من قوة ، فيقف الرجل يتسم ويحيي ملتفتا بتحيته الى جميع الجهات .

(١) راقص فرنسي وصل الى روسيا سنة ١٨٠٨ .

ثم يرقص آخرون ، رجالا ونساء عارية سيقانهم ، ثم يصدح صوت الملك أو الملكة بكلمات ترافقها الموسيقى ، فينطلق جميع من على المسرح يغنون جوقة واحدة • ولكن عاصفة تهب على حين فجأة ، وتعزف الاركسترا سلالهم موسيقية ملونة وألحانا على الطبقة السابقة الصغرى ، فيأخذ الجميع يركضون ، ويقاد أحد الممثلين مرة أخرى الى ما وراء الكواليس ، وتسدل الستارة • فيعود الصخب يعلو في ردهة المسرح قويا لا يوصف ، ويصيح كل مشاهد في حماسة قائلا :

— دوبور ! دوبور ! دوبور !

وكانت ناتاشا قد انجرفت ، فلم تعد تجد في هذا أمرا عجيبا •
وقالت هيلين تسألها :

— أليس مدهشا دوبور ؟

فأجابتها ناتاشا :

طبعا !

الفصل العاشر

هب هواء بارد على شرفة هيلين أثناء الاستراحة بين الفصلين •
لقد فتح باب الشرفة ، ودخل آناطول منحنيا محاذرا أن يصدم أحدا •
قالت هيلين وهي ترفع عينها من ناتاشا الى آناطول قلقلة الهيئة :
— اسمحي لي أن أعرفك بأخي •

فأدارت ناتاشا رأسها الجميل الى الفتى الوسيم ، وابتسمت له
من فوق كتفها العارية • ان آناطول الذي يلوح جميلا من بعد ، يبدو
جميلا من قرب أيضا • وها هو ذا يجلس الى جانبها ويقول لها انه
يرغب في معرفتها منذ زمن طويل ، منذ حفلة الرقص التي أقيمت في
منزل آل نارشكين وسره أن يراها فيها سرورا لم يفارق ذاكرته • ان
آناطول كوراجين يبدو في مخاطبة النساء أذكى وأبسط كثيرا منه في
مخاطبة الرجال • فهو يكلم النساء بجرأة ليس فيها تكلف ، فما كان
الدهشة والمتعة التي شعرت بهما ناتاشا حين لم تجد في هذا الرجل
الذي تقال عنه الاقاويل شيئا يدعو الى الخوف والرهبة ، وحين رآته
يبتسم ابتساماً لا يضارعه في سذاجته وفرحه ومودته ابتسام •

سألها كوراجين عن رأيها في المسرحية ، وذكر لها أن سيميونوفا

قد سقطت على أرض المسرح في العرض السابق أثناء التمثيل • ثم قال لها فجأة بلهجة طليقة وكان معرفته بها ترجع الى عهد بعيد :

— هل تعلمين يا كوتيسة ؟ سوف نقيم حفلة فروسية بملابس تنكرية ، فيجب أن تشاركى في هذه الحفلة • لتكونن حفلة مسلية جداً . سوف تتجمع عند آل آرخاروف • تعالى ، أرجوك ، هل تجيئين ؟

كان وهو يقول هذا الكلام لا يحول عينيه الباسمتين عن وجهها وجيدها وذراعيها العاريتين فأيقنت بأنه معجب بها اعجاباً لا مجال للشك فيه ، فسرّها ذلك ، ولكنها أخذت تشعر — دون أن تعرف لهذا سبباً — أخذت تشعر وهي معه بحرج ما ينفك يشتد • صارت اذا تحولت عنه تحس بوطأة نظراته على كتفها ، فتدفعها غريزتها أن تشد نظراته الى وجهها لينصرف بصره عن كتفها • ولكنها تنظر الى عينيه فيروعها أن تحس أن حاجز الحياء والخفر الذي يقوم بينها وبين غيره من الرجال ، لا وجود له بينها وبينه • ثم لم تنقض خمس دقائق حتى شعرت بأنها قريبة من هذا الرجل قرباً شديداً دون أن تعرف كيف حدث هذا • وصارت اذا هي تحولت عنه تخشى أن يمسك ذراعها العارية من خلف ، وأن يطبع على جيدها قبلة • وقد تكلما في أمور مبتذلة تافهة ، فكانت تحس أنهما قريبان قرباً لم تشعر بمثله مع رجل آخر • وألقت نظرة على هيلين وعلى أبيها ، فأما هيلين فكانت مشغولة بحديثها مع جنرال ، فلم ترد على نظرتها ، وأما أبوها فكانت نظراته لا تقول شيئاً غير ما تقوله دائماً ، وهو : « يسرنى جداً أن تتسلي ! »

وفي لحظة من لحظات الصمت المرتبك التي كان آنا تول يتأملها أثناءها بعينه النجلاوين في عناد ، أرادت ناتاشا أن تقطع الصمت

فسأئنه هل يجب موسكو ، فما أن أفلت منها هذا السؤال حتى تخرج وجهها . وكانت تحس في كل لحظة أنها بسحادثتها هذا الشاب ترتكب عملا لا يليق ولا يحسن . فابتسم لها آنا تول يشجعها ، وقال يجب عن سؤالها وهو ينظر اليها نظرة ذات مغزى :

— لم أحب موسكو كثيرا من قبل ، لان الشيء الذي يجعل مدينة من المدن مبهجة ممتعة هو النساء الجميلات ، أليس هذا صحيحا؟ أما الآن فقد صرت أحب موسكو كثيرا . هل تأتين الى حفلة الفروسية يا كوتتيسة ؟ أرجوك أن تأتي ...

ثم أضاف يقول بصوت خافت وهو يمد يده الى باقة ناتاشا :
— لسوف تكونين أجملهن كافة . تعالي يا عزيزتي الكوتتيسة ، واعطيني هذه الزهرة رهنا .

لم تفهم ناتاشا ما قاله ، ولا هو نفسه فهمه ، ولكنها احست ان هذه الكلمات التي ليست مفهومة تشتمل على شيء غير لائق . ولم تعرف بم تجيبه ، وماذا تقول له ، فأشاحت عنه كأنها لم تسمع . ولكنها ما ان تحولت عنه حتى عاد يحاصر فكرها انه هنا ، أنه وراءها ، أنه قريب منها كل القرب ، وأخذت تتساءل : « ما الذي يفكر فيه الان ؟ أهو خجلان مضطرب ؟ أهو زعلان غاضب ؟ هل يجب أن أسوي الامر؟ » ثم لم تستطع ان تمتنع عن الالتفات اليه ، فنظر الى عينيها نظرة ثابتة ، فاذا بحضوره القريب ، وثقته الهادئة ، وما تدل عليه ابتسامته من مودة وأخاذه ، اذا بهذا كله يستولي عليها ، واذا هي تنظر اليه كنظرته اليها ، وتبتسم له كابتسامته لها ، واذا هي تحس مرة اخرى ، على ارتياح ورهبة ، ان ليس بينها وبينه أي حاجز .

وأزيحت ستارة المسرح . فخرج آنا تول من الشرفة هادئا مرحا .

وعادت ناتاشا الى شرفة اييها وقد أسرها الان هذا العالم الذي هي فيه .
صار كل ماتراه يبدو لها طبيعيا لا تكلف فيه ، ولم يخطر ببالها مرة واحدة
ما كان يجول في فكرها قبل ذلك من خواطر عن خطيبها وعن الاميرة
ماريا ، فكأن هذا كله ينتمي الى ماض بعيد ، موغل في البعد .

وفي الفصل الرابع انبجس نوع من شيطان اخذ يحرك يديه بإشارات
كثيرة ، وظل يعني الى ان فتحت له فرجة غار فيها . ذلك كل ما رأيته
ناتاشا من هذا الفصل .

كان شيء يث الاضطراب في نفسها ويعذبها تعذيبا ، وكان سبب
اھتياجها هذا هو آناطول كوراجين الذي كانت تتابعه بصرها رغم
ارادتها . وعند الخروج من المسرح ، اقترب آناطول من آل روستوف ،
وامر بأن تتقدم عربته ، وأركبهم فيها . وبينما كان يساعد ناتاشا في
الركوب ضغط على ذراعها فوق الكوع ، فتضرجت ناتاشا واضطربت ،
والتفتت اليه ، فكانت عينا آناطول تتألقان ، وكان ينظر اليها مبتسما
برقة وحنان .

لم تستطع ناتاشا ان تعي كل ما حدث لها وعيا كاملا الا حين
العودة الى المنزل . هناك تذكرت الامير آندره فجأة فاعتراها رعب
شديد ، وفيما كانوا يحتسون الشاي بعد الرجوع من المسرح تخضب
وجهها بحمرة شديدة وأفلتت منها صرخة أمام الجميع ، وولت هاربة .
قالت لنفسها : « رباه ! لقد هلكت ! كيف أمكن أن أسمح بهذا ؟ » .
ولبت على هذه الحال مدة طويلة ، دافئة وجهها المضرج في يديها ،
محاولة ان تدرك ما حدث لها ادراكا واضحا ، ولكنها لم تستطع ان تفهم
لا ما وقع لها ولا ما تشعر به . بدا كل شيء لها مبهما غامضا مشوشا ،
مخيفا مرعبا . هناك ، في تلك الصالة الواسعة المتلألئة بالألوان ، حيث
كان دوبور يثب على ايقات الموسيقى فوق الالواح الرطبة بساقية

العاريّتين وصداؤه الصغير الموش بالترتر ، وحيث كان انفتيات والشيوخ وهيلين المتعريّة المبتسمة ابتسامة هادئة متعالية يطلقون هتافات الاستحسان المتحمسة الحارة ، هناك ، في ظل هيلين تلك ، وفي كنفها ، كان هذا كله في نظر ناتاشا بسيطاً وواضحاً . اما الآن وقد خلت ناتاشا الى نفسها بأنها امست لا تفهم شيئاً البتة ، وصارت تتساءل : « ما هذا ؟ ما هذا الخوف الذي يشبه في نفسي ؟ ما معنى عذاب الضمير هذا الذي يمضني الآن ؟ »

وما كانت ناتاشا لتستطيع أن تبوح بما بنفسها لغير أمها الكونتيسة حين تزورها في الليل وهي راقدة على سريرها . أما صونيا فانها لتعرف مما عهدته فيها من نظرة الى الامور قاسية وكلية انها اما ان تفهم من اعترافها شيئاً ، واما أن يروّعها هذا الاعتراف ترويعاً هائلاً .

وأخذت تتساءل : « هل ضعت من ناحية حبي للأمير آندره ؟ » ، ولكنها لم تلبث ان سارعت تطمئن نفسها قائلة وهي بتبسم ! « ما اغباني اذ ألقى هذا السؤال ! ما الذي حدث ؟ لا شيء البتة ! انا لم ارتكب اثماً ، أنا لست مسئولة عما وقع . ولن يعلم أحد بشيء . ولن أراه بعد اليوم ابداً . نعم ، الامر واضح ، لم يحدث شيء ، وليس لي ان اندم على خطيئة ارتكبتها ، ولا يزال في وسع الامير آندره ان يحبني كما أنا الآن . ولكن ما أنا الآن ؟ آه ، رباه رباه ، لماذا ليس هو هنا ؟ » . كانت ناتاشا تهدأ لحظة ، ثم ما تلبث غريزة خفية أن تقول لها أن ما كان يتصف به حبها للامير آندره من نقاء وطهارة قد زال ، رغم أن كل ماتقول لنفسها صحيح ، ورغم أنه لم يحدث شيء ، ثم تعود تستعرض بخيالها الحديث الذي دار بينها وبين آناطول كوراجين ، وترى وجهه وحركاته وإشاراته ، وترى الابتسامة الرقيقة على ثغر هذا الفتى الجسور الجميل لحظة ضغط ذراعها .

الفصل الحادى عشر

ان آناطول كوراجين بموسكو لأن أباه طرده من بطرسبرج حيث كان ينفق أكثر من عشرين ألف روبل في السنة ، وكانت تتراكم عليه الديون وكان الدائنون يطالبون أباه بسداد هذه الديون .

وقد وافق الاب على أن يدفع عن ابنه نصف ديونه لآخر مرة ، بشرط أن يسافر على الفور الى موسكو ضابطا مرافقا للحاكم العسكري ، وهو منصب حصل له عليه ، وأن يبذل كل ما يستطيع بذله من مساعٍ ليتزوج فتاة وارثة غنية ، وسعى له الاميرة ماريا وجوليا كاراجين .

قبل آناطول ما عرضه عليه أبوه وسافر الى موسكو ونزل ضيفا على بطرس . وقد استقبله بطرس في أول الامر ممتعضا ، ولكنه ألفه بعد ذلك ، حتى لقد شاركه مغامراته أحيانا ، وكان يعطيه مالا على سبيل القرض .

صدق شنشين حين قال ان آناطول قد ذهب بصواب جميع السيدات منذ وصوله الى موسكو ، لا سيما وانه كان يهملهن ويؤثر عليهن العجريات والممثلات الفرنسيات اثارا صريحا ، ومن هاته الممثلات مدموازيل جورج التي كانت تعد خيلته . كان لا يفوت احتفالا عند دانيلوف وغيره من المقبلين على ملذات الحياة بموسكو ، وكان يقضي ليالي كاملة يسقى الخمرة في صحبة اكثر السكارى ولعاً بالشراب

وأغرافاً وانرافاه، وكان يحضر جميع السهرات وجميع حفلات الرقص التي تقام في المجتمع الراقي . والناس يتناقلون عددا من مغامراته مع سيدات موسكوبيات ، وهو في حفلات الرقص يغازل سيدات أخريات . أما الفتيات ، ولا سيما الوارثات الغنيات ، وأكثرهن دميمات ، فقد كان ينأى عنهن ما وسعه النأي ، خاصة وأنه متزوج منذ سنتين ، وذلك أمر لا يعرفه الا الخلفاء من أصدقائه . ذلك انه قبل سنتين ، حين كان فوجه معسكرا في بولنده ، قد اجبره بولندي من الريف على أن يتزوج ابنته .

ولم يلبث آناطول أن هجر امرأته ، وحصل من حميه على حق التظاهر بأنه عازب مقابل مبلغ تعهد بأن يدفعه له كل شهر .

ان آناطول راضٍ دائما عن حظه ، وعن نفسه ، وعن الآخرين ، وهو بفريزته مقتنع اقتناعا عميقا قويا بأن الحياة التي يحياها هي الحياة الوحيدة التي تناسب طبيعته ، وبأنه لم يصنع سوءا في يوم من الايام . انه عاجز عن فهم العواقب التي يمكن أن تنشأ عن عمل من أعماله ، وعاجز عن أن يتصور ما قد يكون لهذا الفعل أو ذاك من أفعاله من أثر في غيره . كان مؤمنا ايمانا قاطعا بأن الله خلقه لينفق ثلاثين ألف روبل في السنة ، ويحتل في المجتمع أعلى منزلة ، كما خلق البطء ليعيش في الماء . وكان يبلغ من الايمان بهذا أن الآخرين اذا رأوه شاطروه هذا الاقتناع ، فلم يغفوا عليه لا بأعلى منزلة في المجتمع الراقي ، ولا بالمال الذي يقتضيه من أي انسان يراه وهو لا ينوي أن يردئه اليه طبعاً .

لم يكن آناطول مقامرا ، أو قل على الاقل انه لم يسعى الى الربح أبدا . ولم يكن مفترا متباها ، ولان كان يعبأ بما قد يرى فيه الناس من

رأي ، وما قد يقولونه فيه من قول ، ولا كان يسكن اتهامه بأنه ذو طموح ، فكم من مرة ثارت ثائرة أبيه لانه عرض نفسه لخطر فقدان رتبته العسكرية ، وما أكثر ما كان يسخر بالامجاد ، ولا يحفل بها ، ولا يكثر لها . ولم يكن بخيلا ، فانه لا يمنع مالا عن أحد يطلبه منه . ان الشيء الوحيد الذي يحبه هو الملذات والنساء ؛ ولانه كان لا يرى في هذا الميول أي سوء أو شر ، وكان عاجزا عن التنبؤ بما قد يلحقه ارضاء هذه الميول بالآخرين من أذى ، كان يعتقد صادقا بأن سلوكه لا مأخذ عليه ، وكان يحتقر التافهين والجبناء والاشرار ، ويرفع رأسه مطمئن البال مرتاح الضمير .

ان هؤلاء الرجال الذين ينغمسون في ملذات الحياة يكونون في قرارة أنفسهم مقتنعين بأنهم غير آثمين ، وذلك شعور يقوم عند الخطاة من الرجال على نفس ما يقوم عليه عند الخطاة من النساء ، أعني الامل في الغفران . « سيُغفر لها كثيرا لانها أحبت كثيرا ، وسيُغفر له كثيرا لانه تسلى كثيرا . »

كان دولوخوف قد رجع الى موسكو في تلك السنة بعد منفاه ومغامراته في فارس ، وكان يعيش حياة فخمة يقامر ويقصف ويهلو ، وكان قد جدد علاقته بآنا تول كوراجين ، رفيقه في الماضي بيطرسبرج ، فكان يستخدمه لتحقيق أهدافه والوصول الى مآربه .

كان آنا تول يحب دولوخوف حبا صادقا ، لذكائه وبسالته . وكان دولوخوف في حاجة الى اسم آنا تول كوراجين ورتبته وصلاته ليجتذب الشبان الاغنياء الى عصبة المقامرین الذين يقامر معهم ، فكان يستخدمه دون أن يدع لذلك أن يظهر عليه ، وكان في قرارة نفسه يسخر منه .

على أنه كان لا يخضع في هذا للحساب وحده ، فان السيطرة على ارادة انسان كانت وحدها تسره وتبهجه ، وكانت قد أصبحت عادة من عاداته وحاجة من حاجاته •

أحدثت ناتاشا في نفس آناطول أثرا قويا • فلما كان يتعشى مع آناطول بعد الخروج من المسرح،حدثت آناطول عن جمال الفتاة بالتفصيل، حديثَ الخبير العارف ، ومدح ذراعيها وكتفيها ورجليها وشعرها ، وأعلن له جازما أنه عزم أمره على مغازلتها • أما النتيجة التي يمكن أن يؤدي اليه عمله هذا ، فانه عاجز عن التفكير فيها والتنبؤ بها ، كعجزه عن معرفة عواقب أفعاله دائما •

قال له دولوخوف :

— هي جميلة يا عزيزي ، ولكنها ليست لنا •

فأجابه آناطول :

— سأكلف أختي بأن تدعوها الى العشاء ، ما رأيك ؟

— بل انتظر الى أن تتزوج ...

قال آناطول :

— اسمع ! انني أحب الفتيات الصغيرات حب العباداة : لانهن سرعان

ما يطيش صوابهن •

فأجابه دولوخوف وهو يعلم بالزواج الذي أنجب عليه آناطول

اجبارا :

— سبق أن وقعت في شرك فتاة صغيرة ، فكن من أمرك على حذر !

قال آناطول وهو يضحك ضحكا فيه بساطة وبراءة :

— لا يقع المرء في شرك مرتين ، أليس كذلك ؟

الفصل الثاني عشر

لم يخرج آل روستوف غداة ذهابهم الى المسرح ، ولا زارهم أحد . وكانت ماريا ومترفيينا تحدث ايليا آندريتش مستخفية عن ناتاشا . فحزرت ناتاشا أنهما يتكلمان عن الامير الشيخ ، وانهما يرسمان خطة ، فأقلقها هذا وجرح كبرياءها . كانت تنتظر الامير آندره في كل لحظة ، حتى أنها في ذلك اليوم أرسلت البواب الى شارع فوزروفينجكا مرتين يستطلع الاخبار ، فكان يرجع اليها في كل مرة قائلاً ان الامير آندره لم يصل . وأصبح اذعانها يشق على نفسها اكثر مما كان يشق عليها فسي الايام الاولى من وصولها . وقد أضيف الان الى نقاد صبرها والى حزنها الناشئ عن غيابه ، انها تذكر تلك الذكرى الاليمة عن لقاءها الاميرة ماريا والامير الشيخ ، وأنها تشعر بخوف وقلق لاتعرف لهما سبباً . كان يتراءى لها في كل لحظة أنه قد لا يجيء أبداً ، أو أن شيئاً قد يقع لها هي قبل أن يجيء . وغدت لاتستطيع أن تفكر فيه طويلاً حين تخلو الى نفسها ، فما ان تفكر فيه حتى تضم الى ذكراه ذكرى الامير الشيخ ، والاميرة ماريا ، وذكرى المسرحية الاخيرة وذكرى آنا تول كوراجين . وعادت تتساءل أليست آثمة منذ الآن ؟ ألم تخزن العهد الذي قطعته للامير آندره منذ تلك الليلة في المسرح ؟ وكم من مرة فاجأت نفسها ستعرض في خيالها بالتفصيل كل كلمة وكل حركة وكل نأمة في وجه

ذلك الرجل الذي استطاع أن يوقظ في نفسها شعورا مفزعا كل هذا الفزع ، مبهما كل هذا الابهام فلا سبيل لها الى فهمه . وكانت فائشا تبدو في نظر ذويها اكثر اتعاشا من عهد مر بها ، ولكن الواقع انها لم تكن في مثل الطمأنينة والسعادة التي كانت فيهما من قبل .

وفي صباح يوم الاحد اقترحت ماريما دمترينا على ضيوفها أن يسمعو القداس في كنيسة « الصعود » ، كنيسة حيّهما ، وقالت معتزة باستقلال رأيها اعتزازا واضحا :

— أنا لا أحب تلك الكنائس التي على الموضة ! ان الله هو الله في كل مكان . وان في كنيستنا كاهنا ممتازا يجيد تلاوة القداس ، وكذلك الشماس ، والقداس فيه جد وصرامة ، أما تلك الموسيقى التي يعزفونها في مكان مقدس ، فاني أكرهها ، وأعدها خفة وطيشا ، بل أعدها تدنيا للقدسيات .

كانت ماريما دمترينا تحب أيام الاحد ، وكان يسرها أن تحتفل بها . فنزلها يغسل ويُنظّف منذ السبت ، وخدمها وهي نفسها لا يعملون يوم الاحد ، والجميع يرتدون أجمل الحلل ويذهبون الى الكنيسة لحضور القداس ، ومائدة الاسياد تكون أحفل بألوان الاطعمة ، والخدم يعطون فودكا وأوزة مقلية او خنزيرا رضيعا .

ولكن لاشيء في المنزل يعبر عن الاحتفال بيوم الاحد كما يعبر عنه وجه ماريما دمترينا العريض الصارم الذي تجلله الابهة كلما جاء يوم الاحد .

فلما رجعوا من الصلاة ، وفرغوا من احتساء القهوة في الصالون الذي نزعّت أغطيته ، جاء من يبلغ ماريما دمترينا أن المركبة تنتظر في

الباب ، فنهضت ماريا دمتريفنا وقد لبست الشال الذي تلبسه حين تقوم بزيارات ، وقالت متجهة الوجه انها ذاهبة الى الامير نيقولا آندرييتش بولكونسكي تفتاحه في أمر ناتاشا .

وما ان مضت ماريا دمتريفنا حتى جاءت خياطة تسأل عن آل روستوف موفدة من مدام شالميه ، فسرّت ناتاشا بهذا الالتقاء اكبر السرور ، وقامت الى الغرفة المجاورة للصالون فأغلقت عليها بابها وتهيأت لتجريب ثيابها الجديدة . فلما شرعت تجرب صدارا قد سرج تسريجا ولا اكمام له بعد ، وفيما كانت مائلة برأسها الى وراء لترى أهو حسن الظهر ، اذا هي تسع في الصالون صوت أبيها منتعشا وصوت امرأة جعل وجهها يتضرج . انه صوت هيلين ، واذا الباب يفتح قبل أن يتسع وقتها لخلع الصدار ، واذا الكونتيسة بيزوخوف تدخل متألفة الوجه بابتسامتها الودود التي تشبه ان تكون ابتسامة طفل ، مرتدية فستانا عالي الياقة من مخمل بلون البنفسج . قالت لناتاشا التي تخضب وجهها بالحمرة :

— آآآ عزيزتي الحلوة العذبة ! فتانة !

وأضافت تخاطب الكونت الذي تبعها :

— حقا ان امركم لغريب عجيب ! كيف يكون المرء بموسكو ثم لا يذهب الى اي مكان ؟ لا ، لن أترككم ! ان مدموازيل جورج تلقي عندي أشعارا هذا المساء ، وسيكون معي عدد من الاصدقاء . فاذا لم تجيء بينيتيك الجميلتين الرائعتين ، فلن أعرفك بعد الان . ليس زوجي هنا ، فقد سافر الى تفير ، ولولا ذلك لارسلته اليكم ليحيي بكم . فقالوا حتما ، حتما ، في نحو الساعة التاسعة .

وحيت الخياطة بحركة من راسها ، وكانت تعرفها ، فردت الخياطة التحية بحني ركبتها احتراما .

ثم جلست على أريكة بقرب المرأة وهي تسوّي حول جسمها ثنيات
فستانها المخملي بكثير من الحذق والفن • ولم تكف عن الثرثرة في مرح
وبساطة طيبة ، منتشية بجمال ناتاشا • وقد انعمت النظر في فساتينها
فمدحتها ، ومدحت كذلك فستانا لها يجاري آخر صيحة من صيحات
الموضة كانت قد تلقته في الاونة الاخيرة من باريس ، وهو مصنوع من
شف معدني ، ونصحتها بأن تطلب فستانا مثله • وختمت كلامها تقول :

— على كل حال ، ما من شيء تلبسينه الا ويصبح جميلا بديعا •

كانت ابتسامة سرور لا تفارق وجه ناتاشا ، وكانت تحس انها سعيدة
وكان محيطها يتفتح ويزهر وهي تسمع المديح من هذه الكونتيسة
الاخاذة ، بيزوخوف ، التي بدت لها في أول الامر سيدة كبيرة يتهيب
المرء أن يكلمها ، والتي تبدى لها الان هذه المودة الطيبة كلها • وسرعان
ما غزا المرح والفرح نفس ناتاشا ، حتى كادت تحس انها مولعة بحب هذه
السيدة التي نبلغ هذا المبلغ من الجمال والبشاشة • وكانت هيلين من
جهتها قد أعجبت بناتاشا اعجابا صادقا • وكان اخوها آنا تول قد سألها
أن تهيء له لقاء مع ناتاشا • ولهذا الغرض انما جاءت تزور آل روستوف
كانت ترى أن التقرب بين ناتاشا وأخيها مبعث مسرة وتسلية •

ورغم أنها غضبت في الماضي من ناتاشالان ناتاشا انتزعت منها بوري
بيطر سبرج ، فانها الان لاتفكر في هذا الامر ، وهي الان تريد لها الخير
صادقة ، ولكن على طريقته الخاصة ، وحين قامت تنصرف انتحت بناتاشا
التي أصبحت راعيتها وحاميتها ، انتحت بها جانبا وقالت لها :

— تعشى اخي عندي بالامس ، فكدنا نطس ضحكا منه • أصبح
لا يأكل من فرط هيامه بغرامك يا فتاتي • انه مجنون حبا بك ، مجنون
حقا يا عزيزتي •

فاحسرت ناتاشا حتى صارت بلون القرمز . فقالت هيلين معلقة على احمرارها :

— آه ... ما أشد ما تحمر ، ما أشد ما تحمر ، عزيزتي العذبة ! اللذيذة ! اتفقنا اذن . سوف تجيئون ، أليس كذلك ، اذا كنت تحبين رجلا يا عزيزتي الحلوة ، فليس يدعوكم هذا الى أن تحبسي نفسك بين جدران أربعة . هبي ! نك قطعت له على نفسك عهدا بأن تكوني له ، فاني لملئ يميني بأنه يتسنى ان تخرجي الى المجتمع في غيابه لا أن تدبلي ضجرا من العزلة والوحدة .

حدثت ناتاشا نفسها قائلة : « هي تعرف اذن انني مخطوبة ، فلا شك أنها تحدثنا في هذا الامر ، هي وزوجها بطرس ، ذلك الرجل الشريف المستقيم ، فضحكا مما حدث ضحكا كثيرا ، فليس اذن فيما حدث بأس ، وليس عليه مأخذ » . هكذا أصبح ماكان يبدو لها منذ قليل أمرا رهيبا فطيعا ، يبدو لها الان بتأثير هيلين شيئا بسيطا طبعيا . وقالت لنفسها وهي تنظر الى هيلين بعينين واسعتين مشدوهتين : « هي سيدة عظيمة تبلغ غاية اللطف ، وواضح أنها تحبني حبا صادقا . فلماذا لا أتسلى ؟ » رجعت ماريا دمترفينا في ساعة العشاء صامتا عابسة ، فكان واضحا أن مساعيها لدى الامير الشيخ قد باءت بالخذلان . كانت لاتزال محتاجة من المجادلة التي قامت بينها وبين الامير الشيخ احتياجا شديدا ، فلا تستطيع أن تقص ماجرى قصاصا هادئا . وحين سألتها الكونت أجابت بأن الامور تجري مجرى حسنا ، وأنها ستروي كل شيء غدا . ولما علمت بزيارة الكونتيسة هيلين بيزوخوف ، وبدعوتهما آل روستوف الى سهرة في منزلها ، قالت :

— أنا لا أحب التردد على السيدة بيزوخوف ، ولا أنصحكم بذلك ولكنها استدركت تقول لناتاشا :

— ولكن مادمت قد وعدتها ، فاذهي فتسلي .

الفصل الثالث عشر

اصطحب الكونت إيليا آندرئتش فتاتيه الى منزل الكونتيسة
بيزوخوف • وكان في المنزل عدد كبير من الضيوف لا تكاد تعرف منهم
ناتاشا أحدا • ساء الكونت إيليا آندرئتش أن يلاحظ أن معظم الضيوف
من رجال ونساء اشتهروا بالتحلل • وكانت مدموازيل جورج جالسة في
ركن من الصالون يحدق بها حشد من الشبان وكان بين المدعوين عدد
من الفرنسيين منهم ميتيفيه الذي أصبح منذ وصول هيلين أحد
رواد المنزل الخلاء • قرر الكونت إيليا آندرئتش أن لا يقامر ، وأن
يلازم ابنته ، وأن ينصرف متى انتهت مدموازيل جورج من تمثيلها •
كان آناطول واقفا على الباب يترقب وصول آل روستوف • فما ان
سلم على الكونت حتى دنا من ناتاشا وتبعها • ولم تكذ ناتاشا تلمحه
حتى اعترافها ذلك الشعور نفسه الذي سبق أن اعترافها من قبل وهو
شعور يشمل الزهو باعجابه بها ويشمل في الوقت نفسه على هذا الخوف
من أنها لا تحس بوجود حاجز يفصل بينها وبينه •

استقبلت هيلين ناتاشا فرحة ، وأعربت جهارا عن افتتانها بجمالها
وزينتها •

وخرجت مدموازيل جورج لترتدي ثياب التمثيل • وصفتت
الكراسي في الصالون ، وجلس المدعوون • ودفع آناطول كرسيه لتجلس
عليه ناتاشا ، وأراد أن يجلس بقربها ، ولكن الكونت الذي كان لا يحوّل

عن ابنته بصره ، أسرع يجلس على الكرسي الذي كان آنا تول يريد أن يشغله • فجلس آنا تول في خلف •

وطلعت مدموازيل جورج بذراعيها البضتين العاريتين اللتين لهما عند الكوع غمازتان ، واضعة على احدى كتفيها شالا أحمر ، وجلست في المكان الشاغر التي حفظ لها بين الارائك ، واتخذت وضعا فيه كثير من التكلف والاصطناع ، فسرت بين الحضور دمدمات الاعجاب •

شملت مرموازيل جورج الجمهور بنظرة صارمة مكفهرة ، وأخذت تلقي أشعارا مدارها على حبها ابنها حبا آثما ، فكانت ترفع صوتها تارة وتدمدم به دمدمة تارة أخرى وهي تنتصب في أبهة وعظمة ، وتتوقف تارة ثالثة فتحشرج وتدين عينيها •

وأخذت الاصوات ترتفع من كل صوب صائحة :

— رائع ، إلهي ، لذيذ !

ولكن ناتاشا وقد جمدت نظرتها على مدموازيل جورج ذات الابهة والعظمة ، كانت لا تسمع شيئا ، ولا ترى شيئا ، ولا تفهم شيئا مما يجري أمامها ، وانما هي غارقة مرة أخرى غرقا تاما لا رجعة عنه ولا أوبة منه في ذلك العالم الغريب من الجنون ، ذلك العالم البعيد كل البعد عن العالم الذي عرفته حتى ذلك الحين ، ذلك العالم الذي لا تمييز فيه بين الخير والشر ، ولا بين العقل والجنون • وكان آنا تول جالسا وراءها ، فكانت تحس بأنه قريب منها أشد القرب ، وكانت تتوقع على قلق وخوف أن يقع لها شيء •

فلما انتهت مدموازيل جورج من القاء قصيدتها الاولى ، قام جميع الحضور يحيطون بها ، ويعربون لها عن اعجابهم •

وقالت ناتاشا لاييها الذي قام مع القائمين وأقبل على المشاة مع
المقبلين :

— ما أجملها !

فاذا بآناطول الذي كان يتبع ناتاشا ، يقول لها في لحظة لا يمكن
ان يسمعه فيها أحد غيرها :

— لا أجدها جميلة حين أراك • انك آسرة ! منذ رأيتك لم أكف

عن ...

قال الكونت وقد قفل راجعا الى ابنته :

— تعالي يا ناتاشا ، تعالي • ما أجملها !

انضمت ناتاشا الى أييها دون أن تقول شيئا ، وألقت عليه نظرة فيها
استفهام ودهشة •

انصرفت مدموازيل جورج بعد أن ألقت عدة فصائد ، وجاءت
الكونتيسة هيلين بيزوخوف ترجو الحفل أن ينتقل الى صالة الرقص •

فأراد الكونت أن ينصرف ، ولكن هيلين ضرعت اليه أن لا ينسـد
لها حفلة الرقص هذه التي ارتجلتها ارتجالا • فلم يسمع آل روستوف أن
ييقوا • وبدأ الرقص فجاء آناطول يدعو ناتاشا أن تراقصه على ألحان
الفالس ؛ وفيما كان يشد اليه قامتها ويضغط لها يدها قال لها انها فتاة
وانه يحبها • حتى اذا كانت الرقصة الايقوسية التي قامت ناتاشا ترقصها
مع آناطول كوراجين أيضا ، لم يقل لها آناطول شيئا واكتفى بأن ظل
ينظر اليها مع انهما وحيدان ، فتساءلت ناتاشا ألم يكن ما قاله لها أثناء
رقصة الفالس حلما حلمته • وفي نهاية الحركة الاولى من الرقصة

الايقوسية ، عاد آنا تول يضغط يدها ، فرفعت اليه عينين مروعيتين ، ولكن نظرة آنا تول وابتسامته كان فيهما من رقة العاطفة وقوة الثقة أنها لم تستطع أن تقول له ما كان ينبغي أن تقوله رافعة بصرها اليه ، فخفضت عينها ، وقالت له بسرعة :

— لا تقل لي هذه الاشياء ، أنا مخطوبة أحب رجلا غيرك .

ونظرت اليه ، فلاحظت أن ما قالته لم يحدث له اضطرابا ولا حزنا .
وها هو ذا يرد عليها بقوله :

— لا تكلميني في هذا الامر ، فهو لا يهمني وانما أنا أقول لك اني
مجنون بحبك جنونا ، مجنون جنونا . أهو ذنبي أنك فاتتة .

كانت ناتاشا من فرط اضطرابها واهتياجها تنظر بعينها المرتاعبتين فلا ترى شيئا ، وكانت تبدو أكثر مرحا مما عهد فيها من مرح . كانت لا تكاد تدرك ما يجري حولها . وبعد الرقصة الايقوسية رققت رقصة « الجد » ، فأراد أبوها أن ينصرف ، فطلبت منه البقاء . وكانت تحس نظرة آنا تول تلاحقها أينما ذهبت وأيما كان الشخص الذي تكلمه . وقد تذكرت بعد تلك الليلة ، أنها استأذنت أباه في أن تذهب الى غرفة الزينة لتسوِّي فستانها ، وأن هيلين تبعتها ، وأنها كلمتها عن حب أخيها لها وهي تضحك ، وأنها التقت مرة أخرى في الصالون الصغير بآنا تول ، وكانت هيلين قد انصرفت ، فاذا هما وحدهما في الصالون ، واذا بآنا تول يسسك يدها ويقول لها بصوت تملؤه عاطفة رفيقة حنون :

— أنا لا أستطيع أن أجيء اليك ، ولكن هل يمكن أن لا أراك بعد الآن أبدا ؟ انني أحبك حب جنون . هل يمكن حقا أن لا أراك أبدا ؟ .

وسدَّ عليها الطريق ، وقرَّب وجهه من وجهها • فكانت عيناه
النجلاوان الساطعتان تبلمان من القرب منها أنها أصبحت لا ترى منه
الا هاتين العينين ، عيني الرجل •

وتتم صوته يقول :

— ناتاليا !

وأحست أن أحدا يشد على يديها شدا قويا يبعث على الصراخ •
وعاد صوته يناديها :

— ناتاليا !

فكانت نظرتها تجيب : « لا أفهم شيئا • ليس عندي ما أقوله » •
وأطبقت شفتان ملتهبتان على شفتيها ، ولكنها لم تلبث أن أحست
بالتخلص منهما : لقد سمع وقع خطى هيلين وحفيف ثوبها في الغرفة ،
فالتفت ناتاشا الى هيلين ، ثم ارتدت ببصرها اليه مرتاعة العينين ، محمرة
الوجه ، مرتعدة ، واتجهت الى الباب •

قال آنا تول :

— كلمة ، كلمة واحدة ، ناشدتك الله •

فوقفت • كانت في حاجة قوية الى أن تسمع منه تلك الكلمة التي
تفسر ما حدث ، والتي يمكن أن تجيب عنها • وراح آنا تول يكرر قوله :
— ناتاليا ، كلمة ، كلمة واحدة •

كان واضحا انه لا يعرف ماذا يريد أن يقول ، فظل يردد تلك الكلمات
الى أن أدركتهما هيلين •

ورجعت هيلين مع ناتاشا الى الصالون ؛ وانصرف آل روستوف
قبل العشاء .

قضت ناتاشا ليلتها مسهدة لا تنام . كان سؤال مستعص على
الحل يقض مضجعا : من الذي تحبه ، آناطول أم الامير آندره ؟ انها
تحب الامير آندره ، وتعرف أنه يحبها كثيرا . ولكنها تحب آناطول
أيضا ، ذلك أمر لا يخالجهما فيه ريب . « والا فهل كان يمكن أن يحدث
ما حدث ؟ واذا استطعت بعد أن حدث ما حدث ، أن أرد على ابتسامته
بابتسامته حين ودعته ، فذلك دليل على أنه طيب نبيل رائع فيستحيل
أن لا احبه . فماذا يجب ان افعل ما دمت احبه واحب في الوقت نفسه
رجلا آخر ؟ » . بذلك كانت ناتاشا تحدث نفسها ، وكذلك كانت تتساءل
فلا تجد لهذه الاسئلة المعذبة أجوبة .

الفصل الرابع عشر

جاء الصباح وجاءت معه مشاغله وحركته : صحا الجميع من نومهم ، واخذوا يسعون ويتكلمون ، ووصلت الخياطات من جديد ، وظهرت ماريا دمرتينا ، وجلس أهل الدار الى مائدة الافطار . فكانت ناتاشا محمقة العنن كأنها تريد أن تباغت كل نظرة مستطلعة يرميها به أحد ، وكانت تنظر الى الجميع قلقه الهيئة ، وتحاول أن تظهر بمظهرها العادي المألوف .

وجلست ماريا دمرتينا على أريكتها بعد الافطار (وتلك أحسن لحظاتها) ، فنادت اليها ناتاشا والكونت الشيخ . وبدأت تتكلم فقالت :

— فكرت في المسألة كلها يا أصدقائي ، فاليكم نصيحتي . تعلمون أنني ذهبت أمس الى الامير نيقولا . وقد كلمته في الامر ، فارتأى أن يصرخ... ولكن لست أنا من يسكن اخراسه . فأعلنت له رأيي صراحة .

قال الكونت يسألها :

— ماذا قال ؟

فقالت ماريا دمرتينا :

— هو ؟ هذا رجل طاغية مستبد . انه لا يريد أن يسمع شيئا ، ولكن .علام الحديث عما قاله . لقد عذبنا البنية المسكينة حتى الآن تعذيبا كافيا . نصيحتي أن تنهوا أعمالكم بسرعة ، وأن تعودوا الى أوترادنويا ... فتنتظروا هناك .

صاحت ناتاشا تقول :

— لا !

فردت عليها ماريما دمترينا قائلة :

— بلى ! يجب أن ترجعوا وتنتظروا هناك • اذا وصل الخطيب الى هنا الآن ، فلن تجري الامور بغير مشاجرة • أما اذا خلا الى أبيه ، فسوف يعرف كيف يناقشه وكيف يسوِّي المسألة ، فيمضي بعد ذلك الى اوتراونويا يلحق بكم •

قال الشيخ الكونت :

— هذا هو الصواب عينه • واني ليؤسفني أنني ذهبت اليه ، واصطحبت ابنتي •

فأجابت ماريما دمترينا وهي تبحث في حقيبة يدها عن شيء :

— لا ، لِمَ الاسف ؟ لم يكن في وسعك أن تصل الى موسكو ثم لا تقوم بهذا الواجب • فاذا هو رفض ، فذلك شأنه • وما دام الجهاز قد تمَّ فلا فائدة من البقاء مدة أطول • وما لم يتمَّ منه فسوف أرسله اليكم • يؤسفني أن تسافروا ، ولكن السفريا أصدقائي أفضل • أتمنى لكم سفرا موفقا •

حتى اذا عثرت ماريما دمترينا على ماكانت تبحث عنه في حقيبة يدها ، سلَّمتها الى ناتاشا ، وهو رسالة من الاميرة ماريما ، وقالت :

— هذه رسالة منها • ما أشد ما تعانیه المسكينة من عذاب ! هي تخشى أن تظني انها لاتحبك •

فقال ناتاشا :

— حتما انها لا تحبني !

فصاحت ماريا دمترييفنا :

— لا تقولي كلاما سخيفا •

فأجابت ناتاشا بجرأة وهي تتناول الرسالة :

— لا أحد يستطيع أن يقنعني بنقيض ذلك •

وحين نطقت ناتاشا بهذه الكلمات كان وجهها يعبر عن عناد يبلغ من الشدة والخبث أن ماريا دمترييفنا قطبت حاجبيها وأخذت تنفرس فيها بمزيد من الانتباه ، ثم قالت لها :

— لا تخاطبيني بهذه اللهجة يا صغيرتي • ان ما أقوله حق • هيا اکتبي لها جوابا على رسالتها •

لم تردّ ناتاشا ، ومضت الى غرفتها تقرأ رسالة الاميرة ماريا •

تقول لها الاميرة ماريا في رسالتها انها آسفة أشد الاسف لسوء التفاهم الذي حدث بينهما ، وانها — أية كانت عواطف أبيها — ترجو ناتاشا ان تصدق انها لا تستطيع الا ان تحب تلك التي اختارها اخوها هذا الاخ الذي لا تتردد أن تضحي في سبيل سعادته بكل شيء •

وقد جاء في رسالة الاميرة ماريا أيضا قولها : « ولا نظني على كل حال أن أبي يضمر لك عواطف سيئة • انه شيخ مريض يجب أن يُعذر • ولكنه طيب القلب سمح النفس ، ولسوف يحب تلك التي ستهيء لابنه السعادة • » •

وبعد ذلك تطلب منها الاميرة ماريا أن تحدد لها اليوم الذي تستطيع أن تراها فيه مرة أخرى •

فلما فرغت ناتاشا من قراءة الرسالة جلست الى طاولتها لتجيب ، فكتبت بسرعة على نحو آلي : «الاميرة العزيزة» ، ثم توقفت عن الكتابة . ما الذي يمكنها أن تقوله بعد كل ما حدث في الليلة البارحة ؟ كذلك سألت نفسها ، ثم أجابت عن سؤالها وهي جالسة الى طاولتها قائلة : « نعم ، نعم ، حدث هذا كله ، والامور تجري الآن مجرى آخر . يجب أن أعفيه من وعده . هل يجب أن أعفيه من وعده حقا ؟ شيء رهيب ! » ومن أجل أن تتخلص من هذه الخواطر الفظيعة ، ذهبت الى صونيا ، وأخذت الفتانان تأملان نظران معا في رسوم للتطريز .

وبعد العشاء ، انسلت ناتاشا الى غرفتها وعادت تتناول رسالة الاميرة ماريا ، قائلة لنفسها : « هل يمكن أن يكون كل شيء قد انتهى ؟ هل يمكن أن يكون ذلك كله قد حدث بمثل هذه السرعة فهدم الماضي كله ؟ » وراحت تستعرض في خيالها حبها للامير آندره بكل قوته الاولى ، فتحس في الوقت نفسه بأنها تحب آناطول كوراجين أيضا . تصورت نفسها زوجة للامير آندره ، وتأملت الصورة التي طالما تأملتها في خيالها عن سعادته به ومعه ؛ واستعرضت في الوقت نفسه جميع تفاصيل ليلة البارحة مع آناطول وهي تشتعل احتياجا . فكانت تتساءل في بعض الاحيان وقد أظلم فكرها اظلاما تاما : « لماذا لا يمكن أن أحبهما كليهما في آن واحد ؟ لن أكون سعيدة سعادة كاملة الا اذا أمكن ذلك . أما الآن فيجب عليّ أن أختار أحدهما . هناك أمر محق لا شك فيه ، هو أنني يستحيل عليّ أن أذكر للامير آندره ما حدث ، ويستحيل عليّ أيضا أن أخفيه عنه . أما « الآخر » ، فلا شيء من أمري معه فسد . ولكن هل يعقل أن يكون عليّ أن أتنازل الى الابد عن السعادة التي طالما عشت على تخيلها ، وهي أن يحبني الامير آندره ؟ » .

وانها كذلك اذا بخادمة تدخل الغرفة وتقول لها همسا وقد بدت في وجهها معاني السر :

— يا آنسة ، كلفني رجل بأن أسلمك هذا •

ومدت إليها رسالة وهي تضيف قولها :

— ولكن ، ناشدتك الله ••

غير أن ناتاشا كانت قد فضت الظرف بحركة آلية دون تفكير ، وأخذت تقرأ رسالة الحب التي أرسلها إليها آنا تول ، والتي لم يفهم منها كلمة واحدة • كل ما فهمته هو أن هذه الرسالة آتية منه ، من الرجل الذي تحبه ، « نعم ، الرجل الذي تحبه • والا فكيف كان يمكن أن يحدث كل ما حدث ، وهل كان يمكن أن تصلها هذه الرسالة ؟ » •

كانت يدا ناتاشا ترتعشان وهما ممسكتان برسالة الحب المشبوب هذه التي دبجها دولوخوف لآنا تول ، وكانت ناتاشا وهي تقرأ الرسالة ترى فيها صدى لكل ما تعتقد أنها تحسه هي نفسها •

كان مطلع الرسالة هو ما يلي : « تقرر مصيري في مساء الامس ، فاما أن أعرف أنك تحبيني واما أن أموت • ليس لي مخرج آخر » • ثم هو يقول في الرسالة انه يعلم أن أهلها قد لا يوافقون على أن يتزوجها ، وذلك لأسباب خفية لا يستطيع أن يكشف عنها إلا لها وحدها • ولكن اذا كانت تحبه ، فيكفي أن توافق حتى لا تبقى في العالم قوة يمكن أن تحول دون سعادتهما ، لان الحب سيتنصر على كل شيء • فاذا وافقت خطفها ومضى بها الى أقصى الارض » •

كانت ناتاشا تقول لنفسها وهي تعيد قراءة الرسالة للمرة العشرين ، فتكتشف في كل كلمة معنى خاصا عميقا : « نعم ، نعم ، أحبه • » •

وقد ذهبت ماريا دمترينينا في ذلك المساء الى آل آخاروف ، وعرضت على الفتاتين أن يصحباه ، ولكن ناتاشا تعللت بأنها تعاني من صداع فبقيت في المنزل •

الفصل الخامس عشر

عندما عادت صونيا ، في ساعة متأخرة من السهرة ، دخلت الى غرفة ناتاشا ، وكانت دهشتها شديدة حين وجدتھا نائمة بتيابھا على الاریكة • كانت رسالة آنا تول المفوضه على الطاولة بجانبھا • فتناولتها وأخذت تقرأھا •

كانت تقرأ وترمي بنظراتھا ناتاشا النائمة تبحث في وجهھا عن تفسير لما كانت تقرأه فلا تجده • كان وجهھا مشرقا ، سعيدا • ولم تلبث صونيا أن تهالكت على مقعد وأجهشت بالبكاء ، وهي شاحبة مرتجفة من الخوف والافعال ، وقد أخذت تضغط صدرھا بيديھا لكي لاتختنق •

كانت صونيا تقول في نفسها : « كيف لم أر شيئا ؟ كيف أمكن للاشياء أن تمضي بعيدا الى هذا الحد ؟ أمن الممكن أنها لم تعد تحب الامير آندره ؟ وكيف سمحت بذلك لكوراجين ؟ انه لما كر وحقير • كيف سيكون وقع ذلك على نيقولا اللطيف ، نيقولا النبيل ، عندما يعلم به ؟ هذا اذن هو معنى ذلك الوجه المنفعل ، المصمم ، غير الطبيعي الذي بدت به اول البارحة والبارحة واليوم ؛ لكن ليس من الممكن أن تحبه ! لا شك أنها فضت الرسالة دون أن تعلم من أين تأتي • ولا بد أنها أحست بالاهانة من جرائمھا • انها غير قادرة على فعل ذلك ! »

مسحت صونيا دموعها ودنت من ناتاشا التي راحت تتفحص وجهها مرة أخرى وقالت بصوت لا يكاد يُسمع : ناتاشا !

استيقظت ناتاشا وشاهدت صونيا :

— آه ! عدتِ ؟

وطوقت صديقتها بالعموية والحنان اللذين يشعر بهما المرء أحيانا في لحظة الاستيقاظ • لكن لدى رؤية وجهها المضطرب انتشر الاضطراب والشك على وجهها أيضا • قالت :

— صونيا ، هل قرأت الرسالة ؟

همست صونيا :

— نعم •

فابتسمت ناتاشا ابتسامة نشوى وقالت :

— آه ! يا صونيا ، أعياني الامر ! ولست أستطيع أن أخفيه عنك أطول من ذلك • تعلمين ، نحن متحابان!... وهو يكتب اليّ يا صونيا، يا عزيزتي •• صونيا ••

راحت صونيا تحدّق في ناتاشا وكأنها لا تصدق أذنيها وقالت :

— وبولكونسكي ؟

قالت ناتاشا :

— آه ! يا صونيا ، آه ، ليتك تعلمين مدى سعادتي ! أنتِ لا تعلمين ما الحب ...

— لكن ، أمن الممكن يا ناتاشا ، أن يكون كل شيء قد انتهى بينك وبين « الآخر » •

حدّقت ناتاشا فيها وكأنها لم تكن تفهم سؤالها •
قالت صونيا :

— وإذن فسوف تفسخين خطبتك مع الامير آندره ؟

قالت ناتاشا بغيظ مفاجيء :

— آه ! أنت لا تفهمين شيئا ، لا تفوهي بحماقات ، اصغي الي •

فرددت صونيا :

— كلا ، لا استطيع أن أصدق ذلك • لا أفهم • تحبين رجلا سنة
كاملة ، وفجأة ... ولم تريه الا ثلاث مرات • اني لا أصدقك يا ناتاشا ،
أنت تمزحين • تنسين كل شيء في ثلاثة ايام و ...

قالت ناتاشا :

— ثلاثة ايام ! يبدو لي أنني أحبه منذ قرن • يبدو لي أنني لم
أحب أحدا قبله • أنت لا تستطيعين أن تفهمي ذلك يا صونيا ، انتظري ،
اجلسي هنا •

وأخذتها ناتاشا بين ذراعيها وعانقتها ، وتابعت كلامها :

— لقد قيل لي ان ذلك يقع ، ولا بد أنك سمعت أنت ، عن ذلك ،
لكنني لم أعلم الا الآن ماذلك الحب • ليس الامر كالسابق • فما ان
رأيتك حتى أحسست أنه سيدي وأنني أمته وأنني لا استطيع ألا
أحبه • نعم ، أمته ! وسأفعل ما يأمرني به • أنت لا تفهمين ذلك •
ما حيلتي ؟ ما حيلتي ، يا صونيا ؟

كان وجه ناتاشا سعيدا ومرتبعا •

قالت صونيا بدعرا واشمئزاز وجدت مشقة في اخنائها :

— لكن° فكري فيما تفعلين ، وأنا لا أستطيع أن أدع الامر هكذا .
هذه الرسائل المرسله سرا ... كيف أجزت له ذلك ؟

أجابت ناتاشا :

— قلت لك انني فقدت ارادتي ، كيف لم تفهمي ذلك : انني أحبه ا

هتفت صونيا من خلال الدموع التي طفرت من عينيها :

— واذن فأنا التي ستحول بينك وبين ما تريدين ، سوف أروي كل

شيء .

قالت ناتاشا :

— ماذا تقولين ، بحق الله ... اذا رويت ذلك فأنت عدوتي .

تريدين تعاسي ، تريدين أن يفرقوا بيننا ...

عندما رأت صونيا رعب ناتاشا بكّت حياء ورحمة لصديقتها ، ثم

سألتها :

— لكن° ، ماذا جرى بينكما ؟ ماذا قال لك ؟ لمَ لا يأتي الى هنا ؟

لم تجب ناتاشا عن سؤالها وتوسلت اليها :

— بحق السماء ، يا صونيا ، لاتحدثني أحدا عن ذلك ، لاتعذيني .

تذكري أنه لا يجوز التدخل في هذه الامور . لقد كشفت لك ...

وسألتها صونيا :

— لكن° لمَ كل هذه الاسرار ؟ ولمَ لا يأتي الى البيت ؟ ولم

لا يطلب يدك بكل بساطة ؟ لقد ترك لك الامير آندره كامل الحرية

اذا كان ينبغي للامور أن تصل حقا الى هذا الحد ، لكنني لا أصدق

ذلك . هل فكرت ، يا ناتاشا ، في ما يمكن أن تكونه تلك « الاسباب

السريّة » ؟

كانت ناتاشا تنظر الى صونيا بعينين مندهشتين • وكان واضحاً ان
هذا السؤال يَعرّض لها للمرة الاولى ، فلم تعرف كيف تجيب :
— هذه الاسباب ، لا أعرف ما هي • لكن يجب الاعتقاد بأن هناك
أسباباً •

تهدت صونيا وهزت رأسها كمن لم يصدّق وشرعت تقول :
— لو كان هناك أسباب •••

لكن ناتاشا استشفّت شكوكها فقاطعتها مروّعة وصرخت :
— صونيا ، لايجوز الشك فيه • لاينبغي ذلك ، لاينبغي ،
أتفهمين ؟
— أيجبك ؟

فرددت ناتاشا بابتسامة الرثاء لقصور فهم صديقتها :
— تسأليني ان كان يجبني ؟ هل قرأت رسالته ، هل رأيته ؟
— واذا لم يكن انسانا شريفا ؟

قالت ناتاشا :

— هو ! ••• اذا لم يكن انسانا شريفا ؟ ليتك تعلمين !

قالت صونيا بحزم :

— اذا كان انسانا شريفا فينبغي إما أن يعلن عن نواياه وإما أن
يكف عن رؤيتك ، واذا لم تشائي أن تفعل ذلك فسوف أفعله بنفسى ،
وسوف أكتب اليه ، وسوف أخبر الوالد بكل شيء •

صاحت ناتاشا :

— لكنني لا أستطيع العيش بدونه !

— لست أفهمك ، يا ناتاشا • ماذا تقولين ! فكري بوالدك ،
وبنيقولا •

فصرخت ناتاشا بفضافة وبصوت مليء بالعنف المكبوت :

— لست بحاجة الى أحد ، لست أحب أحدا غيره • كيف تجرئين
على القول انه غير شريف ؟ ألا تعلمين أنني أحبه ؟ امضي يا صونيا ،
فلست أريد أن أختلف معك ، امضي ، امضي بحق السماء ، انك ترين
كم أنا أألم •

انفجرت صونيا باكية وهربت •

سارت ناتاشا الى طاولتها ودون أن تتردد لحظة كتبت الى الاميرة
ماريا الجواب الذي لم تستطع كتابته طوال الصباح • وقد قالت لها
بإيجاز في هذه الرسالة ان جميع الخلافات انتهت ، وأنها تنتهز كرم
الامير آندره الذي أطلق لها حريتها ، عند رحيله ، لترجوها أن تنسى
كل شيء وأن تغفر لها أخطاءها إن بدرت منها أخطاء تجاهها ، لكنها
لاستطيع أن تكون زوجة لاختها • لقد بدا لها ذلك كله الآن شديد
السهولة ، شديد البساطة ، شديد الوضوح •

في نهار الجمعة ، كان آل روستوف ينوون العودة الى الريف ، وفي
نهار الاربعاء ، قصد الكونت مع المشتري الى أملاكه في ضواحي
موسكو •

في يوم سفر الكونت ، كانت صونيا وناتاشا مدعوتين الى حفل
عشاء كبير عند آل كاراجين ، فأخذتهما ماريا دميتريفنا • وفي العشاء ،
لاقت ناتاشا آنا تول مرة أخرى ، ولاحظت صونيا أنها تكلمه بحيث

لا يسمعها أحد ، وأنها كانت أشد اضطرابا أثناء المأدبة كلها • وعندما عادت بادرت ناتاشا بالايضاحات التي كنت تنتظرها صديقتها ، فقالت بصوت عذب ، بذلك الصوت الذي يعمد اليه الاطفال عندما يطعمون في الشاء :

— أترين ، يا صونيا ، كنت ترمينه بشتى الحماقات • لقد تفاهمنا قبل حين •

— ماذا وجدت ؟ ماذا قال لك ، كم أنا مسرورة ، يا ناتاشا ، لانك لم تزعلي علي • قولي لي كل شيء ، كل الحقيقة • ماذا قال لك ؟ فكرت ناتاشا لحظة :

— آه ! ليتك تعرفينه ، يا صونيا ، كما أعرفه ! قال ... سألني الى أي حد كنت مرتبطة ببولكونسكي • وشرّ حين علم أن فسخ الخطبة يتوقف علي •

زفرت صونيا زفرة وقالت :

— لكنك لم تفسخي خطبتك ببولكونسكي ؟
— بل الأولى أنني فسختها ! ولعل كل شيء قد انتهى مع بولكونسكي • لم أنت سيئة الرأي بي الى هذا الحد ؟

— لست سيئة الرأي ، لكنني لا أفهم ذلك •
— انتظري ، يا صونيا ، ستفهمين كل شيء • سترين ما هو • ولا تسيئي الظن لابي ولابه •

• لست أسيء الظن بأحد : انني أحب جميع الناس وأرثي لهم • لكن ماذا بوسعي أن أفعل ؟

لم تَوْخِذْهُ صونيا بالصوت الرقيق الذي كانت تكلمها به ناتاشا .
وكلما ازداد تعبيرها رقة وملقا ازداد وجه صونيا جدا وصرامة . قالت
لناتاشا :

— طلبتِ إلي ، يا ناتاشا ، ألا أكلمك في هذا ، فلم أقل لك شيئا ،
وأنت بدأت . لست أثق به ، يا ناتاشا . لم هذه الاسرار ؟
فقاطعتها ناتاشا :

— عدتِ الى الفكرة نفسها ، عدتِ !
— أخاف عليك ، يا ناتاشا .
— وممَّ تخافين ؟

قالت صونيا بتصميم أخافها نفسها :
— أخاف أن تُسرعي الى هلاكك .

عاد الى وجه ناتاشا خبثه :
— وسأهلك ، سأهلك ، سأهلك بأسرع ما يمكن . هذا لا يعنيك .
أنا لا أنت التي ستتألم من ذلك . دعيني ، دعيني . اني أكرهك .
تضرعت اليها صونيا مروعة :
— ناتاشا !

— اني أكرهك ، أكرهك ! وأنت عدوتي الى الابد !
وهربت ناتاشا .

لم تكلم صونيا بعد ذلك وتحاشتها . وكانت تروح وتجيء في
البيت ، وعلى وجهها نفسُ أماراة الدهشة المنفعلة المذبذبة ، منهمكة بأشياء
وبأخرى لاتلبث أن تتركها .

كانت صونيا تراقب صديقتها عن كثب وإن شقّ ذلك عليها كثيرا .
في عشية اليوم الذي كان سيعود فيه الكونت ، لاحظت صونيا أن
ناتاشا ظلت ، طوال الصباح ، جالسة الى نافذة الصالون كأنها تنتظر
شيئا ما ، وأنها أشارت الى عسكري كان يمرّ اعتقدت صونيا أنه
آنا تول .

ضاعت من يقظتها ولاحظت أن ناتاشا كانت ، طوال العشاء
والسهرة ، في حالة غريبة وغير طبيعية (كانت تجيب عن الاسئلة التي
تلقى عليها أجوبة في غير محلها ، وتبدأ جملة دون أن تتّمتها ، وتضحك
في كل مناسبة) .

وبعد الشاي ، رأت صونيا أن احدى الوصيفات التي بدا عليها
الفرح كانت تترقب مرورها بباب ناتاشا . فتركتها تمر ، وتنصّت عند
الباب وتبينت أن رسالة جديدة قد سلّمت اليها .

وفجأة بدت الحقيقة ساطعة أمام عيني صونيا :
لقد كانت ناتاشا تُعدّ شيئا رهيبا لهذا المساء . فطرقت بابها ،
لكن ناتاشا لم تفتح .

قالت صونيا في نفسها : « ستهربُ معه . انها قادرة على كل شيء ..
كان في وجهها اليوم مايشير أعظم الشفقة وما ينم على عزم وطيّد . لقد
بكت وهي تودع عمي . نعم ، من المؤكد أنها ستهرب معه .

.وتساءلت وهي تتذكر الآن بعض الدلائل التي تثبت بوضوح أن
ناتاشا كانت تبيّت نية رهية :

« ماذا ينبغي أن أفعل ؟ الكونت ليس هنا . ماذا ينبغي أن أفعل ؟

أكتب لكوراجين كي أطلب منه ايضاحا ؟ لكن من يرغمه على الاجابة ؟
أكتب لبطرس كما طلب الامير آندره أن تفعل في حالة الشدة ؟ ...
لكن لعلها قد قطعت علاقتها حقا بيولكونسكي (لقد أرسلت البارحة
رسالة الى الاميرة ماريا) • وعمي الذي ليس هنا ا • «

وبدا شنيعا لصونيا أن تخبر ماريا دميتريفنا التي كانت تثق بناتاشا
ثقة عظيمة •

قالت في نفسها وهي واقفة في الممر المعتم : « مهما يكن من أمر
فإن هذه هي اللحظة الوحيدة التي أثبت فيها أنني لا أنسى فضل هذه
الاسرة وأنني أحب نيقولا • لن اتحرك من هذا الممر ولو قضيت فيه
ثلاث ليال دون نوم ، وسأوقفها بالقوة ولن أدع العار يثقل كاهل
أسرتها » •

الفصل السادس عشر

أقام أناطول ، في هذه الآونة الأخيرة ، عند دولوخوف • وكانت خطة اختطاف الأنسة روستوف قد دبرها وأعدّها دولوخوف ، منذ بضعة أيام ، وكان من المقرر تنفيذها في المساء الذي صممت فيه صونيا ، وهي تراقب عند باب ناتاشا ، أن تسهر عليها • وكانت ناتاشا قد وعدت بسوفاة كوراجين في الساعة العاشرة ، في مدخل الخدم • وهناك يتركبها في عربة ويقودها الى بلدة كامنكار على ستين فرسخا من موسكو ، حيث يزوجها كاهن محروم • وكانت الخيول البديلة مهيأة لتمضي بهما على طريق فرسوفيا ، ومنه يذهبان الى الخارج في عربة البريد •

كان أناطول قد حصل على جواز سفر وعلى اذن بالركوب في عربة البريد ، كما حصل على عشرة آلاف روبل أعطتها أخته وعشرة آلاف أخرى اقترضها بطريق دولوخوف •

كان الشاهدان : كفوزيتكوف وهو كاتب محام سابق كان دولوخوف يستخدمه في شؤون القمار ، وماكارين وهو ضابط من ضباط الفرسان ، وفتى ضعيف وطيب ، يحمل لكوراجين اعجابا لا حد له ، يتناولان الشاي في الغرفة الاولى •

كان دولوخوف في غرفة عمله الكبيرة المزينة من فوق الى تحت بالسجاد العجمي وبجلود الدببة وبالاسلحة ، يجلس الى مكتبه المفتوح ، وهو يحتذي جزمة ويرتدي سترة السفر ، وأمامه عداة ورزم من الاوراق النقدية . وكان آنا تول ، في بزة محلولة الازرار ، يمر من الغرفة التي ينتظر فيها الشاهدان الى الغرفة التي في الصدر حيث كان خادمه الفرنسي يحزم مع غيره من الخدم آخر المتاع . كان دولوخوف يحصي النقود ويسجل الارقام . قال :

— أتعلم أنه يجب اعطاء ألفي روبل لكفوزتيكوف .

قال آنا تول :

— حسنا ! أعطاها اياه .

قال دولوخوف وهو يريه القائمة :

— أما « ماكارا » (هكذا كانا يسميان « ماكارين ») فهو لا يطلب شيئاً لنفسه . انه مستعد أن يلقي بنفسه في النار من أجلك . طيب ! ها هي ذي الحسابات قد انتهت . اتفقنا ؟

قال آنا تول الذي كان من الواضح أنه لا يصغي اليه والذي كان ينظر أمامه دون أن تفارق البسمة وجهه :

— نعم ، بالتأكيد .

أغلق دولوخوف مكتبه والتفت اليه بإبتسامة ساخرة ، وقال :

— أتعلم ، كف عن هذا كله ، فما يزال في الوقت متسع !

فرد آنا تول :

— يا غبي ! لا تتفوه بحماقات . لو كنت تعلم ...

فكرر دولو خوف :

— في الحقيقة ، كف عن مشروعك هذا • انني أخطبك بلغة العقل •
أظن أن ما تقوم به مزحة ؟

قال آنا تول متجهما :

— اذن أنت تعود الى مضايقتي ؟ أغرب عن وجهي !

وترك الغرفة •

كان دولو خوف يتسم ابتسامة الاستخفاف والتسامح أثناء خروجه •
فصرخ به :

— انتظر ، اني لا أمزح ، وأنا أكلّمك جديا ، تعال ، تعال من هنا •

عاد آنا تول أدراجه ونظر الى دولو خوف جاهدا في أن يركز انتباهه ،
وهو بادي الخضوع له بالرغم منه • قال له دولو خوف :

— اصغ اليّ جيدا ، وأنا أخطبك للمرة الاخيرة • ولماذا أمزح معك؟
هل أقمت العراقيل في وجهك ؟ من ذا الذي رتب كل شيء ووجد الكاهن
وحصل على جواز السفر وأمّن المال ؟ أنا الذي فعل كل ذلك •
— هذا مؤكد ، وأنا أشكرك على ذلك • أظن أنني لست
ممتنا لك ؟

وتنهذ آنا تول وعانق دولو خوف الذي تابع كلامه :

— لقد ساعدتك ، لكن من واجبي أيضا أن أقول لك الحقيقة ، ان
المشروع محفوف بالمخاطر ، بل انه يدل عند التفكير ، على الغباء • تريد
اختطافها ، ممتاز ! أظن أن الامر سيجري هكذا • سيعلم الناس أنك
متزوج ، وستحال الى القضاء •

— قال آنا تول وهو يتجهم مرة أخرى :

— آه ! حماقات كل ذلك ، حماقات ! وقد شرحت لك ذلك من

قبل • أتذكر ؟

وكرر على دولوخوف الحجة التي ردها على مسمعه مائة مرة ،
كررها بتلك الامانة التي يتشبث بها أناس حصروا أنفسهم في النتيجة
التي توصلوا اليها بأنفسهم :

— شرحت لك ذلك • لقد توصلت الى النتيجة التالية : اذا كان

هذا الزواج غير صحيح — قال ذلك وهو يعدّ على أصابعه — فلا تقع
عليّ مسؤولية ، واذا كان صحيحا فلا أهمية لذلك : لن يعلم أحد بالامر
في الخارج ، أليس هذا صحيحا ؟ لن أزيد على ذلك كلمة ، ولا كلمة ،
ولا كلمة •

— في الحقيقة ، كف عن ذلك • سوف تقيد نفسك فقط •

قال آنا تول وهو يمسك رأسه بين يديه :

— اغرب عن وجهي !

ثم ذهب الى الغرفة المجاورة وعاد من فوره وجلس في مقعد مقابل
دولوخوف متربعا ، وأخذ يده ووضعها على قلبه وقال :

— هذا لا يصدق ... انظر كم يدق ! آه ! يا لقدمها ، يا عزيزي ،
ولنظرتها ! الهة ! ألا ترى ذلك ؟

كان دولوخوف ينظر اليه وعلى وجهه ابتسامة ، وفي عينيه الجملتين
الوقحتين ضياء ، وكأنما كان متشوقا الى أن يتسلى على حسابه :

— واذا نفذ المال ، ماذا تفعل حينئذ •

فكر آناطول وهو صادق الحيرة أمام هذا الاحتمال :
— ماذا أفعل حينئذ ؟ ماذا أفعل حينئذ ؟ لست أدري .. كفانا
حماقات !

ثم نظر الى ساعته وقال :
— حان الوقت !

ومضى الى الغرفة التي في الصدر ، وصرخ بالخدم :
— ما لكم ! هلا انتهيتم ! ما لكم تتراخون ؟

رتب دولوخوف المال وأمر خادمه أن يقدم شيئاً من الطعام قبل
السفر ، ثم مر الى الغرفة التي كان ينتظر فيها كفوزتيكوف وماكارين .

كان آناطول مستلقياً على الاركة في المكتب ، ورأسه مستند الى
يده ، يتبسم وهو بادي التفكير ، ويتمتم بكلمات رقيقة .

صاح به دولوخوف من الغرفة الاخرى :
تعال كُتْ شيئاً . تناول كأساً على الاقل !

أجاب آناطول وهو لا يكف عن الابتسام :
— لا أريد !

— تعال ، ان « بالاغا » هنا .

نهض آناطول وذهب الى غرفة الطعام . كان بالاغا مؤجراً شهيراً
للعربات يعرف دولوخوف وآناطول منذ ما يقرب من ست سنوات ،
وطالما استعان هذان بخدماته . وعندما كان فوج آناطول في موقع
« تغير » ، جاء بآناطول غير مرة في المساء ، فبلغ موسكو في الفجر ،
وعاد به في الليلة التالية . ولقد خلص دولوخوف غير مرة من مطارديه ،

وطاف به غير مرة خلال المدينة مع بوهيميات وسيدات صغيرات ، كما كان يقول • وغير مرة ، دهنس ، وهو يخدمهما في موسكو ، المارة أو قلب العربات ، وكان سيدها ، كما كان يدعوها ، يخلصانه دائما من مآزقه • وقد أهلك أكثر من جواد في خدمتهما ، ولقد ضرباه غير مرة ، وسقياه غير مرة من الشمبانيا ومن خمرة مادير التي كان يحبها ، وكان يعلم عن كل منهما أكثر من مغامرة جديدة أن ترمي بعامة البشر الى سيبيريا منذ زمن طويل ، وكانا ، أثناء مغامراتهما ، كثيرا ما يَدْخلان بالاغا ويسقيانه ويرقصانه مع البوهيميات • ولقد مرت بيديه أكثر من ورقة من ذوات الالف روبل ، وجازف بحياته ، في خدمتهما ، عشرين مرة وأهلك من الجياد ما لا يفي بثمانها المال الذي كانا يعطيانه اياه • لكنه كان يحبهما ، كان يحب تلك الطلعات المجنونة بسرعة ثمانية عشر فرسخا في الساعة ، كان يحب أن يقلب عربة ، ويدهنس أحد المشاة ، ويمر كالاعصار في شوارع موسكو • كان يحب أن يسمع وراءه الصراخ الوحشي بأصواتهما المخمورة : أسرع ! زد سرعتك ! في حين كان من المستحيل أن يزيد في سرعتة ، كان يحب أن يلسع بضربة سوط ظهر أحد القرويين الذي كان يحيد عن دربه بدون ذلك ، وهو أقرب الى الموت منه الى الحياة • وكان يقول في نفسه : « هذان سيدان حقيقيان » •

وكان آتاتول ودولوخوف يجبان بالاغا أيضا حبا عظيما لمهارته كسائق ولان ذوقه كان كذوقهم • كان بالاغا مع الآخرين يساوم على السعر ويطلب خمسة وعشرين روبلا لنزهة ساعتين ، وقلما كان يقود العربة بنفسه وانما كان يعهد بها الى أحد مساعديه • لكنه كان مع

هذين السيدين يتولى الامر بنفسه ولا يطلب شيئا مقابل جهده ، الا اذا علم ، عن طريق خادميهما أنهما يملكان مالا ، فكان يأتيهما صباحا ، مرة كل شهرين أو ثلاثة ، دون أن يشرب ، ويطلب اليهما ، وهو يسلم عليهما بصوت خافت ، أن يخلصاه من ورطته . فيجلسه هذا السيدان ويقول هو :

— يا سيدي الكريم فيدور ايفانيتش ، أو يا صاحب السعادة ، هلا تكرمت بمد يد المساعدة لي ، فلم يبق لي سوى جواد واحد ، أقرضني ما تستطيع اقراضه ، يجب أن أذهب الى السوق •

كان آنا تول ودولوخوف يعطيان دائما ، اذا ملكا المال ، الفا أو ألفي روبل •

كان بالاغا فتى قويا ، أشقر ، في نحو السابعة والعشرين ، ربة ، ذا وجه أحمر ، وعنق غليظ أشد حمرة ، وأنف أخس ، وعينين صغيرتين ملتصقتين ، وعثنون صغير ، وكان يرتدي فوق فروته ققطانا أزرق من القماش الناعم المبطن بالحرير •

رسم اشارة الصليب أمام الايقونات وتقدم نحو دولوخوف وهو يمد اليه يده الصغيرة السوداء • وقال وهو ينحني :

— سلاما يا فيدور ايفانوفتش •

— سلاما ، أيها الصديق ، ها هو ذا •

قال لآنا تول الذي كان يدخل ومد له يده أيضا :
نـ مرحبا ، يا صاحب السعادة •

قال آنا تول وهو يضع يديه على كتفيه :

— اصنع ، يا بالاغا ، أتجنبي أم أنت لا تحبني ؟ قل لي • المطلوب
أن تؤدي لي خدمة ... بأي جياذك جئت ؟

قال بالاغا :

— بالجياذ التي أمر رسولك بها ، بجياذك البرية •
— اذن ، اصنع اليّ جيّداً ، يا بالاغا ! أهلك جياذك كلها ، ولكن
ينبغي أن تصل في ثلاث ساعات • أسمع ؟

قال بالاغا وهو يغمز بعينه :

— اذا أهلكتها ، فكيف نسير ؟

صرخ آناطول فجأة وهو يحملق بعينه :

— اتنبه ! سأحطم وجهك ، لا تمزح !

قال الحوزي وهو يتسم :

— لا بأس من المزاح • أرفضت لسيديّ شيئاً ؟ وسنجري بأقصى
سرعة •

قال آناطول :

— هيّا ، اجلس •

قال دولوخوف :

— حسناً ! اجلس اذن •

— أستطيع أن أبقى كذلك ، يا فيدور ايفانوفتش •

قال آناطول :

— اجلس ، بلا مزاح ، واشرب •

وصب له كأساً كبيرة من خمر المادير • فالتمت عينا الحوزي

لمرأى الخسر • وبعد أن رفض تأديبا ، شرب الكأس ومسح شفتيه بسندبل
من الجريير الاحمر كان داخل قلنسوته •
— اذن متى تسافر ، يا صاحب السعادة ؟

نظر آناطول الى ساعته وقال :
— لكن ... في الحال • انتبه • فهمت ؟ هل تصل في الوقت
المطلوب •

فرد بالاغا :
— هذا يتوقف على الرحيل ، ولم لا نصل في الوقت المطلوب اذا
جرى كل شيء على ما يرام • لقد كنت أوصلك الى « تفير » في سبع
ساعات • لا شك أنك تذكر ذلك ، يا صاحب السعادة •

قال آناطول ، وهو يتسم لذكرياته ، مخاطبا ماكارين الذي كان
يحدث فيه بتحنن :

— أتعلم ، ذات مرة ، في عيد الميلاد ، كنت آتيا من « تفير » •
أتصدق ، يا ماكاركا ، لقد تقطعت أنفاسنا لفرط السرعة • وأثناء
الطريق وقعنا على قافلة ، فوثبنا على عربتين • أسمع ؟

فعقب بالاغا :

— يا لتلك الخيول ، أيضا ! كان معي جوادان فتيان الى جانب
حصاني الاشقر •

والتفت الى دولوخوف :

— أتصدق ، يا فيدور ايفانوفتش ، لقد قطعت هذه الجياد البرية
ستين فرسخا دفعة واحدة • لم يكن مسكنا الامساك بالاعنة ، كانت

يـداي مـخـدـرتـين ، و كان الجـو صـقيـعا ، تـركـت الـاعـنة و قـلت : خـذـها ،
يا صـاحـب السـعـادـة • و ارتميت في و سط الزلاجة مثل كتلة جامدة • لم
يـكـن المـطلـوب حـث الجـيـاد عـلى الجـري ، انـما لم يـكـن مـمـكـنا الـامـساك
بـالـاعـنة حـتى النـهـايـة •

لـقـد قـطـعـت الطـريق في ثـلاث سـاعـات ، تـلك الجـيـاد النـشـيـطـة • الجـواد
الـايـسر و حـده هـلك •

الفصل السابع عشر

خرج آنا تول وعاد بعد لحظات مرتديا فروة مشدودة على جسده
بزئار فضي ، مغطيا رأسه بقلنسوة من فرو السمور أمالها بزهو على
أذنه ، وتناسبت مع وجهه الجميل . وبعد أن تطلع الى نفسه في المرآة
انتصب أمام دولوخوف ، في الوضع نفسه ، وتناول كأسا وقال :

— هيا ! الوداع ، يا فيديا ، شكرا لك على كل شيء ، هيا يا رفاقي ،
يا أصدقاء ... — وفكر — شبابي .

وأضاف وهو يلتفت الى ماكارين والآخرين :
— الوداع .

ومع أن الجميع كانوا سيرافقون آنا تول ، الا أنه قصد الى اعطاء
وداعه طابعا مؤثرا واحتفاليا . كان يتكلم ببطء وبصوت قوي ويتمايل
على احدى ساقيه وقد نفخ صدره :

— ارفعوا جميعا كؤوسكم ، وأنت أيضا يا بالاغا . لقد لهونا كثيرا
يا رفاقي وأصدقاء شبابي . فمتى سنلتقي ؟ سأذهب الى الخارج . لقد
عشنا حياة جميلة . الوداع يا أحبابي ! على صحتكم ! هورا ! ...
وأفرغ كأسه وحطمه في الارض .

قال بالاغا الذي أفرغ أيضا كأسه ومسح فمه بمنديله :
— على صحتك !

وضم ماكارين آناطول بين ذراعيه قائلا :
— آه ! أيها الامير ، ما أشد حزني لفراقك !

هتف آناطول :

— الى المسير ، الى المسير •

كان بالاغا على وشك الخروج فقال آناطول :
— لا ، انتظر • يجب أن نجلس • هكذا •

وأغلق الباب وجلس الجميع • قال آناطول وهو ينهض :
— والآن ، يا أبنائي ، الى الامام ، سر •

ناوله خادمه يوسف جعبة السيف والسيف وانتقل الجميع الى البهو •

قال دولوخوف :

— والفروة ، أين هي ؟ يا اينياتكا ! اذهب واطلب من ماتريونا
سبمينيوفنا معظما من فرو السمر •

وأضاف وهو يغمز بعينه :

— انني أعرف كيف تتم عمليات الاختطاف • ستندفع هي خارج
المنزل ، وهي أقرب الى الموت منها الى الحياة ، وليس على ظهرها شيء ،
واذا ما وقع أدنى تأخر انهمرت دموعها على الفور ، ونادت بابا ، ماما ،
وتجمدت وطلبت العودة ... حينئذ تتلقاها أنت في الفروة وتحملها
الى الزلاجة •

حمل الخادم فروة نسائية من فرو الثعلب •

فصرخ بصوت دوى في أعماق الشقة :

— يا غبي ، قلت لك : من فرو السمر • إيه ! ماتريوشكا ، معطف السمر !

واذا ببوهيمية جميلة ، نحيلة وشاحبة ، لها عينان سوداوان براقتان ،
وخصلات سوداء ملتزمة التماعات زرقاء ، مرتدية شالا أحمر ، تهرع
وعلى ذراعها معطف السمر •

قالت وقد بدا عليها أنها تخاف سيدها ومعلمها وتأسف على معطفها :
— خذ ، لا أبالي بذلك ، خذه •

تناول دولوخوف المعطف وألقاه على كتفي ماتريونا ولفها به ،
ورفع الياقة حول رأسها ، ولم يترك سوى فتحة صغيرة للوجه وقال :
— هكذا ، ثم هكذا • ثم هكذا ، أترى ؟

وقرّب رأس آناتول من الفتحة التي التمتعت فيها ابتسامة ماتريوشا •
قال آناتول وهو يقبلها :

— هيا ، الوداع ، يا ماتريوشا • إيه ! انتهت الحياة الهنيئة ! تحياتي
لستيوخا • هيا ، الوداع ! الوداع ، يا ماتريوشا ، تمنى لي حظا سعيدا •
قالت ماتريوشا بلهجتها البوهيمية :
— ليعطك الرب سعادة عظمى ، أيها الأمير •

كانت تقف أمام درج المدخل عربتان يمسك بهما حوزيان • صعد
بالاغا الى الاولى وجمع الاعنة دون عجلة وهو يرفع مرفقيه الى الاعلى ،
وصعد معه آناتول ودولوخوف ، واستقر في الثانية كفوزيتكوف
والخادم •

سأل بالاغا :

— أتمم مستعدون ؟

وصاح وهو يلف الاغنة حول ذراعه :

— فلنمض !

وانحدرت العربية بأقصى سرعتها في شارع نيكيتسكي • ثم لم يسمع سوى صرخات بالاغا ومعاونه الجالس على المقعد : هوو ! هوو ! • • وفي ساحة « آربات » صدمت العربية عربة أخرى ، فحدثت قرقعة ، وطلعت صرخات ، ثم ما لبثت العربية أن انطلقت على طول ساحة الآربات •

بعد أن قطع بالاغا شارع بودنوفسكي باتجاهيه ، عدّل جري الخيل ورجع الى الورا وأوقفها في مفترق شارع «الاسطبلات القديمة» • قفز الغلام من مقعده ليمسك بعنان الخيل ، ودلف آناطول ودولوخوف الى الرصيف • وعندما اقتربا من البوابة ، صفر دولوخوف • فأجابه صفير وخرجت وصيفة وهي تركض وقالت :

— ادخلا الى الفناء والا رآكما الناس • ستصل في الحال •

بقي دولوخوف قرب البوابة ، وتبع آناطول الوصيفة في الفناء ودار عند الزاوية وصعد درجات الممشى •

تلقاه « غافريلو » خادم ماريا دميتريفنا العملاق وقال بصوت جهير وهو يسد عليه الطريق :

— سيدتي تطلبك •

فتمتم آنا تول بصوت لاهث :

— أية سيدة ؟ من أنت ؟

— تفضل واتبعني ، فقد أمرت باصطحابك •

صرخ دولو خوف :

— كوراجين ، ارجع ! لقد خانونا ! ارجع !

كان دولو خوف ، على الباب الذي وقف عنده ، يصارع البواب الذي كان يحاول اغلاق الباب خلف آنا تول • وقد استجمع قواه ودحره ثم أمسك بيد آنا تول الذي هُرع اليه وسحبه من الباب الصغير وانطلق الاثنان الى عربتهما •

الفصل الثامن عشر

بعد أن فاجأت ماريا دميتريفنا في المشى صونيا تذرف الدمع مدرارا ، حملتها على الاعتراف بكل شيء • وقد وضعت يدها على بطاقة ناتاشا وقرأتها ودخلت الى غرفتها ، وهي تمسكها بيدها وقالت :
— يا نذلة ، يا وقحة ، لا أريد أن أسمع شيئا !

واذ دفعت ناتاشا التي كانت تنظر اليها بعينين مندهشتين وجامدتين ، أغلقت عليها الباب بالمفتاح ، وبعد أن أمرت البواب أن يدع القادمين ، في هذا المساء ، يدخلون دون أن يسمح لهم بالخروج ، وبعد أن أمرت خادمها أن يأتيها بهؤلاء القادمين ، جلست في الصالون بانتظار المختطفين •
عندما جاء « جافريلو » لينبئها بأن القادمين قد فروا ، نهضت مقطبة الجبين وتمشت طويلا من غرفة الى أخرى ، ويدها خلف ظهرها ، وهي تفكر فيما ينبغي أن تفعله • وفي منتصف الليل ، تلمست المفتاح في جيبها وتوجهت الى غرفة ناتاشا ، وكانت صونيا ما تزال تنتحب في الممر ، فقالت لها :

— دعيني أدخل اليها ، يا ماريا دميتريفنا ، أتوسل اليك •

فتحت ماريا دميتريفنا الباب ودخلت دون أن تجيب • وقالت في نفسها وهي تجهد في كظم غيظها : « هذا مخجل ، هذا دنيء ، وتحت

سَقِّي ، يالها من بَتْ حقيرة ! لولا أنني أشفق على أيها ! سأفرض الصمت على الجميع وسأخفي كل شيء عن الكونت ، مهما يكن ذلك صعبا . » • دخلت بخطى ثابتة ، وكانت ناتاشا مستلقية على الاريقة ، ورأسها بين يديها ، جامدة لاتتحرك ، في الوضع نفسه الذي تركتها فيه ماريا دميتريفنا • فقالت لها :

— حلو جدا ! ظريف جدا ! تحت سقِّي تُعطى المواعيد للعشاق !
لا جدوى من التصنّع • اصني عندما أخطبك •

ولمست ذراعها وتابعت :

اصني عندما اخطبك • لقد تجللت بالعار كأردأ الفتيات • أعرف ما ينبغي أن أفعله ، لكنني اشفق على أييك • لن أقول شيئا •

لم تغير ناتاشا وضعها ، لكن جسدها كله هزه نحيب صامت تشنجي كان يخنقها • أَلقت ماريا دميتريفنا نظرة على صونيا وجلست على الاريقة بجانب ناتاشا •

قالت بصوتها الخشن :

— كان محظوظا حين أفلت مني ، لكنني سألقاه • أتفهمين ما أقول ؟
مررت° يدها الضخمة تحت رأس ناتاشا وأدارتها نحوها • دهشت ماريا دميتريفنا وصونيا عندما رأتا وجهها • كانت عيناها ملتفعتين وجامدتين ، وشفثاها مزمومتين ، وخداها غائرتين •

قالت :

— دعوني ••• ماذا يهمني ••• أريد أن أموت •

وانتزعت نفسها من ماريا دميتريفنا بحركة حائقة وعادت الى وضعها السابق •

قالت ماريا دميتريفنا :

— ناتالي !... أريد الخير لك . ظلي مستلقية ان شئت ، فلن أمسك ، لكن اصغي ... لن أقول لك الى أي حد أنت مذنبه . أنت تعلمين ذلك . لكن أباك يعود غدا ، فماذا أقول له ؟ أسمعين ؟

اهتز جسد ناتاشا مرة أخرى بالنحيب .

— واذا علم بذلك ، أو علم أخوك أو خطيبك ؟

صرخت ناتاشا :

— ليس لي خطيب ، فسخت الخطبة .

استأنفت ماريا دميتريفنا كلامها :

— لا أهمية لذلك . لنفترض أنهم علموا بذلك ، أظنن أنهم سيتركون الامور هكذا ؟ أما أبوك فأنا أعرفه ، انه قادر على دعوته الى المباراة ، أيعجبك هذا ؟ ماذا تقولين ؟

صرخت ناتاشا وقد انتصبت على أريكتها وراحت تنظر الى ماريا دميتريفنا بخبث :

— آه ! دعيني ، لماذا حلت بيني وبين ما أريد ، لماذا ، لماذا ؟ من طلب اليك ذلك ؟

فصرخت ماريا دميتريفنا وقد ثارت من جديد :

— لكن ما الذي كنت تبغينه ؟ هل كنا نجسك ؟ من كان يمنعه من المجيء الى البيت ؟ لم يختطفك كما تختطف البوهيمية ؟ . ولو قد اختطفك أما كانوا سيعثرون عليه ؟ أبوك أو أخوك أو خطيبك ؟ أما هو فانه حقير ووغد ، كذلك هو !

صرخت ناتاشا ، وهي تنهض :

— انه أفضل منكم جميعا • لو لم تسعيني ••• آه ! يا الهي ،
لماذا ، لماذا ! صونيا ، لماذا فعلت ذلك ؟ انصرفا !•••

انفجرت منتجة وقد استبد بها ذلك اليأس الذي لا يعرفه الا
الذين يحسون أنهم سبب شقاء أنفسهم • أرادت ماريا دميتريفنا أن
تتابع كلامها لكن ناتاشا صرخت :

— انصرفا ، انصرفا ، أستم تكرهوني جميعا ، أستم تحتقروني
جميعا !

وارتمت على الاركة من جديد •

ظلت ماريا دميتريفنا بعض الوقت تنصحها وتفهمها أنه يجب اخفاء
كل ذلك عن الكونت ، وأن أحدا لن يعرف شيئا اذا ما خطر لناتاشا أن
تتعهد بنسيان كل شيء وبألا يندّ عنها شيء أمام الآخرين • لم تجب
ناتاشا • وانقطعت عن النجيب لكن قشعيرة محمولة سرت في جسدها •
فدست لها ماريا دميتريفنا وسادة تحت رأسها ، وغطتها بغطاءين ،
وجاءتها هي نفسها بنقيع الزيزفون المغلي • لكن ناتاشا لم تبد حراكا •
قالت ماريا دميتريفنا ، وهي تخرج ، وقد ظنتها نائمة :

حسنا ، فلتنم •

لكن ناتاشا لم تكن نائمة ، وانما كانت تنظر أمامها شاحبة الوجه ،
شاخصة العينين • لم تنم في تلك الليلة ولم تبك ولم تخاطب صونيا
التي نهضت عدة مرات لتقترب منها •

في اليوم التالي ، في وقت الغداء ، عاد الكونت ايليا آندرئتش ،
كما كان قد وعد ، من أملاكه في الضواحي • كان فرحا : ذلك أن

الصفقة نجحت ولم يعد هناك ما يستبقه في موسكو بعيدا عن الكوتيسية التي اشتاق اليها . أنبأته ماريا دميتريفا رأسا أن ناتاشا كانت مريضة جدا في الليلة الماضية ، وأنها استدعت الطبيب وأنها قد تحسنت الآن . أما ناتاشا فلم تغادر هذا الصباح حجرتها . كانت جالسة قرب النافذة تزم شفيتها المشققتين ، وعيناها شاخصتان جامدتان ، تتفحص بقلق المارة في الشارع ، وتستدير على عجل اذا دخل أحد الى حجرتها . كان من الواضح أنها تنتظر أخباره ، تنتظر أن يأتي هو نفسه أو يكتب اليها . عندما دخل الكونت الى حجرتها أدارت رأسها بلهفة لسماعها خطي رجل ، لكن وجهها ما لبث أن استرد تعبيره البارد الخبيث . حتى انها لم تنهض لملاقاته . سألمها الكونت :

— ما بك ، يا ملاكي ، أنت مريضة ؟

لزمت ناتاشا الصمت . وأخيرا أجابت :

— نعم .

وردا على الاسئلة القبلية التي ألغاها الكونت ليعلم لم كانت منهكة الى هذا الحد ، واذا لم يكن قد حدث حادث لخطيها ، أكدت له أن شيئا من ذلك لم يكن ورجته ألا يزعم نفسه . وأيدت ماريا دميتريفا له مزاعم ناتاشا . لكن مرض ابنته المزعوم ، واضطرابها وأمارات الارتباك على صونيا وماريا دميتريفا ، كل ذلك أظهر للكونت أن شيئا ما قد حدث في غيابه ، على أنه كان يرتعد كثيرا لمجرد التفكير بأن شيئا شائنا قد وقع لابنته ، وكان شديد الحرص على هدوئها الفرح حتى أنه تخاشى أن يلقي عليها أسئلة ، وجهد في اقناع نفسه انه لم يحدث شيء غير عادي ، وان أسف لكون مرض ابنته قو أخّر عودته الى الريف .

الفصل التاسع عشر

كان بطرس يعتزم ، منذ وصول امرأته الى موسكو ، أن يذهب الى أي مكان ، شريطة ألا يكون معها . وبعد وصول آل روستوف بقليل ، دفعه الاثر الذي تركته فيه ناتاشا الى تعجيل سفره . فقصده « تفير » ، الى منزل أرملة أوسيب اليكسيفيتش التي وعدت منذ زمن طويل أن تعهد اليه بأوراق الفقيده .

عندما عاد الى موسكو تسلم رسالة من ماريا دميتريفنا ترجوه فيها أن يسر بمنزلها لامر عظيم الاهمية يتعلق بآندره بولكونسكي وخطيبته . كان بطرس يتحاشى ناتاشا . كان يبدو له أن شعوره ازاءها أشد مما ينبغي أن يحمله رجل متزوج لخطيبة صديقه . لكن كأنما كان القدر يحتال في أن يجمع بينهما .

كان يتساءل وهو يرتدي ثيابه ليذهب الى منزل ماريا دميتريفنا : « ماذا حدث ؟ ما الذي ييغونه مني ؟ » وكان يفكر في نفسه أثناء الطريق : « ليعد الامير آندره بسرعة وليتزوجها ! » .

دعاه أحدهم في شارع تفيرسكوي ، وصرخ به صوت معروف : — بطرس ! أعدت منذ زمن طويل ؟

رفع بطرس رأسه ، فرأى ، في زلاجة مقرونة بجوادين خبائين

أشهبين يثيران ركاما من الثلج ، انا تول يسر كالبرق بصحبة رفيقه الذي لا يفارقه : « ماكارين » . كان يجلس جلسة معتدلة ، في الوضع التقليدي للعسكريين المتأنفين ، وقد غرق ادنى وجهه في ياقة من الكستور ومال رأسه قليلا . كان وجهه نظرا ، متوردا ، وكانت قبعته ذات الريشة البيضاء موضوعة على جانب رأسه ، كاشفة عن شعره الاجعد ، المدهن ، الذي انتثر عليه الثلج الناعم .

قال بطرس في نفسه : « من المؤكد ان هذا حكيم حقا ! انه لا يرى شيئا وراء شهوة اللحظة الحاضرة ، ولا شيء يثير قلقه ، ولذلك فهو فرح أبدا ، مسرور ومرتاح . وفكر بشيء من الحسد : « لكم ادفع كي أكون مثله ! » .

في رواق السيدة أكروسيموف ، اخبره الخادم الذي كان يساعده على نزع فروته ان ماريا دميتريفنا ترجوه ان يسر بغرفة نومها . عندما فتح بطرس باب الصالون الكبير ، شاهد ناتاشا جالسة الى النافذة ، ووجهها ناحل ، شاحب ، متجهم . التفتت اليه وقطبت حاجبيها وتركت الغرفة ، وعلى وجهها امارات الوقار البارد .

سأل بطرس وهو يدخل الى غرفة ماريا دميتريفنا :

— ماذا جرى ؟

أجابت هذه :

— جرى ما يخزي . فمنذ ثمانية وخمسين عاما ، منذ ان رايت

النور ، لم اشهد عارا مماثلا . وبعد ان استحلقت بطرس بكتمان كل مستخبره به ، انبأته بأن ناتاشا فسخت خطبتها بخطيبها دون علم اهلها ،

وان سبب هذا الفسخ هو آفاتول كوراجين الذي ساعدته زوجة بطرس في مشاريعه والذي كانت ناتاشا تنوي الهرب معه ، أثناء غياب أبيها ، لتتزوج سرًا .

كان بطرس يصغي الى ماريا دميتريفنا ، ورأسه في كتفيه ، وفمه فارغ ، وهو لا يصدق أذنيه . الخطيبة التي شغف بها الامير آندره ، ناتاشا روستوف تلك الفنانة ، تفضل على بولكونسكي هذا الغبي آفاتول الذي كان متزوجا (كان بطرس على علم بزواجه السري) وتغرم به الى الحد الذي تقبل فيه الهرب معه ! ذلك مالم يستطع بطرس فهمه ، ولم يستطع تصوره .

ان الذكرى الساحرة لناتاشا التي كان يعرفها منذ طفولتها ما كانت تتوافق في ذهنه مع هذه الفكرة الجديدة عن دنائها وغبائها وفضائلها . وخطرت بباله امرأته فقال في نفسه وهو يفكر في انه ليس الوحيد الذي اوتي ذلك الامتياز البائس بأن يرتبط بامرأة سيئة : « كلهن سواء » . ومع ذلك ، فقد كان يرثي للامير آندره حتى تجري دموعه ، وكان يتألم من أجل كبريائه . وكلما ازداد اشفاقه على صديقه ازداد الازدراء والاشمئزاز اللذان كان يفكر بهما في ناتاشا هذه التي مرت قبل حين امامه في الصالون الكبير وعلى وجهها امارات الوقار البارد .. لم يكن يعلم ان نفس ناتاشا كانت تفيض أسى وخجلا ومذلة ، وانه لاذنب لها ان نهم وجهها ، بالرغم منها ، على هذا الوقار الهادئ القاسي .

قال بطرس ردا على كلمات ماريا دميتريفنا :

— لكن كيف يتزوجها ؟ لم يكن بمقدوره ان يتزوجها ، فهو

متزوج .

قالت ماريا دميتريفنا :

— أحسن فأحسن ! النذل المكتمل النذالة ! الحقير ! وهذه التي تنتظره هنا ، ها قد مضى يومان وهي تنتظره • فلتكف على الاقل عن انتظاره • يجب ان تنصحها بذلك •

بعد أن اطلعت ماريا دميتريفنا على تفاصيل زواج آنا تول وأطلقت غضبها في شتائم ، شرحت لبطرس الاسباب التي من اجلها استدعته • كانت تخشى أن يعمد الكونت أو بولكونسكي الذي قد يصل بين لحظة واخرى ، الى تحدي كوراجين ودعوته الى المباراة اذا علما بالمغامرة التي تنوي اخفاءها عنهما ، ورجت بطرس أن يفرض باسمه على كوراجين مغادرة موسكو وعدم الظهور امامها • فوعدها بطرس بذلك وقد أدرك آنذاك فقط الخطر الذي كان يتهدد الكونت الشيخ ونيقولا والامير آندره • وبعد ان شرحت له بايجاز ودقة ما الذي كانت تنتظره منه ارسلته الى الصالون • قالت له :

— اتبه جيدا فالكونت يجهل كل شيء • تصرف وكأنك لاتعرف شيئا • اما انا فساذهب لاقول لها انه لم يبق لها ماتنتظره •

وصرخت به وهو يخرج :

— وابق للعشاء اذا شئت •

التقى بطرس الكونت الشيخ • كان حائرا ، مغموما • لقد انبأته ناتاشا في الصباح انها فسخت خطبتها بيولكونسكي •
قال لبطرس :

— انها لمصيبة ، مصيبة ، مصيبة حقيقية ، هؤلاء البنيات عندما

يكن بدون امهاتهن ؛ لكم آسف لمجيئي • سأكون صريحا معك •
سستع بما جرى ، لقد فسخت خطبتها بخطيبها ، دون أن تطلب
شيئا الى أحد • الحقيقة أنني لم ابتهج قط بهذا الزواج • لاشك أنه فتى
ممتاز ، لكنهما ما كانا ليجدا السعادة اذا خالفا ارادة أبيه ، ولن يعوز
ناتاشا الطالبون • ومع ذلك فان هذا الامر قديم ، ثم كيف تتخذ مثل
هذا القرار دون ان تقول شيئا لايها ! واما ! وهي الان مريضة ، الله
يعلم ما بها ؟ انها لبلىة ، ايها الكونت ، بلىة حقيقية ، البنات بدون
امهاتهن ... حاول بطرس ، وقد رأى الكونت ثائرا ، ان يغير الحديث ،
لكن الكونت كان يعود دائما الى ما يشغل باله •

دخلت صونيا ، بادية القلق ، الى الصالون :

— ناتاشا متوعدة قليلا : هي في غرفتها وتريد ان تراك • وعندها
ماريا دميتريفنا وهي ايضا ترجوك ان تأتي •
قال الكونت :

— صحيح ، أنت جيد العلاقة بيولكونسكي ، لا شك أنها تريد
ابلاغه شيئا ما • آه ! يا الهي ! لكم كان كل شيء حسنا !

وخرج الكونت وهو يشد على شعراته الرمادية النادرة •

كانت ماريا دميتريفنا قد اخبرت ناتاشا ان اناطول متزوج • لم
تشأ ناتاشا ان تصدق وطلبت ان يؤيد لها بطرس النبأ • قالت صونيا
ذلك لبطرس وهي تقوده خلال الممر الى غرفة ناتاشا •

كانت ناتاشا جالسة الى جانب ماريا دميتريفنا ، وهي شاحبة
عابسة ، ومنذ عتبة الباب ، استقبلت بطرس بنظرة مستفهمة تبرق بيريق

محموم • لم تبسم له ، ولم تحيه برأسها ، بل اكتفت بالتحديق فيه كانت
نظرتها لاتسأله الا عن شيء واحد : اهو صديق ام عدو كالاخرين فيما
يخص انا تول ؟ وبدا جليا ان بطرس بذاته لم يكن موجودا بالنسبة
إليها •

قالت لها ماريا دميتريفنا وهي تشير اليه :

— انه يعرف كل شيء • دعيه يؤيد لك الحقيقة ان كنت قد قلتها لك •
كانت فاتاشا تنقل عينها بينهما كالحيوان الجريح المحاصر الذي
يرى الصيادين وكلابهم يحدقون به •

بدأ بطرس كلامه وقد غض بصره ، شاعرا بالشفقة عليها
وبالاشمئزاز من العملية التي سيقوم بها :

— يانا تالي ايلينيشنا ، سيان عندك ان كان ذلك صحيحا ام لا •••

— واذن ، ليس صحيحا انه متزوج ؟

— بلى ، انه متزوج •

وسألت :

— أكان متزوجا ، ومنذ زمن بعيد ؟ أتقسم بشرفك ؟

فأقسم لها بطرس بشرفه •

سأله بجدة :

— اما يزال هنا ؟

— نعم لقد رأيته قبل حين •

كان واضحا انها لاتقوى على ان تقول شيئا فوق ذلك فأومأت

اليهما أن يتركاها وحدها •

الفصل العشرون

لم يبق بطرس للعشاء لكنه ترك في الحال غرفة ناتاشا وانسحب . ذهب للبحث عن آناطول كوراجين الذي غدا التفكير فيه يدفع بدمه كله الى قلبه ويقطع عليه تنفسه . لم يجده لافي الجبال ولا لدى البوهيميين ولا لدى كومونينو . وذهب بطرس الى النادي . هناك ، كان كل شيء يسير سيرته المعتادة : كان الاعضاء الذين جاؤوا للعشاء جالسين جماعات ، وقد حيوا بطرس وهم يتحدثون عن اخبار اليوم . أقبل عليه خادم يعرف علاقاته وعاداته فأنبأه وهو ينحني ان مكانه محجوز في صالة الطعام الصغيرة ، وان الامير ميشيل زاخارتيش في المكتبة ، وان بول تيموفيتش لم يصل بعد . وسأله احد اصدقائه ، وهو يتحدث عن اشياء مختلفة ، ان كان قد علم باختطاف الأنسة روستوف على يد كوراجين ، وهو اختطاف بات الناس يتحدثون عنه في المدينة ، وان كان ذلك صحيحا . فأجاب بطرس ، وهو يضحك ، بأن ذلك محال لانه خرج للتو من منزل آل روستوف . واستفسر عن آناطول من الجميع ، قال له احدهم : انه لم يصل بعد ، وقال آخر انه قد يأتي للعشاء . كان بطرس ينظر باستغراب الى هذه الطائفة من الناس الهادئين اللامبالين الذين لا يخطر ببالهم مايعتمل في نفسه . تجول في الصالونات ، وانتظر وصول الناس جميعا ، وعندما رأى ان آناطول لم يحضر ، لم يبق للعشاء وعاد الى بيته .

كان آنا تول الذي بحث عنه بطرس يتعشى هذا اليوم عند دولوخوف ويستشير في الوسائل الكفيلة باصلاح ما فسد من الامر . لقد بدا له أن يرى الآنسة روستوف ثانية . ولذلك ذهب في المساء ، الى اخته ليتفق معها على طريقة ترتيب هذا اللقاء . أما بطرس فبعد أن جاب موسكو كلها عبثا عاد الى بيته ، فأخبره الخادم ان الامير آنا تول فاسيليفتش عند الكوتيسية . وكان صالون الكوتيسية مليئا بالناس .

دخل بطرس الى الصالون ، دون أن يسلم على امرأته التي لم يرها منذ عودته (كانت في هذه اللحظة أكره ما تكون عليه) ، فلما لمح آنا تول مضى اليه .

قالت الكوتيسية وهي تدنو من زوجها :

— آه ! بطرس . انك لا تدري أيّ وضع تورط فيه آنا تولنا ... وتوقفت وهي تتعرّف في رأسه المطرق وفي عينيه الملتمعتين وفي مشيته الواثقة ، على أمارات الهياج والعنف الرهيبة التي عرفتها والتي عانت آثارها بعد مبارزته لدولوخوف .

قال بطرس لامرأته :

— حيشا تكوني لا يكن غير الفساد والشر .

وأضاف بالفرنسية :

— تعال ، يا آنا تول . عليّ أن أكلّمك .

ألقي آنا تول نظرة على أخته ونهض ممثلا ، مستعدا لأن يتبع بطرس .

جرّه بطرس الى خارج الصالون ، وهو يمسكه بذراعه .

قالت هيلين همسا :

— اذا سمحت لنفسك في صالوني ...

لكن بطرس خرج دون أن يجيبها •

تبعه آنا تول بمشيته المتعجرفة المعتادة • وكان القلق باديا على وجهه •
عندما دخل بطرس الى مكتبه ، أغلق الباب وخاطبه دون أن ينظر اليه
— وعدت الكونتيسة روستوف بأن تتزوجها ؟ كنت تريد اختطافها ؟
أجاب آنا تول بالفرنسية (كل الحديث جرى بالفرنسية) :

— يا عزيزي ، لا أظني مجبرا على الاجابة عن أسئلة تطرح بهذه
اللهجة •

انقلب وجه بطرس من الهياج ، وكان ممتقعا من قبل ، فأمسك يده
الضخمة آنا تول من ياقة بزّته وهزّه في كل الجهات حتى علت وجهه
أمارات الرعب العظيم • كرر بطرس :

— عندما أقول : ان عليّ أن أكلّمك ...

قال آنا تول وهو يتلمس على ياقته زرا انتزعه بطرس مع قماش
القميص :

— لكنّ مهلا ، انه لشيء سخيف !

قال بطرس بطريقة تكاد تكون غير طبيعية لانه كان يتكلم بالفرنسية
— أنت حقير وفاسق ، ولست أدري ما الذي يمنعني من تحطيم
رأسك بهذه •

وأمسك بثقالة ورق ضخمة ورفعها بحركة مهدّدة ، ثم مالبت أن
أعادها الى مكانها •

— هل وعدتها بالزواج ؟

— أنا ، أنا ، أنا لم أفكر بذلك قط ، على كل حال ، أنا لم أعد بشيء
قط لأن ...

قاطعہ بطرس وكرر وهو يسير اليه :

— أليديك رسائل منها ؟ أليديك رسائل ؟

رماه آنا تول بنظرة ، وسرعان مادم يدہ في جيبہ ، وأخرج منها
محفظتہ •

تناول بطرس الرسالة التي مدّها اليه ودفع الطاولة التي كانت في
طريقه ، وتهالك على الأريكة •

قال ردا على حركة آنا تول الخائفة :

— لن أكون غنيفا ، لا تخش شيئا •
وتابع كأنه يلقي درسا حفظه :

— الرسائل ، أولا ••

واستأنف بعد لحظة من الصمت ، وقد نهض وأخذ يذرع الغرفة ،

— ثانيا ، يجب أن تغادر موسكو غدا •

— لكن ، كيف أستطيع ••

أردف بطرس دون أن يصغي اليه :

— ثالثا ، لاتبس بكلمة عما جرى بينك وبين الكوتيسة ، وأنا لا

أستطيع أن أمنعك من هذا ، لكن ، ان كان لديك ذرة من الضمير •••

ثم خطا بصمت خطوات في الغرفة • كان آنا تول جالسا الى الطاولة
مقطب الحاجبين ، يعض شفتيه • تابع بطرس قائلا :

— لا يمكنك ألا تفهم في النهاية أن هناك ، خارج نطاق لذتك ،

سعادة الآخرين وطمأنيتهم ، وأنتك تفسد حياة بأسرها لمجرد رغبتك في أن تتسلى • تسلى مع نساء من نوع امرأتي ، فلك ملء الحق أن تتسلى معهن ، انهن يعرفن ما الذي تريده منهن ، وهن مسلحات ضدك بتجربة الفجور نفسها ، أما أن تعد فتاة بالزواج •• أن تخدعها ، أن تخطفها •• كيف لم تفهم أن هذا العمل دنيء كضربك الشيخ أو الطفل ••

سكت بطرس وألقى على آنا تول نظرة ، هي نظرة التساؤل لا الغضب قال آنا تول الذي كان يسترد شجاعته كلما تغلب بطرس على غضبه •

— لست أعلم شيئاً مما تقول •

وتابع كلامه دون أن ينظر اليه وقد أخذ فكه الاسفل يرتجف ارتجافاً خفيفاً •

— لست أعلم شيئاً ، ولا أريد أن أعلم شيئاً ، لكنك قلت لي أشياء من مثل دنيء وهلمّ جرّاً ، لا يمكنني ، باعتباري رجلاً شريفاً ، أن أسمح لاحد باستعمالها •

نظر اليه بطرس بدهشة وهو لا يستطيع أن يفهم قصده من وراء ذلك وواصل آنا تول :

— ومع أن ذلك جرى بيننا الاثنين وحدنا ، الا انني لا أستطيع •• فقال بطرس بلهجة ساخرة :

— واذن فأنت تطلب مني ترضية ؟

— تستطيع على الاقل أن تسحب ما قلت • هذا اذا أردت أن أفعل ما تطلبه •

— طيب ، طيب ، انني أسحب كلامي وأرجوك أن تعذرني •

ونظر بالرغم منه الى الزر المنزوع وأضاف :

ب وادًا كنت بحاجة الى المال من أجل السفر ...

ابتسم آنا تول • لكن التعبير الجبان والحقير لهذه الابتسامة التي كان بطرس يعرفها لانه طالما رآها على وجه امرأته ، قد أخرجه عن طوره فقال

اوه ! يا لهذه الذرية الحقيرة التي لا قلب لها !

قال ذلك وخرج •

في اليوم التالي سافر آنا تول الى بطرسبرج •

الفصل الحادي والعشرون

قصد بطرس الى منزل ماريا دميتريفنا ليخبرها أن الامور تمت وفق رغبتها ، أي ان كوراجين غادر موسكو • كان البيت بأسره نهبا للقلق والاضطراب • وكانت ناتاشا مريضة جدا • وقد كشفت له ماريا دميتريفنا على سبيل السرّ ، ان ناتاشا سمّمت نفسها ليلا بالزرنيخ الذي حصلت عليه خلسة ، في اليوم الذي علمت فيه أن آنا تول كان متزوجا • لقد ابتلعت منه مقدارا طفيفا فخافت خوفا شديدا حتى انها ايتقت صونيا واعترفت لها بما فعلت • فاتخذت ، في الوقت المناسب ، التدابير الضرورية وهي الآن بمنجى من الخطر ؛ لكنها كانت ضعيفة الى الحد الذي لا يمكن معه التفكير بنقلها الى الريف وبحيث طلب الى الكونتيسة أن تحضر • رأى بطرس الكونت مضطربا وصونيا باكية ، لكنه لم يستطع أن يرى ناتاشا •

تعشى هذا اليوم في النادي وسمع الناس يتحدثون ، من كل جانب عن محاولة اختطاف الأنسة روستوف ، وهي محاولة لم يتوان عن تكذيبها ، مؤكدا لكل واحد أن كل ما جرى هو أن أخا زوجته طلب يدها ورّد خائبا • وكان بطرس يُقدّر أن من واجبه اخفاء الامر وانقاذ سمعة الأنسة روستوف •

كان ينتظر بهلع عودة الامير أندره ويذهب كل يوم ليسأل الامير العجوز عن أخباره •

كان الامير نيقولا اندرئتش على علم ، عن طريق الأنسة بورين ، بكل الشائعات التي راجت في المدينة ، وكان قد قرأ البطاقة المرسلة الى الاميرة ماريا والتي تفسخ فيها ناتاشا خطبتها بخطيبها . وكان يبدو أكثر ابتهاجا من عادته و ينتظر بفارغ الصبر عودة ابنه .

بعد سفر آنا تول ببضعة أيام ، تلقى بطرس كلمة من الامير آندره ينبئه فيها بوصوله ويرجوه أن يمرّ لرؤيته .

تسلم الامير آندره من أبيه ، منذ وصوله الى موسكو ، بطاقة ناتاشا الى الاميرة ماريا (هذه البطاقة سرقتها الأنسة بورين وسلمتها الى الامير العجوز) وسمع منه رواية مطوّلة عن اختطاف ناتاشا .

كان الامير آندره قد وصل في العشية ، فجاء بطرس لرؤيته في صباح اليوم التالي . كان يتوقع أن يجده في حال شبيهة بحال ناتاشا ، لذلك دهش حين سمع ، وهو يدخل ، صوت الامير آندره في المكتب يتحدث بحماسة عن احدى دسائس بطرسبرج . وكان الامير العجوز وشخص آخر لا يرى يقاطعانه بين وقت وآخر . جاءت الاميرة ماريا لملاقة بطرس وتنهدت وهي تدلّه بنظرتها على باب الغرفة التي كان فيها الامير آندره قاصدة ، من غير شك ، أن تظهر بذلك مدى مشاركتها أخاها في حزنه . لكن بطرس رأى من وجهها أنها مسرورة مما جرى ، ومن الطريقة التي تلقى بها أخوها نبأ خيانة خطيبته . قالت :

— لقد قال انه كان يتوقع ذلك ، وأنا أعلم أن كبرياءه لا تسمح له أن يبدي عواطفه ، لكنه تقبل الامر بأفضل ، بأفضل كثيرا ما كنت أقدر ... ينبغي الاعتقاد بأن ذلك كان لابد أن يقع ...

قال بطرس :

— لكن أمن الممكن أن يكون كل شيء قد انتهى حقا ؟

نظرت اليه الاميرة ماريا بدهشة . لم تكن تفهم أنه يمكن طرح مثل هذا السؤال . ودخل بطرس الى المكتب فرأى الامير آندره بتياب مدنية ، وقد تغير كثيرا ، وبدا في صحة أفضل ، لكن مع تجعيدة جديدة بين الحاجبين ، واقما مقابل ابيه والامير ميتسرسكي يناقش بحماسة ويحرك يديه بقوة . كانوا يتحدثون عن سبيرانسكي الذي شاع في موسكو نبأ نفيه وخيافته المزعومة .

كان الامير آندره يقول :

— كل الذين كانوا منذ شهر ، يرفعونه الى الارجح ، سيحكمون عليه الآن وسيدينونه ، وكذلك كل الذين كانوا عاجزين عن فهم مقاصده . ومن السهل جدا أن ندين انسانا فقد حظوته وأن نحمله جميع أخطاء الآخرين ؛ أما أنا فأقول : اذا كان قد تم في هذا العهد شيء حسن فاليه ، واليه وحده يعود الفضل ..

توقف عند رؤية بطرس . اختلج وجهه وسرعان ما اكتسى تعبيرا قاسيا . واختتم كلامه وهو يلتفت رأسا الى بطرس .

— وسوف تعترف الاجيال القادمة بجيميله .

ثم قال بحماسة وقد ازدادت التجعيدة الجديدة تغضنا على جبهته :

— حسنا ! كيف حالك ؟ انك تسمن أبدا .

وأجاب على سؤال بطرس مبتسما :

— نعم ان صحتي جيدة .

رأى بطرس بوضوح أن ابتسامته كانت تعني : « ان صحتي جيدة ، لكن ما جدوى ذلك ؟ »

وبعد أن بادله بضع كلمات عن حالة الطرق الرديئة بدءاً من حدود بولونيا ، وعن معارف بطرس الذين لقيهم في سويسرا ، وعن السيد ديسال الذي جاء به من الخارج ليعهد اليه بتربية ابنه • شارك ، مرة ثانية بحماسة في الحديث الذي ظل دائراً بين الشيخين عن سيرانسكي • قال باندفاع وحدة :

— لو كان هناك خيانة أو أدلة على اتصاله بنابليون لاذيعة على نحو واسع • وأنا شخصياً لا أحب سيرانسكي ولم أحبه قط ، لكنني أتمسك بالعدالة •

كان بطرس يتعرف الآن لدى صديقه على تلك الحاجة التي عرفها كثيراً من قبل وهي التحمس لقضايا لاتعنيه في شيء بل ومناقشة تلك القضايا ، ليترد فقط تلك الافكار الخاصة المضنية •

عندما انصرف الامير ميستشيرسكي ، وضع الامير آندره ذراعه في ذراع بطرس وأخذه الى الغرفة التي خصصت له • كان قد أعدّ فيها سرير وكان هناك حقائب وصناديق مفتوحة • مضى الامير آندره نحو أحدها وتناول علبة • ومن العلبة أخرج رزمة مغلفة بالورق • كان يفعل ذلك كله بصمت وبسرعة شديدة • ثم نهض وجلس صوته • كان وجهه متجهماً وشفته مزمويتين •

— سامحني اذا ضايقتك •••

فهم بطرس أنه يريد أن يتحدث عن ناتاشا فعكس وجهه العريض الرأفة والعطف • فأثار هذا التعبير الامير آندره ، وتابع بصوت واثق منكر :

— ان الكوتيسة روستوف نكثت بعهدا ، وقد بلغتني شائعات

عن أن أخوا زوجتك طلب يدها ، أو عن شيء من هذا القبيل • فهل هذا صحيح ؟

بدأ بطرس كلامه :

— نعم ولا ...

لكن الامير آندره قاطعه قائلاً :

— دونك رسائلها وصورتها أعد هذا الى الكوتيسة • ان رأيتهما •

وأخذ الرزمة عن الطاولة وناولها بطرس

قال بطرس :

— أنها مريضة جدا •

سأله الامير آندره :

— انها لاتزال هنا ، اذن ؟

وأضاف بسرعة :

— والامير كوراجين ؟

— لقد سافر منذ زمن طويل • لقد أوشكت أن تموت ••

قال الامير آندره :

— آسف أسفا شديدا لمرضها •

وابتسم ابتسامة باردة خبيثة ، كريهة ، شبيهة بابتسامة أبيه وأضاف :

— واذن فان السيد كوراجين لم يجد الكوتيسة روستوف

جديرة به •

ونخر عدة مرات •

قال بطرس :

— لم يكن يستطيع أن يتزوجها لانه متزوج •
ضحك الامير آندره ضحكة كريهة تذكر بأبيه مرة أخرى •
قال بطرس :

— لقد سافر الى بطرس ... بل اني لا أعرف شيئا عن ذلك •
قال الامير آندره :

— على كل حال ، لا أهمية لذلك • قل للكوتيسة روستوف انها
كانت وماتزال حرة كل الحرية ، وانني أتمنى لها كل سعادة ممكنة •
تناول بطرس رزمة الاوراق • كان الامير آندره يشخص اليه
بنظره وكأنما كان يتساءل ان لم يبق لديه مايقوله له أو كأنما كان
ينتظر أن يتكلم بطرس • قال بطرس :
— اصغ اليّ ، أتذكر النقاش الذي كان بيننا في بطرسبرج ، أتذكر ،
عن ... ؟

أجاب الامير آندره على عجل :
— أذكر ذلك • كنت أقول انه يجب أن نصفح عن المرأة التي سقطت ،
لكنني لم أقل ان بوسعي أن أصفح • لا أستطيع ذلك •
قال بطرس :
— أيسكننا أن نقارن ... ؟
فقاطعه الامير آندره وصاح بعنف :

— نعم ، تريدني ان اطلب يدها مرة أخرى ، ان أكون كريما وهلم
جرا ؟ • نعم ، هذا نبيل جدا ، لكنني لست قادرا على مزاحمة هذا
السيد • واذا أردت ان تظل صديقا لي فلا تحدثني بعد الآن عن هذه • •
عن ذلك كله • والآن الوداع • سوف تُسلم ، اذن ، هذه الرسالة ؟ • •

— خرج بطرس وذهب لرؤية الامير العجوز والاميرة ماريا •
بدا الشيخ أكثر نشاطا من عادته • أما الاميرة ماريا فكانت هي هي ،
لكن بطرس رأى فرحها بفسخ الخطبة يتبدى من وراء حنوّها على أخيها •
وقد أدرك ، من النظر اليهما ، مدى الاحتقار والحقد اللذين يحسان
بهما ازاء آل روستوف ، أدرك أنه لا يمكن أن يتلفظ المرء أمامهما باسم
تلك التي استطاعت ان تفضل عليه انسانا آخر ، أيا كان ذلك الانسان •
جرى الحديث اثناء العشاء عن الحرب التي غدا وقوعها وشيكًا •
تكلم الامير آندره وناقش ذلك بلا انقطاع ، حينًا مع أبيه ، وحينًا آخر
مع ديسال ، المربي السويسري ، وبدأ أشد حيوية من عادته ، وهي
حيوية يعرف بطرس حقَّ المعرفة سببها الروحي •

الفصل الثاني والعشرون

ذهب بطرس ، في المساء نفسه ، الى منزل آل روستوف ليؤدي مهمته . كانت ناتاشا في السرير ، والكونت في النادي . وبعد أن سلّم بطرس الرسائل الى صونيا ، دخل الى غرفة ماريا دميتريفنا التي كانت تريد أن تعلم كيف تلقى الامير آندره النبأ . لكن صونيا جاءت بعد عشر دقائق وقالت :

— ناتاشا تصر على رؤية الكونت بطرس كيريلوفتش .

قالت ماريا دميتريفنا :

— لكن كيف العمل ، هل ينبغي أن تدخله الى غرفتها وهي غير مرتبة ؟ أجابت صونيا :

— لا ، لقد ارتدت ثيابها وهي تنتظره في الصالون .

اكتفت ماريا دميتريفنا بهز كتفها وقالت :

— متى يصل الكونت أخيرا ؟ أعياني الامر . خذ حذرك ولا تقل

لها كل شيء . لن تجد الشجاعة على توبيخها ، انها تثير الشفقة الى حد كبير ، الى حد كبير !

كانت ناتاشا تقف في وسط الصالون ناحلة ، شاحبة الوجه عابسة

(غير خجلة خلافا لما كان يتوقعه بطرس) .

وعندما ظهر على الباب اضطربت ، فلعلها تساءلت ان كان يجب أن
تتقدم لتلاقيه أو تنتظره •

دنا بطرس بسرعة • وكان يقدر انها ستمد يدها كما كانت تمدها من
قبل ، لكنها تقدمت حتى صارت الى جانبه ثم وقفت محصورة النفس ،
جامدة الذراعين ، كوقفتها حين كانت تتوسط الصالون لتغني ، وان علت
وجهها معان اخرى •

بدأت كلامها بسرعة :

— بطرس كيريلوفتش ، لقد كان الامير بولكونسكي صديقي ••
واستدركت قائلة :

— وما يزال صديقي (كان يبدو لها أن كل شيء قد صار من الماضي ،
وأن كل شيء قد صار الآن مختلفا) • كان قد نصحني بالرجوع اليك ••
كان بطرس يتنفس بقوة من أنفه وهو ينظر اليها دون أن ينبس
بكلمة • لقد لامها في أعماقه ، حتى هذه اللحظة ، وسعى جهده الى
احتقارها ، أما الآن فهو يشفق عليها اعظم الشفقة بحيث لم يبق في نفسه
مكان للوم •

— انه هنا ، قل له •• أن يصعد •• أن يصفح عني •

توقفت وتسارعت أنفاسها لكنها لم تبك •

أجاب بطرس :

— نعم ••• سأقول له ، لكن ••

ولم يجد ما يقوله •

بدت ناتاشا مروعة من الفكرة التي لعلها مرّت بخاطر بطرس •

فقالته على عجل :

— كلا ، اني اعرف ان كل شيء قد انتهى • كلا ، لن يتكرر ذلك مرة ثانية • انما يعدّ بني الالم الذي سبّته له • قل له فقط انني أرجوه أن يصفح عني ، أن يصفح ، أن يصفح عن كل ما فعلته ••

هزّتها رعدة وجلست على الكرسي •

طفحت نفس بطرس بشعور من الشفقة لم يخس بمثله من قبل • قال:

— سأقول له ذلك ، سأقول له كل شيء مرة أخرى ، لكنني •• كنت

أودّ لو أعرف هذا الشيء •••

سألته نظرتها « تعرف ماذا ؟ »

— كنت أود لو أعرف ان كنتِ أحببتِ •••

ولم يعرف كيف يدعو آناطول واحمرّ وهو يفكر فيه :

— ان كنتِ أحببتِ هذا الانسان السيء •

قالت ناتاشا :

— لا تسمّه سيئا • لست أدري شيئا ، لم أعد أدري شيئا ••

واستسلمت للبكاء • فاجتاح بطرس شعور أعمق من الشفقة والحنان

والحب • وأحس بالدموع تساق تحت نظارتيه وتمنى ألا تلحظها

ناتاشا • قال :

— لندع° هذا الحديث ، يا صديقتي •

راع° ناتاشا هذا الصوت الوداع ، الرقيق ، الواثق •

— لندع هذا الحديث ، يا صديقتي ، سأقول له كل شيء ، لكنني

أطلب اليك شيئا واحدا فقط : اعتبريني صديقا لك ، واذا احتجت الى

مساعدة ، الى نصيحة ، او اذا احتجت فقط الى ان تفصحي عن دخيلة

نفسك أمام أحد الناس ، لا الآن ، بل عندما تبصرين نفسك بوضوح ،
عند ذاك تذكريني •

وتناول يدها وقبلها وأضاف :

— سيكون من دواعي سعادتي أن أستطيع ••

وهنا اضطرب بطرس •

هتفت ناتاشا :

— لا تكلمني بهذا الكلام ، فليستُ جديرا به !

وأرادت أن تنسحب ، لكن بطرس استوقفها بذراعها • كان يعلم
أنه قد بقي في نفسه ما يقوله لها • ولكن عندما قاله دهش هو نفسه من
أقواله :

— لاتقولي هذا ، لاتقولي هذا ، فما تزال أمامك الحياة الرحبة •

قالت بخجل واتضاع :

— أنا ؟ كلا ! ضاع مني كل شيء !

فردد قائلا :

— ضاع كل شيء ؟ لولم أكن في ما أنا فيه ، لو كنت أجمل الرجال
في العالم وأذكاهم وأفضلهم ، لو كنت حرا ، لطلبت جايا ، في هذه
اللحظة بالذات ، يدك وجبك •

لاول مرة ، منذ أيام كثيرة ، ذرفت ناتاشا دموع الامتنان والحنان ،
وخرجت وهي ترميه بنظرتها •

خرج بطرس أيضا وهو يركض في البهو ويجلس دموع الحنان
والسعادة التي كانت تضغط حنجرتة ، وارتدى فروته كما اتفق له وصعد
الى زلاجه •

سأله الحوذني :

— أين يجب أن أذهب الآن ؟

تساءل بطرس :

— أين ؟ أين يسكن أن أذهب الآن ؟ أمن الممكن أن أذهب الى النادي

أو أقوم بزيارة ؟

لقد بدا له الناس جديرين بالثناء ومساكين الى حد بعيد ، بالقياس الى هذا الشعور من الحنان والحب الذي كان يشعر به ، بالقياس الى هذه النظرة الاخيرة ، الحلوة ، الممتنة التي منحته اياها من خلال دموعها .

قال وهو يدفع فروته التي من جلو الدب ، عن صدره العريض الذي كان يتنفس بفرح ، بالرغم من برد الدرجات العشر :

— الى البيت .

كان الجو جميلا وباردا . ومن فوق الشوارع القذرة العاتمة ، انبسطت سماء داكنة مزدانة بالنجوم . لم يكن بطرس يحس بالدناءة المخزية للامور الارضية بالقياس الى الاعالي التي كانت ترفرف فيهاروحه الا حين ينظر الى هذه السماء . وبينما كان يكدّف الى ساحة الاربات ، انكشفت لعينيه مساحة عريضة من السماء الداكنة المنجمة . وفي وسط السماء تقريبا ، فوق شارع بريتشيزتسكي ، بدا مذنّب ١٨١٢ الهائل المتألق ، تحيط به من كل جانب وترصعه النجوم ، وان امتاز عنها بقربه الشديد من الارض ، وبضياؤه الابيض ، وبذيله الطويل المرفوع ، هذا المذنّب هو نفسه الذي كان ينذر ، كما قيل ، بالاهوال وبنهاية العالم . لكن هذه النجمة المضيئة ذات الذيل الطويل الساطع لم تكن توقظ في بطرس أي احساس بالخوف . بل انه كان ينظر فرحا بعينه المبلّتين

بالدموع الى هذا الكوكب المتألق الذي كان يبدو ، بعد اجتيازه مساحات
لاحد لها ، بسرعة لا نهاية لها ، في خط ذي قطع مكافئ ، كان يبدو
كأنما استقر فجأة في المكان الذي اختاره ، وسط السماء السوداء ،
كما يستقر السهم الذي يسقط على الارض ، وبقي حيث استقر ، منتصب
الذيل ، يرقص نوزه الابيض ويلألئ به بين نجوم متلألئة لاحصر لها •
كان يبدو لبطرس أن هذا الكوكب منسجم انسجاما كاملا مع ما يملأ
نفسه المتفتحة لحياة جديدة ، نفسه التي خالطها الحنان والعزاء •

الحواشي :

- — « فورونيج » : مدينة ومقاطعة على الدون الاعلى ، جنوبي موسكو .
- — « أنا ميخائيلنا » : الاميرة دروبتزكوي التي تسكن لدى آل روستوف .
- — « هل رأيت دوبر ؟ » : راقص فرنسي مشهور وصل الى روسيا في سنة ١٨٠٨ ؛ وها هنا مفارقة تاريخية طفيفة .
- — « النادي الانكليزي » : نادي الطبقة النبيلة الرفيعة في موسكو .
تأسس في سنة ١٧٧٠ .
- — « الكونت روستوبشين » : فيدور فاسيليفتش روستوبشين (١٧٦٣ - ١٨٢٦) خلع عليه بولس الاول لقب كونت ؛ حاكم موسكو العام في ١٨١٢ ، كان يفتخر بأنه دبر حريق موسكو . وابنته صوغيا التي تزوجت الكونت هنري دي سيفور ، وهي مؤلفة كتب الاطفال المعروفة جيدا .
- — « الامير يوري فلاديميروفتش دولغوركي » ولد في ١٧٤٠ ، جنرال وضابط كبير يحمل وسام القديس أندره . أحيل على التقاعد سنة ١٨٠٥ ومات في موسكو سنة ١٨٣٠ .
- — « الامير فيازمسكي » : أندره ايفانوفتش فيازمسكي (١٧٥٠ - ١٨٠٧) ، أحد رجال الدولة ووالد الشاعر بطرس فيازمسكي .
- — « خيانة البولوني برزيسويسكي والفرنسي لانجيرون » : انظر حاشية الصفحة ٣٩٨ من الكتاب الرابع .
- — « مقلدا تقليدا ساخرا كلمة فوليتير » الكلمة المقصودة هي الكلمة التي قالها فوليتير سنة ١٧٦٩ : « لو لم يوجد الله لوجب أن نختصره » .
- — « في قفطانات » : في ثياب ذات ذيول من القرن الثامن عشر .

- — « ناريشكين » : اسكندر لفوفتش اندريفتش بيكليشوف (١٧٤٣ — ١٨٠٨) ، سياسي ، الحاكم العام لروسيا الصغرى بدءا من ١٧٩٨ ، نائب عام في ١٨٠٢ وفي ١٨٠٤ ، حاكم موسكو . كان رجلا عظيم النزاهة ، كامل الاستقامة في خلقه .
- — « وابئق لنا تيتوس على العرش » : تيتوس هو ابن فسياسيان ، مارس سلطة الامبراطور من ٧١ الى ٨١ وكان مشهورا بكرم نفسه . وكان يلقَّب « ببهجة الجنس البشري » . اشارة الى الاسكندر الاول .
- — « ريفيه » : رفيق « اينيه » الذي يظهر في « الاينيد » لفرجيل ، النشيد الثاني .
- — « الالسيدين » : ابناء السيه ، لقب هرقل وذريته .
- — النشيد البولوني : « اقصف يا رعد النصر » : ألفه كوزلوفسكي سنة ١٧٩١ على مقطوعة للشاعر ديرجافين بمناسبة الوليمة التي اقامها الامير بوتمكين لكاترين الثانية في قصره في بطرسبرج .
- — « بولس ايفانوفتش كوتوزوف » : شاعر صغير من شعراء هذا العصر ، ولا قرابة له بالجنرال غولينستشيف كوتوزوف .
- — « سوكونيكي » : غابة في ضاحية موسكو الشمالية الشرقية .
- — « كوستروما » : مدينة من مدن المقاطعات على الفولجا الاعلى ، في بقعة كثيرة الشجر .
- — « الفروشتيك » : عن الالمانية « فروشتوك » : طعام الفطور .
- — « امام القديس » : ايقونة القديس نيقولا ، شفيع الامير العجوز .
- — « كيشينيف » : مدينة في بيسربيا اقام فيها الامير بولكونسكي مع زوجته في عهد كاترين الثانية .
- — « قطعة الشمع التي تحمل شعره له تسل لكنها طفت » : العلامة التي تدل على أن الولد لن يموت بحسب احدى الخرافات الشعبية .
- — « خطوة الشال » : رقصة شائعة في العصر .

- — « حفلات جوغل الراقصة » : جوغل كان معلما للرقص ، من أصل ألماني .
- — « اغراء الهر فاسكا » : فاسكا هو الاسم الشائع الذي يطلق على الهررة وهو أيضا تصغير « فاسيلي » اسم دينيوف .
- — « يا حبي القاسي » : من كلام مفتي القوارب الإيطاليين . تغنيه ناتاشا .
- — « ترجك » : مدينة صغيرة على الفولغا الأعلى ، مرحلة على طريق موسكو الى بطرسبرج ؛ وكانت مدابغها مشهورة .
- — « رواية بأسلوب الرسائل لمدام دي سوزا » : أديل ماري ايميلي (١٧٦١ - ١٨٣٦) كونتيسة فلاهو ، وفي زواجها الثاني الماركية دي سوزا، نشرت عددا من الروايات التي تصف اخلاق الارستقراطية في القرن الثامن عشر .
- — « شعار الماسونية » : انتشرت الماسونية انتشارا كبيرا في روسيا في عهد كاترين الثانية وحتى الثورة الفرنسية ؛ ولكن ما ان ارتابت الامبراطورة في أن الماسونيين يحملون أفكارا هدامة حتى منعت محافلهم . وفي عهد خلفها بولس الاول - الذي قيل عنه أنه من الماسونيين - انطلقت المحافل من جديد وازدهرت في عهد الاسكندر الاول .
- — « اوسيب اليكسييفتش بازديف » : اسم مكون على غرار اسم الماسوني الشهير : اوسيب « يوسف » بوزديف .
- — « من زمن نوفيكوف » : نيقولا ايفانوفتش نوفيكوف (١٧٤٩ - ١٨١٨) كاتب وناشر لمجلات هجائية وتاريخية ، انساني وماسوني ، حكم عليه في سنة ١٧٩٢ بالسجن في حصن شلوسيلبورج ، أخلى سبيله بولس الاول في ١٧٩٦ .
- — « توماس يملك كمين » : توماس هيميركن (١٣٧٩ - ١٤٧١) ولد في كمين ، ومن هنا اسمه ، كاتب صوفي ألماني ؛ ينسب اليه عامة كتاب الاقتداء بالمسيح .

- — « الكونت البولوني الشاب ويلارسكي » : اسم مكون على غرار اسم .
- — « الكونت ميشيل ويلفورسكي » (١٧٨٨ – ١٨٥٦) ، وهو من أصل بولوني ، شخصية مثقفة مولعة بالموسيقى ، وقد لعب دورا كبيرا في مجتمع بطرسبرج .
- — « غلوغو » : مدينة صغيرة في سيليزيا ، واليها انسحب ملك بروسيا مع فلول جيشه بعد هزيمة ايننا واستيلاء الفرنسيين على برلين في ١٨٠٦ .
- — « بينيفسن ينتصر على نابوليون في ايلو انتصارا كاملا » : ليونس بينيفسن (١٧٤٥ – ١٨٢٦) ، اصله من هانوفر ، انتقل الى خدمة روسيا منذ ١٧٧٣ ، رفق الى جنرال في ١٧٩٢ ، والى قائد عام للجيش الروسي في ١٨٠٧ . اما معركة « بروسيس ايلو » الدامية في ٨ شباط ١٨٠٧ فقد كانت مترجحة ؛ لقد كان كلا الخصمين ينسب النصر الى نفسه .
- — « بين بروزوروفسكي وكامنسكي » : الامير اسكندر بروزوروفسكي (١٧٣٢ – ١٨٠٩) ابلى بلاء حسنا في حرب السنوات السبع وحرب القرم . احيل على التقاعد منذ ١٧٩٧ ثم استدعي في ١٨٠٧ وقاد زمنا الجيش في حملته على تركيا قيادة لا تخلو من الخرق . اما عن الكونت كامنسكي فانظر في الكتاب الرابع ، حاشية رقم ١٩٣ .
- — « اوسترولتكا ... بولتوسك » : مدينتان صغيرتان في بولونيا الشمالية ، وكانتا في هذا الزمن تابعتين لروسيا .
- — « سوشاري » (وتلفظ سوكاري) : بسكويت للقطعات .
- — « لتحرير فلاحيه » : صدر عن الاسكندر الاول قرار قيصري بتاريخ ٢٠ شباط ١٨٠٣ بحث الملاكين على تحرير اقنانهم باعطائهم جزءا من الارض (مقابل اتاوات) وبجعلهم « زارعين احرارا » . وقد حرر الكونت سيرج روميانتسيف ، وهو الذي أعد هذا المشروع ، فلاحيه دون مقابل . لكن لم يقتد به الا القليلون : فخلال خمسين عاما لم تحرر سوى خمسين أسرة (من اربعة عشر مليوناً) .

- — « ايفانوشكا » : تصغير ايفان للتحجب .
- — « الى أين ذهبت ، الى كيف ؟ » : كان الناس يأتون من جميع أرجاء روسيا ليحجوا الى كيف ، الملقبة : « أم المدن الروسية » ، وليزوروا دير الاقضية الشهير حيث رفات الكهنة المحنطة .
- — « بيلاجيوشكا » : تصغير بيلاجي للتحجب .
- — « وبقيت نجمته معلقة عليها » : المقصود بها شارة هذا الجنرال .
- — « فصيل بلاتوف » : ما يتوبلاتوف (١٧٥١ — ١٨١٨) ، ضابط قوزاق الدون ، ذو بساطة عظيمة ، ابلى بلاء حسنا في جميع الحروب بدءا من ١٧٢٢ . أصبح زعيما لقوزاق الدون في ١٨٠١ ، وقد تميز بخاصة في المعارك ضد نابليون ؛ خلع عليه لقب كونت في ١٨١٤ .
- — « مغامرات اليوشا ... » : حكاية شعبية .
- — ال « سفايكا » : وتد يُغرز في الارض لتدخل فيه حلقات ترمى من بعيد .
- — « في شهر حزيران وقعت معركة فريدلاند » : معركة جرت قرب كوتسبرج ببروسيا ، في ١٣ حزيران ١٨٠٧ ؛ وانتهت بانتصار تام لنابليون على بينيفسن وانتهت معركة ١٨٠٧ .
- — « في ١٣ حزيران التقى في تيلسيت امبراطور روسيا وفرنسا » : هذا اللقاء التاريخي في ٢٥ حزيران جرى على طوف ، وسط نهر النييمن .
- — « الكونت زيلنسكي (الفظها جيلنسكي) » : اسم بولوني . « كتيبة من فوج يريوبراجنسكي » : اول فوج من مشاة الحرس شكله بطرس الاكبر في ١٦٨٧ .
- — « الامير كوزلوفسكي » : انظر الكتاب الرابع ص ١٩٩ .
- — « الامبراطور الكسندر قصد الى ايرفورت من أجل مقابلة ثانية مع الامبراطور نابليون » : مقابلة ايرفورت هذه ، في تورنج ، جرت في ٢٧ ايلول ١٨٠٨ . واعياد ايرفورت تشكل بالنسبة الى نابليون ذروة عظمته .

- - « زواج بين نابليون وأحدى أخوات الامبراطور الكسندر » : في سنة ١٨٠٨ ، كان نابليون مستعدا لان يتزوج الدوقة الكبرى كاترين (١٧٨٨ - ١٨١٩) ، لكن الامبراطورة الوالدة ماريا فيدوروفنا اسرعت فزوجتها في ١٨٠٩ بالدوق الاكبر دولندبورج .
- - « ريازان » : عاصمة مقاطعة على الاوكا ، في الجنوب الشرقي من موسكو .
- - « كان سبيرانسكي الشاب في أوج مجده » : ميشيل ميكاييلوفتش سبيرانسكي (١٧٢٢ - ١٨٣٩) ، ابن كاهن ، كان استاذاً في البداية ، ثم انكشف انه رجل دولة مرموق . عين وزير دولة في ١٨٠١ ، بفضل الكونت كوتشوبي ، فوضع القوانين الليبرالية ومشروعاً واسعاً للدستور . اتهم بأنه يسند نابليون فنفي في ١٨١٢ ، ثم عين حاكماً لينزا ، وحاكماً عاماً لسبيريا الشرقية في ١٨١٩ . وعندما عاد الى العاصمة في ١٨٢١ ، ادار لجنة التشريع ، لكنه لم يسترد التأثير الذي كان له على الاسكندر الاول .
- - « الفاء مراتب البلاط » : لم يحسن تولستوي التعبير ؛ فمراتب البلاط لم تلغ ، لكنها اُخليت من أي تعويض ، وظلت فخرية خالصة .
- - « الامتحانات لمرتبة استاذ مساعد ووزير دولة » : اُنشئت بناء على مبادرة سبيرانسكي امتحانات الى المرتبة الثامنة والخامسة من المراتب المدنية .
- - « لكن دستوراً بأكمله » : اعد سبيرانسكي ، في الواقع ، خطة واسعة للنظام البرلماني مع مجلسين : مجلس الدولة الذي افتتح في اول كانون الثاني ١٨١٠ ومجلس النواب (دوما الدولة) الذي لم يدع الا بعد قرن أي في ١٩٠٦ .
- - « سيلاندريتش » : بدلا من اليكسي اندرييتش . واسم سيلاندريد النادرة - يعني في الروسية : قوة .
- - « الكونت كوتشوبي » : فيكتور كوتشوبي (١٧٦٨ - ١٨٣٤) صديق

شباب الاسكندر الاول ، وزير الداخلية من ١٨٠٢ الى ١٨٠٧ ،
نبيل ليبيرالي .

● — « م. ماغنيتزكي » : ميشيل ليونفتش (١٧٧٨ — ١٨٥٥) ابن
كاهن ، وفي مبتدا امره مساعد لسبيرانسكي ؛ وقد نفى في ١٨١٢
الى فولوغدا وعاد في ١٨١٦ . انتقل الى الرجعية وعين في ١٨١٩
قيما على جامعة قازان حيث خنق كل فكر ليبرالي .

● — « رئيس قسم في لجنة التشريع » : كانت روسيا مدارة ، طوال
القرن الثامن عشر كله ، بقانون اليكسي الذي يرجع تاريخه الى
١٦٤٩ ، وبآلاف القرارات القيصرية المتناقضة في الغالب . وقد
فشلت محاولة كاترين الثانية في وضع قانون جديد ، عام ١٧٦٩ .
فحاول سبيرانسكي أن يجهز روسيا بقوانين حديثة ، مستلهما
بخاصة التشريع النابولوني . لكن المشروع أخفق ، ولم يشرع
سبيرانسكي في انشاء « مجموعة قوانين الامبراطورية الروسية »
التي نشرت سنة ١٨٣٥ في ستة عشر مجلدا ، الا بدءا من ١٨٢٦ ،
وهي شاهدة على فكر أشد محافظة ، فرضه نيقولا الاول .

● — « الحلقة الفرنسية للكونت روميا تتريف وكولنكور » : عن الكونت
روميا تتريف انظر الحاشية ص ٤٦ من الكتاب الرابع . أما المريكز
لويس دي كولنكور (١٧٧٢ — ١٨٢٧) ، فهو أرستقراطي انضم
الى نابليون ، سفير في روسيا من ١٨٠٨ الى ١٨١١ ، نصير صادق
للتحالف الفرنسي الروسي ومؤلف « مذكرات » قيمة .

● — « أمير دي لينيني الشهير » : من مواليد بلجيكا ، خدم في الجيش
النمساوي ، ثم في روسيا في عهد كاترين الثانية وكان صديقا
لجوزيف الثاني . كاتب ورجل مجتمع غني الفكر ، مات في فيينا .

● — « والحياة كانت نور الناس ... » : هذا المقطع هو من أنجيل يوحنا
(١ ، ٤ — ٥) .

● — « في حرب فنلندا » : انتهت هذه الحرب (١٨٠٨ — ١٨٠٩) بالاستيلاء
الكامل على فنلندا التي منحها الاسكندر الاول دستورا ليبراليا
وأعتبرها دوقية كبيرة ، متحدة اتحادا ذاتيا مع الامبراطورية .

- — « على الرصيف الانكليزي » : رصيف جميل على النيفا ، وسط العاصمة .
- — « بستان توريد » : يحيط بالقصر الذي يحمل الاسم نفسه ، وكان يملكه غريغوار بوتمكنين ، امير توريد (في القرم) ؛ وكان حينذاك مقرا للامبراطورة والدة ماري .
- — « ماري انتونوفنا » : ماري ناريشكين زوجة دم تري لفوفتش ناريشكين . وقد ظلت هذه البولونية الجميلة زمنا طويلا الصديقة الوفية للاسكندر الاول الذي كانت زوجته اليزابيت معتلة ولا تخرج الا نادرا .
- — « رجل اسمر جميل جدا ... في بزة بيضاء » : هي بزة الدارعين والحرس والفرسان .
- — « جلسة المجلس الامبراطوري الاولى » : كانت في اول كانون الثاني ١٨١٠ .
- — « البارون فيرهوف » شخص خيالي كَوّن اسمه على غرار اسم بارونات فيتسفوف .
- — « كان المدعوون جرفيه ، ماغنيتزكي وستولييين » : جرفيه كان موظفا من اصل فرنسي . وبالنسبة الى ماغنيتزكي انظر حاشية ص ٢١١ . اما ستولييين (١٧٨٥ - ١٨٢٧) ، فقد أصبح جنرالا . وكان ابنه آرКАД (١٨٢١ - ١٨٩٩) صديقا لتولستوي اثناء الدفاع عن سيباستوبول ؛ وقد تزوج الاميرة ناتالي غورثاكوفا وهي ابنة عم بعيدة للكاتب ، وابنهما بطرس اركا ديفتش كان رئيسا للوزراء في عهد نيقولا الثاني .
- — « سقط في تركيا » : بدأت ضد تركيا حرب في تشرين ١٨٠٦ واستمرت حتى تموز ١٨١٢ .
- — « فيدوسيوشكا » : تصغير فيدوسيا للتجيب .
- — « للكونت غولوشوسكي ... لبانا برزازديكا ... » : ان فرسان بافلوغراد كانوا يقيمون في مكان ما ، في مقاطعة كييف ، حيث كان جميع الملاكين الكبار بولونيين . و « بانا » تعني في البولونية آنسة .

- — « كان البرد قارسا » : كان ذلك في أواخر شهر أيلول (١٤ اي ٢٦ حسب التقويم الجديد) . وفي هذا الشهر يكون الصقيع في روسيا قد حلّ .
- — « اوفاركا » : تصغير اوفار ، وهو اسم شديد الندرة .
- — « ليس من عوائق تقف في وجه الروسي » : بداية النشيد الى باغراتيون .
- — « البارنيا » : اي السيدة .
- — « برد العشرين درجة » كان القياس في روسيا بحسب ريومور ؛ اي ٢٥ درجة سيلزيوس .
- — « اثني ، أرجوك ، بديك ... اثني بالشوفان » : كانت اعياد الميلاد تمتد في الريف الى عيد الغطاس : كانوا ينظمون حفلات التنكر ، والرقصات ، وكانت الفتيات يتنبان بالغيب حسب التقاليد القديمة: كان على الديك ان ينقر الشوفان المعلم بطبشورة ، وكانوا يذوبون الشمع ، ويستطلعون المستقبل في بيت الحمامات الصغير المقفر ، ويبحثون عن صورة الخطيب الآتي في الصورة المنعكسة من مرآتين متقابلتين .
- — « جوقة حامل الماء » : أوبرا لشيروبيني كتبت في ١٨٠٠ .
- — « باشيت » : الشكل الفرنسي لباشا ، تصغير لاسم بيلاجي ميليوكوف . وكذلك ساشينيت وساشا « تصغير لاسم الكسندرا » .
- — « الامبراطور فرانسوا يتحرق » : تزوج نابليون في ١٨١٠ ماري لويز ابنة امبراطور النمسا . فلعل بطرس بيزوخوف يعد طلاق نابليون لجوزيفين غير شرعي .
- — « كنيسة عذراء ايبيريا هذه » : أرسلت ايقونة كبيرة للعذراء الى القيصر اليكسي من دير ايفرون (ايبيريا) في جبل آثوس ، ولقيت اجلالا عظيما واشتهرت بأنها عجائبية . وكانت كنيستها في ساحة كراسنايا بين الكرملين وكيتا يفورود .
- — « يحرضون استريه على الباحثين عن المن » : اسماء لمحافل ماسونية متعددة .

- « في موسكو أربعون أربعين كنيسة » : تعبير شعبي كان في موسكو بحسبه أربعون أربعين كنيسة . والحقيقة أن عدد الكنائس في المدينة لم يتجاوز المائتين .
- « يوم القديس نيقولا » : في ٦ كانون الاول .
- « الامير لوبوكين وابن اخيه » : بطرس فاسيلييفتش لوبوركين (١٧٥٣ - ١٨٢٧) ، نائب عام في ١٧٩٨ ، وزير العدم من ١٨٠٣ الى ١٨١٠ . كانت ابنته آن مخطبة بولس الاول . نال لقب امير في ١٧٩٩ .
- « مصادرة نابليون لاملاك دوق دودلنبرج الاكبر » : في بداية ١٨١١ استلحق نابليون دوقية دودلنبرج الكبرى ، ناقلا الى داخل ألمانيا ، الدوق الأكبر بطرس فريديريك ، زوج كاترين اخت الاسكندر الاول .
- « هراوة بطرس الاكبر العتيقة » : كان هذا الملك الشديد الصولة يحمل عصا كبيرة يضرب بها أصحاب المقامات العصاة أو المذنبين .
- « ليزا المسكينة » : أقصوصة عاطفية لكرامزين تصف حبا بائسا لفلاحة أغواها شاب نبيل ؛ نشرت في ١٧٩٣ ، ونالت نجاحا كبيرا في روسيا .
- « عند السيدة اوبر - شاليه » : تاجرة فرنسية كانت تدبر مخزنا مشهورا للزبائن في جادة « الفازيت » ؛ وفي سنة ١٨١٢ خطرت لنابليون فكرة غريبة وهي أن يسألها عن الاحتمالات التي يمكن أن يقدمها مرسوم لتحرير الفلاحين . غرقت في البريزينا بعد أن تبعت الجيش الكبير في انسحابه .
- « كان هذا الرجل دوبر » : انظر حاشية الصفحة . ٢ .
- « الأنسة جورج » : الممثلة الشهيرة في الكوميديا الفرنسية ، قامت بجولة في روسيا سنة ١٨١١ . (انظر الكتاب الرابع ص ٤٢) .
- « أغلق الباس وجلس الجميع » : تفضي التقاليد الروسية أن يجلس المرء ويخلد الى التأمل بضع لحظات قبل الرحيل .
- « كانوا يتحدثون عن سبيرانسكي الذي شاع في موسكو نيا نفيه » : كان سبيرانسكي متهما بأن له علاقات سرية مع الامبراطور ، مع أنه لم يكن سوى أحد المعجبين به ؛ توفي من بترسبرج في آذار ١٨١٢ .

خلاصة الفصول

الكتاب الثاني

الجزء الأول

الفصل الاول : وصول نيقولا روستوف ودينيسوف الى موسكو في عطلة . نفاذ صبر نيقولا عند اقترابه من موسكو ومن منزله . استقبال عائلته وصونيا له . آل روستوف يستقبلون دينيسوف . حديث نيقولا مع ناتاشا ، في صباح اليوم التالي . . . ٩

الفصل الثاني : مشاغل نيقولا روستوف في موسكو . هموم الكونت العجوز ايليا اندريفتش روستوف المكلف بتنظيم عشاء في النادي الانكليزي على شرف باغراتيون . حديث الكونت العجوز مع ابنه وآنا ميخائيلوفنا بشأن بطرس . الحالة النفسية في موسكو وفي النادي الانكليزي عند وصول نبأ معركة اوسترلتس . اسباب اختيار باغراتسيون بطلا . . . ٢٥

الفصل الثالث : في النادي الانكليزي قبل المادبة التي على شرف باغراتسيون . أعضاء النادي والمدعون . دينيسوف ، روستوف ، نيزفيتسكي ، بطرس . الاحاديث بين جماعات الشيوخ . وصول باغراتسيون واستقباله . تلاوة ابيات قيلت على شرف البطل . العشاء . الانتخاب . . . ٣٧

الفصل الرابع : اغتنام بطرس بيزوخوف اثناء العشاء وخواطره حول خيانة زوجته . مرح نيقولا . حادث طارىء بين بطرس ودولوخوف والدعوة الى المباراة . حديث دولوخوف وروستوف عن سر المباراة . الاستعدادات للمبارزة في اليوم التالي . حالة بطرس النفسية . محاولات فاشلة للمصالحة يقوم بها شاهد بطرس : دينيسوف ... ٤٧

الفصل الخامس : المباراة . بطرس يطلق النار ويجرح دولوخوف . روستوف ودينيسوف يوصلان دولوخوف الى منزل أمه .. ٥٧

الفصل السادس : حالة بطرس النفسية بعد المباراة . تأملاته حول زواجه وعلاقاته بأمراته . انه يقرر الذهاب الى بطرسبرج . وصول هيلين والاستفسار بشأن المباراة . انفجار غضب بطرس وقطيعته مع أمراته ٦٣

الفصل السابع : وصول نبأ معركة أوسترلنس وموت الأمير أندره الى ليسيبه خوري . الأمير المعجوز ينبيء بذلك الأميرة ماريا . الأميرة ماريا تمهد للأميرة الصغيرة قبل أن تخبرها بموت الأمير أندره ... ٧١

الفصل الثامن : خلاص الأميرة الصغيرة يبدأ . ردود أفعال الأميرة ماريا . مربيتها براسكوفي سافيشنا تأتي لتكون برفقتها . ردود أفعال الأمير المعجوز وسكان البيت في ليسيبه خوري . وصول الأمير أندره المفاجيء . التقاؤه بالأميرة ماريا .. ٧٧

الفصل التاسع : الأميرة أندره لدى زوجته . حالته النفسية . ولادة ابنه وموت الأميرة الصغيرة . الأمير أندره والأمير المعجوز . الدفن . عمادة الأمير الصغير نيقولا ... ٨٧

الفصل العاشر : نيقولا وروستوف المرافق العسكري لحاكم موسكو العام . التقارب بين نيقولا ودولوخوف اثناء نقاهة هذا الأخير . رأي أم دولوخوف في ابنها ورأي دولوخوف في نفسه . جو الحب في منزل آل روستوف . دولوخوف يشغف بصونيا . ٩٣

الفصل الحادي عشر : العشاء في منزل آل روستوف ، ، في عيد الميلاد سنة ١٨٠٦ . توتر خاص في جو الحب . ناتاشا تنبئ نيقولا بأن دولوخوف طلب يد صونيا وأنها رفضت . حديث نيقولا وصونيا بشأن طلب دولوخوف ...

٩٩

الفصل الثاني عشر : حفلة راقصة « للمراهقين » لدى « جوجل » حماسة شديدة تبديها ناتاشا وصونيا في هذه الحفلة . دينيسوف وناتاشا يرقصان رقصة المازوركا البولونية ...

١٠٥

الفصل الثالث عشر : سهرة الوداع لدى دولوخوف الذي يلتحق بالجيش . نيقولا روستوف يلتقي دولوخوف بعد رفض صونيا . دولوخوف يشرف على مال المقامرة . نيقولا يجلس الى طاولة القمار . بدأ يخسر ...

١١٣

الفصل الرابع عشر : اللعب يتركز على روستوف وحده . أفكار نيقولا روستوف عن خسارته . نهاية اللعبة : نيقولا يصبح مدينا لدولوخوف بثلاثة وأربعين ألف روبل . الحديث بين دولوخوف ونيقولا عن تسديد هذا المبلغ ...

١١٩

الفصل الخامس عشر : عودة نيقولا الى البيت - الشبيبة امام البيان القيثاري . دينيسوف يغني قصيدة « الساحرة » التي كتبها . الاسرة تلاحظ اغتنام نيقولا . ناتاشا تغني . أفكار نيقولا تحت تأثير غنائها .

١٢٥

الفصل السادس عشر : نيقولا روستوف يبرر سلوكه امام ابيه عن خسارته في القمار . ناتاشا تشرح لامها تصرفها امام عرض الزواج الذي عرضه عليها دينيسوف . حياة نيقولا في البيت قبل سفره الى الجيش

١٣٣

الجزء الثاني

الفصل الاول : بطرس يسافر الى بطرسبرج بعد استيضاحه امراته عن سلوكها . التوقف في مريبط الابدال بنورجك . افكار بطرس القائمة . وصول الماسوني بازديف الى المريبط ... ١٤٣

الفصل الثاني : حديث بازديف وبطرس . تغير حالة بطرس النفسية بعد رحيل الماسوني ... ١٤٩

الفصل الثالث : بطرس في بطرسبرج . وحدته وقراءة الكتب الماسونية . زيارة الكونت ويلارسكي . الاختبارات المفروضة على بطرس والطقوس التي تسبق قبوله في المحفل الماسوني ... ١٦١

الفصل الرابع : ١٧٣

الفصل الخامس : بطرس يتلقى زيارة الامير فاسيلي الذي يريد ان يصلحه مع هيلين . بطرس يطرده . رحيل بطرس الى املاكه . ١٧٩

الفصل السادس : الناس يلومون بطرس بسبب قطيعته لامراته ويستقبلون بخرارة هيلين عند عودتها الى بطرسبرج . سهرة عند آنا بافلوفنا شيرر في نهاية عام ١٨٠٦ . وصول بوريس دروبتزكوي الى السهرة . آنا بافلوفنا تقدمه لمذعوبها على انه بهجة السهرة . اهتمام هيلين بحكاية بوريس ... ١٨٣

الفصل السابع : نكتة هيوليت كوراجين عن ملك بروسيا حديث عن المكافآت المتوقعة . هيلين تدعو دروبتزكوي الى منزلها . التقارب بين بوريس وهيلين ... ١٩١

الفصل الثامن : نشاط الامير بولكونسكي بصفته قائدا عاما للميليشيا . حياة الامير آندره بعد حملة ١٨٠٥ . مرض نيقولا الصغير . الامير آندره والاميرة ماريا في غرفة الطفل . رسالة الامير المعجوز الى ابنه . ١٩٥

الفصل التاسع : رسالة يليبين الى الامير آندره عن حملة ١٨٠٦ .
الامير آندره واخته عند سرير الطفل . ازمة في مرض نيقولا الصغير وفرح
الامير آندره ...
٢٠٣

الفصل العاشر : بطرس في كييف . انه يدعو جميع وكلاء أعماله ويعلم
لهم عن نيته في تحرير الفلاحين . ميزانية بطرس . انه يعنى بأعماله مع
مدير أعماله . حياة بطرس الماجنة في كييف . في ربيع ١٨٠٧ ، يزور
ممتلكاته . مظاهر امتنان الفلاحين التي نظمها مدير أعماله . بطرس يتعجب
وبسذاجة من حسن صنيعه لفلاحيه ...
٢١٣

الفصل الحادي عشر : بطرس في بوغوتشاروفو عند بولكونسكي .
التقاؤه الامير آندره . تبدل في نفس الامير آندره . حديث حميم بين
بطرس والامير آندره حول حياة الانسان ومصره .
٢٢١

الفصل الثاني عشر : سفر الامير آندره وبطرس الى ليسيبه خوري .
بطرس يشرح الماسونية للامير آندره . حديث الصديقين فوق المعبر .
بداية حياة داخلية جديدة بالنسبة الى الامير آندره بعد زيارة بطرس
٢٣٧

الفصل الثالث عشر : الامير آندره وبطرس في ليسيبه خوري .
زيارتهم للاميرة ماريا وحديث مع « رجال الله » الاتقياء .
٢٤٥

الفصل الرابع عشر : حكاية المرأة الورعة . رأي الاميرة ماريا في الامير
آندره . وصول الامير العجوز . العلاقات الودية بين بطرس وعائلة
بولكونسكي بأسرها ...
٢٥٥

الفصل الخامس عشر : عودة نيقولا روستوف الى الفوج . الاحساس
بالسكينة الذي يشعر به حين يعود الى شروط الحياة المعتادة - معسكر
الفوج في بافلوغراد قرب بارتنستين . الجنود يأكلون جذور الماشكا .
صداقة روستوف ودينيسوف . قصة البولوني العجوز وابنته اللذين
انقلاهما نيقولا من المجاعة ...
٢٦١

الفصل السادس عشر : دينيسوف وروستوف مع فوجهما في المراكز
المتقدمة . خص الضباط . دينيسوف يستولي على قافلة مؤن مرسلة

الى فوج المشاة . دينيسوف يذهب الى الاركان ليسوي القضية ، يروي
انه لقي هناك تيليانين وانه ضربه وضرب موظفين آخرين في الاركان .
دينيسوف يحال الى مجلس حربي لاستيلائه على القافلة ، وفضيحة في
الاركان . جرح دينيسوف وادخله المستشفى .. ٢٦٩

الفصل السابع عشر : الهدنة بين الروس والفرنسيين بعد معركة
فريدلاند . نيقولا روستوف يعود دينيسوف في المستشفى . حديثه مع
الطبيب . يزور صالة الجنود . الاثر المؤلم الذي يحس به عند مراى
المرضى والجرحى ... ٢٧٩

الفصل الثامن عشر : روستوف في قاعة الضباط . يلتقي توشين
الذي فقد ذراعه . حالة جرح دينيسوف . دينيسوف يتلو جوابه للجنة
المكلفة بالتحقيق في قضية الاعتماد . دينيسوف يقرر ان يرسل الى
الامبراطور ، بواسطة روستوف ، استرحاما لطلب العفو ... ٢٨٧

الفصل التاسع عشر : روستوف يقصد تبليست من اجل قضية
دينيسوف . لقاء اسكندر الاول ونابليون في تبليست . بويرس دروبتسكوي
في حاشية الامبراطور . نجاحاته في عمله . زميله الكونت زيلنسكي يقيم
مأدبة عشاء لمعارفه الفرنسيين . وصول روستوف اثناء العشاء . الاحساس
الغريب الذي يحسه عند مراى الضباط الفرنسيين . حديثه مع بويرس
بشان قضية دينيسوف ... ٢٩٣

الفصل العشرون : نيقولا روستوف ، بالشباب المنية ، يهيم في شوارع
المدينة . تأملاته حول المسعى الذي سيقوم به لدى الامبراطور وتسليم
رسالة وينيسوف . روستوف في غرفة انتظار الامبراطور . يلتقي جنرال
خيالة يعرفه ويرجوه ان يسلم الرسالة الى الامبراطور . خروج الاسكندر
الاول . حماسة روستوف عند رؤية القيصر ... ٣٠١

الفصل الحادي والعشرون : لقاء ودي بين امبراطوري روسيا وفرنسا .
نابليون يمنح لازاريف احد جنود فوج بريوبراجنسكي وسام جوقه الشرف .
كتيبة من الحرس الفرنسي تقيم عشاء لكتيبة من فوج بريوبراجنسكي .

مخاض مؤلم يجري في ذهن روستوف عند مرأى الصداقة بين الاسكندر ونابليون ، وبين الروس والفرنسيين . نيقولا يتعشى في نزل . نزقه بمناسبة رأي ادلى به بعض الفرنسيين حول الصلح والتحالف مع الفرنسيين .

٣٠٩

الجزء الثالث

الفصل الاول : صداقة نابليون والاسكندر في سنة ١٨٠٨ - ١٨٠٩ . حياة الامير آندره بولكونسكي ومشاغله في املاكه . سفر الامير آندره الى املاك ابنه في ريازان . خواطره الحزينة عند مرأى سنديةانة عتيقة . ٣٢١

الفصل الثاني : الامير آندره يقصد منزل آلروستوف في اوتراندنوي . التقاؤه ناتاشا . الامير آندره يسمع ، بالرغم منه ، ناتاشا تحدث صونيا عن رغبتها في أن تطير الى السماء ... ٣٢٧

الفصل الثالث : عودة الامير آندره الى بيته . احساسه الربيمي بالفرح والتجدد عند مرأى السنديةانة العتيقة التي تغيرت هيئتها . يعتقد بإمكان تجدد الفعائية والسعادة والحب لديه ، ويقرر الذهاب الى بطرسبرج في الخريف .. ٣٢٣

الفصل الرابع : وصول الامير آندره الى بطرسبرج . اصلاحات سبيرانسكي وذروة مجده . الامير آندره يستقبله آراكشيف ... ٣٢٧

الفصل الخامس : شعور الامير آندره حول المعركة المدنية الضخمة التي تدبر في بطرسبرج . احتفاء مختلف حلقات المجتمع الراقى في بطرسبرج . الامير آندره لدى الكونت كوتشوبي . التقاؤه بسبيرانسكي وحديثهما ... ٣٤٣

الفصل السادس : مشاغل الامير آندره في بطرسبرج . الاثر الذي أحدثه فيه سبيرانسكي . تعيين الامير آندره عضوا في لجنة النظام العسكري وفي لجنة القوانين ... ٣٥٣

الفصل السابع : بطرس على رأس الماسونية في بطرسبرج . انه راض عن نشاطه الماسوني . يسافر الى الخارج ليطلع على اسرار الماسونية . عودته الى بطرسبرج . جلسة رسمية للمحفل الماسوني . خطاب بطرس والانفعال الذي يثيره في المحفل . القطيعة بين بطرس وماسونيين بطرسبرج ... ٣٥٩

الفصل الثامن : سويداء بطرس . يقصد موسكو ليرى يوسف اليكسيفتش . مذكرات بطرس . مصالحته لامراته ... ٣٦٧

الفصل التاسع : حلقات من المجتمع الراقي في بطرسبرج . الحلقة الفرنسية نصيرة التحالف مع نابليون : الكونت روميا نتزيف وغولنكور . هيلين مركز هذه الحلقة . صالونها . دور بطرس في صالون امراته . الالفة بين هيلين وبوريس دروبتزكوي . مشاعر بطرس ازاء بوريس . ٣٧٣

الفصل العاشر : مذكرات بطرس بيزوخوف ... ٣٧٩

الفصل الحادي عشر : وصول آل روستوف الى بطرسبرج . انتماؤهم في بطرسبرج ، الى مجتمع خليط وغير محدد جيدا . بيرج يطلب يد فيرا . نجاح بيرج في مهنته . حيرة آل روستوف امام طلب بيرج وموافقتهم . بيرج يتفاهم مع الكونت المعجوز على المهر . ٣٨٧

الفصل الثاني عشر : ناتاشا في بطرسبرج . زيارة بوريس دروبتزكوي التقاؤه ناتاشا والانطباع الذي تركته فيه . بوريس عاشق لناتاشا . ٣٩٣

الفصل الثالث عشر : في غرفة الكونتيسة . زيارة ليلية لناتاشا وحديث بين الام وابنتها حول بوريس . تأملات ناتاشا حول نفسها . ٣٩٧

الفصل الرابع عشر : حفلة راقصة في رأس السنة الجديدة لدى أحد النبلاء من عهد كاترين . وصول المدعوين . الاستعدادات في منزل آل روستوف . انفعال ناتاشا قبل دخولها اول حفلة راقصة كبرى . استعدادات الوصيصة الملكية المعجوز الانس بيرونسكي . ٤٠٥

الفصل الخامس عشر : وصول ناتاشا الى الحفلة الراقصة . الانطباع الذي أحدثته في ربة المنزل وبعض المدعوين . الانسة بيرونسكي تسمى لال روستوف الشخصيات الحاضرة . بطرس والامير آندره في الحفلة الراقصة ... ٤١٣

الفصل السادس عشر : وصول الاسكندر الى الحفلة الراقصة . الامبراطور يفتح الرقص . اغتمام ناتاشا لانها لم تكن بين أوائل الراقصين . الفالس . الامير آندره يدعو ناتاشا . انتعاش الامير آندره ... ٤١٩

الفصل السابع عشر : ابتهاج ناتاشا التي ترقص طوال السهرة . الانطباع الذي أحدثته في الامير آندره . اغتمام بطرس اثناء الحفلة الراقصة . ٤٢٧

الفصل الثامن عشر : حالة الامير آندره النفسية بعد الحفلة الراقصة . بيتزكي يحدثه عن جلسة المجلس الامبراطوري . لا مبالاة الامير آندره . بولكونسكي يتعشى عند سبيرانسكي . الامير آندره يخيب ظنه بسبيرانسكي ونشاطه ... ٤٣١

الفصل التاسع عشر : بيرج يدعو بطرس الى سهرته . بيرج وفيرا في منزلهما بانتظار المدعوين . وصول بطرس وبوريس وآخرون . ٤٣٩

الفصل العشرون : زيارة الامير آندره لال روستوف . انه يلجأ الى عالم ناتاشا الخاص . ناتاشا تغني . خواطر الامير آندره بعد زيارته . ٤٤٣

الفصل الحادي والعشرون : ناتاشا والامير آندره في سهرة بيرج . ملاحظات بطرس حولهما . محادثة فيرا والامير آندره عن العواطف وعن ناتاشا وعن الوان الحب الطفولي مع بوريس . انتعاش الامير آندره . ٤٤٩

الفصل الثاني والعشرون : الامير آندره يقضي نهاره في منزل آل روستوف . توجس آل روستوف انتظارا لامر خطير سيقع . حديث

ناتاشا وامها بشأن الأمير آندره وبشأن المواقف التي تشعر بها ازاءه .
حفلة استقبال لدى هيلين . اعتماد بطرس . الأمير آندره يسرّ الى
بطرس بحبه لناتاشا وبعزمه الثابت على الزواج بها . بطرس يبتهج
بسماعة صديقه ...
٤٥٥

الفصل الثالث والعشرون : الأمير آندره يذهب ليطلب موافقة أبيه
على زواجه . الأمير المعجوز يطرح تأجيل الزواج سنة كشرط مطلق .
ناتاشا تنتظر الأمير آندره عبثا . ناتاشا في أحسن حالات الإعجاب بذاتها
والحب لها . وصول الأمير آندره . يطلب يد ناتاشا . انفعال ناتاشا
وبكاؤها . غمّها عندما علمت بتأجيل الزواج .
٤٦٣

الفصل الرابع والعشرون : علاقات الأمير آندره وناتاشا بعد خطبتهما .
أسرة روستوف تألف بولكونسكي . موقف الأسرة من الخطيبين . وداع
ناتاشا والأمير آندره ...
٤٧٥

الفصل الخامس والعشرون : تدهور صحة الأمير المعجوز بولكونسكي،
وتفاهم حدة طبعه . سخطة على الأميرة ماريا يزداد . رسالة الأميرة ماريا
الى جوليا كاراتجين ...
٤٨١

الفصل السادس والعشرون : الأميرة ماريا تتلقى رسالة من أخيها
ينبئها فيها عن خطبته للآنسة روستوف ويسألها أن تتدخل مع أبيه
لتقريب الموعد المحدد . سخط الأمير المعجوز على ابنه واعتزامه الزواج
بالآنسة بورين . الأميرة ماريا تحلم بترك عائلتها وهموم الأمور الأرضية
لتهيم على الطرقات ...
٤٨٧

الجزء الرابع

الفصل الاول : تأملات المؤلف حول الفراغ . خدمة نيقولا روستوف في فوج بافلو غراد . رسائل أسرته التي تحدثه عن ثروتهم المعرضة للخطر وتدعوه الى الرجوع . تخوف نيقولا من فكرة وجوب ترك شروط الحياة التي اعتادها . رسالة الكونتيسة العجوز الى ابنها وعزم هذا على طلب اجازة . زملاؤه يحتفلون بمناسبة سفر روستوف . وصول نيقولا الى اوترادنوي . حديث نيقولا وناتاشا بشأن الامير آندره ... ٤٩٥

الفصل الثاني : تدخل نيقولا في شؤون العائلة المالية ، تصفية الحسابات مع ميتنكا . تفاهم الكونت العجوز مع ابنه . نيقولا يمزق صكاً مالياً موقعا من آنا ميخائيلوفنا ... ٥٠٣

الفصل الثالث : وقت مناسب للصيد . استعدادات نيقولا . حديثه مع دانيلو . ناتاشا تنبئ أخاها بتصميمها على مرافقته ... ٥٠٧

الفصل الرابع : آل روستوف يمارسون الصيد في الحقول . التقاؤهم بعمهم . الكونت العجوز في الصيد . محادثته مع سيميون تيشيكمار بصد ابنه وابنته . ايليا آندريتش يترك ذئبا يفلت منه . سخط دانيلو على الكونت العجوز ... ٥١٣

الفصل الخامس : نيقولا يترصد . دعاء نيقولا . مطاردة الذئب . ٥٢٣

الفصل السادس : الصيد يستمر . مطاردة ثعلب . حادث بين أحد صائدي روستوف وصيادي ايلاغين . نيقولا يلتقي جاره ايلاغين . آراء الصيادين في كلابهم . مطاردة مشتركة لارنب . انفعال الصيادين . ٥٣١

الفصل السابع : نيقولا وناتاشا في منزل العم . آنيسيا فيدوروفنا ووجبتها . العم ميشيل نيكانوروفتش . ميكا يعزف على البلايكا . العم يعزف على القيثارة . رقصة ناتاشا . العم يغني . عودة نيقولا وناتاشا الى البيت ...
٥٤٥

الفصل الثامن : تردّي احوال آل روستوف . الحديث يجري عن بيع منزل الاجداد وبيع الممتلكات التي في ضواحي موسكو . الكونتيسة المعجوز تنوي تزويج نيقولا بوريطة غنية بغية اصلاح الوضع . حديثها مع انها حول زواجه بجوليا كاراجين . رفض نيقولا وتقرّبه من صونيا .
٥٦١

الفصل التاسع : عيد الميلاد عند آل روستوف . حالة ناتاشا النفسية حزنها بشأن خطيبها « وشيطناتها » .
٥٦٧

الفصل العاشر : نيقولا وصونيا وناتاشا في غرفة التدخين . استذكار الماضي . حديث عن الازلية . غناء ناتاشا وبكاؤها . وصول المتكرين ورقصاتهم . نيقولا وناتاشا وصونيا وبيتيا يتفكرون بدورهم ويقررون الذهاب الى منزل الجيران . بهجة عيد الميلاد لدى الشبيبة . سباق بالعربات ...
٥٧٥

الفصل الحادي عشر : شباب آل روستوف في منزل آل ميليكوف . رقصات المتكرين والعاثم . حماسة خاصة لدى صونيا . تذهب الى مخزن الحبوب لتستطلع مستقبلها . التقاؤها بنيقولا في الخارج .
٥٩١

الفصل الثاني عشر : عودة شباب آل روستوف الى البيت . نيقولا ينسّر الى ناتاشا بنيتها في أن يتزوج صونيا واستحسان ناتاشا . احلام السعادة لدى الصديقتين . ناتاشا وصونيا تستطلعان المستقبل .
٥٩٩

الفصل الثالث عشر : نيقولا يعلن لأمه قراره في أن يتزوج صونيا . مقاومة الكونتيسة ولومها لصونيا . تعليل نيقولا لتصرفه وخلافه مع أمه . تدخل ناتاشا . سفر نيقولا الى الجيش . سفر الكونت المعجوز وناتاشا وصونيا الى موسكو .
٦٠٥

الجزء الخامس

الفصل الاول : تبدل في حياة بطرس بعد خطبة آندره وناتاشا ، وقطيعته مع الماسونيين . يتردد على النادي وعلى حلقات العزّاب . سفره الى موسكو . لقاء المجتمع الودي وحياته في موسكو . تأملات بطرس بصدد حياته التي لا ترضيه ... ٦١٣

الفصل الثاني : وصول الامير العجوز بولكونسكي وابنته الى موسكو . الامير في دور زعيم المعارضة الموسكوفية للحكومة . الحياة الشاقة التي تحياها الاميرة ماريا في موسكو . وحدتها ، الالفة المتزايدة بين الامير العجوز والآنسة بورين . سخط الامير العجوز على ابنته بسبب ردها النزق على الفرنسية ... ٦٢١

الفصل الثالث : عيد الامير نيقولا آندرئتش . زيارة الطبيب الفرنسي ميتفيه . الامير يطرده . غضب الامير العجوز على ابنته بسبب ميتفيه . العشاء . المدعوون : روستوبتشين ، الامير لوبوكين ، بطرس ، بوريس دروتزكوي . حديث عن ضروب السياسة الجديدة ... ٦٢٧

الفصل الرابع : حديث بطرس مع الاميرة ماريا عن بوريس دروتزكوي وانتواء بوريس الزواج . صراحة عفوية للاميرة ماريا عن نفسها . تسأل بطرس عن ناتاشا ... ٦٣٧

الفصل الخامس : بوريس يتردد بين فتاتين غنيتين صالحتين للزواج : جوليا والاميرة ماريا . جوليا كاراجين . مزاج بوريس وجوليا السوداوي . قصائد . آنا ميخائيلوفنا تستعلم عن المهر . بوريس يطلب يد جوليا . ٦٤٣

الفصل السادس : وصول الكونت ايليا آندرئتش روستوف مع ناتاشا
وصونيا . ماريما دميتريفنا آكرميسوف تستقبلهم . حديث ماريما
دميتريفنا مع ناتاشا ... ٦٥١

الفصل السابع : زيارة الكونت العجوز وناتاشا للامير نيقولا آندرئتش
بولكونسكي . الاميرة ماريما تستقبلهما . ايليا آندرئتش يترك ناتاشا معها .
ناتاشا تشعر بالاهانة من استقبال الاميرة لها . اقبال الامير العجوز
بمبذله . سفرها مع ابيها . بكاء ناتاشا ... ٦٥٧

الفصل الثامن : استعدادات آل روستوف الذين يذهبون الى الاوبرا .
خواطر ناتاشا بصدد الامير آندره وجبها له . الوصول الى المسرح .
ناتاشا وصونيا تثيران الاهتمام العام . بوريس مع جوليا وآنا ميخائيلوفنا ،
دولوخوف . شنشين في شرفة آل روستوف . هيلين ... ٦٦٣

الفصل التاسع : رفع الستار . انطباعات ناتاشا . انتشاء ناتاشا .
آنانول كوراجين في شرفة هيلين . بطرس امام شرفة آل روستوف .
الانطباع الذي أحدثته ناتاشا في كاراجين . حديث هيلين مع الكونت
العجوز . ناتاشا تنتقل الى شرفة هيلين . الفصل الثالث ... ٦٧١

الفصل العاشر : هيلين تقدم ناتاشا لأخيها آنانول . حديث بين
آنانول وناتاشا . احساس بالالفة معه تشعر به ناتاشا . انصراف آل
روستوف من المسرح . قلق ناتاشا في البيت وافكارها بصدد ماجرى . ٦٨١

الفصل الحادي عشر : حياة آنانول كاراجين في موسكو . حديثه مع
دولوخوف بشأن ناتاشا ... ٦٨٧

الفصل الثاني عشر : قلق ناتاشا على اثر زيارتها لبولكونسكي وسهرتها
في المسرح . ماريما دميتريفنا تذهب الى منزل الامير العجوز بولكونسكي .
هيلين تأتي لترى ناتاشا وتدعوها الى سهرتها . عودة ماريما دميتريفنا . ٦٩١

الفصل الثالث عشر : الكونت العجوز مع ناتاشا وصونيا في سهرة الكونتيسة بيزوخوف . الأنسة جورج تلقي أبيتا . آتاتول يفاضل ناتاشا . رقصات . قبله . ناتاشا تتساءل عند عودتها الى البيت : ايهما تحب ، الامير آندره أو آتاتول ... ٦٩٧

الفصل الرابع عشر : ماريما دميتريفنا تروي لناتاشا وللكونت العجوز زيارتها لبولكونسكي وتنصحها بالعودة الى الريف لينتظرا فيه الامير آندره . الة الاميرة ماريما الى ناتاشا . مسألة لا حل لها مطروحة على ناتاشا . نى من آتاتول رسالة غرام ... ٧٠٣

الفصل الخامس عشر : صونيا تقرأ رسالة آتاتول . استفسارها مع صديقتها عن ذلك ناتاشا تحدث صونيا عن حبها لكاراجين . رسالة ناتاشا الى الاميرة . لفصم الخطبة بالامير آندره . تبرير كاراجين وانتواؤها الهرب انفعال صونيا التي ارتابت بأن ناتاشا تريد الهرب ... ٧٠٩

الفصل السادس عشر : آتاتول عند دولوخوف . مشروع اختطاف الأنسة روستوف . حديث دولوخوف مع آتاتول حول مشروعه وصول الحوذي « بالاغا » وحديثهما معه ... ٧١٩

الفصل السابع عشر : استعدادات آتاتول . وداعه لزملائه . حادث الفروة . الرحيل . فشل محاولة اختطاف ناتاشا ... ٧٢٩

ثامن عشر : ناتاشا تكتشف . استفسار ماريما دميتريفنا لها . كونت العجوز . يأس ناتاشا ... ٧٣٥

الفصل التاسع عشر : ماريما دميتريفنا تستدعي بطرس برسالة . التقاء بطرس بآتاتول . ماريما دميتريفنا تنبئ بطرس بفسخ خطبة ناتاشا والامير آندره وبمحاولة الاختطاف ، وتطلب اليه ان يأمر آتاتول بمغادرة موسكو . بطرس يخبر ناتاشا بان آتاتول متزوج . ٧٤١

الفصل العشرون : بطرس يبحث عن آناطول في أرجاء المدينة ثم يجده
عند امراته . استفسار بطرس لآناطول ... ٧٤٧

الفصل الواحد والعشرون : بطرس عند السيدة آكروميسوف .
ناتاشا تحاول أن تسمم نفسها . مرضها . الشائعات في المدينة حول
محاولة اختطاف الأنسة روستوف . وصول الأمير آندره . أبوه يسلمه
رسالة فسخ الخطبة التي أرسلتها ناتاشا . بطرس عند آل بولكونسكي .
نقاش سياسي . حديث بين الأمير آندره وبطرس بصدد رفض ناتاشا .
انتعاش الأمير العجوز وفرح الاميرة ماريا أمام فشل زواج الأمير آندره . ٧٥٣

الفصل الثاني والعشرون : بطرس لدى آل روستوف . التقاؤه بناتاشا
وحديثهما . الشعور بالرافة والحنان والحب الذي يشعر به ازاء ناتاشا .
بطرس ينمّ على دخيلته بالرغم منه . بكاء ناتاشا . بطرس اثناء طريق
المودة . مذنب ١٨١٢ وحالة بطرس النفسية ... ٧٦١

ليون تولستوي



الاعمال الادبية الكاملة

باصدار هذا المجلد ، الخامس من خمسة
عشر مجلدا ، تمضي وزارة الثقافة والارشاد
القومي في نشر الاعمال الادبية الكاملة لتولستوي
مترجمة عن النص الفرنسي لهذه الاعمال، الذي
نشرته دار Rencontres في لوزان بسويسرا .

ويقوم بترجمة الاعمال الكاملة احد كبار
المترجمين الى اللغة العربية الدكتور سامي
الدروبي الذي اشتهر بتملكه اللغة العربية .

وامانته في الترجمة وكفاءته في نقل ارواح
الاعمال الادبية الى اللغة العربية ، بأسلوبه
الاخاذ .